عبد الله حنا

من الجبل العلوي إلى عاصمة بني أمية

دروب الكفاح للطلائع اليسارية ودور دانيال نعمة ورفاقه



1945 . . . 1970

دراسة في الواقع الاقتصادي الاجتماعي والفكري السياسي

من الجبل العلوي إلى عاصمة بني أمية
دروب الكفاح للطلائع اليسارية
ودور دانيال نعمة ورفاقه
1970 – 1945

من الجبل العلوي إلى عاصمة بني أمية
دروب الكفاح للطلائع اليسارية
ودور دانيال نعمة ورفاقه
1945- 1970

المؤلف: عبد الله حنا
تقديم: عدنان بدر حلو
الغلاف: الفنان رائد خليل
التصحيح الطباعي: عبد الله الصباغ
الناشر: دار الفارابي
(لبنان، بيروت، وطى المصيطبة، شارع جبل العرب، ص. ب. 13/3181، E-mail:farabi@inco.com.lb)

طبعة خاصة – كانون الثاني 2014



العلم . العدد ٧٩٥ — الثلاثاء ٣ آب ١٩٤٩

مصايفنا

لو أتيح لك ان تحكم العالم (٤٨) ساعة فماذا تفعل ؟

فصول من قانون العقوبات الجديد

صوت الجامعة

الخطوط الجوية العراقية

دانيال نعمة – كلية الحقوق

اني اكره ان احكم وحيداً في بيتي ووطني فكيف لا اكره ان احكم وحيداً في العالم ، ولكن لو صدق هـذا الحلم لافهمت شعوب الشرق اني حكمت الاستعمار بالاعدام ، وشعوب العالم اني حكمت الاستثمار بالاعدام ولتركت مهمة التنفيذ لهذه الشعوب

إجابة دانيال نعمة على استفتاء العدد 795 من جريدة (العلم)، الصادر يوم الثلاثاء في 3 آب عام 1949



الجمهورية العربية السورية
وزارة الداخلية
مديرية الأحوال المدنية

الاسم فؤاد
النسبة عبود
الجنسية عربية سورية
محل وتاريخ الولادة
الأب
الأم
المهنة
محل القيد
الوضعية العائلية
نظمت بتاريخ
أمين السجل المدني
توقيع

الشكل
القامة
الشعر اسود
العينان
الأنف
اللون
العلامات الفارقة

تنبيه :
على كل سوري ان يطلب منذ بلوغه سن الخامسة عشرة في خلال عام الى أمين السجل المدني في مكان اقامته اعطاءه تذكرة هوية (المادة ٧٠ من قانون الاحوال المدنية رقم ٣٧٦ تاريخ ١٩٥٧/٤/٢) .

تجدد تذكرة الهوية كل عشرة اعوام مرة ويمكن تجديدها في كل مرة يقتضي اجراء تعديل فيها (المادة ٧٤ من القانون المذكور) .

انتقال المسكن

اختام الانتخابات

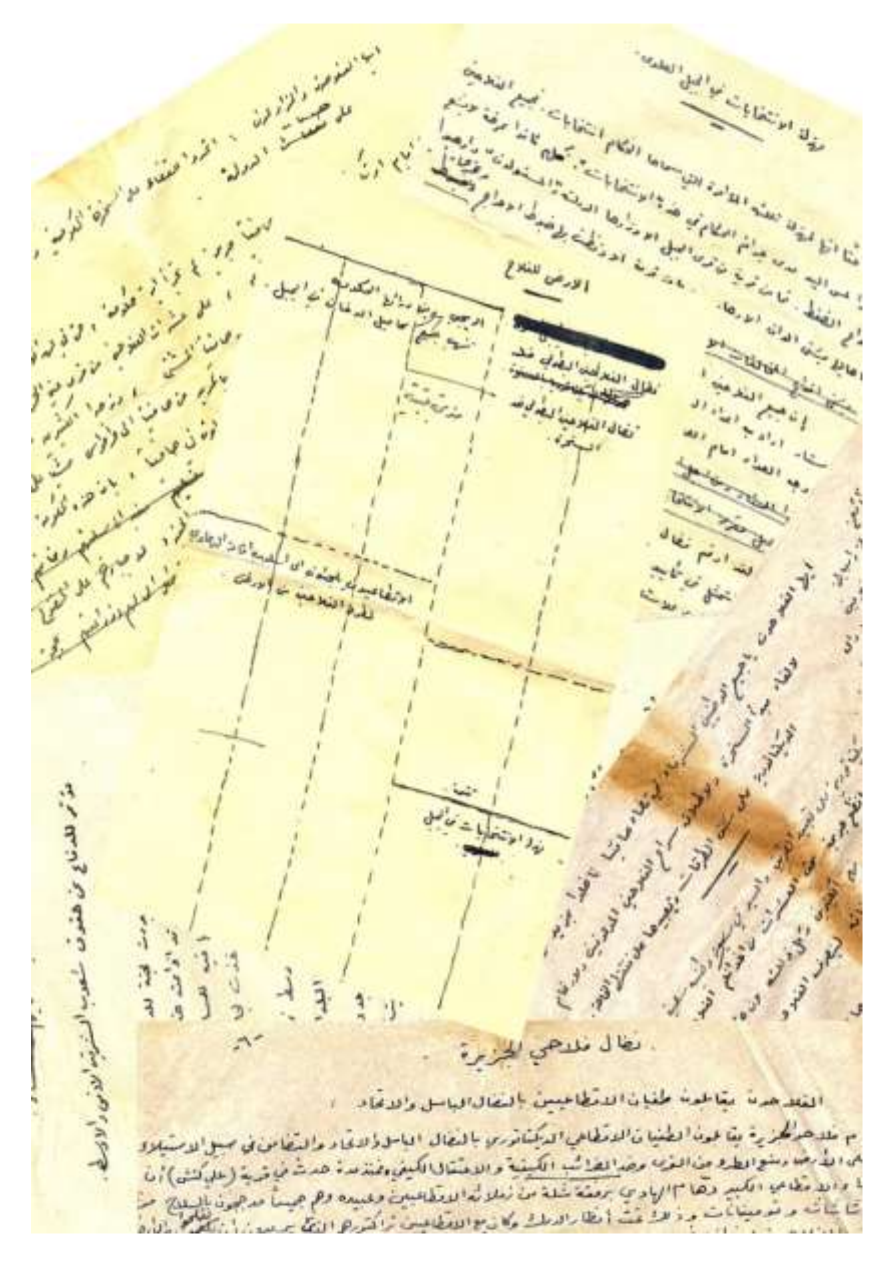
بطاقة شخصية لدانيال نعمة (باسم فؤاد عبود من قرية جنين السورية**)، وهي واحدة من مجموعة هويات بأسماء مستعارة استخدمها في العهد السري**

عبد الله حنا

من الجبل العلوي إلى عاصمة بني أمية
دروب الكفاح للطلائع اليسارية
ودور دانيال نعمة ورفاقه
1970-1945

دراسة في الواقع
الاقتصادي الاجتماعي والفكري السياسي

طبعة خاصة بالتعاون مع دار الفارابي
بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاة دانيال نعمة
31 آذار 1925- 6 كانون الأول 2003



مواد أحد أعداد نشرة (الأرض للفلاح) الصادرة في أوائل خمسينيات القرن العشرين في الجبل العلوي، ويُرى ماكيت العدد بخط دانيال نعمة

شهادة في موضع التقديم

بقلم: **عدنان بدر حلو**

كم يبدو الحديث عن اليسار والنضال اليساري غريباً في هذه الأيام، حيث الزحف الظلامي يجتاح المنطقة من أقصاها إلى أقصاها... وكم يبدو غريباً أكثر أن يكون هذا اليسار والنضال اليساري في الجبل العلوي! بينما عاصفة التمزق الطائفي والمذهبي ترسم لذلك الجبل صورة نمطية يشترك في صياغتها المع والضد!!

فمع دخول البرجوازية الطفيلية في أزمة بنيوية خانقة، نتيجة تقلص المصادر المتاحة بعد احتلال العراق والخروج من لبنان واضطراب العلاقات مع السعودية ودول الخليج، لم تعد السوق الداخلية كافية لتلبية مطامع أثرياء الفساد، الذين ازداد عددهم ازدياداً كبيراً في المرحلة السابقة، ولم يعد الاقتصاد الوطني قادراً على توفير ما يكفيهم، فدخلوا في نزاعات بين بعضهم البعض، كان البقاء فيها للأقوى... والأقوى، في مثل هذه الحال، هو الأوسع نفوذاً في دهاليز السلطة الاستبدادية... فإذا بنا مع بداية العقد الثاني من هذا القرن أمام ظاهرتين:

الأولى- هي (تطفيش) عدد كبير من (رجال الأعمال) السوريين إلى خارج البلاد. بعضهم بالإبعاد أو الإزاحة عن (معلف) الفساد الوطني لصالح من هم أقوى منهم... وبعضهم بـ(الانشقاق) الطوعي... بحيث انفرد عدد غير كبير من الأقوياء بالفريسة السورية.

و**الثانية-** هي أن الاقتصاد الوطني بقطاعيه العام والخاص لم يعد (بعد ما أنزلَتْهُ به البرجوازية البيروقراطية وسياساتها الانفتاحية من أضرار أصابت قطاعاته الإنتاجية الصناعية والزراعية والتجارية، وأفقرت الأكثرية الساحقة من أبناء الشعب)، قادراً على توفير أكثر من خمسين إلى ستين ألف فرصة عمل سنوياً، مقابل أكثر من مئتين وخمسين ألف عامل جديد يدخل سوق العمل في المدة نفسها، فيتراكم جيش متعاظم الأعداد من الفقراء والعاطلين، الذين سدت في وجوههم أبواب الرزق والحياة، واكتظت بهم الأحياء الشعبية والعشوائية والأرياف المحيطة بالمدن الكبرى.

وفي مواجهة أخطار هذه الأزمة المتفاقمة واحتمالات الانفجار الاجتماعي، يزداد لجوء السلطة الاستبدادية لقمع أي نشاط سياسي أو حزبي مستقل، متحولة إلى نوع من السلطة الفاشية، في حين يجد المتطرفون الدينيون (المدعومون من الخارج، وبالذات من الطفيليين السوريين المنبوذين إلى ذلك الخارج) في جيش العاطلين المحرومين من الثقافة والنشاط السياسيين، مرتعاً صالحاً لنشر الفكر الديني المتطرف والمستند إلى عصبية طائفية موهومة، بأن أبناء الطوائف الأخرى في البلاد هم الذين يستولون على حصصها من الرزق وفرص العمل، وهو أمر وجد فيه الطفيليون النافذون فرصة سانحة لتأجيج عصبيات مضادة، وتسليح فقرائها وتسخيرهم للدفاع عن السلطة القمعية وفاسديها.

حتى إذا جاء انفجار الحراك الشعبي في آذار 2011، بغياب طبيعي لقيادات ومنظمات وأحزاب سياسية ثورية مسؤولة وقادرة على رسم أفق سياسي ثوري وصائب لهذا الحراك، كان من السهل على فريقي البرجوازية الطفيلية تضييع حقائق الصراع الاجتماعي الكامن في صلب ذلك الحراك، وتحويله إلى انقسام ذي طابع طائفي عامودي دموي، وقوده فقراء المجتمع من جميع الطوائف... وكان من السهل أيضاً على القوى الخارجية العربية والدولية أن تجد الفرصة المتاحة للتدخل تحقيقاً لسياسات ومصالح لا ناقة للشعب السوري فيها ولا جمل... وراح هؤلاء الطفيليون، الذين كانوا مطية الخارج في هذه العملية الدموية، يستثمرون أموالهم في الدمار والدماء، ممنين نفوسهم بحصص مجزية من كعكة أوضاع ما بعد هذه الحرب، وبشكل خاص مشاريع إعادة الإعمار، التي سوف تستهلك مليارات الدولارات. وليس غريباً في مثل هذا الوضع أن يعقد مؤتمر في بيروت أوائل تشرين الأول الماضي برعاية "الأسكوا" ورئيسها عبد الله الدردري، ضم أكثر من مئة عضو وخبير، موال ومعارض، للبحث في موضوع واحد هو: إعادة الإعمار ما بعد انتهاء الأحداث، ودون أي تطرق للسياسة!

مع ذلك، ورغم استمرار زخم الاقتتال على أشده، بدأت قطاعات واسعة من جماهير الشعب تستيقظ على حقيقة الأوضاع، وتخرج من دائرة الفتنة، لتتشكل منها كتلة اجتماعية كبيرة تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم، وسوف يكون لها بالتأكيد وزن لا يمكن تجاهله في رسم نهاية الأحداث وصورة سورية الجديدة.

فمهما طال ظلام الليل، واشتدت حلكة عتمته، لا بد أن ينسل هارباً مع بزوغ فجر الغد وانبلاج أنواره الساطعة... وما من عاصفة، مهما كانت عاتية، إلا وكان تحطمها على صخور حقائق الحياة حتمياً... وما هذا الكتاب الذي يبدو، للوهلة الأولى، أنه يغوص في الماضي، إلا مساهمة واعية وناضجة في التأسيس للمرحلة القادمة... مرحلة ما بعد هذا الليل الدامس والعاصفة المدججة بالدماء.

الجبل العلوي تاريخ تصادمت فوق صخوره، في أمس غير بعيد، قنانة القرون الوسطى مع حداثة القرن العشرين... وكان لنا حظ أن نكون شهوداً على بعض أحداث هذا الصدام:

(كان ذلك عام 1952، في عهد أديب الشيشكلي، عندما تمرد فلاحو قريتي سبة وعين بشريتي على "أسيادهم" من آل بشور، ورفضوا أن يسمحوا لهم بالاستيلاء على محاصيلهم... وقاوموهم رجالاً ونساء على البيادر... فكان الرد بدعوة الشرطة العسكرية لمداهمة القريتين، واعتقال كل من فيهما من رجال ونساء وأطفال، واقتيادهم إلى مخفر بلدتنا مشتى الحلو... وبينما عسكر قسم من قوات الشرطة العسكرية لأيام في بيوت الفلاحين يعيث فيها نهباً وفساداً... كان قسم آخر يقوم بالـ"تحقيق" مع الأهالي المحتجزين في المخفر!

كان بكاء الأطفال، وهم يرون آباءهم وأمهاتهم مرفوعين بعصي الفلق، يخترق جدران المخفر، ويسمع في أجواء البلدة كلها.

كنا أطفالاً ما بين العاشرة والثانية عشرة من أعمارنا... وكان الشباب الشيوعيون الأكبر منا سناً يجمعون من البيوت ما تيسر من الطعام والأغطية، ويحملوننا إياها لإيصالها إلى الموقوفين في المخفر (مع أن معظم الموقوفين كانوا من أنصار الحزب العربي الاشتراكي، وزعيمه أكرم الحوراني)... وما بين دركي موتور يطاردنا بعصاه وشتائمه المقذعة، وآخر فيه ذرة من إنسانية، كنا ننجح بتسريب بعض القوت وبعض الأغطية إلى أولئك المعذبين في الأرض).

هذه صورة صغيرة عما كان قائماً في تلك الجبال المسماة علوية:

إقطاع وحشي متخلف (فيه من كل الطوائف: علويون وسنة ومسيحيون)، يسوم الفلاحين الفقراء أقسى أنماط الاستغلال، وسلطة غاشمة تسير في ركابه، مُسَخِّرة كل قواها العسكرية والأمنية لحماية مصالح ذلك الإقطاع، وطلائع تقدمية مناضلة أخذت على عاتقها

مسؤوليات النضال ضد هذا الواقع التسلطي المزدوج... كانت تنتمي بمعظمها إلى: الحزب العربي الاشتراكي (بقيادة أكرم الحوراني وعدد من رفاقه أبناء الحركة الشعبية في حماة)، وحزب البعث العربي (منطلقاً من مدينة اللاذقية بدور طليعي للدكتور وهيب الغانم وبعض رفاقه النازحين من لواء اسكندرون)، والحزب الشيوعي (بدور طليعي مبكر للمناضل بدر مرجان، الذي كان ينطلق من مدينة طرابلس، ليجول المنطقة من أقصاها إلى أقصاها سيراً على الأقدام، ثم يتسلم الراية منه ابن المشتى المناضل دانيال نعمة، الذي يعود إليه الفضل برفع سوية المنظمات الحزبية، التي كانت مجرد تجمعات شبه عشوائية، فعمل على تطويرها إلى منظمات شبابية مؤهلة ثقافياً ونضالياً للقيام بدور فعال على امتداد مناطق اللاذقية وطرطوس وجبلة وصافيتا وتلكلخ).

إن هذا الكتاب (من الجبل العلوي إلى عاصمة بني أمية...) يثير فينا، نحن جيل الخمسينيات، ذكريات حميمة، فيها الكثير من الأحداث والأشخاص، الذين ربطتنا بهم علاقات إنسانية ونضالية وثيقة (من بدر مرجان، الذي ما أزال أذكر أنه كان ينام في بيتنا عندما يزور المشتى في منتصف الأربعينات، ثم تشاء الصدف أن ألتقيه عام 1966على الحدود السورية اللبنانية برفقة نسيب نمر، وكان قد انضم إليه وإلى أخيه حسيب في تأسيس جماعة منشقة عن الحزب الشيوعي اللبناني وإصدار صحيفة "إلى الأمام" بدعم من النظام السوري وتعاطف من عفيف البزرة... إلى أستاذنا حبيب حسن معروف، الذي عمل مدرساً في المشتى لعدة سنوات، مروراً بكل مناضلي المشتى ومنطقتها من الشيوعيين المذكورين في الكتاب، وعلى رأسهم أستاذنا ورفيقنا الكبير دانيال وشقيقه يفتاح والأستاذ حنا دياب والقائد الشيوعي الميداني ميشيل جرجس وشقيقه جرجس وديب قطيرة وإبراهيم السليم وهزيم ومحيا وغيرهم... وكان آخر من التقيته منهم الرفيق عبد الله إبراهيم قبل أن توافيه المنية منذ عامين، واستعدنا ذكريات لنا عندما تقاطع نقلنا عام 1960 من سجن إلى سجن في نظارة الشرطة بساحة المرجة... (إذ كان نقل المعتقلين يناط بالشرطة المدنية). كنت مساقاً من مفرزة التعذيب في الجسر الأبيض، وكان مساقاً من مباحث اللاذقية باتجاه سجن المزة، وتيسر لنا أن نمضي ثلاثة أيام برفقة شيوعيين آخرين من حماة، كانت عبارة عن فاصل مريح وجميل قبل أن يساق كل منا إلى حيث كان ينتظره المزيد من التعذيب).

لكن أهمية الكتاب ليست في هذا الجانب الإنساني الجميل، إنما في استعادة ما قطعته عهود الاستبداد المتواصلة منذ عام 1958 من مسار نضالي لشعبنا، وتزويد أجيالنا الجديدة بقاعدة راسخة لوصل ما انقطع وتجديد انطلاقها من إسار القحط الفكري والسياسي والنضالي، الذي راكمته هذه العهود، أملاً باستنهاض نضالي جديد يساهم مساهمة فعالة في كسر حدة الاستقطاب الطائفي المصطنع المفروض على شعبنا، لتبديد طاقاته في صراعات ونزاعات لا مصلحة له فيها، رغم كل ما يهرق فيها من دماء غالية.

إنه كتاب مهم لأبناء الجبل العلوي، إذ يذكرهم بماض نضالي، هو انتماؤهم الحقيقي، لا هذه الأوهام الطائفية، التي يضللونهم بها، ليسوقوا أبناءهم إلى ساحات موت مجاني، لا تختلف كثيراً عن الساحات التي كان يساق إليها أجدادهم في سفر برلك...

لكنه مهم أكثر لأبناء مناطق سورية الأخرى، كي يروا فيه جبلنا العلوي على حقيقته، من خارج المنظار الطائفي المقيت، الذي يحشرهم فيه أمراء النفط وشيوخه وملاليه العرب وغير العرب، ليحققوا بدمائهم ودماء أبنائهم مصالح دولية متعارضة كل التعارض مع مصلحة الشعب السوري كله بجميع مكوناته وطوائفه.

إن نهضة جديدة، يساهم هذا الكتاب في التأسيس لها، هي المخرج الوحيد من أتون النزاع الحالي، وللخروج الجدي على فتنة البرجوازية الطفيلية، التي تحولت إلى برجوازية فاشية، على أمل أن تتجاوز أزمتها الخانقة، وتضاعف ثرواتها الطائلة عن طريق الاستثمار في دماء هذا الشعب الطيب ودمار هذا الوطن الجميل...

تبقى كلمة لا بد منها حول الأستاذ دانيال، الذي يضم الكتاب نبذة عن حياته ونضاله:

إن أبا خالد لم يأت إلى الشيوعية بدافع من انتماء طبقي، فهو ابن عائلة متوسطة ميسورة بالنسبة إلى محيطها وزمانها... لكنه انحاز إليها بدافع إنساني ووطني... إنساني من خلال معايشته لذلك الظلم الفظيع، الذي كان يقع على الفلاحين في قرى المشتى وجوارها وعلى امتداد ساحة الجبل العلوي... ووطني من خلال انخراطه الطلابي في معركة استقلال سورية من ربقة الاستعمار الفرنسي، وكأنه يجسد تجسيداً عملياً ما قاله الأستاذ أكرم الحوراني:

"لا يمكن للمجتمع العربي الزراعي المتخلف أن يتحرر من الاستعمار الخارجي، إلا بالقضاء على الاستغلال الداخلي. ولا يمكنه أن يقضي على الإقطاعية السياسية، إلا بتحالف الفقراء الكادحين في المدن مع الفلاحين الفقراء الكادحين في الريف في حركة نضالية واحدة باسلة لبناء المجتمع الجديد" (مذكرات أكرم الحوراني ص 273).

ومع ذلك، كان دانيال شيوعياً نموذجياً في انتمائه والتزامه وصموده وصلابة عقيدته. وهب حياته كلها للحزب، ومارس فيه كل أنواع النشاط بانكباب واجتهاد قل نظيرهما. ولعل هذه الميزة الحزبية كانت في الوقت نفسه نقطة الضعف التي أخذها عليه البعض، باعتبارها إسهاماً في خلق حالة طواعية حزبية لانتقال عدوى عبادة الفرد الستالينية، وتجسدها في الحالة البكداشية، التي كان له دور كبير في محاربتها لاحقاً. كما أنها ألقت عليه مسؤولية الالتزام بمهمة تمثيل الحزب لوقت طويل في "المشاركة" بالسلطة، وهي مساهمة(↓) لم يكن لها الكثير من التأييد الجماهيري.

وبهذا القدر من الانضباط والالتزام، تعامل دانيال مع موضوعة الأممية الاشتراكية، فكان شديد التقدير للعلاقة مع السوفييت والالتزام بها. وهنا أستعيد لقائي معه في يوغسلافيا عام 1979 بعد انقطاع نتيجة غيابنا الطويل خارج البلاد... تطرقنا في ذلك اللقاء لمواضيع كثيرة، أذكر منها الموقف من ظاهرة (الحزب الشيوعي - المكتب السياسي)، ومما قاله: (إن هؤلاء الشباب قد ينجحون في بناء حزب، وقد يكون حزباً جيداً، لكنه لن يكون حزباً شيوعياً، لأنه لا وجود لحزب شيوعي خارج الأممية الاشتراكية). نستكشف في هذه المقولة أمرين:

الأول- أنه كان صائباً فيما توقعه من مصير لذلك الحزب، الذي سرعان ما تخلى عن شيوعيته.

والثاني- أن انقسام تيار المكتب السياسي على بعضه فيما بعد إنما كان، إلى حد كبير، بسبب تمسكه بالأممية الاشتراكية والصداقة مع السوفييت.

ولا يقلل من احترامنا وتقديرنا لنضال القائد الطليعي دانيال نعمة أن نقول: إن دوره السياسي من ضمن مهماته الحزبية ما يزال ينتظر حكم التاريخ على مرحلة كاملة، لم تنطو بعد، من حياة بلادنا.

باريس في 21 ت2 2013

(↓) في أرشيف الحزب الشيوعي أكثر من رسالة طلب إعفاء من تمثيل الحزب في الجبهة الوطنية التقدمية، رُفِضَتْ من رفاق دانيال في القيادة... تجدون في الملحق واحدة منها.

مقدمة لا بد منها

لعلَّ القارئ يستغرب بعض كلمات عنوان هذا الكتاب أو تعابيره، وربما انتابته الشكوك في محتوى الكتاب ومراميه. لذا رأينا توضيح عنوان، أو بالأصح عناوين، هذا الكتاب لإزالة الالتباس الذي يحتمل أن يخطر ببال قارئ العنوان أولاً، وكي نؤكد ثانياً أن منطلق هذا الكتاب وهدفه هما تتبع مسار الوحدة الوطنية والخط الصاعد لتنامي المشاعر الوطنية (السورية) والقومية (العربية). وهذه العملية كانت تجري في منتصف القرن العشرين زمن صعود الفكر النهضوي العربي، الذي حمل لواءه الحزبان الشيوعي السوري والبعث العربي الاشتراكي، كما أولت الدراسة اهتماماً خاصاً بالعلاقة بين الوطني (أو القومي) والطبقي.

وفيما يلي جردة لتوضيح عناوين الكتاب:

1- **الجبل العلوي**، أو جبال العلويين، تسمية تاريخية تعود إلى بداية عشرينيات القرن العشرين، إذ كانت الخرائط قبل هذا التاريخ تُطلِق على هذه الجبال اسم جبال النصيرية، نسبة إلى أكثرية سكانها المعروفين آنذاك بالنصيرية، الذين أطلِق عليهم بعد انهيار الدولة العثمانية عام 1918 اسم العلويين. والعلويون عشائر عربية من أنصار الإمام علي، نزحوا إلى هذه الجبال في فترات متلاحقة. وكانت هذه الجبال تابعة إدارياً في مستهل القرن العشرين لولاية بيروت.

وبعد الاحتلال الاستعماري الفرنسي لسورية سُمِّيَت المنطقة المذكورة بلاد العلويين، وكان مركزها اللاذقية. وبعد معاهدة عام 1936، ونتيجة لقيام الوحدة السورية، أطلِق عليها اسم محافظة اللاذقية، واستمرت هذه التسمية حتى عام 1960. ومع ظهور التقسيمات الإدارية، تحوَّلت محافظة اللاذقية (القديمة) إلى محافظة اللاذقية الحالية، ويتبع لها جبلة والحفة، وأنشِئَت محافظة طرطوس، ويتبع لها بانياس وصافيتا، وألحِق قضاء (أو منطقة) تلكلخ بمحافظة حمص، وأتبِع قضاء مصياف بمحافظة حماة.

وحالياً يُطلِق البعض على هذه المناطق اسم جبال الساحل، أو جبال اللاذقية، تجنباً للاسم الذي يعدُّونه طائفياً. وقد درجت أدبيات الحزب الشيوعي السوري، وهو حزب وطني علماني، على إطلاق اسم (الجبل العلوي) على هذه المناطق حتى أواخر خمسينيات القرن العشرين. وقد

رأينا أن نستخدم هذا الاسم المتداول، لا بهدف تكريس الطائفية أو المذهبية، بل كي نأخذ الواقع التاريخي بالحسبان. وسيقوم هذا الكتاب بتتبع عملية الانتقال من الطائفة والعشيرة إلى الوطن والأمة. وللعلم، فإن اليسار الذي استخدم تعبير (الجبل العلوي)، وفي مقدمته الحزب الشيوعي، هو من رفع راية النضال ضد الطائفية والعشائرية، ووضع نُصبَ عينيه الوحدة الوطنية والسير على طريق الاندماج الوطني وترسيخ دعائم الجمهورية السورية المستقلة وعاصمتها دمشق.

2- **عاصمة بني أمية دمشق** هي مفخرة من مفاخر التاريخ العربي الإسلامي، وجوهرة فريدة بين العواصم العربية، ويكفيها فخراً أنها أول عاصمة عربية أعلنت قوى النهضة من شرفة بلديتها في الثامن من آذار 1920 قيام الدولة الوطنية العربية بتجلياتها المدنية والبرلمانية. وكانت البرجوازية الدمشقية الطامحة إلى بناء دولتها الواحدة ذات السوق الواحدة، الممتدة من طوروس إلى العقبة مروراً باللاذقية وبيروت وحيفا، أحد ركائز هذه الدولة.

لكن الدولة الوطنية العربية (1918 – 1920) لم تتمكن من الحياة أكثر من سنتين، إذ عاجلتها جيوش الغزو الفرنسي، التي قضت على المقاومة الوطنية قرب ميسلون في تموز عام 1920، واحتلت دمشق وسائر المدن السورية. ورغم ذلك فإن الدولة الحديثة وطدت أقدامها في عهد الانتداب الفرنسي (1920 – 1943)، ودخل الوعي الوطني والقومي (العربي) مرحلة جديدة في عهد النضال ضد الاحتلال الاستعماري الفرنسي، وهي مرحلة متقدمة عن المراحل السابقة.

ومع إلغاء الانتداب الفرنسي عام 1943، وجلاء الجيوش الأجنبية عن سورية في نيسان عام 1946، دخلت سورية مرحلة جديدة من تاريخها. وكان أهم ما في هذه المرحلة قيام الدولة الحديثة المستقلة (البرجوازية – الإقطاعية)، وانتشار دعائم المجتمع المدني، والسير على طريق الديمقراطية، التي بلغت أوجها في عهد المجلس النيابي (1954 – 1958).

وقد أعقب مرحلة فجر الاستقلال وقطف ثمار النضال لنيل الاستقلال والدفاع عنه مرحلة التغيرات الاقتصادية الاجتماعية، الممثلة بالإصلاح الزراعي وتأميم الرأسمال الأجنبي والوطني الكبير. ويلاحظ أن تلك الإجراءات قد أدت إلى إطلاق قوى اجتماعية (فلاحين، وعمال) من

عقالها، ونشَّطت الحركة الثورية في صفوف شرائح مختلفة من البرجوازية الصغيرة، وهذا ما سنلمسه في ثنايا هذا الكتاب، إذ كان للطلائع اليسارية دور بارز، سواء في الساحل أم في دمشق، التي كانت قبلة أنظار تلك الطلائع.

3- **المقصود بالطلائع اليسارية** تلك المجموعات الشيوعية المتناثرة هنا وهناك، ومن التف حولها في أرجاء الجبل العلوي. ولن نتحدث في هذا الكتاب عن قوى اليسار الأخرى، وفي مقدمتها حزب البعث العربي والحزب العربي الاشتراكي، ومن ثم الحزب الموحَّد: حزب البعث العربي الاشتراكي. كما لن نتحدث عن الحزب السوري القومي الاجتماعي، الذي كان له نشاط واضح في الجبل العلوي، والذي لم يكن في تلك الفترة محسوباً على اليسار.

وقد كان لليسار الشيوعي والبعثي، ومعه الحزب السوري القومي، دور في شد الأنظار إلى العاصمة دمشق. وقد أولت هذه الدراسة اهتمامها بطليعة اليسار، وتحديداً بمنظمات الحزب الشيوعي العاملة في الساحل السوري، وبدورها الوطني والطبقي في معارك النضال الجارية في الجمهورية السورية.

4- **يُلاحَظ أن أكثرية الباحثين لا يولون الاهتمام الكافي بالأرضية الاقتصادية الاجتماعية،** التي تحرَّك فوق ترابها البشر، والتي أسهمت إسهاماً قوياً في تكوين وعيهم وتحديد سلوكهم. وسنؤكد في هذا المجال دور توزُّع الملكيات لفهم كثير من مسارات التطور، فالدافع الاقتصادي الاجتماعي لا يمكن عزله عن الواقع الفكري والسياسي وما يختزنه البشر من موروث، تمتد جذوره مئات السنين في أعماق الماضي. وقد سعت الدراسة قدر جهد صاحبها إلى الكشف عن هذه العوامل وتداخل بعضها مع بعض.

5- **تبقى الفقرة الأخيرة من العنوان المخصصة لدور دانيال نعمة ورفاقه الشيوعيين**[1]، ونرى أن من حق القارئ أن يسأل:

---

[1]- نذكر منهم: قاسم رضوان، وحنا مينه، وقيصر ضومط، وبدر مرجان، وعبد الكريم طيارة، وفايز بشور، وحبيب حسن، وميشيل عيسى، وديب قطيرة، ويفتاح نعمة، وهزيم محمود هزيم، وعبد الله إبراهيم، وأحمد فاضل وغيرهم من الكوادر الشيوعية.

- لماذا الاقتصار في هذا الكتاب على دانيال نعمة ورفاقه على دروب النضال؟ لماذا لم نعمم، وهو الأصح، ونقول: مناضلو الحزب الشيوعي على دروب النضال؟

- ولماذا تخصيص دانيال نعمة دون غيره من رفاقه، الذين خاضوا، مثل دانيال، غمرات النضال بتفان ونكران ذات؟

- وكيف يجري الحديث عن نضال الشيوعيين دون أن يتصدّر ذلك خالد بكداش، القائد ذو الباع الطويل في إدارة دفة الحزب الشيوعي أو توجيهه من بعيد في خضمِّ الأحداث المتلاحقة؟

- ولماذا التوقف عند عام 1970 وعدم متابعة الأوضاع بعد ذلك التاريخ؟

أسئلة واستفسارات وجيهة، لذا لا بدّ من توضيح الأسباب، التي أدت إلى صدور الكتاب بوضعه الحالي.

أولاً- صدرت كتب ودراسات كثيرة تناولت حياة الحزب الشيوعي ونضاله، وأولت الاهتمام الأكبر لنضال خالد بكداش ودوره في قيادة الحزب الشيوعي، كما أن بيانات الحزب وأدبياته ألقت الأضواء الساطعة على خالد بكداش، مهملة الحديث عمّن كانوا حوله أو تحت إمرته. ولولا هؤلاء، وتضحيات غيرهم من عشرات الكوادر ومئات المناضلين الثوريين المجهولين، لما وصل خالد بكداش إلى المجد، الذي بلغه في خمسينيات القرن العشرين. والحديث عن هؤلاء المناضلين المجهولين والكوادر القائدة لا ينفي الدور البارز لخالد بكداش، الذي ترك بصمات واضحة المعالم في تاريخ سورية في منتصف القرن العشرين.

ولهذا رأينا من الضروري الكتابة، بما أتاحته لنا المصادر، عن هؤلاء، أو بالأصح بعضهم، الذين أغفل التاريخ الرسمي للحزب الشيوعي دورهم، واقتصر على دور القائد، جاعلاً منه محور الأحداث وبانيها.

وانسجاماً مع المنهجية التاريخية، التي سرنا عليها، في التأريخ للطبقات والفئات الاجتماعية الدنيا والوسطى، التي نادراً ما تعرض لها التاريخ الرسمي، رأينا من الضروري الكتابة عن الكوادر الشيوعية، التي أفنت شبابها في النضالين الوطني والطبقي، دون أن يرد لها ذكر في الكتابات المنشورة. هذا المنهج سرنا عليه في السابق بنشر عدد من

الكتب والدراسات، التي تناولت الفلاحين والعمال والحرفيين والمثقفين، وأولت الاهتمام إلى "التاريخ من الأدنى". وانسجاماً مع هذا الخط قمنا في هذا الكتاب بإلقاء الأضواء على عدد كبير من قادة الحزب الشيوعي وكوادره، ومع الأسف لم تسعفنا الوثائق المتوفرة بين أيدينا في الكتابة عن بقية من ضحّى وناضل وما يزال اسمه مجهولاً، ونأمل أن يتمكن مؤرخو المستقبل من سد الثغرات، التي لم يستطع هذا الكتاب تغطيتها، علماً أننا تناولنا في كتابنا **"الحركة الشيوعية السورية"** عدداً كبيراً من الذين ناضلوا وكتبوا موضحين سبل الخلاص من الأوضاع الاستغلالية السائدة في زمنهم، وفي سبيل وطن حر وشعب سعيد.

ثانياً- جاء تخصيص دانيال نعمة، دون غيره، للأسباب التالية:

1- حرص دانيال نعمة على الاحتفاظ بأرشيفه، قدر الممكن، وكتابة أوراق وذكريات عن ماضيه في الحزب، مما يتيح للباحث سهولة الكتابة عن تلك المرحلة المبحوثة. أما الآخرون فلم تصل إلينا وثائقهم، إما بسبب تلفها أثناء عهود الملاحقات والسجون، أو أن من يحتفظون بتلك الوثائق لم يضعوها في متناول الباحثين. ونقدم مثالاً على ذلك أن رفيق دانيال نعمة محمد ظهير عبد الصمد، وهو من القادة الشيوعيين المرموقين، كتب مذكراته، التي وقعت في حوزة أحد أقربائه المقربين، الذي ينكر أو يتهرب من وضع ذكريات ظهير في أيدي الباحثين. ومثال آخر نسوقه عن القائد النقابي الشيوعي إبراهيم بكري، فهو احتفظ بما كتبه بعد 1970، وضاعت منه وثائق ما قبل ذلك التاريخ. وعندما طلب بكري من كاتب هذه الأسطر تنظيم ما يملكه من وثائق بعد 1970 وتحليلها، كي ينشرها، لم يكن بالإمكان تلبية طلبه في الكتابة عن الحركة النقابية بعد 1970 والقفز من فوق الحركة النقابية ذات التاريخ المجيد قبل 1970. ورحل إبراهيم بكري عن هذا العالم، وضاعت بعض الوثائق المتعلقة بنشاطه الشيوعي أو النقابي قبل 1970.

2- ثقافة دانيال نعمة الواسعة وإدمانه على القراءة وتتبع الحياة الفكرية العربية والعالمية، شأنه شأن رفيق دربه ظهير عبد الصمد، وهذه الميزة، مضافاً إليها تمرسه بالكتابة، جعلت من دانيال نعمة مدوناً لأكثرية محاضر جلسات القيادة الحزبية، ومنشئاً لقسم كبير من بيانات الحزب والمقالات المنشورة في جرائده، والمغفلة من اسم صاحبها بسبب ضرورات العمل السري. ومعروف أيضاً لدى الكوادر السرية أن

دانيال نعمة كان في دمشق بعد عام 1961 المشرف على المطابع السرية وعلى تزويدها بالمواد المكتوبة.

3- احتفظ أولاد دانيال نعمة بتراث والدهم، وسعوا لنشره، وقدَّموا لكاتب هذه الأسطر ما يملكونه من وثائق أغنت الكتاب.

4- تفاني دانيال نعمة في العمل، وابتعاده عن الإثراء والحياة المترفة قبل عام 1970 وبعده، وتفرغه الكامل للعمل النضالي.

وحسب علمي لم يملك دانيال نعمة لدى وفاته سنة 2003 سوى بيت مساحته 125 متراً مربعاً في برزة المسبقة الصنع، وهذا البيت من أبنية المؤسسة العامة للإسكان، دفع دانيال القسط الأول منه ومقداره 18 ألف ليرة سورية، وجرى تقسيط باقي المبلغ لمدة 15 سنة بمعدل ألف ليرة سورية شهرياً. وقبل سكنه في بيت برزة المسبق الصنع عام 1982 تنقل دانيال منذ دخوله سراً إلى دمشق في الأيام الأولى من الانفصال بين عدد من البيوت السرية، ثم العلنية المأجورة.

وإضافة إلى بيت دمشق، بدأ دانيال نعمة عام 1990 ببناء بيت سكن في أرض ورثها عن والده في مشتى الحلو، واللافت للانتباه أن عَمَار البيت استمر عشر سنوات بسبب ضعف السيولة المالية لإتمام البناء.

وتجدر الإشارة إلى أن دانيال تـُوُفِّيَ وهو لا يملك، كما صرَّح أولاده، أي رصيد في المصارف، وهذا أمر ليس غريباً على المناضلين الأتقياء الأنقياء في كل زمان ومكان.

وأذكر أن لغطاً انتشر بعد عام 1970 إثر استلام دانيال نعمة سيارة مرسيدس سوداء بصفته عضواً في القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية، فقد أخذ بعضهم ينتقدون دانيال، أو يهاجمونه، لأنه – حسب رأيهم – أصبح برجوازياً لقيادته سيارة المرسيدس.

وكاتب هذه الأسطر، الذي كان على خلاف عميق مع دانيال نعمة وغيره من قيادات الحزب الشيوعي، التي كانت موافقة على مشاركة الحزب الشيوعي في الجبهة الوطنية التقدمية، لأن هذه الجبهة – حسب رأينا – لا حول لها ولا طول، هذا الكاتب وقف فيما يتعلق بسيارة المرسيدس مناقشاً منتقدي دانيال نعمة لركوبها، وهم الذين يعرفونه متنقلاً وسائراً على قدميه أيام النضال، سواء في جبال الساحل ووديانه، أم في شوارع دمشق وأزقتها القديمة، وكانت حجتنا هي التالية:

- هل من المعقول أن يستمر دانيال نعمة مستخدماً قدميه للتنقل في عصر أصبحت فيه السيارة جزءاً أساسياً وضرورياً للعمل؟

- ألا يحق لدانيال نعمة، وهو المحامي منذ عام 1949، وبلغ من العمر عتياً، أن يقود سيارة؟

- ولو لم يكرس دانيال نعمة حياته للعمل في الشأن العام الوطني والطبقي، أ لم يكن يملك عدداً من البيوت والسيارات نتيجة أتعابه في المحاماة؟

لقد ظـُلـِم الرجل باتهامه بـ"البرجزة"، وهو بعيد عنها بُعدَ الأرض عن السماء. وإذا كان كل إنسان يُخطئ ويصيب، فإن دانيال نعمة في مسيرته الطويلة أخطأ وأصاب كغيره، لكن الأمر الهام الذي لازم دانيال نعمة طوال حياته هو العيش ببساطة في مأكله وملبسه وأثاث بيته، ساعياً بقوة المثل لتربية أولاده تربية تنسجم مع القضية التي نذر نفسه للدفاع عنها.

ثالثاً- اقتصر هذا الكتاب، إذن، على نشاط اليسار الماركسي ودور دانيال نعمة ونضاله مع رفاقه في المراحل الأولى من حياته السياسية والحزبية الممتدة بين عام 1945، تاريخ انتسابه إلى الحزب الشيوعي السوري، والسنوات الأولى التي أعقبت المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي السوري عام 1969. وتزامنت هذه المراحل من عمر دانيال نعمة السياسي مع الصعود العارم لحركة التحرر الوطني العربية، واحتلال التغيرات الاقتصادية الاجتماعية حيزاً واضحاً في ذلك النهوض.

لكن الرياح جرت بما لا تشتهي السفن، ففي الربع الأخير من القرن العشرين تراجعت الحركة الثورية العربية، وهيمنت على الساحة العربية قوى اجتماعية وفكرية يعيش العالم العربي وطأة طغيانها.

دانيال نعمة المفعم بالأمل، الذي عاش العقود الثلاثة الأخيرة من حياته السياسية مناضلاً ومكافحاً ومضحياً، نظر إلى الأمور نظرة بحاجة إلى دراسة هادئة متأنية غير متوفرة الآن لكاتب هذه الأحرف. هذا مع العلم أن كاتب هذه الأحرف لم يكن مرتاحاً لمسار الحزب الشيوعي بعد عام 1970، وكثيراً ما قام بنقد تخللته عصبية لما آلت إليه الأمور. وكان دانيال نعمة لا يقابل عصبية كاتب هذه الأسطر بمثلها، بل كان يسعى إلى توضيح رأيه، محترماً آراء الآخرين، ومقدراً مشاعرهم. ولهذا لن ندخل في المرحلة الثانية، مرحلة ما بعد عام 1970 من الحياة

السياسية لدانيال نعمة (ورفاقه)، المتصفة بضغوط جملة عوامل داخلية وخارجية، مما كان له تأثيره على مجرى حياته السياسية وما آلت إليه الأوضاع...

وسنسعى في هذا الكتاب إلى إلقاء الأضواء قدر المستطاع على مراحل مشرقة من نضال الحزب الشيوعي قبل عام 1970، التي كان فيها لدانيال نعمة القدح المجلى، بين قياديي الحزب وكوادره المخلصة.

30 آذار 2009

الباب الأول
المحيط المؤثر في مستنيري الساحل السوري

الفصل الأول
"الجبل العلوي"
في الثلث الأول من القرن العشرين

يستند جزء من هذا الفصل إلى حد بعيد على الدراسات الميدانية، التي قام بها الباحثان رفيق بك محمد وبهجت بك محمد، ونشراها في جزأين عام 1334 هجرية – 1916م تحت عنوان: "ولاية بيروت". فالمؤلفان قاما على مشارف الحرب العالمية الأولى عام1914 بزيارة ميدانية للساحل السوري اللبناني والفلسطيني في قسمه الشمالي، وقد قدم كُتَّاب ولاية بيروت معلومات هامة تناولت جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية للسكان بمختلف طوائفهم ومذاهبهم وعشائرهم وعائلاتهم. فالكتاب وثيقة هامة تعكس تركيب السكان العرب في الساحل السوري بأكثريتهم العلوية والأقليات السنية والمسيحية والإسماعيلية، إضافة إلى أقلية تركمانية، ومجموعة كردية استوطنت في الشمال الشرقي من محافظة اللاذقية تعربت مع الزمن، وأكبر بلداتها سلمى.

والحديث عن الوضع العشائري والطائفي، وهو من مفرزات مرحلة ما قبل الرأسمالية، لا يعني تكريس هذه الظواهر وتأبيدها، بل تسليط الأضواء عليها لفهم الواقع فهماً حقيقياً، والسعي لتغييره في اتجاه الوحدة الوطنية والعدالة الاجتماعية والتنوير، وهذا ما ناضل في سبيله دانيال نعمة، الذي يتناوله هذا الكتاب.

اتبعنا في النقل أو الاستفادة من معلومات كتاب "ولاية بيروت" على ثلاثة طرق:

- نقل حرفي وضعناه ضمن قوسين.
- نقل بتصرف أو باختصار، وهو الغالب، مع الشرح والتوضيح والمحافظة، في الوقت نفسه، على روح النص والتعابير الواردة في الكتاب.
- نقل من مصادر أخرى سنشير إليها، ويأتي في مقدمة هذه المصادر

الدراسات الميدانية، التي قمنا بها في منتصف ثمانينيات القرن العشرين، وشملت سائر أنحاء سورية، ومن ضمنها الساحل السوري. وهذه الدراسات الميدانية قدمت لنا زاداً معرفياً لفهم الوثائق والمعلومات وتحليلها تحليلاً علمياً من منطلق وطني وإنساني وروح نهضوية عربية، ترى كما جاء في الحديث الشريف: "الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله".

كما يقدم كتاب ولاية بيروت فكرة جيدة عن المحيط الاجتماعي، الذي تحرك ضمنه الشيوعي دانيال نعمة، الشخصية البارزة في هذا الكتاب، والداعي إلى تفعيل النضالين الوطني والطبقي لتحجيم أو إزالة التكتلات العشائرية والطائفية المنتشرة في المنطقة وغيرها من المناطق. وإذا أخذنا بالحسبان أن دانيال نعمة المسيحي مولداً، والعروبي انتماءً، والماركسي فكراً، خاض غمار السياسة من وجهتي نظر وطنية وطبقية (فلاحية)، وهو غير مسنود من طائفة تدعمه أو عشيرة تشد أزره، أدركنا ثقل المهمة التي تولى دانيال ورفاقه تحقيقها، وصعوبة الهدف الذي نذروا أنفسهم لتحقيقه، وهذا ما سنتناوله في هذا الكتاب، بعد دراسة المحيط الاقتصادي والاجتماعي والفكري، الذي عاش دانيال في أجوائه.

الدراسة التفصيلية الدقيقة تدفعنا لدراسة **مناطق الساحل السوري، كل منطقة على حدة، كما وردت في كتاب ولاية بيروت**، ومن ثم تناول جوانب من الحياة في تلك المناطق على النحو التالي[2]:

1- قضاء تلكلخ: المعروف سابقاً بحصن الأكراد. بلغ عدد سكانه عام 1914 نحو 29701 نسمة منهم: 15000 علوي، و12176 من الروم الأرثوذكس، و780 مارونياً، وأقلية من السنة (دنادشة، زعبية) كانت مسيطرة على القضاء في العهد العثماني، مع عدد قليل من التركمان، ومعظمهم فقراء يعملون في نسج السجاد، وعددهم 500 نسمة.

فقد تمكن أغوات الدنادشة من تملك الأرض في أواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين، وكانت معاملتهم للفلاحين قاسية، وتميزت منازلهم بالفخامة والأثاث الثمين. وكانت نفقاتهم مثل إقطاعيي

[2]- رفيق بك محمد، بهجت بك محمد: "ولاية بيروت". 1336 هـ، ج2، وسنشير إلى هذا المصدر عند النقل الحرفي منه بعبارة "ولاية بيروت".

قضاء عكار كثيرة، لهذا فإنهم أرهقوا الفلاحين، وأكثريتهم من العلويين، بالأتاوات، وأمعنوا في استثمارهم، كما استغلوا البدو أيضاً. بلغ عدد الدنادشة 1500 نسمة سنة 1914، ويقولون إن أصلهم من اليمن. وقد تراوح الدخل السنوي للأغنياء منهم 500 ليرة، وهبط لدى أقلهم غنى إلى 200 ليرة. أما "الزعبية" فيقولون: إنهم من أخلاف عبد القادر الكيلاني[3]، ولا فرق بينهم وبين الدنادشة من حيث تعاملهم مع القرويين. وهذه العائلة كانت "مزواجة، لدى أكثرهم ثلاث أو أربع زوجات"[4].

ويعمل العلويون[5] "لدى الدنادشة والزعبية أو في قرى خلصت لهم في جبل الحلو، وبعضهم ألف الشقاوة"[6]، وهذا حسب رأينا بسبب فقرهم.

أما "النصارى فهم من حيث المعيشة أرقى من النصيرية بدرجة أو درجتين، ومع ذلك ليست متوفرة لديهم وسائل الرفاه والراحة"[7].

مقاومة الفلاحين العلويين للظلم في قضاء تلكلخ تجسدت في أواخر العهد العثماني في ظاهرتين:

- ممارسة "الشقاوة"، حسب تعبير كتاب "ولاية بيروت"، ونموذجه قرية جبلايا.

- الانتفاض على الظلم والاستعباد ومقاومة الأغوات ومنعهم من تملك أراضي الفلاحين، ونموذجه قرية شين وعدد سكانها 1500–2000 نسمة[8].

فمع صدور قانون الأراضي العثماني لعام 1858، وظله قانون الطابو، شرع أغوات الدنادشة في الاستيلاء على الأراضي وتسجيلها بأسمائهم، شأنهم شأن جميع المتنفذين، "أرباب الوجاهة"، الذين تمكنوا بمساعدة الحكم العثماني، وبما لهم من عصبية، من تسجيل أكثر من

---

[3]- ولاية بيروت، ص 307، وهذا الشائع أيضاً لدى زعبية حوران.

[4]- ولاية بيروت، ص 307.

[5]- يسميهم كتاب "ولاية بيروت" النصيريون، حسبما كان شائعاً آنذاك.

[6]- المصدر السابق، ص 307.

[7]- المصدر السابق، ص 309.

[8]- حول هذا الموضوع تناولنا هذه الظاهرة بالتحليل والتعليل في كتابنا الصادر في ثلاثة مجلدات عن اتحاد الفلاحين بعنوان: "تاريخ الفلاحين في الوطن العربي"، المجلد الثالث، العصر الحديث المسألة الزراعية والحركات الفلاحية من الاحتلال العثماني حتى الاستعمار الفرنسي. دمشق... ص 355–368.

خمسين قرية بأسمائهم، امتدت من شرقي سهل عكار إلى سهل حمص، مروراً بقرى الوعر.
ظهر أغوات الدنادشة في منطقة تلكلخ في أواخر القرن الثامن عشر، عندما استعانت بهم الدولة العثمانية لحماية طريق طرابلس- حمص، مثلما استعانت بأغوات آل سويدان في حسياء لحماية طريق حمص- دمشق[9].
ما جاء في كتاب "ولاية بيروت" حول استثمار إقطاعيي تلكلخ لفلاحي القرى المجاورة هو مفتاح فهم الصراع الناشب بين الفلاحين المالكين لأراضيهم، والمكافحين للدفاع عنها في جبلايا وشين وغيرهما، وبين الأغوات الإقطاعيين الراغبين في توسيع ملكيتهم باتجاه الشمال، والحصول على مزيد من الثروة والمال "عصبَيْ الحياة".
استولى الأغوات على نصف أراضي **قرية جبلايا** الحصينة الرابضة على السفوح الجنوبية لجبل الحلو في أواخر القرن التاسع عشر. وعندما سعوا للاستيلاء على باقي أراضي القرية، تصدى لهم أهلها. وجرت عدة معارك، كان أشرسها في أحد أيام 1910، عندما استولت حملة عسكرية عثمانية على القرية الحصينة، وقامت بتخريبها. وبعد انسحاب الحملة عاد أهالي القرية إليها، وساروا في تمردهم على الواقع الإقطاعي العثماني بالأساليب المتوفرة في ذلك الزمن، وفي مقدمتها "التشليح"، أو أعمال "الشقاوة". وثمّة وجهة نظر تبرر سلوك الإنسان المضطهَد، الذي لا يجد باباً للخلاص إلا التحول إلى "قاطع طريق"، فمن المسؤول عن سلوكه هذا؟
إن أعمال "الشقاوة" هذه هي بصورة عامة إحدى ثمار النظام الإقطاعي واستغلال الإنسان للإنسان، وهي شكل من أشكال الاحتجاج على النظام الاجتماعي القائم على عدم المساواة، وعلى تكديس الثروة في جانب، وحرمان الأكثرية من ثمرة أتعابها، فمن الملوم والمسؤول عن أعمال "قطاع الطرق"؟ الفلاح الذي سُرقت أرضه، أم الآغا سارق الأرض؟
أحداث قرية شين هي امتداد لأحداث جبلايا، والصراع بين الفلاحين المالكين للأرض والأغوات الإقطاعيين الراغبين في السيطرة على أراضي شين والتقدم في جبل الحلو وإدخاله في دائرة ممتلكاتهم.

---
[9]- المصدر السابق.

تقع قرية شين على السفوح الجنوبية الشرقية لجبل الحلو إلى الشمال من تلكلخ، وكانت الملكية فيها في منتصف القرن التاسع عشر على المشاع مقسمة إلى 104 أصماد (فدادين). وبعد أن استولى أغوات تلكلخ على معظم القرى المحيطة بشين، وحوّلوها إلى قرى خاضعة للنير الإقطاعي، ولم يبق للفلاح "لا أرض ولا عرض" - حسب تعبير محمود الشمالي- أمسى الأغوات متعطشين لتملك أراضي شين[10] وتحويل فلاحيها الأحرار إلى أرقاء، مثل بقية الفلاحين الخاضعين لحكم الأغوات. و لم يستطع الأغوات تملك أي صمد (فدَّان) في شين لأسباب كثيرة، منها صمود أهل شين في وجه السلطة العثمانية والأغوات. وما كتبه يوسف الحكيم، اللاذقاني المولد، والليبرالي الثقافة، وقاضي التحقيق في طرابلس قبل 1914، حول أسباب الخلاف ومجريات المعركة بين أهل شين والأغوات، خير دليل على ذلك.

كتب الحكيم[11]: "ولما ضاق أهل القرية ذرعاً من جور سادتهم ومن جباة ضرائب الحكومة، الذين يفدون إلى القرية مستصحبين نفراً من الدرك، خرجوا عن صبرهم، وكثرة الضغط تولد الانفجار، واصطدموا في يوم من أيام الشتاء القاسية (1912) مع الدركيين والزعماء، فسقط في المعركة قتلى وجرحى من الفريقين". ولهذا جاء قاضي التحقيق يوسف الحكيم من طرابلس لضبط مشاهداته في مكان الحادث، وحول ذلك كتب الحكيم[12]: "... وشاهدنا آثار التخريب الذي حلّ بالقرية (شين)، وعلمنا أن سكانها قد هجروها على إثره، وسيق معظم شبانها إلى السجن في تلكلخ، مركز القضاء". ويصف قاضي التحقيق حالة السجن المزرية الخالي من كل أثاث، والسجناء يرتجفون من شدة البرد، والمياه الدالفة تحيط بهم من كل جانب.

ومن أجل أن يتمكن الفلاحون من دفع نفقات الدعوى ومصاريف السجون قاموا باستقراض مبلغ من المال من مصطفى علم الدين في طرابلس، واستمر فلاحو شين من عام 1916 يدفعون عُشْر المحصول إلى مصطفى علم الدين، ومن ثمّ إلى ورثته، حتى عام 1938. وهنا

---

[10]- لقاء مع محمود الشمالي في بلدته شين بتاريخ 1984/10/22، وهو مدرس تاريخ، ومن مواليد 1934.

[11]- الحكيم يوسف: "سورية والعهد العثماني"، بيروت 1980، ص 85.

[12]- المصدر نفسه.

نلاحظ أنّ فلاحي شين تخلصوا من حكم إقطاعية الأغوات ليقعوا تحت حكم الإقطاعية التجارية، إذ إن علم الدين أمسى يضمّن العُشْر إلى آخرين، ويضع وقّافة وشوابصة لحراسة المحاصيل. وكان فلاحو شين أكثر وعياً وأوفر حظاً من فلاحي القرى الأخرى، التي وقعت تحت أقدام الاستغلال الربوي، ولم تستطع أن تفي ديونها، فتحولت ملكية القرية إلى التجار والمرابين. وهنا نجد أن شين من الحالات الفريدة، التي تمكن فيها الفلاحون من سداد الديون في مدة لم تتجاوز 22 سنة (1916-1938)، وتمكنوا من الخلاص من جحيم الإقطاعية[13].

2- قضاء جبلة: تألف من الريف ومن البلدة جبلة، وسكانها من السنة، وعددهم قبل الحرب العالمية الأولى 5000 نسمة، انقسموا، حسبما جاء في كتاب "ولاية بيروت"، إلى ثلاث فئات:

1)- الفئة الأولى: تألفت من أسرتين بلغ عدد أفرادهما 200 نسمة، احتكر بعض أفرادها تجارة القضاء، وقد ملكت الأسرة الأولى 70% من عموم أراضي القضاء الصالحة للزراعة من قرية "حماميم" إلى قرية "حريصون"، وقدّرت ثروة بعض أفرادها بنحو خمسين ألف ليرة. أما الأسرة الثانية فملكت من 10 إلى 15% من أراضي القضاء، وزادت ثروة بعض أفرادها على 10000 ليرة، "وأغلب أفراد هاتين الأسرتين متخرج من الأزهر، وهم متمسكون بالدين"، ولكن سطوتهم ضعيفة بعكس غيرهم من كبار ملاك الأراضي، ولذلك فإن غلالهم كثيراً ما سرقها الفلاحين العلويون الجياع المحرومون من الأرض.

2)- الفئة الثانية: وهم يدخلون في عداد الفلاحين الأغنياء والمتوسطين، وبلغ عددهم من 250 إلى 300 نسمة، وقد ملكت هذه الفئة 10% من الأراضي، واشتغلت بزرع التبغ والتنباك والتجارة بهما.

3)- الفئة الثالثة: كوّنت السواد الأعظم من سكان البلدة، 4500 نسمة لا يملكون أية وسيلة إنتاج، "يحصلون على عيشهم بكد يمينهم عن طريق الزراعة والحراثة، ويسكنون في الحارات الوسخة الفقيرة".

---

[13]- عندما زرنا قرية شين عام 1984 لم نكن نعلم أنّ قسماً من أهالي شين، وهم علويون أصبحوا مرشديين مع انتشار الحركة المرشدية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين. وأسباب قيام الحركة المرشدية وانتشارها في عدد من مناطق سكن العلويين متعددة، ويأتي في مقدمتها العامل الاجتماعي، ولدى كاتب هذه الأسطر دراسة غير منشورة بعنوان: "الخلفية الاجتماعية للحركة المرشدية".

قدّر مؤلفا كتاب "ولاية بيروت"، الذي استقينا منه هذه المعلومات، أن عدد سكان ريف جبلة، وهم من العلويين، بلغ 33500 نسمة. وانقسم الريف اجتماعياً، كما في قضاء صافيتا، إلى ثلاث فئات: 1- المقدمون، 2- المشايخ، 3- الفلاحون، وكانوا فقراء معدمين. وقد أدى الفقر المدقع، الذي عاشه هؤلاء الفلاحون، إلى دفع بعضهم "إلى ارتكاب الشقاوة وقطع الطرق" كي يسدوا رمقهم، كما جعلهم في الوقت نفسه فريسة سهلة في يد المقدمين، الذين استخدموهم أداة ضغط وتهديد ضد الآخرين من منافسيهم[14].

وذكر كتاب "ولاية بيروت" أن عدد المقدمين بلغ 25 مقدماً، وعدد المشايخ 10، ولبعض العشائر مقدمان، عدا عشيرة النميلي فلها شيخ فقط[15].

3- قضاء اللاذقية: لم يختلف الوضع في ريف اللاذقية عنه في جبلة وصافيتا، إذ ملكت بضع عائلات إقطاعية من اللاذقية أراضٍ تراوحت قيمتها بين 1000 و2000 ليرة، وبلغ دخل العائلة من 200 إلى 500 ليرة، في حين عاشت جماهير الفلاحين من العلويين في حالة من البؤس والحرمان، وهي تعمل بالمحاصصة لدى ملاك الأرض القاطنين في اللاذقية. ويلاحظ وجود كثافة سكانية للتركمان في شمال قضاء اللاذقية، وتألفوا من الأغوات، وهم من كبار ملاك الأرض، ومن العامة الفقيرة...

أما مدينة اللاذقية البالغ عدد سكانها آنذاك 25000 نسمة فتألفت من "ثلاث طبقات":

1- الأغنياء، تعدادهم سبع أسر، تراوح عددهم من 500 إلى 600 نسمة، وهم قسمان: التجار، وأصحاب الأراضي والأملاك[16].

2- الطبقة الوسطى كانت مؤلفة من 50 عائلة عدد أفرادها 1000

---

[14]- أما عشائرياً فتألف ريف جبلة من العشائر العلوية التالية: بني علي من الحدادين 4000 نسمة، القراحلة (الشراقة أو الغرابة) 8000 نسمة، بيت نميلي 1000 نسمة، بيت ساطر 500 نسمة، الكلبية في الساحل وجبال الكلبية 8000 نسمة، النواصرة 4000 نسمة، حلة مرة ينو 1000 نسمة، الخياطون 7000، والمجموع 33000.

[15]- يقصد النميلاتية "جميعهم مشايخ (بالولادة)، وهم بالأصل مشايخ لجميع العشائر السنجارية. راجع محمد خونده: تاريخ العلويين وأنسابهم، اللاذقية، 2004، ص 209.

[16]- ويفصّل محمد خونده في كتابه عن تاريخ العلويين وأنسابهم في أصول هذه العائلات وأوضاعها (مصدر سابق).

نسمة، وهذه الطبقة الوسطى تألفت من الفلاحين الأغنياء أو صغار الملاك ومن تجار المرتبة الثانية.

3- العوام: وتألفوا من النوتية وبائعي الخضرة وزرَّاع البساتين والعمال.

حول الوضع في ريف اللاذقية نورد ما كتبه بو علي ياسين في الفقرة التالية[17]:

"في ضيعتنا وفي ريفنا عموماً، كان الإنتاج الزراعي والحيواني حتى الستينيات مخصصاً في الأساس للاستهلاك الأسري، كان في المقام الأول إنتاج قيم استعمالية، وليس إنتاجاً سلعياً، وما يُباع في السوق هو ما يفيض عن الحاجة، باستثناء مواد معدودة كالحرير والقطن، وخصوصاً الدخان، الذي احتكرت تجارته وصناعته الدولة الفرنسية المحتلة أولاً، ثمّ الدولة الوطنية. ولم تكن أسعار هذه الفوائض تشجِّع على تركيز الجهود فيها، فكان الهمّ الأول للفلاح هو تأمين مؤنته من قمح الطحين والبرغل والزيت، ومؤنة حيواناته من التبن والشعير، فإذا تمّ ذلك، اطمأن الفلاح إلى أنه لن يجوع السنة القادمة، ولن تنفق حيواناته أو يضطر لذبحها أو بيعها بثمن بخس. وكل مؤنة إضافية، من مواد أخرى، مثل العدس والذرة البيضاء والتين اليابس والدخان وغيرها، يعدّها زيادة في الخير..."[18].

4- قضاء الحفة: (عرف سابقاً بقضاء صهيون ومركزه بابنا) وتوزع سكان القضاء دينياً عام 1914 على النحو التالي: السنة 16106 نُسَم، العلويون 14750 نسمة، النصارى 2116 نسمة. اجتماعياً انقسم المجتمع إلى طبقتين الأغنياء، وهم الأقلية، والفقراء. وينقسم السنة إلى تجمعين: الأكراد، الذين تعربوا، والصهاينة وهم حسب المرويات قدموا من مناطق إدلب، وسكنوا قلعة صلاح الدين بعد تحريرها من الفرنجة. ومعروف أن القلعة كانت تسمى فيما مضى قلعة صهيون، فغلب اللقب عليهم، وكان وجهاء الصهاينة والأكراد مدعومين من السلطات العثمانية، وهذا ما يفسّر قول كتاب "ولاية بيروت": "ولا يدّخر زعماؤهم وسعاً في منع السعادة والرفاه عن أتباعهم من القرويين"[19].

---

[17]- بو علي ياسين: "عين الزهور، سيرة خاصة"، دار الحصاد، دمشق، 1993، ص39.

[18]- المصدر نفسه، ص 39.

[19]- "ولاية بيروت"، ص 440.

أما العلويون فانقسموا عشائرياً إلى: العمامرة 5000–6000 نسمة، المهالبة 2000–3000 نسمة، عشيرة داريوس (الدراوسة)، عشيرة بيت شلف 10000–12000 نسمة. ويلفت النظر كثرة عدد المسلحين، حسب تقدير كتاب "ولاية بيروت"، في عشائر هذا القضاء سواء من عشيرتي صهيون والأكراد أم من العشائر العلوية.

كانت الأرض الزراعية في مرتفعات الحفة محدودة وضيقة قبل خمسينيات القرن العشرين، لأن القسم الأعظم من الأرض غطّته الأحراج أو بقاياها، واستـُخدِم للرعي أو للحصول على الحطب وسيلة التدفئة الرئيسية آنذاك، واعتمدت الزراعة على الحبوب من حنطة وشعير وعدس وكرسنة وسمسم مع بعض الخضروات والدخان، الذي كان محصولاً رئيسياً نقدياً. أما الغذاء الرئيسي للفلاح، فتألف من الخبز والتين والبصل والثوم والعدس والبرغل، كما زرع الفلاح أحياناً القطن البلدي ذا الجوزة الصغيرة، وكان يُنتف باليد، فتغزل منه الثياب بالوسائل اليدوية، والنساء هنّ اللواتي تخصصن بغزل القطن وحياكته، كما في نسج وحياكة الحرير. ووجد في كل بيت عدد من رؤوس الماعز، وكان ذبح الجدي إكراماً للضيف أيسر من ذبح فروج الدجاج، فالفلاح الفقير ملك في حدود عشر عنزات، في حين ارتفعت ملكية الفلاح الميسور إلى خمسين رأساً من الماعز أو أكثر، كما ملك الفلاح زوجاً من البقر للحراثة والحليب. وإذا كان الفلاح غنياً، ترتفع ملكيته من البقر إلى الضعف. وكان ثمّة موسم معين لذبح البقر من أواخر كانون الأول إلى أوائل كانون الثاني يسمى "موسم القوزلي". وقد روعي في بناء البيوت فقدان الأمن وكثرة اللصوص، وكان هناك تعاون بين الفلاحين لدى بناء البيت أو تطيينه، كما كان التعاون قائماً في الأعمال الزراعية. فالفلاح المفتقر إلى أيّة أداة حديثة، وجد في التعاون مع الآخرين وسيلة هامة للسيطرة على بعض مظاهر الطبيعة. كما كان معظم الأرض بوراً، انتشرت فيها الأحراش والشجيرات الحرجية والرعوية، فكان كسر الأرض، أي "استصلاحها"، بحاجة إلى موافقة المستشار الفرنسي، الآمر الناهي في القضاء. والصلات بين المستشار وزعماء العشائر ومتنفذي القرى كانت في معظم الأحيان وطيدة، وهذا يعني أن تملك الأرض ارتبط برضا رئيس العشيرة، ومدى نفوذ العائلة وقوتها والعلاقة الجيدة مع السلطة.

وفـي كثيـر مـن الأحيـان كـان يجـري الاتفـاق بـين الفـلاح الضـعيف وزعيم العشـيرة أو سـيد العائلـة أو المتنفـذ، علـى أسـاس أن يقـوم الفـلاح بكسـر الأرض (استصـلاحها) واسـتثمارها مـدة سـنة، ثـمّ تصـبح ملكـاً للـزعيم، أو تجـري قسـمتها معـه، حسـب نسـبة القـوى والأجـواء السـائدة. وأحيانـاً عمـل الفـلاح، الـذي كسـر الأرض، مرابعـاً عليهـا لصـالح الفـلاح الغنـي أو زعـيم العائلـة أو العشـيرة. ولـم يكـن فـي مرتفعـات الحفـة مركـز تجـاري، رغـم تطـور بلـدة الحفـة فـي أواخـر القـرن العشـرين إلـى مركـز تجاري متواضع، كما لم تعرف مرتفعات الحفـة الملكيـات الكبيـرة بسـبب طبيعة الأرض الجبلية وانتشار الأحراج وصعوبة استصلاح الأراضـي، فالملكيات المتوسطة والصغيرة هـي السـائدة، وشكل الفلاحـون الأغنيـاء مـع المتمترسـين وراء العشـائرية والعائليـة والطائفيـة قـوة بـارزة فـي المنطقة، واتخذ بعض هؤلاء لقب آغا أو مقدم، ودخلـوا فـي صـراع فيمـا بينهم على الزعامة والنفوذ، لكنهم جميعاً، كمـا قـال أحد الفلاحين، كـانوا ينهبون الفلاح[20].

قريـة جوبـة برغـال، التـي نشـأ فيهـا سـلمان المرشـد، قريـة جبليـة فـي منطقة العلويين، تقع إلى الشـرق من اللاذقيـة، وتسـودها العلاقـات الآنفـة الذكر، ولم يكن عدد سكانها سنة ولادة المرشد عام 1907 يتجاوز 500 نسمة. وهم فلاحـون ورعـاة ينتمـون إلـى فخـذ العمـامرة المنضـوي تحـت لـواء تحـالف عشـائري ضـمّ إلـى جـانبهم الدراوسـة والمهالبـة.[21] طعـامهم خبز الشعير والذرة وبيض الدجاج والبرغل والبصـل ومنتجـات الألبـان، ولباسـهم أثمـال رثـة تكـاد لا تسـتر عـورات الفقـراء مـنهم. كانـت جوبـة برغال تابعة لناحية المهالبة المؤلفة من ثلاثين قرية صغيرة عدد نفوسـها عـام 1923 سـبعة آلاف نسـمة، ولـم يكـن فيهـا فـي عشـرينيات القـرن العشـرين إلا مـا يسـمى بمدرسـة فـي قريـة الفـاخورة مركـز الناحيـة. أمـا مخفـر الـدرك، رمـز "الدولـة" فـي الريـف، فقـد أحدثـه الفرنسـيون عـام 1924، وكان له دور في مراقبة سلمان المرشد ودعوته[22].

---

[20]- هذه المعلومات استقيناها أثناء جولتنا الميدانية عام 1984 في المنطقة.

[21]- في ظل غياب الدولة أو ضعف نفوذها، كان الناس مضطرين للدخول في أحلاف عشائرية لحماية أنفسهم من الدولة ومن جيرانهم.

[22]- انظر مخطوطنا "الخلفيات الاجتماعية للحركة المرشدية"، التي انتشرت أيضـاً فـي جبل الحلـو، وقـرى الغـاب الشـرقي، وبعـض قـرى ريـف حمـص، وقريـة البيطاريـة العلويـة إلـى

5- قضاء طرطوس: ومركزه بلدة طرطوس، وعدد سكانها 5000 نسمة، ثلاثة أرباعهم من المسلمين السنة والربع من المسيحيين. وفي عام 1914 لم يسكن أي علوي في بلدة طرطوس، وهذه الظاهرة تندرج على المدن الساحلية الأخرى: اللاذقية، جبلة، بانياس. ولم تبدأ هجرة الريف العلوي إلى هذه المدن إلا بعد الاستقلال 1943، وتحديداً في خمسينيات وستينيات القرن العشرين. ويذكر خونده أنه لم يكن يسمح للعلويين في العهد العثماني بالسكن قريباً من الطريق العام الساحلي، وبيوتهم كانت تبعد عن الطريق مسافة تتراوح بين خمسة وستة كيلومترات، أي مسيرة ساعة على الأقدام، والسبب خوف الدولة من هجماتهم على المسافرين[23]، ولم يذكر كتاب "ولاية بيروت" عدد العلويين في ناحية (ريف) طرطوس، لكنه أشار إلى أسماء العشائر العلوية: الحدادون، الخياطون، المتاورة، الجردية، ولكل عشيرة شيخ أو شيخان، وليس للمشايخ ملك أو مال.

تُقدم لنا رسالة ابن المنطقة سمير حسن لنيل درجة الماجستير في علم الاجتماع وعنوانها: **"الاندماج الاجتماعي للمهاجرين الريفيين في الحياة الحضرية لمدينة طرطوس"**، فكرة عن الهجرة الريفية في خمسينيات القرن العشرين وما بعدها[24].

فطرطوس حتى أواخر الخمسينيات تألفت من المدينة القديمة المسوّرة المنغلقة على نفسها بتقاليدها وطابعها الإسلامي، وإلى جانبها من ناحية الجنوب يوجد حي خاص تسكنه بعض العائلات المسيحية، وهم من أقدم سكان المدينة. واشتغل أغلب سكان المدينة المسوَّرة (طرطوس القديمة) بالعمل الزراعي في بساتين الليمون والزيتون

الشرق من دمشق، وفي ثلاث قرى علوية على الضفة الشرقية لطبرية. ولا بد من الإشارة إلى أن المرشدية لم تكن الحركة الدينية الوحيدة ذات الخلفيات الاجتماعية، فقد ظهرت في منطقة عفرين "حركة المريدين"، وهم من الأكراد النقشبندية، ويشبه زعيمهم الشيخ إبراهيم سلمان المرشد في كثير من تصرفاته، وسترد في بعض صفحات هذا الكتاب أقوال إيجابية من الشيوعيين تشهد على السلوك الجيد للمرشديين وأخلاقيتهم الرفيعة.

[23]- خونده محمد: "تاريخ العلويين وأنسابهم"، اللاذقية 2004، ص 215.

[24]- رسالة سمير حسن الجامعية غير منشورة، وقام معاذ حسن بالاعتماد عليها، ونشر في مجلة "دراسات اشتراكية" مقالة بعنوان: "مدخل لدراسة وضع الطبقة العاملة في محافظة طرطوس ودور الحزب الشيوعي في ذلك"، العدد الخامس (92) أيار 1989، ص 114-126.

المحيطة بالمدينة، التي تعود ملكيتها لعائلات قليلة، والعلاقة بين العمال ومالكي الأرض ذات طابع أبوي[25]، كما عمل قسم من سكان طرطوس في صيد السمك، وكانت الأقلية المسيحية في المدينة تعمل في التجارة وفي حرفة الصياغة إضافة إلى الأعمال الزراعية[26].

6- قضاء بانياس[27]**:** وعدد سكانه 35000 نسمة عام 1914توزعوا دينياً على النحو التالي: سنة 5000 نسمة، علويون 24000 نسمة، إسماعيليون 6000 نسمة، روم أرثوذكس 3500 نسمة، موارنة 1300 نسمة.

ويذكر كتاب "ولاية بيروت" أن المسيحيين في قضاء بانياس، وعددهم يقارب 5000 نسمة، سكنوا في عشرين قرية محاذية للساحل، في حين أُجبر العلويون على السكن في قرى تبعد عن الطريق الساحلي مسافة ساعة أو ساعتين سيراً على الأقدام، أي بين 5 و10 كم. وينتمي العلويون، وعددهم يفوق ثلثي السكان، عشائرياً إلى الحدادين والخياطين ويشكلون الثلثين، أما الثلث الأخير فيتألف من المتاورة والجردية والبشاورة[28]. وحسب ما جاء في كتاب "ولاية بيروت" فإن أرقى القرى هي قرى الإسماعيلين، ويليها قرى المسيحيين، ثم قرى السنة، أما "قرى النصيرية فهي في أسوأ الحالات بأوساخها"، ويعود سبب ذلك في رأينا إلى الفقر والاضطهاد من الحكم العثماني، ومن يزور اليوم (2005) قرى العلويين يجدها نظيفة ولا تختلف عن باقي القرى.

7- قضاء صافيتا: توزع سكان القضاء (30000 نسمة) حسب أوضاعهم الاجتماعية إلى ثلاثة أقسام[29]:

---

[25]- الأسرة الأبوية هي الأسرة البطريركية، التي يهيمن فيها كبير الأسرة على كل شيء، وتعني هنا أن مُلاك الأرض شغّلوا في بساتينهم أقرباءهم غير المالكين، وعلاقة القرابة هذه بين المالك والعامل في الأرض تختلف عن العلاقة بين المالك والعمال الغرباء.

[26]- نقلاً عن معاذ حسن... مصدر في حاشية سابقة.

[27]- اسمه السابق قضاء المرقب، ومركزه بانياس، التي كانت حتى مستهل القرن العشرين تجمعاً سكانياً صغيراً.

[28]- لعلها البشاغرة.

[29]- هذا التقسيم لم يقتصر على منطقة صافيتا، بل شمل سائر الجبل العلوي. ويورد محمد هواش في كتابه (عن العلويين ودولتهم المستقلة)، ص 68-69، الفئات التالية: الزعيم، الأعيان والوجوه، المشايخ. ويهمل العامة، وهم أكثرية السكان.

1)- فئـة الرؤسـاء، الـذين تزعمـوا العشـائر، وكـان لكـل عشـيرة بيـت انحصرت فيه الرئاسة، وانتقلت إلى الأولاد والأحفاد عن طريق الإرث، وكـان لهـؤلاء الرؤسـاء سـلطة عظيمـة وسـيطرة قويـة، ومـن أشـهر الرئاسـات: رئاسـة "بنـي حامـد" (100 نسـمة) علـى الحـدادين (10000 نسـمة)، ورئاسـة "بنـي جـابر" (العبـاس) (150 نسـمة) علـى الخيـاطين (10000 نسمة)، وكانت (عام 1914) نصف أملاك القضـاء فـي حـوزة بني حامد وبني جابر، وقد تراوح دخل رؤساء الحدادين والخيـاطين مـن 1000 إلـى 1500 ليـرة سـنوياً، أمـا دخـل رؤسـاء العشـائر الأخـرى مـن المتاورة (عددهم 3000 نسمة) والنواصـرة (عـددهم 3000) والرسـالنة (عددهم 2000) والشمسيين (عددهم 3000)، فكان لا يقل عن 700 إلى 800 ليرة، وقد أطلـق علـى رؤسـاء الحـدادين والخيـاطين لقـب "أفنـدي"، فـي حـين أطلـق علـى رؤسـاء العشـائر الأخـرى لقـب "آغـا"، وكـان المعـروف عـن هـؤلاء الرؤسـاء تقـربهم مـن مـأموري الحكومـة، كـي يتمكنوا بواسطتهم من تثبيت سلطتهم بمؤازرة القوة العمومية، أي سلطة الدولة.

2)- فئـة المشـايخ: الـذين أتـوا فـي المرتبـة الثانيـة، وكانـت لهـم سـلطة دينية، يحاولون عن طريقها الحصول على بعض المكاسب في ذلك الجو الفقير، وكان الرؤساء يجزلون العطاء للمشايخ من أجل كسب رضـاهم، وكـان المشـايخ يتقاضَـوْن الزكـاة مـن العامـة (الفلاحـين)، ويعيشـون بفضلها، وقد لعبت سياط جنود الدولة العثمانية، كما في جميع المنـاطق، دوراً في دفع العامة للاحتماء بالرؤساء والمشايخ والتكتل حول الطائفة بعامة، والعشيرة بخاصة.

3)- فئة العامة: التي انقسمت إلى قسمين رئيسيين هما:

أ) الفلاحون، وكوّنوا ثلثي العامة، وانقسموا أيضاً إلى فئتين:

1- فلاحون مالكون لقطع صغيرة من الأرض.

2- فلاحـون محرومـون مـن الأرض، ويعملـون عنـد الرؤسـاء، أي رؤساء العشائر، ويخضعون لاستثمار شنيع.

ومع الأسف نجهل حتى الآن هل قام هؤلاء الفلاحون بـأي تمـرد ضـد "رؤسـائهم"؟ لكـن المعتقـد أنهـم كـانوا مسـحوقين ماديـاً ونفسـياً، تلفهـم الأوهـام والخرافـات والخـوف مـن الغريـب، مستسـلمين للقيم العشـائرية الإقطاعية، وكان خضوعهم الدنيوي لرئيس العشيرة وخضـوعهم الـديني

للمشايخ عاملَيْن أساسيين في ركودهم واستسلامهم، فهم لا حول لهم ولا قوة في مواجهة مستثمريهم سواء من داخل العشيرة أم من رجال القوة السلطانية العثمانية الغاشمة.

ب) العاملون بالحرير وعددهم يقارب ثلث العامة.

كما وجد في قضاء صافيتا عدد لا بأس به من الفلاحين الإسماعيليين الخاضعين مثل إخوانهم الفلاحين العلويين إلى المشايخ، وعددهم 15 شيخاً.

ويقدر كتاب "ولاية بيروت" عدد المسيحيين في قضاء صافيتا بين 5000 و6000 نسمة "عاشوا مختلطين بالنصيرية في 17 قرية، ولهم ثلاثة قرى خالصة لهم لا يشاركهم فيها النصيريون". و"خُمس المسيحيين يشتغل باستحصال الشرانق وبيع الأقمشة أو بصنعة الحدادة أو الخياطة أو البناء، وخمسهم يشتغل بالفلاحة، والباقي منهم يعيش بنقود أمريكا"، أي من المال القادم من أقاربهم المهاجرين إلى أمريكا. ولم تقتصر الهجرة على المسيحيين، بل تعدتها إلى العلويين، ويقدر عدد المهاجرين العلويين إلى أمريكا من قضاء صافيتا بعشرة آلاف، وكان دخل قضاء صافيتا من المهجر قبل الحرب العالمية الأولى نحو 250 ألف ليرة في السنة، ومن يقرأ **"من دفتر الذاكرة"** لدانيال نعمة يلاحظ مدى اتساع الهجرة من قضاء صافيتا ومنها المشتى إلى أمريكا.

و**المشتى**، بلد دانيال نعمة، كانت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مركزاً للصناعات الحرفية، كصناعة العباءات والحرير، وسوقاً للتجارة والربا، وعقدة مواصلات أدت إلى ظهور فئة من المكارية ينقلون البضائع من منطقة إلى أخرى، ولم تكن الزراعة القطاع الأساسي في حياتها[30]. وفي المشتى، أقامت عائلة آل ثابت اللبنانية معملاً لصناعة الحرير عمل فيه 200 عامل وعاملة عام 1945، اشتغلوا في اليوم 13 ساعة، وتناولوا عن كل يوم أجرة لا تزيد عن ليرة سورية واحدة، وكان مدير المعمل في أوائل أربعينيات القرن العشرين فرنسياً يدعى مسيو ديلون، وكان وزوجته يمارسان ضغطاً رهيباً على العمال والعاملات، ويطردانهم ساعة شاءا، رغم ضآلة

---

[30]- يقال إن اسم المشتى أتى من كونها مركزاً شتوياً لحفظ بذور دودة الحرير (بيوض الديدان) فعرفت بالمشتى، والحلو نسبة إلى آل الحلو، ومساكنها القديمة حجرية متراصة في ثلاثة أحياء.

الأجور. وفي أحد أسابيع عام 1944 أضرب العمال احتجاجاً على تصرفات المدير وزوجته والأجور الضئيلة التي يتقاضونها، لكنهم اضطروا للعودة سريعاً إلى العمل خوفاً من الموت جوعاً[31].
وكانت المشتى بسبب طابعها "الحرفي التجاري"، مهيأة لتقبل تنظيمات المجتمع المدني، رغم الخلافات الحادة بين عائلتي الحلو والخوري، ولهذا كانت المشتى منذ ثلاثينيات القرن العشرين محط أنظار الحزبين العلمانيين المتنافسين والمتخاصمين: الحزب السوري القومي الاجتماعي والحزب الشيوعي، وسنرى فيما بعد ظروف تأسيس الحزب الشيوعي وانتشاره في المشتى، وهو أحد مواضيع هذا الكتاب الأساسية.
جارة المشتى **الكفرون**، المصيف الجميل الذي يقصده الناس من جميع أنحاء سورية ولبنان طلباً للماء والخضرة والجمال والصفاء ولطف المعشر وراحة البال، لكن كفرون اليوم هي غير كفرون الأيام الخوالي في مستهل القرن العشرين، ولنقرأ ما كتبه ابن المشتى الشاعر الأديب ميخائيل عيد عن كفرون تلك الأيام، كتب عيد[32]:
"كانت الكفرون قرية فقيرة ككل قرى الناحية، جدران بيوتها (قُلْ جحور سكانها المعتمة)، من الحجر غير المشذب، وسقوفها من جذوع الأشجار، يوضع فوقها تراب "المحافر"، ويدحل منعاً للدلف بمداحل حجرية تُدفع أو تُجرُّ بأقواس معدنية أو خشبية ترسل صريراً صار جزءاً من ذاكرة جيلنا عن تلك الأيام... كان الأهالي يقللون عدد النوافذ في بيوتهم خوفاً من اللصوص (الحرامية)، وكان الفقراء عرضة لمنغّصات شتى: مضايقات "الأكابر"، ومضايقات الجندرمة، ثمّ مضايقات الحرامية...".

8– مشايخ العلويين ورؤساؤهم:

جلس على رأس الهرم الاجتماعي للعشيرة الرؤساء، الذين تحوّل بعضهم إلى ملاك للأرض، ومعهم أو دونهم بقليل احتلت فئة من المشايخ مرتبة مميزة، ولم يكن المشايخ، كما هو الحال في كل مكان،

---

[31]- بدر مرجان "مطالب الشعب في الجبل العلوي"، من منشورات الحزب الشيوعي السوري دمشق، أواخر 1945، ص 21.
[32]- ميخائيل عيد: "مرثية لمخول الطلاقي" في دراسات اشتراكية، العدد 11، 1982، ص 163.

على سوية واحدة، فهناك مشايخ مرموقون لا يردّ لهم طلب، ومشايخ متوسطو الحال، ودونهم المشايخ الجوالون، وهم في منزلة الفقراء. **ننقل فيما يلي** بعض ما كُتِبَ عن مشايخ العلويين:

آ- الباحث الماركسي بو علي ياسين كتب:

"ينقسم الناس في جبال العلويين، إلى جانب التقسيم العشائري، إلى شريحتين اجتماعيتين رئيسيتين: المشايخ والعوام، وقد يكون أصل هذا التقسيم دينياً طبقياً، لكنه الآن (1990) على صعيد الواقع الاجتماعي الاقتصادي لا يدل على أية فروق طبقية حقيقية، إنما قد يعطي الانتماء إلى شريحة المشايخ بعض الوجاهة على مستوى القرية أو الناحية، إضافة إلى ما يشاع من أن بنات المشايخ أجمل من بنات العوام، باعتبار أن بنات المشايخ أقل شقاء في الزراعة وتربية الحيوان، وأقلّ تعرُّضاً لأشعة الشمس، كما أنه لا يعني بالضرورة أن أبناء المشايخ يمارسون حالياً بالضرورة دور رجال الدين، إنما يهيئ لهم هذا التصنيف الفرصة للقيام بالدور المذكور، لمن أرادوا وحازوا على المعرفة والخبرة اللازمتين لذلك، وقد كان جدي شيخاً وفلاحاً في الوقت نفسه، وكذلك كان أبي (والكلام لأبي علي ياسين)، لكنه قلما مارس المشيخة، وما كان يرغب في التكسّب من هذه المهنة"[33].

"وأكثر ما كان يزور الضيعة[34] من الغرباء هم" المشايخ الدوارة"، الذين يأتون ليأكلواويناموا أحياناً، و"ليشحدوا" (بحسب الموسم) الحبوب والزيت وغيرهما، وكان هؤلاء يُصنفون اجتماعياً في مرتبة ما بين المتسولين والمشايخ البهاليل، وقد زخرت الثقافة الشعبية بالنوادر والنكات عن هؤلاء المشايخ الجوالين، الذين كانوا يغمغمون في كلامهم، فلا يفهم المرء شيئاً من أدعيتهم، ربما لكثرة ما رددوا هذا الكلام، أو خوفاً من أن "يكشف" المضيف جهلهم"[35].

"لم يكن أهل الضيعة يسيئون معاملة المشايخ الدوارة، وفي نفس الوقت ما كانوا يحترمونهم كثيراً، فالشيخ المحترم في نظر هذا المجتمع

---

[33]- بو علي ياسين: "عين الزهور، سيرة ذاتية"، دار الحصاد دمشق 1993، ص 26.

[34]- ضيعة بوعلي ياسين، وهي مزرعة صغيرة تسمى "عين الجرب"، تبعد حوالي اثنين وعشرين كيلومتراً عن مدينة اللاذقية باتجاه حلب، وقد غمرتها مياه سد نهر الكبير الشمالي، وبو علي ياسين من مواليد 1942، وأنهى كتابه المذكور 1990.

[35]- المصدر نفسه، ص 59.

لا يدور على القرى ويطلب الزكاة كالمتسول، بل لا يزور دون عزيمة سوى الأسر القريبة أو الصديقة، أو الأسر التي سبق أن عزمته أو استدعته في المناسبات. وإذا ما ذهب، مع ذلك، شيخ من هؤلاء المحترمين يدور على الزكاة في القرى لدى الأسر المذكورة، فإنه يرتدي لباساً مناسباً له كشيخ: سروال وسترة وجبة بلون واحد، أو قنباز وفوقه جاكيت وتحته لبيسة بيضاء، وعلى الرأس في كلا الحالتين طربوش ولفة، كما يركب على حمار، ويرافقه شخص راجل يخدمه اسمه "العكام". هذه مظاهر هامة، لكن المقياس الحقيقي للشيخ المحترم هو قيامه بالدور المرسوم له اجتماعياً في المناسبات مثل الزواج والطلاق والأعياد والحسنات والنذور والمآتم، وفي قراءة القرآن وسرد الأحاديث والقصص الوعظية والدينية والعلمانية، وفي تعليم الدين للجيل الناشئ"[36].

"كان يزورنا في الضيعة مجموعة من هؤلاء المشايخ المحترمين، الذين تربطهم بآبائنا صلات قربى و/أو صداقة، أخص بالذكر... وقد تلقى هؤلاء الصدمات الأولى لرفضنا[37] العفوي للعلاقات الاجتماعية السائدة، وتجلى أول ما تجلى في إحجامنا عن تقبيل أيديهم، خلافاً للعادة والعرف، غير أنهم قابلوا سلوكنا هذا بالتسامح غالباً، وبقوا على مودتهم لنا بقاءهم على مودة أهلنا، بل إنهم كثيراً ما دافعوا عنا أمام أهل الناحية. كانوا رجال دين لمن أرادهم من الناس، وما كانوا مبشّرين. كانوا يقرؤون القرآن، ويقيمون الشعائر، ويعظون، وفي نفس الوقت يتسامرون مع آبائنا بإنشاد الأشعار ورواية الأحاديث والنوادر وسماع الغناء، كما يتمازحون، ويلعبون بالمنقلة، ثمّ كانوا يهتمون بأمور الناس، ويسعون لفض المشاكل وتسوية الخلافات في وسطهم الاجتماعي. احترامهم وتقديرهم للجيل المتعلم الصاعد كان يشفع لهم غيبياتهم وخزعبلاتهم المتوارثة"[38].

ب – ما نُقل بتاريخ 1992/01/21 عن لسان كامل عباس من حزب العمل الشيوعي والسجين في صيدنايا، قال كامل أمام عدد من نزلاء السجن:

---

[36]- المصدر نفسه.

[37]- الضمير "نا" تعود على المتعلمين من أقران بوعلي ياسين.

[38]- المصدر نفسه، ص 60.

"... ما أذكره عن قريتي أنها فقيرة، وتميزت أن جميع أهلها مشايخ، والعادة في الطائفة العلوية لا يحق لأحد أن يصبح شيخاً إلا إذا كان ابن شيخ، والمشيخة امتياز تساعد على تناول الزكاة في الأعياد (هي عندنا اثنا عشر عيداً)، أما العوام فلا تجوز الزكاة لهم، وابن الشيخ يصبح شيخاً بالوراثة، أما إذا أراد ابن الشعب أن يصبح شيخاً، فيحتاج إلى طقوس وإجراءات عديدة تحول بينه وبين الوصول إلى المشيخة، ربما سبب إقبال أهل القرية على المشيخة هو الفقر، فكان حفظ الأدعية مصدر دخل".

ويمضي كامل قائلاً: كنت الأصغر بين إخوتي، لذلك لم أعاصر أحد أجدادي، فجدي (والد والدي) كان شيخاً، وقد جمع بين المشيخة والطب الشعبي، وذات مرة سخَّر الجن لمساعدته على حصاد الحقل، أما جد والدتي فكان صالحاً، وكان لغوياً وعلامة، ولُقّب بالخطيب، لأنه أقام أعواماً خطيباً في الكتّاب، يعلم به أبناء المنطقة القرآن، وكان أحد تلامذته صالح العلي، وقد نقل فيما بعد الثورة من قريته "المرقب" إلى قرية جد والدتي "بشراغي" بعد وعده بالدعم[39].

ج- نتبين ثقافة المشايخ من متوسطي الثقافة **ما كتبه عبد اللطيف اليونس** عن والده الشيخ، الذي كان يحتفظ بكتب كثيرة، بعضها مخطوط، وأكثرها يقتصر على سيرة النبي محمد وآل بيته، ثم على مجموعة ضخمة من الأدعية والأوراد وسير أولياء صالحين، كما كان الشيخ يحتفظ بنسخة من القرآن الكريم كتبها بخط يده تبركاً بها، ورغبة في الثواب[40].

---

[39]- يقول من نقل الخبر، وكان مع كامل في سجن صيدنايا: إن كاملاً أضرب عن الطعام ثلاثة أيام لعدم ورود اسمه في قوائم المفرج عنهم أواخر 1991، وكان يمر بمرحلة من القلق والتساؤل، وربما يجد أن السجن قد طال دون جدوى. ويمضي محدثي قائلاً: "إن لكامل مستقبل في التنظير للصراع الطبقي، وفي صياغة المذكرات". ولا بد من التنويه هنا أن نشاط رابطة العمل الشيوعي في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين بحاجة إلى دراسة خاصة، فقد قدمت تلك المجموعة من الشباب والشابات ألواناً من الشجاعة أمام التحقيق المتزامن مع التعذيب الرهيب، وصمدت في السجون، مدافعة بحنكة أمام المحاكم، كما قدّم العديد من مفكري الرابطة الشباب دراسات نشرت في كراريس أو في مطبوعاتهم وجرائدهم السرية. ومع الأسف، طوى القمع وعوامل كثيرة أخرى إبداعات أولئك الشباب، وكثيراً ما تحدثت بإعجاب أمام دانيال نعمة عن هؤلاء الشباب، ورأيت البشر يطفح على وجهه، والفرحة تسري في أوصاله، دون أن ينسى توجيه بعض النقد لسياستهم المتطرفة.

[40]- مذكرات الدكتور عبد اللطيف اليونس، ص 15.

د- ويلفت النظر حول مواقف مشايخ العلويين من رجال السلطة العثمانية، ما ورد في دليل لبنان وسورية الصادر في مصر 1912–1913: "... **وما يستملح من عادات مشايخ النصيرية أنهم لا يؤاكلون الحكام الذين تعودوا اختلاس أموال الناس**"، و"لمشايخهم ثلاث رتب: رتبة الإمام ورتبة النقيب ورتبة النجيب، وهم يرجعون إليهم في جميع أمورهم"[41].

هـ- كان العلويون في مناطق صافيتا وجوارها يقدمون النذور إلى دير الحميراء، المعروف بدير مار جرجس أو الخضر، بالقرب من قلعة الحصن، وهو دير مشهور تابع لطائفة الروم الأرثوذكس. عندما زار **الشيخ خليل بن معروف النميلي** المتوفى عام 1815 منطقة صافيتا، أشار على مريديه من العلويين ببناء مقام للخضر في قرية **تلة الطليعي**، وبناء بيت سكن للشيخ جابر المنصور ليقوم على خدمة مقام الخضر، "ويستلم الدراهم التي يقدمها الزوار للخضر"[42].

ودارت الأيام دورتها، وتحول أحفاد الشيخ جابر إلى ملاك كبار للأرض وزعماء لعشيرة الخياطين في مناطق صافيتا والجبل العلوي، فبعد صدور قانون الأراضي لعام 1858 ورديفه قانون الطابو، بدأ كبار رجالات الدولة والمتنفذون وأرباب الوجاهة ورجال الدين والتجار في سائر أنحاء بلاد الشام والعراق يحوّلون الأرض الأميرية وأرض الفلاحين إلى ملكية خاصة لهم في أواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين. ومن هنا برز بنو جابر، الذين أخذوا فيما بعد اسم آل العباس، بالظهور، ولعبوا في النصف الأول من القرن العشرين دوراً سياسياً بارزاً في الساحل، ولم يكن يَدُرْ في خلد الشيخ خليل النميلي أن بني جابر، وهم آل العباس فيما بعد، سيتحولون إلى ملاك كبار لهم صولة ودولة، وسنرى أن نشرات الحزب الشيوعي في صافيتا وجهت سهام هجماتها إلى الإقطاعيين من آل عباس.

أثناء رحلة الشيخ خليل النميلي في العقد الأول من القرن التاسع عشر إلى بلدة صافيتا المسيحية آنذاك، استقبله الحداد بشور، وحدا له فرسه، وقام بإصلاح لجام الفرس، ورفض أخذ أجرته، فدعا له الشيخ خليل: "بجاه العدرة أم النور ترزقكم يا بيت بشور". هذا الدعاء العادي

---

[41]- "دليل لبنان وسورية" بولس مسعد، مصر (1912-1913)، ص 323.

[42]- نقلاً عن خونده، ص 14.

النابع من الاعتراف بالجميل من شيخ يقدر المعروف استـُغِلَّ بعد مئة سنة، عندما أصبح بعض وجهاء آل بشور إقطاعيين، فهؤلاء استخدموا هذا الدعاء لفرض هيمنتهم على فلاحيهم من العلويين، وهم يرددون على مسامعهم في كل مناسبة دعاء الشيخ خليل النميلي لهم[43].

هذا الدعاء الخالص لوجه الله من شيخ علوي لحداد مسيحي، تحولت ذريته إلى طبقة إقطاعية، يبيّن لنا أن الدعاء لا غبار عليه، لكن المشكلة تكمن في استغلال الدعاء من الفئات المهيمنة في كل زمان ومكان، ونحن نرى أن المقصود من قول ماركس "الدين أفيون الشعوب" ليس الدين كقيم روحية وأخلاقية، بل استغلال الحكام للدين للسيطرة على الشعوب واستغلالها باسم الدين.

والشيخ خليل النميلي، القادم من ريف جبلة إلى صافيتا، لم يكن يدر في خلده أن الشيخ منصور سيستغل إجراءً عادياً اتخذه هو لصالح مريديه، ليؤسس الثاني مع أحفاده إقطاعية واسعة، والأمر نفسه في دعاء الشيخ خليل لجد آل بشور.

و- يذكر محمد خونده في كتابه "تاريخ العلويين وأنسابهم" أن مشايخ عشيرتي النميلاتية[44] والبشارغة[45] متلازمون في العلوم الدينية، وينهلون من نبع واحد، وهم مشايخ بالسلالة، فكل نميلاتي أو بشراغي شيخ بالولادة، يحق له أن يمارس مهنة المشيخة بجميع مقوماتها، إذا أراد ذلك، وهو أمر لا يتيسر للعوام من العشائر الأخرى، بمعنى أن الشيخ يجب أن يكون متحدراً من سلالة المشايخ[46].

"والبشارغة أهل علم وفقه، ومنهم الشعراء والأدباء، وهم يمارسون مهنة تعليم الناشئة القراءة والكتابة وعلوم القرآن والدين واللغة العربية، وقد اشتهر منهم كثير في هذا المجال[47].

---

[43]- هذه المعلومة رواها لنا الفلاح حسن الرقماني من سبّة مواليد 1933، في لقاء معه في بيته بسبّة بتاريخ 1984/09/17، وهو فلاح محاصص في أرض آل بشور في سبّة، ومنتفع من هذه الأرض بعد الإصلاح الزراعي. انظر أيضاً ما كتبناه عن حركة الفلاحين في سبّة ضد الإقطاعيين من آل بشور في فصل لاحق.

[44]- ومنهم الشيخ خليل بن معروف النميلاتي، وكذلك الشيخ المشهور أحمد سليمان الأحمد.

[45]- ومنهم الشيخ صالح العلي قائد الثورة الوطنية 1919-1921.

[46]- خونده، ص 245.

[47]- خونده، ص 246.

ومن مشاهير مشايخ البشارغة الشيخ علي عيد (1802- 1875)، وكان شيخاً رئيساً، أي كانت له الرئاستان الدينية والزمنية في عشيرة البشارغة، وقد اشتهر بعمارة الطواحين على الأنهار ومجاري المياه، وتجهيزها بما يلزم لها من أدوات، كي تدور وتعمل في طحن الحبوب. وخوفاً من مصادرة الأقوياء أو الدولة بعد وفاته لهذه الطواحين وقفها وقفاً ذرياً، والوقف الذري في سائر أنحاء الولايات العثمانية كان معروفاً ومستخدماً من أصحاب الثروات والعقارات لحماية ملكيتهم لذريتهم باسم الدين، منعاً من مصادرتها، وهذا يعني أن آل عيد اشتهروا بإدارة الطواحين، وكانوا على جانب من الثراء حسب مقاييس ذلك الزمن.

كما اشتهر من البشارغة الشيخ علي سليمان (1843-1907) من المريقب قرب الشيخ بدر، ويروي محمد خونده في كتابه أن الشيخ علي سليمان زار علي خونده (جد محمد) في حدود عام 1890، وكان الشيخ علي سليمان يعيش في ضائقة مالية، فارتأى خونده على الشيخ علي سليمان أن يقوم بجولة على الفلاحين، ليجمع المبلغ منهم عن طريق الزكاة، ورافق الشيخ علي سليمان رجلان بصفة خادمين له من جانب علي خونده إلى جانب خادميه. معنى ذلك أن الموكب تألف من خمسة أشخاص، وكان المرافقون الأربعة للشيخ علي يعلنون في كل قرية أن الشيخ بحاجة إلى المال، ويطلبون من الأهالي "أن يقدموا له الزكاة من النذور والحسنات وأموال الوقف، ويرون أن من حسن توفيقهم تقديم الزكاة، التي هي دَيْن في أعناقهم، إلى هذا الشيخ الجليل القدر، كي تحل في ديارهم دعواته لهم بالخير والبركات"[48]. استمرت الجولة خمسة عشر يوماً أو أكثر، عاد بعدها الشيخ علي سليمان وفي جيبه 117 ليرة ذهبية، ويقول خونده إنه روى هذه الحادثة، التي سمعها عن والده وعن غيره، "لما لها من دلالة تاريخية على تعلق العلويين بالأتقياء من مشايخهم، ومدى تكريمهم لهم"[49].

أنجب الشيخ علي سليمان، الشيخ صالح العلي (1858- 1950)، الذي طبق صيته الآفاق، فقد رفع الشيخ صالح العلي السلاح عام 1919 في وجه الغزو الاستعماري الفرنسي للساحل السوري، ودامت ثورة الشيخ صالح العلي ثلاث سنوات. كتب عنها عبد اللطيف اليونس،

---

[48]- نقلاً عن خونده، ص 248.

[49]- المصدر السابق، ص 247.

وأسماها في الطبعة الأولى من الكتاب **"ثورة العلويين"**، ثمّ أطلق عليها في الطبعة الثانية اسم **"ثورة الشيخ صالح العلي"**، ولسنا بصدد بحث هذه الثورة الوطنية، التي وقف في وجهها كثير من رؤساء العشائر العلوية، واستغلها بعضهم ممن شارك فيها للقيام بالسلب والنهب، مما أضر بالثورة وبقائدها[50].

ز- كثير من العشائر برز فيها المقدَّمون، الذين جمعوا حولهم عدداً من الرجال، ويصبح المقدم مشهوراً إذا جمع بين قوتي المال والرجال، وكثيراً ما استخدمت السلطات العثمانية هؤلاء المقدمين لجمع الضرائب من الفلاحين. وعن طريق التزام الضرائب وجبايتها اشتد ساعد كثير من المقدمين، وأذاقوا الآخرين، خاصة الضعفاء، الأمرَّيْن. وتنقل المرويات الشفهية أخباراً كثيرة عن مظالم عدد كبير من المقدمين، الذين أرهقوا الفلاحين في جباية الضرائب، واستأثروا بالقسم الأكبر من المال المجموع من عرق الفلاحين وتعبهم.

كان رؤساء بعض العشائر يتقاضون فريضة سنوية، يؤديها لهم أفراد العشيرة، ومع مرور الزمن أصبحت فريضة لا يجرؤ أحد على التخلف عن دفعها، ومن يحاول التملص منها تجبى منه بالقوة. هذه الإتاوة النقدية، إذا لم يكن باستطاعة الفلاح ابن العشيرة دفعها، فإن عليه أن يقدم مرغماً فحل ماعز أو جدياً أو عنزة أو خروفاً أو نعجة أو كمية من السمن أو كمية من الحنطة أو الشعير أو غيرها من المنتجات الزراعية والحيوانية. وإذا امتنع الفلاح، أو لم يكن بإمكانه تقديم ما ذكرناه، فإن رجال رئيس العشيرة كانوا يصادرون أثاث البيت أو عدة الفلاحة، حتى يجبروا الفلاح على الدفع[51].

عندما احتلت القوات الاستعمارية الساحل السوري عام 1919، كانت العصبيات العشائرية في أوج ازدهارها، ورؤساء العشائر هم الحكام الفعليون، فرسّخ الانتداب الفرنسي هذه الظواهر، ولم يكن هو صانعها، كما يُروِّج بعضهم هرباً من الواقع المعيش، ولنقرأ رد الكتلة الوطنية عام 1933 على بيان المفوض السامي:

---

[50]- وقضية قيام بعض رجال الثورة باستغلالهم لها من أجل السلب والنهب ظاهرة عامة، لا تشذ عنها جميع الثورات الوطنية.

[51]- خونده، ص 228.

"إن العلويين ينقسمون إلى عشائر، ولكل عشيرة زعيم، وقد استمالت فرنسا بعض هؤلاء الزعماء، وأعطتهم الأموال والرتب، ومنحتهم السلطة، وبهذه الوسيلة أصبحوا حكاماً مستبدين"[52].

والواقع أن الانتداب الفرنسي لم يستمل رؤساء العلويين فحسب، بل استمال معظم رؤساء العشائر ووجهاء القرى في سائر أنحاء سورية ومن مختلف الطوائف، وكان هدف السلطات الاستعمارية الفرنسية توسيع القاعدة الاجتماعية التي تؤيدها، ليسهل عليها حكم البلاد بواسطة هؤلاء الرؤساء والوجهاء ورجال الدين من مختلف المذاهب.

9- العلويون في كتاب الباحث الوطني الدمشقي منير الشريف:

عام 1946 نشر في دمشق الباحث الوطني الدمشقي منير الشريف كتاباً بعنوان: **"المسلمون العلويون من هم؟ وأين هم؟"** مؤلف الكتاب عاش بين العلويين، وصادقهم، وكتب عنهم مشاهداته الممزوجة بالروح الوطنية السائدة آنذاك وشعارها "الدين لله والوطن للجميع".

ينقل الشريف عن علماء العلويين قراراً من بندين نـُشرا في كراس صدر عام 1936، وهما:

- "كل علوي فهو مسلم، يقول ويعتقد بالشهادتين، ويقيم أركان الإسلام الخمسة".

- إن العلويين ليسوا سوى أنصار الإمام علي، وما العلويون سوى أحفاد القبائل العربية، التي ناصرت الإمام علي (ع) في صعيد الفرات"[53].

الفصل الثالث يتتبع فيه المؤلف "هجرة العلويين إلى جبالهم"، ويقول: إن هؤلاء العرب، الذين تجمعوا في جبال اللاذقية، قد شيدوا هناك كياناً عربي القومية، نصيريّ المذهب، فالمسلم العلوي إذن: عربي بدمه، ولغته، وتاريخه، وعقليته، وإسلاميته، وعاداته، ومبادئه"[54]، ويذكر الشريف بلاغ رجال الدين العلويين في شهر تموز 1936 لدحض ما

---

[52]- رد الكتلة الوطنية على بيان المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان، وضعه عبد الرحمن الكيالي بقرار المؤتمر الوطني المعقود في حلب بتاريخ 16 شباط 1933، ص 19.

[53]- منير الشريف: "المسلمون العلويون من هم؟ وأين هم؟"، والكتاب مطبوع في دمشق سنة 1946، وأعادت مؤسسة البلاغ طبعه في بيروت عام 1994، ورقم الصفحات منقول عن طبعة 1994، ص 12.

[54]- المصدر نفسه، ص 105-106.

يشـاع مـن أن المسـلمين العلـويين غيـر مسـلمين: (كـل علـوي هـو مسـلم)، وتـواقيعـهم منشــورة فـي جـريـدة "**القـبس**" الدمشـقـية فـي 27 تمـوز 1936[55].

يخصـص الشـريف الفصـل الخـامس للحيـاة العشـائرية فـي العلـويين، والفصل السادس تحت عنوان "رجال الدين العلويـون" جـاء فيـه: "رجـال الدين يسيرون بأكثريتهم بإرادة رؤساء عشائرهم، وقد استطاع كثير من رجـال الـدين أن يقـاوموا رؤسـاء عشـائرهم، ويمزقـوا العشـيرة إلـى عـدة أقسام، ثمّ أصبحوا رؤساء على تلك الأقسام..."[56]، ويشير الشـريف إلـى عادة تقبيل الأيدي، فالصغير يقبل يد الكبير، والقبلات تطبع علـى أيـدي رؤساء العشائر ورجال الدين دوماً"[57].

تحدث الشـريف فـي الفصـل الثالـث عشـر عـن العلـويين والمـزارات، جـاء فيـه: "يبنـون فـوق كـل مـزار بنـاءً نظيفـاً تعلـوه قبـة عاليـة، وأكثـر المزارات في أعالي الجبال والروابي تكتنفها دوحات باسقة من السـنديان والبلـوط والصـنوبر، التـي تلقـي فـي روع الزائـر الرهبـة، والأشـجار لا تقطع، حتى إن الشجرة، التي تسقطها العواصف، تجف، ولا تُمس. لكـل مـزار خـادم يعتنـي بـه، ويعـيش مـن ريـع أوقافـه... للمـزارات حرمتهـا واختصاصـاتها: شـفاء العيـون، تهـب العـاقر الحمـل، تشـفي الأجسـام مـن الأمـراض، تفـرّج الكـروب، تغنـي وتفقـر". ويقـول الشـريف: "إن بعـض المثقفين العلويين لا يعتقدون بتلك المزارات"[58].

10– الطبقة التجارية في الساحل السوري شبه معدومة:

الدلـيل السـوري -"جـدعون"، الصـادر عـام 1922 بـاللغتين الفرنسـية

---

[55]- المصدر نفسه، ص 111.

[56]- المصدر نفسه، ص 126.

[57]- المصدر نفسه، ص 137.

[58]- المصدر نفسه، ص 181. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن معظم الديانات والطوائف لها مزاراتهـا، التـي تقـوم بوظـائف اجتماعيـة متعـددة بحاجـة إلـى كتـاب خـاص، ونشـير إلـى أن محمد خونده في كتابه عن تاريخ العلويين وأنسابهم يولي اهتماماً خاصاً للمزارات وسـدنتها، وقام بتصوير قسم كبير منها، وقد قام مؤلف هذا الكتاب بزيارة عدد من مـزارات العلـويين. وفي إحدى الزيارات في ريـف جبلـة، أشـار الصـديق العلـوي المرافـق لنـا أن هـذه المـزارات هي في إحدى وظائفها أشبه بمكان للسيران الشعبي، لمن يرتـادون هذه المزارات.

والعربية[59]، يقدم لنا فكرة عن أوضاع حكومات سورية ولبنان عام 1922، وسننقل فيما يلي مختصراً لما ورد في الدليل السوري عن "أراضي العلويين" عام 1922.

آ)– "موظفو حكومة أراضي العلويين الإدارية"، وهم: الحاكم الإداري الجنرال بيلوت. الإدارة المركزية، وتتألف من تسعة موظفين جميعهم فرنسيون. إدارة سنجق جبلة، وتتألف من مندوب الحاكم الإداري، وهو فرنسي، ومن خمسة موظفين عرب: متصرف، قائمقام جبلة، والمرقب، وصهيون، والعمرانية. إدارة سنجق طرطوس، وتتألف من مندوب الحاكم الإداري، وهو فرنسي، ومن متصرف وقائمقام الحصن وصافيتا. إدارة بلدية اللاذقية الممتازة، وتألفت من مندوب الحاكم، وهو فرنسي، ووكيل رئيس اللجنة الإدارية السيد محمد مرون. إدارة بلدية أرواد الممتازة، وتألفت من فرنسي وعربي.

ب)– التجار وأصحاب المصانع[60]، وهم:

جبلة: مال القبان: الحاج نجيب علاء الدين، الحاج حسن حرموش، محمد علي السيد، ومانيفاتورة: الحاج أدهم إبراهيم (ويتاجر بالغنم أيضاً)، عبد الرحمن الخوجة، فارس الطريفي، أحمد الطريفي، محمد أديب زاهد (وهو يعمل أيضا بمال القبان).

بانياس: يوسف الخدام، عبد القادر ناحوف، الحاج حمد محمد ياسين، والثلاثة يعملون في: "مانيفاتورة ومال القبان".

طرطوس: ديب بيرولي مبيع أجواخ وأقمشة وخرداوات. خضر بزاكي مبيع جلود. محمد بزاكي مبيع جلود. أسعد بيطار مال القبان. عبد الرزاق شعر أجواخ وأقمشة وخرداوات. أحمد الشامي أجواخ وأقمشة وخرداوات. كزما ديها وأولاده قومسيون ومانيفاتورة. ميشال وجبرائيل ديها قومسيون وأجواخ وأقمشة. توفيق دانيال قومسيون. نعمت إلياس ديب أجواخ وأقمشة وخرداوات. عبد القادر هيكل مال القبان. معلي محمد أجواخ وأقمشة وخرداوات. يعقوب وحنا جبور

[59]- وهو مجموعة الإحصاءات الإدارية والتجارية والصناعية والاقتصادية وأسماء التجار في البلاد السورية، أصدرته شركة الإعلانات السورية لصاحبيها إلياس وجرجي جدعون، وبين أيدينا العدد الأول، الذي طبع في مطبعة جدعون، بيروت، 1922.

[60]- يقتصر الدليل على أسماء التجار، ولا يذكر أي شيء عن "المصارف ومحلات القومسيون والمحامين والأطباء".

صابون. أحمد منصور أجواخ وأقمشة وخرداوات. حسن منصور مال القبان. طنوس منصور أجواخ وأقمشة وخرضوات. بدر أورفي أجواخ ومال القبان. متري رفول أجواخ وأقمشة وخرضوات. محمد طيارة أجواخ وأقمشة وخرضوات. مصطفى ترماني جلود. ميشال يازجي أخشاب. أحمد زير أجواخ وأقمشة وخرضوات. عبد الكريم زير أجواخ وأقمشة وخرضوات.

صافيتا: أنطونيوس أجي حرائر وعرق، أحمد بللول تاجر حرير. إسبر بارود حرائر وعرق. أنطونيوس بيطار حرائر وزيت. نجيب الأكول معمل حرير في الكفرون. عبد الكريم تاجر حرير في عين التين. شاكر خوري حرائر وعرق. جرجي خوري حرائر وعرق. أنيس جرج حرائر وزيت. يوسف فرعون معمل حرير في مشطة. يوسف طيار حرائر وزيت. أنطونيوس صوف وحرائر وزيت. عبود صوف وحرائر وزيت.

الحصن: الشيخ عباس زبيب وتين ناشف. عبد الحسيب الدروبي أجواخ وبقالة. إبراهيم حداد عرق ونبيذ. يوسف الخوري عرق ونبيذ. والأسماء التالية تاجرت بالحبوب: عبد الكريم بك الفياض، محمد آغا عبد الله، أسعد آغا المحمد، كاظم بك المحمد، محمد بك المحمد. محمد آغا نايف، جرجي نخل أسعد وميشال وسعيد سلوم، عيسى وقفي، خالد الزعبي، ناصر الزعبي.

اللاذقية: مجد الدين الزهري إصدار وتوريد بضائع. عبد القادر شريتح تنباك وحبوب. نوح كومين مانيفاتورة وحبوب. إسماعيل حمادة حبوب. محمد حمادة توريد تنباك وحبوب. مصطفى كنفاني حبوب. ألبير مرقص زيت كاز ومشروبات وأقمشة. فؤاد مرقص قومسيون. إبراهيم وإسحاق نصري تنباك وحبوب وبانكه إصدار وتوريد بضائع. وجيه رويحة مانيفاتورة. جبرائيل سعادة وأولاده تنباك حبوب وبانكه إصدار وتوريد بضائع. حبيب سعادة إصدار وتوريد بضائع. نجيب سعادة إصدار وتوريد بضائع. الحاج بدر الدين سابق مانيفاتورة. عبد الله سكيف مانيفاتورة.

أرواد: أحمد الجندي أخشاب وحبوب ومعمل زوارق. محمد صبرا أخشاب وحبوب ومعمل زوارق. عبد الرزاق يحيى أخشاب وحبوب ومعمل زوارق.

يتبين من إحصائيات "الدليل السوري" أن تجار الساحل كانوا في حالة ضعف وعدم قدرة على القيام بنشاط اقتصادي مؤثر، وقد أدى عدم تكوُّن طبقة تجارية عميقة الجذور في الساحل، وعدم قيام مدن "تجارية – حرفية" إلى تأخر ظهور حركة سياسية موحدة، وضعف الحركة النهضوية، رغم جهود المثقفين التنويريين، وهذه الظواهر سنتناولها في الفصول اللاحقة.

11- محاضر جلسات المجلس النيابي السوري: تضم بين صفحاتها صوراً لواقع حياة الفلاحين بخاصة، وسكان محافظة اللاذقية بعامة.

وسننقل هنا صورتين مما ورد في محاضر عام 1949:

- في جلسة المجلس النيابي بتاريخ 9 آذار 1949 ذكر أحد النواب أن جبال الشعرة التابعة لقضاء مصياف مكسوة بأحراج زيتون كثيفة، وهي إحدى ثرواتنا المعطلة، وبموجب الرخص يأخذ تجار لبنان الغراس لتحقيق الأرباح، ولهذا اقترح عدد من النواب بيع هذه السفوح الحرجية لسكان تلك المنطقة بثمن بسيط، وتشجيعهم على تطعيمها واستغلالها، وإذا تعذر بيعها نقداً، فلتكن على أقساط يدفعها المشترون في سنوات متوالية، وأضاف النائب أكرم الحوراني أنه يمكن توزيع هذه المناطق الحراجية على القرى المجاورة.

- في جلسة المجلس النيابي بتاريخ 28 آذار 1949 تقدم نائب جبلة عثمان حسن إسبر بالشكوى التالية: "إن ما يلاقيه بعض أهالي محافظة العلويين من الاضطهاد الشديد والقسوة الكبيرة والتعذيب الجسدي المحرم في الدستور... إن ما يلاقيه أبناء العلويين، وخاصة في قضاء الحفة، حيث يمثل بهم الظلم بصورة تشمئز منها النفوس. هناك أعمال بربرية، وهذا بعضها: نتف شوارب الرجال وذقونهم بعد الضرب المبرّح، وضرب النساء فلقات أمام الرجال، وزجهنَّ بالسجون بالعشرات"، مما ترك لدى الأهلين موجة كبيرة من السخط والاستياء. وطالب عثمان إسبر بـ"الضرب على أيدي الموظفين الذين يقومون بهذه الأعمال، ليشعر سكان العلويين أنهم جزء من هذا الوطن، ولهم جميع ما للسوريين من الحرمات".

الفصل الثاني
النهضة في الساحل السوري
في النصف الأول من القرن العشرين

أولاً– مراحل النهضة وعوامل قيامها

منطلقات المشروع النهضوي العربي الأساسية في مراحله الثلاث، كما وردت على ألسنة رجال النهضة بمختلف اتجاهاتهم، هي التالية[61]:

1- القضاء على الأمية والجهل ونشر المعارف العلمية.
2- الأخذ من الصناعة والتكنولوجيا الغربية واللحاق بها.
3- اقتباس كل ما ينفع عن المدنية الغربية الحديثة.
4- تحرير المرأة.
5- محاربة الجمود وتنقية الدين من البدع والقشور.
6- الدعوة إلى العقلانية.
7- مقارعة الاستبداد.
8- الدعوة إلى الديمقراطية والشورى.
9- المطالبة بحقوق الإنسان والمساواة بين جميع المواطنين في الدين والمذهب.
10- محاربة العشائرية والقبلية والعائلية والطائفية والمذهبية والمناطقية وكل ما يؤدي إلى تفريق الأمة وتقسيم الوطن.
11- الدعوة إلى الجامعة الإسلامية (حسب مفهوم الأفغاني وصاحب المنار الشيخ محمد رشيد رضا).
12- الدعوة إلى القومية العربية والوحدة العربية.
13- العلمانية (وهي مطلب أحد جناحَيْ النهضة).

ومعروف أن النهضة العربية بدأت في مصر، وانتقلت إلى بلاد الشام، وفيما بعد إلى بلاد الرافدين، وقد مرّت بمراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: بدأت في منتصف القرن التاسع عشر، وانتهت مع انهيار الدولة العثمانية واحتلال المستعمرين لمعظم أقطار العالم العربي.

المرحلة الثانية: تمتد بين الحربين العالميتين، وتتميز بتكون الوعي

---

[61]- هذه المنطلقات الـ13 هي حصيلة الدراسات التي قمنا بها حول النهضة، وهي تعبّر عن الاتجاه والمنهج الذي نسير عليه.

الوطني من جهة وانتشار أفكار التنوير والعقلانية من جهة أخرى.

المرحلة الثالثة للنهضة، التي تنتهي في أواخر خمسينيات القرن العشرين مع قيام الجمهورية العربية المتحدة وما رافقها أو تبعها من إصلاحات زراعية وتأميمات للرأسمال الكبير، مع تغيرات اجتماعية لافتة للنظر، وتنامي دور الأجهزة الأمنية، وتعاظم دور الدولة، وفي الوقت نفسه بداية عودة التفرقة الطائفية القادمة مع الموظفين المصريين، الذين دخلوا سورية سنة 1958 مع ضجيج طبول القومية العربية، ولكنهم في تكوينهم الثقافي لم يكونوا قد تربوا على مبادئ الروح القومية والخط العلماني، وكان لمواقفهم غير المسؤولة دور في انهيار الجمهورية العربية المتحدة، وفي انبعاث العصبيات الطائفية والعشائرية.

وسنستعرض لمحات من تاريخ سورية في المرحلة الثالثة للنهضة، وهي عملياً استمرار لمرحلة الانتداب وحصيلة لأثر الفكر البرجوازي، والفرنسي منه خاصة، في التطور العام ذي النزعات العلمانية.

في تموز 1943 فاز الوطنيون (الكتلة الوطنية) في انتخابات المجلس النيابي، الذي انتخب في 17 آب 1943 شكري القوتلي، أحد أركان الكتلة الوطنية، رئيساً للجمهورية. وفي 19 آب 1943 تألفت الوزارة برئاسة سعد الله الجابري. أقامت هذه الحكومة العلاقات الدبلوماسية مع الدول الأخرى، وساهمت في تأسيس جامعة الدول العربية، وأعلنت الحرب على المحور، وشاركت في وضع ميثاق الأمم المتحدة، ثمّ استلمت قيادة الجيش الوطني المتطوع، وتمكنت أخيراً في 17 نيسان 1946 من تحقيق جلاء القوات الأجنبية عن سورية.

سار الحكم (البرجوازي-الإقطاعي) في طريق بناء الدولة الحديثة، التي وضع الانتداب الفرنسي أسسها. أهم ما قام به الحكم لاستكمال هيكلية الدولة: وضع القانون المدني المقتبس من فرنسا، إلغاء الأوقاف الذرية، وإصدار قانون العمل وجملة من القوانين الزراعية المتناقضة وعدداً من القوانين في صالح التصنيع، تأميم مشاريع الكهرباء والماء والخطوط الحديدية، التي كان يملكها الرأسمال الأجنبي، وتحرير النقد السوري من السيطرة الأجنبية، وافتتاح المصرف المركزي.

الجمعية التأسيسية المنتخبة في تشرين الثاني 1949 شرعت في وضع دستور أثار مناقشات حامية، لم تكن الجماهير الشعبية بعيدة

عنها، تصارعت فيها الآراء والاتجاهات الليبرالية والسلفية، وتواجهت مصالح طبقات الشعب المتناقضة، خاصة قضية الموقف من الملكية الإقطاعية.

وبعد نقاشات حادة في البرلمان وعلى صفحات الجرائد حول طبيعة الدولة، هل هي دولة علمانية أم دينية؟ تمّ التوصل إلى حل وسط، عبّرت عنه المادتان الأولى والثالثة من الدستور[62].

نصّت المادة الأولى على أن: "سورية جمهورية عربية ديمقراطية نيابية ذات سيادة، وهي وحدة سياسية لا تتجزأ، ولا يجوز التخلي عن جزء من أراضيها، والشعب السوري جزء من الأمة العربية".

المادة الثالثة نصت على أن: "دين رئيس الجمهورية الإسلام. الفقه الإسلامي هو المصدر الرئيسي للتشريع. حرية الاعتقاد مصونة، والدولة تحترم جميع الأديان السماوية، وتكفل حرية القيام بجميع شعائرها على أن لا يخل ذلك بالنظام العام. الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية".

ورغم الانقلابات العسكرية الثلاثة (1949-1951)، فإن مرحلة المجلس النيابي السوري (1954-1958) تعدّ عهد الديمقراطية والحرية وظهور معالم المجتمع المدني وحرية الأحزاب والنقابات والجمعيات والأفراد في العمل المنتج. وفي هذه المرحلة اختفت الولاءات العشائرية والطائفية إلى حدٍ بعيد، وحلت محلها الولاءات الوطنية والقومية، ويمكن القول أن النهضة العربية بلغت في أواخر خمسينيات القرن العشرين أوج مرحلتها الثالثة، باتساع دائرة الولاءات الوطنية والقومية، ورجحان كفة العقلانية، وتقلص دائرة المحرمات.

ومن مميزات تلك الفترة:

- تبلور معالم البورجوازية الصناعية ذات الاتجاه الوطني الراغب في تحرر البلاد الاقتصادي من سيطرة السوق الرأسمالية العالمية، وكانت تلك البرجوازية ذات نزعات معادية للإقطاعية، ومن أنصار تفتيت الملكية الإقطاعية وإدخال الرأسمالية إلى الزراعة.

- صعود الفئات الوسطى (البرجوازية الصغيرة) في الريف والمدينة، وهي تموج بالمشاعر الوطنية والقومية، طامحة إلى إزاحة (الطبقات الأعلى منها) والحلول محلها.

[62]- انظر بروتوكولات المجلس النيابي لعام 1950.

- تكوّن طبقة عاملة كانت ملامحها العامة واضحة المعالم في أواخر خمسينيات القرن العشرين.
- اتساع عملية انحلال العلاقات الإقطاعية، وعجز بقايا النظام الإقطاعي عن حماية نفسه، مع احتلال الحركة الفلاحية مواقع هامة في مسار التطور العام.

هذه هي الخطوط العريضة للنهضة العربية في المشرق العربي عامة، وفي سورية خاصة، فكيف تطورت النهضة العربية في الساحل السوري المعروف آنذاك بالجبل العلوي؟

لقد اتصف هذا الجبل، شأنه كشأن المناطق الريفية الأخرى، بتأخر قيام النهضة في ربوعه بسبب عدم وجود مراكز حضارية مدينية فيه، فالمدن كانت أشبه بالبلدات، والاقتصاد الطبيعي احتلّ حيّزاً واسعاً من حياة المجتمع القائم على الزراعة والرعي.

والأمر الهام أن الاضطهاد العثماني الإقطاعي رسّخ دعائم الطائفية والعشائرية، وكلما كان الاضطهاد عنيفاً وشاملاً ازدادت المشاعر الطائفية والعشائرية ترسخاً واستمراراً.

فالدولة العثمانية كانت دولة عسكرية على قاعدة إقطاعية، حكمت بلاد الشام مدة طويلة (1518-1918)، وقسمتها إلى ولايات أهمها: دمشق، حلب، طرابلس، ثم ظهرت ولاية صيدا، ومركزها عكا، قبل أن تنقل إلى بيروت. والجبل العلوي كان تابعاً قبل 1918 إلى ولاية بيروت.

ما يهمنا هنا هو أن طبيعة الدولة العثمانية الإقطاعية، قبل عهد التنظيمات في منتصف القرن التاسع عشر، دفعت الناس للدفاع عن أنفسهم وأرزاقهم في اتجاهين متوازيين:
- الاحتماء بالتكتلات العشائرية والطائفية المتوارثة.
- خلق (تكوين) تكتلات عشائرية أو عائلية أو طائفية جديدة.

وهذه التكتلات كانت في رأينا، ضرورة تاريخية حتمها غياب الدولة وفقدان الأمن، وكان لا بد للناس في ظروف الفوضى من التكتل طائفياً أو عشائرياً للدفاع عن أنفسهم، ولا شك أن لأساليب الاستغلال الإقطاعي دور في خلق أو تعميق التكتلات العشائرية والطائفية على مستوى البلاد، خاصة في الأماكن التي تقطنها أقليات طائفية أو مذهبية، وقد لجأت تلك الأقليات إلى الجبال للدفاع عن نفسها وتخفيف وطأة

الاستبداد الإقطاعي العثماني ومن قبله المملوكي[63].
ونـرى أن المجتمعـات الطائفيـة المترابطـة مـع النظـام العصـبوي تبلـورت معالمهـا فـي العهـدين المملـوكي والعثمـاني، وجـاءت تطـورات القرن التاسع عشر محدثة نهضة (وإن تكن متعثرة) في عدد من منـاحي الحيـاة. ومـع انهيـار الدولـة العثمانيـة، حـدثت نقلـة مـن خـط الجامعـة الإسلامية ونظام الطوائف إلى خط الوطنية والقومية، حسب المفهوم البرجوازي الأوربي للقومية المتداخل مع المفهوم الخلدوني[64] للعصبية. وفـي الوقـت نفسـه، لـم تختـف الإيـديولوجيات السـابقة، خاصـة علـى المسـتوى الثقـافي الشـعبي، وهـذا يعنـي تـداخل إيديولوجيات مختلفـة مـع مجيء مرحلة الانتداب وتعايشها وتصارعها.
مـن هنـا نـدرك أن انهيـار الدولـة العثمانيـة عـام 1918 كـان حـدثاً تاريخياً هاماً وخطوة اجتماعيـة إلـى الأمـام، حررت قوى وطنيـة جبـارة من الفلاحين وجماهير المدن المضللة بشعارات الطبقة الحاكمة العثمانيـة واستغلالها للدين. لقد نشّط انهيار الدولـة العثمانيـة الحركـة الجماهيريـة، وأكسب حركة الاستقلال العربي صفاء وقوة، كما قلب تدريجياً ميزان القوى داخل حركة التحرر الوطني العربية لصالح قوى التقدم والوطنية، ممـا أسـهم فـي تقلـيص نفـوذ كـل مـن الطائفيـة والعشـائرية، مـع بقائهـا واستعدادها للظهور في كل لحظة تحدث فيها خلخلة في بنية المجتمع.
ويلاحـظ أن عقـدَيْ أربعينيـات وخمسـينيات القـرن العشـرين اتصـفا بتراجـع الـولاءات الطائفيـة والعشـائرية لصـالح الـولاءات الوطنيـة والقوميـة، خاصـة فـي سـورية الأم، كمـا أن العلاقـة بـين الطائفيـة والعشـائرية داخـل منطقـة معينـة اتصـفت بعـاملين متضـادين: التجـاذب والتضـامن، والتـدافع والاقتتـال، فالطائفـة متحـدة تجـاه الجـوار، لكـن عشـائرها تـدخل فـي خصـام يصـل إلـى حـد اسـتخدام السـلاح، ولا يوجـد على حدّ علمنا دراسـة أنثروبولوجية لمجتمع الجبل العلـوي[65]، ترصـد

[63]- كما كانت هجرات البدو أحد منابع العشائرية، إذ أخذت تظهر من جديد عصبية قبلية أو عشائرية في البادية وعلى أطراف المعمورة في أماكن ترحال البدو وسيطرتهم.
[64]- نسبة إلى ابن خلدون.
[65]- نقدم هنا نموذجاً لمنطقة تقع إلى الجنوب من الجبل العلوي، من خلال الدراسة الميدانية النظرية لفؤاد خليل المنشورة في بيروت عام 1990، تحت عنوان: "العشيرة دولة المجتمع المحلي، عشائر جرد الهرمل"، إذ رصد الباحث مسار تطوّر العشيرة في الجرد الهرملي في المرحلة الانتدابية وما بعد الاستقلال، فقد قام الانتداب بتجديد زعامة آل حمادة في

عملية الانتقال من الحكم العثماني إلى حكم الانتداب الفرنسي، وعلاقة الطائفة بالعشيرة فالدولة.

ثانياً- من إرهاصات النهضة في الجبل العلوي

ليس هدفنا هنا تتبع النهضة بتفاصيلها، بل تقديم نماذج لإرهاصات النهضة في الجبل العلوي، بما يخدم هذا البحث المخصص حيز هام منه لمناضلي اليسار الماركسي، الذين لا يمتلكون عصبية طائفية أو عشائرية، كما لا يملكون الأصفر الرنان "عصب الحياة"، وجلّ ما يملكون عصبية فلاحية طبقية وروحاً وطنية يعربية، أشهَرَهما في وجه العلاقات الإقطاعية والتخلف الموروث. ومعرفة جوانب النهضة، السائرة ببطء في الجبل العلوي، تلقي الأضواء على معرفة موقع اليسار الماركسي من العمليات الحضارية الجارية في أحشاء المجتمع، الذي عاش فيه في منتصف القرن العشرين[66].

وفيما يلي بعض المحطات النهضوية، التي طرقت أبواب المجتمع في الجبل العلوي، ببنيته الزراعية الرعوية وموروثه التاريخي التقليدي (الطائفي – العشائري) والمؤثرات الخارجية المتنوعة، وهي:

1- يلفت الانتباه شعارات **مجلة "النور"** (مجلة أدبية علمية روائية) الصادرة في اللاذقية في حزيران 1925 لصاحبيها نصر الله طليع وجاد كومين، وتصدّر غلافها الخارجي العبارات التالية: "رابطة المفكرين، مجال الأقلام الطليقة، رمز النهضة الأدبية، نصيرة الحق، عضد الضعيف، نور ونار". ومع إصرار المجلة على أنها "في عزلة عن السياسة"، إلا أنها نشرت مقالتين تحت عنوان: "تطاحن الطبقات والاشتراكية"[67]، وهذه الظاهرة بحاجة إلى دراسة معمقة، فمجلة تصدر

الهرمل وتوطيد زعامة آل حيدر في بعلبك، ولهذا السبب قامت زعامات الدرجة الثانية بحمل لواء الوطنية ومقاومة الانتداب، ويذهب باحث آخر في دراسته الأنثروبولوجية عن عشائر الهرمل إلى اعتبار مشاركة زعماء الدرجة الثانية في الثورة السورية فيما عرف (انتفاضة نيسان) 1926 هي (التشكيل العصبي في مواجهة الرسملة)، وهذه الدراسة تقدم لدارسي المستقبل عن الجبل العلوي أحد مفاتيح فهم التطورات الجارية آنذاك.

[66]- لا بدّ لدارس المستقبل من تتبع نشاط الأحزاب العلمانية: الشيوعي السوري، والقومي الاجتماعي، والبعث العربي الاشتراكي في مدى نجاح هذه الأحزاب من الحد من الروح الطائفية والعشائرية في منطقة كان لهذه الأحزاب موطئ قدم فيها.

[67]- هاشم عثمان: "الصحافة السورية ماضيها وحاضرها، الصحافة في اللاذقية" منشورات وزارة الثقافة، دمشق 2002، ص 69، وسنشير إليه حين وروده باسم: عثمان.

في مدينة صغيرة شبه معزولة عن العالم تنشر في عام 1925 هاتين المقالتين أمر يدعو إلى الاستغراب. فهل اللاذقية وجبلها المعروف بالجبل العلوي أسهم أولياؤه في الإكثار من العجائب؟[68] أم أن التطور السائر بخُطا وئيدة لم يقتصر على ظاهرة هاتين المقالتين، بل تعداهما إلى إنجاب أدباء وشعراء بارزين، بدأ نجمهم بالصعود في فترة مبكرة أمثال: بدوي الجبل، ونديم محمد، وأدونيس.

2- شعراء الجبل الأفذاذ

بدوي الجبل الشاعر الفذ، والنسر المحلق في عالم الأدب، والخطيب المفوه، والسياسي الذائع الصيت في أرجاء سورية، والمعروف بنزعته المسماة يمينية، كان له موقف يساري لافت للنظر عام 1925.

في 15 أيار 1925 صدرت في بيروت جريدة **"الإنسانية"** تيمناً بجريدة **"الأومانيتيه"**، لسان حال الحزب الشيوعي الفرنسي. صاحب الجريدة ومحررها العلامة يوسف إبراهيم يزبك، كانت تربطه ببدوي الجبل صداقة. حملت جريدة الإنسانية تحت اسمها العبارة التالية: "صحيفة أسبوعية أنشئت خصيصاً لخدمة العمال والفلاحين والمدافعة عن حقوقهم وتنظيم صفوفهم"، وحملت على يسارها شعاراً يزيد في تحديد هويتها، هو: "للفقير على الغني، وللعامل على الرأسمالي"، ويعلو الاسم شعار ثان: "اتحدوا أيها العمال"، ووضع في أسفله عنوان يبسط إشارتها المميزة: "(الإنسانية) هي جريدتك أيها العامل، فاقرأها، وأعطها لغيرك ليقرأها". صدرت الجريدة بمبادرة من حزب الشعب اللبناني، وهو الواجهة العلنية للحزب الشيوعي السري المؤسس حديثاً عام 1924.

وصل العدد الثالث من جريدة الإنسانية إلى بدوي الجبل، فبعث بالرسالة التالية إلى يوسف إبراهيم يزبك، الذي نشرها في العدد الرابع من "الإنسانية" تحت عنوان: "هدية للعمال من بدوي الجبل، عاطفة شريفة لشاعرنا المحبوب"، وفيما يلي **نصّ رسالة بدوي الجبل**[69]:

"أخي يوسف!

---

[68]- إذا كان للكرامات والعجائب، كما يعتقد قسم من البشر، دور على المستوى الفردي من الصعب محاججته، فهذه الظاهرة في الكتابة عن "تطاحن الطبقات والاشتراكية"، هي كما نرى رجع الصدى لما كان يجري في أوربا في عشرينيات القرن العشرين.

[69]- نقلاً عن جريدة "الإنسانية"، العدد 4، بيروت الأحد في 7 نيسان 1925، ص 7.

حمل إليّ البريد جريدتك، وأنا في صهيون إحدى مدن الدولة العلوية، فسررت لعملك، وأكبرت غيرتك...

الرجاء أن ترسل لي نسخة واحدة، وأن تهدي أربع نسخ باسمي لمن تختارهم من العمال، واشتراكات الخمس نسخ سأرسلها حين رجوعي إلى البيت، وذلك بعد مدة قليلة.

لأول مرة أحييي الجرأة في هذه البلاد! أحيِّيها بكلمتك: ولا نبالي بالمبادئ السياسية ولا الاجتماعية ولا الأدبية ولا الدينية على اختلاف نزعاتها، إذا كانت لا تهم العمال والفلاحين. فعشت يا يوسف، ولا فضّ فوك.

لا تؤاخذني على كتابي إليك بالقلم الرصاصي، فما ذلك إلا لمعذرة مشروعة، ولاسيِّما إني الآن من العمال، والعامل لا يتقيد بكل ما يسمونه آداباً أو قوانين اجتماعية.

عاش العمال، وعاشت جريدة العمال، وعاش الناطق باسم جريدة العمال، الناطق بالحق وبالثورة وبالدم!

بدوي الجبل"

رسالة بدوي الجبل هذه بحاجة إلى تقويم من مختص بالشاعر الكبير وبمساره السياسي المتعرج والمتناقض أحياناً، وفي تقديرنا أن موقف بدوي الجبل هذا نابع من أنه ابن ريف عاش في بيئة غير متزمتة، ونقدّر أن موقفه هذا يعود إلى طموحه في تبني الحداثة.

الشاعر الثاني الذائع الصيت هو **نديم محمد**، المولود عام 1908 في عين شقاق بقضاء جبلة، وقد تلقى جزءاً من تعليمه لدى مدرسة الفرير في اللاذقية، وفي لاييك بيروت، ثم أرسله والده للدراسة على حسابه في فرنسا، وعاد إلى الوطن عام 1930، وعاش حياته بعيداً عن قصور الحكام، نائياً بنفسه عن مجالستهم أو مدحهم، ولهذا أهملته وسائل الإعلام الحكومية، وقد بدأ بنشر مقالاته منذ عام 1938 في **"صوت الحق"** تحت عنوان: شبكة، هوامش، إصبع إبليس. وتبقى أشعار نديم محمد الموجهة سهام نقدها اللاذع الساخر للحكام، والتي كانت الألسن تتداولها بشغف، خالدة في ضمير تلك الأجيال[70]. وجزء من شعره غير المنشور بين أيدي محبيه وأصدقائه، وقد توفى عام 1994.

---

[70]- عثمان، ص 58.

أما **أدونيس** فبدأ بالكتابة على صفحات **"الإرشاد"** عام 1948، وهو على مقاعد الدراسة، وانتسب إلى الحزب السوري القومي، ثم احتلّ مكانة مرموقة في عالم الأدب في العالم العربي وعلى المستوى العالمي.

3- عام 1933 "اجتمع شيوخ المسلمين العلويين وزعماؤهم في قرية بيت الشيخ يونس للبحث في أمور دينهم ودنياهم، واتخاذ خطط تقضي بتوحيد الكلمة وتنظيم الصف والقضاء على العشائرية البغيضة"، كما جاء حرفياً في **مذكرات الدكتور عبد اللطيف اليونس**. هذا الاجتماع، الذي حضره "كبار زعماء العلويين وكبار شيوخهم وجمهرة من الشباب التوّاقين إلى التحرر والانعتاق "خرج بوثيقة إصلاح شاملة"، "تهدف لرفع مستوى الشعب وتوحيد صفه وإزالة الفوارق بين أبنائه"، ويستدل من مذكرات اليونس أن مبادئ الإصلاح لم تنفذ، وحتى الاجتماع الثاني الذي قرر الاجتماع عقده في قرية قريفيص قرب بانياس لم يعقد في السنة التالية، ويردّ اليونس سبب فشل الإصلاح إلى المستعمرين، الذين "عمدوا لخلق زعامات جديدة تسير في ركابهم، وحاربوا الزعماء الذين يوجد عندهم إحساس وطني وشعور لا طائفي"[71].

ولا شك أن دور المستعمرين في تغذية المشاعر الطائفية والعشائرية أمر لا جدال فيه، تثبته السياسة الاستعمارية المتبعة، لكن الجانب الآخر من المشكلة المتمثل بالعوامل الداخلية المرسّخة للمشاعر الطائفية والعشائرية يهملها معظم الباحثين، مكتفين بتسليط الضوء على العامل الخارجي، ومهملين أو متسترين على العوامل الداخلية المسببة للتخلف أو المرسّخة له، وهذه ظاهرة من مظاهر الهروب من المسؤولية، وإلقاء تبعات التخلف على العوامل الخارجية، وتبرئة الداخل من كل إثم.

4- التمرد على التقاليد بدأ يظهر أيضاً في أوساط الأجيال الشابة من المشايخ، فغانم ياسين ابن الشيخ ياسين عبد اللطيف في (بيت الشيخ يونس) كان من أوائل من لبس ربطة عنق، وأول من استخدم الشوكة والسكين في الطعام، وحارب الدجل والشعوذة والبدع الخرافية، وكان يجاهر بذلك ويتحدى، وحارب تقبيل الأيدي، صارخاً في وجه كل من ينحني لتقبيل يد، وأقرّ تعليم البنات، الذي كان يعد كفراً، ولولا مكانة والده، لما سلم غانم ياسين من ذوي العقول المتحجرة واتهامه بالخروج

---

[71]- مذكرات الدكتور عبد اللطيف اليونس، مطابع الإسكان العسكرية، دمشق، ط 2، 1997، ص 40، وسنشير إلى هذا المصدر فيما بعد باسم اليونس.

علـى العـادات والتقاليـد. ولمَّـا قويـت المعارضــة فـي وجـه الإصــلاح، واشـتدت، وبـدأت السـبل تضـيق أمـام المصـلحين، فضّـل غـانم ياسـين الهجرة إلى أمريكا والالتحاق بأخيه، حيث عملا معاً[72].

5- في أوائل صيف 1936 جرى انقسام عنيف بالرأي: فئة تطالب بالوحدة السورية، وأخرى تصر على بقاء الانفصال، وجرى مؤتمر في طرطوس لم يصل إلى نتيجة، لكن المجابهة بين الفريقين قويت، والهوة ازدادت اتساعاً وعمقاً[73].

التيار المنادي بانضمام الجبل العلوي إلى الوحدة السورية شكل وفداً مؤلفاً من العلويين والسنة والمسيحيين زار دمشق، واستقبل فيها استقبالاً حـافلاً، ونشـرت الصـحف الوطنيـة أخبـار تحركـات هـذا الوفـد تحـت العنـوانين التـاليين: (وفـد زعمـاء الـبلاد العلويـة فـي دمشـق)، و(الكتلـة الوطنية وزعماء البلاد يحتفلون بالوفد العلوي احتفالاً عظيماً)[74].

وهذا التيـار عقد مؤتمراً فـي طرطـوس فـي 1939/1/25، قرر فيـه رفع مذكرة إلى السلطة الفرنسية تضمنت: إن محافظـة اللاذقيـة جزء لا يتجزأ من سورية، تأييد المعاهدة المعقودة بين الكتلـة الوطنيـة وفرنسا بشان استقلال سورية، تأييد مقررات المجلس النيابي السوري في جلسة 1938/11/31 بشــأن انضـــمام محافظـــة اللاذقيـــة إلـــى الجمهوريـــة السورية[75].

6- من أوائل رجـالات النهضـة فـي الجبـل العلـوي **الشيخ سليمان الأحمد** (1869-1942)، ويتحدّر من عشيرة النميلاتيـة المشـهورة بكثـرة المشـايخ فـي صـفوفها[76]، وهـو مـن أشـهر مشـايخ العلـويين، وقاضـي قضاتهم، وكان فقيهاً وشاعراً، وقد تخرّج على يده تلامذة كثيرون نبغوا في اللغة العربية والشعر. لم يكن معزولاً عن تطور الحياة، إذ اشترك

---

[72]- اليونس، ص 42.

[73]- اليونس، ص 46.

[74]- انظر صورة الوفد وأسماء الأعضاء المشاركين في كتاب محمد الهواش (عن العلويين ودولتهم المستقلة)، ص 233.

[75]- عثمان، ص 301.

[76]- كانت العادة أن العشائر العلوية، التي تفتقد إلى المشايخ في قراها، تطلب شيخاً من عشيرة أخرى، وبسبب المكانة الرفيعة التي احتلها الشيخ سليمان الأحمد دعته عشيرة الكلبية للإقامة في قرية السلاطة إلى الغرب من القرداحة، وعند وفاته بنيت على ضريحه قبة فخمة يؤمها الزوار. أخذنا هذه المعلومات عن خونده، ص 150.

في الدوريات الأدبية كجريدة **"العرفان"** و**"الهلال"**، ونشر بعض قصائده في جريدة "العرفان" الصادرة في صيدا، وقام بجولة مع الشيخ إبراهيم عبد اللطيف إلى صيدا وجبل عامل، وانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، وللشيخ سليمان الأحمد أبحاث في المجالات الأدبية ومراسلات مع علماء النجف الأشرف والجامع الأزهر، وقد نشر كثير من تلك المراسلات في الصحف، وأشعار الشيخ سليمان الأحمد تمتاز بالحِكَم ومحاربة العادات المسيئة والتقاليد السخيفة. ويعلق اليونس، الذي ننقل عنه أنه "لم يكن من السهل أن ينبري شيخ متحرر في ذلك الوسط المتخلف لمحاربة عادات اصطلح عليها، وتقاليد ورثها الخلف عن السلف... حتى أصبحت جزءاً من حياته ومن عقيدته أيضاً**!"**[77].

بمبادرة من التيار الوطني في الساحل السوري تقرر في 1938/10/14 إقامة مهرجان أدبي ضخم تكريماً للعلامة الشيخ سليمان الأحمد، وكان هذا اليوبيل الذهبي تعبيراً عن الوحدة الوطنية السورية وتطلعاً إلى الوحدة العربية، فقد أنشد طفلان من حلب نشيد الوحدة العربية، وأنشدت فرقة الكشاف النشيد السوري، وتتالى الخطباء من مختلف الأديان والمذاهب: سنة، مسيحيون، علويون، ومن مختلف المناطق. وفي ختام المهرجان نهض محافظ اللاذقية إحسان الجابري، وتقدم من المحتفى به قائلاً: "إن هذه الحفلة هي قسط من دَيْن لك على الأمة العربية". ومعروف إعلان الشيخ سليمان الأحمد أنه صرّح في أوائل عشرينيات القرن العشرين: "نحن العلويين مسلمون، كتابنا القرآن، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والكعبة قبلتنا، والإسلام ديننا..."[78].

7- كان في طليعة التيار النهضوي العربي في الجبل العلوي الدكتور وجيه محيي الدين، يتبدى ذلك بوضوح في كلمته في اليوبيل الذهبي للعلامة الشيخ سليمان الأحمد في اللاذقية بتاريخ 14 تشرين الأول 1938، التي جاء فيها: "... فالشباب المسلم العلوي يريد أن تنصهر العشائر والأحزاب في بوتقة الوطنية الجامعة، فلا يبقى صوت إلا صوت العروبة، ولا دين إلا دين المحبة والتضامن. نحن نريد أن تتحطم هذه الحواجز العشائرية السخيفة، ويشيّد على أنقاضها صرح منيع

---

[77]- اليونس، ص 66.

[78]- المصدر نفسه، ص 72.

لحزب منسجم الآراء متحد الأفكار متآخي النزعات.."[79].

أصدر النهضوي الدكتور وجيه محيي الدين في تشرين الثاني 1937 مجلة **"النهضة"** في طرطوس، وهي "مجلة شهرية تبحث في الأدب والاجتماع"، وأوكلت إدارتها إلى حامد حسن. كانت غاية المجلة: "إظهار ما دفن من نبوغ وعبقرية الشعب العلوي الإسلامي، وتقديمه للأمة العربية الكريمة بشكله الحقيقي، لا كما صوّره ذوو الأغراض تعمداً منهم أو وهماً، وتقوية معنويات شبابه، وتشجيعهم للظهور والخروج من عزلتهم، وإرسال ما يختلج في صدورهم من عاطفة وشعور". أما مبدأ المجلة فتمثل في "الكفاح ضد الرجعية، ونبذ الطائفية الممقوتة، والسير وراء المجد والسؤدد بتضامن وإخلاص، وبث روح التآلف والإخاء بين مختلف أبناء هذا الشعب، فتكون هذه الصحيفة كمنبر، يتبارى عليه كل من أعطاه الله نصيباً وافراً من حسن الذوق الأدبي والثقافة العالية والتضحية في سبيل المثل العليا"[80].

بعد مرور سنة على صدور النهضة توفي صاحبها وجيه محيي الدين، فخلفه أخوه محيي الدين محيي الدين في إصدار النهضة بمعونة الأديب والمحامي زاهي عرنوق. وفي العدد الثاني من السنة الثانية (أيار 1939)، الذي صدر بعد وفاة مؤسس النهضة نقرأ في الصفحة الأولى: "النهضة مجلة أدبية، علمية، اجتماعية، فهي لا تنشر من المواضيع السياسية إلا ما كان ذا فائدة علمية أو تاريخية أو اجتماعية، وتهمل كل موضوع يمس بالعقائد والأديان، أو يتنافى مع الآداب والأخلاق، أو يتعرض للأشخاص والأحزاب والملل"[81].

8- نشر عبد اللطيف اليونس في مجلة **"المكشوف"** مقالة نعى فيها على الشباب المسلم العلوي ركوده وجموده، وقعوده عن الدعوة للإصلاح، والعمل على التحرر من ربقة العشائرية والرجعية والإقطاعية[82]، ثمّ بدأ ينشر في عدد من الجرائد في اللاذقية وحمص وحماة ويشنّ، حسب تعبيره، "حملات عنيفة على الرجعية والإقطاعية والتعصب العشائري البغيض"، لكن الرجعية وأنصارها حملوا عمه

---

[79]- المصدر نفسه، ص 82.

[80]- المصدر نفسه، ص 82.

[81]- هاشم عثمان، ص 83.

[82]- اليونس، ص 44.

على الوقوف ضده. ويذكر اليونس أن "مقاومة الرجعية والإقطاعية" ضده "وصلت إلى حدّ العنف الشرس"، فاضطر لمغادرة قريته والالتجاء إلى أحد أقربائه في طرابلس[83].

9- تجاذب اللاذقية وجبلها تياران متضادان، مثَّل التيار الأول أنصار الانتداب في دمشق ومن والاهم من أنصاره في الساحل، ومثَّل التيار الثاني المعارضون للانتداب من رجالات الكتلة الوطنية التي قادت النضال الوطني وقطفت ثمار الاستقلال. ومع نمو الوعي الوطني في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين، احتدم الصراع بين الراغبين في "الاستقلال" عن الداخل، وأنصار الوحدة مع سورية وعاصمتها دمشق.

أصداء التيار الأول نجده في اللاذقية وجبلها فيما كتبته جريدة **"الصاعقة"** في 27 كانون الأول 1941 في معرض تنظيم "مهرجان يوم الفقير في اللاذقية"، "هذا المهرجان تحييه روح الرئيس، وتذكيه رعاية المحافظ، والمقصود بالرئيس "فخامة رئيس الجمهورية السورية الشيخ تاج الدين الحسني، حفظه الله ووفقه ورعاه، وهو أول من فكر بضرورة حماية الفقراء والمساكين والمستورين..."، أما المحافظ فهو معالي شوكت العباس ومعه سعادة مدير الداخلية السيد علي الكنج، وآل العباس هم أكبر عائلة إقطاعية في صافيتا، والكنج العائلة الإقطاعية في جبلة[84]. والشيخ تاج، الذي أتقن الفن الديماغوجي والسير في خطا الانتداب الفرنسي، عيّن يوم 22 كانون الأول ليكون "يوم الفقير" في جميع أنحاء البلاد السورية، وهدفه كسب الفقراء إلى جانبه للوقوف في وجه التيار الجارف للكتلة الوطنية، التي أولت اهتماماً خاصاً لمحافظة اللاذقية وتعقيداتها بما تحتويه من قضايا ومشكلات كان الاستعمار الفرنسي يستغلها إلى أبعد الحدود.

10- في تموز 1944 صدرت "جريدة عربية سياسية يومية حرة" لصاحبيها عضوي المجلس النيابي النائبين علي هارون وجمال علي أديب، ومديرها الدكتور رياض رويحة، ولم تكن الجريدة بعيدة عن الحكم الوطني الغض الإهاب في دمشق، ونتوقف عند المحطات التالية:

---

[83]- المصدر نفسه، ص 48.

[84]- قارن بين مواقف إبراهيم الكنج وجابر العباس بصفتهما قمة الهرم الإقطاعي العشائري، وبين ما أوردناه في حاشية سابقة عن ظاهرة العشيرة دولة التشكل العصبوي في جرود الهرمل.

- سارت الجريدة منذ عددها الأول تحت عباءة الحكم المركزي في دمشق، فالجريدة صدرت، كما كتبت عن نفسها، في مطلع العهد الذي اشترته الأمة بالدماء والتضحيات والآلام، وفي ظلّ شكري القوتلي العظيم، الذي مسح بيده على رأس هذه الأمة، فجرت يده حرية واستقلالاً ووحدة واتحاداً ومحبة وإخاءً وخصباً ونماءً"[85]. ومع أن شخصنة الحركة الوطنية والأمة في فرد يفجر الاستقلال ويمنح النماء أمر برز فيما بعد لدى الحكام العرب بصورة واضحة وخطرة، إلا أن ظروف طرح هذا الأمر في اللاذقية وجبلها له ما يبرره في ظل الدعوة إلى الوحدة الوطنية وإنشاء الدولة المركزية ودفن المشاعر الانفصالية.

- صاحبا المجلة يمثلان عائلتين من كبار الملاك في كل من اللاذقية وجبلة، ومع أن "العائلات الإقطاعية" سارت بأكثريتها في خط الانتداب الفرنسي، الذي رسّخ قدسية ملكيتها للأرض، التي استولت عليها في أواخر العهد العثماني وطوال عهد الانتداب، إلا أن بعض كبار الملاك وقفوا في وجه الانتداب، أو على الأقل لم يعلنوا النفير العام معه، ويلاحظ أن بعض عائلات كبار الملاك في اللاذقية رفعوا راية الكتلة الوطنية[86]، وكانوا عمودها الفقري في الساحل، دون أن يقطعوا خيوط الاتصال مع أجهزة الانتداب الفرنسي.

- الصفحة الأولى من الجريدة تصدرتها كلمة بعنوان: "أيها المواطن العربي في دنيا العروبة"، والهدف "بث الوعي القومي في أبناء هذا الشعب" و"القومية العربية عقيدتنا الشاملة"، و"العنصر الأول في قوميتنا العربية الواعية يقوم على الوحدة العربية، وليندمج هذا الوطن تحت لواء واحد..". "إن الطائفية لا تدخل في برنامجنا، فالدين لله، والوطن للجميع، وكلنا صفوف متراصة في خدمة هذه البلاد الغالية"[87].

11- سنة 1944 زار شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية محافظة اللاذقية، وجرت له استقبالات رسمية وشعبية حافلة بدأت من مصياف، وانتهت في تلكلخ. وفي رأس الخشوفة أقام يوسف الحامد

---

[85]- هاشم عثمان، ص 109.

[86]- لا يخفى أن بنية قيادة الكتلة الوطنية تألفت من ملاك كبار ومثقفين يحملون الفكر البرجوازي، فهي كتلة وطنية "برجوازية – إقطاعية"، انظر تفاصيل وافية عن الكتلة الوطنية وبنيتها وسياستها في كتابنا "الحركة العمالية في سورية ولبنان، دمشق 1973.

[87]- هاشم عثمان، ص 111 وما يليها.

سرادقاً ضخماً عند مدخل القرية، وألقى الشيخ عبد اللطيف إبراهيم قصيدة جاء فيها[88]:

هـذي الجبالُ أساورٌ عربيةٌ صدئَتْ، وأغفلَتِ الشآمُ صقالَـها

وحسمت هذه الزيارة والاستقبالات الشعبية التي رحبت برئيس الجمهورية أمر الجبل العلوي بعدِّه جزءاً من "الوطن السوري العربي". وأخذت المشاعر الوطنية تتسارع مكتسحة أفئدة الجماهير، وبخاصة الفئات المتعلمة منها.

12- عام 1944 ألف عبد اللطيف اليونس كتاباً بعنوان: **"الجبل المريض"**، ويقصد الجبل العلوي، وهو مجموعة فصول عن حالة العلويين، وما فيها من فقر وجهل وتأخر وجمود وعبودية عمياء للإقطاعيين والرجعيين وتفرقة عشائرية بغيضة، يغذيها الإقطاعيون وذوو النفوس المريضة، وجاء فيه: "كان الزعماء العشائريون في قبضة السلطات الحاكمة... وبواسطة هؤلاء يسيطر المستعمرون على الشعب المستعبد المضطهد المسحوق". لم يقدر للكتاب الانتشار بسبب ظروف الحرب[89].

والمعروف أن عبد اللطيف اليونس، مع عدد من النهضويين في الساحل، كان من الساعين لدفع الطائفة العلوية باتجاه الوطنية السورية والعربية، وبالتالي **دمج الطائفة في بوتقة الوطنية السورية ذات الأرضية العربية**، وقد كان اليونس في طليعة رجال النهضة في الجبل العلوي، وتميّز عن غيره بأنه استند إلى خلفية مشيخية، حاول أن يسخرها للأهداف النهضوية، فقد دعا مثلاً في برنامجه الانتخابي إلى صيانة الاستقلال والنظام الجمهوري ومحاربة الإقطاعية والرجعية وتحرير العامل والفلاح ومنع الفوارق الاجتماعية ومنع الأتاوات والجعالات والرشا، ووقف ضد الفريضة السنوية وغير السنوية، التي يجبيها الزعماء من أتباعهم، كما دعا إلى حماية المصنوعات الوطنية وتعميم المدارس وتعبيد الطرق ومساعدة الفقير أياً كان، وكان هذا البرنامج الانتخابي دليلاً على أن عوامل جديدة بدأت تدخل الأرياف السورية، وخاصة المتقدمة منها مثل منطقة صافيتا[90].

---

[88]- اليونس، ص 182.

[89]- اليونس، ص 182.

[90]- المصدر نفسه، ص 247-261.

13- في مطلع 1945 بدأ عبد اللطيف اليونس يهيئ للاحتفال **بتكريم الشيخ صالح العلي** قائد الثورة المعروفة باسمه في الجبل العلوي بين عامي 1918 و1922، وكانت هذه المبادرة من المثقف الوطني (العلوي) تصب في تيار جهود الحكومة الوطنية في دمشق الساعية لتوحيد البلاد فكرياً وسياسياً واقتصادياً، وبالمقابل كانت قوى ذات شأن تعارض حفل التكريم، وتسعى لإلغائه. إنه الصراع بين تيارين: وطني وحدوي (سوري)، وإقليمي يريد بقاء الجبل العلوي في عزلة عن أمه سورية. هذا من جهة، أما الوجه الآخر فيتمثل بالمنافسة العشائرية بين العشائر التي سارت أيام الثورة مع صالح العلي (بدوافع عشائرية)، وزعماء العشائر الذين وقفوا ضد حركة الشيخ صالح العلي بدوافع عشائرية أيضاً، واستشفافهم أن المرحلة القادمة هي مرحلة فرنسا المنتصرة في الحرب العالمية الأولى.

استمرت حفلة تكريم الشيخ صالح العلي في 17 نيسان 1945 خمس ساعات، توالى فيها الخطباء من مختلف المدن السورية واللبنانية، وقدّم محافظ اللاذقية الأمير مصطفى الشهابي للشيخ المحتفى به "وسام الاستحقاق السوري الرفيع"، الذي منحه إياه رئيس الجمهورية السورية، وعلقه على صدره وسط هتاف عال وتصفيق حاد من الجموع المحتشدة في حفلة التكريم، التي ضمت جمهوراً وطنياً من مختلف الطوائف والأديان[91].

14- عام 1947 ألف اليونس كتاباً بعنوان: **"الثورة العلوية وقائدها المجاهد الكبير الشيخ صالح العلي"**، وفي الطبعة الثانية حمل الكتاب اسم: **"ثورة الشيخ صالح العلي"**، فاليونس لا يريد أن تحتل الطائفية واجهة التاريخ، كما ذكر في الطبعة الثانية، **وتاريخ اليونس عن ثورة الشيخ صالح العلي مسبوك في قالب إنشائي، ويعج بالخيال الخصب، وكأننا نعيش حروب عنترة وبني هلال**... واللافت للنظر إشارة اليونس إلى أنه في زمن الشيخ صالح كانت بعض الروايات عن بعض الأحداث متناقضة، لكنه يكتفي بنقل رواية يعتقد أنها الصحيحة، ويهمل الرواية المناقضة. وكما هي الحال في جميع الثورات، فإن مشكلة السلب والنهب، التي مارسها بعض "الثوار" أو المحسوبين على الثورة، بهدف جمع الثروة تبقى مشكلة شائكة أمام المؤرخ. وظاهرة الخلفيات الطائفية

---

[91]- المصدر نفسه، ص 195-207.

والعشائرية والعائلية والمناطقية، إضافة إلى الطمع المتمثل في السلب والنهب من بعض المشاركين في الثورات الوطنية، التي عمّت مناطق واسعة من سورية في عشرينيات القرن العشرين، لم تتناولها بعد أقلام الباحثين.

15- منتصف خمسينيات القرن العشرين اغتيل قسطون بشور المسيحي في مزرعته، ووجهت التهمة إلى أحد وجهاء المنطقة العلويين، الذي توجد له أملاك مجاورة لأملاك آل بشور، لكنه بُرِّئ من التهمة بعد أن سجن طوال مدة المحاكمة[92]، ويوم صدور حكم البراءة مرَّ هو وأقرباؤه من مدينة صافيتا، وحلوا بدار محمد أمين رسلان فيها. وما إن انتشر خبر وجودهم، حتى التهبت مشاعر أقرباء المرحوم قسطون ومشاعر الأهلين في المدينة، فهجموا على بيت محمد أمين رسلان بضراوة وعنف، ولو لم تسرع الشرطة وتحاصر البيت لحمايته من المهاجمين، لحصل ما لا تحمد عقباه، وحرق المهاجمون السيارة التي استقلها المتهم المبرّأ ورفاقه، كما أحرقوا سيارة محمد أمين، ووُجِدَ من أشعل نار الفتنة، أو حاول إشعالها في القرى المجاورة، فاندفع الأهلون (العلويون)، وقد روّعهم حادث الهجوم على البيت[93] وإحراق السيارتين، فقطعوا الطريق الموصلة إلى المدينة (المسيحية)، وأقاموا حواجز عليها. بدأ اليونس باستدعاء أنصاره من القرى المجاورة، ليعملوا معه على تهدئة الحال ووجوب المحافظة على حسن الجوار. وكانت الدولة قد شرعت في اتخاذ إجراءات عنيفة لتطويق الحادث، فالفتنة الطائفية كانت قاب قوسين أو أدنى، وكان لليونس دور في إطفائها، كما ذكر في مذكراته[94]. وعلينا ألا ننسى الوعي الوطني المتنامي، فله دور لا يستهان به لإطفاء حريق الحزازات الطائفية، أما الدولة الوطنية الحديثة فكان لها الدور الأكبر في وأد الفتنة قبل انتشارها.

---

[92]- هذا حسب رواية اليونس، وثمة رواية أخرى سمعها كاتب هذه الأسطر أثناء جولته الميدانية عام 1984 في أرياف صافيتا تقول: "إن قسطون بشور ضاجع زوجة إحدى الفلاحين المحاصصين في أرضه، فثأر الفلاح "لعرضه"، وقتل قسطوناً... (والله أعلم)".

[93]- وصاحبه رئيس عشيرة الرسالنة المنتشرة حول دريكيش.

[94]- اليونس، ص 150.

16- من انطباعات مدرس درّس في جبلة أواسط خمسينيات القرن العشرين.

قدم مدرس التاريخ ذو النزعة الماركسية **زهير ناجي** من دمشق للتدريس في ثانوية جبلة من أيلول 1953 إلى حزيران 1955، وقد أجرينا معه في دمشق بتاريخ 2006/01/12 حديثاً حول ذكرياته أثناء التدريس في جبلة، فأورد الانطباعات التالية:

- أهل جبلة طيبون ومنفتحون ويحبون الغريب ومتعطشون للمعرفة، والمتزمتون قلة، وكان أهل المدينة آنذاك لا ينظرون بعين الاحترام إلى أهل الريف، وهذه ظاهرة عامة كانت معروفة في سائر الأنحاء، فالفلاح القادم إلى المدينة كان يُنظر إليه نظرة ازدراء واحتقار.[95]

- كان سماسرة السعودية يأتون لشراء البنات من الريف، وهذا ما أثار المدرس زهير، وكان يحرّض الطلاب على أولئك النخاسين، ومما لم يذكره زهير، وهو معروفٌ: ظاهرة عمل أعداد كبيرة من بنات الفلاحين الفقراء لدى أغنياء المدن.

- شجّع الطلاب على إنشاء مجلة **"صوت ثانوية جبلة"**، وكان يدرّب الطلاب على التفكير عقلانياً، وهذا ما أثار مدرسين عليه.

- أساتذة إعدادية جبلة أغلبهم أبناء مشايخ علوية، وكان مما يثير حفيظة المدرس زهير تقبيل الفلاحين القادمين من الريف للاستفسار عن أبنائهم أيدي الأساتذة، لأنهم أبناء مشايخ، مع العلم أن الفلاح متقدم على الأستاذ في السن.

- كان ثمة تسابق بين البعثيين والسوريين القوميين على افتتاح المدارس الخاصة في ريف جبلة، وكان الفقراء يرون في التعليم الطريق للتغلب على البؤس.

17- الحزب السوري القومي الاجتماعي انطلق في تفكيره ونشاطه من موقع مقاومة انتماء سورية إلى القومية العربية، وتجاوز مؤسس

---

[95]- سمر يزبك، وهي تتحدر من ريف جبلة، أصدرت في بيروت سنة 2005 رواية "الصلصال"، التي تعكس بصورة صادقة الوضع الاجتماعي السياسي في النصف الثاني من القرن العشرين. كتبت سمر:

"كان البشر في مناطق الساحل المحصورة بين البحر والجبال يخشون نزول المدن، ويتهيبون لقاء أهلها، خوفاً من الضرب والقتل".

والواقع أن العلاقة بين سكان المدن والأرياف أخذت تتبدل لصالح الأرياف بدءاً من خمسينيات القرن العشرين.

الحزب أنطون سعادة الدينَ، وتجاوز العروبةَ، ليقول بوجود (أمة سورية)، وقد نشر أنطون سعادة (وهو لبناني) عام 1937 كتابه (**نشوء الأمم**) داعياً إلى (القومية السورية) وإلى فصل الدين عن السياسة.[96]

يذكر دانيال نعمة في دفتر مذكراته أن الحزب السوري القومي الاجتماعي بدأ نشاطه في مشتى الحلو أواسط ثلاثينيات القرن العشرين، وكان الداعية لهذا الحزب وسّوف الديب، وهو سائق سيارة بين صافيتا والمشتى، وقد تجاوب معه عدد من أبناء المشتى، وعندما كثر أنصار مؤسس الحزب الزعيم أنطون سعادة قام بزيارة بعض قرى صافيتا، ابتداءً من الأخيرة وانتهاءً بمرمريتا مروراً بالمشتى، وقام أنصار الزعيم سعادة باستقباله بحضور أنصاره من الكفرون والعيون، ويقول دانيال: "إن سعادة ألقى خطاباً، وتجمعنا نحن أطفال القرية حول هذه التظاهرة، وتأثرنا بطريقة سير المشاركين فيها وباستعراضاتهم شبه العسكرية وبهتافاتهم التي أطلقوها، وحاولنا تقليدهم، وعاقبنا في اليوم التالي مدير مدرستنا الابتدائية المرحوم المعلم داود الحلو".[97]

ويتبين من أسماء القرى، التي زارها أنطون سعادة أن الحزب السوري القومي بدأ نشاطه في القرى المسيحية في منطقة صافيتا، أما الانتشار الواسع للحزب في أوساط المثقفين العلويين فكان في ريف جبلة، ومنها امتد إلى سائر المناطق، إذ يتبين من استعراض أسماء القوميين السوريين أن عدداً من أبناء رؤساء العشائر العلوية انضموا إلى هذا الحزب في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين، وعموماً استقطب الحزب عدداً من المثقفين وأبناء بعض العائلات المعروفة والمتعلمة من مسيحية وعلوية.

ما سنورده عن انتشار الحزب السوري القومي الاجتماعي في منطقة جبلة واللاذقية مستقى من لقاء مع مدرس اللغة العربية جهاد جديد[98].

---

[96]- صدرت الطبعة الثانية المنقحة لكتاب سعادة "نشوء الأمم" عام 1951 في مطابع فتى العرب في دمشق، وهي مصدّرة بإهداء المؤلف: "إلى رجال النهضة القومية الجبارة ونسائها العاملين لحياة سورية ومجدها أهدي هذا الكتاب".

[97]- راجع "من دفتر الذكريات" لدانيال نعمة.

[98]- جهاد جديد مولود في ريف جبلة 1938، حاز الشهادة الثانوية عام 1957 والإجازة في اللغة العربية من الجامعة السورية عام 1963، وأثناء دراسته الجامعية كان يدرس في مدرسة سيف الدولة الخاصة في عين التينة، وبعد التخرج عيُّن مدرساً للغة العربية في ثانوية جبلة حتى إحالته على التقاعد. انتسب إلى الحزب السوري القومي على يد أخيه عبد

وما لمسناه وسمعناه أثناء الجولة الميدانية في عام 1984 هو اندفاع قسم كبير من أبناء مشايخ ورؤساء العلويين للانضمام إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي، فقد ذكر لنا علي هلال من رأس الخشوفة[99] بالقرب من صافيتا، أن أول حزب ظهر في المنطقة عام 1936 هو الحزب السوري القومي، الذي كان الناس يظنون أنه ضد الإقطاعية، "وإذا بأولاد المشايخ والأفندية[100] يدخلون في الحزب"، وظاهرة انضمام عدد كبير من أبناء مشايخ ورؤساء العلويين إلى الحزب السوري القومي، ثمّ تحوّل قسم منهم باتجاه حزب البعث العربي الاشتراكي بعد وصوله إلى السلطة في الثامن من آذار 1963، ظاهرة بحاجة إلى دراسة تتميز بالجرأة والصراحة واقتحام المحرمات.

كما سمعنا من مصادر عديدة أن أحد أسباب انتشار القوميين السوريين في الساحل وجباله هو "مصلحة الريجي"، فهذه المؤسسة كانت تضم عدداً كبيراً من القوميين السوريين، الذين يقومون بعملية تخمين الدخان (التبغ)، ولهذا قام قسم من زارعي التبغ بمصانعة موظفي الريجي هؤلاء، كي يخففوا الأعباء المالية عنهم، والمصانعة تعني هنا الانتساب للحزب السوري القومي الاجتماعي، لكن ذلك لم يكن يعني أن الجميع دخلوا بسبب المصلحة، فكثيرون دخلوا الحزب عن قناعة وإيمان بمبادئه.

انتشر الحزب السوري القومي في ريف جبلة بفضل شابين من عائلتين معروفتين هما:

- **جميل مخلوف** معلم الابتدائي المولود 1920، وكان عفيفاً صادقاً في معتقده، أصولياً في الفكر القومي الاجتماعي، حسب شهادة الأستاذ

الكريم، وعندما بلغ من العمر عتياً ترك الحزب، وهو ينشط الآن (2005) في الشأن العام ورئيس جمعية العاديات في جبلة. رشّح نفسه لانتخابات مجلس الشعب عن حصص المستقلين، وكان كما قال: "مرشح الذين هجروا أحزابهم"، وشكل حالة جمعت أحزاب المعارضة المستاءة من الفساد واحتكار السلطة، فكان مرشحاً مقاوماً لحالة الخضوع والاستزلام المنتشرة مع جائحة البترودولار ورنين سلفه الأصفر الرنّان. جرى اللقاء في بيته بجبلة بتاريخ 2005/06/05.

[99]- جرى اللقاء مع المدرس علي هلال بتاريخ 1984/9/17، وهو من مواليد عام 1934 في رأس الخشوفة.

[100]- المقصود بالأفندية هنا هم ملاك الأرض من رؤساء العلويين، الذين لا يعملون في الأرض، ويشغّلون الفلاحين وفق مبدأ المحاصصة.

جهاد جديد، وعندما طلب حاكم سورية أديب الشيشكلي من الموظفين حلف يمين الولاء للنظام، رفض جميل حلف اليمين انسجاماً مع مبادئه، فسُرِحَ من التعليم، وبقي بلا عمل، وعاش في فقر. وبعد جريمة قتل معاون رئيس الأركان عدنان المالكي واتهام الحزب السوري القومي بالتخطيط للجريمة وتنفيذها لوحق جميل مخلوف، فالتجأ إلى لبنان رافضاً هناك أي امتياز، كما ذكر جديد. كان لجميل مخلوف دور بارز في نشر "الفكر القومي الاجتماعي" في ريف جبلة وجواره، وقد استند جميل على عائلته القاطنة في بستان الباشا وسلورين[101]، واستطاع جميل مخلوف أن يضم إلى الحزب السوري القومي أعداداً من الشباب، وفي مقدمتهم أقرباؤه من آل مخلوف، وجاء زمن، في أوائل خمسينيات القرن العشرين، أطلق فيه على بستان الباشا اسم "بستان سعادة"، تعبيراً عن اعتناق أكثرية القرية، وهم من آل مخلوف، مبادئ أنطون سعادة.

- **فاضل الكنج**، وهو كجميل من مؤسسي الحزب القومي الاجتماعي، وهو ابن شقيق إبراهيم الكنج الزعيم العلوي المشهور ورئيس عشيرة الحدادين من بني علي في ريف جبلة، وقد تميّز فاضل بخروجه على الولاء العشائري ودعوته الخالصة للفكر القومي الاجتماعي العلماني والمناهض للعشائرية والطائفية، وهو أيضاً أصولي في الفكر القومي الاجتماعي "عفيف سياسياً ومادياً، وعاش في ظلم"، حسب تقويم جهاد جديد له. نافس فاضل الكنج في الانتخابات قريبيه شفيق إبراهيم الكنج وبهجت حسن نصور، ومع أن النجاح لم يحالفه في معركته الانتخابية، إلا أن دخوله المعركة الانتخابية دلّ على أمرين هامين:

- رغبة أبناء الدرجة الثانية في العشيرة في الوصول إلى القمة، وهذه الظاهرة نجدها في أماكن كثيرة، سواء في الجبل العلوي أم على نطاق سورية.

- خروج الصادقين في العقيدة من الأحزاب العقائدية العلمانية (الشيوعي والبعث والسوري القومي) على تقاليد العشيرة وأعرافها، وسعيهم لنشر فكر جديد داعٍ إلى الوحدة الوطنية، وهو على طرفي نقيض مع الفكر العشائري أو الطائفي.

زار أنطون سعادة اللاذقية، وحلَّ ضيفاً على عبد الغني أسرب وابنه

---

[101]- آل مخلوف هم من عشيرة الحدادين، لكنهم سكنوا مع عشيرة الكلبية، وكان يطلق عليهم لقب العتيرية مفردها عتيري، وهو الرجل الشجاع القوي البأس، انظر خونده، ص192.

عبد القادر[102]، وكان ممن زاره وحاوره الشيخ العلوي عبد الرحمن الخيّر، الذي سار مع الحزب السوري القومي فترة محدودة، ولم يكن الحزب القومي السوري قوياً في مدينة اللاذقية، ومن أبرز وجوهه فؤاد الشواف، وهو ميسور ومن ملاك الأرض، وخاض الانتخابات باسم الحزب دون أن يحالفه النجاح.

ويلاحظ أن انتشار الحزب السوري القومي كان بارزاً بين المسيحيين والعلويين، ولم يحقق حضوراً ملحوظاً في أوساط السنة بسبب علمانية الحزب ووقوفه موقفاً ملتبساً من العروبة المتداخلة مع الإسلام، وقد عرقل انتشار الحزب السوري القومي الأسباب الرئيسية التالية: المبالغة في الإصرار على النزعة السورية، مما أدى إلى ابتعاد أكثرية السكان المتجذرة في أفئدتها فكرة العروبة، والتي كانت تزْوَرُّ من طمس فكرة العروبة لصالح "القومية السورية" الغريبة عنها. كان موقف القوميين غامضاً، بل معادياً للاشتراكية، التي تمتعت بشعبية واسعة في منتصف القرن العشرين، وأهم من ذلك أنهم لم يأخذوا موقفاً واضحاً من القطاع العام، وكان كثير من أبناء ملاك الأرض "الإقطاعيين" من نشطاء الحزب السوري القومي. تضمنت بعض أفكار الحزب القومي وأسلوب عمله وشعار الزوبعة معالم طريق التقاطع مع الفاشية، التي انهارت نتيجة الحرب العالمية الثانية. أكد القوميون بصراحة وجرأة أفكار العلمانية، مما جعلهم في عداء مع القوى الدينية، وكان لاغتيال رئيس وزراء لبنان رياض الصلح، الذي وقّع حكم الإعدام على أنطون سعادة أثر في نقمة الناس على هذا الإجراء، وزاد في الطين بلة أن القاتل ميشيل الديك مسيحي، والمقتول رياض الصلح من زعماء السنة، وأحد الوجوه اليعربية البارزة، ولا ننسى أيضاً اغتيال العقيد عدنان المالكي، الذي اتُهِم قادة الحزب السوري القومي بتدبير عملية اغتياله.

18- حزب البعث العربي الاشتراكي ودور وهيب الغانم في اللاذقية

كان لوهيب الغانم أثر فعّال وواضح في نشر أفكار البعث بين العلويين بالدرجة الأولى، وجزء من شباب سنة المدن وعدد من المسيحيين، فقد استطاع الدكتور الطبيب والأديب المثقف والمتفهم لدور الإسلام في

[102]- من وجوه القوميين السوريين في مدينة اللاذقية آنذاك، إضافة إلى فؤاد الشواف وأديب عازار والمحامي عيسى سلامة من مرمريتا، وهي أحد معاقل السوريين القوميين، كما كان من قادة الحزب في الحفة المحامي عبد العزيز أرناؤوط، الذي ترك الحزب بعد مدة وجيزة.

المجتمع أن يرسّخ جذور حزب علماني بعيداً عن الطوائف والعشائر، يدعو إلى وحدة الأمة العربية في جميع أقطارها وجميع أديانها ومذاهبها وطوائفها وقبائلها، ويلاحظ أن الغانم المولود في أنطاكية دخل باب السياسة في الجبل العلوي، وهو لا ينتمي إلى عشيرة من عشائر الجبل، معتمداً على علويته بالولادة وعلى علمه ومهنته الطبية وشخصيته الفذة وأفكار الحزب الذي يدعو إليه، ويرى الأستاذ جهاد جديد أن "وهيب الغانم كان أهم قائد سياسي مرّ على الساحل خلال القرن العشرين"[103].

ولد وهيب الغانم في أنطاكية عام 1919 لأسرة متوسطة الحال، حاز شهادة البكالوريا الثانية في صيف 1937، وانتسب إلى معهد الطب بدمشق في تشرين الأول 1937، وقد وفَّرت له المنحة التي قدَّمتها له الدولة بسبب تفوقه إمكانية الدراسة في دمشق. تأثر وهيب الغانم بأستاذه زكي الأرسوزي أحد الأعضاء النشطاء في عصبة العمل القومي[104].

ظهر إلى جانب حركة البعث في مطلع الأربعينيات تجمعان سياسيان للبورجوازية الصغيرة المثقفة، أطلقا شعارات مشابهة لشعار البعث (ميشيل عفلق وصلاح البيطار)، وهما:

- مجموعة زكي الأرسوزي المتحدّرة من لواء إسكندرون، وكان الأرسوزي من شخصيات عصبة العمل القومي، ثمّ دعا إلى البعث، والتفّ حوله تلاميذه القادمون من لواء إسكندرون، وفي مقدمتهم وهيب الغانم، الذي انتسب إلى البعث ممثلاً مجموعة الأرسوزي يوم تأسيس البعث في نيسان 1947.

- مجموعة أكرم الحوراني في مدينة حماة، التي أسست الحزب العربي الاشتراكي، ثمّ اتحدت مع البعث، وفي فصل لاحق سنتناول دور العربي الاشتراكي بين الفلاحين.

قبل تأسيس حزب البعث، وفي أجواء النهوض الوطني والقومي، قام طالب الطب وهيب الغانم في صيف 1943 بمسيرة شبه أسطورية برفقة

---

[103]- مقابلة مع جديد مشار إليها سابقاً.

[104]- تأسست عصبة العمل القومي في مؤتمر قرنايل (لبنان) في آب 1933 من مجموعة من الشباب المثقف العائد من أوربا بعد إنهاء دراسته، حاملاً مبادئ جديدة دعت إلى هدفين أساسيين: سيادة العرب واستقلالهم المطلقين، والوحدة العربية الشاملة، ولا نعلم هل انضم إليها أحد من أبناء الجبل؟ لكن تلاميذ زكي الأرسوزي المنضوين تحت لواء البعث القريب في مبادئه من عصبة العمل القومي هم الذين نشطوا في الجبل، وفي مقدمتهم وهيب الغانم.

أحد أصدقائه استمرت ثلاثة أشهر، متنقلاً بين قرى الجبل العلوي سيراً على الأقدام، وقد رمى الغانم من وراء هذه الجولة التعرف على المجتمع، والقيام بأعمال إنسانية لمساعدة المرضى من الفلاحين، واستغلال التعارف مع السكان للدعوة لمبادئه القومية، التي كانت في دور النضج. وبعد رجوعه من هذه الجولة إلى اللاذقية، اعتقلته السلطات مدة أربع وعشرين ساعة بتهمة التجسس لألمانيا النازية والدعوة إلى التعصب القومي وإلى النازية، فأجاب الغانم: "أنا ضد النازية ومع الحرية والديمقراطية".

كان أول قرار اتخذه الغانم إثر جولته تلك العمل في اللاذقية بعد التخرج، فقد أثَّرت فيه حالة البؤس والفقر والاستغلال السائدة في الجبل العلوي، وشدّته إلى العمل للخلاص منها، وجعل اللاذقية منطلقاً للدعوة لأفكاره.

حول وضع الريف في أربعينيات القرن العشرين كتب الغانم في مذكراته: "الإقطاع، التخلف، الفقر الأسود، الخمول، جدب الأرض، الزعامات المفروضة، الاستغلال، الاضطهاد، أنواع التمزق، الابتزاز، وباختصار كل ما يمكن أن توصل إليه قرون من التخلف والاحتلال الأجنبي".

وهكذا قرر الغانم السير مع الفقراء والدعوة إلى "الخبز والحرية"، وعلى أثر هذه الجولة كتب الغانم: "بتّ أعلم أن العواطف لا تكفي، بل يجب بتر أسباب الظلم الاقتصادي من أساسها".

تخرّج الغانم في معهد الطب في حزيران عام 1944، وسرعان ما افتتح عيادة في اللاذقية في أيلول من العام نفسه، فالعيادة عليها أن تكون منطلقاً للدعوة لأفكاره، وبعد افتتاح العيادة بأشهر أصدر في عام 1945 بياناً باسم "مكتب البعث العربي في اللاذقية".

ترشّح الغانم لانتخابات المجلس النيابي عن ريف اللاذقية عام 1949، دون الوصول إلى غايته، ونجح عن المقعد العلوي الشاعر بدوي الجبل ابن الشيخ سليمان الأحمد، ويقول الروائي حنا مينه[105] إن تعليمات قيادة الحزب الشيوعي من دمشق طلبت من الشيوعيين انتخاب بدوي الجبل لا حباً به، بل خوفاً من نجاح الغانم، المؤهل لكسب ود جماهير الفلاحين، الذين يطمح الحزب الشيوعي لكسبهم إلى جانبه.

---

[105]- مقابلة مع حنا مينه بدمشق بتاريخ 2004/12/11.

وبعد أربع سنوات ونيّف، نجح الغانم في انتخابات المجلس النيابي لعام 1954 ممثلاً لحزب البعث، كما فاز في انتخابات عام 1961، وكان معروفاً عنه تعاطفه مع أكرم الحوراني.

أثناء لقائنا مع الدكتور وهيب الغانم في 1994/01/07 سألناه عن مناهل فكره الاشتراكي، فأجاب: "بأن البذور الاشتراكية نمت لديه بسبب واقع الفقر"، وأردف الغانم قائلاً: "أنا طاحونة قراءة، قرأت الماركسية والرأسمالية والمثالية"، وأضاف أنه تأثر بنيتشه، وترجم كتابه وهو ما يزال طالباً، والترجمة لم تطبع وما تزال مخطوطاً.

بوعلي ياسين الطالب الحائز على الشهادة الثانوية، الذي نجح في مسابقة للإيفاد للدراسة في ألمانيا، اصطحبه عمه في شباط 1962 للتعرف شخصياً على وهيب الغانم في عيادته. عام 1990 كتب بوعلي واصفاً الزيارة:

"... قدمني عمي إلى الدكتور وهيب متفاخراً بي، وسأله بلهجة المريد أن ينصحني، وكم كانت مفاجأتي كبيرة، عندما أشار عليَّ بالاطلاع (فقط) على الفكر القومي الألماني. ذلك أننا كنا نشكك باشتراكية عبد الناصر وديمقراطيته، إلى جانب أنه كان معروفاً في الأوساط الثقافية البعثية (أيضاً) أن الفكر القومي الألماني فاشيَّ الاتجاه (نازي)، أما ما فعلته أنا في ألمانيا (الغربية وقتذاك)، فهو أنني اطلعت على الفكر الاشتراكي لا القومي، على ماركس وليس على نيتشه"[106].

استندت شعبية وهيب الغانم إلى أربعة ركائز:

- طبيب يعالج الناس بإخلاص وتفان، ويحكِّم الفقراء "ببلاش"، أي دون مقابل، وقد كان هدف المهنة خدمة الفكرة، والعيادة قامت بهذا الدور خير قيام، فسهّلت له عملية الاتصال بالناس دون حواجز أو رقباء.
- مفكر غزير الثقافة ويتمتع بإمكانية الإقناع.
- سياسي يحمل أفكاراً تمزج بين الفكر الوطني والقومي من جهة والفكر الاجتماعي الاشتراكي من جهة أخرى.

---

[106]- بو علي ياسين: "عين الزهور، سيرة خاصة"، دمشق، دار الحصاد، 1993، ص160. يلاحظ أن أعداداً كبيرة من الشباب القومي المثقف أخذت تتجه في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين باتجاه الماركسية، ومن هذا الرعيل بوعلي ياسين، الذي قام بعد عودته من ألمانيا بتأليف عدد من الكتب ذات المنهج الماركسي.

- ساعدت علويته في تسهيل مهمته الفكرية والسياسية في أوساط العلويين. هذا مع العلم أن مبادئ الغانم البعثية وفكره النهضوي وسلوكه كانت بعيدة عن الروح الطائفية، بل معادية لها.

ويلاحظ أن حركة وهيب الغانم البعثية تساوقت مع حركة العربي الاشتراكي (حزب أكرم الحوراني) في أواخر أربعينيات وأوائل خمسينيات القرن العشرين من حيث التحالفات الطبقية التي عقدتها كلتا الحركتين، ففي كل من الحركتين جرى الاعتماد على الفلاحين بمختلف أصنافهم من جهة، وعلى صغار الملاك والمتوسطين وزعامات الدرجة الثانية من جهة أخرى، وهذه الزعامات وأولئك الملاك الصغار طمحوا إلى ضرب الملاك الكبار وزعامات الدرجة الأولى. هذا الاستنتاج وصلتُ إليه من خلال الحديث مع الدكتور الغانم. ولما سألته عن رأيه في هذا الاستنتاج أكده، وأردف قائلاً: "اصطدمنا مع الإقطاعيين ومع المشايخ، لكن بدرجات مختلفة، فليس كل الزعماء على مستوى واحد من الرجعية، فالكثرة من متوسطي الملكية وقفوا معنا".

ألقى الغانم في عام 1952 محاضرة حول "الاشتراكية والحرية الإنسانية" اقترح فيها "تأليفاً بعثياً"، وبعبارة أخرى نوعاً من التوفيق بين الرأسمالية والشيوعية أطلق عليه اسم "الاشتراكية العربية"، وذكر لنا أثناء اللقاء به أنه يملك مخطوطاً كتبه عام 1942 بعنوان: "رسالة الحياة"[107].

ودور حزب البعث العربي الاشتراكي في الساحل السوري ومواقفه من الطائفية والعشائرية فيه بحاجة إلى كتاب خاص.

19- الحزب الشيوعي السوري، الذي سيحتلُ حيّزاً واسعاً من هذا الكتاب، ولهذا لن نتطرق إلى تاريخه ونشاطه في هذه الفقرة، ونكتفي بالإشارة إلى الدور الشجاع لرواده الأوائل، الذين اقتحموا أسوار المجتمع التقليدي سيراً على الأقدام، وهُم لا يملكون سوى سلاح الكلمة والعزيمة الصادقة لتحرير الفلاحين، فمن بدر مرجان إلى دانيال نعمة وعبد الكريم طيارة وميشيل عيسى وهزيم محمود إلى العشرات من الكوادر، التي أفنت ردحاً من شبابها في السير على طريق تحرير الإنسان، سنتتبع في فصول لاحقة تلك المسيرة وما آلت إليه.

---

[107]- انظر حول الدكتور وهيب الغانم ما أوردناه في كتابنا: "المثقفون في السياسة والمجتمع (الأطباء)". دمشق 1996 ص 157-165.

20- حركة الإصلاح الريفي في الجبل العلوي تجمع بين الولاءات الوطنية والمشاعر الطبقية الفلاحية

مع فجر الاستقلال وقيام الدولة الوطنية السورية، تنادت للعمل للصالح العام مجموعة من الطلاب الشباب المتقدين حماسة وطنية والمتطلعين إلى تحسين أوضاع الريف في أرجاء الجبل العلوي، الذي نشؤوا وترعرعوا فيه. اجتمع هؤلاء الطلاب في صيف 1946 في دريكيش لبحث وسائل تطوير ريفهم المفتقر إلى الطرق والمدارس والمستوصفات والمشافي، وكان همهم الأول تنظيم أنفسهم لنقل مطالب ريفهم وهموم فلاحيهم إلى الدوائر المسؤولة في الدولة الوطنية السورية المستقلة حديثاً.

محمد سلوم أحد الطلاب المجتمعين في دريكيش كتب لنا أسماء من بقي عالقاً في ذاكرته من الحضور وهم[108]: أحمد سليمان الأحمد ومحمد علي صالح وجودة قاسم من ريف اللاذقية وجبلة، ظاهر معلا ربيع ومحمد محمود معروف ومحمد سليمان خضر من ريف حماة، عبد اللطيف عبد الله (وآخرون نسي اسمهم) من ريف طرطوس، محمد علي يونس من ريف صافيتا، علي غنام ونجم الدين صالح ومحمود بركات ومحمد سلوم وإبراهيم هوارة وصلاح أحمد وحبيب حسن ديب وأحمد علي ديب ويوسف دخيل وعزة جديد وعبد الهادي حسين ومحمد عمران وفضل الدين معلا ومحيي الدين ديب ونديم يوسف ومحيي الدين صالح من دريكيش وريفها.

ونلاحظ أن أكثرية الحضور كانت من دريكيش وقراها، كما تمحورت قيادة هذا التجمع في دريكيش وريفها، ويذكر محمد سلوم أنه جرى في الاجتماع انتخاب الهيكل القيادي للحركة ووزعت المهام على المجتمعين وفق واقع ومقتضى الحال.

وتنفيذاً لذلك الاجتماع كتب سلوم ما يلي[109]:

"أذكر أني قمت مع رفاق بجولة سيراً على الأقدام استغرقت ثلاثة أيام نظمنا خلالها عرائض بتواقيع المخاتير والمواطنين مضمونها ربط الساحل السوري بالداخل وتعبيد طريق طرطوس دريكيش مصياف، الذي شقته فرنسا، وقد رفعنا

---

[108]- بفضل همّة السيد يونس صالح ومبرته، كتب محمد سلوم المقيم في دريكيش ثلاث صفحات عن جوانب من حياته ونشاط حركة الإصلاح الريفي، وهو أحد مؤسسيها، وننقل هنا ما كتبه سلوم مشكوراً.

[109]- المصدر السابق.

مطالبنا إلى المسؤولين في دمشق، ونشرت الصحف الدمشقية نص العرائض التي قدمناها، وتتابع النشاط حتى وصل إلى ريف حمص.

كان نشاط أعضاء حركة الإصلاح الريفي، وهم من الطلاب، يبلغ ذروته في الصيف أثناء العطلة الصيفية، متمثلاً في زيارة القرى والاتصال بالفلاحين. وفي صيف 1950، أشرفت حركة الإصلاح على أربع مدارس لمكافحة الأمية بين الفلاحين، وهذا مما دفع الدرك والإقطاعيين إلى مقاومتهم بمختلف الوسائل"[110].

أحد أبرز الناشطين في حركة الإصلاح الريفي صلاح أحمد انتسب إلى كلية العلوم في الجامعة السورية، وكان قريباً من الشيوعيين، وشاركهم في نشاط اتحاد الطلاب الجمهوريين. وعند نهاية العام الدراسي في ربيع 1952 أعلم صلاح أحمد أحد مسؤولي الحزب الشيوعي في الجامعة بتفاصيل وافية عن "حزب الإصلاح الريفي" والدور القيادي لصلاح فيه واستعداده لتنفيذ ما يطلبه الحزب منه، وعلى أثر ذلك رفع المسؤول الشيوعي في الجامعة (واسمه الحركي فريز) تقريراً إلى قيادة الحزب سرد فيه ما سمعه من صلاح أحمد حول حزب الإصلاح الريفي، وننقل فيما يلي ما جاء في مقدمة التقرير[111]:

"بدأ (هذا الحزب) على شكل جمعية محلية في الجبل العلوي، هدفها النهوض بمستوى الفلاحين هناك وتعليمهم وتحسين أحوالهم، وإلى درجة ما مقاومة الإقطاعية المتفشية، وكان القائمون على هذه الجمعية نخبة من الطلاب والمثقفين الناقمين على تلك الأوضاع، وكان ذلك منذ سبع سنوات".

ويمضي كاتب التقرير قائلاً:

"تطورت الجمعية منذ ذلك الحين، حتى أصبحت اليوم تضم، على ما ذكر لي، 211 شاباً معظمهم من الطلاب، وبدأت تأخذ اتجاهاً أكثر وضوحاً من ذي قبل، اتجاه تحضير الفلاحين لعمل سياسي ومقاومة الإقطاعيين ونفوذهم وإثارة الفلاحين ضدهم".

وتحت عنوان: **يريدون أن يصبحوا حزباً**، جاء في التقرير:

"لاقت الجمعية خلال نشاطها مضايقة شديدة من الإقطاعيين أولاً، ومن رجال الدرك ثانياً، مثال ذلك: أن أحد أعضائها، واسمه حبيب حسن معروف، قد اعتقل وضرب من رجال الدرك، ثم هدد بأنه إذا دخل قرى الجبل جرى له ما لا يحبه،

---

[110]- المصدر نفسه.

[111]- جاء التقرير تحت عنوان: "حزب الإصلاح الريفي"، وهو مؤلف من ست صفحات، ومذيل باسم فريز، وهو الاسم الحركي لأحد مسؤولي الشيوعيين في الجامعة السورية، وكان على صلة وثيقة بصلاح أحمد، الذي أسرّ له بالمعلومات الواردة في التقرير، والتقرير محفوظ في أرشيف الحزب الشيوعي، الذي تكرم مشكوراً بإعطاء المؤلف نسخة منه، ويجد القارئ في الملاحق صورة عن هذا التقرير.

وهو يقيم الآن في طرطوس حسب ما قيل لي، كما أن سبعة آخرين قد أوقفوا، وقدموا إلى المحاكمة بتهمة أن لهم علاقة بالفرنسيين، وأنهم جمعية إرهابية..." [112].

محمد سلوم، كتب لنا ما يتذكره عن حركة الإصلاح الريفي كما يلي:

"عام 1949 عندما كنت طالباً في دار المعلمين الابتدائية بدمشق تبلغت مع عدد من أعضاء الحركة مذكرة دعوى قضائية إلى محكمة صلح صافيتا. أبلغنا القاضي مذكرة اتهام بالعمل في إطار الطائفية، التي يعدها القانون عنصر هدم في كيان الوطن، ويعاقب مرتكبها، وأنكرتُ ورفاقي هذه التهمة، فأخلى القاضي سبيلنا".

وأضاف سلوم أن قائمقام صافيتا مصطفى الحوراني، وهو عم أكرم الحوراني، أقنع القاضي قبل الجلسة ببراءة أعضاء حركة الإصلاح الريفي.

وبسبب المضايقات التي واجهها أعضاء حركة الإصلاح الاجتماعي أرادوا أن يصبحوا حزباً رسمياً باسم حزب الإصلاح الريفي، فوضعوا دستوراً للحزب، وتقدم لطلب الرخصة له ثلاثة هم: صلاح أحمد وحبيب حسن معروف، الذي اعتقله الدرك وضربوه ثم منعوه من الإقامة في قرى الجبل، والاثنان من ذوي الميول اليسارية، أما العضو الثالث، الذي طلب الرخصة فهو نجم الدين صالح الطالب في كلية الحقوق آنذاك، وكان يؤمن بالقومية العربية، وعلى خلاف سياسي مع اليساريَين صلاح وحبيب، لكن الثلاثة كانوا متفقين في العمل لمساعدة الفلاحين.

كاتب التقرير لقيادة الحزب الشيوعي يصف حال مقدمي الرخصة على النحو التالي[113]:

"أما أوضاع هؤلاء الأشخاص الاجتماعية، فيبدو أنهم من الطبقة الوسطى بصورة عامة، وأستطيع أن أتحدث عن وضع صلاح بصورة عامة، فهو ابن أخت بدوي الجبل، ومن الإقطاعيين الصغار الخاسرين في الجبل، فهو يملك بعض الأرض، التي يعمل فيها فلاحون، لكنه مفلس دوماً، وأرباحه لا تكاد تقوم بمصاريف معيشته مع عائلته، وله نفوذ في الجبل باعتبار أن جده كان كبير شيوخ الجبل العلوي، والآخران هما أقل مرتبة في السلم الاجتماعي في الجبل".

أشار محمد سلوم فيما كتبه عن حركة الإصلاح الريفي إلى أن الخلاف سرعان ما أخذ يدب بين أعضاء الحركة، وأدى إلى توزُّع بعضهم على الأحزاب العلمانية الشيوعي والبعث والسوري القومي، وهذا دليل أن حركة الإصلاح الريفي التي اقتصرت عضويتها على

---

[112]- سيرد الحديث عن حبيب حسن في فصل لاحق، وقد أصبح حبيب حسن عضواً قيادياً في الحزب الشيوعي في الساحل.

[113]- انظر نص التقرير في الملحق، وقد تحدثنا عنه قبل قليل.

الشباب العلوي لم تكن حركة طائفية، رغم وجود تيار مذهبي علوي داخلها مثله محمود علي كامل، والدليل على الروح الوطنية ذات الأرضية الفلاحية لحركة الإصلاح أن صلاح أحمد أخبر المسؤول الشيوعي في الجامعة أنهم في حال حصولهم على الرخصة سيعملون على مدِّ نشاطهم إلى سائر الأرياف السورية. والدليل الأهم أن دانيال نعمة أشار في كتاباته إلى أن الشباب المثقف في ريف صافيتا، ويقصد أعضاء حركة الإصلاح الريفي، تصدى للعائلية والعشائرية. واتصال صلاح أحمد، الوجه القيادي الأول في الحركة، عام 1951، برفيقه مسؤول الحزب الشيوعي في الجامعة السورية، واستعداده للعمل بما يقول به الحزب الشيوعي، ينفي عن أكثرية أعضاء حركة الإصلاح الريفي تهمة الطائفية أو المذهبية وتهمة تسميتهم بحركة الشبيبة العلوية، فالحركة تتميز بوطنية أعضائها وبوجهها الإصلاحي ومحتواها الطبقي الفلاحي.

الشيوعي يونس صالح، وهو المتحدر من منطقة دريكيش وشقيق صلاح أحمد، والخبير بأحوال المنطقة، قيم حركة الإصلاح الريفي، ويسميها حزباً، على النحو التالي:

- استمر نشاط الحزب قرابة ثماني سنوات (بدءاً من عام 1946).
- قدم الحزب خدمات مطلبية لأهالي المنطقة، مما أعطاه شعبية واسعة بين الفلاحين الفقراء.
- لم تتوسع الأطر التنظيمية للحزب لتشمل الفلاحين، واقتصرت على الطلاب والمثقفين آنذاك، مما أفقده القاعدة الجماهيرية الصلبة، الأمر الذي أدى إلى زواله لاحقاً.
- اقتصار نشاط الحزب على العلويين واتهامه بالمذهبية وافتقاره إلى برنامج واضح جعله عرضة لنقد شديد وتهجم من القوى السياسية الموجودة في الساحة.
- فقدان الحزب لإيديولوجية واضحة، مما جعله عرضة لتأثيرات مختلف التيارات السياسية القائمة آنذاك، وقد مهد ذلك لحصول انقسامات داخلية في صفوفه، فبعض أعضائه اتجه نحو الحزب الشيوعي، وآخرون انضموا إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، والفريق الثالث اتخذ مواقع دينية (علوية).
- رشّح الحزب عام 1953 صلاح أحمد عن منطقة صافيتا،

وتعرض لضغوط من سلطات الشيشكلي والقوى الإقطاعية المحلية.

*****

ويبقى تاريخ حركة الإصلاح الريفي الممتد من منتصف أربعينيات القرن العشرين إلى منتصف خمسينياته بحاجة إلى دراسة علمية تفصيلية تجمع المتوفر من وثائق الحركة، وتعقد لقاءات مع من بقي على قيد الحياة من أعضائها.

فحركة الإصلاح الريفي، التي قامت في الجبل العلوي، ومركزها الأهم دريكيش وريفها، ضمت لفيفاً من الشباب العلوي المتعلم المتطلع للاندماج في مجتمع الدولة الوطنية السورية الناشئة، والساعي إلى تحسين أوضاع الريف، الذي يعيش بين ظهرانيه. هذا الشباب المتعلم الناشئ تأثر بأمواج النهضة العربية، وسار في طريق الانخراط في صفوفها، ولم تكن لهذه الحركة تطلعات مذهبية (علوية)، كما اتهمها أعداؤها، بل رنت بأبصارها إلى الاندماج الوطني والتطور المدني، ومن الأدلة على توجهها الوطني لا الطائفي الواقعين التاليتين:

- لم يشر ابن المنطقة المسيحي الشيوعي دانيال نعمة في معرض حديثه عنها إلى طائفيتها، بل أكد أن شبابها وقف في وجه العشائرية والطائفية.

- انخرط في صفوفها أشخاص لم يسيروا في الطريق الطائفي، بل ساروا مع التيارات العلمانية، نذكر منهم:

صلاح أحمد صديق الحزب الشيوعي، ولقاؤه مع مسؤول الحزب الشيوعي في الجامعة السورية أقوى دليل على توجهه الوطني العلماني.

حبيب حسن، الذي انضم إلى صفوف الحزب الشيوعي، وتابع مسيرة حركة الإصلاح الريفي في زيارة الفلاحين في قراهم برفقة رفاقه من الشيوعيين.

الشاعر أحمد سليمان الأحمد القريب من الشيوعيين لفترة من الزمن وشقيق بدوي الجبل.

نجم الدين صالح، وهو شاعر درس الحقوق، وكانت نزعته القومية العربية معروفة لدى الجميع.

من كل ما تقدم يمكن القول إن حركة الإصلاح الريفي في الجبل العلوي (المسمى حالياً الساحل السوري) هي إحدى تجليات المجتمع

المدني الصاعد نحو الأعالي في منتصف القرن العشرين، قبل أن تعود رياح العشائرية والطائفية العاتية، تلك الرياح المثقلة بالأفكار الدينية المتحجرة والمتزمتة والمتعصبة، مُضيّقةً الخناق على الأفكار الدينية المستنيرة المنفتحة على العالم، والتي انتعشت في عصر النهضة العربية.

فمتى ستعود أفكار النهضة والتنوير بصيغها الجديدة، لتدفع المجتمعات العربية في طريق الوطنية والديمقراطية والعقلانية، وهي من أساسات التطور والتقدم؟

الباب الثاني
التأهيل التربوي السياسي لدانيال نعمة

الفصل الأول
والدا دانيال نعمة

ولد دانيال نعمة في المكسيك يوم الحادي والثلاثين من شهر آذار لعام 1925[114]. الجد الأكبر للأسرة نعمة عمل في مشتى الحلو في حياكة العباءات (العبي)، التي أورثها لأولاده، والجد الثاني داود عمل إلى جانب الحياكة في الزراعة وتربية الماشية، وأنجب داود سليمان (جد دانيال)، الذي عمل في حياكة العبي حتى وفاته عام 1948 عن عمر يناهز التسعين عاماً.

حنا (والد دانيال) بن سليمان بن داود بن نعمة رأى النور في مشتى الحلو عام 1887، وكان شديد الحيوية، شديد الطموح، معتزاً بنفسه وبأخواله، ولهذا قرر السفر إلى أمريكا، شأنه شأن العشرات من أبناء قريته، الذين يمموا شطر أمريكا في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وهناك عمل في مناجم الفحم الحجري وفي مقالع للحجارة، وكان زملاؤه في العمل من الطليان والصرب ومن مختلف القوميات، وفي ذلك المحيط تعرّف على بعض الأفكار اليسارية من اشتراكية وفوضوية، وهناك أُعجِبَ بالديمقراطية، ولطالما روى بعد عودته إلى المشتى كيف أن رؤساء الجمهورية في الولايات المتحدة يعيشون، في ذلك الحين، في مستهل القرن العشرين، مثلهم مثل بقية الناس، ولم تكن الولايات المتحدة الأمريكية قد غرقت بعد في مرحلة الإمبريالية.

وذات يوم زار حنا (والد دانيال فيما بعد) عمّه إبراهيم، الذي قرأ عليه رسالة كانت قد وصلته من المشتى قبل أحد عشر شهراً. تضمنت الرسالة أن إبراهيم الخليل أوقف والده وأخاه بولس، وحبسهما في

---

[114]- قمنا بتفريغ ما يتعلق بتاريخ عائلة دانيال نعمة مما كتبه دانيال في أيام الشيخوخة على حلقات في الجرائد جمعها ابنه لؤي لنشرها في كتاب "من دفتر الذاكرة"، وقد جرى التفريغ بتصرف صارم معتمدين على المنهج التاريخي في نقل المعلومات.

الياخور مع الخيل[115]، وبعد تدخل الوسطاء أطلق سراح المسجونين في اليوم التالي[116]، ولهذا قرر حنا بن سليمان المشبع بعنفوان الشباب وحب الحرية، حسب رواية دانيال، فقد قرر الرجوع فوراً إلى المشتى لمجابهة استبداد بيت الحلو والانتقام لأخيه وأبيه. وعندما وصل إلى مشارف المشتى، أطلق من مسدسه عدة عيارات نارية إشارة إلى إعلان الحرب على استبداد إبراهيم الخليل سيد بيت الحلو، ولم يطل الزمن، فقد وقعت المعركة بين حنا السليمان[117] وإبراهيم الخليل، وأدت إلى مقتل زلمة (مرافق) إبراهيم الخليل، ونتيجة المحاكمة القضائية صدر الحكم على حنا سليمان بالسجن في طرابلس مدة 15 سنة[118]، وعندما انهارت الدولة العثمانية في خريف 1918 أفرج عن حنا سليمان، وتزوج عام 1920 من عفيفة الخوري، وكان هذا الزواج مكافأة له على شجاعته في مقاومة بيت الحلو. الوضع المادي المتردي دفع حنا سليمان للهجرة مرة ثانية، فيمم شطر المكسيك، وبعد أن استقرت أحواله التحقت به زوجته عفيفة مع ولديها، وهناك أنجبا ولدهما الثالث دانيال عام 1925، وبعد أن تحسنت أحوال حنا المادية عاد إلى مسقط رأسه عام 1928. ومن دوافع عودته، كما يذكر دانيال، رغبته في تعليم أبنائه اللغة العربية، بعد أن تمكن من جمع ثروة لا بأس بها في مقاييس ذلك الزمن. وكما كانت عادات المهاجرين العائدين برأسمال، قام حنا سليمان ببناء منزل[119]، عُدَّ في ذلك الحين من بيوت الوجاهة، وأخذ يعمل في التجارة، وكانت علاقة المشتى والمنطقة بأكملها مع طرابلس الشام.

انعكست الأزمة الاقتصادية العامة للرأسمالية لعام 1929على وضع حنا السليمان، وألقت بظلالها الثقيلة على المهاجر المثقل بالذهب والعائد

---

[115]- وكانت عملية حبس المتمردين على زعماء القرى في إسطبل الخيل أمراً معروفاً وشائعاً.

[116]- كانت هذه الحادثة سبباً لقرار بولس ترك المشتى والهجرة إلى الأرجنتين، حسبما كتب دانيال في دفتر الذاكرة.

[117]- من عادة أهل المشتى وجوارها لدى ذكر الأسماء أن ينسب الابن إلى أبيه بعد إضافة أل التعريف إلى اسم الأب.

[118]- بعد إصدار الحكم، طلب القاضي من حنا السليمان أن يحيي السلطان على مسمع من الحضور، فقال حنا: "يحيا السلطان"، وكررها ثلاثاً، ثم أضاف: "لكن لو وضع السلطان حماراً بدلاً منك، لكان حكم الحمار أعدل".

[119]- ما يزال قائماً إلى الآن، ربيع 2005.

من المكسيك، فبعض المال الذي جمعه واستدانه الآخرون ذهب مع الريح، والحرير الذي اختزنه انخفضت أسعاره انخفاضاً مدمراً، وتحت وطأة هذه الكارثة قام بما تبقى معه من مال بممارسة التجارة، إضافة إلى فتح دكان قريب من بيت سكنه. وفي خريف عام 1933 تشارك مع بعض أقربائه في الدكان، واستمرت هذه الشراكة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، حين تمت تصفية هذا الدكان، ويصف دانيال وضعهم بأنه أقرب عموماً إلى الفئة الوسطى في القرية، وإن كان الناس يعدونهم عموماً من أغنيائها.

وفي أواسط ثلاثينيات القرن العشرين كان والد دانيال من الوجوه البارزة في جبهة عائلة الخوري، التي طمحت إلى منافسة آل الحلو زعماء القرية لفترة طويلة من الزمن، وكان أحد مظاهر الصراع يدور حول المخترة، التي كانت في يد بيت الحلو، وأخيراً صار للقرية مختاران يمثلان العائلتين المتخاصمتين، وشاءت الأقدار أن ينتسب اثنان من أولاد حنا السليمان إلى الحزب الشيوعي، وأصبحا من كوادره الأساسية، وهما دانيال ويفتاح. **وعندما شنت المباحث حملتها الهمجية على الحزب الشيوعي في أوائل عام 1959، مارست حملة نفسية لا تطاق على حنا السليمان، وسدّت سبل الأمل أمامه، فلجأ في أواسط نيسان 1959 إلى السلاح للخلاص من هذا الجحيم،** الذي سعّرته الدولة "الحداثوية السلطانية" ضد أصحاب الرأي من رعاياها. وهكذا كان المُسِنُّ حنا السليمان بموته المأسوي من ضحايا تلك الدولة السلطانية وارثة الاستبداد المملوكي العثماني[120].

ولنقرأ في الفقرات التالية ما كتبه دانيال عن مأساة وفاة والده:

"كانت الحركة الوطنية السورية والعربية في حالة نهوض،

---

[120]- ذكر دانيال في مذكراته أن موت والده كان مأسوياً مع إيراد تفاصيل ذلك الموت المأسوي. كتب دانيال: "كانت آخر مرة رأيت فيها والدي هي أواخر عام 1956، فقد ذهبت إلى هناك لأودع العائلة كلها قبل ذهابي إلى المدرسة الحزبية في موسكو. كانت ساقية الماء جارية، وكان ماؤها رقراقاً، وكان والدي يسقي الدار، فقد حرص دائماً على أن يكون لدينا بندورة وباذنجان وأشياء أخرى إلى جانب الأشجار المثمرة، وكان يجلس قرب البركة صديقه إلياس سلوم من قرية عيون الوادي، والتفت إليَّ إلياس سلوم وقال: (لقد خَتْيَرَ أبو جرجس كثيراً). والتفت إلى والدي، ورأيته فعلاً قد شاخ كثيراً، فأرعبني ذلك، ثم عدت إلى وعيي. في تلك الليلة أتانا ضيوف كثر من عيون الوادي، إضافة إلى رفاقنا من أهل المشتى، وفي صباح اليوم التالي عدت إلى دمشق، ومرت الأيام...".

ومنظمات الحزب الشيوعي تنتشر في كل مكان من أصقاع الوطن، ونفوذ اليسار يشتد ويقوى، لكن الأمور تعقدت في أواخر عام 1958 وأوائل عام 1959. تعقدت نتيجة ما كان يجري في العراق، وعلى أبواب الوحدة مع مصر...".

"مرّ اليوم التالي لعيد الميلاد عام 1958. كان الرفاق - **والكلام لدانيال** - في زيارة للوالد، وكان سطح الدكاكين يعج بالزوار، وأتى الدرك، وعلى رأسهم مدير الناحية، وأرادوا اعتقال المتجمعين بحجة وجود تجمع ممنوع. رحب بهم الوالد وقال: اليوم عيد، والشباب هنا يُعيِّدوننا، فتفضلوا لنشرب القهوة معاً، لكنهم رفضوا، وأصرّوا على اعتقال الموجودين. عندئذ شمر الوالد عن يديه، وقال لهم: لن تأخذوا أحداً من هذه الدار. وجرت معركة، وطُرِد الدرك، وفرّ الشباب إلى الغابة".

"وفي الليل أتت قوى الدرك، واعتقلت الوالد - **والكلام لدانيال** - واعتقلت معه أخي الأصغر وليد، وأرسلوا بهما إلى اللاذقية، وكان هذا الاعتقال أول الاعتقالات في سورية، وأذكر أن الرفيق خالد قال لي ذات يوم في موسكو: (إن ما قام به والدك والرفاق في المشتى هو شيء رائع وبطولي)، ونُقِلَ الخبر إلى دمشق على أنه إشارة، على أنه بداية وليس مجرد حادث عابر".

"في سجن اللاذقية انضم إلى الوالد - **والكلام لدانيال** - رفاق أعزاء تعرضوا للكثير من التعذيب، ومورست على الوالد وهو في الثانية والسبعين من العمر ضغوط نفسية كثيرة، وأفرج عنه لقاء تعهد بتسليم ابنه الفار يفتاح"[121].

---

[121] - أصبح يفتاح المولود عام 1933 من الكوادر السرية الأساسية للحزب الشيوعي، وكان معروفاً بانضباطه وإخلاصه وتفانيه في خدمة الوطن والحزب الذي انتسب إليه بتأثير أخيه دانيال، وتُقَدِّم سيرة يفتاح نموذجاً للإنسان الشهم المخلص الصادق والمتفاني في خدمة الوطن والحزب الشيوعي، الذي انتسب إليه وهو مرفوع الجبين. وعندما دارت الأيام دورتها لم يجد يفتاح غضاضة، بعد أن ترك الحزب عام 1976 بمحض إرادته، من العمل سائقاً على التاكسي بين المشتى ودمشق، لتحصيل لقمة العيش الشريف المغمّس بعرق الجبين.

بتاريخ 2005/01/12 أجرينا لقاءً في دمشق مع يفتاح، الذي لا يزال كتوماً، ولا ينطق بالمعلومة إلا بعد أن يمحّصها، وكأنه لا يزال يعيش مرحلة العهد السري، الذي أجاد العمل فيه بإخلاص وتفان ونكران للذات.

"كان الإفراج عنه (عن والد دانيال) في أواخر آذار أوائل نيسان عام 1959، وفي أواسط ذلك الشهر جرى ما لم يجر مثله من قبل. لقد قرر الشيخ الوقور وضع حد لحياته. ابتعد عن الجميع، وذهب بعيداً عن العيون. تطلع إلى كل مكان، ملأ رئتيه من نسمات القرية الربيعية، وغرز سكيناً في بطنه..."[122].

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن ظروف انتحار والد دانيال نعمة تتحمل مسؤوليتها الأجواء السائدة والضغط الرهيب للأجهزة الأمنية في ملاحقة الشيوعيين وأنصارهم، فدوريات الدرك أخذت تتردد يومياً على بيت والد دانيال نعمة، مطالبة إياه بتسليم ابنه يفتاح، الذي لا يعرف والده عنه شيئاً، وقد حدد الدرك مهلة التسليم في أواسط نيسان، وإلا اعتقل الأب مرة ثانية، وقبل انتهاء هذه المدة بأيام قرر والد دانيال وضع حد لحياته، تخلصاً من التهديد والسجن الرهيب[123].

والدة دانيال نعمة عفيفة بنت سليمان الخوري ولدت في أوائل القرن العشرين، وزوّجوها لحنا السليمان تقديراً لبطولته وحزمه في النضال مع آل الخوري ضد إبراهيم الحلو. كانت عفيفة أميّة، لأن أمها رفضت إرسالها إلى المدرسة قائلة لها: لماذا هذا العذاب؟ فالمصير معروف، وحين تكبرين ستصبحين زوجة، فما فائدة العلم؟ ماذا ستقدم لك المدرسة؟

ارتبطت عفيفة الخوري بخط أبنائها السياسي، وكانت عوناً لهم أيام الشدائد، ويروي دانيال عن والديه الحادثة التالية: "ذات مرة كنت معتقلاً في تدمر (أوائل 1953)، ووصل إلى والديَّ خبر بأنني خرجت، وأنني في الطريق إليهم، وكانا يعرفان أن مثل هذا الخروج يعني على الأقل

---

[122]- انتهى النقل عن رواية دانيال في موت والده المأسوي. والسبب غير المباشر لهذه المأساة هو انتساب دانيال وأخيه يفتاح إلى الحزب الشيوعي، الذي أصبح ملاحقاً من المباحث في عام 1959.

[123]- نشرت جريدة (الأخبار) البيروتية في 3 أيار 1959، وفي صفحتها الأولى، خبراً كتبه فرج الله الحلو تحت عنوان: "الغضب يجتاح منطقة صافيتا بعد انتحار الشيخ الوقور حنا داود نعمة جاء فيه: "جاءنا من صافيتا أنه كان لحادث انتحار الشيخ الوقور المرحوم حنا داود نعمة والد المحامي الأستاذ دانيال نعمة أثر مؤلم كبير لدى أبناء كل مدن وقرى المنطقة... ففي كل يوم تتسرب أنباء جديدة عن أنواع التعذيب والتخويف، التي طبّقها أفراد المباحث على الفقيد خلال الشهرين الذين قضاهما في الاعتقال، وعن المداهمات الليلية المستمرة لبيته بعد خروجه من السجن، حيث يسكن مع زوجته وبناته، مما جعله يفضل الموت على الحياة في ظل هذا الحكم الإرهابي...".

أنني قدمت تعهداً بأن لا أعمل في السياسة، ولهذا قررا إذا صحّ النبأ أن يطلبا مني عدم دخول بيتهما، فبعد أن حمّلتهما ما حمّلتهما، كان عليَّ أن أتابع، وأن لا أسقط في منتصف الطريق".

ويروي دانيال عن والدته الحادثة التالية: "في 10 آب عام 1951 اشتركت وأخي في مظاهرة للسلام في دمشق، وجرى اصطدام، واعتقلت، وتعرضت لتعذيب شديد. وصلت الأخبار إلى كل أنحاء سورية بأنني على شفا الموت، وزارتني الوالدة بعد عشرين يوماً، وكانت آثار التعذيب ما تزال واضحة جداً في الوجه وعلى الرأس وفي شتى أنحاء الجسم، ووقفت منتصبة كالرمح، وتطلعت وهي تبتسم، ثم قالت: الجميع يسلمون عليكم. أهدافكم، طريق الوصول إليها عبر السجون. بعد أن ودعتني وهي تبتسم خرجت، وبعيداً عن السجن تركت لدموعها مجالاً للانهمار حزناً وأسى. كانت تحرص أن لا يرى العدو أي أثر للخوف أو للتراجع لدى أولادها، ولدى كل أعضاء الحزب، وفي عينيها".

ويروي دانيال حادثة أخرى عن والدته: "في أوائل عام 1953، عندما اعتقلت في اللاذقية، وقدمنا إلى المحاكمة، وأطلق سراحنا لعدم وجود أدلة، احتجزنا، وطلب إلينا التعهد بعدم العمل في السياسة، فرفضنا، وسجنا مرة أخرى، وبدأت ضغوط علينا، وتراجع الرفاق واحداً بعد واحد، وكنا قد أضربنا عن الطعام. وبقيت وحيداً، ووصلت الأخبار إلى القرية، فاجتمع الأهل، وطلبوا من الوالدة أن تذهب لإقناعي بكسر الإضراب، فقالت: كلا لن أذهب، فهو يعرف مصلحته ومصلحة الحزب. وصمدت بقوة، وذهب الوالد، وحاول معي، لكنه لم ينجح، وكل ما أقنعته به أنه إذا استمر على موقفه معي، فسوف يستخدمون ذلك لمزيد من الضغط عليَّ، فقبلني، وتمنى لي الصحة والصمود، وخرج، ولم يعد، وعلمت أنه زار النائب العام عمر العداس، وأخبره بالأمر، فقال له العداس: اتركه، إن ابنك بطل، وموقفه صحيح. وبعد ذلك نقلت إلى دمشق، ومنها إلى تدمر".

الفصل الثاني
تأهيل دانيال نعمة
(تربوياً، فكرياً، سياسياً)

1– على مقاعد الدراسة وفي رحاب الحزب الشيوعي

عندما أتمّ التلميذ دانيال نعمة مرحلة التعليم الابتدائي في مدرسة المشتى، كان والده يمر بضائقة مالية اضطرته للقبول بانتساب ابنه إلى المركز الزراعي والصناعي في بوقا (اللاذقية)، وبعد أن اشترك دانيال في الإضراب مع طلاب صفه في السنة الأخيرة من الدراسة، طردتهم إدارة المدرسة، وأرسلت لهم بالبريد شهادة التخرج، وبين محفوظات دانيال توجد هذه الشهادة، شهادة فرع الميكانيك الموقعة من المحافظ الممتاز لمحافظة اللاذقية، وكانت محافظة اللاذقية بعد معاهدة 1936 بين فرنسا وسورية قد دخلت في جسم الجمهورية السورية، وصار لها محافظ ممتاز تعيّنه الحكومة السورية في دمشق، لكن ذيول العهد السابق كانت ما تزال تنيخ بكلكلها على الوضع العام، ولهذا كانت ترويسة الشهادة تمهر بعبارة **"المنطقة العلوية المستقلة"**.

رغم الضائقة المالية، التي كان يمر بها والد دانيال، إلا أنه أصرّ أن يكمّل ابنه دراسته، فانتسب في بداية العام الدراسي 1941-1942 إلى مدرسة اللاييك في طرطوس، وعوضاً عن الانتساب إلى صف البروفيه (الكفاءة) انتسب إلى الصف الأول الثانوي، رغم أن المعارف التي حصل عليها في بوقا لم تكن تؤهله لدخول الصف العاشر. هذه القفزة لم تكن في صالح التلميذ دانيال، وهو ما اعترف به في مذكراته قائلاً: "إنه دفع الثمن فيما بعد"، فالتأهيل العلمي يجري وفق بناء متواصل منهجي، وليس بالقفزات.

يتحدث دانيال بحب وإعجاب عن أستاذ اللغة العربية رئيف خوري، الذي شده إلى معترك الحياة بدروسه الشيّقة ووطنيته المتدفقة، وكان السبب في توجهه نحو الماركسية والحزب الشيوعي. جرى ذلك بفضل زميله في الدراسة فايز بشور، الذي أرشده إلى مدرسة الحزب الشيوعي، وهذا ما سنتناوله في فصول أخرى.

انتقل الطالب دانيال في العام الدراسي 1944-1945من مدرسة اللاييك في طرطوس إلى ثانوية المأمون بحلب طالباً داخلياً بـ"كرسي

مجـاني" علـى نفقـة الدولـة، وذلـك بفضـل تحصـيله الجيـد فـي اللاييـك ومساعدة المدرس اليساري نظيم الموصلي. وقد كان النصف الثـاني من ذلك العام زاخراً بالمظاهرات، التـي أشعلها تلاميذ المدارس ضد قوات الاحـتلال الفرنســي، وقـد تشـكلت فــي مدرســة التجهيـز لجنــة لقيــادة المظاهرات، كان دانيـال من أعضـائها، وقـام بإلقـاء الخطـب فـي الأحيـاء المسيحية للدعوة إلى المشاركة بقوة في الحركـة الوطنيـة، ويـذكر دانيـال فــي مذكراتــه كـم كـان الطـالـب دانيــال محلقـاً فــي أفكـاره الرومانتيكيــة، وأسطورياً في فهمه لأحداث الماضي.

أدت المظاهرات الطلابية العنيفة إلى إغلاق المدارس في أيار 1945 وتأجيل الامتحانات، وقَبْلَ أن يعود دانيـال إلـى قريتـه قَبِلَ الدعوة لزيـارة مقر الحزب الشيوعي بحلب برفقة زملائه في قسم الفلسفة علـي بركـات مـن الـدريكيش وعـادل ونـسّ مـن حلـب، وكـان الاثنــان مـن الشـيوعيين المعــروفين فـــي التجهيــز، وهنـــاك اســتقبلهم عضـــو اللجنـــة المركزيـــة ومسؤول منظمة حلب الشيوعية عبد الجليل سيريس، وكانـت هـذه هـي الخطوة الأولى التنظيمية لانضمام دانيال إلى الحزب الشيوعي.

وبعـد هـذه الزيـارة إلـى مكتـب الحـزب الشـيوعي اسـتقل القطـار إلـى طرابلس الشام، ومنها توجه إلـى المشـتى، التـي لـم يكـن الواعـون سياسـياً مـن أهلهـا بعيـدين عـن أحـداث الطـلاب فـي حلـب، ولهـذا اسـتقبلوا دانيـال اسـتقبالاً حـاراً، وفي المشتى قررت المنظمـة الشـيوعية فيهـا إقامـة احتفـال وطنـي، تحـدث فيـه عـدد مـن الخطبـاء، كـان مـن بيـنهم دانيـال، وفـي اليـوم التـالي توجـه دانيـال إلـى مكتـب الحـزب الشـيوعي فـي المشـتى، وطلـب الانتسـاب إلــى الحــزب، وحصــل علــى بطاقــة عضــوية كانــت تتضــمن الميثاق الوطني، وتحمل توقيع رئيس الحزب خالد بكداش وتوقيع أمين سـر المنظمـة بـدري الحلـو، ويـذكر دانيـال أن منظمـة المشـتى "بـادر إلـى إنشـائها ورعاهـا ابـن الجبـل العلـوي المقـيم فـي مدينـة طـرابلس الشـام، والعامل في تجارة البيض، يومذاك، الرفيق بدر مرجـان"، وسـيرد نشـاط بدر مرجان في فصل لاحق.

بعد أحداث أيار الدامية لعام 1945 وعودة الحياة إلى طبيعتهـا حـددت مواعيـد الامتحانـات الرسـمية، وكـان النجـاح فـي نيـل شـهادة البكالوريـا شعبة الفلسفة لدورة حزيران من عام 1945 حليف دانيال، وصـار لزامـاً عليه أن يتابع دراسته الجامعية، ويكتب دانيال في مذكراته : "وما كنـت

أفكر بغير "الحقوق" لسببين: لأنني كنت أرى فيها معيناً للعمل السياسي ومجالاً للدفاع عن الفقراء والمظلومين، ولأن والدي لم يعد قادراً على الإنفاق عليَّ، بعد أن ترك التجارة، وفسخ الشراكة مع خالي، وكنت مضطراً للبحث عن عمل أعتاش منه، وتعاقدت مع الكلية الأرثوذكسية في حمص، وتمكنت من متابعة الدراسة الجامعية في دمشق طبعاً".

وهكذا انتسب دانيال، كما رأينا، عام 1945 إلى الحزب الشيوعي، وبدأ نشاطه الحزبي، واشترك في جريدة **"صوت الشعب"**، وحضر في أيار 1946 احتفالاً في حمص أقامته منظمة الحزب الشيوعي في الذكرى السنوية الأولى لشهداء البرلمان، في إحدى قاعات السينما.

وفي يوم من أيام نيسان عام 1947 كان دانيال في عداد وفد من المشتى وجوارها ذهب إلى بيروت للمشاركة في استقبال قائدي الحزب الشيوعي السوري–اللبناني القادمين من لندن بعد مشاركتهما في مؤتمر الحزب الشيوعي البريطاني، حيث تحدثا فيه عن مواقف الحزبين السوري واللبناني في فضح الصهيونية، ورفض الهجرة اليهودية، ومقاومة فكرة التقسيم، وفي الدفاع عن عروبة فلسطين، وحقها بالاستقلال والديمقراطية وصيانة وحدة أراضيها، كما في الدفاع عن القضايا العربية.

إضافة إلى ذلك، كان هذا الاحتفال الجماهيري الواسع مظاهرة تأييد كبرى لفرج الله الحلو وأنطون ثابت وغيرهما من قادة الحزب الشيوعي اللبناني وشخصياته، ممن كانوا يخوضون معركة الانتخابات النيابية التي جرت يوم 25 أيار 1947.

وعندما أقيم عام 1947 لمرشحي دمشق الشيوعيين خالد بكداش ونجاة قصاب حسن مهرجان خطابي كبير في مقهى الرشيد الصيفي، اشترك دانيال في أعماله، وكان يوم ذاك طالباً في الصف الثاني من كلية الحقوق، ويذكر دانيال أن عريف الحفلة كان نجاة قصاب حسن، ومن خطبائها: الأستاذ إبراهيم حمزاوي، ابن نقيب أشراف دمشق، وهو ذو نزعة ماركسية، والأستاذ رئيف خوري، الذي تحدث فيما تحدث عن واجهة قصر الحير، وربط بين نضال خالد بكداش والتراث التقدمي في الحضارة العربية.

وبعد يومين من مهرجان دمشق، أُقيمت حفلة انتخابية لوصفي البني في إحدى دور السينما في حمص، حضرها دانيال، وكان من خطبائها:

الشيوعي سري السباعي وأحد فلاحي المشرفة، كما كان خطيبها المجلي، حسب تعبير دانيال، الأستاذ رئيف خوري. وفي اليوم التالي لهذا الاحتفال، أقام شيوعيو حمص حفلة صغيرة على شرف الأستاذ رئيف خوري في مقهى الروضة، حيث تحلـَّق حوله نخبة من المثقفين والمناضلين الشيوعيين، وقد دُعِيَ دانيال لحضور ذلك اللقاء. "ولن أنسى"، كما ذكر دانيال، "بأي سرور استقبل الأستاذ رئيف خوري وجودي في هذه الحلقة".

دَرَس دانيال في كلية الحقوق على نفقته الخاصة، وكان في الوقت نفسه يُدَرِّسُ في الكلية الأرثوذكسية بحمص، وتخرّج في كلية الحقوق في الجامعة السورية عام 1949[124].

قبل ذلك أسس دانيال عام 1947 في بيت والده صفاً لتعليم التلاميذ بعد نيلهم شهادة السرتفيكا، وكان تأسيس هذا الصف الخطوة الأولى لمدرسة ابن خلدون الخاصة للمرحلتين الإعدادية والثانوية. رخصة مدرسة ابن خلدون صدرت عام 1948 باسم حنا إلياس معلوف، وقدَّمَ دانيال بيت والده للمدرسة في عامها الأول، وكان أحد مدرسيها، ثمّ توسّعت المدرسة، وأهّلت أعداداً من الأجيال الشابة المتطلعة إلى العلم، كما استقطبت عدداً من المدرسين منهم حبيب حسن، الذي سيصبح من كوادر الحزب الشيوعي فيما بعد، ويلاحظ أن مدرسة ابن خلدون في المشتى أسهمت في بناء جيل انتسب إلى الحزب الشيوعي، أو أصبح صديقاً له[125].

وفي صيف 1949 زار اللاذقية زيارة خاصة، وتعرف هناك على مؤسسي الحزب الشيوعي الحلاق حنا مينه، الذي سيصبح فيما بعد روائياً موهوباً، والدكتور طبيب الأسنان محمد الحاج حسين وغابي

---

[124]- في عدد جريدة "العلم" ذي الرقم 795 الصادر في 3 آب عام 1949، أجرت الجريدة استفتاء بين الطلاب الجامعيين، ووجهت إليهم السؤال التالي: " لو أتيح لك أن تحكم العالم 48 ساعة، فماذا تفعل؟"، وكانت إجابة دانيال نعمة هي التالية: "إنني أكره أن أحكم وحيداً في بيتي ووطني، فكيف لا أكره أن أحكم وحيداً في العالم، لكن لو صدق هذا الحلم، لأفهمت شعوب الشرق أنني حكمتُ الاستعمارَ بالإعدام، وشعوب العالم أنني حكمتُ الاستثمارَ بالإعدام، ولتركتُ مهمة التنفيذ لهذه الشعوب".

[125]- ويلاحظ أن الأحزاب العلمانية الثلاثة (الشيوعي والبعث والسوري القومي) قامت بإنشاء مدارس خاصة ساعية للوصول إلى هدفين: تأهيل الأجيال، وكسب الأنصار للحزب المؤسس للمدرسة.

نصرة[126].

في تلك الأثناء أخذت المشتى تتحول إلى معقل من معاقل الحزب الشيوعي، ودانيال نعمة قائد فرسانها. دلّ على ذلك البيان الصادر عن الحزب الشيوعي في أيلول 1949 تحت عنوان: "فليسقط الإرهاب الإقطاعي الفاشستي"، فبعد أن تحدث البيان عن استفحال الإرهاب، أشار إلى ما يجري في حمص من اعتقال عامل النسيج راتب جبنة والشاب فهمي الأخرس، ثم انتقل البيان للحديث عن مشتى الحلو، وقد جاء في البيان: "... أما في العلويين، فلم يختلف قائد درك صافيتا (أبو حمدو) عن زملائه في حمص، وعلى أثر توزيع نشرة اللجنة المركزية في قرية المشتى التابعة لقضاء صافيتا، جرَّد أبو حمدو حملة واسعة، فاعتقل أكثر من عشرين من صافيتا والمشتى بينهم العامل والفلاح والمثقف وتلاميذ عُمْر أحدهم 14 سنة، وجُنَّ جنون أبو حمدو لمّا وزعت في اليوم الثاني للاعتقال جريدة "صرخة الجماهير" – "جريدة الجبل العلوي"[127]، فأخذ يتفنن في تعذيب المعتقلين وضربهم، ويستدعي آباءهم وأقرباءهم، ويهددهم بالاعتقال.

وقد هاجت صافيتا لتصرفات هذا الوحش الضاري أبو حمدو، وتجمعت الجماهير حول السرايا، فلجأ أبو حمدو لحراستها وحراسة نفسه بقوة كبرى من رجال الدرك، وأخيراً اضطر إلى إخلاء سبيل الموقوفين، وقَدَّمَ اثنين للمحاكمة هما دانيال نعمة وفايز حلو، فبرأتهما المحكمة"[128].

أصداء نشاط منظمة المشتى الشيوعية نجدها في وثيقتين من أرشيف الحزب الشيوعي السوري مكتوبتين بخط اليد، منشورتان في ملاحق هذا الكتاب. الوثيقة الأولى مؤلفة من صفحة ونصف دون توقيع، مرسلة إلى الرفيق سكرتير منظمة الحزب في الجبل العلوي، وتبدأ كما يلي:

"تحيات شيوعية!

---

[126]- يذكر حنا مينه، في اللقاء الذي أجريناه معه، أن قاسم رضوان، النازح من إسكندرون إلى اللاذقية كحنا، كان شيوعياً معروفاً في إسكندرون، لكنه لم يستقر في اللاذقية، بل غادرها إلى جهة أخرى.

[127]- لعل البيان يقصد جريدة اللجنة المنطقية للحزب الشيوعي السوري في الجبل العلوي.

[128]- نقلاً عن يوسف الفيصل: "ذكريات ومواقف"، دمشق 2006، ص 97-98، أن القضاء في تلك الأيام كان يتمتع باستقلالية، وله حصانة تمكنه من إصدار الأحكام القانونية بعيداً عن رغبات السلطة.

صباح الأربعاء 14 أيلول 1949 أفاقت قرية المشتى في منطقة صافيتا على نشرات شيوعية...".

والوثيقة الثانية مؤلفة من صفحة واحدة، وموقعة باسم (الرفيق أبو علي)، وتحمل ترويسة (حضرة الرفيق القائد)، وهو كما نظن خالد بكداش، الذي كان يقود الحزب آنذاك من مخابئه في بيروت وضواحيها، وهذه الوثيقة كسابقتها تتحدث عن طغيان وكيل قائد فصيل صافيتا أبو حمدو، الذي حقق مع قيصر ضومط، وهو من صافيتا، متهماً إياه بتوزيع المناشير الشيوعية.

في تلك الأثناء، وقبل هذه الأحداث بفترة، جرى اجتماع في طرابلس حضره من القيادة بدر مرجان وحسن قريطم ووفد شيوعي من صافيتا مؤلف من قيصر ضومط ومطانيوس خوري وفايز بشور ودانيال نعمة، ويقول دانيال: "وبعد دراسة للأوضاع في منطقة صافيتا طُلِبَ إليَّ أن أصبح أمين سر هذه الهيئة، وكان أمينها قبلي قيصر ضومط، الذي أحببته كثيراً، لكنني بقيت أتعامل مع الرفاق كواحد منهم، وبقيت أنظر إلى الرفيق قيصر ضومط بأنه هو أمين سر هذه الهيئة، فقد كان عاملاً خياطاً فهيماً ولبقاً"[129].

2- بين النضال والسجون

شارك دانيال نعمة مساء 10 آب 1951 في مظاهرة ضمت المئات من "أنصار السلام" توافدوا إلى دمشق من عدد من المناطق السورية، وكان دانيال في مقدمة المظاهرة، وأبلى بلاءً شجاعاً في مقاومة الشرطة، التي دخلت بأعداد كبيرة لتفريق المظاهرة، وأسفرت المعركة عن اعتقال دانيال مع عدد كبير من المتظاهرين.

حول هذه التظاهرة كتب يوسف الفيصل في ذكرياته[130] أن التحضير لمظاهرة 10 آب استغرق مدة شهر كامل، وبدأت وفود المحافظات تتجمع كل في المكان المحدد لها مع مسؤوليها، وانطلقت التظاهرة من مكانين في وقت واحد، من شارع 29 أيار أمام مقهى الكمال الصيفي،

---

[129]- كان قيصر ضومط مع بدر مرجان المؤسسين للحزب الشيوعي في منطقة صافيتا، وقد هاجر قيصر فيما بعد إلى البرازيل. انظر دانيال نعمة: "خواطر وتساؤلات" في "دراسات اشتراكية" أيلول 1991، ص 21.

[130]- المصدر نفسه، ص 116.

ومن أمام محطة الحجاز في الساعة السادسة مساء، وكان عدد المشاركين بحدود ألف متظاهر، ورفعت اللافتات، وبدأت الهتافات بسقوط الدكتاتورية العسكرية المُقَنَّعة، وضد مشاريع الدفاع عن الشرق الأوسط، وضد الإمبريالية، وبالتحيات لنضال الشيوعيين. وعندما وصلت التظاهرتان إلى أمام مقهى الهافانا، داهمتهما سيارات الشرطة العسكرية، وحدثت معركة بين المتظاهرين وأفراد الشرطة، وصادف أن قفز أحد المتظاهرين، وهو أسعد الخوري، إلى سيارة الشرطة، وبدأ يرمي أفرادها إلى الأرض، فتجمعوا عليه، واعتقلوه، وساقوه إلى نظارة شرطة المدينة، حيث تعرَّض لتعذيب وحشي، واعتقل كذلك دانيال نعمة، وتعرَّض للتعذيب نفسه، وبعد ذلك نُقلا إلى مركز الشرطة العسكرية في البرامكة، وهناك التقيا برفيق آخر هو عثمان إبراهيم من الجزيرة، وأحيل الثلاثة إلى المحكمة العسكرية، بعد أن قصوا شعورهم على نحو متصالب، وعندما رأى الحاكم منظرهم رفض البدء بالمحاكمة، وانسحب احتجاجاً، وسيقوا إلى سجن المزة، وأفرج عنهم بكفالة قدمها المحامي الشيوعي نصوح الغفري في تشرين الأول.

ولنقرأ **خبر المظاهرة كما أوردته الجرائد الدمشقية** غير المتعاطفة مع الحزب الشيوعي المحظور:

- جريدة "**بردى**": "قامت مساء يوم الجمعة (1951/08/10) مظاهرة تضم زهاء 300 شخص من شارع بغداد، وهي تحمل لافتات تدعو لمؤتمر السلم العالمي في برلين، وتهتف ضد الاستعمار، وقد سارت المظاهرة حتى شارع فؤاد الأول، وهناك التقت بها قوات الشرطة، واستطاعت تفريقها بعد أن أطلقت بعض العيارات النارية، واعتقل عدد من المتظاهرين، وقد صرحت المصادر الرسمية بأن عدد الموقوفين في حادث هذه المظاهرة الشيوعية قد بلغ حتى ظهر أمس تسعين شخصاً، معظمهم من خارج مدينة دمشق من المحافظات، أما جرحى رجال الأمن فقد بلغ عددهم نحو تسعة عشر رجلاً، وتواصل الدوائر المختصة في مديرية التحقيق مع الموقوفين تمهيداً لإحالتهم إلى القضاء، وأكدت المصادر المشار إليها أنه سيتم إطلاق سراح الأشخاص الذين لا يدينهم التحقيق، ومن المرتقب أن ينتهي التحقيق ويتم إحالة الموقوفين إلى القضاء هذا اليوم الأحد"[131].

---

[131]- جريدة "بردى" 1951/08/12.

- جريدة "**الأيام**": "قامت في الساعة السادسة من مساء أمس مظاهرة، تضم حوالي ثلاثمئة شاب من أنصار السلم، وقد تجمهروا في شارع فؤاد الأول للسير في مظاهرة منظمة، إلا أن رجال الشرطة أحاطوا بالمتظاهرين، ولما حاولوا القبض على حاملي اللوحات قابلهم المتجمهرون بعنف، وأطلقت بعض العيارات النارية في الهواء، وقد قبض رجال الشرطة على فريق منهم، وجُرِح بعض رجال الشرطة جراحاً طفيفة"[132].

جريدة "**العلم**" أوردت أنه: "قامت في الساعة الخامسة من مساء أول أمس (1951/08/10) مظاهرة في عرنوس بالصالحية، سار فيها عدد كبير من أنصار السلام الذين كانوا يهتفون ضد أمريكا وبريطانيا ومشاريعهما الاستعمارية، وقد اعتقل رجال الأمن 25 شخصاً أودعوا النظارة، وقامت مظاهرة أخرى في شارع بغداد فرقها رجال الأمن أيضاً"[133].

معنى ذلك أن مظاهرتين قامتا في وقت واحد.

وقد "أُحيل"، كما ذكرت جريدة الأيام، "إلى القضاء الموقوفون في مظاهرة أنصار السلام بعد انتهاء التحقيق معهم، وقد أفرج عن أكثر من نصف الموقوفين لعدم وجود أدلة تثبت اشتراكهم في المظاهرة"[134].

صحف تلك الأيام كانت تتمتع بالشفافية ونقل الأخبار دون خوف من الأجهزة الرقابية، التي كانت في الأصل ضعيفة، ولم تكن قد نمت أنيابها إلى درجة الهيمنة وحبس أنفاس المفكرين والكتاب، ولهذا نرى الأمور تسير وفق قواعد الدولة الحديثة البرجوازية في الاعتقال والتحقيق والمحاكمة وإطلاق السراح، كما كانت الصحف تنشر عرائض وبرقيات الاحتجاج، كما هو واضح من الأمثلة التالية:

جاء في "العلم" الخبر التالي[135]: "تلقينا من الأمين العام لاتحاد الطلاب الجمهوريين في سورية صورة عن العريضة المقدمة إلى رئيس الحكومة، وقد تضمنت استنكار أعمال القمع على المتظاهرين من أنصار السلم، وطلبت وضع حد لها في المستقبل، ومعاقبة المسؤولين

---

[132]- جريدة "الأيام" 1951/08/12.

[133]- "العلم" 1951/08/12.

[134]- "الأيام" في 1951/08/16.

[135]- "العلم" في 1951/08/14.

عنها، وإطلاق سراح المعتقلين".
كما نشرت جريدة "بردى" الخبر التالي[136]: "تلقينا من رابطة النساء السوريات لحماية الأمومة والطفولة، صورة عن العريضة التي رفعتها إلى كل من فخامة رئيس الجمهورية، ورئيس المجلس النيابي، ورئيس الوزراء، ووزير الداخلية، والتي تحتج فيها على اعتقال أنصار السلم في المظاهرة، التي قاموا بها يوم الجمعة المنصرم، وتستنكر التعذيب الذي يلقونه، وتطلب الإفراج عنهم واحترام حرية الرأي والقول لجميع المواطنين".
أما جريدة "الأيام"[137] فنشرت الخبر التالي: "تلقينا من السيد **فؤاد أيوب الأمين العام لاتحاد الطلاب الجمهوريين في سورية**، صورة عن العريضة التي قدمها لدولة رئيس مجلس الوزراء، يستنكر فيها المعاملة السيئة التي قوبلت بها مظاهرة أنصار السلم من قبل رجال الأمن، ويطلب إطلاق سراح المعتقلين ومعاقبة المسؤولين عن إطلاق النار".
وقد جرى إطلاق سراح معتقلي مظاهرة أنصار السلم على دفعات، وبقي رهن الاعتقال دانيال نعمة وأسعد خوري وعثمان إبراهيم المتهمين بجرح عدد من الشرطة باستخدامهم العصي كسلاح، وبعد مضي ثلاثة أشهر على توقيفهم في **سجن المزة**[138]، ونتيجة لموجة الاحتجاجات التي أخذت تتعاظم في كل سورية جرى إطلاق سراحهم.
ويروي دانيال عن اعتقاله هذا في آب 1951 أنه تعرض لتعذيب شديد، ووصلت الأخبار إلى العديد من مناطق سورية بأنه على شفا الموت، وبعد عشرين يوماً من الاعتقال زارته والدته، وكانت آثار

---

[136]- "بردى" في 1951/08/17.
[137]- "الأيام" في 1951/08/16.
[138]- في تلك الفترة كان السجناء يساقون إلى أعمال السخرة الشاقة لشق الطريق الصاعد إلى السجن. كان بين السجناء المسخرين أربعة طلاب من منطقة عفرين لاحظوا أن السجناء الشيوعيين الثلاثة (دانيال نعمة وعثمان إبراهيم وأسعد خوري) لا يؤخذون للسخرة، فسألوهم كيف جرى إعفاؤهم، فأجابوهم بالثبات والرفض تحت التعذيب خلال أسبوع. أراد طلاب عفرين تقليد الشيوعيين في الإضراب ورفض السخرة، وجرت مشادة بين أحد الطلاب والعريف، الذي يسوقهم إلى السخرة، وعندما قام العريف بصفع الطالب صفعة قوية وتعارك معه، هبّ الشيوعيون لمساعدة الطالب السجين. بعد ذلك أتى العريف معتذراً، وقال: هل يا شباب رأيتموني أضرب أحداً منكم، فتصدى له دانيال وقال: كانت صفحتك بيضاء عندنا، لكن بعملك هذا وضعت عليها نقطة سوداء. نقلاً عن "دراسات اشتراكية" العدد 1، 1984، ص 189.

التعذيب ما تزال واضحة جداً في وجهه وعلى الرأس وفي شتى أنحاء الجسم، فما كان من والدته إلا أن شجعته على الصمود وهي تبتسم، كما رأينا في الفصل السابق.

كانت أقوى الاحتجاجات على الاستمرار في اعتقال متظاهري أنصار السلام في 10 آب 1951 المظاهرة الجماهيرية التي جرت بتاريخ 11 تشرين الأول 1951 في مشتى الحلو، بلد دانيال نعمة أحد معتقلي المظاهرة، فتحت عنوان: "فلاحو الجبل العلوي يتظاهرون بالمشتى من أجل الخبز والسلم والاستقلال" نشرت جريدة أنصار السلام بدمشق الوصف التالي للمظاهرة ننقله حرفياً[139]:

"إن سياسة التحضير للحرب قد سببت أزمة جوع شديدة ضربت أطنابها في مختلف البلاد السورية، فقلَّت الحبوب، وارتفعت أسعارها، ووصلت المجاعة إلى سكان الجبل العلوي، ومعظمهم من الفلاحين الفقراء، وبما أن الخبز هو العامل الأساسي في الحياة، فقد ضجَّ الشعب وهاج، وأوشك الجبل أن ينفجر ويثور، فلما كان يوم الخميس الواقع في 11 تشرين الأول إلا وكانت المشتى تعج بمئات الفلاحين، الذين تحدروا من صميم الجبل، يجتازون المرتفعات، ويقطعون الوهاد، أتوا من مختلف القرى بوجوههم المشرقة وسواعدهم المفتولة، أتوا وقلبهم عامر بالإيمان والحقد على مسببي الجوع والفقر، وفي الساعة التاسعة صباحاً تشكلت مظاهرة جبارة من فلاحي الجبل وشباب القرية، وسارت من شارع (الدلبة) متجهة نحو الساحة، وكان المتظاهرون يهتفون:

عاش السلام العالمي مؤمن الخبز والعمل.

تسقط سياسة الاحتكار مجوّعة الشعب وخادمة الاستعمار.

يسقط المحتكرون عملاء الاستعمار ومجوعو الشعب.

يسقط الغلاء والاحتكار.

تسقط الحرب مسببة الغلاء وقلة الحبوب.

نريد خبزاً رخيصاً.

تحت هذه الشعارات سارت مئات الجماهير بقلوب صامدة جبارة، وأُغلقت الحوانيت، وأيَّد أصحابها المظاهرة التي كان الفلاحون في طليعتها، ثم تابعت سيرها من شارع الدلبة إلى الساحة العامة والهتافات متعالية تشق أديم الفضاء، إلى أن وصل المتظاهرون إلى أمام مخفر

---

[139]- عن جريدة "السلام" الصادرة بدمشق في 20 تشرين الأول 1951، العدد 15.

الدرك، فاشتدت حماستهم، وقابل وفد منهم رئيس المخفر، فوعدهم بإجابة مطالبهم ومراجعة المسؤولين، فلم تهدأ ثائرتهم، بل رجعوا إلى إدارة البريد والبرق، وهتفوا بصوت واحد (بدنا نبعث برقيات، والشعب كلِّيتو مات)، وقد بعثوا بثلاث برقيات إلى المحافظ والقائمقام ورئيس الجمهورية، ثم تابعوا سيرهم، وكان من أهم هتافاتهم: (نطالب بالإفراج عن المعتقلين في سجن المزة)، (عاش معتقلو السلام والخبز)، (نريد إصلاح طريق المشتى ـ صافيتا)، إلى أن وصلوا إلى الساحة، ووقفوا برهة ليسمعوا كلمة صغيرة من أحد الشباب، ثم تابعوا سيرهم إلى شارع الدلبة مرة أخرى، وهناك أعلنوا انتهاء المظاهرة بعدما دامت ساعتين بالتصفيق والهتافات.

لقد كان صدى المظاهرة عظيماً في الجبل العلوي، وخصوصاً بين الفلاحين وبين جماهير المشتى، إذ أيدها جميع السكان". (انتهى النقل عن جريدة أنصار السلام).

وكان معروفاً آنذاك أن المحامي الدكتور مصطفى أمين هو الوجه الرئيسي لحركة أنصار السلام وجريدتها في ذلك الوقت، وعندما سألنا الدكتور مصطفى أمين في لقاء معه في مكتبه بتاريخ 2005/04/11 عن رأيه في التوفيق بين الدعوة إلى السلام العالمي واحتلال إسرائيل لجزء من فلسطين أجاب: "وجهة نظرنا أن السلام هو الطريق لتحرير فلسطين، والحرب العالمية بين الدول العظمى لا يمكن أن تؤدي إلى تحرير فلسطين، ونحن كنا نؤيد النضال لتحرير فلسطين، وكانت قضية فلسطين في رأس مهماتنا، وكثير من خطبنا توضح ذلك".

نتيجة الاحتجاجات المتوالية، وبسبب ضعف الحكم آنذاك وعدم رسوخ أقدام الدولة السلطانية الاستبدادية جرى في 17 تشرين الأول 1951، كما ذكرت جريدة "**السلام**": "إطلاق سراح آخر الموقوفين أسعد الخوري ودانيال نعمة وعثمان إبراهيم المدافعين عن السلام، الذين مضى أكثر من ثلاثة أشهر على توقيفهم بسجن المزة. ونتيجة لموجة الاحتجاجات، التي أخذت تتعاظم في كل سورية، أخلي سبيل إخواننا أنصار السلم، فلهم تهانينا الحارة، وإن إخوانهم يرحبون بعودتهم إلى العمل في جبهة السلم"[140].

---

[140]- جريدة "السلام" في 1951/10/20. ومن أخبار تلك الأيام المنشورة في السلام الخبر التالي: منذ صباح 17 تشرين الأول 1951 بدأ 27 نصيراً للسلم من شباب حمص يسيرون

بعد أن برز دانيال نعمة مناضلاً مثقفاً صلباً لا تلين له قناة، كما برهنت أيام اعتقاله في سجن المزة، نال ثقة القيادة، ولهذا استدعاه أوائل عام 1952خالد بكداش الأمين العام للحزب الشيوعي، الذي اتخذ من بيروت ولبنان مركزاً لقيادة الحزب في سورية بين عامي 1948–1954، ونتيجة اللقاء وافق دانيال على قيادة منظمة الحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية، وقرَّرَ الاثنان أن يمارس دانيال المحاماة في مدينة اللاذقية للوصول إلى هدفين: الهدف الأصغر الدفاع قضائياً عن مصالح الفئات المستضعفة والمغلوبة على أمرها، وبالتالي كسبها إلى الحزب. والأمر الثاني والأهم، اتخاذ مهنة المحاماة ستاراً علنياً وغطاءً لقيادة النشاط الحزبي السري للحزب الشيوعي الممنوع منذ عام 1948 من مزاولة نشاطه، بعد الهجوم على مكتب الحزب الشيوعي بدمشق وحرقه من الطلاب الغاضبين بتحريض من الإخوان المسلمين إثر قرار هيئة الأمم بتقسيم فلسطين وموافقة الاتحاد السوفييتي على القرار. ويذكر دانيال أن خالد بكداش كلـَّفه بالعمل الحزبي في اللاذقية، وأعطاه 300 ليرة سورية رسم ونفقات الانتساب إلى نقابة المحامين في اللاذقية، ولم يجد دانيال صعوبة في إيجاد محام يعمل عنده، فابن صافيتا المحامي إسبر جبور رحَّب به، وسجّله في مكتبه.

تقدم لنا مفكرة المحامي دانيال نعمة إشارات على شكل عناوين للدعاوى، التي تولاها، وفيما يلي نماذج منها، واضعين ما كتبه المحامي دانيال ضمن قوسين، ثم شرحنا أو تعليقنا على ما كتبه:

- الأحد 11 أيار: "بانياس، دعوى مظاهرة ضهر صفراء.. يوسف نعمة يوسف، متن عرنوق.. علي محمود أحمد علي، حصين البحر".

هذان الشابان يوسف وعلي شاركا في مظاهرة نظمها الحزب الشيوعي في ضهر صفراء، واعتقلا، وأحيلا إلى المحكمة في بانياس، وذهب المحامي دانيال إلى بانياس في 11 أيار 1952 للدفاع عنهما. ويدون دانيال في مفكرته ليوم 22 أيار ما يلي: "قرار الحكم في دعوى ضهر صفراء"، لكنه لا يذكر نتيجة الحكم، فالمفكرة هدفها تذكير المحامي بموعد الدعوى.

- الاثنين 12 أيار: "دعوى أدهم".. الاثنين 26 أيار: "دعوى أدهم شموط ...

إلى دمشق، وهم مكبلون بالحديد، وتحيط بهم خيالة الدرك، وقد وصلوا إلى النبك بعد مسير يومين، وتنطلق بشدة أناشيدهم الوطنية وهتافاتهم للسلم وللحياة.

الدركي 9652 ".

أدهم شموط انتسب إلى الحزب الشيوعي، وهو من شباب اللاذقية الشجعان، ومعروف برجولته، فعندما يسير في مقدمة مظاهرة الشيوعيين تخشاه العناصر الراغبة في تعكير صفو المظاهرة أو الاحتفال، ويبدو أن أدهم شموط اشترك مع رفاقه المتظاهرين والمحتفلين بعيد الجلاء، أو عيد العمال العالمي في الأول من أيار، فاعتقله الدرك، الذين فرقوا المظاهرة، وتصدى لهم أدهم، ويظهر أنه ضرب الدركي، الذي سجّل دانيال رقمه على مفكرته، ولا يرد ذكر في المفكرة لنتيجة الدعوى.

- السبت 31 أيار: "دعوى أمام محكمة البداية من أجل عريضة وتواقيع".

لا يذكر دانيال في مفكرته نوع العريضة وأسماء الموقعين، وهل هي عريضة مطلبية أم سياسية؟ ويبدو أن الاحتياطات السرية والكتمان لدى المناضل الشيوعي دانيال نعمة دفعت المحامي دانيال نعمة لاتخاذ الحذر في تدوين الوقائع على مفكرة المحامي، ومؤرخ الأحداث بعد ما ينوف على نصف قرن يتلهف لمعرفة أدق التفاصيل عن تلك الدعاوى، وليس في اليد حيلة للوصول إليها في أضابير محاكم محافظة اللاذقية.

- السبت 28 حزيران: "سفرة إلى طرطوس. تقديم طلبات إخلاء سبيل لهزيم ورفاقه وبديع علي إسماعيل والعباسي الطرابلسي".

هزيم محمود هزيم القائد الفلاحي الشيوعي من قرية بشرايل، التي خاضت النضال ضد الإقطاع، وسترد تفاصيل نضال قرية بشرايل واعتقال هزيم ورفاقه، وهنا يقوم المحامي دانيال بطلب إخلاء سبيلهم.

أما بديع علي إسماعيل فسيرد بعد قليل في مفكرة دانيال أنه متهم بتحقير رجال الدولة.

والعباسي الطرابلسي هو جابر محمد سليمان، الذي كان يهزج بسقوط الإقطاعية، كما ورد في الأحاديث التي جمعناها عن نشاطات بدر مرجان، وذِكْرُ الطرابلسي مقترناً بالعباسي دليل إلى إقامته فترة من الزمن في طرابلس، وبالتأكيد كان على صلة وثيقة ببدر مرجان.

- السبت 12 تموز: "دعوى مظاهرة الجلاء ضد جورج سابا ووفيق عطية ورفاقهما".

واضح هنا أن الشابين جورج ووفيق مع رفاقهما اشتركا في الاحتفال بعيد الجلاء عن طريق التظاهر، فاعتقلتهما السلطات، وقدمتهما للمحاكمة، وذهب المحامي دانيال للدفاع عنهم.

الأحد 27 تموز: "دعوى بديع إسماعيل بتهمة تحقير كبار رجال الدولة".

وعلى رأس كبار الدولة العقيد أديب الشيشكلي ديكتاتور البلاد في عامي 1952 و 1953، وقد مرَّ اسم بديع علي إسماعيل في يوم 28 حزيران وحضور المحامي دانيال إلى طرطوس للدفاع عنه، أما كيف حقَّر بديع إسماعيل رجال الدولة، فأمر نجهله. المهم في الأمر أن من "يُحقِّر" أو يتطاول على رجال الدولة كان يحال إلى المحاكم لإصدار الحكم، ولم يكن يُلقى بالشخص في غياهب السجون حتى "يتخ"، ولا يخرج من السجن إلا بعد مدة طويلة مصاباً بعدد من العاهات.

- الخميس 15 آب: "محمد علي، جمال حبيب، علي شريف، محمود إسكندر شريف، محمود شريف".

للدفاع عن أشخاص لا نعلم عنهم شيئاً.

- السبت 23 آب: "أمام المحكمة العسكرية بدمشق دعوى اعتراضية".

لا تزودنا مفكرة المحامي دانيال بتفاصيل عن المُحال إلى المحكمة، والطريف أن يكتب في حيّز يوم السبت ما أنفقه في ذلك اليوم بدمشق وهو: ثمن *"جريدة 25، ثلاث كبايات ليمون 30، دخان وكبريت 35، جريدة 15، أجرة باص 7.5"*. العملة المدفوعة هي القرش، ويبدو التقتير واضحاً في عدم تناول الطعام في المطعم، ومعنى ذلك أنه نزل ضيفاً في أحد البيوت، واقتصرت النفقات على: شراء جريدتين، وشرب ثلاث كبايات شراب، والدنيا في عز الصيف، وأجرة النقل في الباص لمرة واحدة، وواضح أن الشاب دانيال كان في ذلك الوقت من المدخنين. هذه النفقات تمّت يوم السبت في 15 آب، أما يوم الأحد فالنفقات كما هو وارد في المفكرة: *"30 قرشاً ثمن علبة دخان مرجان"*، و*"15 للباصات"*، وكانت أجرة الباص في دمشق ذلك الحين سبع قروش ونصف.

يوم الاثنين 25 آب غادر دانيال دمشق باتجاه صافيتا، ونقرأ في المفكرة "400 (قرش) أجرة من دمشق إلى صافيتا". ومن صافيتا سافر دانيال إلى بلدته المشتى لزيارة والديه، وأقام في المشتى إلى يوم السبت في 30 آب من عام 1952، ميمماً شطر اللاذقية عن طريق صافيتا فطرطوس فبانياس. النفقات بالقروش هي: *"100 من المشتى إلى صافيتا، 100 من صافيتا إلى طرطوس، 10 كازوز، من طرطوس إلى بانياس 100"*. ويرد في مفكرة ذلك اليوم أنه أعطى هزيم محمود هزيم المعتقل في سجن طرطوس، كما مرّ معنا، مبلغاً من القروش من أهله. في يوم الأحد 31 آب سافر دانيال من بانياس إلى اللاذقية، ودفع أجرة الطريق

75 قرشاً و10 قروش ثمن كازوز و35 قرشاً ثمن دخان، ويبدو أن هذه النفقات المدوَّنة في المفكرة استردها من مالية الحزب، لأنه ذهب في مهمة.

- الأحد 5 تشرين الأول: "إلى هزيم 1000 أجرة من بانياس 50 إلى صافيتا 100 من صافيتا إلى طرطوس100 علبة دخان 35".

أعطى دانيال هزيم محمود هزيم المعتقل في سجن بانياس 1000 قرش، هي مساعدة مالية من الحزب إلى المناضل الفلاحي الشيوعي، ويدوِّن دانيال نفقات التنقل وغيرها، التي يستردها من الحزب، فقد جاء في المفكرة لليوم التالي، أي الاثنين في 6 تشرين الأول لعام 1952، أنه دفع أجرة من طرطوس إلى اللاذقية 100، واشترى جريدة **"النصر"** بـ 15 قرشاً، غذاء أنا وأخي 210 قروش.

- الاثنين 20 تشرين الأول: "دعوى حاصور إنكار عقد مزارعة (دعوى وضع اليد)، تعدد الدعاوى في استدعاء واحد".

حاصور قرية في جبل الحلو يملكها آل جرجس، وكان للحزب الشيوعي نشاط بين فلاحيها، كما ذكر ديب قطيرة في لقاء معه سينشر في فصل آخر. تدل مفكرة دانيال أن صاحبها تولى الدفاع عن فلاحي حاصور، فثمة إشارات كثيرة في المفكرة إلى أسماء فلاحين من حاصور. وفي مدونة يوم السبت 8 تشرين الثاني كتب دانيال: *"دعوى حاصور من عطية على الفلاحين"*. وتسجيل نفقات التنقل من صافيتا إلى تلكلخ مركز القضاء، وحاصور تابعة له، ونقرأ في مدونة يوم السبت 13 كانون الأول: *"السفر بعد الظهر إلى تلكلخ لحضور دعوى حاصور يوم الأحد"*، وفي 20 كانون الأول يحضر المحامي دانيال إلى تلكلخ لحضور دعوى حاصور، وبتاريخ 5 كانون الثاني 1953 نقرأ في المفكرة: *"مقابلة للموكلين من حاصور في (كلمة غير مقروءة)"*، وتستمر دعوى حاصور في محكمة صلح تلكلخ، كما هو واضح من المفكرة بتاريخ 10 كانون الثاني.

- الأربعاء 5 تشرين الثاني: "دعاوى محمد غنوج ورفاقه، صلح بانياس، عمالية".

هنا يقوم المحامي دانيال نعمة بالدفاع عن العمال في قضايا تتعلق بالأجور، على ما نظن.

- 13 كانون الأول 1952: "السفر إلى تلكلخ لحضور الدعوى المقامة من فلاحي حاصور ضد الإقطاعيين".

- *الاثنين 19 كانون الثاني: "دعوى الحق العام ضد هزيم محمود هزيم، إعلان براءة هزيم ورفاقه وإطلاق سراحهم".*

وقصة المناضل الفلاحي هزيم محمود هزيم سنتابعها في فصل المقاومة الفلاحية، وبعد إطلاق سراح هزيم ورفاقه بعشرة أيام يعتقل المحامي المدافع عن الفلاحين دانيال نعمة، فنقرأ في المفكرة:

- *23-1-1953: "دعوى أم عابد آمون ضد وكيل آل العباس في بداية طرطوس".*

وكان وكيل الإقطاعي أشد ضراوة على الفلاحين من الإقطاعي، وإقامة دعوى على وكيل آل العباس الإقطاعيين دليل على أن سطوة الإقطاعيين أخذت تهتز في أوائل خمسينيات القرن العشرين.

- *الخميس 29 كانون الثاني: "الاعتقال حوالي التاسعة صباحاً"*، أي اعتقال دانيال، *"النوم في الثكنة"*.

وهكذا دخل دانيال نعمة السجن للمرة الثانية.

لم يمض أكثر من عام على عمل دانيال نعمة في المحاماة ونشاطه الكثيف في العمل الحزبي السري المحظور رسمياً، حتى اعتقل دانيال أيام الشيشكلي في 29 كانون الثاني من عام 1953، ولم يكلل بالنجاح تقديم طلب إلى المحكمة العسكرية لإخلاء السبيل، فقُدِّمَ مع عدد من رفاقه إلى المحاكمة[141]. وكان القضاء السوري، في ذلك الحين، يتمتع باستقلالية تامة، ونزاهة الأكثرية الساحقة من القضاة لم تكن تشوبها شائبة، والحكام لم يكونوا يتجاسرون على التدخل بشكل سافر في شؤون القضاء، الذي نشأ وترعرع أيام الانتداب في أحضان القضاء الفرنسي وريث أمجاد الثورة الفرنسية والبرجوازية الثورية في أيام عزها، وللقضاء الفرنسي مواقف مشهودة في مخالفة رغبات وسياسة الاستعمار الفرنسي المحتل لسورية (1920–1946)، وهكذا برّأ القضاء السوري النزيه والمستقل عن السلطة دانيال ورفاقه من التهم السياسية الموجهة

---

[141]- قبل وفاته بمدة وجيزة كتب دانيال بخط يده على ورقة منفردة "أسماء الموقوفين مع دانيال نعمة عام 1953 ك2 في ثكنة اللاذقية، وهم: أدهم شموط، إبراهيم لوزة، جورج لوزة، محمد الطويل، إبراهيم خليل، محمد حداد، أنطون شكور، جورج صدقني، برهان شريتح، جورج نعوم، محمد الداش، و...". والمعتقل الأخير نسي دانيال اسمه فوضع النقط، ونرى أن دانيال كان يُحضِّر لكتابة مذكراته، فخطرت الأسماء ناقصة على ذاكرته، فاستعان على الهاتف بذاكرة إبراهيم لوزة، الذي أفادنا بهذه المعلومة، وكان في مقدمة الموقوفين، وقام دانيال بتسجيل الأسماء على ورقة خاصة موجودة بين أوراقه.

لهم "لعدم وجود أدلة"[142]. لكن سلطات الشيشكلي في اللاذقية احتجزت دانيال ورفاقه، وطلبت منهم التعهد بعدم العمل في السياسة، فرفض دانيال ورفاقه هذا الطلب، فأعيدوا إلى السجن ثانية، حتى يوقعوا على تعهد بعدم العمل في السياسة، ويذكر دانيال أن الضغوط كانت قوية عليهم، وتراجع رفاق دانيال واحداً بعد الآخر، وبقي دانيال وحيداً في السجن، وكان دانيال ورفاقه بعد أن أعيدوا إلى السجن أعلنوا الإضراب عن الطعام يوم الجمعة في 6 شباط 1953، لكن رفاق دانيال لم يستطيعوا الصمود تحت وطأة الجوع وضغط الأهل، الذين أتت بهم سلطات اللاذقية إلى السجن للتأثير المعنوي عليهم، ونجح هذا التأثير مع الجميع فيما عدا دانيال. وفي تلك الأثناء جاء، كما رأينا، والد دانيال محاولاً إقناعه بالتوقيع، فرفض الإذعان، وعندما خرج والده من زيارته في السجن قابل النائب العام القاضي عمر العدّاس، وأخبره برفض ابنه التوقيع على عدم العمل في السياسة، فقال له العدّاس: (اتركه، إن ابنك بطل، وموقفه صحيح). هذا هو القضاء السوري في أيام عزه[143].

بتاريخ 15 شباط 1953 نُقِل دانيال نعمة مخفوراً، وهو مضرب عن الطعام، من سجن اللاذقية إلى دمشق. ومساء اليوم التالي، في الساعة السادسة من يوم الاثنين 16 شباط 1953، أنهى دانيال إضرابه عن الطعام في سجن دمشق، لكنه رفض رفضاً قاطعاً التوقيع على تعهد يعلن فيه عدم العمل في السياسة. وإزاء هذا الموقف الصارم قررت سلطات الشيشكلي العسكرية نقل دانيال إلى سجن تدمر الصحراوي. وصبيحة السابع عشر من شباط جرى تسفير دانيال إلى حمص، وبات ليلته مخفوراً فيها. وفي اليوم التالي، نُقِل دانيال إلى سجن تدمر، حيث حلَّ فيه في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم 18 شباط 1953، وكان "المطر مدراراً"، كما جاء في مفكرته[144].

---

[142]- ذكر دانيال في مجلة "دراسات اشتراكية" العدد 120 اسم قاضي الفرد العسكري درويش الزوني، الذي برأ الشيوعيين لعدم وجود أدلة.

[143]- ومن مقومات التقدم وجود القضاء المستقل العادل النزيه والشجاع في الوقوف في وجه طغيان الحكام وضغوط المتنفذين وإغراءات أصحاب الأموال.

[144]- الغريب أن سلطات أديب الشيشكلي الدكتاتورية العسكرية لم تصادر مفكرة دانيال نعمة، واستمر السجين يدوّن في مفكرته لعام 1953 أهم ما يجري معه، وهي المفكرة نفسها، التي دوّن عليها وقائع الدعوى، وخرج نعمة من سجون "ديكتاتورية الشيشكلي" والمفكرة لا تزال في جيبه! فسبحان مُدَبِّرُ الأكوان... ولا بد من التساؤل: هل هذه

أُنشِئ سجن تدمر بالأساس للمخالفين من الجنود والضباط، ثمّ خصص قسم منه للمساجين السياسيين، وكان السجناء الشيوعيون من أوائل من "ارتاد" هذا السجن الرهيب المختص بعقوبات الأشغال الشاقة والعمل اليومي المضني المترافق مع القهر والحرمان[145]. خلال الفترة التي قضاها دانيال في سجن تدمر، كان السجن يغصّ بزواره الشيوعيين، وممن استطعنا الحصول على أسمائهم: طالب كلية الطب سليمان شكور من جسر الشغور، الذي عُذِب تعذيباً جسدياً قاسياً، لكنه بقي مرفوع الرأس يتحدى جلاديه. توفيق أسطور، طالب كلية الحقوق من اللاذقية. جرجس الهامس، طالب كلية الحقوق من صيدنايا. علاء الدين الرفاعي من حمص. عطا الله قوبا، طالب ثانوي من معلولا. خالد الكردي، طالب حقوق من دمشق. عبد الكريم طيارة، محام من طرطوس. بدر مرجان، ناشط شيوعي من طرابلس الشام[146]. إبراهيم بكري، نقابي من دمشق. إسماعيل طرودي من حماة. يوسف نمر، معلم ابتدائي من دمشق. سميح الجمالي من حمص، وطالب في كلية العلوم. بشار موصلي من حمص، وطالب في كلية الحقوق. توفيق أتاسي من حمص، وطالب في كلية الحقوق[147]، وغيرهم. وكان في عداد المعتقلين طالب الطب نور الدين الأتاسي، وهو البعثي الوحيد الذي رفض الخضوع لجلاوزة الديكتاتورية في التوقيع على تصريح بأنه لن يعمل في السياسة.

واللافت للانتباه أن إدارة السجن أرسلت هؤلاء المعتقلين في 21 شباط 1953 للعمل الشاق في الكشف عن مدرج تدمر.

مفكرة المحامي دانيال نعمة، التي استخدمها لتدوين الدعاوى، بقيت

الديكتاتورية تقاس بالديكتاتوريات التي عرفها العالم العربي في الثلث الأخير من القرن العشرين؟ ولا أعلم ما هو تصغير كلمة ديكتاتورية، كي أطلقها على ديكتاتورية الشيشكلي. إنها الحقيقة، ففي ذلك الزمن لم تكن الأجهزة الأمنية قد رسَّخت جذورها عميقاً في تربة الوطن.

[145]- انظر وصفاً شيقاً للاعتقال والتعذيب في سجن تدمر في رواية عبد الرحمن منيف "شرق البحر الأبيض المتوسط".

[146]- اعتقل وهو يعمل في الجهاز القيادي السري للحزب بدمشق، وسترد تفاصيل عن نشاطه في فصل لاحق.

[147]- كان دانيال نعمة من المجموعة الأخيرة التي دخلت سجن تدمر في أواخر شباط، وفي الحادي والثلاثين من آذار 1953 احتفل المساجين الشيوعيون بعيد ميلاد دانيال التاسع والعشرين في سجن تدمر، كما ورد في مفكرته، التي تحتفظ بها زوجته نديمة يسوف.

في جيبه، ولم تصادر، وشرع دانيال يُدَوِن عليها بعض مشاهداته، وما يجري في المعتقل، ومن يقرأ مدوّنات دانيال في سجن تدمر يلاحظ أن الأمور لم تكن قاسية وشديدة على السجين السياسي. ومع ذلك، فإن الخوف من الاعتقال في سجن تدمر كان يبعث الرعب في قلوب الناس.

بدا واضحاً، في أواسط حزيران من عام 1953، لدى حاكم سورية أديب الشيشكلي أن الأحزاب: الوطني والشعب والبعث ستقاطع الانتخابات النيابية، التي ينوي إجراءها، ولهذا رأى الشيشكلي أن يسمح للشيوعيين بالاشتراك في الانتخابات، كي لا تكون مقاطعة الانتخابات عامة شاملة[148]. وهكذا أطلق الشيشكلي سراح جميع المعتقلين السياسيين، ليبيّض صفحة حكمه قبل الانتخابات البرلمانية، وقبل أن يطلق سراح الوجوه الشيوعية البارزة في سجن تدمر، قرر اللقاء بها في 1953/07/01، وتمهيد الطريق للمهادنة مع الحزب الشيوعي.

حول ذلك اللقاء كتب دانيال نعمة: "في 27 حزيران لعام 1953 نُقلنا نحن الأربعة: إبراهيم بكري ودانيال نعمة وبدر مرجان وإسماعيل طرودي، من معتقل تدمر إلى الشرطة العسكرية في دمشق، ثم تبعنا عبد الكريم طيارة، ووضع في مهجع آخر غير مهجعنا. يوم الأول من تموز نُقلنا في الساعة العاشرة إلى مقر الأركان العامة، وفي الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين أدخلونا إلى مكتب العقيد أديب الشيشكلي.

رحَّبَ بنا الشيشكلي بإيجاز، وطلب إلينا الجلوس، ثم فتح علبة سجائره، وأخذ يضيّفنا. بعضنا رفض، أما إبراهيم بكري وأنا فقد قبلنا الضيافة، وبدأ الشيشكلي حديثه بالقول: *"تقولون عني بأنني عميل أمريكي، وأنا أقول بأنكم عملاء السوفييت"*، فانبرى الرفيق عبد الكريم طيارة قائلاً: *"أما أنك عميل للأمريكان فهذا صحيح، وأما نحن فأصدقاء الاتحاد السوفييتي"*.

وأطرق الشيشكلي لبعض الوقت، وكأنه كان يقول في سرّه: هل أعيدهم إلى تدمر؟ لكنه لم يقل هذا، بل قال: *"هذا موضوع طويل، ولديَّ الكثير مما يمكن أن أقوله، لكنني لن أفعل، وكل ما أود أن أؤكده هو أنه: لو كان لي حدود مع الاتحاد السوفييتي، لكان لي سياسة أخرى مختلفة*

[148]- كذلك شارك في الانتخابات الحزب السوري القومي، وهو حزب كان حليفاً للشيشكلي، بعكس الحزب الشيوعي.

كلياً عن سياستي الحالية". وفي الساعة الثانية عشرة والنصف غادرنا الأركان، وخرجنا إلى أمكنة أرحب من السجن، أما الرفيق بدر مرجان فلم يخرج معنا، بل تم نقله إلى الحدود اللبنانية، كونه يحمل الجنسية اللبنانية"[149].

وكان ذلك اللقاء، كما كتب دانيال في مكان آخر، رسالة إلى قيادة الحزب الشيوعي السوري تلقفتها باهتمام، وأدركت أبعادها[150]، وكان من نتائجها تخفيف حملات الهجوم على حكم الشيشكلي، والمشاركة في الانتخابات النيابية، واستغلال أجواء الحرية المرافقة لها لنشر أفكار الحزب وسياسته.

شارك الحزب الشيوعي في انتخابات المجلس النيابي لعام 1953 في عدد من المدن والأقضية، ومنها صافيتا، وقد قرر الحزب ترشيح دانيال نعمة الخارج لتوّه من السجن في تلك الانتخابات، التي تميّزت في صافيتا بنشر دانيال نعمة لبرنامجه الانتخابي. وفي فصل لاحق، سنتناول بالتفصيل ظروف تلك الانتخابات ونتائجها.

بعد المشاركة النشيطة والشجاعة لدانيال نعمة في نشاطات الحزب الشيوعي المتنوعة، ودخوله السجن أكثر من مرة، اقترب من الحلقة القيادية للحزب، ولهذا دعي في أوائل أب 1953 للمشاركة لأول مرة في اجتماعات القيادة برئاسة خالد بكداش في بيروت، بعد خروجه من سجن تدمر، ويذكر دانيال في مذكراته أنه تعرّف على فرج الله الحلو رئيس الحزب الشيوعي اللبناني في ذلك الاجتماع في شهر آب من عام 1953.

3- من العمل في تحرير جريدة "النور" بدمشق، مروراً بالدراسة الحزبية في موسكو، والعودة للمشاركة في قيادة العمل السري في دمشق الشام.

بعد انتخابات 1954 ونجاح خالد بكداش فيها وصدور جريدة **"النور"**، طلبت قيادة الحزب من دانيال الانتقال من عمله في اللاذقية كمحام ومسؤول حزبي قيادي إلى دمشق للمساهمة في تحرير جريدة "النور"، التي تولى رئاسة تحريرها فرج الله الحلو، واستمر دانيال

---

[149]- انظر كلمة التأبين المنشورة في "نضال الشعب" العدد 540 تاريخ 1997/04/29.

[150]- نقلاً عن جريدة "نضال الشعب" في 2000/11/20.

يشارك في تحرير "النور"، ويسهم في قيادة بعض منظمات الحزب لمدد محدودة حتى أواسط أيلول 1956، حين التحق بالمدرسة الحزبية العليا في موسكو للدراسة السياسية[151]، ويتبين من مجموعة من الدفاتر المدوَّنة كنوطة أثناء دراسته في المدرسة الحزبية في موسكو أن دانيال نعمة كان "تلميذاً" مهتماً بما يتلقاه من معلومات، ويدوّن معظم ما يسمعه أثناء الدرس، فالدفتر الخامس مثلاً، وفي باب "الاقتصاد الاشتراكي في الزراعة"، يُلاحَظُ مما كتبه اهتمامه بالدروس، وتدوين أفكار كثيرة، ووضع ملاحظات عليها في الهوامش، وتسجيل عدد كبير من الأسئلة لطرحها على المدرسين.

وعلى أثر الضربات التي تلقاها الحزب الشيوعي السوري أيام الوحدة، وزج الآلاف من أعضائه ومؤيديه في السجون، وتواري الباقين عن الأنظار، طلبت قيادة الحزب من دانيال ويوسف الفيصل وظهير عبد الصمد مغادرة موسكو في أواخر أيار 1959 إلى بيروت، للانتقال منها إلى سورية، لإعادة تنظيم الحزب الشيوعي المفكك الأوصال نتيجة السجون والملاحقات والقتل دون محاكمة والتذويب بالأسيد.

في الأول من حزيران عام 1959 وصل دانيال نعمة إلى بيروت، وهي محطة التحضير للانتقال إلى سورية ومتابعة العمل السري في ظروف صعبة وخطرة للغاية. وفي بيروت، علم أن فرج الله الحلو سيترأس الهيئة القيادية التي ستتولى العمل السري في سورية، لكن في يوم من أواخر أيام حزيران، وفي اجتماع حزبي أخبر أمين عام الحزب الشيوعي اللبناني نقولا الشاوي المجتمعين، الذين سيتولون العمل الحزبي القيادي في سورية، ومنهم دانيال، بأن فرج قد خطف في أحد شوارع دمشق.

وبقي دانيال نعمة مدة قصيرة من الزمن في بيروت، قام فيها مع رفاقه بتنظيم مئات الشيوعيين وأصدقائهم الفارين من جحيم الإرهاب المباحثي في سورية، اللاجئين إلى لبنان، وفي الوقت نفسه التحضير والإعداد لدخول سورية سراً، والعمل لإعادة بناء الحزب والإسهام في الحركة الوطنية، وهو ما سنتناوله في فصل لاحق.

---

[151]- يذكر دانيال نعمة أن الفريق الحزبي المنضم إلى المدرسة تألف منه ومن يوسف الفيصل وظهير عبد الصمد من سورية، وحسن قريطم وصوايا صوايا من لبنان.

الباب الثالث
الحزب الشيوعي السوري والفلاحون

الفصل الأول
شذرات من تاريخ الحزب الشيوعي السوري
(1945-1924)

في أعقاب الحرب العالمية الأولى أخذ مفهوم انقسام المجتمع إلى أغنياء وفقراء، ومن ثمّ إلى مستثمِرين ومستثمَرين، ينمو باطراد بفعل التأثير المزدوج للثورة الفرنسية البرجوازية 1789 والثورة البروليتارية الروسية 1917. وكان هذا المفهوم، القديم في التاريخ قدم المجتمعات الطبقية، قد وضحت معالمه قبل الحرب العالمية الأولى على يد "الديمقراطيين الثوريين"، أمثال فرح أنطون وشبلي شميل، لكنه أخذ الآن طابعاً أكثر شمولية واتساعاً بفضل التطورات السياسية والاقتصادية الاجتماعية، التي تسارعت وتائرها بعد الحرب العالمية الأولى ودخول المشرق العربي في دائرة الحكم الإمبريالي المباشر.

يمكن تقسيم نشاط الحزب الشيوعي حتى مطلع الاستقلال (وانتساب المعني في هذا الكتاب دانيال نعمة إلى الحزب عام 1945) إلى المراحل الأربع التالية:

المرحلة الأولى: التي بدأت مع تأسيس الحزب الشيوعي عام 1924، وانتهت عام 1930. وفي هذه المرحلة برز اسم مؤسسَيْ الحزب النقابي فؤاد الشمالي والمثقف التنويري يوسف إبراهيم يزبك[152]، وفيها جرى وضع اللبنات الأولى في صرح بناء الحزب.

المرحلة الثانية (1930-1935): التي تبدأ مع إعلان الحزب الشيوعي السوري برنامجه المطبوع الصادر في 7 تموز 1931 من خلال وثيقة تبيّن غايته القصوى وشيء من برنامجه. جاء في البرنامج[153]: "إن النظام الرأسمالي ليس مُنزلاً من عند الله، كما يدّعي

---

[152]- وقد أسسا جريدة الإنسانية في بيروت، التي منعتها السلطات الفرنسية بعد صدور العدد الخامس عام 1925.

[153]- "لماذا يناضل الحزب الشيوعي السوري، غايته القصوى، وشيء من بروغرامه".

البرجوازيـون". "إننـا نريـد أن نضـع حـداً لاسـتثمار جهـود العمـال السوريين"، "وكذلك الفلاحون، فإنهم مستثمرون من الإقطاعيين وخدم الاستعمار والمرابين ورجال الدين والحكام". "النضال المستمر ضد الاستثمار الإقطاعي والرأسمالي". "إنشاء حكومة العمال والفلاحين في سورية". "الاستقلال التام والوحدة السورية، سحب الجيوش المحتلة، إلغاء الانتداب". "الإخاء والتضامن بين جميع الشعوب المظلومة، وإيجاد جبهة متحدة بينها للنضال ضد الاستعمار، وأن تتحد مع طبقة العمال العالمية، التي هي العدو الأكبر للاستعمار".

وبعد أن تشيد وثيقة الحزب الشيوعي السوري بالمثال التاريخي لتآخي الشعوب المختلفة في "اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية"، تطالب بـ: "تحرير الجموع السورية العاملة بدون فرق بين الجنسيات والأديان...". "إيجاد جبهة متحدة بين جميع البلدان العربية للنضال والتضامن المشترك ضد الاستعمار"، و"إيجاد حلف بين العمال والفلاحين في البلاد العربية".

وفي هذه الفترة برز دور النقابي اللبناني فؤاد الشمالي كمؤسس للحزب، وصعد نجم سليم خياطة كمؤلف لعدد من الكتب[154]، وفي دمشق برز في حي السمانة فوزي الزعيم، ابن الشيخ صلاح الدين الزعيم، شيوعياً مرهوب الجانب من أعداء الشيوعية بسبب قوة شكيمته، ويقول المحامي الدكتور مصطفى أمين، الذي تعرَّف على فوزي الزعيم عام 1937 عن طريق مصطفى العشا وأحمد العشا، اللذين كانا عضوين في الحزب الشيوعي السوري، أن جد فوزي الزعيم تزوَّج امرأة من يبرود، وبحكم تردد فوزي إلى يبرود تعرَّف على ناصر حدة، وهو من يبرود، وانتسب على يديه إلى الحزب الشيوعي، وكان ناصر حدة حتى عام 1936 يشغل المركز القيادي الأول في الحزب الشيوعي، وفوزي الزعيم كان مسؤول منظمة دمشق الشيوعية، ومعروف أن خالد بكداش تعرَّف على الحزب الشيوعي عن طريق فوزي الزعيم وناصر حدة.

طبع هذا الكتيب لذكرى إعلان الحزب الشيوعي السوري (7 تموز 1930)، ومعنى ذلك أن الكتاب طبع في تموز 1931. نُشرت هذه الوثيقة مجدداً في: "صفحات من تاريخ الحزب الشيوعي السوري"، دون الإشارة إلى مكان الطبع وزمانه، ص 7-33.

[154]- راجع حول مؤلفات سليم خياطة: عبد الله حنا "من الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان، النصف الأول من القرن العشرين" دمشق1987، ص 178-198.

المرحلة الثالثة (1936-1940): وهي استمرار للمرحلتين الأولى والثانية، لكن بنوعية جديدة في مجال تكوّن الحزب سياسياً وتنظيمياً وفكرياً، وبرز ذلك واضحاً في غزارة البيانات (المناشير) والكراريس والمطبوعات النقابية والأدبية المختلفة، ومع هذه المرحلة بدأت ترتسم قيادة الشاب الألمعي والوطني المثقف والخطيب المفوّه خالد بكداش، العائد من الدراسة في موسكو، وقد دفعت قيادة خالد بكداش بالحزب قدماً إلى الأمام، وقدَّمت زخماً ملحوظاً للحركة الشيوعية السورية والعربية، تناولته بالبحث دراسات عدة.

بعد توقيع مشروع المعاهدة بين الكتلة الوطنية وحكومة الجبهة الشعبية في باريس، وتأليف الوزارة السورية الكتلوية في أواخر سنة 1936، ونجاح برلمان كتلوي، دخلت سورية في العهد، الذي أطلق عليه "العهد الوطني الأول" (1936-1939). ونتيجة لذلك، تمكَّن الحزب الشيوعي السوري من العمل لأول مرة في تاريخه على نحو علني في سنة 1937، ففتح مكاتب له في دمشق وحمص وحلب وغيرها، كما تمكَّن الحزب بتاريخ 15 أيار 1937 من إصدار جريدة **"صوت الشعب"**، التي أغلقتها السلطات الفرنسية أواخر 1939، وعادت للصدور في 20 كانون الثاني 1942، كما استطاع الحزب إصدار الكثير من النشرات والكراريس، وتمكَّن من نشر آرائه في عدد من الجرائد والمجلات المختلفة.

لكن تراجع الحركة الوطنية السورية، وصعود القوى اليمينية في فرنسا، والنشاط الوطني للحزب الشيوعي أدى في 19 أيلول 1939 إلى صدور قرار من المفوض السامي الفرنسي بحل الحزب الشيوعي، وإغلاق مكاتبه، واعتقال أعضائه إذا اجتمعوا أو تظاهروا.

المرحلة الرابعة (1940-1945)، وتنقسم أيضاً إلى فترتين:

<u>الأولى</u>- فترة العهد السري، وتمتد من أيلول 1939 إلى تموز 1941.

<u>والثانية</u>- فترة العمل العلني، وتمتد من تموز 1941 إلى ما بعد عام 1945.

وفي هذه الفترة، التفَّ حول الحزب جمهرة من المثقفين القادمين إلى الحزب من بوابة النضال الوطني، والمعجبين في الوقت نفسه بانتصارات الدولة الاشتراكية وبطولة أبنائها، والمتلهفين إلى ارتياد

منابع الفكر الماركسي. وفي خضم هذا التوجه الفكري والوطني، انضم دانيال نعمة عام 1945 إلى الحزب الشيوعي، متأثراً قبل ذلك في مدرسة لاييك طرطوس بأستاذه في اللغة العربية رئيف خوري، أحد الوجوه الثقافية الماركسية البارزة آنذاك.

عُقِدَ "المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي في سورية ولبنان"[155] أواخر 1943 أوائل 1944، في بيروت، في ظروف دولية وداخلية ملائمة.

في أول كانون الثاني 1944، أقرَّ المؤتمر الوطني **"الميثاق الوطني للحزب الشيوعي السوري"**، كما أقرَّ ميثاقاً مماثلاً مع اختلاف بسيط للحزب الشيوعي اللبناني[156].

الفصل الثاني
الحزب الشيوعي والموقف من الفلاحين

سنعالج في هذا الفصل موقف الحزب الشيوعي من الفلاحين، تحديداً لسببين: الأول أن الحزب الشيوعي هو حسب برنامجه "حزب العمال والفلاحين"، والثاني أن المعني الأول في هذا الكتاب هو دانيال نعمة المنتسب إلى الحزب عام 1945، والذي لعب، كقائد شيوعي، دوراً هاماً في العمل بين الفلاحين، وأصبح بعد 1950 من المختصين بالمسألة الزراعية في سورية، وله في هذا المجال باع طويل، كما سنرى، فالعرض التاريخي الموجز جداً لمواقف الحزب الشيوعي من الفلاحين يقدم لنا الأرضية الضرورية لفهم نشاط دانيال نعمة ورفاقه بين الفلاحين في محافظة اللاذقية أولاً، ثمّ على النطاق السوري تالياً.

كانت العلاقات الإقطاعية تضرب بجذورها في أعماق الريف، وقد ازدادت عمقاً ورسوخاً نتيجة لسياسة الانتداب الفرنسي المتحالف مع القوى الإقطاعية. ومنذ تأسيس الحزب الشيوعي (1924) حتى منتصف

155- وهو المؤتمر الأول للحزب الشيوعي السوري، وبعضهم يسميه (المؤتمر الثاني)، عاداً اجتماع تأسيس الحزب سنة 1924 على أنه المؤتمر الأول.

156- بنود الميثاق الوطني منشورة في جريدة "صوت الشعب"، أعداد كانون الثاني 1944، وفي "صفحات من تاريخ..."، ص 57.

الثلاثينيات، احتل الدفاع عن الفلاحين وفضح الإقطاعية المقام الثاني في أدبيات الشيوعيين بعد الدفاع عن العمال، الذي احتل المرتبة الأولى. لكن الوضع بعد عام 1936 تغيَّر نسبياً، ونستطيع أن نقول إن تيارين برزا داخل الحزب الشيوعي إزاء الموقف من المسألة الزراعية: التيار الأول طالب، كما كان الحال قبل عام 1936، بالإصلاح الزراعي وتوزيع الأراضي على الفلاحين، وكان صوته يسمع بين الحين والآخر في جريدة **"صوت الشعب"**، والتيار الثاني دافع عن الفلاحين، وطالب بإنصافهم، وقدَّم حلولاً عملية لمطالبهم اليومية، لكنه التزم جانب الصمت عن الجذور العميقة المعيقة لحل المسألة الزراعية، وهذا التيار هو الذي انتصر – كما هو واضح – في المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي (1943-1944).

لكن حياة هذا التيار لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما عاد الحزب الشيوعي بعد فترة وجيزة إلى خطه الأصيل في المطالبة بشعار **"الأرض للفلاح"**.

لقد مرّت سياسة الحزب الشيوعي إزاء المسألة الزراعية، إذا استثنينا فترة ميلاد الحزب قبل 1930، بثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى 1930-1935: طرح الحزب فيها بوضوح وصراحة مسألة الإصلاح الزراعي، وطالب في برنامجه الموضوع في تموز 1931 بـ: "توزيع جميع أراضي الحكومة على الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً"، و"مصادرة أراضي المزارعين الأجانب، وأراضي الإرساليات الدينية وكبار الإقطاعيين، وتوزيعها على فقراء الفلاحين"، و"إلغاء جميع الامتيازات الحاصل عليها الإقطاعيون إلغاءً تاماً"، إضافة إلى مطالب أخرى ذكرناها في حينه. وفي هذه المرحلة أكد الحزب الشيوعي صفته الطبقية العمالية الفلاحية، وكان لهذا التأكيد معناه الخاص.

المرحلة الثانية من 1936 إلى 1948: تميّزت هذه المرحلة بغياب الشعارات الإستراتيجية في المسألة الزراعية، في معظم فتراتها، فبرزت بصورة جيدة مطالب الفلاحين الجزئية، وغابت، أو كانت غير واضحة، مطالب الفلاحين الكبرى فيما يتعلق بالإصلاح الزراعي الجذري. هذا التراجع في السياسة الزراعية سببه، في رأينا، عدم وضوح العلاقة الديالكتيكية بين النضال الاجتماعي والنضال السياسي

الوطني، فَتحْتَ وطأة العمل لإقامة جبهة معادية للفاشستية والاستعمار خفت حدة المطالبة بتصعيد النضال الاجتماعي الفلاحي، وهذا الأمر معقد وبحاجة إلى معالجة متأنية.

والواقع أن سياسة الحزب في هذه المرحلة إزاء المسألة الزراعية لم تكن موحدة، بل برز، كما أشرنا قبل قليل، داخل الحزب اتجاهان، انتصر فيهما الاتجاه الثاني، الذي غضّ الطرف عن مناهضة الإقطاعية، كما ورد في قرارات القيادة المركزية للحزب الشيوعي في سورية ولبنان في أيلول 1948.

المرحلة الثالثة بعد 1948: التي نادى فيها الحزب بالإصلاح الزراعي وبتصفية الإقطاعية، وفي بدء هذه المرحلة اكتفى الحزب "بنقل الأفكار والتحليلات العامة الكلاسيكية، التي أتت بها الماركسية اللينينية في القضية الزراعية، دون أي جهدٍ خاص لفهم أوضاع الريف في بلادنا بصورة ملموسة"، وكان ذلك أمراً طبيعياً إلى حد ما في البدء، في ظروف خبرة دول العالم الثالث، ثم ما لبث الحزب الشيوعي أن انتقل من مرحلة النقل إلى مرحلة الإبداع، التي تمثلت أخيراً بصدور البرنامج الزراعي للحزب الشيوعي السوري عام 1969، الذي وضعه مجموعة مختصين وعاملين في الريف، وفي مقدمتهم دانيال نعمة.

وابتداءً من المرحلة الثالثة، تزايد نشاط دانيال نعمة داخل الحزب الشيوعي، وفي تنظيم الحركة الفلاحية "في الجبل العلوي"، وله في هذا المجال باعٌ طويلٌ، كما سنرى في فصول لاحقة.

الفصل الثالث
الشيوعي بدر مرجان
الناشط بين فلاحي "الجبل العلوي"[157]

نشأ بدر مرجان وترعرع في عائلة علوية في حي باب التبانة في

[157]- هذا الفصل منشور في كتابنا "الحركة الشيوعية السورية – الصعود والهبوط"، وقد رأينا إعادة نشره هنا لصلته القوية بمحتوى هذا الكتاب، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن دانيال نعمة أشار في أكثر من موضع إلى الدور الريادي لبدر مرجان في تأسيس منظمات الحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية.

مدينة طرابلس الشام ذات العلاقات الاقتصادية والثقافية والعائلية مع محافظتي اللاذقية وحمص، ويعود أساس عائلة مرجان إلى ريف صافيتا. عمل بدر مرجان في مستهل شبابه مع أخيه بائعاً للبيض في دكان صغير في حي باب التبانة. بعد أن انتسب إلى الحزب الشيوعي اللبناني عام 1937، تطوع للعمل في أرياف اللاذقية ونشر الفكر الشيوعي والدفاع عن الفلاحين، وهو المؤسس الحقيقي لمنظمات الحزب الشيوعي في "الجبل العلوي"، وهو الذي هيّأ الأرض لدانيال نعمة ورفاقه للعمل بين الفلاحين، ويبدو ذلك واضحاً مما ذكره دانيال نعمة في مذكراته، وما سمعناه من قدامى الشيوعيين، وجاء زمن (1949) أصبح فيه بدر مرجان مسؤول منظمة الحزب في طرابلس، وكان قد شارك في المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي المنعقد في بيروت أواخر 1943-1944.

عندما كنت أقوم بجولة ميدانية واسعة في الساحل السوري عام 1984، لفت انتباهي تردد اسم بدر مرجان على ألسنة عدد من الفلاحين المسنين في منطقتي صافيتا وطرطوس، بأنه الشيوعي المتفاني في سبيل مبدئه والساعي لنشره بين الفلاحين.

كان بدر مرجان يسير على قدميه من قرية إلى أخرى لنشر الشيوعية، مستخدماً التجارة بالبيض وسيلة للتنقل بين القرى والاتصال بالناس وتغطية أهدافه أمام دوريات الدرك والقوى المعادية. وبعد الدراسة والاستفسار، تبيَّن أن بدر مرجان هو الجندي الشيوعي المخلص لمبدئه، والساعي لنشره بكل ما أوتي من قوة، فجميع الشيوعيين القدامى في محافظة اللاذقية يعرفون بدر مرجان، أو سمعوا عنه.

ساعدت "مهنة" تجارة البيض بدر مرجان على التنقل والتعرف على الناس والحديث معهم في أمر أهم من التجارة، وهو توعية الناس إلى واقعهم الطبقي الاستغلالي، وتحريضهم على العمل لتغييره، وهكذا تمكّن بدر مرجان في السنوات الأولى من أربعينيات القرن العشرين من بناء عدد من المنظمات الشيوعية في "الجبل العلوي"، وخاصةً في أرياف صافيتا وطرطوس.

ويذكر ديب قطيرة أنه شهد في عام 1942 تأسيس أول منظمة شيوعية في الكفرون، وقد عُقد الاجتماع في بيت حنا إلياس خوري

الموظف في (آي بي سي) بحضور بدر مرجان وسليمان عبود، المسؤول عن كراج طرابلس-الكفرون، وهو الذي جاء ببدر مرجان إلى الكفرون، ويذكر قطيرة أن مرجان تحدث بإسهاب في الاجتماع، الذي حضره مكارية وحدادون وعمال زراعيون، وتكرر حضور بدر مرجان إلى الكفرون للاجتماع بالشيوعيين فيها.

في لقاء مع الأستاذ فايز بشور، الذي صار شيوعياً في مدرسة اللاييك في طرطوس، ألقى ضوءاً على نشاط بدر مرجان في صافيتا، التي كان يتردد إليها، جالباً الصابون من طرابلس لبيعه في صافيتا، وشراء البيض منها ومن ضواحيها لبيعه في طرابلس. وفي الوقت نفسه، كان ينظم اللقاءات الحزبية في صافيتا وبعض قراها، ويقول فايز بشور إن بدراً كان يزور القرى، ويتحدث مع الفلاحين حول العدالة الاجتماعية، فيتحمس الفلاحون لكلامه، وهكذا كان يزرع بذور الاشتراكية في الريف، واستطاع بمساعدة ابن صافيتا قيصر ضومط تنظيم نحو ستين شخصاً في الحزب في بلدة صافيتا وحدها، وهذا مما أثار حفيظة أعضاء الحزب السوري القومي الاجتماعي، وهم أكثر عدداً من الشيوعيين في بلدة صافيتا، فقاموا بالاعتداء على قيصر ضومط، وخفّ فايز بشور لمساعدته، كما حاول القوميون السوريون الاعتداء على بدر مرجان في سوق صافيتا، لأنه دفع أحد قبضايات الحزب الشيوعي في طرابلس لضرب أحد القوميين السوريين.

بمبادرة من بدر مرجان أصدر الشيوعيون في صافيتا مجلة **"صوت القرية"**، التي كانت تكتب عن أخبار الفلاحين، وتُطبَع في طرابلس، وتُوَزَع في عدد من القرى، وكانت المجلة تصدر على نحو غير دوري، كي لا تطالب السلطات برخصة لها، ويذكر فايز بشور أن بغل أحد الفلاحين لبط (رفس) حصان أحد الدرك، فانتقم الدركي من الفلاح صاحب البغل، وتعقيباً على هذه الحادثة كتب دانيال نعمة في مجلة "صوت القرية" مقالة تحت عنوان: "بغال الفلاحين لا تحترم أحصنة الدرك".

يُلقي ظهير عبد الصمد، أحد قادة الحزب الشيوعي السوري البارزين، الضوء على نشاط بدر مرجان في الفقرات التالية:

"تعرَّفتُ على بدر مرجان في المؤتمر الأول للحزب 1943-1944، وقد انتخب وقتها عضواً مرشحاً إلى اللجنة المركزية على ما أذكر.

وبعد ذلك، كنت أشاهده في الاجتماعات القيادية الموسعة التي كنت أدعى إليها، وعندما انتدبت للعمل في طرابلس عام 1949، كان مسؤول المنظمة الرفيق بدر مرجان، وكانت اللجنة المنطقية فيها مؤلفة من الرفاق: مصطفى بدوي، إبراهيم خليل، أحمد المير، جوزيف شاغوري. وقد عشت في بيته، (أي بيت بدر مرجان - المؤلف)، وبيوت أخواته وأقربائه في حي التبانة كواحد من العائلة.

قبل أن يكون الرفيق بدر مرجان مسؤولاً لمنظمة طرابلس، كان يعمل في دكان صغير في حي باب التبانة، يبيع فيها البيض مع أخيه الأكبر، وقد انتسب إلى الحزب بين عامي 1936-1937 على ما أظن... ولما أصبح مسؤولاً لمنظمة طرابلس، كُلِّفَ بقيادة منظمات الحزب في عكار وطرطوس والمشتى وصافيتا والدريكيش وكرتو وغيرها.

لقد جَنَّد الرفيق بدر مرجان عائلته كلها للعمل الحزبي: أخواته، وأولاد أخته، وأقرباءه. ومن عائلته برز عدد من الرفيقات النشيطات... وخلال وجودي في طرابلس استُدعِيَ إلى بيروت، ونُقِلَ للعمل في منظمة دمشق..."[158].

وتذكر ليلى خليل أن خالها بدر مرجان "أعتُقِل في دمشق، وعُذبَ كثيراً، حتى أنهم عملوا تمثيلية عليه أنه سيعدم إذا لم يعترف بما يعرف عن التنظيم الشيوعي الذي كان يقوده. أوقفوه، ووقفت ثلة من الدرك أمامه مع بنادقهم، ثمّ عصبوا عينيه، كما يجري أثناء الإعدام، فما كان منه إلا أن انتزع العصبة عن عينيه، وفتح صدره قائلاً لقائد الدورية: هيا أطلق النار". وتقول ليلى: "لا أعرف بالضبط متى كان ذلك، لكن كان يومئذ هاشم الأتاسي رئيساً للوزراء"، (أي عام 1952). وذهبت أخت بدر مع عدد من النساء من طرابلس إلى دمشق للمطالبة بإطلاق سراحه، فوعد هاشم الأتاسي بدرس قضيته.

وتذكر ليلى أن خالها عندما خرج من السجن أصيب بسبب التعذيب بنوع من الانهيار العصبي، فبعض الملاحظات التي كان يغض الطرف عنها سابقاً، صار يقولها علناً وبلهجة فيها شيء من العنف. كان يبدي انتقادات على أسلوب عمل خالد بكداش و"تسلطه"، مما كان يحول دون تطور الكادر... مع انتقادات على الصعيد الشخصي... أنا (والكلام لليلى

---

[158]- نقلاً عن ظهير عبد الصمد، مجلة "دراسات اشتراكية".

خليل) صُدِمت بهذا الموقف من خالي، وكان قادة الحزب بالنسبة إلينا وقتئذ نوعاً من الآلهة، ونقلت ما أسمعه منه إلى قيادة الحزب، وأنا وإخوتي وقفنا إلى جانب الحزب ضد خالي..."[159].

يقول الشيوعي اللبناني عزيز صليبا: "الرفيق بدر مرجان من الكادرات الحزبية البارزة في طرابلس والشمال في الأربعينيات والخمسينيات (من القرن العشرين)، وكل من عرفه يذكره بتقدير واحترام، وخَفَتَ اسمه مذ ذاك".

ذكر لي الأستاذ إسكندر نعمة، المتميز بذاكرته المتوقدة وقدرته على إعادة الحديث، التقويمين التاليين عن بدر مرجان: التقويم الأول سمعه من العامل الشيوعي إلياس البطل قوله: "إن الرفيق بدر مرجان يشكل النموذج الأفضل للشيوعيين، وهو أفضل شيوعي تعرَّفتُ عليه". والتقويم الثاني قرأه الأستاذ إسكندر في مقالة لخالد بكداش أوائل خمسينيات القرن العشرين جاء فيه: "إن الرفيق بدر مرجان يمثل النموذج الذي يجب أن يحتذى في النضال، فقد قضى عمره متنقلاً في قرى الجبل العلوي بلا زاد ولا ماء، حاملاً أفكار الحزب الشيوعي".

"كان مربوع القامة، عيونه خضر، وشواربه سمر من كثرة التدخين". هذا الوصف ذكره الروائي حنا مينه، الذي عمل تحت قيادة بدر مرجان عندما استوطن في اللاذقية بعد رحيله من إسكندرون. سألنا الدكتور مصطفى أمين، القيادي المعروف في الحزب الشيوعي، ماذا يعرف عن بدر مرجان؟ فأجاب: "نفسية طيبة، يحب النكتة، يشرب أركيلة على طول، وسمعت أنه مناضل بين الفلاحين".

وأهم من ذلك أن بدر مرجان كان عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري، وألقى أمام المجلس المنطقي لممثلي منظمات الحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية، المنعقد في تشرين الثاني سنة 1945، تقريراً نُشِرَ في كراس تحت عنوان: "مطالب الشعب في الجبل العلوي"، من منشورات الحزب الشيوعي السوري، نقتطف منه بعض الفقرات الموضوعة ضمن قوسين، ونلخص فقرات أخرى مع الحرص الشديد على المحافظة على المعنى واستخدام الكلمات والتعابير الواردة في التقرير:

---

[159]- صليبا عزيز: "العمل السري في الحزب الشيوعي اللبناني مع صفحات من تاريخه"، بيروت، دار الفارابي، 2002.

ضمَّ المجلس المنطقي ممثلي اللاذقية وجبلة وبانياس وطرطوس وصافيتا وتلكلخ والحصن وعشرات القرى الأخرى. بحث التقرير في "الحالة السياسية العامة للبلاد، ومطالب شعبنا الراغب في حياة حرة مستقلة، يتمتع فيها العامل والفلاح بمستوى عيش لائق، كما أنه سيبحث في حالة الجبل العلوي، ويفصح بدقة عن حاجاته الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية". حضر المجلس خالد بكداش، فقد جاء في التقرير على لسان بدر مرجان: "لأول مرة في تاريخ هذه المنظمات نجتمع إلى قائدنا ومعلمنا ورئيس حزبنا الوطني الكبير، الرجل الذي زرع في نفوسنا حب وطننا وشعبنا، وجعلنا نستهين بالموت في سبيلهما، والمعلم الذي له الفضل في تسديد خطانا وإرشادنا، رفيقنا خالد بكداش"[160].

استعرض التقرير أولاً: "الوضع الدولي ومطالب سورية الوطنية العامة"، كما ورد في بيان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصادر في 19 تشرين الأول 1945.

العناوين الرئيسية في الكراس هي التالية:

- "الشيوعيون هم في الصفوف الأولى من النضال الوطني في الجبل العلوي".
- "نناضل لأجل الاستقلال، ولأجل الحرية والخبز أيضاً".
- "الجبل العلوي يطلب مكافحة الغلاء، ويطلب العمران والثقافة ووضع حد للاستبداد بالفلاحين".
- "إن أول رصاصة وطنية ضد الاستعمار انطلقت من الجبل العلوي عام 1921...".

جاء في النص: "... ويعلم الوطنيون في سورية أن الرصاصة الأولى، التي انطلقت ضد طغيان الاستعمار الفرنسي، أطلقت من هذا الجبل في ثورة الفلاحين، التي يسمونها بثورة الشيخ صالح علي. وفي سنة 1936، كان أكثر سكان هذه المنطقة في جانب الحركة الوطنية،

---

[160]- ولا يتسع المجال هنا للتعليق على هذه الفقرة المعبّرة عن الأجواء السائدة آنذاك في الحركة الشيوعية، وهي بعيدة عن الفكر الماركسي، الذي يولي البنية الاقتصادية الاجتماعية الدور الأساس في تكوّن الأفكار، التي تؤثر أيضاً في دفع البنى التحتية قدماً إلى الأمام، وعبادة الفرد هذه، الغريبة عن الماركسية، والتي تركت ذيولاً قاتمة على مسار الحزب الشيوعي السوري وغيره، أُدينت بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي.

وقد ساعد المستشارون الفرنسيون كبار الإقطاعيين على نهب أراضي الفلاحين. وباتفاق المستشارين والإقطاعيين، كان الفلاحون ونساؤهم يُسَخَّرون في شق الطرق...". "حالة الزراعة في المنطقة: يجب مساعدة الفلاح على مكافحة الأوبئة والأمراض الزراعية". "مشاريع الري ضرورة حيوية لمنطقتنا، التي تذهب مياهها الغزيرة هدراً دون أن يستفيد منها الفلاح كل الفائدة ". "المدارس" يقدم التقرير إحصاءات عن قلة المدارس ووضعها البائس. "الحالة الصحية: الأمراض تفتك بالفلاحين نساءً ورجالاً، وفي بعض المناطق يموت 75% من الأطفال. لا يوجد إلا مستشفيان في كل من اللاذقية وطرطوس، لمنطقة يبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة". "الطرق والمواصلات". "استبداد الإقطاعيين: ضرب وتسخير وفرائض ثقيلة"، وجاء في خاتمة هذا العنوان: "فمن واجب الحكومة حل مشكلة الأرض وطرق تملكها، وجعل علاقة الفلاح بالأرض التي يعمل فيها على أساس ديمقراطي عادل، يضمن له حياة تليق بإنسان، لا أن يبقى تحت رحمة الإقطاعية والأمراض والفقر والجهل...". "الدرك والمحسوبية في الدوائر". "ويأتي بعد الإقطاعيين بعض رجال الدرك، الذين لا يتورعون عن ضرب الفلاحين واستغلال جهلهم للقانون... ويرى الفلاحون أن رجال الدرك وجدوا خصيصاً لإرهاقهم لا لحمايتهم... ويأتي بعد الدرك بعض الدوائر، التي لا تعمل إلا بوحي من الزعماء والمتنفذين... فنحن نطلب من الحكومة محاربة المحسوبية والرشوة والتسلط في الدوائر، ومنع رجال الدرك من اضطهاد الفلاحين". "الضرائب" وهي ترهق الفلاحين، مثل ضريبة الإنتاج الزراعي وبدل الطريق. "الإعاشة" وأسعار الحبوب في المدن أدنى من أسعارها في القرى، ولهذا يهاجر الفلاحون إلى المدن للحصول على الإعاشة. "العمال...".

وفي الختام أكد التقرير أن "كل هذه المطالب الشعبية مطالب عادلة ممكنة التحقيق، لا تطرف ولا مغالاة فيها"، ولدى الحديث عن نضالات الشيوعيين أشار التقرير: "إن أقدم شيوعي في جبل العلويين هو الرفيق زكريا حسن، أحد قواد منظمة عين دابش، فقد تحمّل ألوان الإرهاب وأفظع ألوان الاضطهاد، وهو للآن أنشط الشيوعيين في قريته". وختم تقرير بدر مرجان بالشعار التالي: "عاشت سورية العربية حرة مستقلة سعيدة موحدة ديمقراطية".

هذا غيض من فيض من النضال الفلاحي للجندي الثوري المجهول بدر مرجان، الذي أفنى زهرة شبابه في العمل لتحسين ظروف حياة الطبقات المقهورة، وناضل وهو الشيوعي العلوي في سبيل وحدة سورية العربية المستقلة السعيدة والديمقراطية.

الفصل الرابع
شذرات من
حياة بعض قادة الحزب الشيوعي
في محافظة اللاذقية

لم نستطع بإمكاناتنا الفردية المحدودة معرفة حياة جميع قادة الحزب الشيوعي وكادره، التي كان بعضها سرياً، وغطته أمواج النسيان، لهذا اقتصرنا على "البعض".

كانت المدارس الحديثة من رسمية وخاصة، التي نشطت في الربع الثاني من القرن العشرين، إحدى الوسائل الرئيسية لنشر أفكار الأحزاب السياسية العقائدية: (الشيوعي، القومي السوري، الإخوان المسلمون، البعث)، وقد لعب المدرسون المنتمون إلى هذه الأحزاب دوراً بارزاً في نشر أفكارها، وهذا ما جرى في مدرسة اللاييك في طرطوس، فأستاذ اللغة العربية والكاتب والمفكر الماركسي رئيف خوري تمكّن في عامي 1941 و1942 من استقطاب مجموعة من الطلاب، ودفعهم في طريق النضال الوطني العربي والسير باتجاه الفكر الماركسي، وكان رئيف على علاقة خاصة ببعض الطلاب، الذين توسَّم فيهم الخير، ولنقرأ ما كتبه دانيال نعمة عن أستاذه رئيف خوري:

"...وكان رئيف يسهر الليالي، ليحضِّر دروس طلابه، ويصحح أوراقهم، وليتابع كتابة مقالاته وإعداد خطبه. وذات يوم، أقامت جمعية مكافحة الفاشية في اللاييك اجتماعاً جماهيرياً، وكان رئيف نجم هذا الاجتماع.

وكان رئيف يتردد هو ورهط من الأساتذة على كازينو عبدو الضيعة، وكان هذا الكازينو مطعماً ومقهى، وكان شيئاً آخر أيضاً، وكان أفضل مكان يمكن للمرء فيه أن يقضي أوقات الفراغ، أو يُقيم جلسات

الحوار والمناقشة، ويقيني أن الفضل في دخول عبدو الضيعة، وهو الرجل الشهم، الذي كان قد تجاوز الأربعين، إلى الحزب الشيوعي السوري، وتحوله فيه إلى مناضل لا يكل، ولا يمل، ولا يتردد أمام أية تضحية، إنما يعود إلى رئيف خوري.

لقد دفع رئيف خوري بنشاطه الإبداعي، ومن خلال دروسه، بالكثيرين من الكلية للاقتراب من أفكار الحزب الشيوعي، أو للدخول إلى صفوفه، وكانوا من جميع الفئات وجميع أنحاء المحافظة: من اللاذقية إلى تلكلخ".

فايز بشور، الذي سبق دانيال إلى الدراسة في مدرسة اللاييك بطرطوس، ذكر[161] أنه نشأ في بيت مُسَيَّس في صافيتا، وسمع الكبار يرددون كلمة بلشفيك، فذهب عام 1941 إلى أستاذه رئيف خوري، الذي قالوا عنه إنه شيوعي، ليسأله عن البولشفيك، فأعطاه رئيف جريدة الحزب الشيوعي السرية **"نضال الشعب"**، وهي مطبوعة على الجلاتين، كما أعطاه كتاب **"المقدسي"**، تأليف داعية الاشتراكية **نقولا حداد** على شكل رواية مطبوعة في مصر. وعندما شاهد الطالب محمد حكيم، وهو من ريف بانياس، بشوراً يقرأ الكتاب، قرأه أيضاً، وأعجب به، وأخذ يشرح محتوياته لثلاثة من زملائه، ويقول بشور إن محمد حكيم "كان رجالّ"، أي شجاع، وشرع فايز بشور ومحمد حكيم يتصلان بالطلاب، داعين إياهم إلى تبني الأفكار الشيوعية، وهكذا أصبح عدد من تعاطف مع تلك الأفكار 19 طالباً، ومنهم عبد الكريم طيارة من طرطوس، ودانيال نعمة من مشتى الحلو، وحبيب حسن من القليعة في ريف دريكيش.

ونتوقف عند هؤلاء الخمسة[162] من تلاميذ رئيف خوري، الذين سيصبحون في خمسينيات القرن العشرين قادة الحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية.

1- عبد الكريم طيارة رافع راية النضال

ولد عبد الكريم طيارة في طرطوس عام 1925، ونشأ في بيئة من

---

[161]- في لقاء معه 2005/02/10.

[162]- سنتحدث عن أربعة منهم، لأن الخامس وهو دانيال نعمة هو محور هذا الكتاب، فلا حاجة للإعادة بالنسبة إليه.

الأقرباء المثقفين البرجوازيين الصغار، حسب وصفه لهم في خريف عام 1951، وكان والده عمر طيارة كاتب محكمة وملاكاً صغيراً.

انتسب عبد الكريم إلى مدرسة اللاييك في طرطوس، وتأثر بأستاذ اللغة العربية الماركسي المعروف رئيف خوري، وهذا ما مهد الطريق فكرياً أمامه للانتساب إلى الحزب الشيوعي عام 1945 عن طريق أحد الطلاب، وكان قبل ذلك قد استكمل تأهيله العلمي متنقلاً بين اللاييك وتجهيز حلب.

وبعد نيله البكالوريا، انتسب إلى معهد الحقوق في دمشق، ونال إجازة في الحقوق، ثم أصبح محامياً في طرطوس.

وبعد انتساب عبد الكريم إلى الحزب الشيوعي، اندفع مباشرة في نشاطه الوطني الحزبي، وقام بحملة كي يضم إلى الحزب من وجد فيهم المؤهلات، وسرعان ما أصبح عضو لجنة طرطوس، ثم عضو اللجنة المنطقية في طرطوس وريفها أوائل عام 1947، وكثيراً ما امتد نشاط هذه اللجنة إلى قضاء بانياس وقسم من قضاء صافيتا.

شارك عبد الكريم طيارة في التحضير لكثير من المظاهرات وقيادتها، كما أسهم في تنظيم حملات التواقيع على العرائض وإرسال البرقيات والوفود للاحتجاج على بعض أعمال السلطة ومشاريع الاستعمار، أو المطالبة بالأمور التي تهم الجماهير.

لم يقتصر نشاط عبد الكريم طيارة على طرطوس وريفها، بل تعداه أيضاً إلى معظم مناطق محافظة اللاذقية.

وفي صيف عام 1951، كلفه الحزب بقيادة العمل السري في كل من اللاذقية وجبلة.

وبناءً على توجيه الحزب، ترشح المحامي عبد الكريم طيارة لانتخابات المجلس النيابي في أعوام 1949 و1953 و1954، وقد اعتقل أثناء الاجتماع الانتخابي عام 1953، وقام أحد رجال الدرك بضربه بأعقاب بندقيته على وجهه، مما أدى إلى تورم عينه.

ولنقرأ ما كتبه عبد الكريم طيارة باختصار عن اعتقالاته المتكررة ومحاكمته حتى خريف عام 1951:

(اعتقلت مراراً كثيرة، ولوحقت أيضاً كثيراً. كنت أعتقل في العهد العلني لدى كل توزيع منشور، وكان الاعتقال قصيراً، من 24 إلى 48 ساعة، وهذه الاعتقالات لا أذكر تواريخها.

في العهد السري، اعتقلت مرتين، الأولى في اجتماع انتخابي عام 1949، وقد سجنت مدة 25 يوماً، وبعد ذلك أفرج عني وعن رفاقي (المشاركين في الاجتماع الانتخابي) بمنع محاكمة، وذلك بعد انتهاء عملية التصويت في الانتخابات، واعتقلت ثانية عام 1950 مدة شهر[163]، وأوقفت أمام المجلس العدلي، وتحاكمت أمامه، وانتهت المحاكمة بالبراءة، وسبب الاعتقال هو تحري بيتنا والعثور على رسائل رفيقَيَّ في المهجر تتضمنان بعض الأخبار الحزبية).

أثناء محاكمة عبد الكريم أمام المجلس العدلي، تكلَّم وكيله المحامي أحمد المحمود بصيغة نقدية، معرِّضاً بالاتحاد السوفييتي، ولم يرد عليه عبد الكريم أو يسكته، ووافق معه على سحب دفاعه وعدم إلقائه في المحاكمة عام 1950، وهذا الموقف بعدم الدفاع عن الاتحاد السوفييتي وعن شعارات الحزب عرَّضه للعقوبة الحزبية، ويكتب عبد الكريم في بيوغرافيته ما يلي:

(وكنت مقتنعاً بهذه العقوبة، وأنا الذي طلبت إنذاري بالفصل من الحزب، بدلاً من الاكتفاء بالتنبيه، كما كان مقرراً، وقد اعترفت بهذه الأخطاء أمام اللجنة المنطقية، التي حوسبت من قبلها، كما اعترفت بهذه الأخطاء في جميع فرق الحزب، ومنذ ذلك الحين، بدأت أفهم أهمية الاتحاد السوفييتي كقائد لمعسكر الاشتراكية والسلام).

تتبدى هذه القناعة بأهمية الاتحاد السوفييتي ودوره كقائد لمعسكر الاشتراكية والسلام في الموقف الشجاع لسجين تدمر عبد الكريم طيارة أمام أديب الشيشكلي حاكم سورية وديكتاتورها عام 1953، ونعيد هنا بعض ما كتبه دانيال نعمة حول طيارة: "في 27 حزيران لعام 1953 نُقِلنا نحن الأربعة: إبراهيم بكري ودانيال نعمة وبدر مرجان وإسماعيل طرودي، من معتقل تدمر إلى الشرطة العسكرية في دمشق، ثم تبعنا عبد الكريم طيارة، ووضِع في مهجع آخر غير مهجعنا. يوم الأول من تموز نُقلنا في الساعة العاشرة إلى مقر الأركان العامة، وفي الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين، أدخلونا إلى مكتب العقيد أديب الشيشكلي".

"رحب بنا الشيشكلي بإيجاز، وطلب إلينا الجلوس، ثم فتح علبة

---

[163]- أثناء الاعتقال أمر قائد فصيل درك طرطوس بقص شعر عبد الكريم، كأحد أنواع العقاب له وللتشفي منه.

سجائره، وأخذ يضيّفنا، بعضنا رفض، أما إبراهيم بكري وأنا فقد قبلنا الضيافة، وبدأ الشيشكلي حديثه بالقول: تقولون عني بأنني عميل أمريكي، وأنا أقول بأنكم عملاء السوفييت، فانبرى الرفيق عبد الكريم قائلاً: أما أنك عميل للأمريكان فهذا صحيح، وأما نحن فأصدقاء الاتحاد السوفييتي".

ومع ذلك أطلق الشيشكلي سراح معتقلي تدمر في الأول من تموز 1953 لأسباب ذكرناها سابقاً.

وكأن (الشيوعي المبدئي العنيد)، أو ما يصفه بعضهم (المشاكس)، عبد الكريم طيارة كان على موعد مع الانقلابات العسكرية، التي عرفتها سورية بين عامي 1949 و1953، فمع قيام حسني الزعيم بانقلابه العسكري في آذار 1949 وملاحقة معارضيه، بدأت قصة كفاح عبد الكريم طيارة ضد الديكتاتوريات العسكرية.

جاء في البيوغرافيا، التي كتبها طيارة خريف عام 1951 ما يلي:

(لوحقت ملاحقة شهيرة أيام حسني الزعيم إثر انقلابه (آذار 1949)، وبقيت ملاحقاً طيلة عهده الأسود، أي ما يزيد على أربعة أشهر، وكان يجري تحري بيتنا أثناء هذه الملاحقة باستمرار، وغالباً بعد منتصف الليل، ولوحقت في المرة الأخيرة، ولا أزال ملاحقاً، وذلك منذ نحو خمسة أشهر من تاريخه بسبب وجود بعض المطبوعات والنشرات الداخلية).

اشترك في مظاهرة ضد رفع أسعار الخبز في السنة الثانية من الحرب العالمية الثانية، وفي مظاهرة احتجاج على تقسيم فلسطين عام 1947، ومعروف أن تلك المظاهرات استغلتها قوى معينة للهجوم على مكتب الحزب الشيوعي في دمشق، وإغلاق مكتب حلب بذريعة أن الاتحاد السوفييتي وافق على التقسيم.

أما في طرطوس، فلنقرأ ما كتبه طيارة خريف عام 1951 في النص التالي ذي المغزى:

(اشتركت في مظاهرة فلسطين، وكانت إثر التقسيم عام 1947، واشترك فيها حزبنا، وتمكن من توجيهها، رغم وجود بعض الذين أرادوا استغلالها ضد الاتحاد السوفييتي، وقد فرقنا الدرك بالقوة عندما أراد أحد رفاقنا أن يخطب).

واشترك طيارة في مظاهرة ضد شركة التابلاين الأمريكية، التي

كانت تسعى لمد خط لأنابيب النفط من السعودية إلى صيدا عبر الأردن وجنوب سورية، ولم يكن المزاج الشعبي موافقاً على مد خط أنابيب التابلاين، لأنه يدخل استعماراً جديداً أمريكياً إلى البلاد، وجاء انقلاب حسني الزعيم ليفرض بالقوة مد هذا الخط، وقد عمَّت سورية مظاهرات في معظم المدن ضد شركة التابلاين، ومنها طرطوس، ولنقرأ ما كتبه طيارة:

(اشتركت في مظاهرة ضد شركة التابلاين الأمريكية قبل انقلاب حسني الزعيم بقليل، وأثناء المظاهرة اصطدمت مع قائد الدرك، فاعتقلني بوساطة بعض رجاله، ثم فررت من بينهم في السراي، وانضممت إلى المتظاهرين الواقفين أمام السراي، وأخذت أخطب وأفضح الحكام وكيفية اعتقالي).

واشترك في مظاهرة من المحامين في طرطوس لإرجاع محكمة البداية إلى طرطوس بعد إلغائها في عهد حسني الزعيم، وقد خطب طيارة في تلك المظاهرة.

وشارك عبد الكريم طيارة في مظاهرة بطرطوس ضد الاتحاد السوري العراقي أيام سامي الحناوي، وكان الهدف من ذلك الاتحاد القضاء على النظام الجمهوري في سورية وعلى الخط الوطني المناهض للاستعمار، وجعل سورية بلداً تابعاً للنظام الملكي في العراق السائر في ركاب المستعمرين الإنكليز، وكان طيارة خطيب تلك المظاهرة.

لم تأت مشاركة المحامي الشيوعي عبد الكريم طيارة في المظاهرات الوطنية من العدم، بل كانت حصيلة أجواء النهوض الوطني الصاعد، إضافة إلى الخلفية الفكرية، التي كونت أرضية خصبة للنضال.

يعرض عبد الكريم طيارة الصحف والكتب، التي قرأها حتى تاريخ كتابته لبيوغرافيته على النحو الآتي:

(قبل انتسابي إلى الحزب كنت أقرأ كتباً تاريخية، مثل: مؤلفات جرجي زيدان وبعض كتب طه حسين، وقرأت كذلك كتباً بوليسية، وكانت مطالعاتي الأدبية قليلة.

بعد انتسابي إلى الحزب، كانت معظم الكتب والنشرات التي قرأتها ماركسية. قرأت البيان الشيوعي، والمادية الديالكتيكية (وهذه قرأتها أكثر من ثلاث مرات)، وبعض الفصول من تاريخ الحزب البلشفي،

وكتاب الحزب، والاستراتيجية والتكتيك، ومسألة الفلاحين للرفيق ستالين، كراس الأجور والأسعار لماركس، في سبيل تكوين بلشفي لستالين، كتاب الرأسمال لماركس ترجمة راشد البراوي، وبعض صفحات من مختارات لينين بالفرنسية، كراس ديكتاتورية الديمقراطية الشعبية لماوتسي تونغ، منشورات (صوت الشعب) الصادرة سابقاً، ومنها: صديقنا الاتحاد السوفييتي، وكراسات الرفيق خالد، مثل: ما وراء مكافحة الشيوعية... إلخ، وكنت مشتركاً بجريدة (صوت الشعب)، والآن، أقرأ جريدة (النصر)، وأحياناً جريدة (الإنشاء)، وأقرأ على الغالب الجرائد المعارضة، كما أقرأ جميع مطبوعات الحزب، وجريدة (في سبيل سلم دائم)، و(الأنباء) السوفييتية.

وهكذا، قدَّم لنا المحامي الشيوعي عبد الكريم طيارة في عرضه لما قرأه حتى عام 1950 لوحة عن الأجواء الفكرية لمثقفي اليسار الشيوعي أواخر أربعينيات القرن العشرين، مما يدل على أن لقاح الفكر بالروح الوطنية والطموح للتحرر الاجتماعي الطبقي من ربقة الظالمين يخلق روحاً كفاحية عاشها المناضلون الوطنيون في منتصف القرن العشرين.

كانت الحياة السياسية لدى المحامي الشيوعي عبد الكريم طيارة زاخرة بألوان النضال العلني والسري، دون أن ينكس راية الكفاح، وقد عرف، كما رأينا، سجون طرطوس والمزة وتدمر، وعاش حياة الكفاف، فمهنة المحاماة لم تقدم له لقمة العيش الهنية، لأن انغماسه في المعارك السياسية وما تبعها من ملاحقات وسجون لم يفسح له المجال لمتابعة الدعاوى في المحاكم.

يتبيَّن من بيوغرافيته، التي قدمها إلى الحزب أواخر عام 1951 أنه طرق باب الوظيفة مرتين، أمضى فيهما عشرة أشهر لا غير، أما بقية وقته فكان مكرساً للنضال، دون أن يتلقى مساعدة مالية، إلا مرة واحدة عام 1950، عندما أخذ من الحزب في اللاذقية مقدار 30 ليرة، أنفق القليل منها على مصروفه والباقي للأعمال الحزبية، إذ كانت بيوت الرفاق تغنيه عن مصروف الطعام، أما في طرطوس فكان يقيم في بيت والده.

2- محمد حكيم، الذي وصفه زميله في الدراسة فايز بشور بأنه "رجّال" أي شجاع، ولد في قرية دير البشل في قضاء مصياف، ودرس

في مدرسة اللاييك في طرطوس، وتأثر برئيف خوري، وانتُخِب رئيساً للجنة الطلاب في اللاييك في طرطوس وأمين سر الندوة الأدبية في المدرسة ذاتها. وفي عهد حسني الزعيم، اعتُقل لنضاله ضد الدكتاتورية وفي سبيل الاستقلال الوطني وضد الاستعمار والمشاريع الاستعمارية التي أريد فرضها على سورية. وفي عام 1953، خاض محمد حكيم معركة الانتخابات التي أجريت في ظل حكم الشيشكلي. درس الحقوق، ونال إجازتها، وعمل محامياً في بانياس، وأصبح وجهاً شيوعياً معروفاً في ريف بانياس والساحل بعامة، وتنقصنا المعلومات الدقيقة لمعرفة الدور، الذي كان يمكن أن يلعبه محمد حكيم في الدعوة إلى الشيوعية لأنه يتحدر من عائلة تتزعم عشيرة الخياطين في ريف بانياس. وعندما ترشّح إلى انتخابات البرلمان في صيف عام 1954 باسم مرشح الاتحاد الوطني[164]، نال أصواتاً عديدة بفضل انتمائه العشائري، لكن شيوعيته أسهمت في إفشاله في الانتخابات، حسب رأي رفيقه في الحزب الشيوعي فايز بشور، فالريف المثقل بالتراث العشائري والطائفي لم يكن يتقبل الأفكار الشيوعية، وما نشر عنها من أراجيف وأكاذيب جعل الناس تزوَرُّ عنها. ويذكر فايز بشور أن أخا محمد حكيم، وهو من مقدمي العشيرة، قابل فايزاً، ورجاه أن يعمل على انسحاب أخيه محمد من قائمة "الاتحاد الوطني" المعروفة عند الناس بشيوعيتها، وعندئذ سيكون النجاح مضموناً لمحمد حكيم بصفته ابن رئيس عشيرة، وردد أخو محمد أمام بشور أنه لا يعارض أن يتكلم أخوه في البرلمان باسم الحزب الشيوعي، لكن أثناء المعركة الانتخابية عليه أن يتبع أسلوباً آخر. محمد حكيم رفض الانصياع لرأي أخيه[165]، مفضلاً العمل في سبيل بناء المجتمع المدني والفكر الاشتراكي والانتماء إلى الحزب الشيوعي، على النجاح بفضل المجتمع الأهلي المتمثل في العشيرة وعلاقات ما قبل الحداثة.

لكن محمد حكيم لم يصمد أثناء حملة الاعتقالات، التي شنتها أجهزة عبد الحميد السراج المباحثية على الحزب الشيوعي، وسرعان ما انهار في السجن، واعترف بكل ما يعرف، وأصبح على صلة برئيس جهاز المخابرات في محافظة اللاذقية وليد الغزي، ولنقرأ ما كتبه دانيال نعمة

---

[164]- وهي الصيغة الملطفة لمرشحي الحزب الشيوعي في سائر أنحاء سورية.

[165]- لقاء مع فايز بشور في دمشق بتاريخ 2005/02/10.

في مداخلته أمام اللجنة المركزية في 23 أيار 1969: "هل أخذنا دروساً من تزعم محمد حكيم لمنظمتنا في بانياس، ومن ترشيحه عن الحزب هناك؟ وهل فكرنا بمصير المنظمة هناك بعد المصير الذي آل إليه محمد حكيم زميل الخائن رفيق رضا؟ وهل فكرنا بترشيحات أخرى لأبناء عائلات إقطاعية أو نصف إقطاعية؟ إن الجماهير تقول هناك ما معناه: سادة الجاهلية، هم الآن سادة الإسلام في الحزب الشيوعي"[166].

معنى ذلك أن دانيال نعمة ينتقد موقف الحزب الشيوعي وعدم التزامه بسياسته الطبقية بصفته حزباً للعمال والفلاحين، وهذا الأمر بحاجة إلى دراسة معمقة تنقصنا معطياتها، والسؤال المطروح هو: هل كان دانيال نعمة في موقفه من محمد حكيم متطرفاً يسارياً؟ أم أن حرارة النهوض الاجتماعي والأمل بقيام حزب العمال والفلاحين هو الدافع لهذا الموقف؟ وما مدى تأثير توجه دانيال نعمة ورفاقه المتململين من قيادة خالد بكداش في إصدار هذا الحكم؟

بعض من التقيت بهم من الشيوعيين في المنطقة أعطوا انطباعاً عطراً عن محمد حكيم ودوره في كسب الناس إلى الحزب الشيوعي، فمحمد حكيم حفيد ناصر حكيم من زعماء عشيرة الخياطين "أتى بنصف عشيرته إلى الحزب الشيوعي" حسب تعبير أحدهم، ولعل في هذا الحكم مبالغة، لكنه عبّر عن واقع المجتمع ودور العشائرية فيه، ومشكلة محمد حكيم أنه عندما انضمّ إلى الحزب الشيوعي لم يثقف نفسه بالماركسية، واقتصرت معارفه الماركسية على الأمور العامة، ونرى أن محمد حكيم دخل الحزب الشيوعي من بوابة النضال الوطني، ومن التعاطف مع جماهير الفلاحين العائش بين ظهرانيهم.

يوسف الفيصل أحد الشخصيات في الحزب الشيوعي أورد في ذكرياته أن الحزب الشيوعي لم يكن موفقاً تماماً في اختياره لمحمد حكيم مرشحاً عن الحزب الشيوعي في بانياس ومنطقتها، وهو عضو في الحزب الشيوعي، "لكنه كان يمثل مشيخة دينية، ويأخذ زكاة من الناس، ولم تكن النظرة إليه كمناضل شعبي"[167].

زميل محمد حكيم وصديقه المحامي محمد خونده، الذي درس أيضاً في لاييك طرطوس، وانضم إلى الحزب الشيوعي عام 1955 من بوابة

---

[166]- نقلاً عن "دراسات اشتراكية" العدد الأول، كانون الثاني 1990، ص 170.
[167]- الفيصل، ص 204.

النضال الوطني، وتأثر بموقف الاتحاد السوفييتي المؤيد للعرب في معركة تأميم قناة السويس، ذكر في لقاء معه أنه لم يقرأ كتباً ماركسية، واقتصرت معارفه الشيوعية على الأمور العامة السطحية، ومحمد خونده أصبح عام 1957 مسؤول المنظمة الشيوعية في اللاذقية، وزُجّ به في سجن المزة في الأيام الأولى من حملة الاعتقالات، التي شنتها الأجهزة السلطانية المباحثية ضد الحزب الشيوعي في مطلع 1959[168].

3- الشخصية الرابعة، بل الأولى، المتأثرة بأفكار رئيف خوري الماركسية هو **فايز بشور من صافيتا**، وعنه أخذنا معظم معلوماتنا عن تكوّن الحركة الشيوعية في منطقتي صافيتا وبانياس[169]. كان جده ملاكاً ومثقفاً بالنسبة لزمانه، تعلم عند الخوري، وله كتابات حرقتها زوجته، كما سَجَّل يومياته مهتماً بالطقس، واشترى ميكروسكوباً وكتاباً يرشد إلى كيفية توليد بزر الحرير، ويلفت النظر أن جدّ فايز بشور المتدين الأرثوذكسي، كانت مكتبته تضم القرآن الكريم ونهج البلاغة وبعض كتب العلويين وعدداً من أعداد مجلة المقتطف المصرية. أنجب الجد خمسة صبيان وابنتين[170].

ولد فايز بشور في صافيتا في 19 نيسان 1927، وتعلَّم في مدرسة الإرسالية الأمريكية في صافيتا بين عامي 1931 و1937، وبعد نيله السرتفيكا (الشهادة الابتدائية)، انتسب في خريف 1937 إلى مدرسة اللاييك في طرطوس. ويقول فايز إنه شارك، وعمره عشر سنوات، في مظاهرة الاحتجاج على وعد بلفور في طرطوس، وتمتع بحريته السياسية في وقت مبكر، فكان يقرأ جريدة (**المكشوف**)، ووقف منذ

---

[168]- التقى كاتب هذه الأسطر بالمحامي محمد خونده في مكتبه باللاذقية بتاريخ 2006/10/20، وخونده مؤلف كتاب "تاريخ العلويين وأنسابهم"، الذي اعتمدنا عليه في هذا الكتاب في مواضع عدة. ومع الأسف، كان خونده كتوماً، وتحاشى الإجابة على أسئلتنا، وكان يسد المنافذ بإجاباته اللبقة الحاسمة.

[169]- لقاء مع فايز بشور في منزله بدمشق بتاريخ 2005/02/10.

[170]- يقول فايز بشور بناءً على إحصاءات عيانية أن نسبة من سلم من الموت من أطفال بلدة صافيتا في مستهل القرن العشرين تراوحت بين 40 و45%، أما في ريف صافيتا فكانت نسبة السالمين من الأطفال بين 30 و35%. جاء والد فايز إلى هذه الدنيا عام 1900، وتلقى تعليمه الأولي في صافيتا، ثم ذهب إلى طرابلس، وتعلم في مدرسة الأمريكان حتى الصف التاسع، وعاد إلى صافيتا بناءً على رغبة والده لمساعدته، وكان الوالد ليبرالياً في تعامله مع أولاده، ومنحهم حرية اختيار القدر الذي يريدونه.

نعومة أظفاره ضد هتلر، في وقت كانت أكثرية الناس مع الزعيم النازي ظناً منها ووهماً أنه سيحرر العرب من الاستعمار، ومن هنا كانت سهولة اتصال فايز بشور بأستاذه الماركسي الشيوعي رئيف خوري سنة 1942، وسيره على هداه، واستمد فايز بشور ثقافته الشيوعية من المصادر الفرنسية، إذ كان يشتري الكتب من طرابلس، وما يزال فايز بشور إلى الآن (2005/02/10) مؤمناً بالاشتراكية، وداعياً إلى الماركسية بصيغتها الكلاسيكية، فهو نموذج الثوري، الذي لم تهزه الرياح العاتية، بعكس الكثيرين، الذين انحنوا أمام العاصفة، أو سبقوها في الركض إلى الأمام، أو التكويع (الانعطاف الحاد) والعودة إلى الوراء.

وسنرى أن فايز بشور كان السند الرئيسي الأول لدانيال نعمة في المعركة الانتخابية لعام 1954، ووقف فايز بشور في وجه عائلته ومرشحها رفيق بشور مؤيداً دون هوادة "مرشح الاتحاد الوطني دانيال نعمة"، وهذا من النماذج الفريدة والنادرة، عندما يقف الإنسان المؤمن بمبادئ معينة في وجه العائلية، وهي طيف من أطياف العشائرية، وهذه الحالة في مثال فايز بشور تدل على أن أفكار المجتمع المدني بأحزابه العقائدية، أخذت تطرق أبواب المجتمع الأهلي بقلاعه العشائرية والطائفية، فهزّتها إلى حين هزّاً عنيفاً، وأحدثت خللاً فيها في منتصف القرن العشرين، دون أن تتمكن من زعزعة أركانها.

4- الشخصية الخامسة المتأثرة بالأجواء العلمانية لمدرسة اللاييك هي **حبيب حسن**، المولود عام 1927 في القليعة بالقرب من مصياف، وكان من تلاميذ مدرسة اللاييك في طرطوس، ويبدو أنه تأثر بالأجواء العلمانية والوطنية السائدة، وشق طريقه باتجاه الفكر الماركسي. أصيب في سنّ الشباب بمرض السل، الذي نغص حياته، ولم يشف منه إلا بعد المعالجة في لبنان، وكان من الناشطين في **"حركة الإصلاح الريفي"** المناهض للتخلف والعشائرية، التي امتد نشاطها بين الشباب المثقف المتنور في أرياف مصياف وبانياس وصافيتا وطرطوس،وبسبب نشاطه المتميز في أوساط الفلاحين اعتقله رجال الدرك، وضربوه، وهددوه إن قام بزيارة قرى الجبل، فاضطر للتخفي فترة بسيطة، ثم عاد إلى الجبل.

أواخر أربعينيات القرن العشرين تمّت ترجمة كتاب ستالين "المادية

الديالكتيكية والمادية التاريخية" إلى اللغة العربية، وقد أثَّرت أطروحات الكتاب في عدد من الشباب الناهض الطامح إلى الانعتاق والتحرر في سائر أنحاء سورية، ومنها منطقة الساحل وجباله، وكان حبيب حسن من أولئك الشباب، الذين خاضوا نقاشاً فلسفياً لاكتشاف أسرار المجتمع الإنساني، ووصل بعضهم إلى حقل الفكر الماركسي، وهذا يعني أن حبيب حسن سار باتجاه الحزب الشيوعي عبر حقول النقاشات الفكرية والسياسية الدائرة في منتصف القرن العشرين، وبفضل تلك الخلفية الفلسفية التحررية أعطى حبيب حسن الحزب الشيوعي كل ما يملك، وأصبح في خمسينيات القرن العشرين قائداً فلاحياً معروفاً كشيوعي، وله تأثيره الواضح في أرياف صافيتا ومصياف وطرطوس[171].

عندما شرعت أجهزة المباحث السلطانية في الجمهورية العربية المتحدة حملتها الظالمة على الحزب الشيوعي، التجأ حبيب حسن مع زوجته أميرة علي ديب إلى لبنان هرباً من الاعتقال، وهناك انتظم في لجنة قيادية من أبناء محافظة اللاذقية لتنظيم العمل السري للحزب الشيوعي في المحافظة، وقام بالتدريس في إحدى المدارس، واستأجر بيتاً كان في الوقت نفسه مركزاً للجنة المنطقية لمحافظة اللاذقية، التي كانت تقود العمل السري من لبنان أيام الجمهورية العربية المتحدة.

بعد انفصال سورية عن مصر في أيلول 1961، عاد حبيب حسن إلى منطقته، ونشط في إعادة تنظيم الحزب الشيوعي المثخن من جراح الطغيان، وخاض معركة الانتخابات النيابية لعام 1962 مرشحاً عن منطقة مصياف.

تلقي مذكرات جرجس عيسى[172] الأضواء على نشاط حبيب حسن وتفانيه في خدمة قضية تحرير الفلاحين والسير في طريق الخلاص من الظلم الاجتماعي والتحرر الوطني، كتب عيسى:

"انتسب حبيب حسن إلى الحزب الشيوعي أثناء تدريسه في ثانوية

---

[171]- هذا ما أفادنا به يونس صالح في لقاء معه بدمشق بتاريخ 2006/08/17، وسيرد ذكر عائلة صالح في فقرة لاحقة.

[172]- جرجس عيسى من مواليد مشتى الحلو، تخرَّج في دار المعلمين الابتدائية في حلب، وناضل في صفوف الحزب الشيوعي منذ نعومة أظفاره، وكان من الكوادر النشيطة الموثوق بها، وهو يقيم بعد "استراحة المحارب" في مسقط رأسه، وقام بكتابة مذكراته حول نشاطه في الحزب الشيوعي، وهي ما تزال مخطوطاً ينتظر النور.

ابن خلدون في مشتى الحلو"، وكتب جرجس أيضاً: "اعتنق حبيب المبدأ الشيوعي عن فهم وثقافة، وانخرط في النضال العملي، وتحمَّل المشاق معنا، ولم تستطع بيئته المشيخية أن تؤثر على نضاله، لا بل نقل النضال إليها، واستخدم نفوذه لصالح الحزب، وقد بنينا وإياه العديد من المنظمات في قرى القليعة ومصياف وعين الذهب ودوير رسلان والدريكيش وغيرها، وكان مثالاً للرفيق المبدئي الطيب. لوحق عدة مرات، وتحمَّل مرارة الجوع والملاحقة معنا، وكان ذا صفات إنسانية وأخلاقية رفيعة..".

وتزخر مذكرات جرجس عيسى بنشاط حبيب حسن ودوره القيادي في منظمة الحزب الشيوعي في كل من مصياف وصافيتا وطرطوس. وعلى أثر الحملة القاسية ضد الحزب الشيوعي بعد 8 آذار 1963، تمكنت قوى الأمن من اعتقال حبيب حسن، وحجزته في سجن اللاذقية. وبعد خروجه من السجن لم تنقطع صلته بالحزب الشيوعي.

انتقل حبيب حسن بعد مدة من قريته القليعة إلى مدينة حمص، وسكن فيها، وفتح مكتباً للمحاماة، وأسست زوجته أميرة علي ديب مدرسة خاصة لتعليم البنات.

ويمضي جرجس عيسى واصفاً في مذكراته خاتمة حياة حبيب حسن بالفقرة التالية: *"وذات يوم، وبينما كان يقود سيارته الفولكس فاكن، صدمته سيارة شحن عسكرية سحقت سيارته الصغيرة، وأودت بحياته"*، وختم عيسى مذكراته حول حبيب حسن: *"... وعندما شُيِّع جثمانه في ضيعته القليعة، ذهبنا سيراً على الأقدام في وفد حزبي للمشاركة في التشييع. وهكذا، ختم حبيب حياته النضالية، ولا يسعنا إلا أن نحفظ له الذكر الطيب والمسار الصالح في حياته، وقد أنجب شباباً مناضلين وجيدين، ما يزالون يتابعون مسار النضال حتى الآن، ويتذكرون نضال والدهم وتضحياته"*.

اللافت للانتباه أن حبيب حسن أنجب شابين هما: فرج الله وهيثم، وواضح من تسمية ابنه البكر أن حبيباً أراد إحياء ذكر فرج الله الحلو القائد اللبناني الشيوعي المتفاني، الذي اغتالته "المباحث السراجية" في أقبيتها في دمشق. والأمر الآخر الجدير بالذكر، أن ولدا حبيب سارا على خط والدهم في تبني الفكر التنويري والتقدمي، حسبما أفادنا يونس الصالح.

5- عائلة الشيخ صالح ديب واتجاه بعض أفرادها نحو الماركسية

عاش رجل الدين الشيخ صالح ديب في قلعة بيت الشيخ ديب إلى الشرق من دريكيش، وتوفي في عشرينيات القرن العشرين، وهو ينحدر من عشيرة المليلاتية المعروفة بكثرة عدد رجال الدين في صفوفها. أنجب الشيخ صالح عدداً من البنين، ومنهم كامل، الذي تلقى تعليمه على يد الشيخ سليمان الأحمد، وتأثر باتجاهه التنويري. عمل مدير ناحية في عدد من النواحي، وأدركته المنية في تسعينيات القرن العشرين. يلفت النظر أن أولاد كامل صالح ساروا في التيار النهضوي الحديث النشأة في الجبل العلوي، وانضم بعضهم إلى الحزب الشيوعي.

الابن البكر لكامل، **محمد كامل صالح**[173]، درس في مدرسة اللاييك في طرطوس، وتأثر بأجوائها التنويرية. انتسب إلى الكلية العسكرية، وترّفع في صفوف الجيش السوري، ووصل إلى رتبة عقيد، وأحد تقارير الحزب الشيوعي يشير عام 1951 إلى أن محمد كامل صالح كان شيوعياً سابقاً، وله نشاط في حمص، وهو شاعر، وله عدة قصائد ثورية، وكان ضابطاً في الشرطة العسكرية، وفصل منها بسبب ميوله الشيوعية. وفي أيام الجمهورية العربية المتحدة، جرت تصفية جميع الضباط ذوي الميول اليسارية[174]، ومنهم الضابط محمد كامل صالح، فانتسب إلى كلية الحقوق. وبعد تخرجه، افتتح مكتباً للمحاماة في دمشق، ونشط في أوساط لجان التضامن والسلم في أواخر ستينيات القرن العشرين، والمحامي محمد كامل صالح شاعر ذو طبع مزاجي، شأن عدد من الشعراء.

صلاح أحمد، الابن الثاني للشيخ صالح ديب، دخل كلية العلوم، وتخرَّج مجازاً في الرياضيات، وكان من نشطاء **"حركة الإصلاح الريفي"**، التي كان من أعضائها حبيب حسن، كما ذكرنا. ترشَّح لانتخابات المجلس النيابي في عامي 1953 و1954 "مستقلاً"، مستنداً إلى تأييد العشيرة أولاً، والخط التنويري الذي دعا إليه دون أن يحالفه النجاح. بعد إيفاده إلى فرنسا لنيل درجة الدكتوراه في الرياضيات، كان صلاح أحمد قريباً من حلقة الطلاب السوريين الشيوعيين الدارسين في

---

[173]- سيرد ذكره لدى الحديث عن حزب الإصلاح الريفي في فصل لاحق.

[174]- عرفنا منهم، عدا محمد كامل صالح، عرفان لوستان والقاص فارس زرزور ومحمد قولي، الذي أدار فيما بعد مكتبة ميسلون التي كانت زاخرة فيما مضى بالكتب التقدمية.

باريس.

ورد في آخر الفصل الثاني (النهضة في الساحل السوري) من الباب الأول ذكر لتقرير عن حزب (حركة) الإصلاح الريفي، رفعه إلى قيادته أوائل صيف 1951 أحد المسؤولين الشيوعيين في الجامعة السورية، وهو سيرد بنصه الحرفي في الملحق.

يذكر صاحب التقرير أن صلاح أحمد اتصل به في الجامعة ربيع 1951، وقدَّم له معلومات عن حركة الإصلاح الريفي والأوضاع في الجبل، وسننقل من التقرير ما كتبه المسؤول الشيوعي في الجامعة السورية عن ذلك اللقاء، وما ورد عن صلاح أحمد.

"... صلاح أحمد طالب في كلية العلوم، شاب طيب ذكي وصديق للحزب، وكان قد قدَّم طلباً في العام الماضي للانتساب إلى الحزب، لكن الحزب رفض طلبه هذا باعتبار أن له أخاً رئيساً في الشرطة العسكرية، وأخوه هذا شيوعي سابق اسمه محمد كامل... وصلاح أحمد هذا هو الذي حدثني عن هذه الجمعية (يقصد حركة الإصلاح الريفي)، وطلب مني رأي الحزب، وهو مستعد ليفعل كل ما نشير عليه به، حتى إذا رأينا تخريب هذه الجمعية، وقد ساعدنا فيما سبق في العمل بين الطلاب الجمهوريين، ومستعد لأن يسير إلى جانبنا على طول الخط...".

يونس صالح، وهو الابن الأصغر لكامل، وُلِدَ في اللاذقية عام 1940، وانتقل مع العائلة، التي استقرت في دمشق عام 1949. انتسب يونس عام 1956إلى الحزب الشيوعي، وهو فتى يافع لم يتجاوز الستة عشر ربيعاً. كان يونس طالب بكالوريا في الثانوية الأهلية بدمشق عندما اعتقلته المباحث السلطانية في تموز 1959، وأودعته سجن المزة دون محاكمة، وبقي في السجن إلى ما بعد انفصال سورية عن مصر. بعد خروجه من السجن، تقدَّم إلى امتحانات البكالوريا، ونشط في أوساط اتحاد الشباب الديمقراطي وقيادته القريبة من الحزب الشيوعي.

أسماء صالح، ابنة كامل، كانت في خمسينيات القرن العشرين نشيطة في صفوف الطلاب الشيوعيين، وكذلك في المنظمات الدولية، واعتقلت أيام الجمهورية العربية المتحدة في سجن المزة، وبعد خروجها تزوجت من القيادي الشيوعي الحمصي علاء الدين الرفاعي، الذي كان من نزلاء سجن تدمر أواخر 1952 وأوائل 1953 مع دانيال نعمة، وما تزال أسماء على صلة بالحركة الشيوعية رغم "النائبات".

تذكر أسماء الصالح في رسالة لها: "إنني قد أنسى أنكم علقتموني من رجليَّ، مخالفين في ذلك كل تقاليد بلادنا العربية، وأن جلادكم قد

انهال عليَّ ضرباً بالسياط، حتى أدميت قدماي، ولن تُمْحَ من ذاكرتي صورة ذلك الوحش، الذي جرّني من شعري على أرض السجن، ولكن شيئاً واحداً لن أنساه مدى الحياة، ذلك أنكم حاولتم أن تطعنونني في شرفي، في كرامتي، وفي أخلاقي، عندما تنسبونني زوراً للخيانة، خيانة وطني والحزب الشيوعي القائد العظيم". وتمضي أسماء الصالح واصفة حياة العذاب في سجن المزة وزنازينها[175].

6- ديب قطيرة، من مواليد 1930 في الكفرون إلى الجنوب من مشتى الحلو. تعلّم ديب في مدرسة المعارف الحكومية، ونال السرتفيكا في سنٍ متأخرة عام 1946، وعندما افتتحت مدرسة ابن خلدون الخاصة في مشتى الحلو عام 1948، كان من طلابها[176]. حضر اليافع ديب عام 1942 اجتماعاً للحزب الشيوعي في الكفرون، تحدَّث فيه بدر مرجان القادم من طرابلس الشام. وقبل الحزب الشيوعي، كان الحزب السوري القومي ينشط في الكفرون، عندما زارها أنطون سعادة، كما وجد في الكفرون "نواة من الأفندية لها علاقة بالكتلة الوطنية في دمشق"، وكان شاكر الخوري، وهو فلاح غني ووجيه، معروفاً بكتلويته.

كان التنافس والخلاف بين السوريين القوميين والشيوعيين على أشده في المنطقة، ومنها الكفرون، وأثناء احتفالات الشيوعيين عام 1951 بعيد الجلاء، قذف القوميون السوريون وابلاً من الحجارة على المحتفلين، مما أدى إلى مقتل الشيوعي رئيف بركات دعمش.

لوحق ديب قطيرة في صيف 1952 على أثر قيامه مع كامل العلي بتوزيع مناشير شيوعية في قرية البارقية، ونصفها ملك أحد الإقطاعيين، الذي قدّم تقريراً للدرك، وهؤلاء أدرجوا اسمه على لائحة الملاحقين.

مع بداية العام الدراسي في خريف 1952، وذات يوم، والطالب ديب قطيرة، تلميذ الصف العاشر، يستمع في ثانوية ابن خلدون إلى درس في اللغة العربية للأستاذ أحمد عمران، طرق الباب مدير المدرسة حنا إلياس معلوف، وطلب من ديب الذهاب إلى غرفة الإدارة، حيث كان

---

[175]- نقلاً عن ذكريات الفيصل. ص 329.

[176]- ذكر ديب أن ثلاث مدارس خاصة متوسطة (إعدادية) قامت في المشتى، وهي: مدرسة الموارنة، ومدرسة الحزب السوري القومي، ومدرسة ابن خلدون ذات الصبغة اليسارية، التي عاشت سنتها الأولى في بيت والد دانيال نعمة، الذي كان مدرساً فيها.

الدرك بانتظاره، فاعتقلوه، وساقوه إلى المخفر، وهناك بات ليلة في غرفة (سجن) المخفر مربوطاً بسلسلة حديدية، كي لا يهرب. وفي الصباح، أراد درك مخفر المشتى ترحيله بالسيارة على حسابه إلى مخفر صافيتا، فرفض السفر بالسيارة، لأنه لا يملك أجرة النقل بها، ولهذا اقتاده دركيان يمتطيان صهوة جواديهما، وهو يسير أمامهما مكبلاً بالقيد[177]. وصل الدركيان قرية العديدة، وتناولا طعام الغداء على مائدة مختار القرية، وانتظرا وصول دورية الدرك القادمة من صافيتا، كي يسلماها المعتقل ديب. وهكذا سار ديب على قدميه أمام دورية درك صافيتا إلى أن دخل سجن صافيتا، وبات ليلته فيه. وفي الصباح، دخل قائد فصيل درك صافيتا بهدف التفتيش، فوقف جميع السجناء إلا ديباً. وتحت إلحاح المساجين عليه وقف "احتراماً" لقائد الفصيل، وكان جزاء تمنعه عن الوقوف في البدء "ضربة كف" صفعه بها قائد الفصيل، وهو يكيل له ولوالده الشتائم. دورية درك صافيتا ساقته في الصباح، وهو يسير على قدميه، ويداه مغلولتين بالقيد، غرباً باتجاه مخفر خربة المعزى، وهناك استلمته دورية درك قادمة من طرطوس، وسارت به إلى سجن طرطوس، حيث بات ليلته الثالثة. صباحاً ساقته دورية طرطوس شمالاً باتجاه مخفر نهر السن بالقرب من بانياس، لتسليمه إلى دورية درك جبلة. يصف قطيرة رئيس دورية جبلة بأنه شاب أسمر طويل، سأل زميله رئيس دورية طرطوس عن تهمة الشاب الموثق القيد، فأجاب: بأنه شيوعي. وما كان من رئيس دورية جبلة إلا أن فك وثاقه، ورمى القيد جانباً[178]، وذلك أمام أنظار عدد من الفلاحين. وعندما سارت دورية جبلة، وابتعدت عن مخفر السن، سأل رئيس الدورية ديباً: سأتركك دون كلبجة، فهل تعدني أنك لن تهرب؟ فأجاب ديب: أعدك بعدم الهرب. وعلم ديب من رئيس الدورية أن اسمه **محمد حسن آله رشي** من دمشق، وهو قريب النقابي الشيوعي **لطفي آله رشي**. في مخفر جبلة، طلب آله رشي من زميله الدركي المناوب فريد أن يرسل ديب إلى السجن، كي يبيت مع المساجين "لأنو ما معه يطأ"، لكن الدركي فريد المعادي للشيوعية ترك ديباً ينام على حصير في غرفة زجاجها مكسور، وعندما يستغرق في النوم يرش عليه ماء من

177- استخدم ديب كلمة كَلَبْجَة تعبيراً عن القيد، ويبدو أن الكلمة تركية.

178- استخدم ديب تعبير: "فتح رئيس الدورية الكلبجة، وشلحها على الأرض".

سطل في الغرفة، كي يزعجه[179]. وفي الصباح، قال ديب قطيرة، الشاب المتحمس والمعتقد أن الثورة الاشتراكية على الأبواب، للدركي فريد: "بدّك تأكل قتل من الشيوعيين بقدر ما عذبتني في الليل". وفي الصباح كان الدركي آله رشي قد رتب الأمور لتخفيف عذاب ديب، وترأس الدورية من جبلة إلى اللاذقية، وسار ديب دون قيد. وصل السجين ديب مع الدورية إلى اللاذقية مساءً، وقامت دورية درك اللاذقية بتحويله وتسليمه إلى الثكنة العسكرية، حيث ألقوا به في زنزانة أبو ريحة. وبعد أسبوع من الإقامة في الزنزانة، اقتيد إلى المحكمة. قاضي الفرد العسكري أعلم ديب بفحوى التقرير الذي يدينه، ومفاده أنه وزّع مع كامل العلي مناشير شيوعية في البارقية[180]. أقر القاضي بعدم وجود قضية جزائية ضد ديب، وحوّله إلى النيابة العامة في اللاذقية. النائب العام قرر سجنه، فأُرسِل إلى السجن المدني في اللاذقية، وهناك التقى بهزيم محمود، الفلاح الشيوعي من بشرايل، والمناضل ضد الإقطاعية، الذي لفَّق السوريون القوميون ضده تهمة، سنشير إليها في فصل لاحق. بقي ديب شهراً في سجن اللاذقية، ولم تكلل جهود المحامي دانيال نعمة لإطلاق سراحه بالنجاح. بعدئذ حُوِّل إلى سجن طرطوس، حيث قرر قاضي التحقيق الاستمرار في اعتقاله. وهناك في سجن طرطوس، التقى بعدد كبير من الفلاحين المعتقلين بالتهم التالية: نقل الحطب من الحرش إلى البيت، زراعة دخان غير مرخص بزراعته، وجود كومة زبل في الطريق لم يقم الفلاح بنقلها. بعد دراسة وضع المساجين والحديث معهم، رفع المساجين بمبادرة من ديب الشعارات الواقعية التالية: الإسراع في محاكمة المساجين، الذين مضى عليهم وقت في السجن. إطلاق سراح المساجين الموقوفين دون ذنب. تحسين نوعية الأكل ونظافته، والاعتناء بنظافة السجن.

وبعد تقديم المطالب وعدم تنفيذها من إدارة السجن أصبح الجو ملائماً لإعلان الإضراب عن الطعام، وقد ساعد على قيام الإضراب

[179]- اليطأ تعني هنا فرشة النوم. وفي السجن، سيساعده السجناء، ويقدمون له أغطية للنوم.

[180]- مقدِم الشكوى هو قسطنطين كوزك مالك نصف أرض البارقية، وهو من صغار الإقطاعيين، وعضو في الحزب السوري القومي الاجتماعي.

وجود 12 سجيناً سياسياً شيوعياً[181]، كانوا هم العمود الفقري للإضراب عن الطعام. وبعد مرور 36 ساعة على الإضراب، قامت إدارة سجن طرطوس بفصل المساجين الشيوعيين المحرضين على الإضراب عن الطعام، ووضعهم في قاووش مستقل، ومن ثمّ ترحيل ثلاثة منهم إلى سجن حمص. استمر الشيوعيون السجناء في الإضراب وحدهم، وبعد أربعة أيام من إضرابهم زارهم النائب العام، ولم يستطع ثنيهم عن الإضراب، الذي استمر عدة أيام. وفي اليوم التاسع، نقلتهم سيارة شحن عسكرية من سجن طرطوس إلى سجن اللاذقية، وألقي بهم في الزنازين، وتمكَّن المحامي دانيال نعمة من إخلاء سبيل خليل شحود، وباءت جهوده بالفشل في إطلاق سراح الآخرين. بعد ذلك نـُقِل ديب قطيرة إلى سجن قلعة دمشق، حيث التقى في السجن بعدد من الشيوعيين، ومنهم ظهير عبد الصمد. استمر اعتقال ديب مدة سنة قضاها في سجون اللاذقية وطرطوس ودمشق. وعندما عاد إلى بلدته الكفرون، استأنف نشاطه بعزيمة لا تلين...

7- ميشيل عيسى المناضل الشيوعي الشعبي

رأت عينا ميشيل عيسى (ميشيل عيسى جرجس) النور في بلدة مشتى الحلو بتاريخ 13 كانون الأول عام 1930، وقد دفعت أجواء المشتى المسيَّسة الشاب اليافع للانتساب إلى الحزب الشيوعي في صيف عام 1949، عندما دعاه المسؤول في المشتى إلى أول اجتماع سري يحضره.

تلقى ميشيل عيسى تعليمه الابتدائي في قريته المشتى، وأنهى المرحلة الإعدادية في إحدى مدارس صافيتا، وبعد حصوله على البروفيه (الكفاءة)، نجح في مسابقة الدخول إلى دار المعلمين الابتدائية في حلب، وهناك استأنف نشاطه في صفوف الحزب الشيوعي، واختير مسؤولاً عن المطبوعات السرية، التي كان يصدرها الحزب الشيوعي.

وذات ليلة من العام الدراسي 1949–1950، اكتـُشِفت تلك

---

[182]- يذكر ديب منهم: أحمد ترسيس، أحمد حمصية، محمد عبود، عيسى كرم، خليل شحود، رياض اليازجي، بشور الجميل، وهو متقدم في السن، اعتقلوه كرهينة كي يسلم ابنه الفار نفسه، إذ وجدوا أثناء تفتيش بيته في المشتى صورة خالد بكداش، وهي وحدها تكفي للاعتقال، حسبما ذكر ديب.

المطبوعات السرية في حوزته، وصدر قرار من الإدارة بطرده من دار المعلمين، فعاد إلى المشتى ليستأنف نشاطه الوطني والسياسي.
والاستمارة التي قدمها إلى الحزب في أيلول من عام 1951 تبيِّن نشاط ميشيل العيسى، ولنقرأ ما كتبه في الاستمارة:
(اشتركت في مظاهرة أول أيار (عيد العمال العالمي) في حلب عام 1950، وشاركت في احتفال يوم الطفل في حلب عام 1950، وشاركت في مظاهرة في القرية (المشتى)، وكنت المنظم، وشاركت في مظاهرة طلابية ضد شركة الريجي، وشاركت في مظاهرة للتضامن مع مصر، وشاركت في مظاهرة في ذكرى سلخ لواء إسكندرون، وشاركت في مظاهرةٍ طيارةٍ في حلب، كما شاركت في مظاهرة 10 آب (1951) في دمشق).
في صيف عام 1951 تقدَّم ميشيل عيسى لنيل شهادة البكالوريا حراً دون الانتساب إلى أي ثانوية، ولم تكن نتيجة الامتحان قد أعلنت ساعة كتابة الاستمارة في أيلول عام 1951.
تقدم لنا الاستمارة الجو الثقافي الذي عاشه الشاب الشيوعي، ودوَّنه في الاستمارة على النحو التالي:
(طالعت قبل دخولي الحزب قصصاً وروايات عديدة، منها: كتابات لجبران خليل جبران ومصطفى المنفلوطي، وطالعت من الكتب الماركسية: البيان الشيوعي، القضية الوطنية لستالين، وما هي الماركسية؟، في سبيل تكوين بلشفي، الحزب لستالين، معظم فصول تاريخ الحزب البلشفي، مسألة الفلاحين، المسألة الوطنية لستالين، أعداد من (الأنباء) السوفييتية، أعداد من (الطريق)، (أديب في الطريق) لعمر فاخوري، ونشرات حزبية عديدة: ما وراء حملة مكافحة الشيوعية؟ للرفيق خالد، ما وراء الانقلاب العسكري الأول في سورية؟، مؤتمر العمال السوريين، تقرير الرفيق خالد، جريدة (نضال الشعب)، النشرات الداخلية، وأقرأ الآن (في سبيل سلم دائم)، وأطلع من مرة إلى أخرى على بعض الجرائد البرجوازية كـ(النصر)، ثم إني أقرأ جريدة (السلام) و(الطريق)، وأقرأ الآن: مسألة الفلاحين، المسألة الوطنية وديكتاتورية الديمقراطية الشعبية لماوتسي تونغ، خطة الحزب، النشرة الداخلية الأخيرة، والنشرة الداخلية المتعلقة بذكرى ثورة أكتوبر).
هذه الجردة من الكتب والنشرات، التي كان يقرؤها أحد كوادر

الحزب الشيوعي في الأرياف، تبيِّن المستوى الفكري لذلك الكادر البعيد عن مكتبات المدن ونشاطها الثقافي.

هذه الحصيلة الفكرية المتواضعة بمنظور هذه الأيام، والغنية في ذلك الوقت، أهَّلت المناضل الشعبي الشيوعي للقيام بدور بارز في العمل بين الفلاحين في أرياف صافيتا وجوارها، كما أهَّلته للمشاركة في تنظيم المؤتمرات الفلاحية السرية، التي سنتحدث عنها في فصول لاحقة.

ومع أن الوثائق المتوفرة بين أيدينا تتجنب، بسبب سرية العمل، ذكر الأسماء الحقيقية للنشطاء، إلا أن بصمات ميشيل عيسى تبدو واضحة من خلال أحاديث الآخرين ممن عمل وإياهم في تلك المرحلة، في النصف الأول من خمسينيات القرن العشرين، فميشيل عيسى كان في تلك الفترة من الجنود الثوريين المجهولين، الذين لا يكلون ولا يملون في العمل من أجل القضية، التي نذروا أنفسهم لها.

عندما هبَّت أعاصير المباحث السلطانية (السرَّاجية)، اعتقل ميشيل العيسى[182] في صيف عام 1959، وتعرَّض لتعذيب شديد، دون أن ينبس ببنت شفة أو معلومة يتمنى الطغاة الحصول عليها، وكان في سجن المزة ضمن 71 شيوعياً معتقلاً صمدوا حتى النهاية، رغم صنوف التعذيب الشديد الذي طالهم، وكان أحد ثلاثة شكلوا قيادة التنظيم الشيوعي داخل سجن المزة (والاثنان الآخران هما مراد القوتلي وعمر السباعي).

بعد خروجه من السجن أيام الانفصال، عمل في مطابع الحزب السرية في دمشق، وكان أحد الكوادر الفنية الموثوقة، التي اعتمدت عليها قيادة الحزب، وفي مقدمتها دانيال نعمة.

أرسله الحزب إلى الجزيرة أواسط ستينيات القرن العشرين، ليعمل بين فلاحي تلك المنطقة، ويساعد منظمة الحزب هناك في عملها، ثم أوفده الحزب إلى موسكو للدراسة الحزبية مدة سنتين، وبعد عودته أسهم بنشاط في التحضير لمؤتمر الحزب الثالث عام 1969، وانتخب عضواً

---

[182]- كان ميشيل عيسى أحد الكوادر الموثوقة المختصة بنقل المطبوعات والأشخاص والمعلومات عبر طرق سرية بين لبنان وسورية. وذات مرة، كان ميشيل عائداً من لبنان، ودخل في الكفرون إلى بيت ميخائيل الفرح، ويبدو أن أحد المخبرين أعلم الشرطة، التي سرعان ما حاصرت البيت، واعتقلت ميشيلاً، ونقلته إلى اللاذقية، ومنها إلى سجن المزة (من لقاء أجراه خالد نعمة مع جرجي زكزك في 24 حزيران 2007).

في اللجنة المركزية.
ليس من أهداف هذا الكتاب متابعة ما جرى بعد عام 1970، لكن لا بد من القول إن ميشيل عيسى بقي ملتزماً بالقضية الاشتراكية، التي نذر نفسه لها، إلى أن وافته المنية إثر هجمة سكرية حادة يوم ميلاده في 13 كانون الأول عام 1992.
ولا شك أن أرشيف الحزب الشيوعي في (الجبل العلوي) يزخر بعدد من الوثائق المهمة المتعلقة بالفلاحين ونضالهم، التي خطها قلم ميشيل العيسى، أو أسهم في إعدادها وصياغتها، لكن سرية العمل آنذاك، واتخاذ أسماء حركية، تدفعنا كي نترك للمستقبل أن يكشف عن الدور الذي قام به ميشيل عيسى تلميذ دانيال نعمة، والذي كان مثال الجندي الثوري المجهول والمناضل الشعبي الذي لا تلين له قناة.

8- حنا دياب مرشح الاتحاد الوطني لبرلمان 1954

ولد حنا دياب عام 1922 في قرية عيون الوادي ذات الملكيات الصغيرة الموزعة توزيعاً شبه متساو. هاجر والده إلى البارغواي، ولم يعد، تاركاً زوجته وابنه حنا وبنتاً صغيرة. كان الوالد يرسل مبلغاً يسيراً من المال لإعاشة عائلته.
وقد شد من أزر حنا وأمه خاله امطانيوس الخوري، الذي كان محباً للعلم، وحالته المادية جيدة، وفتح في القرية عام 1925 معملاً صغيراً للحرير، ولم ينجب الخال ذرية، لهذا اهتمّ بحنا، وساعده مادياً ومعنوياً.
تعلـَّم حنا في مدرسة القرية الابتدائية الرسمية، ونال عام 1937 السرتفيكا الفرنسية (شهادة الدراسة الابتدائية باللغة الفرنسية)، لكنه لم يتابع دراسته، وعمل في الفلاحة. سنة 1943 طلب حنا من خاله أن يساعده على الاستمرار في التعلـّم، وهكذا انتسب إلى مدرسة اللاييك في طرطوس، وتمكن في سنة واحدة من نيل شهادة البروفيه (الكفاءة). وفي اللاييك تعرّف على دانيال نعمة، الذي كان ينشد في كل مناسبة أشعاراً للمتنبي. وفي اللاييك حفظ حنا قصيدة لمدرس الأدب العربي رئيف خوري بعنوان: "الفقيرة النائمة". بعد مدرسة اللاييك، انتقل حنا إلى المدرسة الغسانية للروم الأرثوذكس في حمص، ونال عام 1946 البكالوريا العلمي، وفي مدرسة الغسانية تفتحت عيونه على الاشتراكية، وكان في المدرسة تنظيم شيوعي بارز.

عُيّن حنا معلماً في الدريكيش للعام الدراسي 1946-1947، والمسافة بين الدريكيش وعيون الوادي نحو عشرين كيلو متراً كان يقطعها حنا سيراً على الأقدام في مدة أربع ساعات. وذكر حنا أن الملكيات الصغيرة تسود في الدريكيش مع هيمنة معنوية لآل العباس، ولم يكن هناك نشاط سياسي ظاهر آنذاك، وتعرَّف في الدريكيش على علي بركات، الذي كان ناقماً على الإقطاع والظلم، وكنا قد رأينا أن علي بركات كان زميلاً لدانيال نعمة في تجهيز حلب، وزارا معاً مكتب الحزب الشيوعي في المدينة.

عام 1947 تقدَّم حنا إلى مسابقة دار المعلمين العليا، ونجح في المسابقة دون وساطة أو موافقات أمنية، وأصبح طالباً في كلية العلوم، ونشط في صفوف الطلاب الشيوعيين، واعتقل أيام الشيشكلي وهو يتظاهر ضد الحكم الدكتاتوري.

ذكر حنا أن بدر مرجان أول من أدخل الشيوعية إلى المنطقة في عامي 1940 و1941، ولا يزال يذكر أن "موريس صليبي المعروف بأبي علي كان يأتي إلى عيون الوادي سيراً على الأقدام، وكثيراً ما كانت ثيابه مبتلة بماء المطر، وكان أبو علي يحمل كيلة فيها قطع من الصابون بذريعة أنه بائع صابون، والغرض هو تغطية نشاطه التنظيمي الشيوعي أثناء تنقله بين القرى سيراً على الأقدام في معظم الأحيان".

على مشارف انتخابات المجلس النيابي لعام 1954 أبلغ دانيال نعمة حنا دياب أن قيادة الحزب قررت ترشيحه عن منطقة تلكلخ، وعلى إثرها حضر حنا اجتماعاً في دمشق لمرشحي الاتحاد الوطني في سورية ترأسه خالد بكداش، وقال حنا: "إن حكي خالد بكداش يعبئ الرأس".

أثناء لقائنا بحنا دياب في بيته بعيون الوادي قدَّم لنا صورة عن المعركة الانتخابية، التي عاشها في خريف 1954 كما يلي:

- اعتاد الناس أن يكون بيت المرشح للنيابة متميزاً بمظاهر الوجاهة، وعندما أتت لزيارته، في بيته البسيط العادي القائم على سواميك وسطحه من تراب، مجموعات من الشيوعيين دُهشوا، واندفعوا للدعاية له، فهو بحق مرشح الفلاحين.

- قدّم له الحزب الشيوعي اللبناني سيارة مع سائقها، كي يستطيع التنقل بين القرى للدعاية الانتخابية، ونظَّم الحزب الشيوعي لحنا دياب

ودانيال نعمة أربعة مهرجانات انتخابية في كل من الحواش وحب نمرة ومشتى الحلو والكيمة.

- رغب أحد مرشحي الدنادشة مساومة دياب على تبادل الأصوات، فأجابه دياب: "لا أستطيع إجبار المؤيدين لي على انتخابكم، فأنتم تهدمون بيوت الفلاحين".

- قبل موعد الانتخابات بيومين التقى دياب بأحمد ضحية، وهو شيوعي وشاعر ومدرس لغة عربية، أخبره ضحية: "إن المرشح الدكتور وأستاذ الحقوق في الجامعة السورية محمد الفاضل زار قرى شين والقبو والصويري"، فقالوا له: "معك مصاري نصوّت لك، ما معك مصاري لا نصوت لك"، ولهذا قرّر الفاضل الانسحاب من الانتخابات، فاقترح ضحية على دياب زيارة محمد الفاضل والاتفاق معه للدخول في قائمة واحدة. أثناء الزيارة، قال محمد الفاضل: "هذا الشعب لا يمكن أن يتطوَّر، وأنا لا أريد النجاح عن طريق المال، إضافة إلى أنني لا أملكه". وبعد النقاش وتشجيع دياب للفاضل، اتفق الاثنان على التحالف الانتخابي.

- خُصِّص لقضاء تلكلخ نائبان، أحدهما مسيحي والآخر مسلم. وتألفت القوائم الانتخابية على النحو التالي: إسبر اليازجي متحالف مع عبد الكريم الدندشي. آل عبيد تحالفوا مع محمد الدندشي. القوميون السوريون تحالفوا مع أحد الدنادشة. سامي الخوري عن البعث العربي الاشتراكي، وهو من جناح أكرم الحوراني، أجرى عدة تحالفات، ثم جاء التحالف الأخير قبل يومين من موعد الانتخابات بين حنا دياب ومحمد الفاضل، وكان محمد الفاضل العلوي الوحيد المرشح، في حين أن نسبة العلويين في القضاء كبيرة.

بعد هذا التحالف قام حنا دياب وبرفقته أحمد ضحية بزيارة قرية القبو، وهما يتجولان في سيارة مجهزة بمكبر صوت (ميكروفون)، ويدعوان الناس إلى التجمع في مهرجان تأييداً لدياب والفاضل، لكن مشايخ العلويين في القبو المتحالفين مع الدنادشة حرّضوا الأهالي على مهاجمة السيارة ورشقها بالحجارة، وأصيب دياب بجرح بليغ في رأسه. وعندما مرّت سيارة دياب من تلكلخ، رشقها الدنادشة بالحجارة. أما سيارة محمد الفاضل، فقد نالت لدى مرورها من تلكلخ عدة طلقات نارية بقصد الإرهاب.

نـال حنـا ديـاب 950 صـوتاً، فـي حـين نـال محمـد الفاضـل 1100 صـوت. وفـي رأي حنـا أن جماعـة الفاضـل فـي قريـة السـودة، وتعـدادهم 150 صوتاً، لم ينتخبوا حنا دياب، في حين أن أصوات الشـيوعيين كلهـا انتخبت محمد الفاضل، الذي اعترف بالحقيقة وبصدق الشيوعيين في تحالفاتهم، وقد نَسَبَ حنا دياب الجذور التاريخية لموقف العلويين الحذر، إلا القليـل مـنهم، إلـى الضـغط والاضـطهاد، اللـذين عانوهمـا فـي العهـد العثماني.

9- عبد الله إبراهيم وكفاح السنين

يُحكى أن الشيخ حسن نظّف مجرى الماء في الكفرون، ووصل إلـى رأس النبع، وتوفي قربه، ولهذا بنى له الناس مقاماً، وأتت ثلاث عـائلات مـن مشـايخ الحـدادين مـن اللقميـة لخدمـة المقـام، وعنـدما انتشـر مـرض الجـرب الجلـدي فـي السـنتين الأخيـرتين مـن الحـرب العالميـة الثانيـة، صـارت الأمهـات يـأتين بأبنـائهنّ للاغتسـال فـي المـاء المـار قـرب المقـام للتبرك به، وطلباً للاستشفاء وزوال الجرب، وبفضل كرامة الشيخ حسن كان معظم الأطفال يتماثلون للشفاء، ويبدو أن مياه الشيخ حسن المحملـة بالكبريت مقاومة للجرب.

بالقرب من مقام الشيخ حسن في الكفرون، وُلِدَ عبد الله إبراهيم عـام 1931 من أبوين فلاحين أنجبا ثمانية أولاد، منهم أربعة ذكور، وقد ابتدأ عبد الله علمـه فـي "مدرسـة تابعـة للأمريكـان" مدة سنتين، ثمّ انتقل إلـى مدرسة الكفرون الحكومية، ونال السرتفيكا عام 1946، وبقي في البيت سـنة 1947 دون مدرسـة، ثـم دخـل مدرسـة ابـن خلـدون فـي المشـتى، "مدرسة الرفيق دانيال"، حسب تعبيره، وكان يسير على قدميه يومياً من الكفرون إلـى المشـتى، وفـي مدرسـة ابـن خلـدون تكوَّن اتجاهـه الفكـري الشيوعي.

وأضـاف عبـد الله أن وعيـه السياسـي بـدأ بـالتفتح عـام 1948 متـأثراً بـأجواء الكفـرون والدراسـة فـي مدرسـة ابـن خلـدون، ولا يـزال عبـد الله يذكر الاجتماعات السرية، التي كان يعقدها التلاميذ الشيوعيون في ابن خلدون، وآخرها اجتماع عُقِدَ عند نبع الشير، وحضره دانيال نعمة.

شـارك عبـد الله إبـراهيم مـع مجموعـة كبيـرة مـن الشـيوعيين فـي الكفرون والبارقية في مظاهرة أنصار السلام، التي جرت في دمشق عام

1951، وشارك فيها أيضاً دانيال نعمة، واعتقل أثناء المظاهرة كما رأينا. يذكر عبد الله أن المظاهرة انطلقت من السبع بحرات، ووصلت إلى مقهى الهافانا، حيث اصطدمت بقوى الشرطة، وقد أصيب عبد الله بالذهول عندما جرى الصدام مع الشرطة. وعندما قدم شرطي لاعتقاله، ضربه بالعصا، وفرَّ هارباً غرباً نحو التجهيز الأولى، وسمع طلقات الرصاص تدوي من ورائه. وبناء على الموعد المحدد، اجتمع عبد الله مع رفاقه، وعادوا أدراجهم إلى قريتهم.

تحدث عبد الله إبراهيم عن صدامات القوميين السوريين، وهم الأقوى، مع الشيوعيين[183]، ودور دانيال نعمة في مجابهتهم، كما تحدث عن الانتخابات النيابية في عامي 1953 و1954، ودور الطائفية والعشائرية فيهما، وذكر أن من زاروهم في القرى كانوا يعلنون تأييدهم للشيوعيين، ولكنهم كانوا ينتخبون غيرهم.

يذكر عبد الله أن "أبو علي" (موريس صليبي) كلـَّفه عام 1952 بإقامة خيمة في أرض والد إبراهيم، وظيفتها الظاهرية النوم فيها لحراسة الذرة، والغرض الحقيقي استخدامها لمبيت كوادر الحزب: أبو علي، وعبد الكريم طيارة، وجهاد اليازجي وغيرهم، وكان ثمّة خطر من مجيء العشاق إلى الخيمة للانزواء فيها بعيداً عن الأعين. وتحسباً من هذا الأمر، نشر صديق عبد الله إشاعة بين الشباب أن عبد الله مريض بالسل، وينام في الخيمة للاستشفاء، ومن الطبيعي أن يتجنب الناس، وخاصة العشاق، الاقتراب من الخيمة.

وفي تلك الأثناء، كلـَّفه الحزب بنقل المطبوعات من عين الجرن إلى الكفرون، فكان ينتقل بالسيارة إلى عين الجرن، ويعود بالمطبوعات محمولة على ظهره، وهو يسير عبر طرق ترابية، وفي الكفرون يقوم بتوزيع المطبوعات ضمن أكياس على القرى الأخرى.

بعد صدور جريدة (**النور**) الشيوعية في دمشق عام 1955، انتقل عبد الله إلى دمشق، وعمل في المطبعة ثمانية أشهر، كما مارس التعليم في مدرسة قرب الكفرون مدة قصيرة، ثم أجرى عبد الله إبراهيم دورة

---

[183]- ذكر عبد الله إبراهيم بعضاً من صدامات الشيوعيين والقوميين السوريين، ومنها (في نيسان 1951 صعد رفاقنا إلى جبلي السيدة والسايح، وكتبوا عليهما عبارة عاش عيد الجلاء بكاز مشتعل، وخرج رفيقنا رئيف دعمش من بيته ليشاهد المنظر، وهو بالمناسبة عامل زراعي، وإذ بحجر رماه السوريون القوميون عليه يصيبه في رأسه، ويقتله...).

محاسبة، وعمل فترة من الزمن محاسباً في مطار دمشق وفي الجيش.

على أثر حملة المباحث السراجية على الشيوعيين، التجأ عبد الله إبراهيم إلى طرابلس، وهناك التقى بحبيب حسن، الذي نظَّم صلة عبد الله مع الحزب، ولمدة من الزمن عمل عبد الله في بيروت بمهنة جَبْل الباطون. بعد ذلك كلَّفه الحزب بالذهاب إلى اللاذقية لتوزيع المناشير، لكنه اعتقل على الطريق، وتعرض في سجن اللاذقية للتعذيب الشديد، وفقد نتيجة الضرب الوحشي سمعه وأسنانه. وبعد ثلاثة أشهر من العذاب في سجن اللاذقية، نُقِل إلى سجن المزة بدمشق، وقام بالتحقيق معه شتيوي سيفو، وبقِيَ بعد ذلك في السجن حتى أُطلِق سراحه.

بعد 8 آذار 1963 واستيلاء البعث على السلطة، شدد الحكم في بداية عهده النكير على الشيوعيين، وخاصة عندما أعلن في دمشق البعثي العراقي علي صالح السعدي قائلاً: "في سورية لا يوجد ثورة، لا يوجد دم". عند ذاك قام الحزب بنقل قسم من كوادره إلى لبنان. كان عبد الله إبراهيم ومعه محمود الكسيح من حكر كابر في طليعة من قاموا بنقل الشيوعيين عبر الخوض في نهر الكبير الجنوبي، وأضاف عبد الله متحسراً أن هؤلاء الشجعان، الذين نقلوا الكوادر إلى لبنان، "انهملوا في عالم النسيان" حسب تعبيره، وأضاف أن من بين هذه المجموعة امرأة اسمها جوهرة من بشرايل، كانت تنقل المطبوعات إلى دمشق. وهكذا، استمر عبد الله إبراهيم ومعه جرجس العيسى يقومان بأنشطة متعددة لتأمين الصلات بين المنظمات ولبنان، لكن سوء الطالع أوقع عبد الله في يد الأمن ومعه مسدس، فحُكِم ثلاث سنوات، أمضى منها في السجن ستة أشهر بسبب صدور عفو عام.

يحمل عبد الله إبراهيم شهادة البروفيه (الكفاءة)، ولم يستطع الحصول على البكالوريا بسبب ظروفه الصعبة. في عام 1966 أرسله الحزب للدراسة الحزبية في بلغاريا مدة سنتين، وانتخب عام 1970 في مجلس محافظة طرطوس ممثلاً للحزب الشيوعي.

عندما زرت عبد الله إبراهيم في بيته في الكفرون بتاريخ 2005/01/13 لفت نظري، من خلال أثاث البيت وما يرتدي من ثياب، أن الرجل يعيش في وضع مادي صعب. وعندما استدرجته للحديث أجاب: *"مثل ما عشت في السابق أعيش اليوم"*. وقد باع مقسماً من الأرض ورثه عن والده، وعمّر بالثمن بيتاً متواضعاً يؤجره في الصيف، كما

يملك مقصفاً يعمل به في الصيف، كي يسد نفقات عائلته، وقد تزوج عبد الله إبراهيم عام 1986 في وقت متأخر من حياته، وما يزال أولاده صغاراً، وعندما سألته عن السبب أجاب: "كنّا متزوجين القضية".

يتألم عبد الله إبراهيم لما آل إليه الحزب الشيوعي من انقسامات وتفكك وضعف، وقال: *"أنا بزْعَلْ على هذه الحالة، لأني باني حزب منظمات. أنا ما بحكي في هذه القضايا لولا وجود الرفيق... معك"*. وهكذا، ما يزال الشيوعي الفقير عبد الله إبراهيم مخلصاً لمبادئه وماضيه، وهو يعيش حياة ضنك وتقتير.

الفصل الخامس
نشطاء الحزب الشيوعي في اللاذقية وجبلة وبانياس
1940-1960

تركز نشاط الحزب الشيوعي في مناطق طرطوس وصافيتا وتلكلخ، ولهذا فإن الحركة الفلاحية والنشاط الوطني السياسي كان قوياً في هذه المناطق بالقياس إلى المناطق الأخرى، ولم يكن للحزب الشيوعي منظمة ذات وزن في مدينة اللاذقية وريفها، وكذلك الأمر بالنسبة لريف جبلة، أما مدينة جبلة فقد أخذت تتكون فيها في أوائل خمسينيات القرن العشرين منظمة سنتحدث عنها في هذا الفصل، وبقي النشاط الشيوعي في ريف جبلة محدوداً، وسننقل ما استطعنا الوصول إليه من معلومات في هذا الميدان.

أولاً- حنا مينه في إسكندرون واللاذقية[184]

بتاريخ 2004/12/25 التقى كاتب هذه الأسطر مع الروائي المعروف حنا مينه في بيته بدمشق. لم يكن الهدف من اللقاء معرفة حياة الروائي وأعماله، بل كان القصد التعرف على النشاط الشيوعي، الذي شارك فيه بحميّة الشاب حنا مينه، في كل من إسكندرون واللاذقية،

[184]- هذه الفقرة عن مينه منشورة بمعظمها في كتابنا (الحركة الشيوعية السورية، الصعود والهبوط).

وننقل هنا ما جادت به ذاكرة ابن الثمانين عاماً الروائي حنا مينه[185].

على أثر مذابح الأرمن في الأناضول في آذار 1915، التجأت أعداد كبيرة من الأرمن إلى إسكندرون، ومنها انتقلوا إلى جهات أخرى. لعب الجناح اليساري من الأرمن دوراً في تعريف الناس بالشيوعية، وترأس المنظمة الشيوعية الناشئة الأرمني أرتين ماخيام والعربي قاسم رضوان، الذي كان عاملاً في المرفأ. عام 1938 زار زكي الأرسوزي إسكندرون قادماً من أنطاكية، وافتتح مكتباً لعصبة العمل القومي. وعندما اعتقلت السلطات الفرنسية الأرسوزي، قامت مظاهرة في إسكندرون، قُتل فيها الشيوعي عبد المسيح[186]، وكان حنا إلى جانبه.

افتتح الحزب الشيوعي في إسكندرون مكتباً علنياً أواخر 1936، في أجواء انتصار الجبهة الشعبية ومجيء مستشار فرنسي يساري إلى إسكندرون. في تلك الأثناء، قدم خالد بكداش إلى إسكندرون في سيارة للنقل العام من نوع "فورد أبو دعسة"، "فخرجنا لاستقباله، يتقدمنا أرتين ماخيام وقاسم رضوان. وفي اليوم التالي، جرت حفلة خطابية في سينما روكسي، خطب فيها ابن عبده يني[187] من عصبة العمل القومي، ثمّ تلاه خالد بكداش، فأدهش الناس وهم يسمعون خطبته، وأنا لم أسمع خطيباً مثل خالد بكداش. كان الحشد كبيراً، والازدحام لا يوصف، وقد تمزّق بسبب الازدحام أول جاكيت ألبسه اشترته لي أمي".

عام 1938 تمّت المؤامرة بين تركيا وفرنسا، حسب تعبير مينه، وأُعطي اللواء لتركيا، ودخل الجيش التركي إسكندرون عام 1939، لذا جرت هجرة الأرمن والعرب من لواء إسكندرون، وذكر مينه أنه كان ابن ستة عشر ربيعاً عندما هرب في أيلول عام 1939 من إسكندرون إلى اللاذقية عن طريق كسب. وخوفاً على الأرمن، وضعت فرنسا بواخر لنقلهم من ميناء إسكندرون إلى أماكن أخرى، و"يمكن الرجوع إلى روايتي (**الفم الكرزي**)، التي تتحدث عن وضع الأرمن". التجأ إلى

---

[185]- سنضع بين قوسين ما نقلناه حرفياً عن مينه، أما بقية النص فهو نقل غير حَرْفي أو ملخّص، وأحياناً توضيح لما تحدث به الروائي الكبير، كما جرت تعديلات على بعض المعلومات نتيجة اللقاء الثاني مع مينه بتاريخ 2007/03/31.

[186]- لم يتذكر حنا كنيته.

[187]- كان ابن عبده يني يُلقب بالفيلسوف، وله ابن رُسم كاهناً في دمشق، وهو صاحب أول مطبعة في إسكندرون، وفي هذه المطبعة كانت تطبع جريدة (اللواء).

اللاذقية أيضاً أرتين ماخيام وقاسم رضوان[188]، ولم يكن في مدينة اللاذقية عام 1939 شيوعيون، وكان الناس يخلطون بين المذهب الشيعي والشيوعية، وتسمي الشيوعيين في البدء "شيعيين".

أوائل سنة 1940 جاء إلى اللاذقية عبد الجليل سيريس[189] لتنظيم الشيوعيين، "وأسسنا، والكلام لمينه، أول خلية شيوعية في اللاذقية" مؤلفة من حنا وعامل في الريجي وشخص من بانياس. وعندما بدأ الفرنسيون الفيشيون برئاسة الجنرال دانتز بملاحقة الشيوعيين، طُلِبَ من حنا مينه أن يذهب إلى كسب للمشاركة في قيادة الشيوعيين هناك تحت اسم "جواد"، وكانت المنظمة الشيوعية الأرمنية بقيادة الحداد إسحاق حنانيان، وأردف مينه: إن هذه الأمور موضحة في رواية "الفم

---

[188]- جاء في تقرير الشرطة في حمص أن اجتماعاً عقد في دار السيد قاسم رضوان، بدعوة من السيد عبد الرحمن الترجمان الطالب في التجهيز، ليلة 30–31 تموز 1939، حضره خمسة عشر شخصاً من الشباب المنتمين إلى الحزب الشيوعي، وأنهم تناولوا في اجتماعهم هذا حديث العامل وضرورة مناصرته ومصير البلاد السورية، وأن الشرطة نظمت محضراً بحق صاحب الدار لإفساحه المجال لعقد اجتماع غير مرخص به في داره لإيداعه القضاء. هذا مع العلم أن صاحب الدار، أي قاسم رضوان، لم يكن موجوداً أثناء انعقاد الاجتماع، وأن مفتاح بيته كان مع السيد عبد الرحمن الترجمان". (انظر إضبارة الداخلية في مديرية الوثائق التاريخية في دمشق، والتقرير مذيل بتوقيع محافظ حمص بتاريخ 25 آب 1939).

معنى ذلك أن قاسم رضوان لم يُقِم في اللاذقية إلا مدة قصيرة، وحط الرحال في حمص، حيث على ما يبدو كان مكلفاً من الحزب بالعمل في حمص، ولنقرأ ما كتبه ظهير عبد الصمد في ذكرياته:

" فوجئت في طرابلس بوجود الرفيق قاسم رضوان، وهذا الرفيق لم أكن أعرفه سابقاً، وإنما كنت أسمع به من أحاديث وذكريات الشيوعيين القدامى في حمص، فهذا الرفيق كان من أبناء لواء إسكندرون، وقد انتسب إلى الحزب في أوائل الثلاثينيات، وكان مسؤولاً عن منظمة الحزب في لواء إسكندرون، وقاد نضال منظمة الحزب في اللواء ضد مؤامرة التتريك... وقد استقر الرفيق قاسم رضوان فترة في حمص يعمل ضمن منظمة الحزب الشيوعي السوري فيها، وكان له إسهام ودور في تطوير المنظمة، ثم انتقل إلى لبنان، ولم يعد يسمع به أحد في حمص إلا من خلال الذكريات".

ويذكر ظهير أنه التقى بالمصادفة عام 1948 في أحد بيوت الشيوعيين بقاسم رضوان، الذي استقر في طرابلس، وتزوج شيوعية لبنانية، وأخذ اسماً جديداً، وهو على صلة بالحزب الشيوعي اللبناني. (نقلاً عن ظهير عبد الصمد: "بعض أضواء على تاريخ منظمتَيْ حمص وطرابلس الشيوعيتين"، مجلة "دراسات اشتراكية"، أيلول - تشرين الأول 1993، ص 122).

[189]- انتخب عبد الجليل سيريس، وهو من حلب، عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي عام 1937، وواضح أن زيارته للاذقية هدفها تأسيس منظمة شيوعية.

الكرزي"، التي تُرجمت إلى الأرمنية.

بعد هرب الفيشيين والجنرال دانتز ودخول الفرنسيين الديغوليين مع الإنكليز توقفت ملاحقة الشيوعيين، فعاد مينه إلى اللاذقية، وعمل حنا حمّالاً (عتالاً) في المرفأ، ومن تلك الحياة استوحى روايته (**نهاية رجل شجاع**). "كان العمل الحزبي الشيوعي صعباً في اللاذقية، وشرعنا في تأسيس نقابات في المرفأ وفي شركة الريجي، وتفاصيل ذلك موجودة في رواية "نهاية رجل شجاع".

كان يصل إلى اللاذقية 25 عدداً من جريدة **"صوت الشعب"**، وكان حنا يبيع الجريدة الشيوعية علناً في الشوارع، ويمضي مينه قائلاً: *"كنت أبيع بين عشرة وخمسة عشر عدداً حسب التيسير، وكانت هناك صعوبة في توزيع الجريدة بسبب مقاومة الإقطاعيين. أزلام الإقطاعيين لاحقوني، وضربوني بالخنجر ليلاً في أحد الشوارع، وظنوا أنني قد مُتّ. لم أذهب إلى المستشفى خوفاً من معاودة الاغتيال"*.

"بعد حادثة الاغتيال هذه بمدة"، يمضي حنا مينه متحدثاً، *"ذهبت إلى بانياس، ومررت على صديقي أبي حبيب، وهو صاحب دكان. عندما دخلت اصفرّ وجه أبو حبيب، وخاف سوء العاقبة. كان في الدكان ثلاثة من زلم الإقطاع يشربون عنده، أذكر منهم يوسف خلاص. لم أتراجع، وتذكرت قول الشاعر معين بسيسو: (الصمت موت، والقول موت، قُلها ومُتْ).*

دخلت، واتجهت إلى حيث يجلس زلم الإقطاع، وعرّفتهم باسمي، وبدأت أتحدث إليهم، وشربت عرقاً معهم.

قالوا لي: أنتم ملحدون.

أجبت: نحن لسنا ضد الدين، نحن نؤسس نقابات للدفاع عن العمال، ونطالب بإصلاح الطرق.

قال يوسف خلاص: ... أخت اللاذقية، ما فيها رجال تقتل حنا مينه. كنا نظن حنا مينه رجّال كبير، فإذا به نحيل لطيف.

قلت: يا يوسف، أنا أمامك، اقتلني.

فأجابني بالحرف الواحد: لا، لن أقتلك، وعار علينا أن نقتلك بعد أن صار بيننا خبز وملح وعرق".

ذكر حنا مينه أن الشيوعيين أخذوا ينشطون في بعض قرى اللاذقية، وكثيراً ما كان برفقتهم بدر مرجان المسؤول عن منظمة الشيوعيين في الساحل، وكان يأتي من طرابلس من باب التبانة. وبعد اللقاء مع الفلاحين وخروجنا من الاجتماع، كان بدر يبقى معهم، ويتحدث إليهم.

ويقول مينه: *"كان بدر يحكي معهم خمس كلمات يفهمونها أكثر من أقوال كارل ماركس، وعندما أتى وهيب الغانم حكى معهم ست كلمات، فقشّطنا من كان*

معنا من الفلاحين، وراحوا مع وهيب".

سنة 1947 جرت الانتخابات النيابية، وترشَّح وهيب الغانم ممثلاً لحزب البعث. يقول مينه: *"تلقينا تعليمات من الحزب (الشيوعي) في دمشق، أعملوا حتى لا ينجح وهيب الغانم في الانتخابات"*. وذهب مينه إلى بلدة كَسَبْ حيث للشيوعيين قوة بين الأرمن، وعمل مينه على منح أصوات الناخبين، وكان عددهم كبيراً في كَسَب، إلى أمين رويحة وبدوي الجبل، ولم يفز الغانم عام 1947 بالنيابة، وبعدئذ أخذ بدوي الجبل يردد: *"الشيوعيون انتخبوني ليس حبّاً بي، بل كرهاً بوهيب الغانم"*.

ذكر حنا أن من الشيوعيين المعروفين في اللاذقية آنذاك: طبيب الأسنان محمد الحاج حسين، وأصله من جسر الشغور، وقد تعرّف على الشيوعية أثناء دراسته طب الأسنان في فرنسا. عبد الرحمن مسبوت من اللاذقية. عزالدين نعيسة من ريف اللاذقية (بسنادة). كما زار منظمة الحزب من دمشق نجاة قصاب حسن، الذي قام بزيارة محافظ اللاذقية برفقة عز الدين نعيسة، كما ورد في جريدة "صوت الشعب". وقد تألف وفد اللاذقية إلى مؤتمر الحزب الشيوعي في بيروت أواخر 1943 أوائل 1944 من د. محمد حاج حسين، عبد الرحمن مسبوت، حنا مينه، كامل كساب، ولم تسعف الذاكرة حنا في معرفة إن شارك نعيسة في المؤتمر أم لا.

وبعد مضي تسع سنوات على إقامة حنا مينه في اللاذقية قادماً من إسكندرون، غادرها إلى دمشق عام 1948، حيث بدأ نجمه يصعد تدريجياً مع روايته (**المصابيح الزرق**) وعمله في الصحافة والسياسة، وكان له دور أساسي في تأسيس **"رابطة الكتاب السوريين"**، التي تحولت إلى رابطة الكتاب العرب. ومن ثمّ كان رحيله هرباً من "المباحث السراجية"، وعودته إلى الوطن، وهو يحمل الآن على منكبيه أكثر من ثلاثين رواية تُقرأ في سائر أصقاع العالم العربي.

سألت حنا مينه عن كيفية هروبه من سورية، فأجاب[190]: *"غادرت دمشق قبل أسبوع من اعتقالات الشيوعيين في ليل 1958/12/31، والسبب قدوم بعثة صحفية مصرية إلى سورية للكتابة عن فرح السوريين بالوحدة. فؤاد الشايب مدير الدعاية والأنباء طلب مني مرافقة الوفد المصري في جولته بسورية، قائلاً لي: "إن هذا الطلب جاء من مصر، وليس بمبادرة مني". قلت له: "لن أذهب"، فأجابني:*

---

[190]- اللقاء الثاني مع حنا مينه في بيته بدمشق بتاريخ 2007/03/31.

*"يا حنا أن تنحني للعاصفة خير من أن تُكسر". أجبته: "أفضل لي أن تكسرني العاصفة من أن انحني لها". مساء ذلك اليوم لم أنم في بيتي، وفي اليوم التالي غادرت إلى طرطوس، وبوسائلي الخاصة عبرت سراً النهر الكبير الجنوبي بوساطة شخص حملني على ظهره خائضاً في الماء. ومن إحدى قرى عكار، سافرت بالسيارة إلى طرابلس، ومنها إلى بيروت. وبمساعدة الدكتور جورج حنا، وموافقة الحزب الشيوعي، غادرت إلى الصين، وهذا مفصّل في رواية (**الثلج يأتي من النافذة**).*

وفي ختام اللقاء، دَوَّن حنا مينه بخط يده على الورق، الذي أنقل حديثه عنه، الفقرتين التاليتين:

"كرّست كل ما كتبت في سبيل الفقراء والبؤساء والمعذبين في الأرض، ولمّا أزل".

"أنا لست متواضعاً ولا مغروراً، والصفتان سيئتان في رأيي، والكتابة هي اللذة الكبرى والرذيلة الكبرى، ولا خلاص منهما سوى بالموت".

ثانياً- دانيال نعمة و"أبو علي" وما وصلنا من نشاطهما في اللاذقية

يتبيَّن من خلال التدقيق أن منظمة الحزب الشيوعي في مدينة اللاذقية ظهرت متأخرة، وكانت ضعيفة، ولم تستطع الدخول في أعماق المجتمع اللاذقاني. كان من أوائل من نشط في اللاذقية طبيب الأسنان الدكتور محمد الحاج حسين، لكنّ الدكتور الحاج حسين كان غريباً عن المدينة، فهو قادم من منطقة جسر الشغور. وفي الوقت نفسه، كان اليافع المهاجر من إسكندرون حنا مينه غريباً عن المدينة أيضاً.

عندما انتدبت قيادة الحزب الشيوعي في أوائل 1952 المحامي الناشئ دانيال نعمة للعمل في اللاذقية محامياً في الظاهر، وقائداً لمنظمات الحزب الوليدة من جهة ثانية، لم يكن العمل الجماهيري مفروشاً بالورود لأسباب كثيرة. نقتصر هنا على ذكر سببين: الأول هو أنّ دانيال نعمة غريب عن اللاذقية، وقادم من قرية المشتى البعيدة. والأهم من ذلك، كونه مسيحياً عليه أن ينشط في أجواء الأكثرية السنية والعلوية، ولم يكن هذا بالأمر السهل. ومن هنا ندرك لماذا أطلق المحامي الشيوعي الحمصي موريس صليبي على نفسه اسماً حركياً ذا مغزى، هو "أبو علي". فـ"أبو علي" رمز للفتوة والشباب والنخوة والإخلاص في المجتمع عامة، وفي أوساط العلويين خاصة، ومن يتتبع

النشاط السري لموريس صليبي، وهو يقود منظمات الحزب الشيوعي من النهر الكبير الشمالي إلى النهر الكبير الجنوبي[191]، يرى أن "أبا علي" كان اسماً على مسمى، وسيمر معنا بعض الطرق، التي استخدمها "أبو علي" للتنقل والعمل في المدن والقرى وأساليب التخفي وتضليل قوى الأمن. وإذا كان بإمكان "أبي علي" الناشط في قيادة الحزب تجنب الاعتقال بسبب تحركاته "السرية" غير المعروفة، فإن دانيال نعمة، الذي عمل بصورة علنية، سرعان ما دخل السجون، فلم يمض أكثر من عام على عمل دانيال نعمة في المحاماة ونشاطه في العمل الحزبي السري المحظور رسمياً، حتى اعتقل دانيال في 29 كانون الثاني من عام 1953، وقُدِّم مع عدد من الفتيان الشيوعيين المشاركين في المظاهرات إلى المحاكمة[192]، وقد برّأ القضاء السوري النزيه والمستقل عن السلطة، في ذلك الزمن، دانيال ورفاقه من التهم السياسية الموجهة لهم "لعدم وجود أدلة"، لكن سلطات الشيشكلي في اللاذقية احتجزت دانيال ورفاقه، وطلبت منهم التعهد بعدم العمل في السياسة، فرفض دانيال ورفاقه هذا الطلب، فأعيدوا إلى السجن ثانية، حتى يوقعوا على تعهد بعدم العمل في السياسة. وقد رأينا في فصل سابق إضراب دانيال ومن معه من الشباب عن الطعام في السجن، ورفضه التوقيع، فنُقِل إلى سجن تدمر الصحراوي في 18 شباط 1953.

إبراهيم لوزة، أحد المعتقلين مع دانيال، ذكر أن الطلاب الشيوعيين شاركوا بنشاط في المظاهرات الطلابية أيام الشيشكلي أواخر 1952 وأوائل عام 1953، وأفاد لوزة أن إدارة السجن في الثكنة أمرت الطلاب الشيوعيين المعتقلين بالعمل في الحفريات، فرفض الشباب الانصياع للعمل، لكن دانيال المعتقل معهم خالفهم الرأي، وقال: عليكم بالعمل، وكلما أتى عريف لحراستكم تشرحون له لماذا انتم في السجن، كي تصل أخباركم إلى خارج السجن. ويلاحظ أن قائمة أسماء المعتقلين الشيوعيين، التي أوردها لوزة تتضمن إضافة إلى الطلاب حرفيين وهم:

---

[191]- أوفدت قيادة الحزب الشيوعي المتمركزة في بيروت المحامي موريس صليبي (أبي علي)، الناشط في حمص، للعمل في محافظة اللاذقية، وخلق نقلة نوعية في عمل المنظمة، وقد أجاد أبو علي أساليب النضال السري، وأسر أفئدة من عمل معهم خلال فترة عمله في محافظة اللاذقية (خلال عام 1952 وأوائل عام 1953).

[192]- ورد تفصيل لهذا في حاشية سابقة برقم 133 في الباب السابق.

محمد الطويل (خياط)، محمد الداش (خياط)، محمد حداد (نجار). إضافةً إلى طلاب الثانوي، كما دخل السجن من اللاذقية توفيق أستور الطالب الجامعي، الذي سُجن في تدمر.

تتناقل ألسن الشيوعيين في اللاذقية، الذين نشطوا في الخمسينيات الدور الذي لعبه أدهم شموط، وهو من قبضايات اللاذقية، وله عصبية عائلية، وانتسب إلى الحزب الشيوعي، وأصبح في خمسينيات القرن العشرين الوجه البارز في المظاهرات والصدام مع الشرطة، وفي الوقت نفسه حماية الشيوعيين من تعديات الآخرين عليهم أثناء المظاهرات، وهذه الظاهرة كانت موجودة في عدد من الأماكن، إذ لعب قبضايات الأحزاب أدواراً أخبارها متناثرة في ثنايا الكتب، أو المذكرات المنشورة.

ثالثاً- أحمد فاضل الكادر الشيوعي المتفرّغ في اللاذقية، خمسينيات القرن العشرين

جده لأبيه إبراهيم كان ضابطاً في الجيش العثماني، خدم في مكة المكرمة. والده مصطفى، المولود 1903، والمتوفى 1940، عمل في عدة مهن، متنقلاً بين حلب وأريافها.

جده لأمه شيخ علي الجزار يتحدّر من والي عكا المشهور أحمد باشا الجزار، وقد تنقّل شيخ علي الجزار قاضياً شرعياً بين حلب واللاذقية وحمص. والدة أحمد سكينة الجزار بنت شيخ علي كانت ربة منزل، وتوفيت 1994.

ولد أحمد فاضل عام 1936 في الباب، وتعلّم في الحمدانية إحدى مدارس حلب الابتدائية، ونال شهادة السرتفيكا (التعليم الابتدائي) عام 1945 في حلب، وعمل مباشراً مدة سنة في معمل للنسيج ملك آل المدرس، حيث شهد إضراباً لعمال النسيج للمطالبة بزيادة الأجور. انتقل اليافع اليتيم أحمد مع أمه إلى اللاذقية، عندما كان جده لأمه قاضياً شرعياً فيها، وبعد أن أمضى الصف السادس في ثانوية اللاذقية، ولم يحالفه النجاح، أرسله جده إلى "كلية فاروق الأول" في بيروت، التي تُدَرِّس العلوم المدنية والشرعية. وعندما وصل إلى الصف التاسع، شارك، وهو طالب داخلي، في الإضراب عن الطعام السيئ. بعد ذلك سكن أحمد صيف 1949 في بيت جده في حمص، وعمل فاعلاً في بناء

معمل السكر في حمص، وهناك تعرَّفَ على الموظف في شركة السكر طارق الشهابي، الذي (حسب تعبير أحمد) "فتح ذهنه على الدنيا". ومع نهاية الصيف، انتقل أحمد إلى اللاذقية، حيث كانت تسكن والدته وإخوته في الطابيات. وبفضل وساطة جده القاضي الشرعي في حمص، عُيِّن أحمد كاتباً في ديوان الأوقاف الإسلامية في اللاذقية، وتمكَّن في دورة حزيران 1950 من النجاح في البروفيه (شهادة الدراسة المتوسطة) بجهده الخاص، ودون الدوام في مدرسة.

وفي تلك الأثناء، تعرّف أحمد على مجموعة من الشباب الشيوعيين أو القريبين منهم (مثل جورج صدقني، وبرهان شريتح، ومحمود جمال)، وكان يتصل بهؤلاء جبرائيل نصرا الموظف في آي بي سي في بانياس، ويوزّع عليهم المناشير الشيوعية[193]. يذكر أحمد أنه حضر اجتماعاً شيوعياً لفرقة مؤلفة منه ومن برهان شريتح وجورج صدقني، وترأس الاجتماع أبو علي (موريس صليبي)، الذي كان يلبس جزمة و"ثياب مهركلة"، ويعتمر حطة دون عگال، على أساس أنه عامل. وشتان، كما قال أحمد، بين لبسه بهدف التخفي وعدم جذب الأنظار وبين حديثه الشيّق، الذي لا يملّ الإنسان من سماعه.

وفي تلك الأثناء من عام 1951، تعرّف أحمد على الدكتور محمد الحاج حسين، وأخذ يزوره في عيادته[194]، وكان في اللاذقية ثلاثة معروفون بأنهم شيوعيون درسوا في فرنسا، وتأثروا بالفكر الماركسي فيها، وهم: طبيب الأسنان محمد الحاج حسين، وأصله من جسر الشغور. طبيب الأسنان كامل كساب، والترانزيتير واكيم أستور.

أمست علاقة أحمد التنظيمية مع أبي علي، الذي عرّفه على بيت ريفي في بستان في مشروع صليبة عند محطة القطار الحالية. صاحب البستان أبو حبيب كان يحب الحزب، وابنه كان شيوعياً، وكانت المطبوعات الشيوعية بتنظيم من أبي علي تُخبّأ في المَتْبَنْ بين أكداس التبن، ويأتي أحمد، وينقل المطبوعات إلى محمد الحاج حسين وكامل كساب وغيرهما.

---

[193]- يذكر أحمد فاضل أن موريس صليبي (أبو علي) طلب من أحمد ورفاقه عدم الاتصال بجبرائيل نصرا، لأن له علاقة مع الأمن.

[194]- ذكر أحمد أن الحاج حسين اعتقل بعد انقلاب حسني الزعيم في آذار 1949، وصمد في السجن، ولم يتراجع عن مبادئه.

انضم إلى الحزب في تلك الأثناء مصطفى دنورة، وهو آذن في المصرف التجاري، وكان والده مؤذناً في أحد جوامع اللاذقية. وبسهولة تمكّن أبو علي في إحدى الاجتماعات الحزبية من إقناع أحمد فاضل ومصطفى دنورة للقيام بجولة في قرى اللاذقية للدعاية للحزب الشيوعي، وكان من حصاد حديث أبي علي أن أحمد ومصطفى تخيَّلا أن الثورة الاشتراكية على الأبواب، فقاما والأحلام الثورية تدغدغ عواطفهما بجولة جريئة، روى أحمد مسيرتها، ونلخصها كالآتي: *"ركبنا سيارة للنقل العام (باص) من اللاذقية باتجاه الحفة إلى قرية شير القاق، وبتنا عند المختار. وفي اليوم التالي، وزّعنا المناشير على فلاحي الشير، وكانوا مسرورين منا، ثم سرنا على الأقدام إلى قرية المنزلة، ومنها سرنا باتجاه صلنفة إلى قريتَيْ الخندق ونبع البارد. وفي الطريق شاهدنا قافلة حمير ذاهبة إلى شطحة، وتحدثنا مع رجال القافلة عن الشيوعية، فأجابونا بأنهم سيسألون فاتحاً*[195]*، ثم نزلنا باتجاه القرداحة، حيث بتنا عند المختار في قرية طيعة إلى جوار القرداحة. وكنا دائماً نخبئ المناشير خارج القرية، ثم ندخل إليها تحسباً من الدرك من جهة، واستطلاعاً لرأي الناس قبل توزيع المناشير عليهم. بعد ذلك توجهنا إلى القرداحة، وتغدينا برغلاً على سُفرة جميل الأسد، ووزعنا عليه وعلى عدد من أهل القرداحة بعض المناشير، التي في حوزتنا. وبعد الظهر، غادرنا القرداحة باتجاه قرية قريبة نسيت اسمها، حيث خبّأنا بقية المناشير خارج القرية، وبتنا عند المختار. وعندما استيقظنا صباحاً على جلبة غير معهودة، وجدنا دركيين أشهرا بندقيتيهما فوق رأسَيْنا. اعتقلونا، وساقونا إلى الثكنة العسكرية في اللاذقية. قائد الثكنة فيصل الأتاسي تولى بنفسه ضربنا بالخيزرانة لمعرفة من أرسلنا، ومن أين حصلنا على المناشير. استمر اعتقالنا في الثكنة خمسة عشر يوماً، نُقلنا بعدها مخفورين في سيارة النقل العام إلى سجن المزة بدمشق، حيث أُلقي بنا في "السيلول" عدة أيام. وبعد ذلك نُقلنا إلى سجن القلعة، ونزلنا في "القاووش" رقم 18، حيث وجدنا أربعة عشر شيوعياً سجيناً شاركوا في مظاهرة بدمشق، وعلى رأسهم ظهير عبد الصمد. وفي السجن، تعرّفنا على فاتح المرشد، وهو مثقف متنور. بعد مدة، ونتيجةً لما قامت به والدتي من وساطات، أُخلِيَ سبيلي بكفالة لحضور جلسات المحاكمة، التي عُقدت في دمشق"*.

عندما عاد أحمد فاضل إلى اللاذقية، وذهب في اليوم التالي للالتحاق بوظيفته، طلب منه مدير الأوقاف أن يعلن انسحابه من الحزب الشيوعي، كي يعيده إلى الوظيفة، وكان من الطبيعي أن يرفض أحمد الشرط، واختار مهنة النجارة، وعمل مع النجار محمد حداد، وهو صديق للحزب الشيوعي. كان أحمد يعمل في النجارة، وينشط في

[195]- فاتح بن سليمان المرشد، وكان آنذاك في السجن، كما سنرى.

الحزب، ويحضّر لتقديم امتحان البكالوريا، التي نالها عام 1952.

وذات مرة، حضر أحمد اجتماعاً في منزل عبد القادر هلال، تكلم فيه صاحب البيت عن حركة أنصار السلام، واقترح أن يتفرغ أحمد للعمل في حركة السلم، ويترك مهنة النجارة. ومع العمل في حركة أنصار السلم، ازداد نشاط أحمد في الحزب الشيوعي، وتشكلت في بداية 1955 لجنة منطقية اللاذقية، فكان أحمد فاضل سكرتيرها، ومن أعضائها المُدرِّس هاني حداد ومحيي الدين غلاونجي.

أواخر صيف 1954 سافر أحمد فاضل برفقة المحامي كمال نور الدين، مرشح الحفة في انتخابات خريف 1954 والقريب من الشيوعيين، لمقابلة خالد بكداش في دمشق وبحث شؤون الانتخابات.

يذكر أحمد أنه قام برفقة دانيال نعمة بجولتين للاتصال بالفلاحين، الأولى في جهات مشتى الحلو، والثانية في القرى القريبة من طرطوس، كما كان له نشاط في ريف بانياس، فقد رسم له محمد حكيم خريطة للقرى الواجب زيارتها في أواخر 1955، للتحدث مع المجموعات القريبة من الشيوعيين، ويذكر أحمد أنه بات في إحدى الليالي في قرية محمد خونده، وما يزال يذكر أن المنطقة تعجّ بالأغوات والشيوخ.

عندما بدأ في اللاذقية المثقف الماركسي القادم من أوربا إلياس مرقص بانتقاد سياسة الحزب الشيوعي، أحدث ارتباكاً وبلبلة في صفوف الحزب، واستطاع مرقص في اللاذقية أن يكسب عدداً كبيراً من الشيوعيين، الذين أخذوا بتوجيه من مرقص يطالبون بعقد مؤتمر للحزب، وينتقدون الأساليب السائدة وعدم وجود نظام داخلي ينظم العلاقة داخل الحزب، ويوجهون نار سهامهم إلى خالد بكداش. وعندما تفاقم الخطب، أوفدت القيادة من دمشق نقولا شاوي، الذي درس الأوضاع، وطلب في أحد الاجتماعات من أحمد أن يغادر إلى دمشق لتكليفه بمهمة حزبية هناك، وحلَّ مكان أحمد الشيوعي المتفرّغ في الحزب خليل الحريري (أبو فهد)، الذي كان يتمتع بشعبية ومحبة في صفوف الحزب في دمشق، لمساعدة منظمة اللاذقية. وفي الوقت نفسه، استلم قيادة منظمة اللاذقية المحامي محمد خونده، رفيق محمد حكيم وزميله في مكتب المحاماة في كل من بانياس واللاذقية.

من دمشق أرسلت القيادة أحمد فاضل إلى درعا لمساعدة منظمتها الناشئة، ودام عمل أحمد في منظمة حوران زهاء السنتين، وعندما

سألت مسؤول منظمة حوران ومؤسسها عبد الكريم أبا زيد عن رأيه بأحمد فاضل أثناء عمله في حوران، أثنى عليه ثناءً عطراً، وأشاد بنشاطه وخبرته في العمل الحزبي ومقدرته في الحديث مع الفلاحين وإقناعهم، وأضاف أحد أقرباء عبد الكريم، الذي كان مستمعاً للحديث، أن أحمد فاضل لعب دوراً واضحاً في تطوير منظمة حوران. وقبل الاعتقالات، التي شنتها الأجهزة المباحثية السلطانية على الشيوعيين أواخر 1958، نُقل أحمد فاضل من حوران للعمل في الغوطة، وبعد حملة الاعتقالات كلفه فرج الله الحلو بالعمل في السلمية، حيث اتخذ صفة تاجر أغنام، وارتدى العباءة، واعتمر الحطة والعقال، وسكن في غرفة في السلمية. وقبل اعتقال فرج الله بقليل كلفه بالذهاب إلى اللاذقية لقيادة ما تبقى من الشيوعيين بعد الاعتقالات، وكان يتنقل هناك على دراجة حتى تاريخ اعتقاله أيام الانفصال، حيث بَقِيَ في السجن فترة من الزمن، ويتذكر أحمد المعاملة الحسنة والإنسانية، التي لقيها من السجناء المرشديين في سجن اللاذقية، الذين قدموا له مساعدة مالية عندما عرفوا أنه شيوعي لا يملك شروى نقير.

يتحدث أحمد فاضل اللغة الإنكليزية، وأتقن أثناء دراسته في الاتحاد السوفييتي اللغة الروسية. وبعد نيله شهادة الدكتوراه من الاتحاد السوفييتي، عمل مع السوفييت في مشاريع الري، التي كانوا يقيمونها في محافظة اللاذقية[196].

رابعاً- الشيوعيون في مدينة جبلة

أواسط أربعينيات القرن العشرين قرأ الطالب حامد محسنة كتاب فرج الله الحلو "إنسانية جديدة تبني عالماً جديداً"[197]، الصادر عام 1937. حامد محسنة المولود في جبلة، والمقيم فيها، قدّم كتاب فرج الله إلى أصدقائه لقراءته، مما مهّد الطريق للإطلاع على الفكر الاشتراكي بصيغته الشيوعية.

---

[196]- جرى اللقاء بأحمد فاضل في بيته باللاذقية بتاريخ 2007/03/19.

[197]- فرج الله الحلو أحد قادة الحزب الشيوعي، زار الاتحاد السوفييتي عام 1934، وتجول في جمهوريات آسيا الوسطى، وضمّن كتابه مشاهداته وانطباعاته عن بلد الاشتراكية الأول، وننقل هنا ما كتبه فرج الله عن الماركسية: "... وليست الماركسية بنت لينين، ولا ربيبة روسيا القيصرية، بل هي بنت التاريخ البشري، وربيبة الإنسانية بأجمعها...". نقلاً عن الحلو فرج الله: "مقتطفات من كتاباته"، بيروت 1962، ص 24.

بعد أن حصل حامد محسنة على شهادة البكالوريا التحق بكلية الحقوق في الجامعة السورية بدمشق، وهناك تعرّف على الشيوعيين فيها، والتقى بخالد بكداش، الذي أشار عليه أن يتصل في اللاذقية بطبيب الأسنان الدكتور محمد الحاج حسين، المسؤول عن منظمة الحزب الشيوعي في اللاذقية. وبعد اتصال محسنة بالحاج حسين، طلب منه الحاج حسين الاتصال بعبد الرحمن مثبوت[198] ليعملا معاً على تأسيس حلقة شيوعية في جبلة، وسرعان ما تمكّن محسنة ومثبوت، في أواسط أربعينيات القرن العشرين، من تأسيس فرقة شيوعية ضمت: جلال بجبوج[199]، كمال دقور، علي جازة، عبد الفتاح ناصر، كمال زيتون[200]، كما أسهم ياسين علي أديب[201]، الذي كان صديقاً للحزب وخالد بكداش في دفع النشاط الشيوعي خطوة إلى الأمام.

بعد مدة انضمَّ إلى هذه المجموعة الشيوعية كلٌّ من: عبد الله مكيس، وعدنان جمعة، وسعد الله حجوز، وسليم داود، ومحمد حرب، وأحمد درويش، ويوسف سكاف، وعبد القادر طه وغيرهم.

بعد أن تأسس الحزب العربي الاشتراكي بقيادة أكرم الحوراني، انضم إليه عدد من الشيوعيين السابقين، ومنهم حامد محسنة[202] وجلال بجبوج وعلي جازة وكمال دقور، ولا نعلم أسباب هذا الانتقال، لكننا نستطيع أن نقدّر الأسباب التالية:

العمل في الحزب العربي الاشتراكي أسهل، ويجلب مكاسب لأعضائه، لأن الحوراني قريب من السلطة، وكثيراً ما استغل نفوذه في السلطة لكسب الأنصار والمؤيدين.

---

[198]- ينتمي عبد الرحمن مثبوت إلى عائلة متوسطة الحال معروفة في جبلة.

[199]- ينتمي إلى عائلة من ملاك الأرض المتوسطين.

[200]- ذكر المحامي طه زوزو، الذي زودنا بهذه المعلومات، أن كمال زيتون ما يزال على قيد الحياة، وهو "شيوعي عنيد وصلب".

[201]- ينتمي ياسين علي أديب إلى عائلة من ملاك الأرض، وهو شقيق جمال علي أديب النائب في البرلمان السوري ممثلاً للحزب الوطني، وبعد مدة تبوأ ياسين منصب رئاسة بلدية جبلة.

[202]- كان معروفاً عن محسنة أنه "يحب الكاس"، أي من المدمنين على شرب العرق، لذا فإن انتقاله إلى الحزب العربي الاشتراكي مفهوم.

معظم المنتقلين ينتمون إلى ملاك الأرض، وإيديولوجيتهم تتوافق مع سياسة الحزب العربي الاشتراكي، الذي ضمّ إضافة إلى جماهير واسعة من الفلاحين عدداً من أفراد الطبقة الوسطى وملاك الأرض الصغار، وأحياناً المتوسطين.

ما مدى تأثير موقف الحزب الشيوعي من تقسيم فلسطين على انتقال هؤلاء من حزب إلى آخر قريب منه؟

يلفت النظر أن كثيراً من الشباب الطامح "مرَّ" على الحزب الشيوعي، ثمّ سرعان ما قلب له ظهر المِجَنْ لأسباب متنوعة، وبعض هؤلاء أصبح نتيجة الأعمال الطفيلية والانتساب إلى البيروقراطية من الأغنياء في أواخر القرن العشرين.

تناقلت الألسن في أواسط خمسينيات القرن العشرين اسمين شيوعيين هما: مدرس الرياضيات **أحمد شومان**[203]، ومدرس التاريخ **زهير ناجي**.

والأخير كان له دور بارز خلال السنتين، اللتين قضاهما في ثانوية جبلة (أيلول 1953 – حزيران 1955) في تثقيف الطلاب (التلاميذ) بالفكر النهضوي والاشتراكي. والطريف في الأمر، أن الجميع كان ينظرون إلى زهير ناجي على أنه شيوعي ومن كبار القوم، فالأستاذ جهاد جديد يؤكد دور زهير ناجي في نشر الفكر الاشتراكي الشيوعي بين مختلف أبناء العشائر، والشاعر أمين إسبر[204] المتأثر بأستاذه زهير ناجي ذكر نشاطه الفكري في ديوانه الشعري في البيت التالي[205]:

زهيرٌ ينثرُ الأفكارَ حمراً　　　لهُ في كلِّ مجتمعٍ حُضورُ

وعندما سألنا صديقنا زهير عن نشاطه في جبلة، أجاب أنه لم يكن منظماً في حلقة من حلقات الحزب الشيوعي، لكنه كان ماركسياً يطمح إلى تحرر العرب والإنسانية جمعاء من الاستغلال والاستثمار والظلم والاستعباد، وكان مفهوم الشيوعية يعني بالنسبة إليه "مقاومة الاستعمار والعدل الاجتماعي".

وأضاف أن نشرات الحزب الشيوعي كانت تصله عن طريق

---

[203]- أحمد شومان من مدينة اللاذقية، وكان هادئاً متزناً ومعروفاً لدى أصدقائه أثناء دراسته في الجامعة أنه شيوعي.

[204]- انضمّ الطالب أمين إسبر، وهو من ريف اللاذقية، إلى الحزب الشيوعي في ثانوية جبلة، وسرعان ما تحوّل عنه إلى حزب البعث العربي الاشتراكي في الثانوية ذاتها.

[205]- أمين إسبر: "مدينة وشاعر"، دون مكان الطبع، 2003.

المدرس محمد راغب كوراني القادم من حلب للتدريس في جبلة، وما كان يهمّ المدرس زهير هو أن يربي طلابه على حب الوطن واتباع العقلانية سبيلاً للعمل، وأثنى زهير ثناء عاطراً على أهالي جبلة، وقال إن ذكريات التدريس في مدرسة جبلة ما تزال راسخة في فؤاده.

ذات مرّة كلّفه الشيوعيون بالذهاب إلى القرداحة للقاء شيوعي يعمل كندرجياً فيها، والهدف من زيارة زهير هي تثقيف ذلك الكندرجي الشيوعي، الذي عليه أن ينشط في القرداحة وهو متسلح بالمعرفة الماركسية. قال زهير:

"أثناء الحديث قلت للكندرجي بشكل بريء: (بدل ما تبنوا مقاماً ابنوا مدرسة)، فزعِل مني، وكان معه حق، وأنا المخطئ، إذ لم أكن أقدر تقديراً سوياً الجذور الدينية العميقة المتغلغلة في أعماق الشعب"، وأضاف زهير بعفوية: *"حك الشخص، وانزع القشرة الخارجية، تظهر العشائرية والطائفية"*، وكان زهير أثناء تدريس الطلاب مادة التاريخ يرمي إلى تربية الطلاب تربية وطنية وطبقية. وكان، كما ذكر، مجرد أن تحدَّث الإنسان ضد الإمبريالية يُصنَّف أنه شيوعي، وقد صُنِّف زهير شيوعياً مجرد وصوله إلى جبلة، لأنه أعلن معاداته للإقطاع والاستعمار[206].

مع النهوض الجماهيري الوطني العارم في منتصف خمسينيات القرن العشرين رَفَدَت منظمة الحزب الشيوعي في بلدة جبلة أعدادٌ من الطلبة، نذكر منهم: محمد عدنان حسين، محمد مبيض، علي مبيض، محمد وسعيد قسام، سهيل عثمان، عز الدين ناصر[207]، خليل صابور، مصطفى فران[208]، طه زوزو[209]، فوزية عثمان[210]، صلاح زاهد وعشرات غيرهم.

---

[206]- لقاء مع زهير ناجي في دمشق بتاريخ 2006/01/12.

[207]- لم يصمد عز الدين ناصر بعد اعتقاله أيام الجمهورية العربية المتحدة، واعترف من "أول كفْ" بكل ما يعرف. وبعد وصول البعث إلى السلطة عام 1963 انتسب عز الدين ناصر إلى حزب البعث الحاكم، وتمكّن من الوصول إلى منصب رئيس اتحاد نقابات عمال طرطوس، ثمّ ساعدته "الظروف"، وانتقل إلى دمشق عضواً في المكتب التنفيذي للاتحاد العام لنقابات العمال في سورية، وسرعان ما احتل منصب رئيس الاتحاد مدة طويلة من الزمن، وفي هذه الأثناء اغتنى عز الدين ناصر، ودخل دائرة البرجوازية البيروقراطية، وأصبح من الخاصة فيها. والمعروف جيداً لدى القاصي والداني أن رئيس اتحاد نقابات العمال عز الدين ناصر نادراً ما استقبل عاملاً أو صاحب ظلامة، وانحصرت علاقاته بالضباط والمديرين العامين وعِلْيَة البرجوازية البيروقراطية، فسبحان من يُغيِّر ولا يتغيَّر.

[208]- بعد اعتقاله عام 1959، تعاون مصطفى فران مع أجهزة الأمن.

ومع حملات الاعتقال المباحثية السراجية عام 1959، اعتقل عدد من الشيوعيين الجبلاويين، وصدرت بحق بعضهم أحكام "قضائية"، ومنهم: عبد الرزاق درجي، عبد الله مكيس، محمد زوزو، عبد الغني حداد، خالد سعد وغيرهم. وممن صمد من الشيوعيين في سجن المزة **علي مبيض**، ابن "خياط قنابيز عربي"، وخريج دار المعلمين الابتدائية في حلب. كان علي في عداد السجناء الشيوعيين، الذين نقلتهم المباحث من سجن المزة إلى سجن اللاذقية بقصد تخويفهم وتعذيبهم وتهديدهم بالقتل، إذا لم يستسلموا لزبانية المباحث.

بعد خروج علي مبيض من السجن، أرسله الحزب الشيوعي إلى موسكو للدراسة. وبعد عودته طبيباً، توقف عن النشاط السياسي، وتنكَّر لماضيه، وسرعان ما توفي "بالسكتة القلبية".

كان الموظف الشاب في مؤسسة الطيران المدني **بدر الطويل**، المعروف في جبلة باسم بدر غزة، من ضحايا المخابرات السراجية، التي ألقت به في غياهب سجن المزة، وهو ممن صمد في السجن، ولم ينحن أمام جلاديه. وبعد خروجه من السجن، عمل بدر بنشاط في صفوف الحزب الشيوعي، وأصبح في فترة من الزمن مسؤول منظمة محافظة اللاذقية. ويذكر طه زوزو أن بدراً أولى اهتماماً خاصاً للعمل بين الفلاحين في أرياف اللاذقية وجبلة[211]، وكلّف بهذه المهمة رفيقه طه زوزو، الذي أمدّنا بمعظم هذه المعلومات عن منظمة جبلة.

---

[209]- التجأ الطالب طه زوزو إلى لبنان هرباً من سيف المباحث. وبعد الانفصال، عاد إلى جبلة، وأصبح من الكوادر الشيوعية النشيطة، وحصل في الوقت نفسه على إجازة في الحقوق، وعُيِّن محامياً لقضايا الدولة، وأبلى في الدفاع عن أملاك الدولة بلاء حسناً، وكثيراً ما دخل في صدام مع "البرجوازية البيروقراطية" الراكضة لابتلاع الأخضر واليابس، وفي مقدمتها ممتلكات الدولة، التي تعدها حقاً لها، وهو الآن (2006) محامٍ لامع، له مكتبان في اللاذقية وجبلة، وينشط حالياً في إطار جمعية العاديات في جبلة، كما ألقى في عدد من المراكز الثقافية محاضرات حول تلوث البيئة. أ ليس هذا النشاط أحد تجليات أحزاب الخضر في أوربا؟

[210]- طالبة من ريف جبلة.

[211]- بعد الانقسامات التي تتالت في الحزب الشيوعي، آثر بدر الطويل بحسن طويته وإخلاصه لمبدئه التنحي مدة من الزمن عن العمل القيادي الحزبي، ولم يوفق في إيجاد عمل يسد به الرمق، ونزولاً عند رغبة "الرفاق" وإلحاحهم عاد بدر الطويل لتسنم مناصب قيادية بعد انتخابه في المؤتمر السادس الموحد عام 1986، لكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ وافته المنية في 16 شباط 1987.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الحزب الشيوعي، رغم النائبات وتراجع الحركتين الوطنية والثورية (الاشتراكية)، ما يزال له موطئ قدم في مدينة جبلة، ولهذا أسباب كثيرة، منها تراجع دور مدينة جبلة (السنية) مع 8 آذار 1963، وفقدان أهلها لمركزهم القيادي السابق، مما أسهم في حفاظ الحزب الشيوعي على بعض مواقعه فيها.

خامساً- عبد العزيز حلـُّوم في الدالية

معلوماتنا عن نشاط الشيوعيين في ريف جبلة شحيحة، ولعلَّ مرد ذلك هو ضعف ذلك النشاط، إذ لم يستطع الفكر الماركسي دخول المنطقة إلا في فترة متأخرة، وبالمقابل برز بوضوح نشاط الحزب السوري القومي الاجتماعي في عدد من قرى ريف جبلة، وقد أشرنا إليه في فصل سابق، ولم نستطع تتبع النشاط البعثي في ريف جبلة قبل وصول حزب البعث إلى السلطة عام 1963. وبالمقابل، تعكس رواية **"الصلصال"** لسمر يزبك جوانب هامة من الحياة الاجتماعية في ريف جبلة في النصف الثاني من القرن العشرين، وما يلفت النظر في رواية الصلصال تراجع دور "الإقطاع" وظهور دور "البرجوازية البيروقراطية"، وخاصةً هيمنة الجناح العسكري فيها، الذي تتبعته يزبك، وهي بنت المنطقة، بدقة عكست اختلال التوازنات الطبقية لصالح الفئات الصاعدة من القاع، والتي مارس بعضها سياسة الهيمنة ممارسة جعلت قارئ الرواية يترحَّم على عهد "الإقطاع"، وهذا أمر خارج عن نطاق هذا الكتاب.

بتاريخ 2003/03/23 التقيت في اللاذقية بعبد العزيز حلـُّوم من الدالية، الواقعة إلى الجنوب الشرقي من جبلة، ويبلغ عدد سكان الدالية بتاريخ اللقاء 25 ألف نسمة، لا يبقى منهم في الشتاء أكثر من النصف، فالهجرة من البلدة كثيفة إلى دمشق وحمص وطرطوس وحلب.

جد عبد العزيز، أحمد حلـُّوم، كان تاجراً، وتمكـَّن عن هذا الطريق من تملك مساحات من الأرض، لكن ابنه الوحيد إبراهيم كان مبذراً، ولم يحافظ على أملاك والده، وكان حسب تعبير ابنه، وهو محدثنا عبد العزيز، "مجنون كرم"، ويسعى إلى الاستمتاع بالحياة، وكان يحب الشعر وينظمه. وفي منتصف خمسينيات القرن العشرين كان يقرأ جريدة "النور" الشيوعية الصادرة في دمشق، والتي كانت تصل إلى

عبد العزيز.

عبد العزيز بن إبراهيم حلـُّوم ولد في الدالية عام 1937، ودخل المدرسة الابتدائية، التي علـَّم فيها البعثي علي الصالح، وتأثر به عدد من التلاميذ، ومنهم شقيق عبد العزيز. وبعد أن نال عبد العزيز شهادة السرتفيكا (الابتدائية) عام 1952، وكانت امتحاناتها في جبلة، أرسله والده إلى مدرسة (إعدادية) خاصة في قرية **الطواحين** الواقعة إلى الشمال الشرقي من القدموس. كان مدير المدرسة علي حكيم شيوعياً، تعلـَّم في اللاذقية وجبلة، وبحكم القرابة وسَكَنْ عبد العزيز في بيت علي حكيم، أصبح عبد العزيز شيوعياً. وصل عبد العزيز إلى الكفاءة (الصف التاسع)، و"أخذته السياسة"، حسب تعبيره، وكان مما قرأه: البيان الشيوعي، وكتاب خالد بكداش عن الفيلسوف ابن رشد، وأدبيات الحزب الشيوعي الصادرة في النصف الثاني من الخمسينيات. ويلاحظ هنا التأثير المعنوي للمحامي محمد حكيم على عبد العزيز وأقرانه الشباب من عشيرة الخياطين، وذكر عبد العزيز أن "الناس يرفضون الشيوعية، ولا يرفضون محمد حكيم الشيوعي"، وكان للقرابة بمحمد حكيم دور في انتساب عدد من الشباب إلى الشيوعية في النصف الثاني من خمسينيات القرن العشرين.

بسبب توافق عيد النيروز مع عيد الجلاء في 17 نيسان 1956، ومع النهوض الوطني العارم، تحوَّل العيد الديني إلى عيد وطني متمثلاً بعيد الجلاء، والعيد ترافقه الدبكة والرقص والغناء والأهازيج الشعبية. هنا سعى عبد العزيز حلـُّوم لاستغلال العيد الديني، وبالتالي الوطني، وتحويله إلى "عيد حزبي"، إن صحّ التعبير. فأثناء الاحتفال بعيد الجلاء في ذلك العام نـَقـَدَ عبد العزيز للشوباشي ما تيسر من المال، كي "يشوبش" لخالد بكداش ولينين أمام الجمهور المحتفل في بلدة الدالية بالعيدين: النيروز والجلاء. هذه المظاهرة الدعائية من حلـُّوم دفعت اثنين من البعثيين للاحتجاج على "الشوبشة" لبكداش، فاصطدم معهم عبد العزيز، وأيده أقرباؤه، وسكت المحتجون، واستمرت الشوبشة لقائد الحزب الشيوعي. وذكر عبد العزيز أن مئتي شاب صاروا شيوعيين على أثر هذه الحادثة. ورغم شكنا أن هذا الرقم مبالغ فيه، إلا أن أجواء عام 1956 شهدت انتسابات واسعة إلى الحزب الشيوعي، مما يجعلنا

نميل إلى تصديق ما يقارب الرقم[212]، فالدعم السوفييتي لقضايا العرب أسهم في إذكاء شعور الاتجاه نحو الحزب الشيوعي، كما أن بروز زعيم الحزب خالد بكداش في البرلمان فارساً من الفرسان المشهود لهم في زهرة المجالس النيابية (1954-1958) أسهم، إضافة إلى سياسة الحزب الشيوعي آنذاك، في دفع الشباب إلى الانتساب إلى الحزب الشيوعي أو الاقتراب منه، ولا نعلم مدى المبالغة في قول عبد العزيز بأن "قرى بأكملها صارت شيوعية". وهنا أرجع عبد العزيز أحد أسباب هذا الانتشار السريع للشيوعية في قرى بانياس وقسم من جبلة إلى دور "محمد حكيم، الوجه الشيوعي الأبرز"، وهو ابن شيخ من مشايخ عشيرة الخياطين البارزين، وفي هذا المثال يتجلى توافق صعود المشاعر الوطنية مع دوافع الروح العشائرية المتمثلة هنا بانضمام محمد حكيم، ابن شيخ معروف من عشيرة الخياطين الكبيرة إلى الحزب الشيوعي، لكن هذا التوافق بين "الوطني" و"العشائري" سرعان ما تذروه الرياح مع هبوب أول عاصفة هوجاء.

أثناء ملاحقة "المباحث السلطانية السراجية" للشيوعيين عام 1959، كان عبد العزيز يقوم بواجب خدمة العلم، وتجنَّب في تلك الأثناء الحضور إلى بلدته الدالية، كي لا يتذكره "العواينية" فيُعتقل، علماً أن أخاه الذي بدأ بعثياً، وتحوّل إلى شيوعي، اعتُقل مدة من الزمن.

بعد انفصال سورية عن مصر، استأنف عبد العزيز نشاطه الشيوعي، وأخذ بالتعاون مع طه زوزو، أحد كوادر الحزب، الممتلئ حيوية، القادم من مدينة جبلة، في إعادة بناء منظمات الحزب، الذي بعثرته الملاحقات أيام الجمهورية العربية المتحدة. في عام 1966، وتقديراً لنشاط عبد العزيز، ورغبة الحزب الشيوعي في تأهيل كوادر مثقفة، أوفد الحزب عبد العزيز إلى المدرسة الحزبية في موسكو[213].

انحاز عبد العزيز حلُّوم أثناء الانقسامات، التي عصفت بالحزب

---

[212]- في لقاء مع الأستاذ جهاد جديد، وهو سوري قومي سابق، بتاريخ 2005/6/5 في بيته بجبلة، ذكر أن الدالية كانت في أواخر خمسينيات القرن العشرين مركزاً للشيوعيين، الذين كانوا يناقشون المشايخ بجرأة، وكان البعث ضعيفاً في الدالية، ولم يكن ثمة وجود للحزب السوري القومي فيها.

[213]- ذكر عبد العزيز أن رفاقه في الدورة الحزبية كانوا: خليل الحريري من دمشق، عمر قشاش من حلب، ميشيل عيسى من مشتى الحلو (طرطوس).

الشيوعي في سبعينيات القرن العشرين، إلى جانب "المكتب السياسي" (ثم فصيل رياض الترك)، وسُجن تسعة أشهر عندما شنَّت السلطات حملة ضد تنظيم رياض الترك المعروف بـ**"الحزب الشيوعي-المكتب السياسي"**. وبعد ذلك توقف النشاط السياسي الشيوعي لعبد العزيز حلّوم، وأخذ يسير في خط فكري آخر، خط العودة إلى الأصول الدينية والمذهبية، وهو الاتجاه الذي يلف المنطقة وأجزاء واسعة من العالم.

واللافت للنظر أن عبد العزيز حلّوم، الذي ما تزال نشاطاته الشيوعية السابقة تراود مخيلته، قام بتأليف وطبع كتابين (كراسين) يؤكدان انتماءه المذهبي العلوي، من خلال تناول قضايا من التاريخ العربي الإسلامي، وحالة عبد العزيز ليست فريدة من نوعها، فمع هبوط التيارات القومية والماركسية وانكماشها يلاحظ ارتداد كثير من أنصار هذين التيارين وعودتهم إلى جذورهم التاريخية الطائفية أو العشائرية.

سادساً- محمد سلوم من حركة الإصلاح الريفي في دريكيش إلى الحزب الشيوعي وسجن المزة

كان محمد سلوم من مؤسسي حركة الإصلاح الريفي صيف 1946، ومن نشطائها في دريكيش وريفها.

عام 1947 عمل سلوم معلماً في قرية الإقطاعي الحموي أنور الكيلاني، وحول انطباعاته كتب سلوم:

"... وشاهدت هناك عن كثب جبروت الإقطاعيين من آل البرازي وآل الكيلاني، وكان ما عانيته رهيباً، وما رأيته من معاملة الإقطاعي للفلاحين صوراً تقشعر لها الأبدان، وتثور لها الضمائر والعقول...".

"... الإقطاعي أغلق المدرسة التي كنت أعلّم فيها، كي يبقى أبناء الفلاحين جهلة، ولهذا نُقلت إلى مدرسة في بلدة مصياف، ثم إلى مدرسة في قرية المشرفة، وهناك وجدتني في صراع مع السلطة. تركت التعليم، وانتسبت إلى دار المعلمين الابتدائية في دمشق عام 1949. وأثناء دراستي في دار المعلمين، تبلغت مذكرة دعوى قضائية للمثول أمام محكمة صلح صافيتا بشأن انتسابي إلى حركة الإصلاح الريفي...".

يلقي محمد سلوم باللائمة على الحزب العربي الاشتراكي في فرط عقد حركة الإصلاح الريفي، ونتيجة ذلك توزع عدد من أعضاء الحركة على الأحزاب العلمانية: الشيوعي والسوري القومي والبعث، وكان أن

انتسب سلوم إلى الحزب الشيوعي، وبعد ذلك بمدة قامت الجمهورية العربية المتحدة، وحول تلك المرحلة كتب سلوم:

"... وفُتحت السجون، وتسلط حكم المباحث على رقاب المواطنين، وسُرِّحت من عملي في التعليم فيمن سُرِّح، ثم دخلت السجن في إحدى القوافل، ودفعت ثمناً غالياً هو خسارتي نصف سمعي بسبب التعذيب الوحشي، وكل ذلك بناءً على وشايات واتهامات من الكوادر الحزبية القائمة، ولاسيَّما الأعضاء المتسلقين، الذين كانوا رفاقي في حركة الإصلاح الريفي، ثم انخرطوا في حزب البعث العربي الاشتراكي، وكنت ورفاقي المسجونين نعامل مجرد وديعة، فلا طعام ولا تنفس، وكنا نعيش في زنزانة تحت سطح الأرض، ولا نخرج منها إلا لتعذيبنا وتوجيه الإهانات لنا، وأكتفي بهذا الحد.

وبعد خروجي من السجن، رحلت إلى دمشق، التي اتسع قلبها للجميع، لكن ما أن عرف مكان عملي أحد الرفاق القدامى في حركة الإصلاح الريفي، حتى وشى بي إلى رئيس قسم مكافحة الشيوعية في مركز العفيف، وترددت عليه طيلة ثلاثة أيام، وكان بعدها الانفصال.

وانطفأت شعلة حركة الإصلاح الريفي كلياً بعد حكم الوحدة". [214]

الفصل السادس
مقتطفات من عمل الحزب الشيوعي في صفوف الطلاب

الطلاب أو التلاميذ في محافظة اللاذقية هم أبناء الفلاحين، والحديث عنهم في هذا الفصل لا يعني الخروج عن عنوان الباب، وهو "الحزب الشيوعي والفلاحون"، وسنقتصر في هذا الفصل على نقل ما وصل إلينا من وثائق.

بين أوراق دانيال نعمة، التي سَلِمَت من التلف أو الحرق، عدة أوراق ليست بخط دانيال، منها ورقتان لهما علاقة بالحركة الطلابية.

الورقة الأولى- تقرير حزبي حول نشاط الحزب بين الطلاب، يُبَيِّن عقد مؤتمر محلي بتاريخ 23 أيلول 1953 في قرية عيون الوادي

---

[214]- هذه النصوص، وكذلك المعلومات عن محمد سلوم منقولة مما كتبه تحت عنوان: (وتمر السنون الستون على ميلاد حركة الإصلاح الريفي في الساحل السوري)، والفضل في وصول هذه الرسالة إلينا يعود إلى الإنسان الشهم يونس صالح، الذي يعود بجذوره إلى ريف دريكيش، وكان من نزلاء المزة الشيوعيين، كما مرَّ معنا.

حضـره 23 منـدوباً، وأُلقِـي فيـه تقريـر مفصّـل عـن أوضـاع الطـلاب. والتقرير موجه إلى القيادة الحزبية الأعلى، مستخدماً ضمير الجمع في مخاطبـة القيـادة، وجـاء فـي التقريـر: "... وكـذلك تنـاقش المنـدوبون بمطـالبهم، وعرض كـل منـدوب مطالب قريتـه، وتـمّ تسجيل ذلك، وقد أرسلنا لكم محضر الاجتماع وكلمات الوفود، وتمّ انتخاب 8 أشخاص ليمثلوا المؤتمرين في مؤتمر المحافظة، الذي دعوتمونا بأن يكون في 25 أيلول، ولم يأتنا أي خبر، فما السبب ومتى سيعقد؟" ويلاحظ في التقرير صعوبة جمع الطلاب لحضور المؤتمر في ظروف الديكتاتورية ونتيجة لقلة المواصلات، لذلك اقترح المؤتمرون عقد مؤتمرين للطلاب، الأول في شمال محافظة اللاذقية والثاني لجنوبها، لكن هذا الاقتراح لم يؤخذ بـه، إذ تبين الورقة (الوثيقة) الثانية أن مؤتمراً طلابياً (سرياً) لعموم المحافظة نظمه الحزب الشيوعي، وعقد في 30 تشرين الأول 1953.

فتحت عنوان "الطلاب في محافظة اللاذقية يعقدون مؤتمراً واسعاً للدفاع عن حقوقهم ومطالبهم"، جاء في **الورقة الثانية** (الوثيقة):

"في 30 تشرين الأول 1953 الماضي تنادى عدد من الطلاب، يمثل الكثير من المدارس في المحافظة، إلى مؤتمر عام يبحثون فيه مطالبهم والطرق الصالحة لتحسين أوضاعهم وأحوالهم.

وقد حضر هذا المؤتمر مندوبون عن مدارس اللاذقية وجبلة وطرطوس وصافيتا والسودا والمشتى ومرمريتا وغيرها، وأربى عدد المندوبين على 16 طالباً، كما حضر المؤتمر مندوب عن اتحاد الطلاب الجمهوريين في سورية.

وبعد استعراض كلمات المندوبين المتعلقة بغلاء الأقساط المدرسية وغلاء ثمن الكتب وعدم العناية الصحية بالطلاب ومشكلات القبول في المدارس، أُلقِيَ تقرير عام عن حالة الطلاب في سورية، وبصورة خاصة في محافظة اللاذقية.

التقرير الملقى أمام الطلاب كتبه شخص يحمل مؤهلات غير متوفرة لدى الطلاب، وهذا ما يبعث على الاعتقاد أن مسؤولاً حزبياً لخَّص التقارير الواردة، وصاغ ما فيها، معتمداً أيضاً على ما يكتنزه من معارف، وصاغ التقرير، وسننقل ما استطعنا قراءته من الورقة شبه

التالفة، لأخذ فكرة عن وضع التعليم ومستوى الحركة الطلابية في ظل ظروف صعبة وإمكانات محدودة. وفيما يلي ما جاء في التقرير:

"التقرير الذي ألقي في مؤتمر الطلاب في الجبل العلوي بتاريخ 30 تشرين الأول 1953:

لأول مرة في تاريخ الجبل العلوي تنتظم قوى الطلاب من أبنائه الواعين في منظمة قوية شاملة للدفاع عن حقوقها في هذا الجزء من البلاد السورية الغالية.

فالمترتب علينا إذن هو بحث النقاط التالية: "أحوال الطلاب في محافظة اللاذقية، ومهامهم الحاضرة والمستعجلة".

الأحوال التعليمية في الجبل العلوي، كما في جميع مناطق الجمهورية السورية سيئة، والعقبات الحقيقية والمصطنعة التي يواجهها الراغبون في تحصيل العلم والساعون وراء المعرفة سيئة للغاية.

الأحوال الاقتصادية... والفقر يضرب أطنابه بين صفوف ذوي الطلاب. والضرائب تزداد فرضاً على الآهلين، وينخفض مستوى المعيشة باستمرار... والنتيجة واضحة: ابن العامل يخرج عتالاً، وابن الفلاح يتخرج راعياً... هل من مدرسة ابتدائية لكل عشرة قرى؟ أين تنفق الضرائب إذن؟ إنها تنفق على شراء الأسلحة القديمة الأمريكية والفرنسية والإنكليزية، ويدَّعون أنها لمجابهة الصهيونيين: كذبوا! الذين أرسلوا اليهود إلى بلادنا، هم الذين شردوا عرب فلسطين. أجل إن 65% من ميزانية الدولة للتسلح.

"تدني المعيشة"... الغذاء... التغذية محدودة، يتوقف معظمها على النباتات... والطلاب من أبناء الفلاحين لا يعرفون اللحوم إلا إذا مرضت إحدى أفراد الماشية... وأبناء العمال في المدينة لا يعرفون أكثر من الفلافل...

اللباس: لا يتعدى بدلاً واحداً...

المداواة: في كل الجبل العلوي لا يوجد مستوصف أو مستشفى، باستثناء ثلاث مدن.

المنزل: طلاب القرى يسكنون الأكواخ المتداعية. تصوروا طلاباً يرعون البقر والمعز والحبش[215]، وهم يدرسون في المدارس، فالطلاب فعلة ومستخدمون وفلاحون. يا لها من حياة طلابية مؤمنة! وينام

---

[215]- المقصود ديك الحبش، ويسمى في مناطق أخرى الديك الرومي.

الطلاب على أكوام من القش والصوف والخرق البالية والقطن، التي لا تكون إلا بؤرة للحشرات الضارة، ويُحَضِّر الطالب في فصل الشتاء دروسه في كوخه بين ضجيج البقر وبقية الماشية وبين إخوانه الثرثارين. وفي الليل، تكون أداة التنوير سراجاً، إذا كان (وجد). والبعض لا يعرفون البترول، ويستعيضون عنه بالقش اليابس والأخشاب اليابسة للتنوير.

وضعية المدارس: أكثر القرى محرومة منها، والأساتذة تنقصهم الخبرة، وأسعار الكتب غالية. (يسرد التقرير أوضاع المدارس البائسة في عدد من القرى).

المدارس المهنية تكاد تكون مفقودة. سوء البرامج والتوجيه، فالبرامج الموجودة لا تساعد على تنمية روح الوطنية والإنسانية والشعور بالحرية. المدارس الحالية تهتم بالقشور دون اللباب، وأما المدارس الطائفية فتذكي روح التفرقة، وتكون منبعاً للكوسموبوليتية، أي لإنكار الوطنية[216].

المسؤولون عن هذه الأحوال هم ثلاثة: الإقطاعية والاستعمار والحكومة.

طبقة الإقطاعية تمعن في إبعاد أبناء الفلاحين، وخاصة في القرى المملوكة من الإقطاعية، عن دخول المدارس.

الحكومة هي ربيبة الإقطاعية، وهذه الدكتاتورية العسكرية التي ما انفكت تكيل الضربات الوحشية للطلاب... (هجوم صاعق عليها).

المهمة التاريخية التي تبرعنا بأن نكرس لها الرخيص والغالي، ألا وهي قضية تحررنا والوصول إلى حقوقنا ومطالبنا التالية:

1- مجانية التعليم بمختلف درجاته.

2- زيادة عدد المدارس وتعميمها بالقرى وفي المدن، وخصوصاً في الأحياء الفقيرة والقرى المملوكة.[217]

3- إيجاد مدارس مهنية مجانية.

4- الاهتمام بالأساتذة الاختصاصيين.

---

[216]- بعد ذلك يتضمن التقرير تفاصيل متشعبة عن حالة التلاميذ، رأينا حذفها.

[217]- المقصود القرى المملوكة من ملاك الأرض الإقطاعيين، وكان فلاحوها المحاصصين من مرابعين وغيرهم من أفقر الفئات الفلاحية.

5- تعديل البرامج بشكل يغذي العقل، ويقوي العلم والمعرفة، ويذكي الوطنية والإنسانية والمسؤولية لدى الطلاب.
6- مساعدة فقراء الطلاب في القرى والمدن بكل ما يلزمهم من كتب ودفاتر.
7- إيجاد مكتبات عامة تتضمن كل ما هو ضروري لإنماء الفكر والعلم والوطنية والإنسانية والحرية، ومحاربة الثقافة التي يُرَوِّج لها الاستعمار في بلادنا، والتي تغرق أسواقنا بفيض من منتجاتها.
8- العناية بصحة الطلاب عناية كافية.
وكذلك إفساح المجال أمام الطلاب لتشكيل منظمات تدافع عن حقوقهم ومطالبهم، وتؤدي بهم للسير مع شعوبهم العربية في الدفاع عن مطالبها بالاستقلال والحرية.
لقد حاول المستعمرون... واليوم، وقد تمرسنا نحن أبناء الثائرين الأول بالنضال، واتخذنا من دمائهم عزماً، ومن أرواحهم شرراً، ومن صلابتهم فولاذاً، فسنستلم نحن الطلاب بأيدينا القوية راية الدفاع عن حقوق شعبنا وعن حقوقنا.
تلك هي القضية، قضيتنا العادلة، فلذا لن تغلب".
(انتهى النقل من التقرير).

الفصل السابع
محيا (مِحْيو) وحماره على دروب النضال السري

تولت منظمة المشتى- صافيتا للحزب الشيوعي عملية نقل المطبوعات السرية للحزب من لبنان إلى سورية عبر النهر الكبير الجنوبي، وجرت أثناء هذه العمليات البطولية الشجاعة مآس وطرائف. نذكر واحدة من كل منهما، مما وصل إلينا.
فمن المآسي ما ذكره فايز بشور، أن **صالح أحمد** فلاح يتيم فقير، لا يملك شروى نقير، عمل مع أخيه أجيراً في بيت جبرائيل بشور، وبعد أن جمع بعض النقود اشترى بغلاً، وعمل مكارياً، فاتصل به الشيوعيون، وصار ينقل المناشير والمطبوعات السرية الممنوعة من طرابلس إلى صافيتا على بغله عبر النهر الكبير الجنوبي. وذات مرة،

أتت الطوفة فجأة وهو يعبر النهر، فجرفته المياه، وذهب شهيد فقره وبؤسه[218].

ومن الطرائف ما أورده دانيال نعمة عن قصة "محيا وحماره"، التي جرت في أوائل خمسينيات القرن العشرين، ولنقرأ ما كتبه دانيال:

"كان في منظمتنا، وأعني منظمة صافيتا، رفيق من **كرتو** اسمه محيا[219]، وكان هذا الرفيق فقيراً، باسلاً، متمسكاً بالحزب وشجاعاً، وكان يعتمد عليه الرفيق موريس (أبو علي)، وكان هذا الرفيق يساهم في نقل مطبوعات الحزب من قرية كرتو إلى المشتى، وكان لديه حمار يستخدمه في هذه المهمة، وكان الحزب يقدم له مبلغاً من المال ليعيش هو به، وليعيل حماره أيضاً، ويبدو أن المبلغ لم يكن ليكفي الجهتين معاً، وكان الحمار هو الذي يتحمل.

ذات يوم، وكان ذلك في أواخر عام 1953 أوائل عام 1954، وصلت إلى كرتو كميات كبيرة من المطبوعات **"في سبيل سلم دائم، في سبيل ديمقراطية شعبية"**[220]، وحصة سورية كلها من جريدة **"نضال الشعب"**[221]، وكانت تضم مقالة هامة للرفيق خالد بكداش، وخبأ الرفيق هذه الكميات كالعادة على نحو فني في "جلال" الحمار، "بردعته"، وسلك طريقه متجهاً إلى المشتى.

سار محيا والحمار طويلاً طويلاً، وبعد عناء كبير وصل محيا إلى الكفرون، وهناك حلَّ ضيفاً على الرفيق ديب قطيرة، وصباح اليوم التالي توجه إلى المشتى مركزه النهائي، ليوصل المطبوعات إلى مركزها الأساسي، إلى مخبئها الرئيسي، لتنقل بعد ذلك من هناك إلى حمص.

حرن الحمار، ولم يأخذ طريقه المعهودة، فهذه الطريق كانت صاعدة صعوداً وَصعبة المسالك، وعندئذ مشى محيا في الطريق التي اختارها الحمار، وهي الطريق الرسمية، وهناك التقى محيا برجل من الحفة،

---

[218]- لقاء مع فايز بشور بتاريخ 2005/02/10.

[219]- محيا أو مِحْيو هو محيا الآغا من قرية كرتو، ولا بد أن يأتي يوم تتحول فيه قصته إلى حلقة درامية تلفزيونية.

[220]- وهي جريدة الأحزاب الشيوعية العالمية الصادرة في بوخارست.

[221]- جريدة الحزب الشيوعي السوري، التي كانت تطبع في لبنان بصورة سرية. ومعلوم أن خالد بكداش كان يقود الحزب من أماكن إقامته في لبنان بين عامي 1948 و1953.

يحمل تنكة من الزيت، فأخذها منه، ووضعها أمامه وهو راكب على الحمار، وكان يتصور أن هذا سيحميه من كل شك، ويسهل مهمته.

وفيما محيا وحماره ورفيقهما الجديد على أبواب المشتى، وإذا بدورية للدرك تسير بسرعة، وتَصَوَّرَ محيا، وربما كان تصوُّره صحيحاً، أن هذه الدورية خرجت لملاقاته بناءً على وشاية، لذلك نزل عن الحمار، ووضع تنكة الزيت على الأرض، ثم ولى الأدبار.

اعتُقِل الحمار، واعتُقِل رفيق المصادفة، وسيقا معاً إلى المشتى، إلى المخفر، ومرّ الحمار على طريقه المعتادة، وعندما وصل المفرق الذي يؤدي إلى بيتنا، (بيت والد دانيال)، حاول الحمار الذهاب منه، لكن الدرك منعوه، ودفعوا به إلى أمام باتجاه مخفر القرية. وعندما وصل الحمار إلى المفرق الآخر الذي يؤدي إلى المخبأ السري للمطبوعات، حاول الحمار الذهاب فيه، لكن الدرك منعوه، وهكذا وصلت الدورية إلى المخفر، ومعها صيدها الثمين.

أنكر صاحب تنكة الزيت، رفيق الطريق بالمصادفة، كل علاقة له بالحمار أو صاحبه، لكن هذا لم يحمه من التوقيف والضرب والتعذيب.

وأخرج الدرك المطبوعات، فذهلوا، وبدؤوا مكالماتهم التلفونية مع المسؤولين في صافيتا وطرطوس واللاذقية، وفكّر الدرك: تُرى إلى أين كان هذا الحمار ذاهباً؟ وتوصلوا إلى استنتاج واحد وحيد، هو أنه كان ذاهباً إلى بيت والدي، فهو الملجأ الأساسي.

وليلاً أطلق الدرك الحمار أمامهم، وصل الحمار إلى المفرق المؤدي إلى الغابة، وحاول الدخول فيه، فمنعه الدرك من ذلك، وبعد أمتار قليلة ظهر المفرق الثاني، وهو مفرق فرعي يؤدي إلى بيتنا العتيق، فتركه الدرك يسير، فسار الحمار بتؤدة إلى أن وصل إلى البيت، فنزل إليه، وذهب فوراً إلى التنور المجاور، فقهقه الدرك، وقالوا: عرفنا... وعادوا بعد ذلك بالحمار إلى المخفر بانتظار الصباح.

وفي الصباح، استدعى الدرك مختار القرية دميانوس العجي، وطلبوا منه السير معهم وأمامهم الحمار، واتجهوا نحو بيتنا، وسلكوا الطريق التي سلكوها ليلاً.

دخل الدرك البيت، وأخذوا يستجوبون والدي، فقالوا له: هل تعرف هذا الحمار وتعرف صاحبه؟ فقال: كلا، من أين يمكن أن أعرفه، وهو ليس حمارنا، ونحن لم نره حتى نرى له صاحباً، أو نعرف صاحبه.

فقالوا: إذن، من أين يعرف هذا الحمار داركم؟ وكيف يعرف الوصول إليها، لو لم يكن قد زارها مراراً؟ فقال لهم: ومن أين عرفتم أن الحمار يعرف الطريق إلى دارنا؟ فقالوا: أمس ليلاً تركناه يسير على هواه، فوصل إلى تنوركم، وإلى بيتكم.

والتفت والدي إلى المختار سائلاً إياه: وهل كنت أنت معهم ليلة أمس؟ فقال المختار: كلا، لم أكن معهم. فالتفت والدي إلى الدرك قائلاً لهم: علمتموه طوال الليل السير على طريق بيتنا، واليوم تقولون ما تقولونه. ثم قال لهم: متى كانت الحمير صالحة للشهادة؟ وأسقط في يد الدرك، وسرعان ما تناقل الناس أخبار هذه الحادثة، وقد أخبرني بها وأنا في طرطوس سائقو السيارة الصغيرة من صافيتا.

وقال أحد الدرك: أقسم أن هذا الحمار أكل من هذا البيت أكثر من "خيشة" تبن، وبالفعل فإن هذا الحمار أكل أكثر من ذلك، وأن صاحبه الرفيق محيا كان باستمرار يجد في هذا البيت المأوى والعناية والرعاية، وسُلِّم الحمار للمختار رهينةً حتى يظهر صاحبه، واستمر عنده إلى أن نفق، وسلم الرفيق محيا من الاعتقال والمحاكمة...". (انتهى النقل عن دانيال نعمة).

ديب قطيرة، الناشط الشيوعي، الذي كان على اتصال مباشر مع محيا (لفظها ديب مِحْيو)، ويتعاون معه في نقل المطبوعات، قدَّم معلومات إضافية عن نشاط محيو، قال: كان الراتب الشهري لحمار محيو عشرون ليرة سورية، وهي ثمن علف الحمار [222].

أُطلق على الحمار اسم أديب[223]... اشترى محيو الحمار من سوق الدواب في حمص، وأتى به إلى قريته كرتو، متجنباً الطريق العام، وسالكاً طريق خط التابلاين[224]، كي لا يلتقي بدوريات الدرك، ويُكتشف

---

[222]- لقاء مع ديب قطيرة في بيته بجرمانا بتاريخ 2005/12/8.

[223]- أديب: المقصود به أديب الشيشكلي، الحاكم والديكتاتور بين عامي 1951 وبداية عام 1954.

[224]- خط التابلاين هو الطريق الموازي لأنبوب النفط، الذي ينقل البترول من حمص إلى بانياس، ونجزم أن "أبا علي"، الاسم الحركي لموريس صليبي، هو الذي خطط عملية شراء الحمار. وأبو علي أوفده الحزب سراً عام 1952 للإشراف على منظمات الحزب في الساحل، وكان معروفاً بإتقانه أساليب العمل السري، ولهذا وجّه محيا لشراء الحمار المعد لنقل المطبوعات من مكان بعيد عن المنطقة، كي لا يُعرف من هو صاحب الحمار في حال "اعتقاله" من الدرك.

أمره... كان الحمار يعيش دائماً حالة الجوع، وفي إسطبل ديب أكل الحمار حزمة أغصان الحطب المهيأة كوقود للتنور... اسم صاحب تنكة الزيت مرشد العزم، وكان بصحبته ابنه، وهو من الحفة.

وأضاف ديب: إن محيو لم يهرب عندما شاهد الدرك، بل استمر في السير مع رفيق الدرب صاحب تنكة الزيت. وبعد أن جاوزتهما الدورية، لاحظ الدركي ارتفاع جلال الحمار، فظنّ أن المُهَرَّب في الجلال هو الدخان، فقفل راجعاً ليتبيَّن جلية الأمر، فما كان من محيو إلا أن أطلق ساقيه للريح بين الأدغال، تاركاً الحمار وما يحمل في يد الدرك. التجأ محيو إلى بيت محدثنا ديب في الكفرون، وذكر ديب أن محيو رغب في المرور من أمام مخفر الدرك، متحدياً إياهم في سره. كان موقف والد دانيال جريئاً ورصيناً أثناء تحقيق الدرك معه.

واستأنف ديب قائلاً إنه فكر ورفاقه بسرقة الحمار، الذي أمسى في عهدة المختار و"يزق" (ينقل) الماء إلى بيت المختار، لكنهم عدلوا عن ذلك، كي لا يُكشَف أمرهم. بعد افتضاح أمر الحمار، استخدم ديب لنقل المطبوعات بغل أحد أصدقائه من المكارية، وكان الزمن شتاءً، والنقل يتم من عين الجرن إلى كفرَّام.

نجزم بأنّ صاحب فكرة استخدام الحمار لنقل المطبوعات هو "أبو علي" موريس صليبي، المسؤول عن منظمة الحزب الشيوعي في الساحل آنذاك، وفي رواية دانيال إشارة واضحة إلى أن موريس كان يثق ثقة مطلقة بمحيو، ومعروف أن موريس صليبي كان ذا باع طويل في إدارة التنظيم في العهود السرية، ويؤكد ذلك أيضاً ما أفاد به إبراهيم لوزة من أنّ موريس أتى إلى بيت اللوزة في اللاذقية بحمار محمّل بالمطبوعات، أفرغه في بيت اللوزة لتوزيعه. وبعد أن أنجز عمله، عاد "أبو علي" مع الحمار، واضعاً بعض عناقيد العنب في خرج الحمار للتغطية، وذكر إبراهيم أن أبا علي كان يجتمع مع الشيوعيين في مغارة إلى الجنوب من اللاذقية[225].

ذكر شقيق دانيال، يفتاح داود، أنه بالاشتراك مع ديب قطيرة وجرجس العيسى ومحيا الآغا كانوا ينقلون المطبوعات: "في سبيل سلم دائم" و"**حياة الحزب**" من الحدود اللبنانية سيراً على الأقدام، وكانت المطبوعات موضوعة في أكياس زنة الكيس بين عشرة وخمسة عشر

---

[225]- لقاء مع إبراهيم لوزة بدمشق بتاريخ 2007/01/5.

كيلوغراماً، وكل رفيق منهم يحمل كيساً على ظهره، وهم يسيرون في الليل، وينامون في النهار. ذات مرة كان ثلاثة رفاق ينقلون المطبوعات ليلاً، ولنقرأ ما رواه يفتاح[226]:

"... كنا نسير في طريق القشق غير المزفّت، وكنا نسمع خشخشة وراءنا، وفجأة اندفع شيء ما أمامنا، وكان هذا الشيء ضبعاً قطع علينا الطريق، وكان حرش كفر صنيف مشهوراً بالضباع. وقد تخيّل الضبع على ما يبدو أن شخصاً يسير وحده، لأننا كنا الواحد في إثر الآخر. كنا تعبين، ثمّ ظهر أمامي الضبع، ومن خوفي ركلته بقدمي، ثم لطمته لطمة قوية على ظهره بكيس المطبوعات، وبدأنا بالصراخ نحن الثلاثة، ورمينا الحجارة الصوانية على الضبع، فصار يهرب أمامنا على الطريق، لأنه لم يستطع الانهزام عبر الحرش لشدة كثافته. كانت الحجار الصوانية تلاحق الضبع، وهي تقدح شراراً لدى اصطدامها بالأرض. اختفى الضبع مؤقتاً، ثمّ عاد ليقطع الطريق علينا عند مفرق بساتين البارقية، وعاد لملاحقتنا. المهم أن وجودنا نحن الثلاثة لم يدع الضبع يجرؤ على الاقتراب منا، لأننا كنا تزودنا بعصي لدى مرورنا من عين عفان. كان ضوء النهار قد بدأ يشع فوقنا عند جرف صخري قرب مفرق بساتين، فاستسلمنا للنوم حتى مغيب الشمس".

---

[226]- نقلاً عن حديث مسجّل ليفتاح نعمة بتاريخ 18 كانون الأول 1996. سجّل الحديث وفرّغه خالد نعمة، وقدّم لنا نسخة منه.

الباب الرابع
مساعي الحزب الشيوعي
لتنظيم الفلاحين في محافظة اللاذقية[227]

الفصل الأول
الحزبان الشيوعي والعربي الاشتراكي
يحثّان الخطا لتنظيم الفلاحين

إن التناقضات الاجتماعية المتفاقمة حدة واتساعاً في المدن والأرياف، وصعود الحركة الفلاحية أثناء الانقلابات العسكرية وبعدها، التي ظنّ الفلاحون أن بعضها ضد الإقطاعية، واندفاع الفئات المتوسطة في المدينة والريف إلى العمل السياسي، وطموحها للوصول إلى السلطة، أو على الأقل المشاركة فيها، والوضع المتقلقل للبرجوازية السورية عامة، وعدم قدرتها على فرض هيمنتها المطلقة، ووقوفها في منتصف الطريق بين الإقطاعية والحركة المناهضة لها، واندفاع أعداد كبيرة من مثقفي البرجوازية الصغيرة نحو الفكر الاشتراكي، وتصاعد الوعي القومي العربي وانتشاره... كل هذه الأمور، إضافة إلى الأوضاع الدولية الملائمة، وخاصة تعاظم قوة الاتحاد السوفييتي وانتصار الثورة الصينية عام 1949، أسهمت في دفع الزخم الفلاحي، الذي طغى على الأحداث في أوائل خمسينيات القرن العشرين.

في تلك الفترة من خمسينيات القرن العشرين كان الطموح العام، لدى القوى السياسية التقدمية، وخاصة الحزبين الشيوعي والعربي الاشتراكي، واضحاً لتنظيم الفلاحين ودفعهم في مقارعة الإقطاعية وأساليب استثمارها، وكانت منطقة الجزيرة إلى جانب أرياف حماة والمعرة وصافيتا من المناطق التي شهدت الإرهاصات الأولى للتنظيم الفلاحي، فقد **عُقِدَ في الجزيرة في أواسط أيار 1952 مؤتمر الفلاحين**

---

[227]- المقصود بمحافظة اللاذقية هنا كلاً من محافظة اللاذقية الحالية ومحافظة طرطوس ومنطقة تلكلخ ومنطقة مصياف، وجميعها أُطلق عليها اسم محافظة اللاذقية منذ أواخر ثلاثينيات القرن العشرين حتى أواخر خمسينيات القرن العشرين، وقبل ذلك سُمّيت دولة العلويين، وكانت في أواخر العهد العثماني جزءاً من ولاية بيروت، كما ذكرنا سابقاً.

الأول، الذي كان وراءه الحزب الشيوعي، والذي دعا إلى توزيع أراضي الإقطاعيين والدولة على الفلاحين، وإلغاء السخرة، ومنع فرض الضرائب على نحو كيفي، كما انبثقت عن المؤتمر لجنة للدفاع عن حقوق الفلاحين، وقد تمكن هذا التنظيم الفلاحي من الوقوف جزئياً أمام الاستبداد الإقطاعي العشائري[228].

وفي ربيع 1952، وبمبادرة من الحزب الشيوعي، عُقِدَ اجتماع فلاحي مماثل في جبال الساحل، وصدرت صحيفة **"الأرض للفلاح"**، التي أشرفت عليها منظمة الحزب الشيوعي بقيادة كل من دانيال نعمة، المتخذ من مهنة المحاماة في مدينة اللاذقية ستاراً للتغطية الشرعية للعمل الحزبي، و"أبي علي" موريس صليبي المحامي القادم من حمص بهدف الإسهام في بناء منظمات الحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية، وتنظيم الفلاحين للدفاع عن حقوقهم، وأبو علي نشط سراً في محافظة اللاذقية من أوائل 1952 حتى صيف 1953.

بدأت في أيار 1954 حملة التحضير لمؤتمر الفلاحين الثاني في الجزيرة، كما عقدت اجتماعات واسعة في كل القرى، ناقش فيها الفلاحون مطالبهم، وهي: توزيع أراضي الإقطاعيين وأملاك الدولة عليهم، منع الطرد من الأراضي التي يقيمون عليها، وإعادة من طـُردَ منهم إليها، منع السخرة وفرض الضرائب كيفياً من الإقطاعيين، فتح مدارس في مختلف القرى، وتأمين التطبيب المجاني. كما طالب الفلاحون، الذين عقدوا اجتماعات في 150 قرية، بضرورة إطلاق الحريات الديمقراطية والسير على سياسة وطنية ومقاومة مشاريع المستعمرين.

إلى جانب الحزب الشيوعي أخذت، منذ عام 1950، أقسام من الحركة الجماهيرية الفلاحية تلتف حول الحزب العربي الاشتراكي، الذي يعود بجذوره إلى **"حركة الشباب"** الحموية الوطنية التقدمية المعادية للإقطاعية. وللإقطاعية في حماة وريفها جذور راسخة وتاريخ مليء بالمخازي وألوان الاستثمار والاستغلال والاضطهاد. ومن عقر دار الإقطاعية وموطن جبروتها انبثقت الحركة المناهضة للإقطاعية، فقد أخذ تيار البرجوازية الصغيرة الحموية منذ ثلاثينيات القرن العشرين يدخل في صدامات مع الإقطاعية المهيمنة على المدينة، وفي

---

[228]- جريدة "الصرخة" اللبنانية في 1954/06/13 و1954/05/23.

الأربعينيات اشتد ساعد هذا التيار بفضل عوامل عالمية وعربية وداخلية. وقد أدرك هذا التيار في أواخر الأربعينيات أن مفتاح النصر على الإقطاعية المهيمنة في المدينة يكمن في الريف معقل الإقطاعية من جهة، ويرتبط بمقدار قوة التحالف بين القوى الثورية والمستنيرة في المدينة وجماهير الفلاحين المُستـَغلـَّة الحالمة في الحصول على الأرض والتحرر من نير الإقطاعية، من جهة أخرى. ومن هنا جاء تأسيس الحزب العربي الاشتراكي كتعبير عن تحالف القوى الثورية المناهضة للإقطاعية في حماة وبعض المدن، مع جماهير الفلاحين من فقراء ومتوسطين وأغنياء وحتى من بعض صغار الملاك الطامحين في توجيه ضربة لكبار الملاك والخلاص من هيمنتهم والحلول محلهم في قمة الهرم الاجتماعي. وفي الوقت ذاته، كان ظهور الحزب العربي الاشتراكي حصيلة للحركة المناهضة للإقطاعية في الأرياف في أواسط سورية[229].

قمة نشاط الحزب العربي الاشتراكي في الميدان الفلاحي تمثلت في نجاح المهرجان الفلاحي العلني الأول من نوعه، الذي دعا إليه في 15 أيلول 1951 الحزب العربي الاشتراكي[230]، وقد عُقِدَ هذا المهرجان الفلاحي الجماهيري العلني الأول من نوعه في مدينة حلب معقل حِزبَيْ الشعب والوطني، وهما حزبا ملاك الأرض الإقطاعيين والبرجوازية الحلبية، وسط أجواء متوترة أثارها أقطاب الإقطاعية في حماة ومعرة النعمان وحلب بهدف إفشال المهرجان الفلاحي، وبالتالي الاستمرار في السيطرة على الفلاحين واستثمارهم واضطهادهم.

ولن ندخل هنا في تتبع نشاط الحزب العربي الاشتراكي بين الفلاحين، لأنه بحاجة إلى دراسة خاصة[231]، فالحزب العربي الاشتراكي كان في الواقع حزب الفلاحين في خمسينيات القرن العشرين، وتقدَّم على الحزب الشيوعي في هذا المجال، لكن كتابنا هذا المهتم بالنشاط

---

[229]- يرى بعضهم أن حركة الحزب العربي للاشتراكي بقيادة أكرم الحوراني كانت حركة شعبوية، كما جاء في مقالة كتبها محمد جمال باروت وقرأتها مطبوعة على الآلة الكاتبة، وضاعت من أرشيفنا.

[230]- بعد هذا المهرجان، اتحد الحزب العربي الاشتراكي مع حزب البعث العربي تحت اسم حزب البعث العربي الاشتراكي.

[231]- تناولنا في فصل مستقل تاريخ قيام الحزب العربي الاشتراكي في كتابنا "الحركة الشيوعية السورية – الصعود والهبوط".

الثوري للمناضل الشيوعي دانيال نعمة ورفاقه في النصف الأول من حياته السياسية يدفعنا إلى عدم الدخول في تفاصيل النشاط الفلاحي لدى الحزب العربي الاشتراكي، والاكتفاء بنشاط الحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية، التي كانت تضم في ذلك الحين محافظتي اللاذقية وطرطوس وقضائَيْ تلكلخ ومصياف[232]، وتمركزت قوة الحزب الشيوعي الفلاحية في الجزيرة أولاً، وفي الساحل السوري، وخاصة في مناطق صافيتا وطرطوس وتلكلخ ثانياً، وهو أحد مواضيع كتابنا هذا.

الفصل الثاني
المؤتمر الفلاحي الأول في "الجبل العلوي"
ربيع 1952[233]

عندما تولى المحامي دانيال نعمة أوائل عام 1952 قيادة (أو المشاركة في قيادة) منظمة الحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية، أولى جُلَّ اهتمامه إلى واقع المسألة الزراعية وكيفية تنظيم الفلاحين وحشدهم للنضال ضد ثلاث جبهات: جبهة النضال المناهض للإمبريالية، جبهة النضال المناهض للإقطاعية، وجبهة النضال ضد هيمنة السلطة على الفلاحين، ومن الطبيعي أن يسعى دانيال نعمة مع رفاقه لكسب الفلاحين إلى صفوف الحزب، الذي يَعدُّ نفسه حزب العمال والفلاحين.

وقبل دانيال نعمة ورفاقه، الذين نشطوا في أواخر العقد الخامس من القرن العشرين، كان بدر مرجان هو الذي هيَّأ الأرض، قدر طاقته، للجيل الثاني، ويبدو ذلك واضحاً من ذكريات دانيال، ومما ذكره لنا فايز بشور من صافيتا وعدد آخر ممن التقينا بهم أثناء جولتنا الميدانية عام 1983، وكان بدر مرجان عضواً في اللجنة المركزية (أو عضواً مرشحاً فيها)، وهو الذي قدَّم تقريراً أمام المجلس المنطقي لممثلي منظمات الحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية في تشرين الثاني سنة

[232]- أدبيات الحزب الشيوعي أطلقت على هذه المناطق اسم "الجبل العلوي"، كما ذكرنا.

[233]- لا نعلم بالدقة في أي يوم عُقِدَ المؤتمر الفلاحي الأول، لكن ما ورد في التقرير عن عدد الفلاحين، الذين دخلوا السجون من نيسان 1951 إلى نيسان 1952، يدل على أن المؤتمر عُقِدَ بعد نيسان 1952.

1945 تحت عنوان "**مطالب الشعب في الجبل العلوي**"، كما رأينا في فصل سابق.

بعد تقرير بدر مرجان بسبع سنوات جرت في ربيع 1952 التهيئة من نشطاء الحزب الشيوعي، وفي مقدمتهم دانيال نعمة و"أبو علي" باسم "اللجنة التحضيرية"، لعقد أول مؤتمر فلاحي في محافظة اللاذقية. شمل نشاط هذا المؤتمر أكثر من مئتي قرية، و"وافق على انعقاده خمسة آلاف فلاح من الفلاحين الشرفاء، الذين عزموا عزماً أكيداً" - حسبما جاء في التقرير-"[234] على العمل لإنقاذ حياتهم من مصائبها وعلى تأمين مستقبل أحسن لأطفالهم"[235].

تنبع أهمية المؤتمر الفلاحي الأول من التقريرَيْن اللذين ألقيا أمام المؤتمر، واللذيْن عكسا أوضاع الجبل العلوي السائدة في أربعينيات وأوائل خمسينيات القرن العشرين، وفيما يلي أهم ما جاء في التقريرَيْن:

أولاً– التقرير الأول الملقى في المؤتمر الفلاحي[236]

ننقل فيما يلي خلاصة التقرير الملقى على "ممثلين عن الفلاحين في مختلف مناطق الجبل ليبحثوا مطالبهم، وليضعوا الطرق المشتركة، للخلاص من أوضاعهم البائسة". والجمل الموضوعة بين أقواس هي نقل حرفي من التقرير الملقى أمام مؤتمر الفلاحين، مع الحفاظ على روح التقرير والحرص على إعطاء صورة واقعية عن الأوضاع السائدة في مختلف مناطق "الجبل العلوي"، الذي يطلق عليه التقرير أحياناً اسم

---

[234]- التقرير مكتوب بخط اليد، وهو حصيلة عمل جماعي، لكن لا نعلم من كتب التقرير: المحامي دانيال نعمة، الذي اتخذ من اللاذقية مركزاً لنشاطه الحزبي تحت لافتة العمل في المحاماة، أم المحامي الحمصي موريس صليبي، الذي أرسله الحزب للعمل السري الحزبي، وعُرف باسمه الحركي "أبي علي"، وكان له نشاط سري بارز في مناطق طرطوس وصافيتا وتلكلخ، ونرجح أن دانيال وأبو علي عملا معاً، كل من موقعه، للتحضير للمؤتمر الفلاحي وصياغة تقريره.

[235]- التقرير المكتوب بخط اليد موجود بين أوراق دانيال نعمة، ولا يذكر التقرير يوم انعقاد المؤتمر، لكن حيثيات التقرير تشير إلى أنه وضع بعد شهر نيسان 1952، وقبل انعقاد مؤتمر فيينا للسلام.

[236]- لا نعلم من أعد التقرير، لكننا نقدر كما ذكرنا في حاشية سابقة أن دانيال نعمة و"أبا علي" أسهما مع غيرهما في الإعداد للتقرير، الذي كان عملاً جماعياً وحصيلة آراء ومعلومات مستقاة من عدد كبير من الفلاحين، وهو عمل جماعي بامتياز، وبحث استقى مصادره من صميم الواقع.

"جبلنا" أو "الجبل" دون تحديد.
"فلأول مرة"، كما جاء في التقرير، "يجتمع أبناء جبلنا، ليوحدوا صفوفهم، وليتضامنوا في جبهة واحدة متماسكة حديدية، ليقضوا على النهب والظلم والبؤس في ديارهم".
الحدث الهام يتمثل في انعقاد هذا المؤتمر، الذي "يتعانق ويتحد فيه إخوان جاؤوا من بسيسين على البحر إلى مصياف القريبة من حماة، ومن كنسبّا على الحدود التركية إلى تل حردون عند مصب النهر الكبير الجنوبي"، "وكان العمل لتحضير المؤتمر حافزاً على نضالات عديدة قام بها الفلاحون في مناطق عديدة، وزاد في التعارف والتضامن بين أبناء القرى المختلفة".
ويعترف واضع التقرير أن "قرى كثيرة في الجبل لم تساهم في تحضير المؤتمر، وفلاحون لم يسمعوا به"، وهذا "الأمر يفرض علينا"، والكلام لكاتب التقرير، "واجبات جديدة هي أن نعرف الأهمية الكبرى لاجتماعنا هذا، وأن نتخذ فيه قرارات تتفق مع مصالح جميع الفلاحين في الجبل، وفي وطننا السوري"، ودعا واضع التقرير جميع الشرفاء المخلصين للنضال "ليقربوا يوم النصر النهائي على أعداء الفلاح وأعداء الشعب السوري".
بعد هذه المقدمة استعرض التقرير حياة "أبناء جبلنا":
"التربة غنية، والسكان نشيطون، لكن أكثر من تسعين بالمئة منهم يعيشون في غرفة واحدة غير صحية مع دوابهم، ومعظم السكان لا يأكلون (خبز) القمح أكثر من شهر واحد خلال السنة، وفي المدة الباقية يقتاتون (بخبز) الذرة والشعير، ولا تتعدى مؤنة الفلاح الميسور سوى قليل من البرغل والزيت".
"فكثيرون من الفلاحين يصابون بالأمراض الناتجة عن قلة الغذاء. وما أكثر الحفاة في جبلنا! وكم هي قليلة الملابس التي ترد عن أجساد الفلاحين عوامل البرد القارص! وكثيرة هي القرى التي لا يشرب أهلها الماء النظيف، وأربعة أخماس قرى الجبل ليس فيها طرق معبدة، وإنما طرقها الوحيدة هي الطرق التي شقتها البغال والحمير...".
والمدارس عبارة عن بيوت حقيرة، والأكثرية الساحقة من القرى محرومة حتى من هذا النوع المتأخر من المدارس، "وكثيرون من الآباء يضطرون لتأجير أطفالهم"، كي ينقذ الأب بقية أولاده، "وهكذا فإن

الألوف من الأطفال في الجبل العلوي يخدمون الأغنياء [237]، ويعيشون كالعبيد في مختلف أنحاء سورية، بعيدين عن عطف الأبوين، ومحرومين من أي مرح وسرور..."[238].

"وقرانا محرومة من أي مستشفى أو طبيب رسمي... و90 بالمئة من مرضانا يبقون يعانون المرض دون دواء... وأما المستشفى الوحيد الموجود في اللاذقية، فلم نسمع أنه ساهم في إنقاذ فلاح واحد...".

"وأما وضع الفلاحين، الذين يعملون عند الإقطاعيين في الجبل والساحل، فلا يمكن وصفه... إن لهذا الوضع المؤسف أسباباً عديدة تلخص بجملة واحدة هي أن الحكم في بلادنا هو بأيدي أعداء الشعب، أعداء العمال والفلاحين، إنه بأيدي اللصوص أجراء الاستعمار والإقطاعيين...".

ويعدد التقرير وسائل نهب الأراضي، التي يتبعها الإقطاعيون عن طريق القوة والبطش والتزوير والاحتيال، أو عن طريق رشوة الموظفين في دوائر الطابو. وبعد الاستيلاء على الأراضي بهذه الطرق، يبدأ الإقطاعيون بتهجير الفلاحين وتشريدهم. ويعدد التقرير أسماء أكثر الإقطاعيين إجراماً، "وَهُمْ...".

ويدخل التقرير المُلقى أمام مؤتمر الفلاحين في تفاصيل كيفية سرقة الإقطاعي لتعب الفلاح، وهي تختلف من منطقة إلى أخرى، وهي في جميع الأحوال لا تترك للفلاح ما يكفيه مؤنته من الخبز والبرغل.

أما ضريبة العُشر الملغاة، والمستعاض عنها بضريبة الإنتاج، فبقي الإقطاعيون يجبونها من الفلاحين، وتدخل في خزائن الإقطاعي.

"ومخافر الدرك هي أداة في يد الإقطاعيين لإرهاب الفلاحين وسجنهم وتأديبهم"[239]، ويورد التقرير، نقلاً عن إحصاءات الحكومة،

---

[237]- ولم يقتصر الأمر على التأجير، بل تعداه في حالات معينة إلى بيع البنات، وثمة حوادث لا تحصى، ومنها أن فلاحاً في المندرة إلى الغرب من صافيتا باع ابنته، وعمرها ثلاثة أيام، بمئة وخمسين ليرة سورية في أوائل خمسينيات القرن العشرين.
ديب قطيرة، الناشط في ذلك الوقت في الحركة الفلاحية، روى لنا إحدى حوادث البيع، وسمّى والد الطفلة الرضيع المبيعة.

[238]- هذه إشارة إلى عمل الفتيات العلويات في المدن السورية خادمات، وهذه الظاهرة بقيت حتى أوائل ستينيات القرن العشرين.

[239]- في لقاء للمؤلف في دير الزور مع فاضل محمود السيد طه بتاريخ 1984/04/15، وهو من مواليد 1918، متقاعد خدم في سلك الدرك في محافظة اللاذقية، تحدث بإسهاب

"أن 12 ألف سجين، منهم 11 ألف فلاح، دخلوا سجون محافظة اللاذقية من نيسان 1951 إلى نيسان 1952، وقد درس أعضاء اللجنة التحضيرية للمؤتمر أسباب سجن 500 فلاح".

"وليس كل ما ذكرتُ"[240] "هو كل مصائب الفلاحين"، فالحكومة عن طريق الضرائب تقوم بعصر الفلاح، سواء كان فلاحاً محاصصاً عند الإقطاعي أم فلاحاً مالكاً لقطعة من الأرض.

"وأما ثروات الأرض السورية ومرافق البلاد الكبرى وتجارة البلاد الخارجية فمعظمها في أيدي المستعمرين الأجانب، وكان يلزم أن تكون ملكاً للشعب...".

وهذا الأمر أدى - حسبما جاء في التقرير- "إلى بطالة عمال المدن، مما جعل الفلاحين، الذين يزيدون عن الزراعة، لا يجدون عملاً في المدن بسبب بطالة عمال المدن أنفسهم، التي يسببها النهب الاستعماري الأمريكي الإنكليزي الفرنسي، وبمساعدة الحكام الخونة وبالاشتراك معهم"[241].

"إن الأموال الطائلة التي تنهبها الحكومة من الشعب... تصرف في أبواب عديدة، منها: النهب، وتوظيف المحاسيب، وإقامة الاستعراضات...".

ويرى التقرير أن الجيش كان "بعيداً أن يستعمل ضد الفلاحين، وكان رجال الدرك والأحراج والرعي[242] يقومون وحدهم بهذه الوظيفة، لكن في عهد ديكتاتورية الشيشكلي أخذنا نرى الجيش يشن حملات هجومية على القرى بقيادة جلاد الفلاحين الإقطاعي... [243]، الذي هاجم قرى الجوبة وسبّة وعين بشريتي، وعذب شبابها ونساءها بنفسه، وقادهم مكبلين إلى ثكنات اللاذقية وطرطوس، لا لشيء إلا لإرهابهم وإجبارهم

عن ممارسات الدرك الظالمة تجاه الفلاحين، وختم حديثه بالجملة التالية: "نحن الدرك كنا سوطاً في يد الإقطاعيين لتأديب الفلاحين".

[240]- والتاء تعود على واضع التقرير بمعونة اللجنة التحضيرية للمؤتمر، واعتماداً على تقارير المؤتمرات الفلاحية الأدنى.

[241]- كانت سياسة الحزب الشيوعي في أواخر أربعينيات وأوائل خمسينيات القرن العشرين تتصف بالراديكالية والتطرف، وهذا الأمر بحاجة إلى دراسة خاصة.

[242]- يقصد حراس الأحراج والمراعي.

[243]- رأينا من الأنسب عدم ذكر اسم ذلك الضابط، حرصاً على صدور الكتاب، وخوفاً من الرقيب في وزارة الإعلام.

على الخضوع لنهب الإقطاعيين...".

بعد هذا العرض الناري والمكثف لوضع الفلاحين في "الجبل العلوي"، وقبل تلخيص مطالب الفلاحين في مؤتمرهم السرِّي، يُعرِّج التقرير على الوضع الدولي، ونصب عينيه الدفاع عن الاتحاد السوفييتي، "هذه الدولة التي ينقم المستعمرون عليها، لأنها قضت على أعداء العمال والفلاحين، واستلم فيها الحكم العمال والفلاحون"... "وهذه الدولة تساعد الشعوب الضعيفة على تحررها من الاستعمار، وتسعى في سبيل السلم".

ويسير التقرير هنا، وفق اتجاه الحركة الشيوعية في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، على الاعتقاد بأن المستعمرين "يريدون منا أن نتسلح من مالنا، لنجند أبناءنا لتحارب الاتحاد السوفييتي لانتصاره على الإقطاعية والرأسمالية".

ويلاحظ أن الحزب الشيوعي لم يكن يرى في الجيش السوري أيام الديكتاتوريات العسكرية قوة وطنية تقف مع الشعب، لكن منذ أوائل عام 1954، وبعد الخلاص من ديكتاتورية الشيشكلي وظهور عدد من الضباط ذوي الميول الوطنية وكثرة المجندين المتحدرين من الفئات الشعبية، بدأ الحزب الشيوعي يرى أن طبيعة الجيش أخذت تتغير باتجاه ازدياد شكيمة الضباط الوطنيين المسنودين من جماهير عريضة من المجندين، وأخذ يصف الجيش بالوطنية، ويدعو منذ عام 1955 إلى تسليح مصر وسورية للوقوف في وجه الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة[244].

اختتم التقرير أمام مؤتمر الفلاحين بالإشارة إلى "أن **هذا التقرير هو خلاصة موجزة لما وصل إلى اللجنة التحضيرية من شكاوى الفلاحين، التي لا تُعد ولا تُحصى، وأنا[245] ألخّص الآن المطالب الأساسية، التي جُمِعَت من مئتي قرية ساهمت في التحضير للمؤتمر**"، وهي:

1: توزيع أراضي أملاك الدولة وأراضي الإقطاعيين على الفلاحين

---

[244]- ومعروف أن السلاح أخذ يتدفق على كل من مصر وسورية من تشيكوسلوفاكيا أولاً، ثمّ من الاتحاد السوفييتي، مغيِّراً موازين القوى لصالح حركة التحرر العربي المناهضة للاستعمار وذات الوجه التقدمي.

[245]- لا نستطيع الجزم هنا لمن تعود "أنا" قارئ التقرير ومحرره، أ لدانيال نعمة أم لموريس صليبي.

الفقراء دون مقابل.

*2: **إلى حين تحقيق هذا المطلب السعي لإنقاص حصة الإقطاعي باستمرار**[246]، وإلغاء ضريبة العُشر وأجور الدواب والمقطوع وثمن السموم والسخرة والهدايا الإجبارية، وإيقاف الإقطاعيين الذين يعتدون على الأعراض عند حدهم، والنضال ضد طرد الفلاحين من الأرض وتشريدهم، وإلغاء تضمين حصص الإقطاعيين وطرد الفلاحين من القرى[247]، ووقف استخدام الجيش والدرك لخدمة الإقطاعيين، ومعاقبة الذين يضربون الفلاحين ويسجنونهم ظلماً بأشد العقوبات.*

3: إلغاء الضرائب على المواد الغذائية وكل المواد اللازمة لحياة الفلاح، وزراعته، وتأمين المؤونة والبذار بأسعار رخيصة للفلاح يدفع ثمنها بعد الموسم دون فائدة.

4: النضال من أجل بناء مدارس ومصحات على نفقة الحكومة في مختلف مناطق الجبل وجميع الأقضية، مع قبول جميع المرضى من العمال والفلاحين فيها دون معاملة، وتخصيص مستوصفات سيارة تطوف القرى مزودة بالأدوية اللازمة، وتداوي (الناس) مجاناً، وتخصيص أطباء بياطرة وأدوية ضد أمراض المواشي والدجاج ومكافحة الأمراض السارية.

5: شق الطرق على نفقة الحكومة لجميع القرى وإلغاء السخرة الحكومية.

6: منع رجال الدرك والأحراج والريجي من فرض فرائض تبن ودجاج وشعير وغيره على القرى، واعتبار خيولهم غير "مصدّقة" إلا بشهود من القرية غير المخاتير[248].

7: تأمين مياه الشرب للقرى التي ليس فيها عيون بضخ المياه من

---

[246]- نلاحظ أن هذا التعبير الوارد في الرقمين 1 و 2 استخدم حرفياً في برنامج مرشحي الحزب الشيوعي في انتخابات خريف 1954 للمجلس النيابي، ومعروف أن دانيال كان من هؤلاء المرشحين، وله إسهام واضح في الإعداد لذلك البرنامج، خصوصاً فيما يتعلق بالمسألة الزراعية.

[247]- كثيراً ما قام ملاك الأرض بتضمين حصتهم من المحصول إلى شخص قوي، غالباً ما يكون بلا ضمير، فيقوم بإرهاب الفلاحين، وأخذ مقدار أكثر من الحصة التي ضمِنَها.

[248]- كان الدرك يقومون، كما هو الحال مع الكثيرين من موظفي الدول السلطانية، بمهمات وهمية انطلاقاً من اللاذقية أو صافيتا، وغالباً ما كان المخاتير، عيون الأجهزة، يمهرون هذه المهام بأختامهم، مما رتب أعباء إضافية من النهب المرتبط بفرائض علف دوابهم.

الآبار أو بجر المياه على نفقة الحكومة.

8: رفع أجور العمال الزراعيين إلى أربع ليرات في اليوم، إضافة (جملة غير مقروءة)، وإلغاء الحجز، وإعطاء الرخص للفلاحين دون الإقطاعيين، وإجراء التخمين من لجنة من الفلاحين والموظفين.

9: حريات الشعب في الكلام والنشر والاجتماع والتظاهر، وحرية الأحزاب، وتأليف الهيئات وجمعيات الفلاحين، وإلغاء مراسيم حل الأحزاب ومنعها من العمل بالسياسة.

10: مصادرة الشركات الأجنبية، وطرد جواسيسها الأجانب من البلاد، وحماية الصناعة الوطنية، ومكافحة البطالة، وإيجاد أعمال للعاطلين، ومنع شركة البترول من شراء قلعة المرقب، و... ومصادرة مطاراتها، وإجبارها على دفع تعويض عمّا أتلفته من مزروعات وما صادرته من أراضٍ.

11: مكافحة مشاريع الاستعمار، وخصوصاً قيادة الشرق الأوسط، وتحرير سورية من كل نفوذ أجنبي، ووقوفها إلى جانب حريات الشعوب، ودعم السلام العالمي، والمطالبة بتخفيض تسلح الدول الكبرى، وعقد ميثاق سلم بينها.

12: تأييد مؤتمر الشعوب في سبيل السلم، الذي سيعقد في فيينا، ودعم الوفد السوري المسافر لحضوره[249].

ثانياً- التقرير الثاني المقدم أمام مؤتمر الفلاحين في ربيع 1952[250]:

نلاحظ أن التقرير الثاني المتمم للتقرير الأول، والملقى باسم اللجنة التحضيرية لمؤتمر الفلاحين، يحمل في ثنايا تقنيته أقلام محامين تمرسوا بالعمل النضالي إلى جانب خبرتهم الحقوقية.

وننشر فيما يلي النص الحرفي للتقرير الثاني، كي يعيش القارئ مع أجواء منتصف القرن العشرين، التي يُقيّمها معدو التقرير، ومنهم

---

[249]- جرت إضافات من المؤتمرين، تتعلق بهموم الفلاحين ومعاناتهم، واضطررنا إلى عدم ذكرها لضرورة الاختصار.

[250]- من ألقى التقرير الثاني؟ أمر نجهله، لكن المهم أن التقريرين موجودان بين أوراق دانيال، وهما حصيلة عمل مشترك مستمد من أفواه الفلاحين في الاجتماعات، التي كانت تعقدها منظمات الحزب الشيوعي.

دانيال، ويدعون إلى إصلاحها، بل لتغييرها، بالاستناد إلى سياسة الحزب الشيوعي من المسألة الزراعية، وسعيه لكسب الفلاحين إلى صفوف الحركة الثورية، التي كان يناضل من أجلها.

ونشير مرة ثانية أن هذا التقرير كسابقه هو حصيلة ما جُمِعَ من تقارير واقتراحات في مؤتمرات الفلاحين، أو أثناء اللقاء بهم، ونُذكِّر أن دانيال نعمة أصبح منذ أوائل 1952 مسؤولاً عن قيادة منظمة اللاذقية، وواضح أن التقريرين، وهما حصيلة عمل جماعي يحملان بصمات دانيال نعمة، الأكثر إطلاعاً على أوضاع الفلاحين في الساحل وجباله من "أبي علي" القادم حديثاً من حمص لقيادة العمل السري للحزب، وفيما يلي نص التقرير الثاني:

"أيها الإخوان!

لقد تبين لنا في التقرير الأول الأحوال السيئة التي يعيش فيها الفلاحون سكان جبلنا، ومن واجبي في هذا التقرير أن أُبَيِّن أحسن الطرق، التي علينا أن نتبعها لنقضي على هذه المصائب. عليَّ أن أبين طريق الخلاص.

إن موجة جديدة من الوعي والجرأة تجتاح جبلنا، وقد أخذ المظلومون يتخلصون من الخوف ومن الخضوع لإرادة الإقطاعيين والظالمين. لقد بدأ ابن الجبل يشعر أن بإمكانه أن يمنع ما يحل به من نهب واضطهاد واستبداد.

ففي كل يوم نسمع بحادثة جديدة، وبنضال جديد يعلنه الفلاحون المظلومون في قرى مختلفة من جميع مناطق الجبل، فبينما كان الإقطاعيون في الماضي يجبرون الفلاحين على التنازل عن أرضهم بالضغط والقوة، أو يطوبون أرض الفلاح باسمهم بمساعدة الحكومة والدرك ودوائر الطابو أو بالسندات المزورة، ثم يستعبدون أصحاب الأراضي، وينهبون معظم مواسمهم، ويطردونهم من الأرض، فإننا نرى اليوم أن كثيرين من الفلاحين أخذوا يقفون في وجه هذه الاعتداءات، ويقاومون جميع المؤامرات الجديدة، التي يحيكها الإقطاعيون للاستيلاء على أراضٍ جديدة. إننا نرى اليوم أن الفلاحين أخذوا يناضلون من أجل إنقاص حصة الإقطاعي واسترجاع الأراضي المسلوبة. وفي كثير من القرى، نجح الفلاحون بمنع الإقطاعيين من طردهم من الأرض ومن تشريدهم.

ورغم أن الحكومة لا تزال تساند الإقطاعيين، وخصوصاً في هذا العهد، فإننا نرى أن الفلاحين أخذوا يدركون أن أي عدو لهم لا يمكنه بعد اليوم أن يتغلب عليهم، إذا هم اتحدوا وتضامنوا، ولم يهتموا بتهويش الإقطاعيين ومن يساعدهم.

فقد نجح أهالي حدية منذ سبع سنوات بمنع الإقطاعيين من آل الجرجس من نهب ثلث مواسمهم، وأصبح إنتاجهم كله لهم، كما نجح أهالي بشرايل بعد تضحيات كبيرة بمنع أبناء العباس من طرد ثلاث عشرة عائلة من القرية، رغم أن الإقطاعيين بذلوا عشرات الألوف من الليرات، واشتروا معظم الحكام، وسجنوا عشرة من فلاحي بشرايل مدة خمسة أشهر، لكن أهالي بشرايل لم يتركوا الأرض، ولن يتركوها أبداً، وسينجحون كل يوم وكل عام بتحصيل مطالب جديدة.

وأهالي حكر كابر تمكنوا في الموسم الماضي من منع الإقطاعي شوكت العباس من نهب أية حصة من موسمهم.

وكان الإقطاعيون في جنوب صافيتا يطردون في كل عام عدداً من فلاحي قراهم، ليأتي غيرهم، ويقبلون بالعمل لدى الإقطاعيين بشروط أقسى وأظلم من شروط القدماء، لكن في هذه السنة عندما ازداد وعي الفلاحين وتضامنهم، وتمرنوا أكثر على النضال، وبفضل توجهات اللجنة التحضيرية لمؤتمر الفلاحين، فشلت جميع محاولات الإقطاعيين لطرد أي فلاح من أرضه.

وكانت الريجي ترفض إعطاء قرية عيون الوادي رخص دخان، فزرع الفلاحون من أنفسهم، وأرادت الحكومة إتلافه، فرَدَّ الفلاحون بالحجارة كل القوة التي أرسلتها الحكومة، ومنذ ذلك الحين أصبحت الريجي تعطي قرية العيون رخصاً، ولم يجر تفتيشها مرة واحدة.

وتناضل قرية مرسحين البطلة من أجل طرد الإقطاعي قيصر عرنوق من قريتهم، بينما بقي سنين يسلب ثلث مواسمهم ظلماً وبهتاناً، ورغم أن الحكومة أنشأت مخفراً لخدمة الإقطاعي ولإرهاب الفلاحين في القرية، ورغم أن أحد ضباط الجيش، وهو ابن إقطاعيين معروفين، سجن وعذب بضعة عشر فلاحاً من مرسحين، ورغم تدخل أبناء عشيرة أهالي مرسحين لتخويف الفلاحين، رغم كل ذلك ما يزال أهالي مرسحين مصرين على نضالهم حتى ينتصروا في مطالبهم: في ملكيتهم للأرض، وفي إبقاء مواسمهم وتعبهم لهم ولأطفالهم.

وأراد الإقطاعي أنيس إسماعيل، الذي يملك خربة المعزة التابعة لطرطوس، أراد أن يطوب مساحات القرية باسمه، وكان الفلاحون يرعون فيها طروشهم، فمنعه الفلاحون من تطويبها.

والأمثلة على هذه الانتفاضات كثيرة، ويمكننا أن نذكر عدداً من القرى التي تناضل في سبيل مطالبها، وهي: حاصور وتل جردون في تلكلخ، وسبة وعين بشريتي في صافيتا، والواسطات في طرطوس، وكفر عقيد وكفر قمرة وبعرين وينصاف في مصياف، وبساسين وقرى الأوقاف في جبلة وغيرها وغيرها...

***إن هذه النضالات، التي تتسع وتشتد يوماً بعد يوم، لهي دليل ساطع، أن عهداً جديداً بدأ في جبلنا،** وأن فجر الخلاص قد أشرق مبشراً بأيام أحسن وبانتصارات عديدة، والإقطاعيون وأنصارهم الحكام يرتجفون خوفاً من هذه الموجة المرعبة، وهم بلا شك لا يتنازلون عن نهبهم وامتيازاتهم برضاهم، لهذا فالمعركة ستشتد، ولكننا لا شك نحن الذين سننتصر فيها.*

ولكي نكون أكثر إيماناً بالنصر، ولكي نعرف أقصر الطرق لنجاحنا، علينا أن ندرس بالتفصيل ما هي الطرق التي يتبعها الإقطاعيون للبطش بالفلاحين، وليداوموا على نهبهم لدمائنا وعرق جباهنا.

إن الإقطاعيين، كانوا وما يزالون، يلجؤون لطرق دنيئة في إخضاعهم للفلاح، فهم عندما لا ينجحون في أن يسرقوا بأنفسهم كل ما يريدونه من القرى عن طريق الخولية[251]، يُضَمِّنون وارداتهم إلى بعض أهالي القرية، ممن لا أخلاق لهم، فيصبح هؤلاء أعداءَ جدداً، يساهمون في نهب الفلاح، لهذا علينا أن نمنع أي فلاح من أن يضمن حصة الإقطاعيين من أي موسم من المواسم، وبإمكاننا أن نفعل ذلك، إذا قوينا الاتحاد والتضامن بين الفلاحين.

ويلجأ الإقطاعيون، وخصوصاً ضد القرى المناضلة، إلى شراء الخونة والجواسيس من أبناء القرى، ليتعاونوا معهم ضد إخوانهم الفلاحين، فعلينا نحن أن لا نسمح لأحد بأن يكون خائناً، عميلاً ومخبراً للإقطاعيين، ونحن قادرون على ذلك باتحادنا وتضامننا، ويلجأ الإقطاعيون إلى إرهاب الفلاحين عن طريق الدرك، الذين يحررون الضبوط، ويفرضون على الفلاحين تقديم الطعام لهم ولخيولهم، ويصل

---

[251]- الخولي هو وكيل الإقطاعي، وسيفه المسلط على رقاب الفلاحين... الجمع: خَوَل.

الأمر في القرى المناضلة إلى أن الإقطاعيين يأمرون عميلتهم الحكومة بإنشاء مخفر خاص استثنائي.

إننا سننتصر، لأن ما نريده هو أن يجد طفلنا، إن مرض، طبيباً ودواءً، نريد أن لا يموت نصف أطفالنا من الجوع ومن نهب الإقطاعيين والمستعمرين والحكام لأتعابنا، لأننا نريد علماً وطرقاً وماءً نظيفاً ومسكناً صحياً، وأن تعود الضرائب الباهظة التي ندفعها، أن تعود لمساعدتنا.

***لهذا يلزم أن نناضل من أجل جميع المطالب، التي اتفقنا عليها على أثر سماعنا للتقرير الأول، وذلك بجميع الطرق: عرائض، وفود، احتجاجات، مظاهرات وغيرها،** وعلينا أن نستعمل كل إمكانياتنا لإقناع الجماهير بهذه المطالب وبالنضال في سبيلها. إن جميع قوى الحكومة فشلت في إخماد نضال قرى قليلة، فكيف لو شمل النضال جميع القرى؟ إن أكبر قوة في الأرض لا يمكنها أن تجبرنا على القبول بما يحل بنا الآن من مصائب، فلا صراخ الإقطاعيين، ولا خيانة أذنابهم، ولا تهويش الدرك، ولا التعذيب، ولا السجون بإمكانها أن تثني أصحاب الحق للعدول عن حقهم. وإن جميع هذه الأمور من اضطهاد وسجون وتعذيب تحل بالفلاحين دون أن يناضلوا، وهي تقل وتنعدم إن قاومناها.*

ومهما كانت التضحية، فإن الكسب والفائدة ستكون أكبر بكثير وكثير، ولدى كل نضال نقوم به نكسر فيه قيداً جديداً، فالذين يخافون تنصبّ البلايا على رؤوسهم، والجريئون يحرزون مطالبهم. فعلينا قبل كل شيء أن نتحد، وأن نتحد، وأن نتحد، فعلى صخرة اتحادنا، تنكسر كل محاولات المغتصبين والظالمين.

وعلى الواعين والجريئين منا، أن يحملوا إلى جميع القرى شعارات مؤتمرنا هذا، والمطالب التي اتُفِقَ عليها. والمندوبون فيه، عليهم أن يزوروا أبعد القرى، ويعقدوا الاجتماعات لأهلها، ويتصلوا مع الفلاحين، في كل بيت وكل ناعورة وكل حقل، ليدعوهم للاتحاد والتضامن والنضال في سبيل هذه المطالب، وأن ننشر أخبار القرى المناضلة وانتصارات الفلاحين، وأن ندرس معهم الأسباب التي تؤدي في بعض الأماكن إلى تغلب الإقطاعيين، ونُبَيِّن أن هذه الأسباب يمكن التغلب عليها، بفضح الخونة، وعزل المتخاذلين الجبناء، وضم شمل الجريئين المخلصين لأطفالهم ومستقبلهم، وإفهام أبناء القرى أن اللجوء للمحاكم

ولوساطات المتنفذين ولرؤساء العشائر الإقطاعيين لا يؤدي إلا إلى خسارة الفلاح ماله وحقوقه، وإن المرجع الوحيد الذي يجب أن نشتكي له هو سواعدنا وإخواننا الشرفاء، فسواعدنا هي الزعماء، وعقولنا هي الحكام، وقلوبنا هي القانون والعدالة.

علينا أن نكثر من أمثال هذه المؤتمرات الكبيرة والصغيرة، وأن ننتخب لجاناً في القرى تضم أشرف الفلاحين وأجرأهم للدفاع عن الفلاح ومطالب القرية، وأن نطلب من كل فرد أن يعطي رأيه، ويناقش كل قرار من قراراتنا، وأن لا نسلم قيادتنا للمتخاذلين الضعفاء، الذين يتبعون طرق المفاوضة والمصالحة مع أعدائنا، التي لا تؤدي إلا إلى خسارتنا، وأن ننبذ من يدعونا لتأييد أي حزب يتزعمه حكام أو نواب سابقون خانوا أمانتهم، أو سكتوا عندما أراد حلفاؤهم الحكام والإقطاعيون والمستعمرون أن يسكتوا.

إننا سننتصر، إذا عرفنا أن نعمل بإخلاص وبوعي، ليس فقط لأننا أصحاب الحق، ولأننا الأكثرية، بل لأن جميع المظلومين المعذبين في وطننا هم إلى جانبنا، وفي مقدمتهم عمال المدن حلفاؤنا وإخواننا الأشاوس، الذين سبقونا في النضال من أجل مطالبهم: بزيادة الأجور، وبإيجاد أعمال للعاطلين، وبمكافحة الاستعمار ونهبه، ومقاومة الغلاء، وإلغاء الضرائب عن المواد الغذائية، وتأمين الخبز للشعب.

إن حلفاءنا عمال المدن يناضلون معنا أيضاً ضد الإقطاعية وضد استعباد الفلاحين، فعلينا أن نتضامن ونتآخى معهم، فهم خير نصير أمين لنا.

ومعنا أيضاً جميع الشرفاء في العالم، الذين يحاربون ضد الاستعمار وجرائمه، وضد الحرب المجرمة التي يريد بعض الأمريكيين والإنكليز والفرنسيين أن يزجونا ويقضوا علينا فيها. إن جميع الشرفاء في العالم وفي مقدمتهم شعوب روسيا والصين وعمال الغرب وجميع الشعوب التي تناضل في الشرق وإفريقيا من أجل استقلالها، إنها معنا لأنها تحارب المستعمرين، وهم أعداؤنا وأعداؤهم، وهم الذين يسندون الحكام الخونة الذين يظلموننا في بلادنا، والإقطاعيين الذين ينهبون أرضنا ورزقنا.

إننا سننتصر، لأن التاريخ علمنا أن هذا العصر هو عصر القضاء على الاستعمار والإقطاعية، هو عصر وصول العمال والفلاحين إلى

الحكم، وقد نُفِّذ ذلك في روسيا والصين وكوريا الشمالية وفي ثماني دول أخرى من دول أوربا، ففي هذه البلدان نجح العمال والفلاحون في القضاء على كل نهب لهم، ووزعوا أراضي الإقطاعيين على الفلاحين، ووضعوا كل ثروات الشعب في خدمة حياة الشعب.

وإننا نسمع في كل يوم بانتصارات جديدة يحرزها الفلاحون حتى في الدول التي ما يزال يحكمها إقطاعيون ورأسماليون. ففي هذه الدول، يفرض الفلاحون والعمال مطالبهم فرضاً بقوتهم، ففي إيطاليا احتل الفلاحون أراضي الإقطاعيين المتروكة فاضطرت الحكومة لتوزيعها عليهم، وفي الهند الصينية يحارب الفلاحون والعمال بقيادة الفلاح هوشي منه كل جيش فرنسا، وينتصرون، وقد حرروا من الاستعمار والإقطاعية 9 أعشار بلادهم. وفي الملايو، احتل الفلاحون جميع مزارع المطاط التي يملكها المستعمرون الإنكليز وشركاؤهم الإقطاعيون.

إن أعداءنا الإقطاعيين والمستعمرين خائفون منا، إنهم يخافون أن تنتهي أيام نهبهم لتعبنا، لهذا يفرضون على بلادنا وبلدان كثيرة غيرها أنظمة ديكتاتورية، يحاولون فيها قتل كل حرية وكل نضال سياسي واقتصادي، ولكن لم تعتد الشعوب أن تخاف من مناورات أعدائها وتدابيرهم.

والقرى المناضلة تعطينا أحسن الدروس، لهذا فإن من أهم واجباتنا تأييد هذه القرى والتضامن معها ومساعدة السجناء فيها. إنهم يُسْجَنون ليس من أجلهم فقط، ولكن من أجلنا جميعاً، وانتصارهم هو انتصار لنا جميعاً.

هذه هي أيها الإخوان الطرق التي ترى اللجنة التحضيرية أنها لا بد منها لتعجيل انتصارنا وتخفيف وإلغاء المصائب التي تعاهدنا على محوها من جبلنا، لنعيش أحراراً سعداء مستقلين، نقبض على مصيرنا بيدنا والسلام".

(انتهى نص التقرير الثاني المقدم للمؤتمر الفلاحي الأول في الجبل العلوي ربيع 1952).

الفصل الثالث
محضر المؤتمر الفلاحي الأول في الجبل العلوي
ربيع 1952

إضافة إلى التقريرين، الذين أوردنا نصّيهما في الفصل السابق، وجدنا بين أوراق دانيال نعمة محضر تقرير المؤتمر الفلاحي[252] المؤلف من ثلاثة أقسام هي:

القسم الأول، وترتيبه الأخير في المحضر، يتضمن ما يلي:

"1- وافق الفلاحون على مقررات التقرير.

2- وافق الفلاحون على التضامن مع القرى المناضلة.

3- وافق الفلاحون على تأييد جريدة "الأرض للفلاح".

4- وافق الفلاحون على تأييد العمال في المدن. إرسال تحيات من مؤتمرات الفلاحين إلى نقابات العمال.

5- اقتراح بعقد مؤتمر أوسع من هذا وإشراك قرى أخرى.

6- قرار شكر للقرية التي عقد المؤتمر فيها.

أعضاء اللجنة التنفيذية: مندوب البلاطة إدريس، مندوب الكفرون ديب، مندوب بشرايل وحكر كابر (أبو محمود)، مندوب مرمريتا (.)، مندوب عين بشريتي (س)[253]".

القسم الثاني يتضمن مقررات المؤتمر نقتطف منها:

أ- قرار حول تأييد القرى المناضلة والتضامن مع سجنائها

إن مؤتمر الفلاحين لمحافظة اللاذقية المنعقد بتاريخ 1952 يتضامن ويؤيد القرى المناضلة بشرايل ومرسحين وسبّة وحاصور وكفر عقيد وبعرين وينصاف وتل جردون في نضالها لردع ظلم الإقطاعيين، ويستنكر الأعمال الإجرامية التي يقوم بها الدرك والجيش خدمة

---

[252]- المحضر مؤلف من ست أوراق منتزعة من دفتر طالب، مكتوب على إحداها معادلات كيميائية بخط اليد، ومعظمها مكتوب على الصفحة الأمامية والخلفية، أي أن عدد صفحات التقرير هو اثنتي عشرة صفحة.

[253]- ويبدو أن الأسماء الموضوعة ضمن قوسين بقيت سرية، لكننا عرفنا أن المقصود بمندوب الكفرون ديب، هو ديب قطيرة الناشط الشيوعي في ذلك الحين، وقد أجرينا معه لقاءين بدمشق بتاريخ 2005/12/8 و2005/12/10 أغنيا هذه الدراسة، لكنه مع الأسف لم يتذكر التفاصيل، وهو ما نرجحه، أو أنه شاء كتمان بعض المعلومات.

للإقطاعيين، ويطالب بإخلاء سبيل السجناء، ومنهم هزيم المحمود ورفاقه، وبمعاقبة الذين يضطهدونهم ويعذبونهم.

ب- قرار حول تأييد جريدة "الأرض للفلاح"

إن مؤتمر الفلاحين لمحافظة اللاذقية المنعقد بتاريخ 1952[254]، يقرر دعم ونشر جريدة "الأرض للفلاح"، الناطقة باسم فلاحي الجبل العلوي، ويدعو جميع فلاحي الجبل إلى مطالعتها ونشرها وتوزيعها وإرسال أخبارهم وتبرعاتهم لها، فهي أول سلاح صحفي محلي أشهر بقوة وجرأة ضد الإقطاعية.

ج- قرار بتحية عمال وفلاحي سورية ولبنان

يتوجه مؤتمر الفلاحين لمحافظة اللاذقية بتحية إخاء وتضامن لجميع فلاحي سورية ولبنان، إخواننا في النضال ضد الإقطاعية والاستعمار والديكتاتورية، وإلى المنظمات الفلاحية المشرفة على صحف (**فلاح الجنوب**) و(**اتحاد الفلاحين**)، كما يحيي بحماسة نضال إخواننا وحلفائنا عمال سورية ولبنان في نضالهم ضد الديكتاتورية والاستعمار والحرب وفي سبيل حياة أحسن لهم، ويعلن لعمال وفلاحي سورية ولبنان أن فلاحي الجبل سيتبارون، ويشددون من نضالهم إلى جانبهم، حتى يتم القضاء على جميع أعداء الشعبين الشقيقين السوري واللبناني، ويتحقق استقلالهما ورفاهيتهما، ويدعو إلى التآخي بين الشعوب.

القسم الثالث والأهم يتضمن أقوال مندوبي الفلاحين في المؤتمر ننقلها حرفياً كما وردت[255]:

مندوب البلاطة: لا يوجد مدرسة. ظلم واضطهاد من قبل الإقطاعيين لكسر أرض في القرية من سنة1941 بسندات مع الإقطاعيين[256]. بيت معمّر (مبني) سنة 1923 يريد الإقطاعيون تهديمه للفلاح علي أحمد من

---

[254]- يبدو واضحاً من كلمة سيران الواردة في مكان آخر أن المؤتمر عقد في أحد أيام الربيع، والتقرير لم يحدد سوى السنة وهي 1952، ومن الطبيعي ألا يحدد التقرير بسبب السرية مكان عقد المؤتمر، ونرجح من خلال ما سمعناه أنه عقد في قرية بلاطة.

[255]- هذه الوثيقة الهامة تعكس واقع حياة الفلاحين في قرى صافيتا وطرطوس، وتقدم لباحث المستقبل مادة غنية لدراسة الحركة الفلاحية اعتماداً على التفاصيل الدقيقة لحياة الفلاحين في منتصف القرن العشرين، قبل صدور قانون الإصلاح الزراعي عام 1958.

[256]- يُفهم من النص أن الإقطاعيين حصلوا على سندات تمليك سنة 1941 لأرض القرية المشاع، ويريدون الآن 1951 أو 1952 كسرها، أي فلاحتها، كي يتملكوها.

قبل الإقطاعي[257]. الجواسيس الذين مالفوا[258] برّأتهم المحكمة بواسطة إبراهيم الصالح أفندي. ضبط في الماعز[259] من قبل وكلاء الإقطاعيين والتهديد بالقتل. الفلاحون مظلومون. الإقطاعي يقوم بمساعدة المختار- الجاسوس بتقسيم أهالي القرية وتركيب الدعاوى الكاذبة[260].

مندوب بطارش: شراء بيت هجوم أهالي العديدة عليهم (على أهالي بطارش)، وتحصيلهم المصاري، وتهديدهم بالقتل بمعونة مختار العديدة... (وهو) مستند على بيت بشور. على شاكلة البلاطة. مدرسة لا يوجد (في القرية). طبيب لا يوجد. الطالب يمشي ساعة للوصول إلى مدرسة. ضبوط حطب بكثرة. سجن. غرامات[261].

مندوب العيون: الظلم الشديد للمخمنين من الريجي. الحكومة أرسلت قوة لتتلف الدخان. حاول الشباب منعهم، ولكن الرجعيين بالضيعة منعوا الشباب من قتلهم. كبسة على الضيعة[262]. اتفاق القرية وقتلوا[263] مندوبي الريجي. باتحادهم حصلوا على رخصة الدخان. التضامن أساس كل شيء. عين اللخ للقرية، والإقطاعي جبرا الحلو يحاول أخذها. ضبوط الحطب ممنوعة لأن القرية متحدة. الاتحاد أساس كل شيء. طريق معدوم.

مندوب السودة: معظم الساحل السوري اللبناني بيد الإقطاعي عبود

وكسر الفلاح الأرض: فلحها لأول مرة بعد أن كانت أرضاً بوراً غير مفلوحة، وكَسرْ الأرض أحد وسائل تَملُّكِها، وفق مبدأ من استصلح أرضاً أصبحت له.

[257]- أي أن الفلاح بنى البيت عام 1923، ويحاول الإقطاعي هدم البيت، كي يتمكن من استملاك الأرض، لأن وجود البيت في قلب الأرض دليل على أن الأرض للفلاح.

[258]- هكذا وردت، ونعتقد أن المقصود الجواسيس من الفلاحين، الذين مالؤوا أو ساروا مع الإقطاعيين.

[259]- الماعز التي ترعى في الأحراش، وتخالف قانون منع الرعي في الحرش، تُضبط من قبل مأموري الأحراج، أي يُكتب فيها ضبط (تقرير عقوبة)، وتبقى رهينة "الاعتقال" حتى يصالح الراعي على المخالفة، وهنا قام أزلام الإقطاعي بضبط، أي مصادرة ماعز الفلاحين والتهديد بقتلها.

[260]- تركيب الدعاوي الكاذبة، أي تلفيق الدعاوي ضد الفلاحين.

[261]- أي أن الفلاحين، الذين يحتطبون من الحرش، يتعرضون للعقاب والسجن ودفع الغرامات.

[262]- الكبسة تعني مفاجأة قوة من الدرك، أو من موظفي الريجي، لتفتيش القرية أو بيت أحد الأشخاص دون توقع ذلك.

[263]- تعني هنا ضربهم بالأيدي أو العصي.

عبد الرزاق[264]. استعمال الإقطاعيين الوكلاء لطرد الفلاحين. محاولتهم في قرية السودة طرد الفلاحين من البيوت، ولكن تضامن الفلاحين منع الطرد. ذعر الملاك من التضامن، فبعث إنذارات بالتعاون مع الحكومة، وحدد مهلة الخروج 10 أيام، ولكن اتحاد الفلاحين منع ذلك وأفشل خطته، فحاول إقامة دعوى ووضع لها محام، وقد أنذره الفلاحون بأنهم لن يخرجوا من القرية، وقد فشل أمام اتحاد الفلاحين، وأقاموا دعوى عليه. طرق معدومة، الشتاء وحل شديد. طبيب لا يوجد، يموت الطفل من قلّة المداواة. حصة الإقطاعي 60%، ما عدا السخرة والهدايا والشكارة، وهي أرض للإقطاعي يسخر الفلاحين فيها. الإقطاعي لم يجرؤ على دخول القرية، لأنه خاف من اتحاد الفلاحين. ملاكون صغار لهم مشاعات يحاول (الإقطاعي) إقامة دعوى لتخليصهم بيوتهم، فذهبوا وهددهم الحاكم[265] بهدم البيوت والسجن، إذا لم يرضوا عبود عبد الرزاق.

ثبن: إقامة دعوى على الفلاحين لتخليصهم التبن بدعوى أنهم سرقوا التبن، اضطهاد، سخرة، قرية شاص ملاكون لبنانيون يضربون الفلاح، ويحاولون طرده من بيته. استعمال الجمرك بدل الدرك لإهانة الفلاحين، وخصوصاً على الحدود (اللبنانية-السورية). القرى مهددة بإنذارات وأسماؤها: السودة، الشارفة[266]، أرزونة وغيرها.

مندوب بشرايل: إنذار آل العباس (للفلاحين) بالطرد. انقسام القرية بواسطة[267] الجواسيس، وهم جواسيس مأجورون. مؤامرة هجوم على بيت الخولة[268] زجوا تسعة فلاحين بالسجن، وأوجدوا نقطة درك[269] في القرية وحرس من غير القرية. أجبروا النساء على التذرية بمعونة

---

[264]- هو من كبار الإقطاعيين في سهل عكار، وقد قمنا في صيف 1984 بزيارة إقطاعية عبود عبد الرزاق، وكتبنا ما سمعناه من أفواه الفلاحين عن طرق الاستثمار من هذا الإقطاعي، الذي كان عضواً في المجلس النيابي اللبناني. انظر كتابنا الصادر عن الاتحاد العام للفلاحين، مرجع مذكور سابقاً.

[265]- أي ذهبوا إلى المحكمة بناء على استدعاء الحاكم (القاضي)، الذي هددهم.

[266]- لعلها المشيرفة أو المشرفة.

[267]- بتحريض أو عن طريق الجواسيس من أهل القرية المتعاونين مع الإقطاعي.

[268]- الخولة أو الخولي هو وكيل الإقطاعي مالك الأرض، وسيفه المسلط على رقاب الفلاحين.

[269]- نقطة درك: مخفر صغير للدرك.

الدرك. خدعوا الشعب، وخبروا في القرى، وأخرجوا رجال من غير القرية للتذرية[270]. الجواسيس (للإقطاعي) في القرية كثيرون، وموقف الطيبين منهم ليس التجسس. مدرسة معدومة. إرسال وفد للإقطاعي بطلب (بناء) المدرسة، ولكنه رفض بناء المدرسة. قائمقام (مدير المنطقة حالياً) صافيتا رفض عدة مرات طلبات أرض المشاع. رفض (القائمقام) تقديم عريضة بواسطته بإلغاء القوانين العثمانية وإدخال هذه الأملاك بمشاع الدولة[271]، ووعظهم بالرجوع عن فعلهم، ورفض إرسال العريضة بواسطته. تخليص الفلاحين الفقراء التبن، فأقام الفلاحون دعوى في القضاء بأن تبنهم سرق، وطلبوا أن يحلف منير العباس اليمين (بأن زلمه لم يأخذوا التبن). وحاول (الإقطاعيون) بث الدعايات الطائفية لتفرقة الفلاحين، وحاولوا عزلهم عن الاتصال بالمسيحيين وعزلهم عن كل الجماعات التي تنوّرهم.[272] ضبوط حطب جديدة متوالية[273].

مندوب سبّة: أخ يرعى المعز يتبعه زلمة بشور الجميل، ويكتب فيه ضبط برعي الزرع. وبحجة رعي الماعز يأخذ زلمة بشور دجاجة له. وضع بشور الجميل خمسة حراس قبل الحصاد. اتهام فلاح بسرقة شمل زرع[274]. تخليصه الشمل وإجباره على إضافة كمركان[275] فوق الشمل. جلب بشور الجميل الجيش، وضرب الفلاحين[276]. أجبر الفلاحين على التنازل عن دعاوى الأرض. انقسام القرية لاكتساب رضا الحكومة

---

[270]- أي أتوا برجال غرباء للتذرية بحراسة الدرك، لأن الفلاحين رفضوا التذرية، بسبب أن الحبوب ستذهب إلى الإقطاعي، وهم يعدُّون المحصول لهم كما الأرض.

[271]- أي تحويل هذه الأرض المشاع للقرية، التي يزعم الإقطاعي أنها ملكه، إلى أرض ملكيتها للدولة، وعند ذلك يمكن للفلاحين استثمارها.

[272]- فلاحو بشرايل علويون نشط في صفوفهم الحزب الشيوعي، وكادره الأساسي في أوائل خمسينيات القرن العشرين من المسيحيين، الذين كانوا من أوائل من تبنى الأفكار الشيوعية، ولهذا سعى الإقطاعي العلوي أن يثير فلاحيه العلويين على هؤلاء المسيحيين الشيوعيين، الذين يحرضونهم للنضال ضد الاستثمار الإقطاعي، ومعنى ذلك أن الإقطاعي يسعى لتحويل الخلاف الطبقي عن مساره وتوجيه المعركة باتجاه طائفي.

[273]- وهنا يسعى زلم الإقطاعي للإيقاع بالفلاحين المناوئين للإقطاع، الذين يحتطبون، وإرسال الدوريات لفرض العقوبات المالية عليهم عن طريق الضبوط.

[274]- شمل قمح: حزمة من زرع القمح، غالباً ما تلف، أي تربط بعدد من سيقان القمح، كي تبقى متماسكة.

[275]- كمركان: وعاء لقياس حجم القمح وغيره من الحبوب.

[276]- انظر تفاصيل ذلك في الفصل المتعلق بسبّة ومقاومتها للإقطاع.

سبب عدم النجاح وعدم الاتحاد. يوسف محمد جالس في البيت، ومقرر ألا يغادر القرية والبيت بالرغم من الإقطاعيين. تعيين حراس من سبة، وهم مرشد ودرغام لعين بشريتي. فلاحو عين بشريتي ضربوا الحراس. الأهالي تطلب المدرسة. جهل الفلاحين. طريق معدوم.

مندوب بدادا: نصف الأراضي صالحة لزراعة الدخان. 2 أو 3 معهم رخص، وباقي الرخص لتامر بشور الإقطاعي، وهذا يرسل عملاءه، ويعطون الرخص لمن يريدونهم ولمن يرشونهم، وآخر الأمر يأتي المخمّن ويظلم في التقدير والتخمين، وآخر الأمر يفلس الفلاح. الجواسيس يسلمون من الظلم، والشرفاء يظلمون. راعي معزة ترك العنزات، وقطع قليلاً من السنديان لدابته من الحرج. أبو كمال وساير مأمورا الأحراج رأيا الراعي وأوقفوه، وسألوه عن قريته. ساقوه أمامهم. ترك الحملة (حمل الحطب) وهرب. ركض ساير مأمور الحراج، وهدده بإطلاق الرصاص، ولكنه لم يفلح. التقى المأموران بفلاح آخر، وحاولا اتهامه بأن الحملة من الحطب له، فهرب الآخر. مصادفةً حرمه (امرأة) مارة، فحاولا إلصاق الحملة بزوجها باسم القانون. الحرمة هربت. وعندما أفلسا، نهبا الحبل من الحملة (وتركا الحطب في الأرض). المدرسة لا يوجد فيها صف خامس، الذي لا يوجد إلا في صافيتا. وعدوهم، ولم يلبوا لهم. طريق عاطل. المريض يكلفه (تكلفه المعالجة) 12 ليرة سفرة إلى صافيتا. شغل السراي والمهمات تطول وتتأخر إلا بوساطة الإقطاعيين وأصحاب الطرابيش[277].

مندوب الكفرون: أخذ الدربية والتشغيل على الطريق. السنة الماضية شغلوهم وسخروهم، ولكن الشباب حاولوا التمرد. المختار يطوف مع الدرك لتجنيد الأفراد للسخرة على الطريق، كل شب حصة[278]. أصحاب البدلات والطرابيش يعفون (من السخرة)، وأصحاب الشراويل يشتغلون (يسخرون). تشاجر أحد الفلاحين مع المختار بسبب السخرة وتشاجر مع الدركي، واتحد الفلاحون وامتنعوا عن السخرة[279]. جاء قائد المخفر وحاول تشغيل الشباب (دون جدوى)، وطلب القائمقام من المخاتير

[277]- أي من له مشكلة في السراي، وهي مركز دوائر الحكومة، لا يمكن حلّ مشكلته إلا بوساطة الأفندية (الوجهاء) من لابسي الطربوش.

[278]- سخرة يوم.

[279]- لإصلاح الطريق.

تشغيل الشباب، ولكن الشباب رغم التهويش امتنعوا، فأخذ الدرك ينتقمون[280].
مندوب حكر كابر: الأرض ملك الجدود من قديم. بيت العباس فتنوا الأولاد (رموا الفتنة بين شباب القرية) ببعضهم لاغتصاب الأرض. سافر الأولاد إلى المهجر، ولم يبق إلا النساء، فتسلط آل العباس على الأرض. في وقت الحرب (العالمية الأولى 1914–1918) رهنت النساء الأرض (بسبب الجوع) لدى الإقطاعيين (من آل العباس)، أتى الأب (جابر العباس) وطلب 12 ألف قرش تركي، (وقال) إن الأرض لهم، ومعهم سندات تمليك فيها، وطلب أخذ العشر منهم فامتنعوا عن دفعه، فحاولوا أخذ الحصة (من المحصول)، فلم يفلحوا. اتحاد الفلاحين منعهم من ذلك، ولا يزال الفلاحون مصممون على النضال إلى النهاية[281].
مندوب المشتى: الأرض في المشتى ممنوعة[282]. الأشخاص يفتشون عن عمل فلا يجدونه، والفقر منتشر، والسبب في عدم وجود عمل، مزاحمة البضائع الأجنبية وإقفال المعامل وعدم تشغيل الفقراء. الخلاص بالاتحاد. قرار منع رعاية الماعز بالأحراج، وكل عنزة يجب إيجاد رخصة لها. طريق معدوم. مدرسة ثانوية حكومية لا يوجد. إقرار الحكومة رسم المدارس الخاصة 200 بدلاً من 100 ل.س. الخلاص بالاتحاد. الطالب إذا كان فوق السن ممنوع يدخل مدارس حكومية.
مندوب مرمريتا والضواحي: الحكومة تساعد الإقطاعيين على ظلم الفلاحين في تلكلخ. ممنوع زراعة الدخان. سهول تزرع القطن، ولكن أصحابها لم يتمكنوا من شراء دواء لمكافحة الدودة، فامتنعوا عن زراعة القطن. الشركات الأجنبية تشترك في استثمار أفراد الشعب. شركة كوكا كولا تنهب الشعب بموافقة الحكومة. لو استبدلنا بشركة الكوكاكولا شركات مصنوعات وطنية، لطُرِدَت الشركة، وانتعش العامل والفلاح. العامل يشتغل طول النهار بأجرِة ليرتين ونصف ليرة سورية، وحالة

---

[280]- من الأهالي بتنظيم الضبوط في زارعي الدخان وجامعي الحطب، ويقومون باسم القانون بسرقة عنب وزيتون الفلاحين، ويورد المندوب أمثلة كثيرة لم نذكرها.
[281]- يسوق المندوب أمثلة عن امتناع الفلاحين عن تسليم محصول الفستق والذرة للإقطاعي، رغم السجون والاستعانة بجواسيس من القرية، ويتحدث عن ضبوط محصول العنب، والدرك في خدمة الإقطاعي.
[282]- لعله يقصد عدم السماح بزراعة الأرض، لأنها أرض حراجية.

الفلاح أسوأ. مأمورو الأحراج ضبوطهم كثيرة، والذي يدفع رشوة يعفى من الضبوط. العمل معدوم في منطقتنا. يمكن إبدال البضائع الأجنبية بمصنوعات وطنية. حذاء باتا يصمد شهرين، بضائعنا تصمد سنتين. جواسيس. تأسس مكتب ثاني[283] في مرمريتا، وكل يوم مطاردة للأحرار المدافعين عن حقوقهم. انقطع القوميون (السوريون) عن الاغتيال وانتقالهم إلى مرحلة التجسس المستور. الأراضي مهملة من قبل الفلاحين لأن الملاكين سيأخذون 55% من المحصول. الفلاح يتركها. الطرقات عاطلة. اتحاد العمال والفلاحين هو الضمان الوحيد للخلاص من نير الاستبداد ولتغيير الحكومة.

مندوب المزيبلة: في القرية فلاحون لا أرض لهم. يذهب إلى عند الآغا، والفلاح يتعب كثيراً، ويُسَخَّر ويعيش عيشة بائسة إلى حين قطف القطن. والآغا يأخذ من الفلاح ثمن الدواء لمكافحة القطن، ويشتري كيلو القطن منه بنصف ليرة، والنتيجة يستدين الفلاح، ويأكل مع عائلته، ويوفي دينه وهكذا. الفقير يعلِّم ابنه ليأخذ سرتفيكا. وهيب الجرجس يطرد الطلاب، ويأخذ أقساطهم، والحكومة تحميه. المريض يموت دون الوصول إلى طبيب. غلاء الدواء وأجرة الطبيب. الفقير مضطر للعمل في التهريب من لبنان. جاسوس يفسد[284] للجمرك، فيخرب بيت الفلاح، الذي قام بالتهريب. في عيناتا على الفلاح تقديم كيلو حليب كل يوم للآغا. الآغا يجبر الفلاحين على السخرة. فلاح وجد على شاطئ النهر (الكبير الجنوبي)، فطلب منه الآغا أن يقطّعه النهر، فركـَّبه الفلاح على ظهره، والآغا يشتمه، وعندما وصل الفلاح إلى منتصف النهر، رماه الفلاح في الماء، فغضب الآغا، وعندما خرج من النهر شهر مسدسه، وحاول قتل الفلاح (الذي لاذ بالفرار).

تلكلخ-الحصن[285]: الدنادشة يتنكبون البنادق، وينزلون إلى القرى

[283]- تألفت رئاسة الأركان في الجيش من رئيس الأركان، ومعاونه، وثلاث شعب: الثانية منها هي المعروفة بالمكتب الثاني المختص برصد التحركات العسكرية ومعرفة أخبار العدو، وشيئاً فشيئاً أصبح المكتب الثاني مكتباً للتجسس على المدنيين، وتحوّل إلى جهاز من الأجهزة الأمنية لمراقبة الداخل.

[284]- يشي: يخبر.

[285]- هكذا وردت دون الإشارة إلى وجود مندوب، ولعل كاتب المحضر أغفل وضع كلمة مندوب أمام تلكلخ، والمرجح عدم وجود مندوب عن الحصن بسبب الوضع السائد فيها كما هو واضح من النص.

لإرهاب الفلاح، وكل فلاح يتكلم معهم مصيره السجن[286]. أحد الدنادشة ضرب فلاحاً، فاشتكى عليه إلى السلطة، فكانت النتيجة أن سجن الفلاح أسبوعين. أحد الزعبيين[287] ضرب فلاحاً بخنجر وصل إلى رئته فجرحها، فأقام المضروب دعوى على الضارب، الذي هرب إلى القلعة وتسلح بمسدس وخنجر. خرج إليه الدرك ولفوها[288] وسقطت عنه الدعوى. ولا يزال الفلاح مريضاً إلى الآن، ولم يعوض عليه الإقطاعي شيئاً. الاستعمار يساعد الحكومة، والحكومة تساعد الإقطاعيين. الفلاحون مستعبدون. والقرى المناضلة ترسل لها الحكومة رجالها، ويطلقون عليها الرصاص. بحزينا قائمة[289] ضد الإقطاعي النعمان، وهي مستعدة للدفاع عن أراضيها حتى الموت. الجاسوس صاحب الوساطة يصل حدود لبنان سالماً، والفقير يُسجن ويُهان.

(انتهى النقل عن التقرير الثاني للمؤتمر الفلاحي الأول في الجبل العلوي ربيع 1952).

الفصل الرابع
محضر مؤتمر فلاحي (آخر)
نظّمه الحزب الشيوعي في جنوب محافظة اللاذقية
(1951 أو 1952)

عثرنا بين أوراق دانيال نعمة على محضر أحد المؤتمرات في منطقة طرطوس التحضيرية للمؤتمر الفلاحي الأوسع، وننقل فيما يلي ما جاء في التقرير من وصف لمشكلات القرى، التي شارك مندوبوها في المؤتمر، ننقلها كما وردت بلغة المندوبين وصياغة كاتب التقرير:

"مندوب كرتو: (طالَبَ بـ) 1- الجاموس، لأنه يستخدم للفلاحة، يجب ألا يؤخذ عليه ضريبة. 2- شق طريق الحميدية وأرزونة وتعبيده. 3-

---

[286]- في سجن الآغا وليس سجن الدولة.

[287]- وهم ملاك للأرض كالدنادشة، ويقولون إنهم يتحدرون من عبد القادر الكيلاني، ومقامه في بغداد، والدنادشة كانوا يعاملون الفلاحين معاملة قاسية لا رحمة فيها.

[288]- حلّوا المشكلة بستْر وسلامة، ودون الرجوع إلى القضاء، وطبعاً جرى الحل واللفلفة لصالح الآغا.

[289]- قائمة من القومة، أي الثورة في درجاتها الدنيا.

إصلاح مياه الشرب. 4- إلغاء طريق القشق الحربي، الذي لا يمر في أي قرية. 5- إلغاء الضبوط في الحطب الخاص للوقد. 6- إلغاء الضمان[290]. 7- منع الانفصال بين سورية ولبنان. 8- الدفاع عن السلم. 9- زيادة أجور العمال الزراعيين. 10- بناء مدرسة على حساب الحكومة. 11- إرسال معلم ثانٍ، لأن معلماً واحداً لا يكفي لعدد الأولاد[291].

مندوب خربة المعزة[292]. 1- نزع الإقطاعي أنيس إسماعيل الأراضي من الفلاحين، وسجلها باسمه[293]. 2- منعه من معارضة الماشية على الطريق[294]. 3- منعه من تطويب المشاعات في القرية[295]. 4 – ضرب الإقطاعي بديع إسماعيل[296] النساء والرجال، وقد أقام دعوى عليهم، وجلب الدرك الفلاحين لدائرة التعذيب في ثكنة طرطوس ووضعهم الدرك في السجن، وعددهم يقارب عشرة أشخاص. وأن هذه الحادثة سببها أن الإقطاعي أقام دعوى على أحد الفلاحين المناضلين، بأنه سرق له زوج بقر، وهذه مؤامرة (لسجن الفلاح المناضل-المؤلف)[297].

ممثل أرزونة: موافق على قرار تخفيض حصة الإقطاعي، ومنع الطرد (التهجير من الأرض-المؤلف)، ومنع تكليف الفلاحين بدفع أجور

---

[290]- الضمان تعني هنا قيام مالك الأرض الإقطاعي بتضمين حصته من المحصول إلى شخص قوي ذو عصبية، وهو غالباً من البلطجية، فيقوم باضطهاد الفلاحين وابتزازهم وأخذ أكثر من حصة الإقطاعي.

[291]- معلم واحد لا يكفي بسبب عدد الأولاد الكبير.

[292]- تطرق المندوب إلى المشكلات، التي تعانيها القرية.

[293]- وهذه الظاهرة كانت موجودة في جميع المناطق، التي ظهر فيها كبار الملاك.

[294]- أي منع الإقطاعي من اعتراض سير ماشية الفلاحين على الطريق، الذي يعدُّه الإقطاعي ملكاً له، ولا يجوز أن تمرّ عليه ماعز الفلاحين.

[295]- أي منع الإقطاعي من تحويل الملكية المشاعة لعموم القرية إلى ملكية خاصة به عن طريق تطويبها، وهذه حال جميع رؤساء العشائر، الذين يرون في أرض العشيرة المشاع ملكاً لهم.

[296]- بديع إسماعيل ابن رئيس عشيرة الحدادين في ريف طرطوس. أصبح نائباً في المجلس النيابي بفضل أصوات العشيرة، وليس بفضل قوة الحزب السوري القومي المنتمي إليه.

[297]- والمقصود بالفلاح المناضل هو الفلاح السائر في خط تأسيس اتحاد للفلاحين يدافع عن حقوقهم، وكان وراء العملية وموجهها منظمة الحزب الشيوعي في الساحل، الذي كان دانيال نعمة أحد كوادرها القيادية الرئيسية، ولهذا وصلت أوراق هذا المؤتمر إليه، وحفظت في مكان آمن حتى وصلت إلينا.

الخدامين وطعام دوابهم، وإبقاء التبن بكامله لدواب الفلاح. منع الشكارة والسخرة للإقطاعيين. الإقطاعي يجبر الفلاحين على فلاحة خمسة أيام على زوج البقر الواحد (في شكارته)، وقد امتنع أهالي أرزونة عن هذه السخرة، وطالبوا بنقل المحاصيل إلى بيت الإقطاعي على حسابه (بأجر-المؤلف) بعد القسمة.

مطالب قرية أرزونة: 1- مدرسة لأنه يوجد عندنا 32 ولداً، 2- تأمين بيوت سكن صحية[298] لأن بيوتنا غير صحية، 3- تصليح عين القرية.

ممثل حاصور: الإقطاعي يمنع الفلاحين[299] من سقف بيوتهم إلا إذا طوبوها باسمه، وقد استند على الدرك بمنعنا (من سقف البيوت-المؤلف). كان الإقطاعي في البدء يأخذ الخمس، ثمّ شرع يأخذ الربع، وفي هذه السنة صار يأخذ الثلث، وقد أخذ من التبن المخصص لعلف بقرنا على كل زوج خيشة تبن. وفي السنة الماضية، انتشر حزب أكرم الحوراني[300]، وقال يجب أن يأخذ الإقطاعي الربع (لا الثلث). وقد وضع الإقطاعي دركاً في القرية.

مطالب حاصور: 1- منع الإقطاعي من أخذ التبن، 2- منعه من الاعتراض على سقف البيوت. 3- منعه من طرد الفلاحين من البيوت، 4- مدرسة للقرية.

ساعين: 1- شق طريق حبابة- مصياف على نفقة الحكومة، لأن هذا الطريق قد تخطط منذ عام 1949. 2- منع كتابة الضبوط في المواشي التي ترعى في الأحراج. 3- منع السخرة الحكومية على الطرق. 4- لقد أجبرنا على بناء مدرسة، ولم يرسل لها معلم. 5- بناء مستشفيات في القرى، أو إرسال طبيب سيّار مرتين في الأسبوع. 6- منع فرائض الدرك على الأهالي. 7- بناء جسور على النهر.

بشارغة: بناء مدارس. فتح مستوصفات. شق طريق لقريتنا وجوارها. منع نهب الإقطاعي وسلبه، وإلغاء التخمين، تخفيض حصة

---

[298]- البيوت كانت ملكاً للإقطاعي، وهي أشبه بالزرائب.

[299]- حاصور قرية في جبل الحلو، الإقطاعي من آل جرجس المسيحيين، والفلاحون علويون مرشديون.

[300]- أكرم الحوراني زعيم الحزب العربي الاشتراكي، الذي نافس الحزب الشيوعي على كسب الفلاحين، ويلاحظ أن الحزب العربي الاشتراكي انتشر في قرى جبل الحلو، وخاصة بين المرشديين. انظر مخطوطنا عن "الخلفية الاجتماعية للحركة المرشدية".

الإقطاعي.

الحفة وعاشقة ورأس الخشوفة: مدارس. مياه للشرب. منع الضبوط في حطب الوقد.

(بيت) شباط: تأمين الرعي للماشية. كان يوجد عندنا أرض مشجرة حرش، جاء الإقطاعي عبد الرحمن واستغلها. إلغاء قانون الأحراج.

كفر قمرة وينصاف وبعرين..."[301].

(انتهى النقل عن المحضر).

هذا المحضر يقدِّم جردة مختصرة، أو بالأصح عناوين لأوضاع الفلاحين في منتصف القرن العشرين، وهو يفتح الطريق أمام مؤرخ المستقبل للبحث في أوضاع الفلاحين وهمومهم.

الفصل الخامس
محضر اجتماع قيادة منظمة الحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية

بين أوراق دانيال نعمة محضر لأحد اجتماعات منظمة الحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية، وهو على صلة وثيقة بمجريات المؤتمرات الفلاحية، التي كان الحزب الشيوعي ينظمها. وسنورد ما استطعنا قراءته، بسبب رداءة الخط، نقلاً حرفياً، أو بتصرف، مع التوضيح والمحافظة الصارمة على المحتوى:

واضح أن القيادة[302] *هي التي طلبت التحضير للمؤتمر الفلاحي، كما ذكر ضياء، وأضاف أن العضوين المسيحيين في القيادة كانا يفضلان أن يذهبا معه (أي مع ضياء) لزيارة القرى العلوية، فحثهم على الذهاب بمفردهم وبدونه في حال انشغاله في حملة التواقيع للتحضير للمؤتمرات الفلاحية، وذكر عدد التواقيع من كل قرية وصلتها الدعوة للمؤتمر. تكلم عثمان*[303] *بأنه كان في السجن عند صدور قرار القيادة للعمل لمؤتمر*

---

[301]- يتضمن المحضر معلومات عامة عن هذه القرى، وواضح أن ممثلاً لهذه القرى لم يكن حاضراً في المؤتمر، والمعلومات المدونة في الورقة على السماع من كوادر الحزب الشيوعي، الذين زاروا هذه القرى بهدف تأسيس منظمات فيها.

[302]- المقصود قيادة الحزب الشيوعي.

[303]- يُظن أنه عبد الله إبراهيم من كفرون حيدر.

الفلاحين، ولمّا خرج وجد العرائض موزعة. استعرض حملة التحضير للمؤتمر في القرى الواقعة في ميدان قيادته. تحدث وجيه عن القرى التي وقعت[304]*، وأن كثيراً من القرى جرى فيها اجتماعات دون أن يوقع الفلاحون على العرائض. جرى ذكر القرى التي ستحضر المؤتمر: بشرايل، عين الليني، سبّة، عين بشريتي، كفرام، بعرين، كفر كمرة، كفرون، مشتى، تل جردون، المزيبلة وعدد من القرى لم نستطع قراءة أسمائها بسبب رداءة الحبر... القرى الجنوبية صديقة للحزب، وتندر فيها الأحزاب الأخرى. فيها عشائرية. تتبع الخياطية في عشائريتها. وما يزال التعصب العشائري يمنع النضال ضد آل العباس، الذين من نفس العشيرة ومعهم ملاكين متوسطين. كان من الممكن جمع تواقيع أكثر. يوجد قرى مملوكة*[305]*لم نتصل بها، منها: طيشور لبيت رسلان*[306]*، وبزاق للهواش*[307]*، وكفران لرسلان، النتيجة أكثر القرى المملوكة لم نزرها*[308]*.*

جعفر- *لما كانت صافيتا تشرف على العمل*[309]*، كانت التقارير كاذبة، ويكرهون العمل بين الفلاحين. أما لما صار الكادر من الفلاحين، فقد زار هذا الكادر عشرين قرية، وجمعوا 250 توقيعاً مع عرائض احتجاج أخرى.. الإقطاعيون من آل العباس مكروهين من الفلاحين*[310]*.*
ويرى **جعفر**[311] *أن النشاط لم يكن قليلاً فقط، علاوة على عدم رغبة الرفاق في الاتجاه إلى الفلاحين الفقراء.*

---

[304]- وقعت بالموافقة على حضور المؤتمر الفلاحي.
[305]- المقصود القرى المملوكة من الإقطاعيين، وكان العمل فيها أصعب من العمل في القرى ذات الملكيات الصغيرة.
[306]- رؤساء عشيرة الرسالنة.
[307]- رؤساء عشيرة المتاورة.
[308]- عدم زيارة القرى المملوكة يعود إلى الخوف من بطش أزلام الإقطاعي بهؤلاء الشباب الغرباء المستضعفين، وذكر دانيال نعمة في دفتر مذكراته أنه شدد في اجتماع جرى في طرابلس لقيادة المنظمات الشيوعية في محافظة اللاذقية على ضرورة العمل الجدي في القرى المملوكة من الإقطاعيين، لكن الطموح شيء وتحقيقه على أرض الواقع شيء آخر.
[309]- عندما تأسس الحزب الشيوعي في المنطقة، كان شيوعيو صافيتا هم القيادة، وبعد مدة نُقلت قيادة المنظمة من صافيتا إلى مشتى الحلو والكفرون، اللتين برز منهما شباب شجعان، أخذوا يزورون (وهم مسيحيون) قرى العلويين في محاولة لتنظيمهم.
[310]- ورأي وجيه أن العشائرية لا تضايق، ثم شحط الجملة، بدليل أن بعض المندوبين أبدى رأياً مخالفاً.
[311]- المقصود اللجنة التنفيذية لاتحاد الفلاحين في "الجبل العلوي".

المهم انتخاب فلاحين غير حزبيين في اللجنة التنفيذية للأسباب التالية: 1- سماع رأي غير الحزبيين ورأي الجماهير. 2- الأكثرية الساحقة علويون ومن الفلاحين الفقراء. 3- ممثلون لأكثر المناطق، واعون ومحترمون في القرى. اقتراح أن يكون هزيم المحمود من بشرايل في اللجنة ومن بعرين علي حسن غانم. جبلة اثنان. اللاذقية... الحفة...

إحدى الأوراق الموجودة في حوزة دانيال نعمة تفصح عن مكان المؤتمر في قرية البلاطة، وفي ورقة أخرى إشارة إلى أن المؤتمر سيعقد الساعة العاشرة، وثمة رموز وإشارات إلى وسائل انتقال المندوبين بالسيارات العامة السائرة على الطرق، ثم السير على الأقدام باتجاه مكان المؤتمر. وقد قُسِّم المندوبون إلى مجموعات يقودها المؤتمنون ممن اختارتهم قيادة منظمة الحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية. وعلى الطريق القريب من مكان الاجتماع يقف الدليل، الذي سيوصل كل وفد إلى مكان الاجتماع في القرية وهو يحمل في يده اليسرى عود قصب مؤلف من ثلاث عقد إشارة إلى أنه الدليل، فيتقدم منه المسؤول عن الوفد ويقول له: "بدنا نعمل سيران تحت شجراتكم"، فيجيبه الدليل: "تفضل وصلت". وهكذا وصلت بقية وفود المؤتمر الفلاحي إلى مكان المؤتمر السري في أحد بيوت قرية البلاطة. وإشارة بدنا نعمل سيران تحت شجراتكم دليل على أن المؤتمر عقد في ربيع 1952، في عزّ أيام ديكتاتورية أديب الشيشكلي العسكرية.

في طرطوس تشكلت لجنة تحضيرية للإعداد للمؤتمر. زارت اللجنة 50 قرية، والتواقيع 500-600 توقيع. القرى المملوكة قليلة، والعمل فيها قليل، والسبب خوف عند الرفاق، وعدم ثقة بالشعب. قرية شباط وغيرها مملوكة، وتناضل ضد الإقطاعيين. قرية عزيت مستعدة لكل شيء، وتناضل ضد الإقطاعيين. المندوبون من: البلاطة، عيون الوادي، بزاق، الخيبة، المقعبرة، أي نحو عشرين مندوباً.

العمل الصحيح هو الاتجاه إلى القرى العلوية الفقيرة في تلك المنطقة.

الشعارات: المياه لأنها رديئة، الدخان، الطرق، الصحة والمدارس.

قرى الإقطاعيين: مطالبهم (أي مطالب الفلاحين المحاصصين) الأرض، تخفيف الحصة، ولهم نضالات قديمة، وكان الإقطاعيون يخدعونهم.

القرى التي أيدت المؤتمر أكثر من القرى التي وقعت على العرائض. جبلة: 200-400 توقيع (غير مؤكد)، عدد المندوبين خمسة. بساسين مملوكة لجبلة، وقد ناضلت وتناضل ضد الكنج، وقد خدعهم وسجل الأرض باسمه، وقد حدثت عندهم حوادث على أثر التسجيل، وهاجموا الإقطاعي. بُحث المؤتمر عندهم، وافقوا، ومنها مندوب[312]. كفر دبيل مملوكة لأوقاف السلطان إبراهيم، وحواليها عشرين قرية مملوكة، وهي القرية الرئيسة، ومنها مندوب. كلماخو مندوب. جبلة مندوب، المطالب: الأرض للفلاح، الدخان.

اللاذقية: العمل فيها ضعيف، ونعترف بتقصيرنا في العمل.

(انتهى النقل عن التقرير).

لم يكن تنظيم المؤتمرات الفلاحية وعقدها مفروشاً بالورود في ظروف الديكتاتورية، وقمع كبار الملاك لأي تنظيم فلاحي، والأميّة المتفشية بين الفلاحين، وإعراضهم عن التنظيم، وخوفهم من الدركي والمختار، كما لعبت الولاءات الطائفية والعشائرية دوراً هاماً في الحد من نشاط تنظيم فلاحي يسعى إلى تجاوز الطائفية والعشائرية. يضاف إلى ذلك صعوبة المواصلات بين القرى، وصعوبة التوفيق بين العمل الجماهيري والعمل السرِّي.

نضرب مثلاً ما ذكره ديب قطيرة في لقاء معه بتاريخ 2005/12/8 عن فشل عقد أحد المؤتمرات الفلاحية في صيف 1952. كلـَّف أبو علي[313] ديباً أن يذهب إلى تل جردون لاصطحاب فلاح من القرية عضو في المؤتمر، الذي تقرر عقده في إحدى المزارات العلوية إلى الشمال من رأس الخشوفة. مع طلوع الفجر اتجه ديب برفقة إبراهيم السلمان من كفرون حيدر باتجاه تل جردون سيراً على الأقدام، وعندما وصل ديب وإبراهيم إلى منزل الفلاح في تل الجردون، وجدا أنه سافر إلى حمص، وهو لا يعلم أن المؤتمر سيُعقد في ذلك اليوم، فعادا أدراجهما ليلاً إلى الكفرون، فوصلاها مع طلوع الفجر. وفي الصباح

---

[312]- أي سيأتي مندوب للمشاركة في المؤتمر الفلاحي.

[313]- أبو علي هو الاسم الحركي للمحامي موريس صليبي من حمص, الذي عمل فترة من الزمن في التنظيم السري لمنظمة الحزب الشيوعي في الساحل أو الجبل العلوي، وكان معروفاً عنه مهارته في التخفي وتضليل رجال الدرك والانتقال من مكان إلى آخر سيراً على الأقدام، أو مستخدماً سيارات النقل العمومي، وعددها قليل في السنوات الأولى من خمسينيات القرن العشرين.

استقل ديب سيارة عامة متجهة إلى رأس الخشوفة، ومنها سار إلى المزار، للمشاركة في المؤتمر، لكن عدد الحضور كان ضئيلاً، لأن بعض الفلاحين لم يستطع الاهتداء إلى مكان الاجتماع في المزار بسبب خطأ في التنظيم الناجم عن السرية والخوف من اكتشاف السلطة لمكان المؤتمر، ويقول ديب إن الفلاح "أبو العبس"، الذي استضافهم في المزار، قدَّم لهم على الغداء البرغل والفراريج.

ونشير هنا إلى الجهود والتضحية التي بذلها المحامي الحمصي موريس صليبي، المُكلَّف من القيادة ومن خالد بكداش بالذات للعمل في منطقة الساحل وتهيئة الفلاحين العلويين للمشاركة في النضالات الفلاحية والوطنية، واختيار أبو علي للمزار مكاناً لعقد المؤتمر "ضربة معلم"، لكن الظروف أفشلت ذلك الاجتماع.

الفصل السادس
اللجنة التنفيذية لاتحاد الفلاحين في الجبل العلوي[314]
(من بياناتها)

كان من نتائج مؤتمر الفلاحين قرار بتأليف "اتحاد الفلاحين في الجبل العلوي"، و"انتخاب" أعضاء المؤتمر لجنة تنفيذية لاتحاد الفلاحين، ولا نعلم هل قامت هذه اللجنة بدور ما، أم كانت مجرد واجهة للنشاط الفلاحي لمنظمة الحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية؟ وكاتب هذه الأسطر يخامره الشك في تبلور لجنة فلاحية قيادية في ظل ظروف ذلك الزمن، وصعوبة الاتصال بين مناطق جبال الساحل الوعرة المعدومة من الطرق.

أصدرت اللجنة التنفيذية لاتحاد الفلاحين عدة بيانات نُشرت في جريدة "الأرض للفلاح"، ولا نعلم هل أصدرت بياناً مطبوعاً خارج إطار الجريدة؟ ولم نستطع الحصول على أحد هذه البيانات المطبوعة،

---

[314]- الأوراق التي احتفظ بها دانيال نعمة، والمتعلقة بمحاضر جلسات الهيئات القيادية للحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية، تشير إلى تركيبة اللجنة التنفيذية. كما ورد في أحد المحاضر، على النحو التالي: "فيها غير حزبيين، يغلب عليها العلويون، وفلاحون فقراء، وممثلون عن كل المناطق"، التي يعددها أحد التقارير.

التي اختفت، أو أكلتها نيران التنانير في عهود الإرهاب والقمع، ولحسن الحظ أننا وجدنا بين أوراق دانيال نعمة، بيان للجنة التنفيذية بخط اليد، وواضح من خلال تنظيم الأوراق أنه طُبع ووزع في مناطق عدة، وفيما يلي نصّ هذا البيان غير المؤرخ[315]:

"أيها الفلاحون! يا جميع الوطنيين الشرفاء في قضاء صافيتا! ناضلوا بمزيد من العزم لإلغاء مبدأ السخرة، ولإطلاق سراح الفلاحين الموقوفين، ولإرغام الديكتاتورية على شق الطرقات وتعبيدها على نفقتها الخاصة.

منذ أيام، ارتكبت الديكتاتورية أفظع جريمة بحق العشرات من إخوانكم الفلاحين، وسلطت عليهم الدرك يضربونهم في داخل السرايا وبأعقاب البنادق، فجرحت منهم الكثيرين، وكل ذلك لأن هؤلاء الفلاحين ذهبوا يحتجون على مبدأ السخرة الإقطاعي الاستبدادي، ويطالبون بإلغائه، لينصرف الفلاحون إلى أعمالهم وإلى حقولهم وإلى تأمين الخبز والثياب لأطفالهم.

لقد أثبتت الديكتاتورية بفرضها مبدأ السخرة، وبجلدها لعشرات من فلاحي عين الحمرا وعين دابش وعين الجرن، وبزجهم في سجن صافيتا، ومن ثم بسوقهم سيراً على الأقدام إلى سجن طرطوس مع جلدهم بالخيزرانات على مرأى من الناس، أنها ما تزال حكومة الخيانة الوطنية وحكومة الإقطاعية وحكومة الديكتاتورية، وأنها العدوة الرئيسية للفلاحين ولجميع الجماهير الشعبية.

إن الديكتاتورية تزعم أنها تريد إصلاح الطرقات، وتزعم كذلك أن الأموال غير متوفرة عندها، ولذلك فهي مضطرة لتنفيذ مبدأ السخرة، ويساند الحكام الخونة في محاولة إرغام الفلاحين على القيام بأعمال السخرة بعض المخاتير المفروضين على القرى فرضاً. إن كل مزاعم الديكتاتورية هي عبارة عن أكاذيب، فالحكومة لا ترغب في الإصلاح، لأنها عدو للشعب، وهي لن تصلح إلا الطرقات التي يطلبها أسيادها الحكام المستعمرون الساعون بجنون لإطلاق حرب عالمية ثالثة. والأموال متوفرة، فالدولة تجمع مئات الملايين من عرق الشعب ومن خبزه عن طريق الضرائب الباهظة والغرامات المجموعة من الضبوط، ولكن هذه المئات من الملايين لا تنفق على مصالح الشعب، وإنما على

---

[315]- نقدّر أن هذا البيان صدر في أواخر 1952.

المشاريع التي يريدها المستعمرون الإنكليز.

إن جميع الفلاحين يستنكرون بغضب الجرائم التي ارتكبها ممثلو الديكتاتورية في صافيتا بحق عشرات الفلاحين، وهم يعدُّون هذه الاعتداءات البربرية موجهة إلى كل منهم، فالفلاحون الذين اعتقلوا كانوا يدافعون عن مصالح جميع سكان القضاء.

إن اتحاد الفلاحين الذي يضع نصب عينيه قضية الدفاع عن حقوق الفلاحين، يستنكر جرائم الديكتاتورية، هذه الجرائم التي تبرز في احتقارها للفلاحين بفرضها عليهم السخرة، أسلوب العمل في القرون الوسطى، والتي تبرز بجلدهم وسوقهم إلى السجن، تماماً كما يفعل المستعمرون وأحقر خدمهم.

إن اتحاد الفلاحين يهيب بجميع الفلاحين وبجميع الوطنيين الشرفاء نساءً ورجالاً إلى توسيع النضال، وإلى العمل بمزيد من العزم والجرأة وبمختلف الأشكال، لإرغام الديكتاتورية على إطلاق سراح الفلاحين البواسل، الذين زجّتهم الديكتاتورية في السجن، لأنهم يناضلون ضد السخرة، ولإرغام الديكتاتورية على إلغاء أعمال السخرة، ولإرغامها على تعبيد الطريق على نفقتها الخاصة.

إن اتحاد الفلاحين يحيي فلاحي عين الجرن وعين دابش وعين الحمرا، الذين عبَّروا عن مصالح فلاحي القضاء[316].

فليسقط الاستعمار.

فلتسقط الديكتاتورية مطبقة مبادئ القرون الوسطى والاستعمار على الفلاحين والشعب.

اللجنة التنفيذية لاتحاد الفلاحين في الجبل العلوي".

الفصل السابع
جريدة "الأرض للفلاح" صيف 1952
وحُلمُ الانتقال من الولاء العشائري والطائفي إلى التضامن الفلاحي

بعد عقد المؤتمر الفلاحي في ربيع 1952 أخذت، بناء على إحدى

[316]- القضاء هنا هو المنطقة الإدارية، والمقصود به هنا قضاء صافيتا، وفلاحو هذه القرى الثلاث اعتقلوا لأنهم رفضوا السخرة الحكومية، سخرة تعبيد الطريق.

مقررات المؤتمر، تصدر جريدة مطبوعة على الحرير باسم "الأرض للفلاح"[317]، وقد اختفت للأسف جميع نُسَخ هذه الجريدة، وضاعت نتيجة الإرهاب، أو الخوف منه، في عهود الديكتاتوريات وإبان ملاحقات الشيوعيين المتكررة، فقد التهمت نيران تنانير القرى هذه النشرات في عهود الظلام والطغيان، إذ كانت النساء تقوم بحرق كل الكتب والنشرات، التي تخشى أن تكون مستنداً لأعوان الديكتاتورية في سجن الشباب وتعكير صفو مستقبلهم. ولهذا، لا نملك الآن (صيف 2004) أية نشرة مطبوعة من "الأرض للفلاح" الصادرة في أواخر عام 1952 والنصف الأول من عام 1953.

ولكن الأقدار شاءت أن تقوم عفيفة الخوري، والدة دانيال نعمة، بحفظ عدد من وثائق الحركة الفلاحية المكتوبة، وبعضها مكتوب بخط فلذة كبدها، في مكان أمين، متخطية الصعاب، ومتغلبة على الخوف، الذي ترتعد منه قلوب الرجال. وبفضل جرأة هذه الأم ورباطة جأشها، وصل إلى كاتب هذه الأسطر، عن طريق لؤي بن دانيال عدد من الوثائق الهامة ذات القيمة التاريخية في تأريخ الحركة الفلاحية ومعرفة الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية السائدة في محافظتي اللاذقية وطرطوس، وقضاء مصياف التابع لمحافظة حماة، وقضاء تلكلخ التابع لمحافظة حمص، والتي كانت تكوّن ما يعرف بـ "الجبل العلوي"، أو محافظة اللاذقية. وهذه المناطق جميعها اتخذت عدة تسميات فيما مضى من الزمن، أحدثها "جبال العلويين" أو محافظة اللاذقية، والتي أطلقت عليها الوثائق الفلاحية المكتوبة بخط دانيال نعمة، وقبله بدر مرجان، اسم "الجبل العلوي" أو "جبلنا".

ولم يكن ذلك يعني أن دانيال نعمة المسيحي المولد والعربي الانتماء والماركسي الفكر والمنتسب إلى الحزب الشيوعي في سورية ولبنان منذ عام 1945، كان إقليمياً، أو طائفياً، أو من دعاة فصل الساحل عن جسم أمه سورية العربية، بل كان هدف دانيال نعمة ورفاقه شحذ همم الفلاحين، وإثارة حميتهم الطبقية في النضال ضد الإقطاعية من جهة، وفي سبيل التحرر الوطني والاجتماعي في "الجبل العلوي" عامة، وفي

---

[317]- صدر منها ثلاثة أو أربعة أعداد، حسبما أفاد ديب قطيرة، وكاتب هذه الأسطر يذكر جيداً أنه قرأ أحد أعداد هذه النشرة، التي وصلت إلى ديرعطية، وضاعت مع ما ضاع من وثائق.

قضاء صافيتا خاصة. لقد سعى إلى استخدام عصبية طبقية فلاحية ذات نكهة خاصة لحشد قوى الفلاحين في الساحل، وأكثريتهم من الفلاحين العلويين، مع أقلية وازنة مسيحية، وأخرى سنية، وثالثة إسماعيلية.

ولم يكن هدف دانيال نعمة ورفاقه (أو بدر مرجان من قبلهم، وهو المؤسس لمنظمات الحزب الشيوعي في الساحل) ولا هدف "اتحاد الفلاحين"، تسعير مشاعر طائفية، بل على العكس تماماً كان الهدف جمع الفلاحين من مختلف الطوائف في اتحاد فلاحي طبقي، هو أحد أشكال المجتمع المدني الآخذ في النمو في خمسينيات القرن العشرين، لمواجهة قوتين معاديتين للحركة الثورية ومنطلقات النهضة العربية، وهما:

1- قوة العشائرية، التي أطلق عليها "اتحاد الفلاحين" نيران مدافعه الطبقية، كما نرى في النشاط الجاري في ذلك الوقت، ويبدو ذلك واضحاً من كلمات بعض مندوبي المؤتمرات الفلاحية المعبّرة صراحة عن قوة العصبية العشائرية في الحد من نشاط الحركة الفلاحية المناهضة للإقطاعية، وصعوبة العمل في القرى المملوكة من الإقطاعيين، وهم في الغالب رؤساء العشائر، ولهذا تردد الفلاحون أو امتنعوا عن القيام بأي حركة مناهضة لرئيس العشيرة الإقطاعي.

2- قوة الطائفية، التي لم يتعرض لها اتحاد الفلاحين مباشرة، لكن سهامه أصابتها من خلال الدعوة إلى التضامن الطبقي بين الفلاحين عموماً، وبينهم وبين عمال المدن في سائر أنحاء الجمهورية السورية، والعمل لترسيخ جذور الوطنية بين الجميع، ويلاحظ أن عمل اتحاد الفلاحين (وقيادته الشيوعية) كان أسهل عندما يكون الإقطاعي من طائفة أو عشيرة غير طائفة أو عشيرة الفلاحين المحاصصين العاملين في أرضه.

فالحزب الشيوعي، الذي ناضل دانيال نعمة في صفوفه، كان وما يزال من الأعداء الألداء للعشائرية والطائفية، لأنهما تقسمان المجتمع إلى مجموعات عصبوية، وتعرقلان عملية انصهار الأمة في بوتقة الوطن. وكان من أحد أسباب ضعف الحزب الشيوعي السوري أنه لم يستخدم العشائرية أو الطائفية لتحقيق أغراضه، بل وقف ضدهما، وحقق في هذا المجال، مع الأحزاب العلمانية الأخرى، إنجازاً في عملية التطور الحضاري للبلاد في منتصف القرن العشرين، قبل أن تعود

الطائفية والعشائرية لتطل برأسها من جديد، نتيجة ظروف داخلية وخارجية ليس هنا ميدان بحثها.

ذكر موريس صليبي "أبو علي" في حديثه المسجل بتاريخ 1998/01/5[318] أن أربعة أعداد صدرت من جريدة "الأرض للفلاح"، وكانت تُطبع في بيروت، وقد أبدى الصحافي اللبناني الشيوعي نسيب نمر إعجابه بمحتوى جريدة "الأرض للفلاح" ولغتها وقال إن كتـَّابها على مستوى رفيع، وذكر صليبي أن 3500 نسخة من جريدة "الأرض للفلاح" كانت تطبع في لبنان، وتوزّع على نحو سريّ من كفرّام إلى اللاذقية، وسنتعرض في مكان آخر إلى إحدى تقنيات نقل المطبوعات من الحدود اللبنانية إلى محافظة اللاذقية وسائر أنحاء سورية.

وجريدة "الأرض للفلاح" جريدة طبقية، خاضت غمار النضال ضد الاستغلال الإقطاعي في أجواء اجتماعية تسودها العشائرية والطائفية، التي سددت الجريدة سهامها إليها، وكانت أحد تجليات المجتمع المدني السائر نحو الصعود في منتصف القرن العشرين. وإلى جانب دانيال نعمة كان لموريس صليبي (أبي علي) المحامي القادم من حمص اليد الطولى في صدور الجريدة وتنظيم توزيعها بصفته كادراً شيوعياً سرياً مرسلاً من القيادة للعمل في محافظة اللاذقية، وقد أسهم تأهيل أبي علي وتمكنه من اللغة العربية واستيعابه للأوضاع السائدة آنذاك في تحقيق بعض النجاح رغم الصعوبات[319].

وننقل فيما يلي مقاطع من عددين من جريدة "الأرض للفلاح".

1- تصَدَّرَ الصفحة الأولى من جريدة "الأرض للفلاح" العنوان التالي: **"أيها الفلاحون والمزارعون! اتحدوا للقضاء على السخرة الحكومية، ولإجبار الحكام على شق الطرقات على حساب الدولة"**.

وجاء الخبر حرفياً كما يلي: "منذ أيام ارتكبت الحكومة في صافيتا جريمة، لم تجرأ أية حكومة حتى في عهد الاستعمار الفرنسي على ارتكابها، فقد اعتدى رجال الدرك بوحي من القائمقام على عشرات الفلاحين في قرى عين الحمرا وعين دابش وعين الجرن، الذين جاؤوا

---

[318]- قام المهندس خالد بن دانيال نعمة بتسجيل أحاديث موريس، وزوَّدنا مشكوراً بنسخة منها.

[319]- نقدّر أن أول عدد صدر بعد 7 تشرين الثاني 1952، أي أنه صدر في أواخر تشرين الثاني أو أوائل كانون الأول 1952.

يحتجون على تسخيرهم في شق طريق صافيتا-المشتى، وزجوا الكثيرين منهم في السجن، بعد أن أشبعوهم ضرباً وتعذيباً، ثم ساقوهم مكبلين بالحديد من صافيتا إلى طرطوس مشياً على الأقدام".

"لقد أثبت هذا الاعتداء الوحشي، الذي قام به المسؤولون في صافيتا، أن هذه الحكومة هي عدوتهم اللدود".

"فبعد حملات الجنود على القرى لإخضاعهم لنير الإقطاعيين واستثمارهم، إلى سلب دخان الفلاحين وأتعابهم بواسطة الريجي، إلى فرض ضرائب جديدة على رعي الماعز مثلاً، إلى إجبارهم اليوم على شق الطرقات بالسخرة، بدلاً من أن تخصص الاعتمادات اللازمة من الميزانية، التي يجب أن تصرف على الإصلاحات لفتح المدارس والطرقات والمستوصفات... إلخ، بدلاً من أن تنفق على تنفيذ مشاريع المستعمرين".

هذا الخبر، الذي تصَدَّرَ الصفحة الأولى من جريدة "الأرض للفلاح" نجد توضيحاً له في إحدى الصفحات الداخلية، وننقل الخبر حرفياً نظراً لأهميته، وهو يقدم دليلاً على أن مقاومة السخرة الحكومية نظمتها من وراء الستار منظمة الحزب الشيوعي في صافيتا. جاء في الخبر:

"في أوائل تشرين الثاني 1953، أخذ رجال الدرك يطوفون على القرى الواقعة على طريق صافيتا-المشتى لإجبارهم على إصلاح الطريق بالسخرة، وطلبوا منهم أن يرصفوا الطريق، ويقيموا على طولها جدراناً من الحجارة بارتفاع متر وعرض متر، وذلك على امتداد الطريق كلها، لكن أهالي عين دابش وعين الجرن وعين الحمرا رفضوا السخرة بعد اجتماعات واسعة بينهم، قرروا فيها تشكيل وفد كبير للاحتجاج. وفي يوم السبت 7 تشرين الثاني 1953، شكلوا وفداً ضم أكثر من مئة شخص، وذهبوا لمقابلة قائمقام صافيتا".

2- خبر آخر في جريدة "الأرض للفلاح" تناول أحد مظاهر العشائرية في ريف صافيتا. جاء في الخبر: **"لن تقوى العشائرية، هذا النظام العتيق على الوقوف في وجه اتحاد الفلاحين"**. "آل العباس يطردون الشباب بالجملة من عشيرتهم" تحت هذا العنوان الخطير، الذي يضع على المحك العلاقة والصراع بين المجتمع الأهلي بتكتلاته العشائرية والطائفية والمجتمع المدني بنقاباته العمالية والمهنية والفلاحية (اتحاد الفلاحين)، الذي رعاه الحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية،

ونقرأ في هذا الخبر التعليق التالي، ذي الأهمية التاريخية، وهو بخط دانيال نعمة ومن إنشائه:

"كل يوم يمر يعطي زعماء العشائر وجميع الرجعيين على الإطلاق دروساً لها قيمتها وعبراً لا تنسى... إنهم يسعون جاهدين للحيلولة دون انهيار أنظمتهم البالية..."، "وليس أدل على عدم فهم هؤلاء الزعماء لسنن التطور والارتقاء ما فعله آل عباس الإقطاعيون، حين قرروا طرد ثلاثة شباب من صفوف (العشيرة). إنهم يظنون أن طرد هؤلاء الشباب يقوي دعائم الزعامة المنهارة. كلا أيها الأسياد الفطاحل! إن الزعامة وقاعدتها العشائرية هي نظام بالٍ قديم، وقد أخذ جميع الفلاحين يدركون أنه وضع خصوصاً لحماية الزعماء، ولمساعدتهم على نهب الفلاحين، وبصورة خاصة فلاحي العشيرة، وقد أخذ جميع الفلاحين يدركون أنه من أجل الوصول إلى مطالبهم، **يجب أن يخرجوا من نطاق العشيرة الضيق إلى ميدان أرحب هو ميدان اتحاد الفلاحين** من مختلف الميول والمذاهب، وهذا ما فعله الشباب المطرودون، ولن يمر طويل وقتٍ حتى يجد كل زعيم نفسه بحاجة إلى طرد جميع أبناء عشيرته، أو بالأصح حتى يجد نفسه مطروداً من جميع أبناء العشائر. إن زمن العشائرية ولّى، لقد أتى زمن اتحاد الفلاحين".

وجاء في خبر جريدة "الأرض للفلاح" أن آل العباس طردوا من عشيرتهم، عشيرة الخياطين، ثلاثة من الشباب هم: محمود بركات من الدريكيش، ومحيي الدين صالح من بجنّة، وعلي أسعد من بويضة الحمام. بذريعة نضالهم إلى جانب مرشحي الفلاحين ضد زعماء العشائر".

فقد ثار هؤلاء الشباب، مع غيرهم، على نظام العشائرية في الانتخابات النيابية، التي جرت في... وأعلنوا تضامنهم مع اتحاد الفلاحين ومرشحه "للخلاص من النهب الإقطاعي والاستبداد الحكومي"[320].

---

[320]- المقصود دانيال نعمة، الذي خاض الانتخابات أيام الشيشكلي بعد خروجه من سجن تدمر، كما سيمر معنا في فصل الانتخابات، وسنخصص فصلاً لنشاط دانيال نعمة في المعركتين الانتخابيتين، اللتين خاضهما باسم الفلاحين، وسننقل ما كتبته جريدة "الأرض للفلاح" حول "مهزلة الانتخابات في الجبل العلوي"، إضافةً إلى ما كتبه دانيال نعمة بعد مرور نصف قرن على الانتخابات ودور العشائرية فيها، التي ما تزال جذورها ضاربة في

3- نقرأ في مكان آخر من الجريدة خبراً عن النضال المناهض للإقطاعية جاء فيه: **"قرية عين بشريتي** اغتصبها في عهود الطغيان آل بشور، ومنهم الإقطاعي بشور الجميل. ومنذ سنوات هبّت هذه القرية لاسترداد حقها المغتصب، وخاف الإقطاعيون، فلم يجرؤوا على دخولها، وجاء حكم الشيشكلي، فاستخدم إرهابه لخدمة الإقطاعيين، وعيّن مخفراً لعين بشريتي يحرس الإقطاعيين في نهب المحاصيل، ولجأ الفلاحون إلى إهمال الأراضي، واستنكفوا عن زراعتها، وجُنَّ الحكام والإقطاعيون، فأخذوا لتفكيك وحدة الفلاحين وإرهابهم يقدمون بعض الفلاحين إلى المحاكم بتهمة الانتساب لحزب غير مرخص (أي إلى الحزب الشيوعي)"، وتابعت الجريدة قائلة: "ولكن هذه الطرق لن تفيد، فالفلاحون في قرية عين بشريتي قد اتحدوا، ولن يعوقهم أي إرهاب في استمرارهم بالنضال من أجل أراضيهم المغصوبة".

4- وتمضي جريدة "الأرض للفلاح" واصفة الحركة المناهضة للإقطاعية في القرى التالية:

تحت عنوان: **قرية "مرسحين** تتابع نضالها ضد الإقطاعية" ورد الخبر التالي: "في أواخر الشهر الماضي (تشرين الأول 1953) طرد فلاحو مرسحين لجنة المساحة، ورفضوا إعطاءها خريطة بأراضيهم، لكي لا يسجلوها على اسم الإقطاعي قيصر عرنوق، فتوجهت على الأثر قوة إلى القرية، واعتقلت 16 فلاحاً".

وتعلق الجريدة على ذلك قائلة: "وهكذا عرف الفلاحون أن عدوهم اللدود في نضالهم ضد الإقطاعيين، إنما هو الحكومة، كما فهموا أن نائبها في طرطوس بدر...[321] قد تصالح مع الإقطاعي قيصر عرنوق على حسابهم، لقاء تأييده في الانتخابات".

5- "الحقبانية تناضل أيضاً ضد الإقطاعية"، فقد قام الإقطاعي كامل المحمود بتسجيل جميع أراضي هذه القرية على اسمه، استناداً إلى قوانين الحكومة المخالفة لمصالح الفلاحين، مع أن هذه الأرض كانت ملك أجدادهم وآبائهم. وقد حشد الإقطاعي في القرية أزلامه لإرهاب الفلاحين والاعتداء عليهم، وقد تمكّن من خداع اثنين من الفلاحين،

الأرض، بعكس ما كان يظن دانيال نعمة ورفاقه الشباب المتقدون حماسةً ثورية وإيماناً بالانتصار على العشائرية أثناء تحرير "الأرض للفلاح" عام 1952.

[321]- أي مرشح حزب التحرير، وهو حزب أسسه الشيشكلي لمساندته في الحكم.

فاعترفوا له بالملكية تحت الضغط والحاجة.

6- أولت جريدة "الأرض للفلاح" أهمية خاصة إلى تضامن الفلاحين وعدم تفرقهم، فذكرت أن "**تفرق الفلاحين يسبب ضياع الأرض منهم. هذا ما حدث في سبَّة**، فالطريق الوحيد لإنجاح قضية الفلاحين هو الاتحاد صفاً واحداً، ونبذ الجواسيس من صفوفهم. والاتحاد هو الطريق الذي يزيل كوابيس الإقطاعيين عن كواهل الفلاحين، فالأكثرية من فلاحي قرية سبّة لم يدركوا أهمية هذا الطريق الصحيح، بل خضعوا لرغبة الإقطاعي بشور الجميل، ووقعوا على سندات تقضي بالاعتراف للإقطاعيين بملكية الأرض، وظنوا أنهم بهذا التراجع ينالون حقوقهم، إنما ما حدث هو العكس، فالقسم الباقي من القرية، وهو قلة، استطاع باتحاده وعدم الإذعان إلى رغبة الإقطاعيين بأن يرغم الإقطاعية على التراجع عن هذا الطريق، وفرضوا احترامهم رغم أنهم قلة.

ولكن باستطاعة الفلاحين، الذين وقعوا، أن يمنعوا الإقطاعية من متابعة النهب، فيما إذا أدركوا أهمية الاتحاد، واستفادوا من خطئهم السابق، وإن اتحاد الفلاحين بالجبل العلوي يوجه إلى فلاحي سبة تحية حارة، ويدعوهم لاستئناف النضال للوصول إلى حقهم المنهوب.

7- أولت جريدة "الأرض للفلاح" اهتمامها إلى **الوضع الدولي** من منظار نشاط الحركة الشيوعية العالمية في أوائل خمسينيات القرن العشرين، فنقرأ في الجريدة الأخبار التالية:

- مؤتمر للدفاع عن حقوق شعوب الشرقين الأدنى والأوسط، الذي دعت إليه لجنة تشكلت في بيروت... "وإن اتحاد الفلاحين يحيي بحرارة النضال من أجل عقد هذا المؤتمر بنجاح، ويدعو جميع الفلاحين للمساهمة في أعمال لجنة المؤتمر".

- الذكرى السادسة والثلاثون لميلاد الثورة الاشتراكية الكبرى في روسيا... إن اتحاد الفلاحين إذ يحيي بحرارة ذكرى الثورة الاشتراكية وقوادها، يعلن أنه سيناضل بمزيد من العزم لتحقيق انتصار الفلاحين على أعدائهم.

- في مكان آخر من الجريدة أخبار عن الاحتفالات[322] بذكرى مرور 36 سنة على الثورة الاشتراكية في كل من: طرطوس اجتماع ضم ثمانية عمال، متن عرنوق حيث عقدت ثلاثة اجتماعات (15 فلاحاً، 10

[322]- كانت الاجتماعات تعقد بصورة شبه سرية في البيوت.

عمال زراعيين، 10 فلاحين)، الكفرون- صافيتا عقد اجتماعَيْن: الأول للنساء، والثاني للشباب.

وجاء في أخبار الاحتفالات: "إن اللجنة المنطقية للحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية أصدرت بياناً، ووزعته بالمئات في اللاذقية وطرطوس وبانياس وغيرها. وعلى أثر توزيع البيان داهم رجال الأمن العام عدة بيوت في اللاذقية وطرطوس".

- **"مذبحة قبية مؤامرة أمريكية نفذها المجرمون الصهاينة"**، فتحْتَ هذا العنوان ورد الخبر مع التعليق نقتطف منهما الجمل التالية: " قبل أسابيع شن الصهيونيون المجرمون خدم الاستعمار الأمريكي هجوماً غادراً سافلاً على قرية قبية العربية الآمنة، فذبحوا الأطفال والشيوخ، وفتكوا بالرجال والنساء، وخلفوا وراءهم أكثر من 60 ضحية بريئة. إن الشعوب العربية، وفي طليعتها الفلاحون الأشاوس، لن يسمحوا بتحقيق هذه المؤامرة، بل هم جميعاً سيستلهمون من دماء شهداء قبية مزيداً من الحقد لمنع تحقيق الصلح مع إسرائيل المجرمة، وللقضاء على فكرة المستعمرين في جرّ شعوبنا إلى مشاريعهم العدوانية، ولتكنيس أراضينا من كل آثار المستعمرين وخدمهم وأجرائهم".

8- هكذا يكافئ الإقطاعيون خدمهم وأجراءهم. منير العباس يأكل ثمن دخان خضرو السلمان وأقربائه من قرية جنين!

خضرو سلمان فلاح من قرية جنين، تقدم في السن، وهو من عشيرة الخياطين الخاضعة لزعامة آل العباس. قضى كل حياته في خدمة أسياده زعماء العشيرة، يجمع لهم الهبات والتبرعات، وينشر دعايتهم، ويبطش بأعدائهم، وينفذ كل ما يريدون، وقد كافأه منير العباس وإخوته أحسن مكافأة يجيدها إقطاعي عريق، أما هذه المكافأة فإليكم قصتها:

منذ عام اضطر خضرو سلمان هو وعدد من أقربائه لإخراج رخصة لزراعة الدخان، وبالفعل أخرجها لهم منير العباس، ولكن باسمه هو، فاستكثروا خيره، وشكروه، وزرعوا أرضهم ملكهم وملك آبائهم دخاناً، وسقوها من عرقهم وعرق عيالهم، وأعطت موسماً رائعاً، قُدِّمَ للريجي، وقُدِّرَ ثمنه بأكثر من ستمئة ليرة سورية، ولكن هذا الثمن قبضه منير العباس، وهو اليوم في جيبه وجيوب إخوته وشركائه في نهب الفلاحين والعشيرة، أما خضرو سلمان وأقرباؤه فلم يقبضوا سوى الوعود بالدفع.

وهكذا تفتحت عينا خضرو سلمان. لقد عرف أن نهاية كل أجير للإقطاعية لن تكون خيراً من نهايته هو، ولقد أصبح خضرو سلمان مثلاً عند الفلاحين يضربونه على كل من يحاول أن يظل في خدمة الإقطاعيين، ويهمل العمل في توسيع "اتحاد الفلاحين"، المنظمة التي تناضل من أجل حقوق الفلاحين وطريق الخلاص من كل استبداد.

9- الإقطاعيون يلجؤون إلى أسلوب إقامة الدعاوى لطرد الفلاحين من الأرض

كان الإقطاعيون، زمن الاحتلال، لا يقيمون وزناً لفلاح، وكانوا عندما يغضبون، يرمون بالفلاح وجميع أفراد عائلته على قارعة الطريق، ولكن نضال الفلاحين الذي كان يشتد، يوماً بعد يوم، قلب كل حسابات الإقطاعيين رأساً على عقب. وقبل حكم الشيشكلي، عدو الفلاحين الرئيسي، أصبح كثير من الإقطاعيين لا يجرؤون على دخول قراهم. لقد كان الفلاحون، في كثير من المناطق، قد سيطروا على الأرض، وبدؤوا ينتجون لحسابهم.

ولكن ما كاد الشيشكلي، خادم الاستعمار والإقطاعية، يثبت حكمه، حتى أخذ يكشف عن حقيقة وجهه المعادي للفلاحين، ولجميع أبناء الشعب، وأخذ يجرد الحملات العسكرية لتأديب الفلاحين، كما فعل في قرى مصياف، إكراماً لعيون الإقطاعيين الكيلانيين وغيرهم، وفي سبة، إكراماً لعيون الإقطاعيين من آل بشور، وفي مرسحين إكراماً لعيون قيصر عرنوق الإقطاعي في متن عرنوق.

ولكن كل هذه الحملات، لم تنتج سوى عزلة الديكتاتورية، وازدياد حقد الفلاحين عليها وعلى الإقطاعيين، وقد شعر الشيشكلي بهذه الأحقاد، فأوعز إلى الإقطاعيين بضرورة إقامة الدعاوى على الفلاحين، لطردهم من الأرض.

وبالفعل أخذ الإقطاعيون بإتباع هذا الأسلوب الجديد، فعطية جرجس الإقطاعي والعميل السابق للمستعمرين أقام الدعاوى على أكثر من عشرة من فلاحي قرية حاصور، وقد قررت المحكمة طردهم. وكذلك أقيمت في هذه الآونة دعاوى على فلاحين من ساحل صافيتا وطرطوس.

فالفلاح إبراهيم حسن ضاحي من قرية المشيرفة، ونور مصطفى ريشة من قرية خربة الأكراد، وكثيرون غيرهم من فلاحي قضاء

صافيتا، هم اليوم مهددون بأن تقرر المحاكم طردهم من بيوت سكناهم، ومن الحقول التي طالما سقوها بعرق جباههم، وكذلك الفلاحون: عباس مصلح، وخرفان إسكندر، وأحمد علي حسن، وسلمان صالح، من قرية نشاص يُلاحَقون أمام محكمة صلح طرطوس، من قبل الملاك عبد الله المحمد، لإخراجهم من القرية.

إن الشيشكلي، ومعه جميع الإقطاعيين، الذين تراجعوا عن خطة الضغط، بفضل نضال الجماهير، يتصورون أن المحاكم هي اليوم أضمن وسيلة لإخراج الفلاحين من القرى دون ضجة، وتحت ستار "القانون"، ولكن جميع الفلاحين يعرفون أن هذه القوانين التي يحاكمون بموجبها، إنما هي من صنع أعدائهم المستعمرين والحكام والإقطاعيين، وقد وضعت لمساعدة الإقطاعيين على التحكم بالفلاحين وعلى نهب خيراتهم وأرزاقهم ومن أجل هذا قرروا أن لا ينفذوا أي حكم تصدره المحاكم بطرد الفلاحين.

إن الفلاحين المهددين بالطرد نتيجة للدعاوى المقامة عليهم مصممون على البقاء في أراضيهم، وهم مستعدون لأن يموتوا على التربة التي طالما أحيوها بعرق الجبين. وإزاء هذا الاستعداد البطولي للمقاومة، يعلن اتحاد الفلاحين أن واجب الفلاحين هو التضامن مع هؤلاء الفلاحين المهددين بالطرد، وهو النضال العنيد، وبمختلف الأشكال، لفرض قوانين تمنع طرد الفلاحين من الأرض التي يعملون عليها.

10- الريجي ومن ورائها الحكومة تنهب أكثر محاصيل الدخان في محافظة اللاذقية

تأسست الريجي، هذه الشركة الأجنبية، وهي تعتمد لتأمين الحد الأقصى من الأرباح، على نهب الفلاحين في الجبل العلوي. وفي هذا العام، بلغ النهب حداً أسطورياً، وكل ذلك بفضل حكم الشيشكلي خادم المستعمرين.

إن جميع مزارعي الدخان يئنون هذا العام من ضياع محاصيلهم ومن الغرامات الباهظة التي فرضت عليهم، فالكل طامع بالتخمين: فالكاهن جبرا سركيس من قرية بيت سركيس خُمِّنَ موسمه بـ52 كيلوغراماً، مع أن هذا الموسم لم ينتج سوى 32 كيلوغراماً. ويوسف سلمان مختار قرية بصيرة خُمِّنَ موسمه بـ180 كيلوغراماً، ولكن المحصول أثبت أنه لم يبلغ سوى 100 كيلوغرام. وقد خُمِّنَ موسم أحد الفلاحين في قرية

المتراس بـ20 كيلوغراماً، فجُنَّ جنونه، ولم يسمح للمخمنين بمغادرة القرية قبل أن اقتلع دخانه، ووزنه وهو أخضر فلم يبلغ القيمة المخمن بها. لقد كان هدف الريجي هذا العام أن تقدر المواسم بأكثر مما هي عليه، كي تتمكن علاوة على أخذ المحصول مجاناً من تحصيل الغرامات.

إن جميع مزارعي الدخان مقتنعون أن هناك سياسة مدروسة لنهبهم ولنهب إخوانهم العمال، وكذلك لنهب مستهلكي الدخان أو بيعهم العلبة الواحدة بسعر يفوق سعر مشترى الكيلو من محصول الفلاحين.

ويواجه مزارعو الدخان علاوة على التخمين الجائر التدني الفظيع في الأسعار، فقد سعّرت الريجي الدخان المقدم إليها بأسعار تافهة، فمثلاً 2/1 فرضة على دخان قرية عرنية. طرطوس تقدم دخانها بـ"25-60" قرشاً للكيلو. دخان بصيرة، وهو دخان مشهور سعّرته الريجي بأسعار تتراوح بين الـ25 قرشاً والمئة قرش، والأسعار لا تزيد كثيراً في بقية القرى والأقضية، وحتى أسعار تقل عن ثمن علبة واحدة من الدخان.

إن اتحاد الفلاحين كان قد نبه جميع مزارعي الدخان إلى المؤامرة التي تحيكها الريجي، وكان كذلك قد وزع أكثر من بيان يدعو إلى النضال لتخفيض التخمين ولزيادة الأسعار، وقد أخذ الكثيرون من مزارعي الدخان يعترفون بصحة توجيهات اتحاد الفلاحين، خصوصاً بعد أن لمسوا الظلم الفظيع، وكذلك بعد أن علموا أن مئات من المزارعين في قرى بانياس وطرطوس رفضوا تسليم محاصيلهم، وباعوها لغير الريجي.

إن الاستياء الذي عمَّ صفوف جميع مزارعي الدخان يمكن أن يكون أساساً للعمل من أجل وقف نهب الريجي، ولتحسين حالة مزارعي الدخان، ويرى اتحاد الفلاحين في الجبل أن الطريق الوحيد لإنقاذ مزارعي الدخان وحماية محاصيلهم ورفع مداخيلهم هو طريق إيجاد منظمة خاصة لمزارعي الدخان، يكون لها فروع في كل القرى التي تنتج هذا الصنف، على أن تُوَحِّد هذه المنظمة جميع مزارعي الدخان في نضال عنيف من أجل إلغاء التخمينات الجائرة، ومن أجل زيادة أسعار الدخان.

فإلى الأمام من أجل إيجاد منظمة واسعة للدفاع عن حقوق مزارعي الدخان، وإلى الأمام للوقوف في وجه الريجي وتحسين أحوال مزارعي

الدخان.

11- ممثلو الديكتاتورية يقيمون الدعاوى على الفلاحين، لأنهم رفضوا السخرة

منذ شهرين أو أكثر، حاول مدير ناحية المشتى صلاح ذهني أن يرغم الفلاحين على العمل سخرة لإصلاح طريق صافيتا-المشتى، ولكن كل محاولات ممثل الديكتاتورية الحقير ذهبت عبثاً، فإن عدداً كبيراً من القرى رفضت أوامر السخرة، وألقت بكل تهديدات المدير المغرور تحت الأقدام، وجُنَّ جنون المدير، فأقام الدعوى على أكثر من خمسمئة فلاح من قرى جنين وسبة وبسدقين وبيت سركيس وغيرها أمام محكمة الصلح بصافيتا.

لقد ظنَّ المدير العبقري أن فلاحي هذه القرى سيهرولون إلى دائرته لطلب العفو، ولكن كل ظنونه قد خابت، فقد ازدادت صلابة الفلاحين، وازداد تصميمهم على مقاومة السخرة.

"إن الفلاحين ترتفع ثقتهم بأنفسهم يوماً بعد يوم، ولن يمر سوى قليل من الوقت حتى يرى ممثلو الديكتاتورية أنفسهم بحاجة إلى التواري هم وجميع الديكتاتوريات عن أعين الجماهير، وإلا سحقتهم الجماهير تحت أقدامها".

12- وجّه أهالي قريتي حاصور وكفرَّام عريضة إلى كل من رئيس الدولة ورئيس مجلس الوزراء ومحافظ اللاذقية **يؤيدون فيها إخوانهم الفلاحين في بشرايل** المناهضة للإقطاع. هذه العريضة الموجودة بين أوراق دانيال نعمة، وجدت طريقها، كما نُقَدِّر، للنشر في جرائد الحزب الشيوعي، كتبها مثقف ذو لغة رفيعة وعلى دراية بالمسألة الزراعية. ويَتَبَيَّن من هذه العريضة أن"رابطة التضامن" بين الفلاحين كانت خطاً استراتيجياً ثابتاً لدى الحزب الشيوعي في كفاحه ضد الإقطاعية، وفيما يلي نص العريضة:

"نحن الموقعين ذيلاً سكان قرية حاصور وقرية كفرَّام التابعين لتلكلخ، على اختلاف المراكز والاتجاهات والعقائد، هالنا جداً أن يبلغ استهتار الإقطاعيين من آل العباس حد إرسالهم إخطاراً إلى مجموع سكان قرية بشرايل، ينذرونهم فيه بضرورة إخلاء قريتهم فوراً، ومغادرتها بأسرع ما يمكن. إننا منذ تحقق الجلاء لم نسمع بمثل هذا الإخطار توجهه فئة من الإقطاعيين، الذين بنوا إقطاعيتهم على الاستبداد

ونتيجة خيانة الوطن وتأييد المستعمرين الغزاة شأن كل الإقطاعيين، إلى فئة من الفلاحين المجدين، الذين لا همَّ لهم إلا العمل بجد لرفع الحيف عنهم وللمساهمة في بناء مجد وطنهم وحريته.

إننا إذ نوجه هذا الاحتجاج، إنما نوجهه مدفوعين برابطة التضامن مع كل العناصر الشريفة المخلصة لوطنها وشعبها، وبنتيجة الحقد على الإقطاعية التي لا يمكن أن تهتم إلا بمصلحتها، ولو كانت هذه المصلحة على حساب تهديم الإنتاج الوطني، وعلى حساب خيانة الشعب وبأي شكل من الأشكال.

إننا نعتبر الإخطار الموجه من قبل آل العباس مع ما هو معروف، رغم قوانين الطابو، من عدم شرعية تملك آل العباس، هو أكبر خيانة ترتكبها هذه الفئة الإقطاعية ضد شعبنا وضد مصالحه، إذ إن الإخطار لو نفذ لما نتج عنه سوى تخريب قرية بمجموعها وتشريد سكانها.

إننا لسنا بحاجة إلى مشردين جدد، فما فعله الاستعمار والصهيونية متحالفين يكفي لكي نشعر بالمسؤوليات. إن جريمة آل العباس التي شُرِعَ بها منذ أمد بعيد، ليست أقل بشاعة من جريمة تشريد العرب في فلسطين عن ديارهم ووطنهم.

إن هذا الإخطار مخالف لأبسط القواعد الحقوقية، ينوي مرتكبوه أن يُقدِموا على تنفيذه، والسماح لهم بهذا التنفيذ لا يمكن أن يفسر إلا أنه خدمةً للإقطاعيين، الذين يحتقرهم كل وطني شريف. إننا نطلب أن يُفْهِم المسؤولون آلَ العباس أنهم ليسوا أحراراً في تشريد جيش من المواطنين من قرية هي بلا حول، منكوبة من رفات أجداد الفلاحين الذين يقطنونها اليوم. وإننا نطلب أن يُفْهِم المسؤولون آل العباس أن التطور يتجه إلى جعل الملكية ذات مفهوم اجتماعي، وأنه لا يجوز الإضرار بمصلحة المجتمع نتيجة بعض التملكات الفردية المبنية بوسائل الاستبداد والطغيان. إننا نطلب أن يَسْحَب الإخطار مرسلوه، ونحن منذ الآن نعلن تضامننا مع فلاحي بشرايل الشرفاء".

13- سياسة تخدم شركة الكاز

أكثر الفلاحين في الجبل العلوي يضطرون لاستعمال الأحطاب في تأمين حياتهم، وهذا ما تعلمه الحكومة، ولكنها ترسل رجال الدرك والأحراج لكتابة الضبوط بالفلاحين، لإحالتهم للمحاكمات وأخذ الأموال منهم، وما هذه السياسة التي تنتهجها الحكومة إلا خدمةً لشركة الكاز،

فعندما يكتب رجال الدرك أو الأحراج ضبوطهم بالفلاح، يخاف الفلاح، ولا يعود يستعمل الأحطاب، فبدلاً من ذلك يستعمل الكاز بجميع حاجاته، وبهذا إذا قسنا على جميع قرى الجبل العلوي البالغ عددها 1250 قرية، فيما إذا بطل استعمال الحطب فيها، واستعيض عنه بالكاز، فكم يبلغ ربح شركة الكاز؟ "إنها سياسة وقحة لنهب الفلاحين"[323].

14- في كل سنة تَحرُس الحراب بيادر عين بشريتي لحماية نهب الإقطاعيين لمحصول الفلاحين، ففي هذه القرية التابعة لصافيتا يسكن الفلاحون في بيوت لا تفرق عن تلال من (الزبل). وكما أنه في كل قرية مملوكة يكد ويجتهد الأهلون للحصول على ما يسد الرمق وقتياً، رغم بذلهم عرقهم ودمهم ماءً لسقاية المزروعات. يُجَنِدُ آل بشور في كل عام شرذمة من الدرك طيلة بقاء المواسم على البيدر، لتحمي للإقطاعية نهبها بقوة الحراب، والتي ستعود بأقرب وقت مهددة إلى صدورهم. وآل بشور ما يزالون يدَّعون أن القرية ملكهم منذ القدم. وأمام هذا الضغط وهذا النهب المكشوف، تنبه الفلاحون، وأخذوا في تنظيم نضالهم للحد من هذا الضغط والنهب.

فذعر آل بشور من اتحاد الفلاحين المنظم، واستجاروا بالديكتاتورية العسكرية عدوة الفلاحين، والتي ما زالت تلبي نداء الإقطاعية بكل وقاحة، وقامت هذه الديكتاتورية بإقامة الدعاوى على الفلاحين بتهمة الانتساب لحزب غير مرخص.

وما هذه الأساليب التعسفية إلا أداة لضرب اتحاد الفلاحين وتفكيكه، وخدمةً مباشرة للإقطاعية خادمة الديكتاتورية والاستعمار، ولكن كل هذه الضروب من الفلسفات الإرهابية لن تستطيع إبعاد الفلاحين عن اتحادهم، ولن ينثنوا عن نضالهم في سبيل قضيتهم العادلة وحقهم في الحياة. إن اتحاد الفلاحين بالجبل العلوي يحيي بحرارة نضال فلاحي عين بشريتي، ويهيب بهم لمتابعة النضال مع إخوانهم الفلاحين المملوكين[324].

---

[323]- إن التزمت والصرامة في الدفاع عن الفلاحين قاد جريدة "الأرض للفلاح" إلى هذا الموقف، فالاستخدام الجائر للأحطاب يودي بالغابة والغطاء النباتي، لذا لا بد من استخدام الكاز وغيره من المحروقات، وهذه القضية لها وجهتا نظر، وقد وقف الحزب الشيوعي إلى جانب سكان الريف الفقراء غير القادرين على شراء الكاز، وغضَّ الطرف عن قضية الحفاظ على الثروة النباتية وخطر تحوُّل الغابات والأحراش إلى قاع صفصف.

[324]- أي المملوكة أراضيهم من الإقطاعيين، وهم يعملون فيها فلاحين محاصصين.

15- نضال خربة المعزة ضد الإقطاعيين

إن الوسيلة التي اتخذها إقطاعيو خربة المعزة للاستبداد في العمال والفلاحين هي دب روح البغضاء بين سكانها، فتارة يضربون هذا، وطوراً يبعدونه بعد تخليصه أرضه وتعذيبه وإهانته، فيضطر هذا إلى الفرار من القرية، وقد بلغ عدد العائلات التي نزحت بسبب الظلم والاستبداد نحو ثلاثين عائلة. طبعاً، كل إقطاعي يكره تضامن الفلاحين والعمال، لأنه يعلم أن من جرّاء هذا إضعافاً لسلطاته، وتقليلاً من هيبته، وعائقاً أساسياً في تكريسهم مبدأ الحرية، التي تقود كلاً من العامل والفلاح إلى النضال ضد الإقطاعيين الذين اغتصبوا أملاك الفلاحين واتخذوهم عبيداً. فعندما علم أنيس إسماعيل بتضامن القرية واتحادها على الحق، فما عليه أن يعمل؟

أولاً: أول عملٍ قام به معارضة المواشي على الطرقات ومنعها من الرعي في المشاعات العامة، فهبّ أهالي القرية للدفاع عن حقوقهم وحريتهم، فسيروا مواشيهم إلى مراعيها رغماً عن الإقطاعي و... وأقيمت الدعاوى، فكانت النتيجة أن المشاعات خاصة لمواشي القرية، ولا دخل لأنيس فيها، وتبين أنه معتدٍ على عشرين هكتاراً من المراعي المذكورة، ولكنه لم يحاسب.

ثانياً: تخريب مزروعات القرية وسلب الفلاحين أراضيهم، فقد أخذ أنيس يعمل بكل وسيلة لضرر أهالي القرية، فطلب من الحكومة المساعدة، فأرسلت الدرك مع أولاده يحملون الإنذارات إلى فلاحي القرية لمنعهم من حراثة أراضيهم والأراضي التي جبلت بعرق الفلاحين منذ مئات السنين.

وفي نفس الوقت، شرع أولاد الإقطاعي بمساعدة الدرك بتخريب المزروعات الشتوية، كالبصل والبابونج والفجل والبطاطا والثوم، فهبت نساء القرية يدافعن عن حقوقهنَّ، فقام أحد أبناء الإقطاعي بضرب النساء حتى سال الدم منهنَّ، أو أغمي عليهنَّ، ولم تنفع الشكوى في المحكمة.

ثالثاً: المختار والهيئة يُعذبون في ثكنة طرطوس، فقد ظنّ أنيس أنه إذا انتقم من المختار والهيئة تهابه القرية، وترضخ لظلمه، فطلب من الحكومة تعذيب الهيئة، فذهب بهم إلى الثكنة بواسطة فيصل الأتاسي، فطلبوا منهم الخضوع لأمر أنيس وذويه محمد علي وأنصاره، فلما أبوا،

أخذوا يضربونهم ويسومونهم مُرَّ العذاب.

رابعاً: الإقطاعي يريد ماء المستنقع، والأهالي يرفضون. لم يترك الإقطاعي المذكور شبر أرض يمكن الاستفادة منه إلا استولى عليه، ولم يبق إلا مساحة صغيرة مخصصة لسقي الطروش، ولكن الإقطاعي طمع في الحصول على هذا المستنقع الصغير الكائن بين دور القرية، الذي بقي خاصاً لسقي الطروش. أراد الآغا أن يشتل أرضه، فبعث زلمه إلى المستنقع لإحضار الماء، فأعادهم الأهالي مخذولين، فلم يتب الإقطاعي، بل أحضر أولاده ومعهم وكيل قائد الفصيل بطرطوس وعشرة درك لمقابلة الأهالي الذين يدافعون عن حقوقهم، لأخذ الماء اغتصاباً للأغا، ويؤمنوا له زراعة التبغ، ولو نفقت مواشي القرية كلها، فلم يجدوا سوى النساء بطريقهم، فأخذوا يضربونهنَّ ويشتمونهنَّ، حتى أغلقن الأبواب عليهنَّ.

الفصل الثامن
المؤتمرات الفلاحية في محافظة اللاذقية
1954- 1955

بعد انهيار حكم الشيشكلي الديكتاتوري تنفست القوى السياسية الصعداء، وانفتحت من جديد أبواب العمل الجماهيري أمام الأحزاب جميعاً. ولأول مرة منذ عام 1948 يُفتَح الطريق رحباً أمام النشاط العلني للحزب الشيوعي، مما سهّل عملية عقد المؤتمرات الفلاحية العلنية، التي بدأ الحزب ينظمها بصورة سرية منذ عام 1952.

وتميزت فترة المجلس النيابي 1954-1958 بإطلاق الحرية والعمل النقابي لمختلف فئات الشعب، وهكذا نشط الفلاحون للمطالبة بحقوقهم تحت لواء الحزبين الشيوعي والبعث، وشهدت منطقة صافيتا نشاطاً ملحوظاً للشيوعيين بين الفلاحين، وتعود جذور هذا النشاط، كما رأينا، إلى المرحلة السابقة، لكنه انتقل الآن من العمل السري إلى العمل العلني الأكثر جماهيرية.

فبين عامي 1954 و1955 نظّم الحزب الشيوعي أربع مؤتمرات فلاحية في أنحاء متفرقة من محافظة اللاذقية.

أول هذه المؤتمرات الفلاحية عُقد في المشتى في 20 أيار 1954، وتتالى بعده عدد من المؤتمرات كما أخبرت جريدة **"الصرخة"** البيروتية[325].

مراسل "الصرخة" في مشتى الحلو بعث الخبر التفصيلي التالي: في العشرين من أيار انعقد مؤتمر للفلاحين في قرى منطقة المشتى، ضم مندوبين عن 33 قرية فلاحية، وقد حملوا معهم تفاويض موقعة من فلاحي قراهم، وقد بلغ عدد تواقيع التفاويض 1178 توقيعاً، وأُلقِيَ في هذا المؤتمر تقرير تحدث عن الأوضاع الاقتصادية والمعاشية للفلاحين مبيناً مظالم الإقطاعيين والريجي و(حراس) الإحراج، ثم عن الأوضاع السياسية، وربط النضال في سبيل الأرض والحياة بالنضال من أجل السلم والاستقلال الوطني، ثم أوضح التقرير أن طريق الخلاص هو بالاتحاد والتضامن والنضال المشترك الفعال، وبعد أن ناقش المندوبون التقرير اتخذوا المقررات التالية:

1- القيام بحملة عرائض تطالب بتعبيد الطرقات وبالمدارس والمستوصفات والمصارف الزراعية، وزيادة سعر الدخان الذي تدفعه الريجي للفلاحين، وإشراك الفلاحين بالتخمين، وإيجاد مراكز قريبة للتسليم.

2- تأييد بشرايل وحكر كابر والقرى المناضلة ضد الإقطاعية.

3- تأييد نداء مجلس السلم العالمي وتحية مؤتمر هلسنكي.

4- الوقوف بحزم ضد الأحلاف، وخصوصاً حلف تركيا والعراق وإنكلترا.

5- الضرب بيد من حديد على عصابة القتل والغدر القوميين السوريين وسائر جواسيس الاستعمار[326].

6- تحية إلى العمال المناضلين في سبيل حقوقهم.

7- تحية إلى الشعب السوري الصامد في وجه الاستعمار.

8- التبادل التجاري مع الاتحاد السوفييتي وبلدان الديمقراطيات الشعبية.

9- تشكل لجان للسلم في القرى.

---

[325]- عدد "الصرخة" البيروتية سقط رقمه وتاريخه من أرشيفنا.

[326]- كانت المعركة في قرى صافيتا حامية الوطيس بين الشيوعيين والقوميين السوريين، وأدَّت إلى سقوط عدد من القتلى.

10- النضال ضد العُشر[327] ولإنقاص حصة الإقطاعي.
11- إقفال مدارس العصابة القومية باعتبارها أوكاراً للتجسس والخيانة.

وقد توجه الحاضرون بعد انتهاء المؤتمر بالتحية إلى نائب دمشق خالد بكداش لدفاعه عن الفلاحين، ثم تفرق الفلاحون، وكلهم عزم وتصميم على متابعة النضال حتى النهاية[328].

هذا العزم والتصميم على متابعة النضال - حسب تعبير جريدة "النور" - نلاحظ امتداداته في التحضير لعدد من المؤتمرات الفلاحية، التي اتخذت الآن صفة العلنية في أجواء الديمقراطية، التي نعمت بها سورية بين عامي 1954 و1958، وأوردت (النور) أخبار التحضير للمؤتمرات الفلاحية العلنية في كل من قضائَيْ تلكلخ وصافيتا... "وحيث يتابع فلاحو قرى سهل صافيتا على اختلاف الآراء والفئات والمذاهب والعشائر نشاطهم في سبيل التحضير للمؤتمر"[329]، ولم نستطع متابعة أخبار المؤتمرات الفلاحية بسبب تلف ورق الجريدة، التي قضمتها الفئران[330].

الفصل التاسع
تقرير المؤتمر الفلاحي
صيف 1954

بين الأوراق، التي قدّمها لنا لؤي بن دانيال نعمة في جملة ما قدم مشكوراً، تقرير مؤلف من إحدى عشرة صفحة مكتوب بالحبر الأسود وبخط جميل، والتقرير نسخة مبيضة نظيفة لا أخطاء فيها ولا شطب، بدليل أن كاتبها عاش أجواء مريحة بعد انهيار الديكتاتورية وتحقيق قدر

[327]- يستقيم المعنى على النحو التالي: النضال ضد دفع ضريبة العشر الملغاة، التي يجبيها عدد كبير من الإقطاعيين لصالح خزائنهم.
[328]- جريدة "النور" الدمشقية، التي أصدرها الحزب الشيوعي، العدد 11 في 1955/06/01.
[329]- هذا التعبير أوردته "النور" حرفياً في 1955/08/06.
[330]- كما في النور بتاريخ 1955/08/25.

كبير من الحريات. وواضح أن هذا التقرير مُستقى من تقرير المؤتمر الفلاحي الأول التأسيسي، الذي نشرناه بالتفصيل، ونحن نجهل كاتب أو بالأصح معد التقرير، الذي في كثير من صفحاته خلاصة عمل مشترك، وما وصل إلى اللجنة التحضيرية للمؤتمر من معلومات عن حالة الريف هي في غاية الأهمية. وهذا التقرير استفاد من التقارير السابقة ومن خبرة المؤتمرات الفلاحية الثلاث، التي عقدت في ثلاث مناطق من محافظة اللاذقية، التي يسميها التقرير كسابقيه بالجبل العلوي، وهو غني بمعلوماته وتحليلاته وحتى أداء أسلوبه اللغوي. فهو، أي التقرير، يعتمد على التقارير السابقة، ويستفيد من خبراتها، ويسعى لتجنب ثغرات المؤتمرات الفلاحية الثلاث. وفوق هذا وذاك، فالمؤتمر والتقرير المقدم مكتوب في ظروف ملائمة، بعكس التقرير الأول الملقى أمام المؤتمر الفلاحي الأول في ربيع 1952، عندما كان الإرهاب الديكتاتوري يكمّ الأفواه.

ولا نعلم بالضبط متى عقد المؤتمر الفلاحي الرابع، ولا في أي قرية من قرى محافظة اللاذقية، ولم يتحدث التقرير، كما في التقارير السابقة، عن ديكتاتورية الشيشكلي البائدة، بل تحدث عن الحكومة التي تسير مع الإقطاعيين، وهي ضعيفة لا تستطيع مواجهة تضامن الفلاحين. من أعد التقرير وكتبه وألقاه أمام المؤتمر؟ أمور نجهلها بسبب رحيل من شارك في المؤتمر، والسرية في تجنب ذكر الأسماء والتواريخ وأماكن عقد المؤتمرات. وثمة رأي، نرجحه، يقول إن ناسخ أو كاتب التقرير، الذي بين أيدينا هو ميشيل العيسى[331]، ابن مشتى الحلو، الذي فـُصل من دار المعلمين الابتدائية في حلب بسبب نشاطه الحزبي، وهو تلميذ دانيال في الحزب الشيوعي، وأحد خلفائه في قيادة الحركة الفلاحية والمختصين في المسالة الزراعية، وهو أحد المسؤولين الحزبيين في المنطقة في ذلك الحين. وسننقل بعض الفقرات من التقرير الملقى أمام المؤتمر الفلاحي الرابع في منطقة من الجبل العلوي، ونحن نقدر أن المؤتمر عقد في أواخر صيف 1954، في منطقة سهل عكار وغربي تلكلخ، كما هو

[331]- إلى جانب نشاطه الحزبي أولى ميشيل عيسى اهتمامه إلى القضية الفلاحية، وبين أيدينا ورقة أعدها ميشيل عيسى لأحد مؤتمرات الحزب في ثمانينيات القرن العشرين مؤلفة من 25 صفحة مطبوعة على الحرير، وتحت عنوان: "المسألة الزراعية في سورية، ورقة عمل للمناقشة".

واضح من أسماء القرى الواردة في التقرير.

وفيما يلي مقاطع من ذلك التقرير الهام:

"أيها الإخوان!

لأول مرة يعقد في منطقتنا، وفي محافظة الجبل العلوي، مؤتمرات للفلاحين يبحثون فيها مطالبهم، ويتفقون على الاتحاد وعلى النضال المشترك لرفع الظلم الشديد النازل بهم.

إن الظلم الذي يحلّ بنا نحن فلاحي هذه المنطقة هو أقسى وأشد من أي ظلم يحلّ بأي فلاح في سورية، فمعظم أراضينا قد اغتصبها الإقطاعيون وكبار الملاكين في أيام ضعف الفلاحين وجهلهم وتفرقهم. إنهم اغتصبوا أطيب الأراضي بالقوة والاضطهاد والتزوير، وبواسطة الحكومات المتعاقبة التي كانت، وما تزال جميعها، عدوة الفلاحين وتساعد الظالم الغني ضد المظلوم الفقير.

... فجميع الإقطاعيين ما يزالون يأخذون بالقوة عُشر المحصول باسم ضريبة العشر، التي ألغيت منذ سنين عديدة، ويأخذون زيادة عليها حصة تتراوح بين الثلث والنصف، بينما نقوم نحن بكل النفقات والتعب. إن الحصة التي تبقى لنا لا تكفي لغذائنا، وهذه الضرائب الباهظة. ودباح الدندشي نهب طرش الفلاحَيْن علي الفياض وأبو غزول، وفي سبيل ذلك سجنهما بحجة سرقة سلاح، وعذبهما وأهان نساءهما في القرية، وما يزال أبو غزول في السجن منذ سنة، ولم يبق في قرية العكاري سوى ثلاثة أزواج بقر، وإن الباقين وعددهم يقارب عشرين فلاحاً فقد تشردوا بعد أن فقدوا كل حلالهم. إن الإقطاعيين لا يعرفون الرحمة ولا عندهم وجدان، فكل من يطلب رضاهم ويساعدهم على إخوانه الفلاحين يصبح هو نفسه عن قريب الضحية الثانية. لهذا، فإن أول واجب علينا هو أن ندرس كيف ننجح في منع الإقطاعيين من طرد الفلاحين من الأرض والبيت[332].

هل يمكننا أن ننجح بذلك؟ نعم، وبكل تأكيد، وذلك باتباع الطرق الآتية:

أولاً: يرفض الفلاح أن يخرج إذا طلب الإقطاعي ذلك.

---

[332]- وبعد هذا المؤتمر بثلاث سنوات، صدر قانون عن المجلس النيابي السوري يمنع تهجير الفلاح من بيته. انظر الفصل المتعلق بالتهجير في كتابنا: "الفلاحون وملاك الأرض في سورية القرن العشرين"، بيروت، 2003، الباب الأول، ص 74 وما يليها.

ثانياً: يتضامن معه بقية الفلاحين والعمال الزراعيين، ويؤيدونه ضد الإقطاعي، لأنه إذا طرد رفيقهم في هذه السنة، فإنهم سيُطردون في السنة المقبلة. ويهدد الإقطاعيون الفلاحين بأن يستعملوا الحكومة ضدهم، ولكننا جميعاً نعلم أننا إذا اتحدنا فأول من يخاف من اتحادنا هي الحكومة، فالحكومة لا يمكنها أن تضطهد جميع الفلاحين. إنها مثل الإقطاعي، لا تجرؤ أن تضطهد سوى الأفراد الضعفاء، إذا انفصل عنهم أبناء القرى، والأمثلة على ذلك كثيرة. ويمكننا إذا اتحدنا أن نحقق مطالبنا الواحد بعد الآخر، وقد اتفق إخواننا الفلاحين والعمال الزراعيين، الذين عقدوا ثلاثة مؤتمرات في عدة مناطق من الجبل العلوي، على أن لا يسلموا العُشر في هذا العام للإقطاعي، وأن يستخدموا القوة والاتحاد في سبيل ذلك، فالحركة إذا شملت الجميع تنجح حتماً. لهذا، علينا أن نعود إلى قرانا، وأن نعمل بجد ونشاط، وأن نقنع بصبر إخواننا الفلاحين بأن حصة الإقطاعي في الموسم المقبل يجب أن تنقص إلى الثلث في الأراضي البعل، وأن تمنع الشكارة والسخرة والبرطيل، وأن لا ندفع من حصصنا شيئاً لا إلى الخضري ولا الخولي ولا إلى التراكتور وصيانة الأقنية (السواقي)، وأن نلغي العشر كذلك في الأراضي السقي، ويلزم أن يجري كل ذلك بالاتفاق مع أبناء قرانا، وأن نبدأ في حديثنا مع المخلصين الشرفاء منهم، وعلينا أن نسعى لإيصال هذه الفكرة إلى جميع القرى، التي لم تمثل في هذا المؤتمر، لتكون الحركة شاملة للجميع، فيكون نجاحها مضموناً.

وقد بحث إخواننا في المؤتمرات السابقة جميع النواحي التي تؤثر في حياة الفلاح، وقرروا تشكيل اتحاد عام للفلاحين في الجبل، له قيادة واحدة، وله لجان في المناطق والقرى. وهذا الاتحاد من شأنه أن يجعل جميع فلاحي الجبل كتلة واحدة ويداً واحدة تعمل في سبيل رفع الظلم عنهم ونيل جميع حقوقهم، وإليكم الأهداف التي اتفق عليها الفلاحون والعمال الزراعيون في المناطق الأخرى[333].

واختتم التقرير مخاطباً أعضاء المؤتمر الفلاحي بالفقرات المعبّرة التالية:

"... علينا أن نتضامن ونتحد مع كل فلاح أو عامل زراعي يريد

[333]- عدد التقرير المطالب الواردة في المؤتمر الأول التأسيسي، والمنشورة في فصل سابق، فلا حاجة للتكرار.

الإقطاعي أن يضطهده أو يهينه أو يطرده من الأرض. علينا أن ننبذ ونحتقر كل فلاح أو عامل يساند الإقطاعي ضد أي فلاح كان.

علينا أن نقضي على كل خلاف أو انقسام في قرانا بتأثير المخترة أو المذهب أو العشيرة، *ليكون جميع الفلاحين على اختلاف حقوقهم ومطالبهم يداً واحدة.*

علينا أن ننتخب أشرف الفلاحين، لنجعل منهم لجاناً للدفاع عن حقوق الفلاحين في كل قرية ومنطقة.

علينا أن نمنع تضمين حصص الإقطاعيين لأي كان من الناس، كي لا يدخل إلى القرية لصّ جديد، وأن يمتنع كل فلاح من أن يضمن من الإقطاعي.

هذه هي مطالبنا، وهذه هي طرق النضال في سبيلها. فإذا نفَّذنا هذه الطرق، وابتعدنا عن استرضاء الإقطاعيين وعن الاعتماد على الشكوى للحكومة المتفقة معهم، واعتمدنا على أنفسنا وعلى قوتنا واتحادنا، فلا يوجد شيء صعب أمامنا والسلام".

الفصل العاشر
من صافيتا إلى بعرين
الفلاحون في غمرة النضال ضد الطغيان الإقطاعي

أولاً- قرية بعرين نموذجاً لقرى مصياف التي ملكها الإقطاع

بين أوراق دانيال نعمة **ورقة كتبها أحد فلاحي قرية بعرين** التابعة لمصياف، ومن سياق الكلام واضح أنها كتبت في سنة 1952 أو 1953، وسننقلها كما وردت، دون تصحيح، بقلم كاتبها:

"إن قرية بعرين الواقعة في أراضي حماة تحت يد آل الكيلاني، والتي تعد أكثر من أربعة آلاف نسمة، وليس يوجد عندها مدرسة تعلم أولادها. وكل هذا لم يكفِ آل الكيلاني، الذين يمنعون فتح المدارس، وهم يزيدون في ظلمهم على أهالي بعرين، وقد جرت فيما بينهم[334]

[334]- أي بين الفلاحين وآل الكيلاني.

دعاوى في الحكومة[335]، وطلبت الفلاحين رفع السخرة والظلم والاستبداد وتثبيت ملكيتهم في بيوتهم التي هي تعب يدهم، فلا كانت الحكومة تلبي لهم أي طلب من طلباتهم، بل إنها قد أوجدت عندهم مخفر درك لأجل إهانة الفلاح[336]، عليهم حبوبهم في الثلث، التي كان (الفلاح) يأخذ أقل من ربعها، وكل هذا بقوة الدرك الموجودين، والحكومي قد ساعدته على وجود هذه النقطة، التي ليس لها حاجة، بما أن المخفر الاعتيادي لم يبعد عنهم شي قليل في قرية الحميري، وانه سيهددهم دائماً في التشريد، وكل من يطالب بأي حق يكون في المشردين شي أكيد، وكل هذه بمساعدة الحكم الديكتاتوري والأحكام الكيفية".

نرجح أن هذه الورقة (الوثيقة) المرسلة من أحد فلاحي بعرين المكتوين بنار الإقطاعية والموجودة بين أوراق دانيال نعمة، قد وجدت طريقها إلى النشر، بعد صياغتها، في جريدة "الأرض للفلاح"، التي لم نستطع الحصول على أعدادها كاملة، وتدل هذه الورقة الوثيقة أن تقارير المؤتمرات الفلاحية وأخبار جريدة "الأرض للفلاح" هي حصيلة عمل جماعي بين مجموعتين:

- الفلاحون، الذين يقدمون المعلومات المستقاة من واقعهم الحي.
- الكادر الشيوعي المثقف، الذي كان يعيد صياغة هذه المعلومات لغوياً، ويضيف عليها أحياناً من "ثقافته الماركسية اللينينية"، التي كانت ما تزال في بداياتها، ومما تعلـَّم من خلال لقائه بالفلاحين وتفاعله مع معاناتهم.

وسنقدم فيما يلي توضيحاً لمأساة فلاحي بعرين وكفاحهم تلخيصاً من كتابنا المطبوع، ومن ثمّ الممنوع من التداول، وهو حصيلة الدراسات الميدانية، التي قمنا بها في أرياف سورية، ومنها قرى مصياف، ومن ضمنها قرية بعرين[337].

كانت بعرين في أواخر العهد العثماني تحت هيمنة آل الهواش

---

[335]- يقصد في المحاكم.

[336]- كلمة غير مقروءة، والمعنى أنها أخذت من حصتهم، وهي الثلث، وأنزلتها إلى الربع (المؤلف).

[337]- حنا عبد الله دراسات ميدانية عن "حياة الفلاحين ونضالهم خلال النصف الأول من القرن العشرين"، الصادر عن الاتحاد العام للفلاحين بدمشق، الفصل الحادي عشر: فلاحو قرى مصياف، ص 449-466، والفصل الثاني عشر: المقاومة الفلاحية في قرى مصياف، ص467-481.

(زعماء المتاورة) العشائرية، الذين أخذوا ربع محصول الفلاحين من الحب. وقبل الحرب العالمية الأولى، باع عزيز الهواش بن خير بك الهواش القرية إلى محمد توفيق الكيلاني، تحت وطأة الحكم العثماني واستبداده، وتناقلت الشائعات أن الكيلاني قدّم للهواش مخدّة محشوة نقوداً ثمناً للقرية. وأياً كانت الشائعة، التي لا نأخذ بها، فهي تعكس الأجواء الواقعية لما كان عليه الوضع. وعندما وصل التحديد والتحرير إلى قرية بعرين عام 1935، احتج الفلاحون على تسجيل الأرض باسم الكيلانيين، فيما أطلق عليه الفلاحون **"قومة بعرين"**، التي قمعتها سلطات الاحتلال الفرنسي بقوة السلاح. وبعد القضاء على **"قومة بعرين"**، قام الإقطاعي بتهجير أكثرية فلاحي القرية، الذين رفضوا الإقرار بملكيته للأرض، فلم يبق في القرية من الفلاحين إلا من وقع على صكوك الإقرارات بملكية آل الكيلاني لبعرين، ولم تعرف "بعرين" الهدوء طوال حكم الإقطاع، فالتوتر كان مستمراً بين الفلاحين الساعين إلى استرداد أرضهم والإقطاعي أنور الكيلاني، الذي كان يُهَجِّر كل من يرفع رأسه مطالباً بالأرض، ويعيد إلى القرية كل مستسلم راض بالواقع في أجواء عَبَّر عنها أحد فلاحي بعرين أمام المؤلف بقوله: "الله كيلاني، والحكومة كيلاني، كيف بدنا نتحرك"؟

نشرت جريدة (النصر) الدمشقية في عددها رقم 1862 الصادر في شباط 1951 رسالة لمُكاتِبِها من مصياف قال فيها:

"إن فئة من فلاحي قرية بعرين قد شكلوا جمعية إرهابية مؤلفة من... غايتها قتل الملاكين، وفي طليعتهم السيد أنور الكيلاني المكروه من الفلاحين"، وتعليقاً على هذا الخبر كتبت جريدة (**البعث**): "إن الإقطاعيين رشوا المُكاتِبَ بقصد إرهاب الفلاحين". وعلى أي حال، كانت الأخبار التي تناقلتها الصحف دليلاً على أن الصراع بين فلاحي بعرين وأنور الكيلاني تميّز بالعنف والشدة، والإصرار على استرداد الأرض. وفي تموز 1951، أرسل فلاحو بعرين عريضة إلى المجلس النيابي احتجوا فيها على عارف الكيلاني وإخوانه، لاستيلائه على أراضيهم وسوء معاملته.

قال الفلاح إسماعيل قربيشي من مواليد 1932 إنه التحق بخدمة العلم في أواخر عام 1949، وسمع وهو في القنيطرة بتهجير أهله من بعرين مع ثلاثة أرباع الضيعة، ممن رفضوا الاعتراف مجدداً بملكية أنور

الكيلاني للقرية والموافقة على تسجيلها باسمه. سألناه عن شعوره لسماع خبر تهجير أهله، فأجاب: "شعوري... تخربط فكري، ما عاد عندي قلب، لا للجيش ولا للبلاد". ولهذا الكلام معناه العميق في قضية ارتباط الإنسان بوطنه، فمن لا أرض له لا وطن له...

في صيف 1954 نشرت جريدة **"الصرخة"** اللبنانية الشيوعية، التي استقت أخبارها من الكادر الشيوعي الناشط في مناطق صافيتا ومصياف، أخباراً مذهلة عن "فظائع الإقطاعية الرجعية بقرى مصياف"، حيث جرى تشريد الفلاحين من بيوتهم في قرى بعرين وعقرب وقرمص، وتميز قضاء مصياف بشدة الطغيان الإقطاعي وبمساندة الحكومة ومساعدتها لكل طاغية مستبد من الإقطاعيين في القرى المملوكة لـ"أغوات حماة"، وكما قال أحد فلاحي بعرين "إن الشيشكلي اتفق مع ذوات (وجوه) حماة ضد الفلاحين، فقد بدا ذلك واضحاً من القرار، الذي اتخذه في تشرين الأول 1953 محافظ حماة، ومنع بموجبه فلاحي قرية بعرين المملوكة من الكيلانيين من حراثة الأرض، لكن الفلاحين الأشاوس، وبفضل مساندة القوى التقدمية ومع تعاظم الحركة الوطنية، تجاهلوا الأمر الاستبدادي، واستمروا بحراثة الأرض، وفيما هم يمارسون حقهم، فوجئوا بحملة يشنها عليهم رئيس مخفر القرية، فاضطروا إلى ترك أرضهم بوراً، وكان ذلك معناه إعطاء آل الكيلاني حجة لطرد فلاحي القرية في العام المقبل. وفي 22 شباط 1954، حكمت محكمة صلح مصياف بطرد 23 عائلة من القرية. وعلى أثر ذلك شنَّ الدرك حملة لطرد الفلاحين، وشردوا 250 شخصاً في فصل الشتاء، مما أدى إلى موت عدة أطفال بسبب البرد والثلوج، وانتقل الفلاحون المهجرون إلى القرى المجاورة، وبعضهم وصل إلى قرى السلمية. ومن خلال أحاديث كاتب هذه الأسطر مع الفلاحين في تموز 1984 يلاحظ بوضوح أن الفلاحين يعدُّون أنفسهم غرباء في القرى الأخرى، وكانوا يحنون إلى العودة إلى قريتهم "بعرين". ورغم الظلم والاضطهاد الموجود في كل مكان، لكنه في بعرين وصل إلى درجة لا تطاق، فقد نشرت جريدة **"الصرخة"** اللبنانية الشيوعية أخباراً إضافية عن مأساة قرية بعرين ونضالها.

وننقل فيما يلي ما نشرته الصرخة في 1954/05/01:

"عندما بدأ حسن جوهرة من بعرين (محافظة حماة) يتلمس طريق الخلاص، ويفكر بإزالة استثمار الإقطاعيين له من آل الكيلاني، ويرفض السخرة لديهم، طردوه من بيته مع عائلته، ورموا حوائجه في العراء، وعندما تجرأ أحد الفلاحين، وآواه مع عائلته ودوابه، هاجم زلم الإقطاعيين هذا البيت، وهدموه فوق الدواب، وقد مات طفله الصغير مطموراً بالردم، وأمسى هذا الفلاح البالغ من العمر 60 سنة شريداً".

وفي بعرين، التقى كاتب هذه الأسطر بتاريخ 1984/07/13 بأحمد بن عيسى حسن الجوهرة من مواليد 1929، الذي قال إن الطفل قارب على الموت، ثم عادت إليه الحياة، وذكر أن والده عيسى حسن جوهرة التجأ إلى "التويِّم" (في الغاب)، وعمل عند مالكيها من آل العاشق، وتوفي عام 1955، وأكثر أولاده وأحفاده بقوا في الغاب، وحصل على أرض من الإصلاح الزراعي هناك. وعندما تحققت الوحدة بين سورية ومصر، عاد قسم من مهجّري بعرين إلى القرية، وبقي قسم في الأماكن التي نزح إليها، والجميع حصلوا على أرض من الإصلاح الزراعي. وفي بعرين، احتفظ المالك أنور الكيلاني بـ 200 دونم ملكاً له بموجب القوانين، لكن الفلاحين استولوا في عام 1973 بالقوة على أراضي الاحتفاظ لآل الكيلاني، ووزعوها فيما بينهم، وأردف المتحدثون في بعرين من آل جوهرة، أن أخذ أرض الاحتفاظ لآل الكيلاني جرى بالقوة، تجاوزاً على القوانين، وبموافقة ضمنية من السلطات، فسبحان الله، إذ قبل الإصلاح الزراعي كان آل الكيلاني يستولون على الأرض اعتماداً على القوانين، أو تجاوزاً لها وبموافقة السلطات الإقطاعية البرجوازية، وبعد الإصلاح الزراعي انعكست الحالة في بعرين لمصلحة الفلاحين.

ثانياً- نضال فلاحي صافيتا ضد العُشْر والسخرة

بتاريخ 1954/07/11 بعث مراسل الصرخة في اللاذقية دانيال نعمة رسالة إلى جريدة "الصرخة" البيروتية الشيوعية[338] عكست بعضاً

[338]- مع أن الجريدة لم تشر إلى اسم المراسل، لكننا نجزم أن المراسل هو دانيال نعمة المسؤول عن منظمة الحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية في تلك الفترة، فاللغة والمعلومات الواردة واضحة أنها من وضع دانيال، وستأتي المقالة اللاحقة لتثبت هذا التقدير.

من أوضاع الحركة الفلاحية في منطقة صافيتا، كما نقرأ في الفقرات التالية:

"اللاذقية - لمراسل "الصرخة": كان الفلاحون في قرى صافيتا قد ناضلوا بحزم زمن الديكتاتورية لإلغاء ضريبة العشر، وقد توصلوا يومذاك، رغم الظروف القاسية، إلى استصدار قرار بمنع استيفاء هذه الضريبة الملغاة، والتي حلَّت محلها ضريبة الإنتاج، لكن الإقطاعيين تمكنوا بما لهم من دالَّة على بعض رجال الدولة من منع إذاعة هذا القرار على جميع القرى المملوكة، وبهذا تمكن هؤلاء الإقطاعيون من طمس الانتصار، الذي حققه الفلاحون بنضالهم وتضحياتهم.

وفي هذا العام، يهدد الإقطاعيون بأنهم سيستوفون ضريبة العشر، مما دفع إلى قيام حركة نضال فلاحية ضد استيفاء العشر، ولإيجاد قانون عادل يحمي الفلاحين من طغيان الإقطاعية.

ففي قرى الساحل التابعة لقضائَـَيْ صافيتا وطرطوس، وكذلك في قرى الشعرة التابعة لتلكلخ، تجوب لجان من الفلاحين المناضلين هذه القرى، وتجمع تواقيع الفلاحين على عرائض تطالب بمنع استيفاء العشر، وبتحديد حصة الملاكين بثلث الإنتاج، وبإيجاد قانون لحماية الفلاح من طغيان الإقطاعية. وقد جمعت هذه اللجان مئات التواقيع حتى الآن، وهي ما تزال ماضية في نضالها من أجل جذب جميع الفلاحين إلى هذا النضال، ولتهيئة وفد سيجري إرساله إلى دمشق مطالباً... (هناك نقص نتيجة تلف في نسخة الجريدة) الهيئات المسؤولة.

إبان النهوض الفلاحي، الذي شهدته سورية عام 1951، والذي كان من نتائجه انقطاع الإقطاعيين عن دخول (قراهم) التي امتلكوها بالاختلاس والعنف، برزت إلى ميدان النضال ضد الإقطاعية قريتا عين بشريتي وسبة الداخلتان في (ملكية) بعض الإقطاعيين من آل بشور، وقد كان لمواقف هاتين القريتين صدى عميق في نهوض الفلاحين ضد الإقطاعيين.

ولكن هذه المواقف أخذت تتضاءل أهميتها نتيجة للأسلوب "الاشتراكي" في النضال[339]، هذا الأسلوب الذي أدى إلى إرغام

[339]- هنا يجري الغمز من قناة سياسة الحزب العربي الاشتراكي بزعامة أكرم الحوراني، الذي كان المنافس الرئيس للحزب الشيوعي في كسب ود الفلاحين وقيادتهم، وكان واضحاً أن دانيال نعمة مراسل "الصرخة" كان مع النضال الثوري للحصول على الأرض بقوة

الفلاحين على إنفاق الألوف لمتابعة الدعاوى في المحاكم "المختصة"، وكذلك نتيجة للإرهاب الذي شنته الديكتاتورية على الفلاحين المتمردين.

وأما في عهد الشيشكلي، وبعد العديد من الحملات العسكرية التي جَرَت في قرية (سبة)، اضطر فلاحو هذه القرية إلى (الخضوع) مؤقتاً للأسياد، لكن هؤلاء الأسياد لم يكتفوا بهذا الخضوع، بل أخذوا يزيدون في نهبهم وضغطهم، وقد لجؤوا أيضاً إلى إثارة المشاكل والخصومات بين الفلاحين بغية منع اتحادهم، الذي هو أساس كل نجاح ضد الإقطاعية.

أما قرية (عين بشريتي) فلم يستطع الإرهاب إناختها أمام أقدام الإقطاعيين، وفلاحو هذه القرية يتابعون صمودهم أمام ضغط الأسياد، فقد رفض هؤلاء الفلاحون حتى الآن أن يوقعوا سندات مزارعة بينهم وبين "المعلمين"[340]*، وكل ذلك لإحباط مؤامرة الإقطاعية الهادفة إلى تثبيت العشر تحت شكل جديد، وإلى أخذ سندات مزارعة لاستخدامها أدلة على تملكهم الأرض.*

إن فلاحي عين بشريتي قد صمدوا للإرهاب الديكتاتوري إبان عهد الشيشكلي، ولم يخافوا لا نتف الشوارب، ولا المشي على الأقدام إلى دمشق، ولا الدعاوى الباطلة التي حكموا فيها بعشرات الألوف من الليرات، وهم سيتابعون الاتحاد فيما بينهم، ويعملون لتقوية تضامنهم مع إخوانهم الفلاحين في بشرايل وتل الترمس وكرتو وعين الجرن وعين دابش وغيرها.

بعد أن أخذ نفوذ آل العباس، مثلهم مثل باقي الإقطاعيين بالتدهور والانهيار، لجؤوا لتثبيت (المراكز) المزعزعة إلى الاعتداء على فلاحي قريتهم (الطليعي)، وقد صبوا أكثر هذه الاعتداءات على أقرب المقربين منهم.

وأداة آل العباس التي يستخدمونها هي المختار والحارس، فهذان مكلفان رسمياً من قبل (الأفندية) بكتابة ضبوط ضد من (يتلفون) المزروعات. وفي أغلب الأحيان لا يكون هناك تلف، بل تفكير بالانتقام، وعندئذٍ تكتب الضبوط المزورة، ويزج النساء والشيوخ في السجون،

النضال الفلاحي، وليس عن طريق المحاكم فقط، كما كان نهج الحزب العربي الاشتراكي، الذي تولى أمر الدفاع عن قرية سبّة.

[340]- يقصد ملاك الأرض.

ونذكر أنهم سجنوا بالضبوط المزوّرة الفلّاحة جوهرة أرملة محمد علي مرداش، وسليمان عاصي عمره 65 عاماً، وعلي إسطنبولي وعمره 60 عاماً، وغيرهم وغيرهم، وهناك عدد كبير من المحكومين بالسجن شهراً أو عشرة أيام.

ولا يوفر آل العباس حتى أقرب المقربين منهم، فقد حكموا على يوسف عبد الرحمن[341].

هكذا يحاول الإقطاعيون...[342] المزعزعة، ولكن هذه المحاولات يحبطها الفلاحون بفضل اتحادهم وقوة نضالهم ضد الإقطاعية.

يلجأ آل العباس للضغط على فلاحي (الطليعي) إلى أسلوب إلغاء مراعي القرية القديمة، وتحويلها إلى أراض زراعية، وكذلك فعلوا بالمشاعات المختلفة، ومنعوا الفلاحين من سوق طروشهم على السكة العامة. ومع كل هذا، يحاول آل العباس أن يفرضوا على كل فلاح في الطليعي أن يقدم لهم رطل جبن عن كل بقرة، وأقة عن كل غنمة. وبهذا الشكل من التضييق يحاولون أن يشردوا قسماً من الأهلين من مساكنهم، ولكن الفلاحين أخذوا يردون على هذه الاعتداءات بتوحيد قواهم وبزيادة نضالهم.

يقاوم هؤلاء الإقطاعيون مقاومة المستميت كل محاولة لفتح المدارس في قراهم، خصوصاً في قريتي الطليعي وبشرايل، تارة بحجة أنه لا يوجد مشاعات في هاتين القريتين لبناء مدارس فيهما، وطوراً بحجة أنهم لا يريدون إدخال (جواسيس)، أي معلمين إلى قراهم.

ولكن الفلاحين يعرفون أسباب المقاومة الرئيسية، ولذا فهم يشددون نضالهم من أجل فتح مدارس في قراهم.

تمكن فلاحو بيت أحمد ونوس والحكر وجب الأملس من أخذ 2500 ليرة سورية تعويضات عن الأضرار التي أنزلتها الأي بي سي بأراضيهم، وذلك أثناء قيامها بعمليات الحفر ومد الخطوط البترولية، وقد ارتأى جميع الفلاحين أن يضعوا هذه القيمة أمانة عند المدعو يونس إسماعيل، ريثما يتفقون على المكان الذي سيبنون فيه مدرسة لأولادهم.

ولكن يونس إسماعيل الإقطاعي القديم، الذي يكره دخول العلم إلى

---

[341]- غابت بعض الجمل بسبب تلف ورق الجريدة المقضومة من فئران المتبن، الذي خُبِّئَت فيه الجرائد عن أعين مخابرات الدولة السلطانية.

[342]- نقص بسبب تلف الورق نتيجة قضمه من الفئران.

أوساط الجماهير، والذي جمع (ثروته) من نهب الفلاحين، تمنَّع عن دفع هذه القيمة للذين سلموه إياها. ورغم جميع المحاولات، ما يزال يتمنَّع عن الدفع متمسكاً بمختلف الحجج الكاذبة.

افتراء على المناضلين الوطنيين:

يذكر القراء[343] الاستفزاز الذي قام به آل العباس وزلمهم ضد المحتفلات بعيد الجلاء في قرية بشرايل، باتهامهن أنهن هاجمن قصر الإقطاعيين آل العباس في بشرايل.

وقد عينت محكمة صلح الجزاء في صافيتا يوم 14 تموز موعداً للنظر في هذه الدعوى، ولا شك أن الخزي والعار سيلحق الإقطاعيين المفترين على خيرة أبناء الشعب الشرفاء".

(انتهى النقل الحرفي عن "الصرخة" الصادرة في 11/ 07/ 1954).

الفصل الحادي عشر
الفلاحون في حلبة النضال الوطني والديمقراطي
بقلم المحامي دانيال نعمة

المقالة التي سنعيد نشرها لدانيال نعمة حول دور الفلاحين في النضالين الوطني والديمقراطي، لم تكن أمراً مبالغاً فيه في خمسينيات القرن العشرين، بل كانت تعبِّر عن ظواهر جديدة في اندفاع الحركة الفلاحية للدفاع عن حقوقها أو الحصول على مكاسب جديدة. ومن وحي تلك الأجواء، خطّت قلم القائد الشيوعي المحامي دانيال نعمة تلك المقالة، التي استند فيها إلى واقع النهوض الفلاحي والحماسة المتدفقة في شرايينه، وهو ينتقل من قرية إلى أخرى في أنحاء "الجبل العلوي". وفي تلك الأجواء، عكس مراسل "الصرخة" في اللاذقية دانيال نعمة ما كان يلمسه في الواقع الحي من جهة، وما كان يحلم بتحقيقه في الأرياف السورية من جهة أخرى، فالمقالة مزيج من الواقع وآمال المستقبل.

فقد نشط دانيال نعمة في تنظيم الحزب الشيوعي والمشاركة في قيادته في محافظة اللاذقية قيادة سرية وتحت لافتة المحاماة في أوائل

---
[343]- يقصد قرّاء "الصرخة" البيروتية.

عام 1952، كما رأينا، وهناك اعتقل في 29 كانون الثاني لعام 1953، ونقل إلى سجن المزة في دمشق، ومنها إلى معتقل تدمر الشهير في قلب البادية. وبعد إطلاق سراحه في حزيران 1953، خاض المعركة الانتخابية لعام 1953 مرشحاً عن صافيتا، ثم عاد إلى اللاذقية مركز المحافظة لقيادة النشاط الحزبي من هناك. وبعد انهيار ديكتاتورية الشيشكلي العسكرية في شباط 1954، بعث إلى جريدة "الصرخة" أخباراً باسم مراسل "الصرخة"، وكان أنشأ، وهو على رأس منظمة الحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية، مقالة بعنوان: "الفلاحون في حلبة النضال الوطني والديمقراطي"، نشرته "الصرخة" في 9 أيار 1954. وفيما يلي النص الحرفي للمقالة مع الإشارة إلى أن الفئران قضمت بعض فقراتها من جريدة "الصرخة" المخبأة في التبن بين عامي 1959 و1965 في بيتنا في ديرعطية[344]:

"يتميز الوضع العام، منذ أمد، بدخول الفلاحين حلبة النضال الوطني الديمقراطي، ككتلة كبرى، وهذا الأمر منطقي تماماً، وقد استقبلته الأوساط التقدمية بالكثير من الارتياح والتأييد، بينما أثار في القوى الرجعية السوداء الكثير من الغيظ والحنق، والكثير من التهويل والتهديد والإرهاب.

وطبيعي أن تبدي القوى التقدمية ارتياحها العميق لهذه الظاهرة، ظاهرة دخول الفلاحين حلبة النضال الواسع، فالفلاحون، الذين تعمل الرجعية الظلامية على إبقائهم قوة احتياطية لها تستخدمها... في المرحلة... ومن يتتبع تطور النضال العام يرَ أن الفلاحين قد أخذوا

[344]- لا بدّ هنا من ذكر الموقف الجريء والرصين، الذي تحلّى به والدايْ فايز حنا ونديمة البطل، عندما قررا، في ظروف صعبة، وفي أيام حالكة مرعبة، تخبئة جميع وثائق ابنهم الملاحق والمتواري عن أنظار المباحث السراجية (نسبة إلى وزير الداخلية عبد الحميد السراج، اليد الحديدية المرعبة للدولة السلطانية الحداثوية، فقد كان لطيشه وإرهابه دور في انهيار تلك الدولة). وفي الوقت، الذي قام فيه الكثيرون بإحراق وثائقهم أو وثائق أبنائهم، قام والدايَ بتخبئة تلك الوثائق، ومنها أعداد كبيرة من الجرائد في المتبن، ووضع فوقها أكداساً من التبن المعدّ علفاً لبغلنا، وله بعض "الفضل" في نقلي بمساعدة جدي لأمي من دمشق إلى بلدة جراجير الحدودية، التي كان للجد أصدقاء خلّص فيها. ومن هناك في أوائل أيار من عام 1960، وبصحبة أحد أصدقاء جدي من قرية جراجير، الذي يعرف الطرق في وادي الزمراني المؤدية إلى لبنان، عبر بغلنا بي سراً، وأنا مُعْتَلٍ صهوته، الحدود السورية اللبنانية من وادي الزمراني في جبال لبنان الشرقية إلى قرية رأس بعلبك البقاعية، ومنها ركبتُ السيارة إلى بيروت.

يشغلون في ميدان هذا النضال، حيزاً كبيراً يتسع باستمرار.

فمنذ سقوط الديكتاتورية الأخيرة، وقبل سقوطها بزمن طويل، والفلاحون يتدافعون إلى النضال الواعي جماعات جماعات، ويأخذ نضالهم أشكالاً مختلفة. ولكنه، في جميع الحالات، لا يخرج عن كونه نضالاً يستهدف في الأساس انتهاج سياسة وطنية ديمقراطية قوامها: إطلاق الحريات الديمقراطية، ورفض مشاريع المستعمرين، وتحسين أحوال الشعب، وخصوصاً أحوال الفلاحين أنفسهم، وأحوال إخوانهم العمال، وإجراء انتخابات نيابية حرة تنبثق منها، حكومة وطنية ديمقراطية توطد النظام الجمهورية البرلماني الصحيح. وقد تجلى هذا النضال وهذه المطالب في مئات العرائض التي أرسلت إلى حكومة دمشق الحالية، وفي عشرات الاجتماعات الفلاحية الجماهيرية، وفي المظاهرات التي جرت بمناسبة عيدَيْ الجلاء وأول أيار، وفي مختلف أنحاء الريف السوري، ونذكر على سبيل المثال ما جرى في بعض قرى محافظة اللاذقية: بشرايل، وكرتو، وعين دابش، والسودة، ودوير طه، وعيون الوادي، والقرداحة، والمتن، وغيرها وغيرها.

وإنها لأعمال مجيدة هذه الأعمال الوطنية، التي يقوم بها الفلاحون اليوم.

فكيف أخذ الفلاحون يتحولون إلى قوة تقدمية، ستلعب دوراً أساسياً في تحقيق أهداف البلاد الوطنية الديمقراطية؟

ليس في هذا التحول أي مجال للدهشة، فهو من طبيعة التطور ذاتها، فالفلاحون لم يخضعوا مرة خضوعاً كلياً للقوى الرجعية السوداء، وقد شهد الريف السوري خلال فترات متقاربة، أو متباعدة، تمردات فلاحية فردية أو جماعية، كانت ثمرة شعور بالظلم الإقطاعي والاستبداد. ولكن هذه التمردات على اختلاف درجات قوتها كانت بدائية بسيطة، يقوم بها أفراد قلائل، أو قرى منفردة، دون أن تحظى بالمساندة الفعلية من باقي الفلاحين ومن باقي الفئات الشعبية، ولم يكن الفلاحون يربطون أهدافهم النضالية بأهداف مجموع الشعب. لقد كان ينقصهم الوعي، وتنقصهم القوة المنظمة القائدة الطليعية، لذلك كانت تلك التمردات تنتهي إلى نتائجها المحتومة: الفشل، الذي يعقبه سحق القوى المتمردة، وتسليط كابوس فظيع من الإرهاب عليها.

ولكن قبل الحرب الأخيرة (الحرب العالمية الثانية 1939- 1945)

وأثناءها، تعرف الفلاحون، أو فئات منهم، إلى عنصر جديد في الميدان الوطني السياسي... يتعرفون إلى طريق النضال الصحيحة التي دلتهم عليها هذه القوة الوطنية المنظمة، حتى بدأ الإرهاب الرجعي ضد الفلاحين لإبعادهم بالعنف والتخويف عن سلوك الطريق الصحيحة.

وإضافة إلى ذلك، برزت حركات تدَّعي (الاشتراكية)، وتزعم فيما تزعمه من أضاليل أنه باستطاعة الفلاحين الحصول على الأرض، حلمهم وحلم أجدادهم من قبل، عن طريق المحاكم، وبوساطة القوانين السائدة، وبالاستناد إلى رضا وتأييد بعض الفئات العسكرية، لكن تبين أن جميع محاولات الإرهاب وجميع محاولات التخدير والتغرير هذه ليست بذات نفع، وقد كانت فترات الانقلابات العسكرية المتتالية، أهم مختبر عرف فيه الفلاحون حقيقة تلك المزاعم والدعايات، ورأوا بمزيد من الوضوح ما هي الطريق الواجب سلوكها. وهكذا، انطلقوا إلى النضال جنباً إلى جنب مع الطبقة العاملة، ومع كل الشعب، وضد الاستعمار والديكتاتورية والإقطاعية. لقد أدرك الفلاحون أن حلمهم بالأرض، وبحياة أفضل وأحسن، لن يتحقق إلا بالقضاء على الاستعمار، وعلى جميع دعائمه الداخلية، وأدركوا أن هذا الهدف لا يمكن الوصول إليه كاملاً، بصورة نهائية، إلا في ظل حكم ديمقراطي شعبي يكون أساس الانطلاق إلى الاشتراكية، وتقوده جبهة وطنية قوامها، بالدرجة الأولى، العمال والفلاحون. ومضى الفلاحون بجرأة وإقدام في نشاطهم، ففي ظروف ديكتاتورية الشيشكلي، عقد الفلاحون في جبل العلويين عدة مؤتمرات فلاحية، وأصدروا جريدة (الأرض للفلاح)، التي لعبت دوراً هاماً في توضيح أهداف الفلاحين، وفي تنظيمهم، وشحذ همتهم للنضال من أجل تحقيق هذه الأهداف.

على أنه، إذا لم تكن هناك أعجوبة في التحول الذي نراه اليوم في أوساط الفلاحين، فإن التقدم الذي أحرزه الفلاحون، رغم أنه بداية الطريق فقط لم يتم بدون مصاعب وتضحيات وجهود كبرى، وبدون إخفاقات وانكسارات.

ومن المفيد أن نذكر أن الفلاحين إذا كانوا يُقبِلون اليوم إلى النضال بمزيد من الحزم والأمل، فلأن القوى الوطنية الديمقراطية المنظمة قد أخذت على عاتقها مهمتين اثنتين تقوم بهما معاً، وفي وقت واحد، وبنجاح متزايد. أما المهمة الأولى، فهي بناء منظمات وطنية ديمقراطية

فـي القرى تنقل الـوعي الـوطني والـديمقراطي والـوعي الاشتراكي إلـى جماهير الفلاحين الفقراء والمتوسطين. وأما المهمة الثانية، فهـي إنشاء منظمات وحركـات فلاحية جماهيرية هدفها النضال من أجل مطالب.. يحاولون تجديد «شباب الإقطاعية» بنضال وهمي ضد هذه الإقطاعية، وبما يقدمونـه مـن بعض (الخدمات) الفردية التـي يستغلونها فـي بناء (زعاماتهم) (الجديدة) المزيفة.

ومن المفيد أيضاً أن نـذكر أن الفلاحين قد وثقوا كثيراً بالمنظمات الوطنية الديمقراطية التـي قويت دعائمها، وثبتت جذورها علـى أساس نمو الـوعي الـوطني والـديمقراطي والاشتراكي، وعلـى أساس سعيها المستمر لتحقيق انتصارات أولية بسيطة، ودون زج أعضائها الجدد وأصدقائها بسرعة ومنذ دخولهم إليها أو التفافهم حولها فـي معارك لا ينتج عنها من الربح ما يوازي أو يفوق التضحيات والخسائر.

لقد أصبح من المعروف تماماً أن كل فشل فـي الريف، وخصوصاً الفشل الذي يعقب تكوين حركات فلاحية جديدة، يؤدي إلى إدخال اليأس في أوساط الفلاحين، وإلـى مغادرتهم ساحة النضال إلـى حين. وتدرك الرجعية هذا الأمر، ولذا نراها تشن أعنف الحملات الإرهابية علـى كل منظمة فلاحية جديدة، ساعية إلى خلق شعور عند الفلاحين بأن النضال لن يجلب لهم سوى (الإهانة) والمصائب. وأمر آخر هام جداً لا بد من ذكره في معرض الحديث عن طور النضال الفلاحـي، هو التأييد الذي تلقاه حركـات الفلاحـين مـن العمـال والطـلاب والمثقفين التقدميين فـي المدن، فـإن هذا التأييد المتزايد باستمرار يلعب دوراً هاماً فـي تجنيد الفلاحين للنضال، وهو الذي يجعلهم يشعرون أنهم لا يناضلون بمعزل عن أي سند أو حليف، كما تحاول أن تصور لهم الرجعية.

لقد دخل الفلاحون حلبة النضال الوطنـي والديمقراطي العام، وهم فـي كـل يـوم يحققـون تقدماً ملموساً، ولكـن أمـام الفلاحـين وأمـام العمـل فـي صفوفهم عقبات ومصاعب، من أهمها تبعثر القوى الفلاحية، مما يؤخر الاتصال بها أو قد يشعرها بشيء من العزلة. أجل، لقد دخل الفلاحون حلبة النضال، وفـي هذا كل الخير لحركة النضال الوطنية الشعبية، وإذا اعتنـى جميع من يهمهم مستقبل وطنهم بالعمل السياسـي والاجتماعي فـي الريف، إذا اعتنـى جميع هؤلاء ببناء منظمات وطنية ديمقراطية فـي أهم القرى، وبإيجاد حركات فلاحية تحل محل (الزعماء) المضللين المزيفين

في خدمة الفلاحين والدفاع عن مطالبهم، عن طريق حشدهم للدفاع عن هذه المطالب، فسيكون من المؤكد أن حركة الفلاحين ستنطلق حتى تسد الأفق، وبالتالي سيصبح من المؤكد أن أهداف شعبنا في السلم والاستقلال والديمقراطية سيتم تحقيقها في وقت أقرب بكثير من الوقت الذي يُعَيِّنه حتى المتفائلون".

اللاذقية 9 أيار سنة 1954

الفصل الثاني عشر
" نشيد القرى"

عندما قابل دانيال نعمة قائمقام صافيتا لأمرٍ يتعلق بسير المعركة الانتخابية في خريف 1954، فاجأ القائمقام دانيالاً بالسؤال: "أستاذ نعمة من أين ستنفق على معركتك الانتخابية؟"، فأجاب دانيال بعفوية: "إنها لن تكلفني أكثر من ثمن تصليح نعل حذائي"، إشارة إلى تنقل مرشح الفلاحين سيراً على الأقدام بين القرى، وهو ليس بحاجة إلى أموال لينفقها على معركته الانتخابية. وفعلاً، كان المناضلون الشيوعيون أثناء تنقلاتهم في "الجبل العلوي"، غالباً ما يستخدمون أقدامهم للتنقل بين القرى. وأثناء ترحالهم من قرية إلى أخرى، كانوا يرددون الأناشيد الوطنية والثورية. من تلك الأناشيد التي سمعها كاتب هذه الأحرف عام 1953 من توفيق أسطور، أحد المعتقلين الشيوعيين في سجن تدمر الصحراوي، ودانيال منهم، المقطع التالي:

معْ هديرِ الأبحرِ الطوامي معْ دبيبِ الهولِ والرعودْ
أنشدوا في رهبةِ الظلامِ لحنَ شعبٍ حَطَّمَ القيودْ

لم يكن هذا التفاني في سبيل تحرير الفلاحين من المناضلين الشيوعيين أمراً من عالم الخيال، بل كان حقيقة واقعة حلم هؤلاء بتحرير الفلاحين المضطهدين، وسمعت من دانيال أنه كان، ذات مرة، في لقاء مع الرئيس حافظ الأسد، وانتقل الحديث إلى تاريخ الفلاحين في جبال اللاذقية، فقال دانيال لحافظ: "لو كنا علويين، لأقام لنا فلاحو الجبل المزارات"، إشارة إلى الجهود المضنية والنشاطات البطولية، التي قام

بها الشيوعيون، وعدد كبير منهم من المسيحيين، الذين كافحوا في سبيل تحرير الفلاحين، وأكثريتهم من العلويين، من نير الإقطاعية وسيف التخلف.

في 11 تموز 1937 نشرت جريدة **"صوت الشعب"** الشيوعية قصيدة **"نشيد القرى"** للشاعر **قبلان مكرزل**، عبّرت بمعانيها وموسيقاها أحسن تعبير عن حياة الفلاح وآلامه وتطلعاته إلى الغد المشرق. وغالباً ما كان المناضلون الشيوعيون، وهم يصعدون الجبال، ويهبطون الوديان للوصول إلى الفلاحين والمضطهدين في قراهم، ينشدون في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين "نشيد القرى" الزاخر بالمحبة وروح النضال، حيث يعيش السائر على طريق الحرية في أجواء توقظ الأحلام المستقبلية في فؤاده، وتبعث فيه النشاط والحيوية وحب العمل لخدمة الإنسان والوطن، وفيما يلي كلمات "نشيد القرى":

- 1-

من بهــــــاءِ الطبيعة
في قــــــرانا المنيعة
نتلــــــقَّنُ سرَّ الجَمالْ
مــــن هديرِ العواصفْ
والرعودِ القَواصــــِفْ
نستمدُ فنـــونَ النضالْ

- 2-

مُــــذْ رأينا النهــــارا
ودَرَجْنــــا صِــــغارا
بينَ هَذي الرُبا والحُقولْ
غَصَبَتْنا الهنــــــــاءْ
جَرَّعَتْنا الشـــــــقاءْ
هَجَماتُ العَدْوِّ الدخيـــلْ

- 3-

كَـــــمْ حُرِمْنا الطبيبا
وفـَقـَدْنا حَبيبـــــــا
بينَ إخوانِنا البائســــينْ

كَـــــــيْ نؤدي ضَرائبْ
للطـُغــــــــاةِ الأجانِبْ
ونبيتُ الدُجــــى جائعينْ

- 4-

كـَــــــمْ زَرَعْنا الحُقولا
وانتظـــــــــرنا الفُصولا
مُدْنياتٍ أوانَ الحَصـــــاد
فأتتنا الجُبـــــــــاةُ
والبُنوكُ الطـُغـــــــاةْ
ناهبينَ حَصـــــاداً وزادْ

- 5-

أرْضـَــــــــنا اغتصبوها
أهْلـَـــــــــنا شَرَّدوها
أين يأوي بنونا الصغارْ؟
قدْ كفاكُم تمـــــــــادي
يـا أعادي البِــــــلادِ
وكفانا خضـــــوعٌ وعارْ

- 6 -

مَعَ هُبوطِ اللـــــــيالي
مِنْ صدورِ الجـــبـــالِ
يَـتـَعـــالَى نَشِيدٌ مَهِيبْ
ذا نشـــيدُ قـُــــرانا
ردَّدَتـــهُ رُبـــــانا
منذراً بانفِجارٍ رَهيـــبْ

الباب الخامس
من أخبار الحركة الفلاحية المناهضة للإقطاعية في محافظة اللاذقية[345]

الفصل الأول
المقاومة الفلاحية والريع الإقطاعي

للريع الإقطاعي ثلاثة أنواع:

1- الريع العيني (الحصة، التي يأخذها المالك، دون تقديم أي جهد).

2- الريع العيني الإضافي، وهو المعروف بالأتاوات.

3- ريع العمل، والمقصود به السخرة بأشكالها المختلفة، وقد اتخذت المقاومة الفلاحية لريع العمل (السخرة) شكلين: المقاومة الفلاحية الفردية، والمقاومة الجماعية.

ظهرت المقاومة الجماعية الفلاحية للسخرة واضحة في عدد من المناطق، في خمسينيات القرن العشرين، مع نهوض الحركة الفلاحية من جهة، وتصاعد الحركة الوطنية، التي اتخذت منحى تقدمياً بعد احتلال القوى والأحزاب التقدمية مواقع هامة في داخل الحركة الوطنية. كما أن نشاط الأحزاب التقدمية، وتعاظم نفوذها في أوساط الفلاحين، أسهم في تنشيط المقاومة الفلاحية وانتقالها إلى مرحلة نوعية جديدة. أما المقاومة الفلاحية الفردية للسخرة، فلا شك أنها بدأت مع بداية السخرة، أي مع تشكل الطبقة الإقطاعية في أواخر القرن التاسع عشر، واستمرت حتى تفكك الطبقة الإقطاعية في منتصف القرن العشرين، وتحديداً عقب صدور قوانين الإصلاح الزراعي في عام 1958 وما بعد.

بدأت مقاومة السخرة، حسب معلوماتنا، في ثلاثينيات القرن العشرين بصورة فردية ومنعزلة، ثم تسارعت وتيرة مقاومتها في الأربعينيات، إذ صارت المقاومة الفلاحية للسخرة من الأمور اليومية، خاصة في القرى التي انتشرت فيها الأحزاب التقدمية (الشيوعي والبعث)، فقد حرّضت

---

[345]- المقصود بمحافظة اللاذقية هنا هو محافظتي اللاذقية وطرطوس الحاليتين مع منطقتي (قضائَيْ) تلكلخ ومصياف، قبل التقسيمات الجارية في ستينيات القرن العشرين.

هذه الأحزاب الفلاحين وشجعتهم ودعمتهم معنوياً في رفض السخرة، التي لم تنتهِ عملياً، إلا مع صدور قانوني الإصلاح الزراعي والعلاقات الزراعية عام 1958. وتزخر أدبيات الحزب الشيوعي في "الجبل العلوي" بتحريض الفلاحين على رفض هذه السخرة[346].

وهناك سخرة أخرى معروفة، وهي سخرة تعبيد الطرق، فالإقطاعي سخّر الفلاحين لشق الطرق المؤدية إلى قصره ومزارعه وتنظيفها. والدولة سخّرت الفلاحين في شق الطرق العامة. ورغم ظهور ضريبة بدل الطريق، فإن هذا النوع من السخرة بقي حتى خمسينيات القرن العشرين، والدليل ما أوردته جريدة "الصرخة" اللبنانية الشيوعية في 14 آذار 1954، وجاء فيها: "في الأسبوع الأول من تشرين الثاني 1953، حاولت دوريات الدرك في صافيتا إرغام الفلاحين في بعض القرى على العمل بالسخرة على الطرقات، فامتنع الفلاحون عن تنفيذ الأوامر، وشكلوا وفداً من 100 فلاح توجه إلى سراي صافيتا للاحتجاج، وعندما أراد قائمقام صافيتا تهديدهم، هتفوا بصوف واحد: "ما بنتسخر، ولو جاء الشيشكلي! وعلى أثر هذا الهتاف نشبت معركة قوية بين الفلاحين والدرك في أروقة السراي، اعتُقِل فيها عدد من الفلاحين وأطلق سراحهم في اليوم التالي. وتذكر جريدة "الصرخة" أنه منذ ذلك الحين لم تعد تُشاهد أية دورية تجوب القرى لإرغام أهليها على السخرة.

ثمة مقاومة فلاحية لريع عيني هو من حق الدولة، ضمّه العدد الأكبر من الإقطاعيين إلى حصتهم بعد إلغائه عام 1942 واستبدال ضريبة الإنتاج به. هذا الريع هو ضريبة العشر، التي سعى الإقطاعيون قبل إلغائها إلى الحصول بطرق مختلفة على نصيب وافر منها، قاموا بعد 1943 بالاستئثار بها، وكأن شيئاً لم يكن. لكن الفلاحين بدؤوا برفض دفع هذه الضريبة الملغاة، وكان أول من رفع راية "العصيان"، ورفض

---

[346]- نشرت جريدة "العلم" في 19 تموز 1954 صورة العريضة التي رفعها إلى وزارة الداخلية 280 فلاحاً من أقضية صافيتا وطرطوس وتلكلخ، يطلبون فيها:

1- إلغاء ضريبة العُشر الملغاة قانونياً، وجعل الحد الأقصى من حصة الإقطاعي الثلث في محافظة اللاذقية.

2- إلغاء السخرة بجميع أنواعها ووجوهها، وتحسين بيوت السكن على نفقة المالكين.

3- إيجاد قانون يحدد العلاقة بين الفلاح والملاك، ويمنع المالك من طرد فلاحيه من الأرض والبيت.

دفع ضريبة العشر، هم فلاحو القرى "المُسَيَّسَة" في أوائل خمسينيات القرن العشرين. وفي قرى صافيتا، ناضل الفلاحون بحزم حتى وصلوا، رغم الظروف القاسية أيام الشيشكلي، إلى استصدار قرار عام 1952 بمنع استيفاء هذه الضريبة. لكن الإقطاعيين بما لهم من دالَّة على بعض رجال الدولة، تمكنوا من منع إذاعة هذا القرار على جميع القرى التي يملكها الإقطاعيون. وفي عام 1954 هدد الإقطاعيون بأنهم سيستوفون ضريبة العشر، مما دفع إلى قيام حركة نضالية فلاحية ضد استيفاء العشر[347]. فقد نشرت جريدة **"بردى"** الدمشقية في 18 تموز 1954: "أن وفداً من فلاحي صافيتا وطرطوس وتلكلخ قدّم إلى وزير الداخلية "عريضة" يشكون فيها من رفع أصحاب الأراضي حصتهم على الإنتاج باسم أجرة الأرض، وطرد الفلاحين من قراهم فيما إذا لم يرضخوا لإرادتهم، كما أنهم يستوفون منهم الحصة العشرية الملغاة بعد إقرار ضريبة الإنتاج في سورية. لذلك يطلبون عدم استيفاء ضريبة العشر، وتحديد أجرة الأرض بنسبة عادلة، وإلغاء جميع العقود المكتوبة على الفلاحين، لأنها فرضت عليهم فرضاً، وإلغاء السخرة من جميع وجوهها، وتحسين بيوت السكن على نفقة المالكين، ووضع قانون يحدد العلاقة بين الفلاح والملاك، ومنع المالك من طرد فلاحيه من الأرض والبيوت". وبعد زوال حكم الشيشكلي، اتسع في أوائل نيسان 1954 في منطقة عفرين التفاف الفلاحين حول مطالبهم، فعقدوا الاجتماعات العديدة للدفاع عن مطالبهم وخاصة العاجلة المتعلقة بإلغاء ضريبة العشر التي يستوفيها الإقطاعيون في بعض المناطق[348].

وهكذا نرى أن المقاومة الفلاحية للريع العقاري الإقطاعي بدأت بمقاومة السخرة بأشكالها المختلفة، ثمّ برفض دفع ضريبة العشر الملغاة بعد عام 1942، ومحاولة تخفيض مقدار الأتاوات أو إلغائها إذا أمكن، وكان ذلك من "رابع المستحيلات" في القرى التي يملكها الإقطاعيون العثمليِّون[349]، الذين كانوا يعدُّون الأتاوات والسخرة جزءاً من مداخيلهم ورمزاً لسيطرتهم. ولم يكن بالإمكان إلغاء الأتاوات والسخرة

---

[347]- جريدة "الصرخة" البيروتية في 1954/07/11.

[348]- "الصرخة" البيروتية في 1954/04/18.

[349]- العثملـيّون هم من تطبّعوا بالتراث العثماني في الطغيان والاضطهاد والتحجر، وفي مقدمة هؤلاء الأغوات، ومن في حكمهم.

في قراهم، إلا بحركة ثورية عارمة تزعزع أسس العلاقات الإقطاعية. أما أفندية المدن، فإن ما فرضوه من أتاوات وسخرة كان أخف وطأة، وهنا تمكـَّن الفلاحون بمقاومة بسيطة من إلغاء السخرة، أو تخفيض مقدار الأتاوات، وأحياناً إلغائها.

أما الريع العيني الأساسي، وهو "حصة الإقطاعي" من المحصول، فظهرت أولى بوادر تحرك الفلاحين لرفض دفعها أو تخفيضها، بعد زوال حكم الكتلة الوطنية والحزب الوطني، على أثر انقلاب حسني الزعيم في أواخر آذار 1949، وكانت ثمّة أسباب دفعت الفلاحين للوهم بأن الزعيم "سيمنحهم" الأرض، كما أن أعداداً كبيرة من الإقطاعيين خشوا سوء العاقبة، وساورهم القلق من تصريحات الزعيم "الجوفاء" والديماغوجية.

ولم تكن مقاومة الريع العيني، أي حصة الإقطاعي، بالأمر السهل، بعكس مقاومة الشكلين الآخرين من السخرة: الأتاوات وريع العمل، التي انصبت جهود الحزب الشيوعي في الساحل على مقاومتها، وفق ما يملك من إمكانات.

الفصل الثاني
مراحل المقاومة الفلاحية

اتخذت المقاومة الفلاحية شكلين:

- مقاومة الفلاحين لتملك أرباب الوجاهة والنفوذ للأرض وحرمانهم منها.
- ومقاومتهم للاستثمار الإقطاعي بمختلف أشكاله وألوانه، وقد مرّت المقاومة الفلاحية بثلاث مراحل، هي:

1- العقود الأخيرة من الحكم الإقطاعي العثماني

كانت المقاومة الفلاحية في هذه الفترة شبه معدومة لأسباب كثيرة، منها أن "الأرض لم يكن لها قيمة" شرائية في تلك الفترة، فقد كانت جماعات واسعة من الفلاحين تهرب من تسجيل الأرض باسمها، خوفاً من دفع الضرائب وسَوْق الشباب إلى العسكرية، ولم نستطع خلال

جولاتنا الميدانية في أوائل ثمانينيات القرن العشرين من الحصول على معلومات عن المقاومة الفلاحية، إلا ما ندر، لكن جريدة **"المقتبس"** الدمشقية، وبقلم صاحبها محمد كرد علي، أشارت في 10 آذار 1910 إلى مطالبة الفلاحين بأرضهم، التي استولى عليها الأعيان "بأوراق رسمية"، وجاءت هذه الحركة في أعقاب ثورة الاتحاد والترقي ضد السلطان المستبد عبد الحميد، وقد أدى خلع السلطان وزوال أحد أشكال الاستبداد إلى أمرين هامين في بلاد الشام، وهما:

- انتعاش الحركة العربية التحررية، وقيام الأحزاب العربية والصحف الحرة، وبداية تبلور مؤسسات المجتمع المدني.

- مطالبة الفلاحين بأرضهم، التي سلبها الأعيان في عهد الاستبداد "بالطرق المشروعة" وفق النظرية الإقطاعية، وبالخديعة والضغط والإكراه وفق الرأي الفلاحي.

وقد مرّ، في فصل سابق، كمثال على هذه المقاومة تململات فلاحي قرية جبلايا، ووقوفهم بشجاعة أمام الحملات التي شنها الدرك العثماني في عام 1910 لفرض سيطرة إقطاعيي تلكلخ على القرية، ونهوض فلاحي شين[350] ضد تسلط الأغوات من إقطاعيي تلكلخ في شتاء 1912 وقيام الدرك العثماني باعتقال عدد من الفلاحين.

2- مرحلة الانتداب الفرنسي (1920-1943)

وفيها سعت المقاومة الفلاحية للاستفادة من الثغرات الموجودة داخل أجهزة الانتداب من أجل تحقيق بعض النجاح، فسلكت في أسلوب المقاومة طريقين:

أ- محاولة استرداد الأرض التي استولى عليها "أرباب الوجاهة والنفوذ" في السنوات الأخيرة من العهد العثماني، وخاصة في سنوات الحرب العالمية الأولى (1914-1918).

ب- الوقوف في وجه محاولات ومساعي "أرباب الوجاهة والنفوذ" من الإقطاعية القديمة والناشئة للسيطرة على أراضي الفلاحين أو أراضي أملاك الدولة وتسجيلها بأسمائهم، وكان الفلاحون يحققون بعض

---

[350]- انظر تفصيل الأحداث في كتابنا الصادر عن اتحاد الفلاحين عام1987، المجلد الثالث بعنوان: "المسألة الزراعية والحركات الفلاحية من الاحتلال العثماني إلى الاستعمار الفرنسي"، الفصل الخامس: "قريتا شين وجبلايا في صراعهما ضد الإقطاعية العثمانية"، ص 355-368.

النجاح تارةً، ويفشلون مرّات في صد الهجوم الإقطاعي المتواطئ مع أجهزة الدولة في سرقة الأرض وتحويلها إلى ملكيـة كبيرة إقطاعيـة. وفي حالات كثيرة لم تحسم الأمور، وبقيت معلقة إلى ما بعد زوال الحكم الاستعماري 1943.

ومن جهة أخرى، اتبعت المقاومة الفلاحية ضد تملـّك الإقطاعيين للأرض أسلوبين متداخلين هما: أسلوب الكفاح المسلح بمختلف درجاته وأشكاله المتناسبة مع ميزان القوى الطبقي والسياسي، وأسلوب الالتجاء إلى القانون، الذي كان عموماً في صالح تدعيم الملكية الكبيرة، لاسيّما أن مطبقي القانون ومفسريه، وقفوا في غالبيتهم إلى جانب القوى الإقطاعية.

3- مرحلة عهد ما بعد الاستقلال (1943-1958)

وكان في أوائله استمراراً لعهد الانتداب الفرنسي من حيث تدعيم الملكية الكبيرة الإقطاعية ومساندة الطبقة الإقطاعية، التي صارت الطبقة الحاكمة، بتحالفها مع البرجوازية. ولهذا، فإن كثيراً مـن الفلاحين كانوا يصرحون أثناء لقائنا بهم "أيام فرنسا كانت أرحم من أيام الوطنية"، ويقصدون بذلك "الكتلة الوطنية" المؤلفة من الإقطاعيين والبرجوازيين، التي وصلت إلى السلطة في فجر الاستقلال (1943-1949)، ولم تحدث مقاومة فلاحية تذكر لسببـين: الأول، استغلال الحكام حرارة الشعور الوطني وذكريـات النضـال ضـد الاستعمار لفرض سيطرتهم الطبقية باسم "الأمة جمعاء"، أي أنهم، تحت شعار "الأمة" نفوا وجود الاستغلال والطبقات، ومارسوا أبشع أنواع الاستغلال لمصلحة الأقلية الإقطاعية والبرجوازية الحاكمة. والثاني، لم يكن التحالف الطبقي المناهض للإقطاعية قد تكوّن بعد، وهذا الحلف ستظهر معالمه في خمسينيات القرن العشرين، وهو مؤلف من الفلاحين (بمختلف فئاتهم، وبضمنها برجوازية الريف الصغيرة)، والطبقة العاملة (الناشئة والسائرة في طريق التكوّن)، وبرجوازية المدينة الصغيرة (المستنيرة أو الثوريـة). هـذا التحالف أخذت إرهاصاته الأولى تظهر في أواخر أربعينيات القرن العشرين، وبدت ثماره تنضج في أوائل الخمسينيات، وأينع قطافه في أواخر ذلك العقد مع صدور قانون الإصلاح الزراعي عام 1958. معنى هذا، أن المقاومة الفلاحية دخلت في سنوات الاستقلال الأولى (1943-1949) مرحلة من السكون

والركود، ثم أخذت وتيرتها تتصاعد بالتدريج، متزامنة مع نهوض الحركة الوطنية في سورية، التي اتخذت أبعاداً جماهيرية وديمقراطية. ويلاحظ أن الحركتين: العمالية والفلاحية، أخذتا تشقان طريق النضال في قلب المعركة الوطنية والقومية. وفي الوقت نفسه، كانت شرائح متعددة من البرجوازية الصغيرة في المدينة والريف، تنهض للنضال الوطني والاجتماعي وتوثّق تحالفها مع الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين الفقراء.

في ظل تبلور التحالف الفلاحي العمالي البرجوازي الصغير كانت الحركة الفلاحية في سورية تشق طريقها، شأن الحركة العمالية، آخذة بالحسبان الترابط بين النضالين القومي والوطني من جهة، والاجتماعي من جهة أخرى. فالمقاومة الفلاحية في هذه الفترة (1949-1958) اتخذت أبعاداً جديدة، خاصة بعد أن صارت بعض قطاعات الدولة وأجهزتها، التي دخلتها عناصر برجوازية صغيرة، تؤيد النضال الفلاحي. ومع ازدياد قوة نفوذ الحزبين التقدميين حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الشيوعي السوري، في الشارع والمجلس النيابي، واحتلال عضوين بعثيين مناصب وزارية هامة، أخذ ميزان الصراع الإقطاعي الفلاحي يميل لمصلحة حركة التقدم الاجتماعي، الذي قاد إلى وضع قانون الإصلاح الزراعي، فالصراع الطبقي بين الإقطاعية والفلاحين العاملين في "أرضها" لم يكن بمعزل عن الصراعات الاجتماعية من جهة، والنضال الوطني والقومي من جهة أخرى.

وفي المرحلة الثانية بعد الاستقلال (1949-1959)، اشتدت حدة الصراع الاجتماعي بين العمال وأرباب العمل، وتصاعدت موجات الإضراب، والحركات النقابية المطالبة بزيادة الأجور وتحسين ظروف العمل، كما أن الشرائح البورجوازية الصغيرة الثورية منها والليبرالية دخلت ساح النضال السياسي، مطالبة بتحسين أوضاعها، وساعية للصعود إلى الأعلى والمشاركة في السلطة وضرب احتكار البرجوازية الكبيرة والإقطاعية لمفاصل الحكم الأساسية. وفي هذا الإطار، لعبت البرجوازية الصغيرة دوراً وطنياً مناهضاً للاستعمار، ودوراً تقدمياً تمثل في طموحها للقضاء على الإقطاعية أو على الأقل تقليم أظافرها، أي تحديد سقف الملكية الإقطاعية الكبيرة، كما أن بعض فئات البرجوازية الكبيرة المتنورة، غير المرتبطة بملكية الأرض، لم تكن

تعارض آنذاك تحديد سقف الملكية الإقطاعية، وبعضها كانت ضد تصفية هذه الملكية تصفية تامة.

الفصل الثالث
المقاومة الفلاحية في ظروف تشابك
(العشائري، الطائفي، الطبقي، الوطني)

اتخذت المقاومة الفلاحية للإقطاعيين أشكالاً متعددة، تبعاً لنسبة القوى التي حددتها العوامل والظروف التالية:

- الوضع السياسي العام، ومدى النهوض الوطني والجماهيري، وموقف الدولة وأجهزتها.
- درجة تطور الوعي الطبقي لدى الفلاحين، ونشاط الحزبين المناهضين للإقطاعية: الشيوعي والعربي الاشتراكي (وبالتالي البعث).
- قوة الإقطاعي العشائرية أو الدينية، ودرجة علاقته مع الدولة وأجهزتها.
- قوة الفلاحين العشائرية وحتى الطائفية، ومدى تضامنهم وتحالفهم مع القرى المجاورة ومع القوى التقدمية في المدينة، وعلى نطاق البلاد عامة.
- قوة الإقطاعي الطائفية، وكذلك عصبية الفلاحين الطائفية، إذ لعب الأمران دوراً دافعاً أو محجماً للمقاومة الفلاحية.
- الأساس "القانوني"، الذي استند إليه الإقطاعي لتجريد الفلاحين من الأرض، ومدى "شرعية" هذا الأساس، واعتراف الفلاحين بهذه "الشرعية" مكرهين، بالكرباج أو بسيف التهجير أو بالاثنين معاً.
- البيت ومن يملكه: الإقطاعي، أم الفلاح؟ وكانت ملكية البيت حجر الزاوية في تحديد درجة المقاومة الفلاحية للإقطاع، وبقدر ما كان الفلاحون يملكون أساساً قانونياً لملكية البيت، كانت مقاومتهم للإقطاعي أعنف، ولاقت بعض النجاح.

في ظل هذه الأجواء والصراعات الاجتماعية، قامت حركة المقاومة الفلاحية للإقطاعيين، لكن أمراً آخر أثَّر في الحركة الفلاحية، وهو النضال الوطني والقومي، فالكفاح للمحافظة على الاستقلال

السياسي وتدعيم الاستقلال الاقتصادي والخلاص من ربقة السوق الاستعمارية والكفاح ضد المشاريع الحربية الاستعمارية جعل الحركة الفلاحية، وكذلك الحركة العمالية، تنظر إلى الأمور نظرة متعددة الجوانب، فالكفاح الوطني آنذاك فرض عقد تحالف بين طبقات وفئات اجتماعية متعددة لها مصلحة في مقاومة الاستعمار، وإن يكن بدرجات متفاوتة. وفي إطار ذلك التحالف الوطني بين فئات وطبقات اجتماعية مختلفة المصالح، كان على الحركة الفلاحية أن تعمل وتنشط وتشن الهجمات تارةً، وتتريث تارةً أخرى، وتضطر إلى التراجع تارةً ثالثة. وبدا ذلك واضحاً ليس في المقاومة الفلاحية في القرى فحسب، بل في تكتيك القوى السياسية المؤيدة للحركة الفلاحية أو المنبثقة عنها. وتمثل ذلك بصورة خاصة في المعارك التي جرت تحت قبة البرلمان، وخاصة برلمان (1954-1958)، حيث أصبح للحركة الفلاحية قوة برلمانية تمثلت في نواب حزب البعث العربي الاشتراكي والنائب الشيوعي، وعدد من النواب التقدميين. ومع أن هذه القوة البرلمانية لم تكن تشكل عددياً أكثرية نسبية، إلا أنها تمكنت أحياناً من إقرار قوانين لمصلحة الفلاحين، وأخفقت مرات أخرى في تحقيق ذلك بسبب ميزان نسبة القوى داخل المجلس وخارجه.

ويلاحظ أن الدعوة إلى الإصلاح الزراعي نشطت في خمسينيات القرن العشرين في إطار تحالف الفلاحين والطبقة العاملة وبرجوازية المدينة الصغيرة، ومع أن البرجوازية الصغيرة الريفية والمدينية هي التي قادت هذا التحالف، فإن القوى العمالية والفلاحية الفقيرة لم تكن غائبة عن مركز القيادة، ومارست تأثيراً واضحاً في كثير من المعارك. وهذه الظاهرة القائمة على قيادة البرجوازية الصغيرة للحركة المناهضة للإقطاعية في الخمسينيات في فترة تكوّن الطبقة العاملة وتبلور حركتها النقابية، وتأرجح البرجوازية الكبيرة مع توجهها نحو الإقطاعية، أضفى على الحركة الفلاحية في سورية سمات خاصة، وأربكها، كما سنرى في أدبيات الحزب الشيوعي في منطقة الساحل، التي كان لدانيال نعمة ورفاقه اليد الطولى في صياغتها.

وفي ظل هذه الأجواء، نشط المحامي الشيوعي الشاب دانيال نعمة مع كوكبة من رفاقه في تأسيس الحزب الشيوعي وتنظيمه في محافظة اللاذقية، والسعي لتنظيم حركة فلاحية مناهضة للإقطاعية وللاستبداد

السلطوي. هذه الحركة الفلاحية الطبقية، التي نثر بذورها في أربعينيات القرن العشرين بدر مرجان ومن التف حوله، تعهدها بالرعاية الرعيل الثاني من الشيوعيين، الذين كانوا في غالبيتهم من المثقفين المسيحيين، ومنهم دانيال نعمة وميشيل عيسى وديب قطيرة وغيرهم، وهؤلاء، رغم التضحيات الجسام التي قدَّموها، إلا أنهم لم ينجحوا في كسب عطف أو ولاء إلا مجموعة صغيرة من الفلاحين العلويين، الذين استمروا خاضعين لزعاماتهم الدينية والعشائرية.

فالحركة الفلاحية، و"اتحاد الفلاحين في الجبل العلوي"، الذي سعى الحزب الشيوعي إلى ترسيخ دعائمه، لم يستطيعا الدخول في النسيج الاجتماعي لفلاحي الجبل العلوي، واصطدمت جهود الحزب الشيوعي وتضحيات كوادره الأسطورية بعائقَـيْ الطائفية والعشائرية، ولا ننسى الإرهاب السلطوي لأجهزة الدولة في قمعها للنشاط الشيوعي.

ولم تتمكن تلك الجهود الجبارة للكوادر الشيوعية من اختراق قلاع الطائفية والعشائرية، وبقيت تناضل على أبواب تلك القلاع، دون التمكن من دخولها وزعزعة أركانها.

وإذا كانت الرايات الطبقية (الفلاحية) لم تستطع اختراق الحصون العشائرية والطائفية، فإن رايات الوطنية، التي رفعت لواءها الأحزاب العلمانية (السوري القومي، والشيوعي، والبعث) تمكنت في خمسينيات القرن العشرين من فتح ثغرات في تلك الحصون، لكن العشائرية والطائفية سرعان ما قامتا بهجوم معاكس، وتمكنتا من إحداث خروق في بعض الأحزاب العلمانية، ودفعها للسير وفق مصالحها.

الفصل الرابع
إقطاع آل العباس والمقاومة الفلاحية في قرى صافيتا

في أواخر القرن التاسع عشر برز دور آل العباس في منطقة سهل عكار وصافيتا، وحظيت العائلة بدعم قوي من السلطات العثمانية، وتعززت مواقعها الاجتماعية والاقتصادية، واستفادت من هذه الحظوة، فوضعت يدها على عدد من القرى بالأساليب الإقطاعية المعروفة آنذاك. وشيئاً فشيئاً، تعززت سلطة العائلة الدينية، وحصلت على زعامة

العشيرة، فأمكن لها أن تنزع يد بيت حسن العامودي عن جملة من القرى، ومنها قرية بشرايل[351]. وهكذا دخلت قرية "بشرايل" وأراضيها في حوزة آل العباس، وتحولت إلى موقع هام من مواقعهم الإقطاعية. وإبان الاحتلال الفرنسي للساحل السوري في أعقاب الحرب العالمية الأولى، نشط آل العباس في إحكام سيطرتهم الإقطاعية على عدد من القرى المنتشرة في أنحاء الجبل والريف[352].

نقف على القرى، التي امتلكها آل عباس، وسجلوها باسمهم في قائمة قرى الإصلاح الزراعي وهي: دوير الطليعي، تل ترمس، تلة الخضر، كرتو، تل سنون، طعنة، ضهر المغارة، تركب، إضافة إلى القرى التي مارسوا عليها نفوذاً معنوياً وعشائرياً.

كانت حصة الإقطاع من هذه القرى ثلث المحصول، مضافاً إليها العشر، الذي استمر الإقطاعيون يُحَصِّلونه حتى عام 1959، رغم إلغائه في عام 1941، ولكن الإقطاع لم يعط جميع الأرض للفلاحين على مبدأ المحاصصة، بل أبقى أخصب الأراضي في يده، وشغل فيها العواطلية من الأجراء، وكان من المألوف تسخير الفلاحين، فوجد في قرية تلة الخضر عشرة أزواج بقر بحوزة الإقطاعي، حرث عليها العواطلية في شكارة الإقطاعي دون مقابل، "وكانت السخرة بالدورية" في قرية تلة الخضر، فالبيت، وهو ملك الإقطاعي، كان قائماً على سواميك (أعمدة حجرية)، ولكل ساموك سخرة يوم حسب الدور. معنى ذلك أن البيت

---

[351]- كان العلويون في مناطق صافيتا وجوارها يقدمون النذور إلى دير الحميراء، المعروف بدير مار جرجس أو الخضر، بالقرب من قلعة الحصن، وهو دير مشهور تابع لطائفة الروم الأرثوذكس. عندما زار الشيخ خليل بن معروف النميلي المتوفى 1815 منطقة صافيتا، أشار على مريديه من العلويين ببناء مقام للخضر في قرية تلة الطليعي، وبناء بيت سكن للشيخ جابر المنصور، ليقوم على خدمة مقام الخضر، "ويستلم الدراهم التي يقدمها الزوار للخضر". ودارت الأيام دورتها وتحول أحفاد الشيخ جابر، وهم المعروفون فيما بعد بآل العباس، إلى ملاك كبار للأرض وزعماء لعشيرة الخياطين في مناطق صافيتا والجبل العلوي، ولم يكن يَدُرْ في خلد الشيخ خليل النميلي أن بني جابر (العباس) سيتحولون إلى ملاك كبار لهم صولة ودولة، وسنرى أن نشرات الحزب الشيوعي في صافيتا وجهت سهام هجماتها على الإقطاعيين من آل عباس.

[352]- من المصادر الرئيسية لهذا الفصل دراسة محمود عيسى: "صورة من نضال الحركة الفلاحية في الساحل السوري"، المنشورة في مجلة "دراسات اشتراكية" بدمشق في 1984/03/03، ص 187 وما يليها. ومحمود عيسى من الذين أنجبتهم معارك النضال في بشرايل، وأصبح من كوادر الحزب الشيوعي المعروفة في المنطقة.

المؤلف من سبعة سواميك، كان على صاحبه أن يعمل بالسخرة سبعة أيام متوالية في شكارة الإقطاعي، إضافة إلى إعداد الخبز وجلب الحطب وتصنيع الجلَّة من روث الحيوانات... وغير ذلك، ومن يرفض السخرة فمصيره معروف من ضرب وقتل وتهجير، إذا كانت الأيدي العاملة الفلاحية متوفرة.

وكانت "الخولية"، وهم وكلاء مُلاك الأرض، الأداة المنفذة للإقطاع في هذه القرى، وإلى جانبهم الخضرية، وهم حراس الزرع الأخضر، وكانت العلاقة بينهم علاقة تجسس ومكر، والجميع يريد أن يُبَيِّض صفحته عند الإقطاعي، ولم يعتمد الإقطاعي في هذه المناطق على زلمه فحسب، بل استغل إلى أبعد الحدود سلطته العشائرية وهيمنته المعنوية، وأحياناً النفوذ الديني، في إخضاع الفلاحين ومنعهم من التحرك وضرب بعضهم ببعض. لكن الأفكار الشيوعية المناهضة للاستغلال والاستثمار أخذت تدخل منطقة صافيتا، بسبب قربها من الساحل ومن مراكز الأفكار المتنورة وكثرة المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية وعودة بعضهم وهم يحملون الأفكار التقدمية، كما أن بعض الشباب المتحرر من عائلات متنفذة أخذ ينادي في فترة من الزمن بإلغاء الاستثمار والاستغلال، مما أدى نسبياً إلى توعية الفلاحين ودفعهم للنضال[353]. ونتيجة لهذه العوامل، بدأ الفلاحون في تل الترمس وتلة الخضر وغيرها من القرى يتحركون، فقام زلم الإقطاع بمنع مواشي الفلاحين من الرعي في البراري المعدودة ملكاً للإقطاع، كما منعوا الفلاحين من نقل الماء من العين.

---

[353]- أشار محمود عيسى في دراسته المنوه عنها، إلى حركة الشباب المثقف القريب من العائلات المتنفذة في نشر الأفكار التقدمية في أواخر أربعينيات القرن العشرين من خلال المناقشات والجلسات مع الفلاحين. وأثناء لقائنا في الطليعي بتاريخ 1984/09/17 مع محمود مصطفى من تلة الخضر، تحدث عن قيام الفقراء من آل العباس بالدعوة إلى الأفكار الاشتراكية، ومن هؤلاء جابر محمد سليمان العباس، الذي كان يجمع الضيعة، ويدعو إلى الأفكار الاشتراكية، وكان جابر يملك فقط عشرة هكتارات، ويعمل في الأرض. وهذه الظاهرة عبّر عنها الفلاح محمود بقوله: "اختلفت الأفندية من بيت عباس، مما شجع الفلاحين". وقضية الخلاف بين إقطاعيي الدرجة الأولى والثانية أمر معروف، وله شواهد كثيرة في سورية أشرنا وسنشير إليها. كما لم تكن نادرة ظاهرة تأييد الفلاحين من مثقفين متنورين ومنعمين، المتأثرين بالفكر الثوري العالمي (الاشتراكي)، ونضرب مثلاً: وقوف ابن العائلة الإقطاعية الشاب فايز بشور إلى جانب الحركة الفلاحية والثورية معروف في منطقة صافيتا في خمسينيات القرن العشرين.

كان عدد سكان قرية تل الترمس 400 نفس، وأصبحت من إقطاعات آل العباس بأساليب الإقطاع المعروفة، وقد فرض آل العباس على كل فلاح، عدا السخرة، حراثة مساحة هكتارين للأفندي، على أن يرشهما وينقبهما، ويحصدهما، ويدرس المحصول، ويصفيه، ويحمله إلى الإقطاعي دون مقابل، ولم يكتف شوكت العباس بذلك، بل إنه استغل عهد الشيشكلي (1952-1954) وما رافقه من دكتاتورية، فقام بغرس بيادر القرية زيتوناً، وحرث الأراضي المشاع، واستثمرها لمصلحته الخاصة[354]. ومع النهوض الوطني ضد الاستعمار، وازدياد نشاط الأحزاب التقدمية، رفض فلاحو تل ترمس وتلة الخضر السخرة لدى الإقطاع عام 1955، وكان أول فلاح أعلن تمرده في تلة الخضر هو يونس أحمد العريان، فاستدعاه الإقطاعي، الذي كان يشعر بأن الرياح تسير في غير مصلحته، ولاطفه، وتركه دون أن يقوم بضربه، كما كانت العادة. ثم تمرد فلاح آخر هو محمد حمدان على الخولي، الذي أراد تهجيره، فلم يستطع، لأن الفلاحين تضامنوا معه، فقد أتى الفلاح محمود بحنيني إلى الفلاح محمود حمدان المُهَدَد بالتهجير، وأعطاه فرّاعة (تستخدم للتحطيب)، وقال له: "أي شخص يأتي لإخراجك من البيت اقتله ونحن معك..." ساعتها[355] بطلت السخرة، أي توقفت بعد أن لمس الإقطاع قوة عزيمة الفلاحين المسنودين بالزخم الوطني العام، الذي غمر سورية آنذاك، والمندفعين في تيار الحركة الفلاحية والثورية.

جاء في جريدة "الصرخة" بتاريخ 1954/07/11: أخذ نفوذ آل العباس، مثلهم مثل باقي الإقطاعيين، بالتدهور والانهيار، فالمختار والحارس يكتبان الضبوط المزورة ضد من "يتلفون" المزروعات في قرية الطليعي، كما يلجؤون إلى أسلوب آخر، وهو إلغاء مراعي القرية القديمة وتحويلها إلى أراض زراعية. وكذلك فعلا بالمشاعات المختلفة، ومنعا الفلاحين من سوق (مواشيهم) إلى السكة العامة، وفرضا على كل فلاح أن يُقَدِّم لهما رطل[356] جبن عن كل بقرة، وأقة[357] عن كل غنمة، كشرط إقطاعي، من أجل ألا يشرد الفلاحين من مساكنهم.

---

[354]- جريدة "الصرخة" في 1955/04/18.

[355]- ساعتها: في تلك الأثناء، والتعبير متداول ومعروف.

[356]- الرطل يعادل 2.5 كغ.

[357]- الأقة، وهي الأوقية، وتعادل خُمْس الكيلوغرام.

الفصل الخامس
فلاحو بشرايل يحصلون على الأرض بفضل نضالهم ويهزمون الإقطاع قبل الإصلاح الزراعي

أولاً- الاستثمار الإقطاعي وآثاره في بشرايل

تقع قرية بشرايل إلى الشرق من صافيتا، على إحدى قمم جبال الساحل الجنوبية. وفي أثناء الحكم التركي، استطاعت بعض العائلات المتنفذة أن تهيمن على القرية، وخاصةً آل الأرناؤوط، ثم ما لبثت هذه الهيمنة أن زالت، فحلت محلها سلطة عائلة حسن عامودي المعروفة جيداً في المنطقة، والمحسوبة في عداد العائلات المتنفذة، لكن آل العباس تمكنوا من إزاحة عائلة العامودي والحلول محلها، كما ذكرنا سابقاً، فسيطروا على بشرايل وغيرها من قرى سهل عكار وصافيتا[358]. ونظراً للموقع الممتاز الذي تحتله قرية بشرايل، اتخذ منها آل العباس مقراً صيفياً لهم، فبنوا قصراً يطل على كل الجهات في القرية والمنطقة، وجعلوا منه مركزاً لقيادة العشيرة، وقد بُنِيَ هذا القصر الشامخ على أكتاف الفلاحين، حتى قضى عدد منهم في عملية بنائه وتشييده، وحاق بهم المزيد من الذل والإهانة.

وسُخِّر الفلاحون لخدمة الإقطاعيين وحراسة محركاتهم وتأمين الرسل من القرى وإليها في ظروف قاسية ومهينة، كما سُخِّرت النساء في أعمال نقل المياه والطبخ والغسيل وجلب الحطب والوقود والحليب والبيض وكل أنواع الخدمات المنزلية الذليلة. وأكرهوا الفلاحين على تخصيص قطعة أرض (شكارة) بمساحة واسعة تُعَدُّ لزراعة الخضراوات والحبوب، يعود ريعها كله إلى "العائلة المالكة"، وتخصيص قطعة أرض أخرى بمساحة أكبر لزراعة الكرمة. والأعمال في هذه الأراضي تؤدى على مبدأ "السخرة"، الذي كان ضريبة وأتاوة يؤديها الفلاحون، من غير أن ينبسوا ببنت شفة. ولا ينسى فلاحو القرية "الخولي"، الذي يعينه الإقطاعي عنه في عمليات الإشراف ورعاية مصالح المالك، ولا يغيب عن خواطرهم أساليب هذا الخولي وممارساته

358- سننقل عن محمود عيسى في مقالته المذكورة سابقاً، دون الإشارة إلى المصدر في كل مرة، ومقالة محمود عيسى هي الهيكل العظمي لدراستنا لدى الحديث عن بشرايل.

المنافية لأبسط مبادئ الأخلاق الإنسانية، فهو مخوّل بنزع اليد عن الأرض وتسليمها لمن يشاء، وبممارسة أعمال التنكيل والجلد والتعذيب والضرب المبّرح، فيما إذا ندّت عن هذا الفلاح أو ذاك أية صرخة احتجاج أو استياء، فالجميع منقادون إليه مطواعون مسخرون لخدمة أسياده الإقطاعيين، يدفعهم بهذه الطريقة أو تلك إلى تقديم كل ما يملكون للمالك، فيضطر الفلاحون البسطاء إلى تقديم الهدايا والأتاوات في مناسبات الأعياد والأفراح وزواج الأبناء والبنات.

وفي ظل هذه الأوضاع الجائرة، كان الفلاحون يتخبطون في ظلام الجهل، فلا يسمح لأحد أن يفكر في فتح مدرسة أو كتاب، فلم تفتح أي مدرسة في القرى المملوكة من آل العباس، حتى مرحلة متأخرة، وهذا ما كان يسوّغ أساليب القهر والإذلال والإهانة، ويزيد في جهل الفلاحين واستكانتهم. وقد تشتد أساليب القهر على الفلاحين وأبنائهم، فيرحلون إلى مناطق بعيدة مثل الجفتلك[359] ولبنان، أو إلى ظل هيمنة إقطاعيين آخرين، وتبعاً لذلك تجري عملية تأمين البدائل لأولئك الفلاحين.

استمرت عائلة آل العباس في فترة الاستقلال بتعزيز مواقعها السياسية والاقتصادية والدينية، وشاركت في النشاط السياسي، وانخرط أبناؤها في الأحزاب البرجوازية، مثل حزب الشعب، وتكررت عملية انتخاب أبناء العباس إلى المجلس النيابي بدعم من نفوذهم الاقتصادي والاجتماعي، حتى انتخابات عام 1954[360].

ثانياً- المقاومة الفلاحية تتصاعد في بشرايل ضد الهيمنة الإقطاعية

في أواخر الأربعينيات، كانت الأفكار الاشتراكية بصيغتها الشيوعية قد وصلت إلى عدد من فلاحي بشرايل عن طريق منظمة الحزب الشيوعي في مشتى الحلو، وكانت بشرايل في قلب التحرك الفلاحي، الذي نظمته منظمة الحزب الشيوعي، في عقد المؤتمرات الفلاحية، وإصدار جريدة "الأرض للفلاح"، والعمل السري بين الفلاحين. وفي العهود العلنية، جاهرت القوى التقدمية بعملها الدعائي والتحريضي بين جماهير الفلاحين الفقراء، ورفعت شعار التصدي لأعمال السخرة التي تفرضها العائلة الإقطاعية من آل العباس.

---

[359]- الجفتلك هي أرض السلطان عبد الحميد إلى الشرق من حمص وحماة، وكانت أرض الجفتلك قد تحولت إلى أملاك دولة يستأجرها الفلاحون بأسعار زهيدة.

[360]- نؤكد مذكرين أننا ننقل حرفياً أو تلخيصاً عن محمود عيسى في مقالته المذكورة سابقاً.

ولأول مرة في 1950، ينهض الفلاحون، ويرفضون زراعة قطعة الأرض (الشكارة) العائدة للإقطاعي بالتبغ، وانتشر هذا الموقف، فصار مثالاً يحتذى من الفلاحين، وظهر في أعين الإقطاعيين عملاً متمرداً ثورياً، مما أغاظهم وأدخل السخط إلى صدورهم، وصمم الإقطاعي على الانتقام من الفلاحين، الذين انتظموا في صفوف الحركة المناهضة للإقطاع، واستدعى ثلاثة من فلاحي القرية إلى مقر الإقطاعي في قرية "الطليعي"، وكان الغرض من هذه الدعوة إنزال العقوبات الرادعة بالفلاحين جلداً وتعذيباً وطرداً من القرية، لإرهاب الفلاحين وإخماد حركتهم. ويذكر من أولئك: هزيم محمود، وحبيب علي شريف، وكامل عيسى، لكن الفلاحين لم يخافوا، وأعلنوا تضامنهم مع الفلاحين المستدعين إلى مقر الإقطاعي، وقرروا الذهاب لمقابلة آل العباس وإعلان التأييد لنشاط الشباب الثلاثة. فغضب الإقطاعي، وأعلن طرد الفلاحين الثلاثة من القرية ومن المساكن والأرض، لكن الفلاحين رفضوا القرار، وأعلنوا التمرد عليه، فاستعان الإقطاعي بالسلطة، واستقدم قائد فصيل صافيتا مع نفر من أعوانه إلى القرية، وأخذوا يتهددون ويتوعدون الفلاحين، واعتقلوا مختار القرية وفلاحين آخرين، ووضع الجميع في السيارة ليقودهم إلى سجن صافيتا. لكن عدداً من نساء القرية تجمهرْنَّ أمام قائد الفصيل، وهاجمن السيارة، واستطعن انتزاع المعتقلين وإطلاق سراحهم. وبعد ذلك رفض الفلاح حبيب علي شريف تنفيذ أمر تهجيره من بيته بذريعة أن هذا البيت للإقطاعي، وما لبث أن تضامن الفلاحون مع رفيقهم، وقررت مجموعة من الفلاحين الخروج من البيوت ونصب الشوادر في الشارع العام.

وفي عام 1951، وجه الإقطاعي إنذاراً بواسطة السلطة إلى واحد وخمسين فلاحاً في بشرايل وحكر كابر لإخلاء بيوتهم، ونزع أيديهم عن الأرض التي يعملون فيها، والرحيل عن القرية، فأوقع هذا الإنذار الخوف في قلوب البعض، من أمثال شيخ القرية، فأعلنوا ولاءهم للإقطاعي واستعدادهم لتنفيذ إرادته ولكل ما يكلفهم به، وبذلك استطاع الإقطاعي التأثير في وحدة الفلاحين وتلاحمهم، وتمكن من شق صفوفهم، بينما رصّ الآخرون صفوفهم، وزادوا في تراصهم وتكاتفهم، وردوا على إنذار الإقطاعي بالمزيد من الإصرار على التشبث بالأرض والمنازل، مما دفع الإقطاعي إلى تحريض "الخولي" على إقامة شكاوى

علـى مجموعـة مـن الفلاحـين، واختـار مـنهم الفلاحـين الـواعين سياسـياً وطبقياً من الشيوعيين الشجعان، مدّعياً أنهم قاموا بعمليات هجوم علـى بيته وإهانة زوجته وأطفاله، فسيق أولئك الفلاحون إلى سجن طرطوس، وزُوِرَت الشـهادات الزائفـة لإدانـتهم، وظـل الفلاحـون فـي السـجن ثلاثـة أشـهر دون أي اسـتجواب أو محاكمـة، وقـرر السـجناء الإضـراب عـن الطعام، الذي استمر تسعة أيام، وأشرف بعضـهم علـى المـوت، ومـنهم الفلاحـان محمـد سليمان وأحمد إبراهيم، وهذا الأخير شاب لم يتجاوز العشرين. وما إن وصل خبر الوضع السيئ الذي يعانيـه السجناء، حتـى توجهت النساء والرجال من القريـة إلـى طرطـوس، وتجمهـرن أمـام بـاب السجن يهتفن بسقوط الإقطاعيـة ومـن ورائهـا السلطة، ورددت الهتافـات مـن داخـل السـجن جمـوع السـجناء، واسـتمرت تظـاهرة النسـاء يـومين، فاضـطرت السلطة إزاءهـا إلـى إطـلاق سـراح سبعة مـن الفلاحـين، أمـا الثامن، وهو هزيم محمود هزيم[361]، فنقل على الفور إلـى سـجن اللاذقيـة بتهمة ملفقة، وبقي يرزح في غياهب السجن مدة ثمانية أشهر[362].

واغتنم الإقطاعيون مناسبة وجود الفلاحين في السجن، فاستعانوا برجال الدرك، وصادروا مواسم القرية، وخاصة (التبن) أعلاف الحيوانات، ولجؤوا إلى أسلوب إعطاء الأرض والمحصول إلى الفلاحين الذين رضوا أن يسيروا مع الإقطاعيين ووفق مشيئتهم. وبعد إطلاق سراح الفلاحين قدمت العرائض، وأرسلت البرقيات إلى رئيس

---

[361]- جاء في مفكرة المحامي دانيال نعمة أنه سافر في 28 حزيران 1952 من اللاذقيـة إلـى طرطوس لتقديم طلبات إخلاء سبيل لهزيم ورفاقه.

[362]- أكثر من محضر من محاضر المؤتمرات الفلاحيـة يشير إلـى هذه الحـوادث، وننقل مـا ذكره ديب قطيرة في لقاء معه بدمشق بتاريخ 2005/12/8، قال ديب: هزيم محمود هزيم هو أول شيوعي في بشرايل. انتسب إلى الحزب عن طريق أقربائه في كفرون حيدر. ودبَّر القوميون السوريون مكيدة لسوقه إلى السجن، فقد كتب أحد القوميين السوريين علـى غلاف مجلـة "الطريـق" البيروتيـة ذات النزعـة اليسـارية مـا يشـير إلـى قيـام محمـود هـزيم بجمـع الأسلحة والقيام بـانقلاب، ووضـع هذا القومي السـوري المجلـة سـراً بـين أغـراض محمـود هزيم، وقام بإبلاغ الدرك، ودفعهم لتفتيش بيت هزيم، وعندما قرأ الدرك ما كُتب في المجلة، اقتادوا هزيم إلى السجن في صافيتا، ومنها إلـى سجن حلـب. وتبيّن من التحقيـق أن القضـية ملفقـة، وطلـب القضـاء فـي حلـب إطـلاق سـراح هـزيم، لكـن قـوى التسـلط أيـام حكـم أديـب الشيشكلي، المتعاونة مع السوريين القوميين، نقلت هزيم من سجن حلب إلـى سجن اللاذقيـة. "وضـاع هنـاك"، حسب تعبير ديب، أي أنهم أخفوا إضبارته، كي يبقوه في السجن أطول مـدة ممكنة، وهذه المدة استمرت ثمانية أشهر بالتمام والكمال.

الجمهورية والجهات المسؤولة للمطالبة بإعادة الحقوق إلى أصحابها. وفي عام 1953، أقيمت دعوى على الفلاحين بتهمة سرقة محصول التبغ، واعتمدت شهادات مزورة، وصدرت أحكام جائرة تقضي بالسجن للفلاحين المدعى عليهم مدة ثلاثة أشهر، فزجوا بنتيجة هذه الدعوى أكثر من خمسين فلاحاً في السجن، ولم يجد الإقطاعيون وسيلة أفضل لقمع الحركة الفلاحية والنضالات الجماهيرية والسياسية من إقامة مخفر للدرك في القرية، ليكون عيناً تراقب وحارساً أميناً لمصالح السلطة وذيولها الإقطاعيين. وخصصت دار الشيخ مقراً لمخفر الشرطة هذا. وفي عام 1955 اندفع الفلاحون إلى إقامة مدرسة ابتدائية وبناء غرفة لهذه الغاية، واستولى الفلاحون على أحد البيوت التي كان الإقطاعي يستخدمها مكاناً للطبخ، وأجروا عليها بعض الإصلاحات، وقابلوا المسؤولين مطالبين بإحداث المدرسة، وسارع الإقطاعي لإقامة دعوى مستعجلة لمنع استيلاء الفلاحين على البيت كمقر للمدرسة المزمع إنشاؤها، لكن محاولة الإقطاعي باءت بالفشل، وأحدثت المدرسة في القرية[363].

ثالثاً- فلاحو بشرايل يخوضون معركة تملك الأرض

في صيف 1956، حاول الإقطاعي تسجيل أراضي القرية على اسمه في سجلات الطابو، فانبرى الفلاحون إلى الاعتراض على هذا التسجيل، وعملوا على تسجيلها بأسمائهم. وفي محضر جلسة المجلس النيابي في 1956/10/13 نقف على أن فلاحي بشرايل استنكروا اعتداءات الإقطاعي عليهم لاغتصاب أراضيهم، وكانت محاولة الإقطاعيين هذه إيذاناً باحتدام المعركة الطبقية بين الفلاحين والإقطاعيين، الذين حشدوا مئات الرجال من أبناء العشيرة، ودفعوهم للهجوم على القرية[364]، وإرهاب الفلاحين، وإخافتهم والنيل من عزائمهم في التصدي لأساليب الإقطاع. ولجأ أولئك المرتزقة إلى أسلوب التطواف في أنحاء القرية وكيل الشتائم والسباب واللكمات والضربات لكل من يصادفونه، لكن

---

[363]- نقلاً عن محمود عيسى، مصدر سابق.

[364]- الإقطاعي من آل العباس هو رئيس عشيرة الخياطين، وفلاحو بشرايل من الخياطين. وفي هذه الحالة، نرى أن الشعور الطبقي لفلاحي بشرايل تغلب على عصبيتهم العشائرية. وفي خمسينيات القرن العشرين تراجعت الولاءات العشائرية والطائفية، وانتعش الولاء للوطن، كما نما الشعور الطبقي نمواً ملحوظاً، كما هو في حالة بشرايل.

الفلاحين لم يردوا على الاستفزازات، وتمسكوا بالصبر والأناة. وما كان من النساء إلا أن تجمهرْنَ على السطوح، ورحن يصوبْنَ الحجارة لرؤوس أولئك المتسكعين، ويرمينهم بالقذارات والأوساخ، حتى اضطروا إلى الانسحاب من القرية، تتبعهم صيحات الفلاحين ولعناتهم.

وفي سياق هذه المعركة الظافرة، اضطر "الخولي" إلى الانسحاب من القرية والعودة إلى قريته، ووجد الفلاحون الفرصة مناسبة للاستيلاء على قصر الإقطاعي وأرضه وتحويله مكاناً لمدرسة القرية الابتدائية، ثم امتنع الفلاحون عن إعطاء المالك حصة من المحصول، وهنا برزت المهمة الأساسية، وهي توزيع الأرض على الفلاحين وفق معايير عادلة، باستثناء نفر ممن بقوا على ولاء شديد للمالك، والذين أعانوه في وضع الصعاب والعراقيل في نضال الفلاحين للفوز بالأرض وعودة الحق إلى أصحابه. ورغم أن بعض الفلاحين كان يملك مساحات واسعة تقدر بنحو 15 هكتاراً، فقد كان على عاتق القوى الفلاحية الواعية طبقياً وسياسياً أن توزع الأراضي بالتساوي، وعلى مبدأ القرعة، بعد فرز العقارات إلى حصص يتحقق فيها التساوي بجودة الأرض وقربها وسهولة استثمارها والعمل فيها وكونها مروية أو بعلية. ولهذا الغرض ألَّفوا لجنة خاصة لذلك، وتعهد أعضاء اللجنة بأن يأخذوا الحصص التي تتبقى بعد تخصيص الفلاحين الآخرين، وجرى التوزيع بحسب القرعة على الحصص، التي لم يُحرَم أي منها من الجزء المروي أو الخصب أو القريب، بحيث تجمع الحصة الواحدة كل الألوان والأنواع من الأراضي الموزعة[365].

إن الدقة والموضوعية والمبدئية في عملية التوزيع هذه، زادت من تلاحم صفوف الفلاحين وتعزيز ثقتهم بالنضال الفلاحي، ونمَّت لديهم الروح الكفاحية، ودفعتهم للاستمرار في عمليات المجابهة والتصدي لكل أحابيل الإقطاع وعملائه في القرية، فقد كانت بشرايل وجارتاها "سبة وعين بشريتي" من إرهاصات المعارك الفلاحية في أواخر الأربعينيات

---

[365]- وهنا لا بدّ من الإشارة إلى الدور الهام والمتزن والشجاع لمسؤول منظمة الحزب في صافيتا ميشيل العيسى، وهو من مشتى الحلو، إذ وجّه جهود الشيوعيين، مقتدياً بمعلمه دانيال نعمة، للانطلاق إلى القرى المملوكة من الإقطاعيين مثل عين بشريتي وبتعلوس وبشرايل وبصيرة والجباب، وكانت أبرز محطات ميشيل عيسى قرية بشرايل القريبة من المشتى، فقد نجح في تربية عدد من الشيوعيين، الذين قادوا المعارك الفلاحية بنجاح ضد الإقطاع.

وعلى امتداد الخمسينيات، وقد كانت هذه المعارك وهجاً شَعَّ في كل القرى المجاورة. لقد تحقق الإصلاح الزراعي بهذه الطريقة، قبل أن يتحقق على هذه الصورة أو تلك في المراحل اللاحقة، وبموجب قوانين الإصلاح الزراعي. وحين عُرِضَت القضية على المحاكم، توبعت من محاميين شيوعيَيْن كُفْأَين أتيا من حمص هما: المحامي خالد كالو، والمحامي نوري حجو الرفاعي. وأقرت محكمة صافيتا مبدأ وضع حراس قضائيين في القرية، مزودين بحق استلام حصة المالك، والاحتفاظ بها لحين بت المحاكم في قضية ملكية الأرض. وكان واضحاً أن المالك لا يملك سندات تمليك بالعقارات، وإنما ادعى ملكيتها ادعاء لا يقوم على أي أساس مستندي. وحُدِّد الحراس القضائيون من أشخاص موالين للإقطاعي، بدؤوا بالتحايل على الفلاحين، والضغط عليهم، وتخمين المحصول قبل نضجه بصورة غير موضوعية، فرفض الفلاحون هذه الأساليب، وامتنعوا عن تسليم المحصول.

وهكذا امتدت المعركة ضد الإقطاعيين لتشمل النضال ضد الحراس القضائيين، الذين كانوا يشكلون ذيولاً للإقطاعيين وامتداداً لهم. ومن أجل أن يستصدر الإقطاعيون قرارات بالحكم لهم بملكيتهم للعقارات، أغروا بعض الفلاحين بقسم اليمين بأحقية المالكين الإقطاعيين بملكية هذه العقارات، وأنهم يتصرفون بها بلا منازع منذ عشرات السنين. وكذلك أغروا بعض مخاتير القرى المجاورة أيضاً، في حين أكد مخاتير القرى الأخرى أن الأرض بتصرف الفلاحين يستثمرونها منذ مدة طويلة، وملكيتها عائدة لهم[366]. وبهذه الطريقة، جرت عملية استقطاب في القرية ذاتها، وفي القرى المجاورة، وتبلورت معركة طبقية قاسية بين جماهير الفلاحين من جهة، والإقطاعيين وذيولهم من الزلم والمخاتير المتنفذين والانتهازيين من جهة أخرى.

ولا غرابة في أن يقف في صف الإقطاعيين المرتزقة والمنتفعون وأغنياء الريف وانتهازيو السلطة، بما يمثلون من فئات طفيلية تعيش على فتات موائد الطبقة الإقطاعية. وفي إبان احتدام المعركة الطبقية، كان الفلاحون الفقراء يتعرضون لشتى صنوف الإهانة والإرهاب، ولمختلف أشكال الإذلال بالضرب والشتم والإفقار وسرقة لقمة الأكل من أفواه الأطفال الجائعين. وما تزال في الأذهان حكاية اعتداء ابن شيخ

---

[366]- نقلاً عن محمود عيسى.

القرية وأعوانه على اثنين من الفلاحين وضربهما بالسكين، وكادت تحصل معركة عنيفة تتحول لمجزرة مخيفة، لولا رباطة جأش الفلاحين، واكتفى الفلاحون بالرد على هذه الجريمة بأن استولى الفلاحون على أراضي الشيخ عنوة، واستثمروها بعد أن اضطر المعتدي إلى مغادرة القرية، مما حدا بالسلطة آنذاك إلى إعادة المخفر إلى القرية، بذريعة أن الخطر يتهدد زلم الإقطاعي من الفلاحين، واستأنف رجال مخفر الدرك عمليات التنكيل والإرهاب بحق الفلاحين وعائلاتهم، وقادوا جماهير النساء إلى السجن مع رجالهم.

وادّعت السلطة تبريراً لفشلها أن الفلاحين أغاروا على المخفر، وحاولوا السيطرة عليه، فشنت حملة كبيرة على القرية اشترك فيها أكثر من 80 دركياً، وقادها قائد فصيل طرطوس شخصياً، فاعتقل عدداً كبيراً من النساء والرجال والشباب واليافعين. وجرت عملية الإغارة هذه بالاستعانة بشيخ القرية وبتوجيهه، فهو الذي يدفع بهذا أو ذاك إلى السجن وفق شهادته وأقواله، وبحسب مزاجه المعادي لجماهير الفلاحين. وفي الوقت نفسه، كان الدرك يسرعون إلى دجاج الفلاحين، فيذبحون منه العشرات انتقاماً، كما يلجؤون إلى مصادرة الحبوب، ليقدموها علفاً لخيولهم، لكن نساء القرية دخلن معركة مع رجال الدرك، حين رأين الرجال والشباب والنساء يساقون إلى الاعتقال، والمحاصيل تصادر وتتلف، فقذفن الدرك بالحجارة، ففر قائد الفصيل ورجاله أمام هجمات النساء. وبعد حين، عاد رجال الدرك، فمارسوا أشكالاً من التنكيل والإهانات لم تنته، إلا بإرسال الشكاوي ووسائل الاحتجاج وبرقيات الاستنكار إلى الجهات العليا في الدولة.

وجرت خلال ذلك حملة تضامن واسعة مع فلاحي بشرايل، في مناطق طرطوس وصافيتا وحمص واللاذقية ودمشق وبيروت، وانعكس هذا التضامن في الصحافة، وقامت المنظمات الشيوعية في المشتى والكفرون وعيون الوادي والقرى الأخرى بتقديم مختلف أشكال الدعم لمناضلي بشرايل، وكان لحملة التضامن هذه أثر في تشجيع الفلاحين المناضلين ضد الإقطاع ومن أجل الحصول على الأرض.

وفي عام 1957، في فترة النهوض الجماهيري وتوطد النهج الوطني الديمقراطي، تمكن الفلاحون ووكيلاهم المحاميان الشيوعيان نوري حجو الرفاعي وخالد كالو، الموفدان من منظمة الحزب الشيوعي في

حمص، من استصدار قرار من محكمة صلح صافيتا، يقضي بتثبيت ملكية عقارات "بشرايل" لفلاحيها، الذين ناضلوا سنوات عدة من أجل إحقاق حقوقهم، فكان لهذا القرار من المحكمة دور في إنهاض الحركة الفلاحية وإنعاش معنويات أهالي القرى المجاورة، لما كان له من أثر في تأجيج نار الصراعات الطبقية الفلاحية في قرى بتعلوس وعين بشريتي والجباب وبيت شوهر والجورة، وتشجع الفلاحون على التمرد على أساليب الإقطاعيين. وفي هذه القرى، كانت توجد حركة فلاحية مناهضة للإقطاع، كخوض معارك النضال عن طريق المحاكم وإقامة الدعاوى ضد الإقطاعيين، وكان الفلاحون الواعون طبقياً وسياسياً وهم في غالبيتهم من الشيوعيين في قرى المنطقة والمناطق الأخرى، يساندون ويدعمون نضال فلاحي هذه القرى، لكن آل العباس استأنفوا قرار المحاكم في محكمة استئناف اللاذقية، واستمرت الجلسات حتى عهد الوحدة عام 1958[367].

وجاء قانون الإصلاح الزراعي لعام 1958، الذي قضى بأن الأرض المختلف عليها تصبح ملكاً للفلاحين. وهكذا، نال الفلاحون الأرض قبل أن توزع عليهم بموجب قوانين الإصلاح الزراعي، ولم تنفع الإقطاعيين أساليب القمع السياسي، من مباحث ذلك الزمن، التي مورست ضد الفلاحين في عامي 1958-1959، واعتقال العديد منهم، فتابع الآخرون ملاحقة القضية، التي حسمها قانون الإصلاح الزراعي بنزع يد آل العباس.

ومعنى ذلك أن الإصلاح الزراعي بدأ في بشرايل على يد الشيوعيين، قبل صدور قانون الإصلاح الزراعي عام 1958. وقد تبيَّن لنا من خلال جولاتنا الميدانية في الأرياف في عامي 1983 و1984، أن الحركة الفلاحية كانت على أبواب الدخول في معارك سافرة لتطبيق الإصلاح الزراعي، ونزع يد الإقطاعيين عن الأرض التي اغتصبوها في غابر الزمن[368].

---

[367]- المصدر السابق.

[368]- المشمولون بالإصلاح الزراعي من آل العباس هم: علي رضا العباس، أحمد فؤاد جابر العباس، حسن جابر العباس، منير جابر العباس، شوكت جابر العباس، أحمد مصطفى العباس. وذلك في القرى التالية: كرتو، تلة الخضر، الطليعي، تل سنون، طعنة، ضهر المغارة، تل ترمس، دوير الطليعي، كفرفو، تركب. العائلة الإقطاعية المنافسة لآل العباس عشائرياً هي آل الحامد، وقد شمل الإصلاح الزراعي من أفرادها: حامد محمود الحامد،

الفصل السادس
حملة عسكرية عام 1952 على سبّة
لقمع المقاومة الفلاحية للإقطاع

أولاً- آل بشور في صافيتا يتملكون "سبّة" في الحرب العالمية الأولى

تقع قرية سبّة إلى الشمال الشرقي من صافيتا، وهي في الأصل مؤلفة من ثلاث قرى هي: سبة، وعين الحجل، وعين المغارة. وقد قام آل بشور، الذين تملكوا هذه القرى في سنوات الحرب العالمية الأولى، بتجميع هذه القرى الثلاث في سبّة، حتى يسهل عليهم استثمار الفلاحين ومراقبتهم بصورة أفضل. وحتى الحرب العالمية الأولى، توزعت ملكية هذه القرى الثلاث بين الفلاحين. ومع الحرب العالمية الأولى بويلاتها، وقيام الدولة العثمانية بجمع الرجال وقذفهم إلى ميادين القتال، كان الفلاح مستعداً لبيع الغالي والرخيص حتى يتخلص من العسكرية. في تلك الأثناء، برز آل بشور في بلدة صافيتا مركز المنطقة، وتمكنوا عن طريق توطيد علاقتهم مع السلطة العثمانية المحلية من تخليص من يريدون من الذهاب إلى العسكرية، مقابل تنازل الفلاح عن أرضه لهم. وفي سبة، قام آل بشور "بفك ثمانية أشخاص، ووقعوهم على سندات التنازل عن أراضيهم"، وشيئاً فشيئاً تملكوا أراضي القرية جمعاء في أوائل عهد الانتداب الفرنسي، فقد كانت علاقتهم قوية أيضاً مع ملتزم الأعشار في دريكيش، ومعلوم أن ملتزمي الأعشار تمكنوا بما فرضوه

هاشم الحامد، عز الدين يوسف الحامد، أحمد إسماعيل الحامد. وذلك في القرى التالية: المصلة، سمريان، الكنائس، المعوانة، رأس الخشوفة، دير حباش، سمكة بيتشوفان، بسمكة، الحورة، بويضة السويقان، الدنيكيرة، برج ميعا، شاكر. وكان التنافس والخصام شديدين بين هاتين العائلتين المتزعمتين للعشائر من آل حامد على الحدادين، وآل العباس على الخياطين. ويبدو جلياً هنا ما أسميناه بالإقطاع العشائري، أي أن زعيم العشيرة يستولي على أرض فلاحي العشيرة، ويحوّل أفرادها إلى فلاحين محاصصين. والمؤسف أن كثيراً ممن كتبوا عن منطقة صافيتا، وغيرها، أهملوا هذه الظواهر، مكتفين بإغداق المديح على زعماء العشائر وكرمهم وأريحيتهم ووطنيتهم... إلخ، "متناسين" أمرين هامين: استئثار رؤساء العشائر بالأرض وتسجيلها باسمهم، واستغلال فلاحي العشيرة وغيرهم عن طريق الريع العقاري، وتتبدى ظاهرة الإقطاع العشائري في عدد من الأرياف السورية، وخاصة في حوض الفرات وروافده.

من أعباء ضريبية ومالية على الفلاحين من تخليصهم الأرض، بعد أن أثقلوهم بالديون. وهكذا تمكن آل بشور من السيطرة على عشرات القرى في منطقة صافيتا[369].

ثانياً- سياسة العائلة الإقطاعية المفتقرة إلى النفوذين الديني والعشائري لإخضاع الفلاحين

كان آل بشور في عداد العائلات الإقطاعية القليلة، التي امتلكت الثقافة وتسلحت بالعلم لتثبيت مراكزها في أجواء توازنات محلية معينة. وقد افتقر آل بشور المسيحيين إلى السلطة الدينية (العلوية) والعشائرية لفرض هيمنتهم على التجمعات الفلاحية (العلوية) العاملة في القرى والأرض التي ملكوها، وتعويضاً عما افتقروا إليه من عصبية عشائرية أو دينية، اتبعوا سياسة كان من أبرز خطوطها:

ا- توثيق الصلات مع السلطات المحلية، والاعتماد عليها في السيطرة على الفلاحين، سواء عن طريق قوة الدرك المسلحة أم بوساطة القوانين، الضليعين فيها، والموضوعة أصلاً في خدمة الملكية الإقطاعية. ولم يكتفوا بالصلات الوثيقة مع السلطات المحلية، بل سعوا لتقوية مراكزهم خارج المنطقة.

2- كان فلاحو سبّة (العلويون من عشيرة الخياطين)، العاملون في أراض مملوكة باسم (القانون) "الإقطاعي" من آل بشور، خاضعين عشائرياً لآل العباس، المعروفين أيضاً بملكياتهم الواسعة في منطقة صافيتا. وكان المفروض من وجهة النظر العشائرية، أن يؤيد زعيم العشيرة أفراد عشيرته من الفلاحين ضد استثمار واستغلال الملاك من عشيرة أخرى، لكن التضامن الطبقي الإقطاعي كان في هذه الحالة أقوى من التضامن العشائري، فقد تحالف الزعيم العلوي ورئيس عشيرة الخياطين، ابن العباس، مع إخوانه في الطبقة الإقطاعية من آل بشور المسيحيين ضد الفلاحين العلويين من عشيرة الخياطين، ورئيسها ابن العباس. وقد أوضح لنا الفلاح حسن الرقماني مواليد 1933، وعضو

---

[369]- وزّع آل بشور قسماً من أملاكهم على أولادهم، ولذلك فإن قوانين الإصلاح الزراعي لم تطلهم بصورة جدية. ومع ذلك، يمكن معرفة القرى التي امتلكها آل بشور، أو ملكوا جزءاً منها، من قائمة المشمولين بالإصلاح الزراعي وهي: زربليط، الصفصافة، عين بشريتي، الريحانية، سبّة، دير الحجر، تل كزل، بحوزة، سمبان، عرب الشاطئ، عين الجرف، الجماسة، السيسنية، بنت أبو كنعان، يازدية، حمدان، بتعلوس.

الحزب العربي الاشتراكي (ومن ثمّ البعث) منذ أوائل الخمسينيات، حالة فلاحي سبّة، الذين خضعوا لضغوط على محورين: المحور الإقطاعي، والمحور العشائري. وكان تحالف هذين المحورين على حساب الفلاح ولقمة عيشه... فالمحور الإقطاعي (آل بشور) يقدم للمحور العشائري (آل العباس) التسهيلات اللازمة لاستثمار الفلاحين باسم العشائرية، والمحور العشائري يؤمن الحماية للمحور الإقطاعي للإمعان في الاستثمار والاستغلال، وعندما كان الفلاح من "سبة" يذهب للشكوى على آل بشور، كان زعيمه العشائري يقول له: "روح بوس إيد ابن بشور بسامحك".

ثالثاً- فلاحو سبّة بين مطرقة الاستثمار الإقطاعي وسندان الزعامة العشائرية.

زرع فلاحو سبة الحبوب بأنواعها، واهتموا بشجر التوت لتربية دود القز وتصديره إلى مشتى الحلو وحمص، وزرعوا الخضار المروية من مياه الينابيع المتفجرة في الوديان، وكانت مواشيهم من ماعز وغنم وبقر ترعى في السفوح وقمم الجبال، وكان البقر حيوان الجر الأساسي في الحراثة، وكانت سبّة تنتج ما بين 300 إلى 400 شنبل قمح وذرة.

ولكن جهود الفلاح وأتعابه كانت تذهب في معظمها للمالك الإقطاعي وحليفه الزعيم العشائري، فكيف توزعت غنائم سبة من حصة وضرائب وعمل (سخرة) بين المحورين الإقطاعي والعشائري؟ أخذ الإقطاعي 40% من المحصول، وهي 30% "حصته"، مضافاً إليها ضريبة العُشر. وبعد ذلك حُسِمَ من حصّة الفلاح التلفية (ما يذهب هدراً أثناء الحصاد والتذرية، وهذا الهدر مسؤول عنه الفلاح حسب المنطق الإقطاعي)، والخولية (أجرة الخولي الوكيل أو المراقب). ولم ينس الإقطاعي حصته من الإنتاج الحيواني، والدخانية وهي أجرة البيت، التي كان سدادها إنتاجاً حيوانياً، علماً أن البيوت بناها الفلاحون، ولم يقدم الإقطاعي إلا خشب السقف. ومن جهة أخرى، كان الإقطاعي يُسَخِّر الفلاحين بنقل حصته من الحبوب من "سبة" إلى صافيتا على دوابهم، كما سَخَّر الفلاحات لتنقية القمح من الأحجار والبذور الغريبة لسلقه وعمل البرغل، وعصر البندورة وتجفيفها وتحويلها إلى مربى البندورة. ومن أجل كسب ولاء رجال السلطة له، كان الإقطاعي حريصاً على عمل كميات كبيرة من البرغل ومربى البندورة لتقديمها

هدايا للمتنفذين وأهل الحل والعقد، فهو بحاجة إلى ما لهم من سلطة لتسيير أعماله، والاستعانة بهم على الفلاحين. هذا "الكرم" على رجال السلطة وأهل النفوذ في المدن، كان يقابله بخل شديد واستنزاف رهيب لجهود الفلاحين، فكان الإقطاعي إذا رأى على أصابع أبناء الفلاحين آثار اللون الرمادي الناتج عن قيام الطفل بتقشير الجوز غير الناضج لأكله، يقوم بمصادرة حصة الفلاح من الجوز. وفي أوائل الصيف، كان الإقطاعي يجبر الفلاحات على السير عدة كيلومترات لنقل أغصان شجر الغار على رؤوسهن لبناء خيمة أو لسقف الصيوان، وقاية للإقطاعي من حر الشمس، واستنشاقاً لرائحتها الزكية. ويزداد سرور الإقطاعي عندما يقبض مبلغاً من المال كلما تزوجت فتاة في القرية. ولا شك أن الإقطاعي المفتقر إلى العصبية العشائرية كان مضطراً إلى تقديم الهدايا إلى الزعامة العشائرية لقاء إسهامها في إخضاع الفلاحين، فكان للزعامة العشائرية نصيبها من الغنائم، أهمها:

- مساعدة الإقطاعي لزلمة زعيم العشيرة، الذي يقوم سنوياً بجمع ضريبة الفريقة المعروفة في جبال العلويين، والمخصصة لزعيم العشيرة.

- إذا خطف شاب فتاة، واشتكى أهلها إلى زعيم العشيرة، فإن هذا يقوم بمصالحة الطرفين، ويتقاضى من أهل الشاب أجراً على "جهوده" في إصلاح ذات البين. وقبل زوال السلطة العشائرية، جرت في "سبة" خمس حالات خطف.

- ديّة القتل، يذهب قسم منها، وأحياناً كلها، إلى زعيم العشيرة. فديّة القتيل عيسى حمود مثلاً، ذهبت كلها لزعيم العشيرة عام 1933، ولم ينل أهل القتيل إلا الحزن والأسى.

- أيام الحرب العالمية الثانية باع آل العباس "نبع الشغر" بمبلغ ستين ألف ليرة إلى آل بشور، وسجلت الأرض باسمهم من رأس النبع إلى صافيتا.

رابعاً- حملة الإقطاع العسكرية على سبّة

مع نهوض الحركة الفلاحية في أوائل خمسينيات القرن العشرين، توثقت صلة الفلاحين الواعين بالحزب العربي الاشتراكي، وزار القرية المحامي الحموي المعروف "محمد عطورة"، عضو قيادة الحزب

العربي الاشتراكي في حماة، فسعى آل بشور، الذين استثمروا القرية منذ الحرب العالمية الأولى إلى تسجيلها رسمياً (تطويبها)، فاعترض الفلاحون على التسجيل، وجرت محاكمات خرج على إثرها القاضي العقاري للكشف في عام 1952 على الأرض ومن يتصرف بها. وأثناء وجود القاضي في القرية، قام أحد زلم الزعامة العشائرية (آل العباس) المتحالفة مع الإقطاعي (آل بشور) بضرب القاضي، وكان الهدف من ذلك خلق البلبلة واتهام الفلاحين بضربه، فما كان من سلطة الشيشكلي،التي تنكرت للفلاحين، وتحولت إلى التحالف مع الإقطاع، إلا أن استغلت هذا الحادث، فقامت باعتقال خمسين فلاحاً، وساقتهم إلى سجن طرطوس، حيث قضوا في السجن مدداً تراوحت بين ستة أشهر وسنة.

أثار اعتقال الفلاحين موجة سخط عارمة في سبّة والقرى المجاورة، وأخذت سلطات الشيشكلي، التي سارت مع الرجعية، تحسب ألف حساب للحركة الفلاحية ونهوضها. ولهذا، قررت تلك السلطات توجيه ضربة أقوى للحركة الفلاحية وتأديبها، وكان واضحاً أن الدرك لم يعد بإمكانهم السيطرة على الموقف، لذا، تقرر إرسال قوة من الجيش لإخضاع قرية "سبة" المناضلة من أجل استعادة الأراضي المنهوبة من الإقطاع. وفي أيار 1952، جمع قائد موقع طرطوس جنوده، وطلب منهم في أول الأمر أن يخرج من الصفوف أبناء المنطقة الجبلية الساحلية، وهذا التصرف دلّ على خوف قائد الموقع من انضمام جنود المنطقة من أبناء الفلاحين إلى أهلهم، في حال تقدم الوحدة العسكرية. بعد ذلك قام قائد الموقع بحقن الجنود بروح العداء ضد فلاحي قرية "سبة"، باعتبارهم قتلة سفاكين متمردين على الدولة... إلخ. تقدمت القوة العسكرية المؤلفة من 150 جندياً باتجاه سبّة، مارة من صافيتا، وهناك استقبلها زلم الإقطاعية وأنصارها بالزغاريد وأطباق الحلوى. وعندما وصلت الحملة العسكرية إلى سبة، لم تجد أي مقاومة، فقامت باعتقال الفلاحين الموجودين في القرية، وجرى تعذيبهم في بيت الإقطاعي، وعلى أثر هذا التعذيب توفي الفلاح عارف سليمان من شدة الضرب عن عمر يقارب ستة وثلاثين عاماً، وكان معروفاً عن هذا الفلاح شدة مقارعته الإقطاع ووقوفه في وجهه. وعلى أثر هذه الحملة العسكرية والتعذيب والاعتقال، همدت الحركة الفلاحية في سبة، واستطاع الإقطاع تسجيل

(تطويب) كامل القرية والاستمرار في استثمار الفلاحين حتى عام 1966، عندما شمل الإصلاح الزراعي الملاك من آل بشور في سبّة.
والواقع، أن الفلاحين قبل تطبيق الإصلاح الزراعي رفضوا في سبّة دفع المحصول للإقطاعيين، وحرصاً على وحدة الحركة الفلاحية في سبة ضد الإقطاعيين، مارس الفلاحون الضغط المعنوي على عائلات الخولية والخضرية (زلم الإقطاع)، الذين يسيرون دائماً مع المنتصر. وعندما شعروا بقرب نهاية الإقطاع أخذوا يتجهون صوب الحركة المناهضة له[370].

نقف في جريدة الصرخة اللبنانية الشيوعية 1954/07/11 على صلابة المقاومة الفلاحية في "سبة" وجارتها "عين بشريتي"، كتبت الجريدة: "وبعد العديد من الحملات العسكرية، التي جُرِدَت على قرية سبة أيام الشيشكلي، اضطر فلاحو هذه القرية إلى "الخضوع" مؤقتاً للأسياد. ولجأ هؤلاء الأسياد أيضاً إلى إثارة المشاكل والخصومات بين الفلاحين، بغية منع اتحادهم. أما قرية عين بشريتي، فلم يستطع الإرهاب إناختها أمام أقدام الإقطاعيين، فقد رفض هؤلاء الفلاحون أن يوقعوا سندات مزارعة بينهم وبين من يدّعون ملكية الأرض، تُسْتَخْدَم أدلة على تملكهم الأرض. لقد صمد فلاحو عين بشريتي أمام الإرهاب الدكتاتوري إبان عهد الشيشكلي، ولم يخافوا لا نتف الشوارب، ولا المشي على الأقدام إلى دمشق، ولا الدعاوى الباطلة التي حكموا فيها بعشرات الألوف من الليرات".
وهكذا، يبدو واضحاً من هذا الوصف، ومن المعلومات القيّمة التي أفادنا بها الفلاح حسن الرقماني، المولود في سبّة عام 1933، مدى تصاعد المقاومة الفلاحية في قرى صافيتا، التي بلغت شأواً رفيعاً في التنظيم وأساليب النضال إبان النهوض الجماهيري، الذي شهدته عام 1951، والذي كان من نتائجه انقطاع الإقطاعيين عن دخول "قراهم"، التي امتلكوها بالاختلاس والعنف[371].

---

[370]- لعل من الأمور الشيقة زيارة سبّة، ومعرفة مواقع عائلات الخولية والخضرية، وكيف يتصرفون بعد استيلاء البعث على الحكم.

[371]- اعتمدنا في الكتابة عن بشرايل وسبّة على المصادر التالية:

1- دراسة المثقف الشيوعي محمود عيسى: "من نضال الحركة الفلاحية في الساحل السوري"، المنشورة في مجلة دراسات اشتراكية الدمشقية عدد آذار 1984.

الفصل السابع
فلاحو رويسة الحرش وعدد من القرى التي يملكها آل هارون في اللاذقية يتراجعون عن مقررات مؤتمرهم السري

كانت رويسة الحرش الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الكبير الشمالي، إلى الشرق من اللاذقية، ملكاً لعبد الواحد هارون، الذي استولى عليها بإحدى الوسائل الإقطاعية المعروفة. وبعد وفاة عبد الواحد، تقاسم تركته في القرية ولداه أسعد وعلي، فصار لكل منهم ثلاثة صمود. وآل هارون من العائلات السياسية المعروفة في اللاذقية، فقد وصل أسعد هارون ذات مرة إلى الوزارة، وكان من وجوه الحزب الوطني البارزة[372]. كانت رويسة الحرش مؤلفة من ستة صمود، عمل في كل صمد فلاحان، أي أن القرية تألفت من 12 مرابعاً، منهم الفلاح حمادي حسن المولود عام 1889. وإضافة إلى رويسة الحرش، ملكَ آل هارون القبارصية، جبريون، القفر، الضامات، العمورونية، والجريمقية. وفي عام 1952 و1953، تحالف فلاحو هذه القرى لرفع حصتهم من 28% إلى 40%. ومن دراسة طرق الاستثمار الزراعي، يتبين أن الفلاح المالك لبقر الحراثة، كان يأخذ 33% من المحصول لقاء جهده وبقراته في الحراثة. إضافةً إلى ذلك، كانت تترتب النفقات

2- كتاب ولاية بيروت، الصادر 1326 هجرية لرفيق بك محمد وبهجت بك محمد.

3- عدد من أعداد جريدة "الصرخة" اللبنانية الشيوعية.

4- لقاءات المؤلف أثناء الجولات الميدانية في الأرياف السورية مع الفلاحين في منطقة صافيتا وهم: 1) سليمان إسكندر، مواليد 1922 في بيت كمونة، وتاريخ اللقاء في 1984/09/16، 2) عبد العزيز محمد أحمد، 1919 بيت كمونة، في 1984/09/16، 3) سليمان محمد إبراهيم، 1911 دير حباش، في 09/16/ 1984، 4) ديب يوسف ديب، 1909 العريمة، في 1984/09/16، 5) جميلة العلي، 1912 العريمة، في 1984/09/16، 6) حسن الرقماني، 1933 سبّة، في 1984/09/17، 7) محمود حسن مصطفى، 1941 الطليعي، في 1984/09/17، 8) سليمان سلوم، 1934 الطليعي، في 09/17 /1984، 9) المدرس علي هلال، 1934 رأس الخشوفة، في 1984/09/17. 10) المختار علي ابراهيم معلوف، 1921، في 1984/09/17، 11) عيسى ياسين عيد، 1924 رأس الخشوفة، في 1984/09/17.

[372]- التقينا في رويسة الحرش، مصادفةً، سائق سيارة أسعد هارون سليم كوسا، فعرفنا منه أن أجرته سنة 1947 لم تتجاوز 25 ليرة سورية في الشهر، إضافةً إلى المبيت والأكل على حساب أسعد بك.

التالية على المحصول، محسوبة بالنسب المئوية:

6.5	أجرة الدراس
5.0	للرجاد (نقل الحب من الحقل إلى البيدر)
25.0	ضريبة العشر وحاصل
36.5	المجموع
33.0	حصة الفلاح وبقراته
69.5	المجموع

معنى هذا أن حصة المالك الصافية هي 30.5% تقريباً، لكن الواقع أن العشر الذي ألغي في عام 1942 واستبدلت به ضريبة الإنتاج الزراعي. استمر المالك في تحصيله وضمه إلى محاصيله. ومن جهة أخرى، كانت حصة الفلاح وهي 33.0% تتراجع إلى 28.0% بعد حسميات متنوعة، وكان الفلاحون ينقلون البطيخ والبندورة والباذنجان على ظهور الدواب إلى اللاذقية، وهناك يستلم الخضرة تاجر متفق مع المالك، فالفلاحون لم يقبضوا أي ثمن، لأن الحساب كان يجري بين المالك والتاجر، وما يستلمه الفلاح من نقود عند مجيئه إلى اللاذقية، هو ربع ليرة ثمن الغذاء في أواخر أربعينيات وأوائل خمسينيات القرن العشرين. بعد ذلك يقوم المالك بحسم العشر والحاصل وغيرها من النفقات، ويسجل الثمن "على كيفه" فلا يصل إلى الفلاح من ثمن الخضرة أكثر من 30 % من سعرها. إضافة إلى هذا، كان على الفلاحين المرابعين خدمة الشوباصي (وكيل المالك) وإطعامه. ولم يكن الشوباصي يأكل إلا البيض المقلي بالسمن والشلفون (الفروج). وكثيراً ما حاول الشوباصي أن يمارس هيبة الزعماء على المرابعين، والواقع أن الظلم الذي مارسه الشوابصة وغيرهم من زلم الإقطاع في مناطق أخرى، لا نجده على هذا العنف والحدة، في سهل اللاذقية[373].

في أيام الشيشكلي (1952-1953)، صدر قرار برفع حصة الفلاح إلى 40.0%، فكان أن اجتمع مرابعو بيت هارون في قرى: رويسة

---

[373]- بلغ عدد المالكين المشمولين بالإصلاح الزراعي في محافظة اللاذقية الحالية 106 ملاك، توزع قسم كبير منهم على العائلات التالية: علي ديب (جبلة)، الكنج (جبلة)، سعادة (اللاذقية)، شاهين (زغرين)، شومان (اللاذقية)، شريتح (اللاذقية) وهارون (اللاذقية). وقد شمل الإصلاح من آل هارون كلاً من: محمد أسعد عبد الواحد هارون، كامل بن مصطفى هارون، وعزت مصطفى هارون، وجودت صدّيق هارون.

الحرش، القبارصية، جبريون ، الضامات، العمرونية "سراً" في أحد منعطفات نهر وادي الكبير الشمالي، بعيداً عن أعين الشوباصي وزبانيته. وفي الاجتماع، أقسم الجميع الأَيْمَان على أخذ 40.0% من محصول الحبوب على البيدر. وبعد هذا الاجتماع الفلاحي السري، الذي وصلت أخباره إلى الشوباصي، زار رويسة الحرش المالك علي هارون، وكانت العادة أن يسير الفلاحون في ركاب المالك لدى زيارته للأرض، فأخبره الشوباصي بالاجتماع السري، وتمسُّكْ الفلاحين بقرار الشيشكلي، أي بأخذ 40.0% من المحصول، فأجاب علي هارون: "ميت شيشكلي مثل هالشيشكلي ما بيسووا قشة"، معبراً عن رفضه تنفيذ قرار رئيس الدولة، ومعلناً أن الإقطاعية أقوى من الحكومات الساعية وراء شعبية الفلاحين. وجاء البيدر في صيف 1952 و1953، فأصر الشوباصي على إعطاء الفلاح حصة 28.0%، وكان الشيشسكلي الذي أصدر القرار قد تراجع عنه، وأخذ يسير في اتجاه التعاون مع الإقطاعيين، ولذلك لم يتجاسر الفلاحون على المقاومة، وتراجعوا عن تنفيذ مقررات اجتماعهم السري، ولم يستسلم فلاحو (مرابعو) رويسة الحرش، رغم تراجعهم على البيدر، إذ أعطاهم الشوباصي 28.0% فقط، فقد ذهب فلاحان لمقابلة علي هارون، الذي كان يصطاف في صلنفة، وبعد مفاوضات،رأى هارون حفاظاً على مصلحته أن يعطي الفلاحين 33.0%، وهي الحصة المتعارف عليها. وعاد الفلاحون، واسترجعوا من الشوباصي الفرق، وهو 5.0% من المحصول. أما فلاحو القرى الثانية فلم ينالوا شيئاً، حتى مجيء قانون العلاقات الزراعية عام 1958.

والسؤال، هنا: لماذا تراجع الفلاحون، ولم يتابعوا نضالهم حتى النهاية؟ لا شك أن الجواب يكمن في فهم الظروف المحيطة بأيام الشيشكلي في عامي 1952 و1953، وهي:

1- إصدار الشيشكلي وحزبه، حزب التحرير العربي، سلسلة من الخطب والتصاريح الرنانة حول مساعدة الفلاح، لكن طبيعة النظام (البرجوازي الإقطاعي) كانت تجعل من الخطب والتصاريح والخطب الرنانة حبراً على ورق.

2- كانت أجهزة السلطة المحلية ما تزال في يد القوى الإقطاعية تستخدمها لقمع أي تحرك فلاحي.

3- قام الشيشكلي بملاحقة الأحزاب التقدمية، وخاصة الحزب الشيوعي، ومنعها من التحرك العلني، وضيّق عليها الخناق، مما منعها في عامي 1952 و1953 من إبداء أي تأييد أو مساندة فعلية للفلاحين، الذين تحركوا، حسب أقوال الفلاح المسن حمادي حسن، تلقائياً وعفوياً.

4- تبعثر الفلاحين، مرابعي آل هارون، في عدد من القرى والمزارع الصغيرة، وخوفهم من التهجير، في حال إصرارهم على المطالبة بحصتهم، التي لم تبق قانونية بعد تراجع الشيشكلي عن سياسة إرضاء الفلاحين.

5- لم يكن المرابعون يشكلون وحدة اجتماعية متماسكة، ففي كل قرية أو مزرعة كان الفلاحون المرابعون ينتقلون للعمل من قرية إلى أخرى كل سنتين، مما أدى إلى ضعف التلاحم الفلاحي، إضافة إلى بطش السلطة وأساليبها الإرهابية[374].

[374]- اعتمدنا في هذا الفصل على رواية الفلاح حمادي حسن (أبو سليمان)، مواليد 1890 في رويسة الحرش، بتاريخ 1984/02/22، واللافت للانتباه أن حمادي، البالغ من العمر أثناء اللقاء به 94 سنة، كان صافي الذهن، وحذراً في البدء، ثم انطلق، وأخذ يتكلم بجرأة وصراحة بعد أن اطمأنّ إلينا. وأثناء الحديث دخلت زوجته أم سليمان البالغة من العمر ثمانين عاماً، وبعد أن أصغت إلى الحديث، وعرفت انه يتعلق بعلاقة الفلاح زوجها بالمالك الإقطاعي انتفضت، وانبرت تعنّف زوجها طالبة منه الصمت وعدم الكلام عن المالك السابق، وهي تردد بعصبية مخاطبة زوجها: "بركي رجعوا بيت هارون". إنها تريد أن تقول مخاطبة زوجها: أنت تحكي على الإقطاعي، ربما عاد وأخذ الأرض مرة ثانية، فماذا يحلّ بنا؟ وكنا نلاحظ خلال جولاتنا أن النساء أكثر حذراً من الرجال، لأن ذكريات الاضطهاد الإقطاعي لم تُمْحَ من ذاكرتهنّ، وكان الاضطهاد على النساء أقسى من اضطهاد الرجال.

الباب السادس
دانيال نعمة يخوض
معركتي انتخابات المجلسين النيابيين
1953 و1954

الفصل الأول
الحياة النيابية في سورية

1- ما قبل 1920
عرفت سورية الحياة النيابية في أواخر العهد العثماني، وهي إحدى ثمار مرحلة التنظيمات (الإصلاحات)، التي توّجت بإعلان الدستور في عام 1876 وانتخاب مجلس المبعوثان (البرلمان) عام 1877، لكن السلطان عبد الحميد، الذي اعتلى العرش سنة 1876، علّق الدستور عام 1878، وعطّل مجلس المبعوثان، وحَكَمَ البلاد حكماً استبدادياً حتى قيام ثورة الاتحاد والترقي عام 1908. وبعد إقالة عبد الحميد، أُعِيد العمل بدستور 1876، وجرى انتخاب مجلس المبعوثان، الذي افتتح أبوابه في 1908/12/17، وجرت بين عامي (1908 - 1918) ثلاث دورات انتخابية لمجلس المبعوثان.

الحكومة العربية المستقلة بقيادة الأمير، ومن ثمّ الملك فيصل، دعت في أيار 1919 أعضاء المجلس العمومي في كل من ولايتي سورية (دمشق) وحلب المنتخبين بموجب قانون الإدارة العثماني لعام 1864 ليكونوا أعضاء في المؤتمر السوري (البرلمان)، لكن قوات الاحتلال الاستعماري الفرنسي وأدَتْ في تموز 1920 التطور العربي التحرري، وقضت على الدولة العربية الحديثة، وهي لا تزال في المهد.

2- المجالس النيابية في عهدَيْ الانتداب والاستقلال
وفي عهد الانتداب عرفت سورية المجالس النيابية (البرلمانات) التالية:

- الجمعية التأسيسية المنتخبة عام 1928 من أكثرية كتلوية (نسبة إلى الكتلة الوطنية) وضعت دستوراً برجوازياً وطنياً.

- المجلس النيابي لعام 1932، الذي اتخذت معركته الانتخابية طبيعة وطنية مناهضة للانتداب، وأخرى اجتماعية تمثلت في الصراع بين المدينة (البرجوازية) والريف، المهيمن عليه الإقطاع الموالي للانتداب.

- المجلس النيابي المنتخب عام 1936، نجحت فيه قوائم الكتلة الوطنية في سائر المدن ومعظم الأقضية، وقد تألف المجلس اجتماعياً من: ممثلي البرجوازية الوطنية (التجارية والصناعية)، ملاكين إقطاعيين كباراً وصغاراً، أمراء العشائر ومشايخها، مثقفين حملوا الفكر البرجوازي درس معظمهم في فرنسا، وسعوا لتطبيق الديمقراطية البرجوازية البرلمانية.

- المجلس النيابي المنتخب عام 1943، ولم يكن يختلف في تركيبه واتجاهاته عن برلمان 1936، وهذا المجلس انتخب شكري القوتلي في 17 آب 1943 رئيساً للجمهورية السورية المستقلة، وسار الحكم الوطني (البرجوازي الإقطاعي) في طريق بناء الدولة الحديثة، التي وضع الانتداب الفرنسي أسسها.

- قبل أن تجري انتخابات تموز 1947، عُدِّل قانون الانتخابات، وأصبح النواب ينتخبون مباشرة من الشعب، وليس بوساطة "المنتخبين الثانويين، الذين يباعون ويشرون بسهولة، ويمكن الضغط عليهم. ومجلس 1947 جدَّد انتخاب شكري القوتلي رئيسا للجمهورية.

وقد خاض الحزب الشيوعي الانتخابات لأول مرة عام 1947 في المدن الكبرى، دون أن يحقق نجاحاً، وكيف يمكن أن ينجح حزب علماني، تسري الإشاعات بين الناس بأنه حزب ملحد، وتقاومه القوى الطائفية والعشائرية إضافة إلى قوى البرجوازية الناشئة وأنصار الاستعمار المنتشرين في كل مكان؟

هذه المجالس النيابية، على علاتها، أرست أسس الحياة النيابية الديمقراطية، وأسهمت في بناء الدولة الحديثة، لكن فيما يتعلق بالطائفية والعشائرية نلاحظ ما يلي:

حددت قوانين الانتخابات مجموع عدد كراسي كل طائفة في المجلس، وعدد كراسي كل طائفة في الدائرة الانتخابية. وبقي هذا التمثيل ساري المفعول حتى عام 1963. الطوائف الممثلة، كما وردت بجانب اسم كل نائب ناجح في الانتخابات هي التالية: مسلم (سنة، وهم

الأكثرية)، مسلم علوي، مسلم إسماعيلي، درزي، روم أرثوذكس، روم كاثوليك، أرمن أرثوذكس، سريان أرثوذكس، إسرائيلي.

خصصت القوانين عدداً من الكراسي النيابية في ثماني أو تسع دوائر لعشائر البدو الرحل، وكان شيوخ العشائر هم ممثلو (رعيّتهم) من البدو، وغالباً ما ورث الابن أباه في النيابة، وكان لكتلة العشائر ذات الصبغة الرجعية دور في إنجاح الوزارة أو إسقاطها، وبقي هذا النظام حتى عام 1963.

3- المجلس النيابي (شباط 1925) لدولة العلويين يرى النور في أجواء الطائفية والعشائرية

السؤال المطروح: هل المجلس النيابي "المنتخب" من "الشعب" في ظلِّ الإدارة الاستعمارية للانتداب الفرنسي هو خلق للعشائرية والطائفية، أم متوافق معهما؟ ويُطْرَح السؤال بصيغة أخرى: هل الانتداب الفرنسي هو الذي خلق ظاهرتَـيْ الطائفية والعشائرية، أم أن سلطات الانتداب وجدت هذه الظواهر عند احتلالها للبلاد، فقامت باستغلالها وترسيخها خدمةً لأهدافها الاستعمارية؟

وهنا أمامنا رأيان متناقضان: رأي يتهم الاستعمار بأنه خلق هاتين الظاهرتين، كي يسهل عليه حكم البلاد وفق قاعدة "فرق تسد"، ورأي الدراسات الأخرى، التي تقول إن هذه الظواهر راسخة القدم، وجاء الانتداب فوجدها ظواهر مهيمنة، فسعى للتعايش معها، مما سهَّل عليه إدارة البلاد. والواقع أن الانتداب لم يَسْعَ للتعايش مع ظاهرتي الطائفية والعشائرية، بل قام بتعميق وجودهما وترسيخ دعائمهما الاقتصادية والاجتماعية والفكرية. ورغم "علمانية" الانتداب الفرنسي، فكثيراً ما أطلق العنان للعشائرية والطائفية، وسعَّر الخلافات بأساليب ظاهرة وخفية، كي يسهِّل عليه حكم البلاد.

تألف المجلس النيابي "المنتخب" لدولة العلويين عام 1925 من خمسة عشر عضواً: ثمانية علويين، وسبعة من غير العلويين، موزعين طائفياً وعشائرياً على النحو التالي[375]:

---

[375]- خونده محمد: "تاريخ العلويين وأنسابهم"، اللاذقية، 2004، ص 53. وكذلك محمد هوّاش: "تكوّن جمهورية سورية والانتداب"، منشورات السائح، طرابلس، لبنان، 2005، ص 233.

الشيخ علي محمد كامل، رئيس عشيرة النميلاتية - الرميمية.
صقر خير بك، عن عشيرة الكلبية - القرداحة.
إبراهيم الكنج، عن عشيرة الحدادين - جبلة.
محمد جناد (جنيد)، عن الرشاونة - مصياف.
الشيخ علي شهاب ناصر، عن الحيدريين - محيط اللاذقية وشمالها.
جابر العباس، عن الخياطين - صافيتا.
عزيز الهواش، عن المتاورة - مصياف.
أمين رسلان، عن الرسالنة - دريكيش.
حسن الإبراهيم، عن الإسماعيليين - مصياف.
إسحاق نصري، عن الروم الأرثوذكس - اللاذقية.
نقولا بشور، عن الروم الأرثوذكس - صافيتا.
صديق إلياس، عن الموارنة - بانياس.
عبد القادر شريتح، عن السنيين - اللاذقية.
مجد الدين أزهري، عن السنيين - اللاذقية.
محمود عبد الرزاق، عن السنيين - طرطوس.

الفصل الثاني
الانتخابات النيابية في صافيتا
وخلفياتها العشائرية والطائفية

شاركت محافظة اللاذقية في الانتخابات النيابية لعموم سورية لأول مرة عام 1937، وسنقدم هنا مثالاً للانتخابات النيابة مأخوذاً من قضاء صافيتا كنموذج، خاض فيه دانيال نعمة الانتخابات في عامي 1953 و1954[376].

---

[376]- لا بد من الإشارة إلى أن الحديث عن الخلفيات العشائرية والطائفية في انتخابات صافيتا، كما في غيرها من الأرياف، لا يعني من وجهة نظرنا النهضوية والوطنية تثبيت هاتين الظاهرتين، بل الدعوة إلى الدخول في دائرة الوطن والمجتمع المدني. وقد وجدت في منطقة صافيتا أربعة مراكز للزعامات العشائرية العلوية، وهي:
- آل الهواش زعماء عشيرة المتاورة.
- آل الحامد، وفيما بعد آل اليونس، زعماء عشيرة الحدادين.

1- في انتخابات 1937 حُدِدَ لقضاء صافيتا ثلاثة مقاعد: اثنان للمسلمين (العلويين)، وواحد للمسيحيين، وقد اتصفت تلك المعركة بالتنافس العشائري، ونجح فيها: منير العباس (رئيس الخياطين)، وأمين رسلان[377] (رئيس الرسالنة)، وجبرا الحلو (مسيحي من مشتى الحلو، ومن الملاك الإقطاعيين). وفشلت اللائحة المنافسة المشكلة من يوسف الحامد (رئيس الحدادين)، وعزيز الهواش (رئيس المتاورة)، وأديب جبور[378]. وفي الأسبوع الذي أعلنت فيه نتائج الانتخابات، عُيِّن عزيز الهواش رئيس عشيرة المتاورة محافظاً لحوران، ترضيةً له، ومحاولة لكسب وده إلى جانب الكتلة الوطنية. وكان سكان وادي العيون والقرى المحيطة بها "مشهورين بالقسوة والبطش، وامتداد أيديهم إلى ما ليس هو لهم"، حسب تعبير اليونس[379].

2- انتخابات 1943 اتصفت بالتنافس العشائري من جهة، وانقسام كل عشيرة على نفسها. فاز زعيما العشيرتين الكبيرتين في صافيتا منير العباس عن الخياطين ويوسف الحامد زعيم الحدادين. وبعد وفاة الأخير على أثر مرض عضال عام 1945، جرت انتخابات لاختيار نائب بدلاً من المتوفى، وهنا بدا الصراع العشائري جلياً في قضاء صافيتا. ولنترك عبد اللطيف اليونس يصف المعركة "بين جابر العباس وحليفه أمين رسلان، والأصحاب الشرعيين للمنصب النيابي، أي شقيق المتوفى حامد المحمد، الذي أعلن ابن عمه حامد المحمود نائب طرطوس تأييده له. ورشّح آل العباس (زعماء الخياطين) محمد أمين رسلان (من الرسالنة)، وهو في مقتبل العمر، وحمي وطيس المعركة واحتدم، حتى أصبح حديث الناس في المحافظة كلها. في تلك الأثناء، أرسل آل العباس رجالاً مسلحين تجولوا في ناحية المشتى، وحملوا بعض المنتخبين الثانويين في السيارات إلى مركزهم في قرية الطليعي، وكانوا يطلقون الرصاص بعض الأحيان للإرهاب، وقد احتفظوا بعدد من الناخبين

- آل العباس زعماء عشيرة الخياطين، ومركزهم في الطليعي.
- آل رسلان من فخذ الرسالنة، ومركزهم في جنينة رسلان.

[377]- راجع محمد هواش، "عن العلويين ودولتهم المستقلة"، الدار البيضاء - المملكة المغربية، 1997، ص 268، والهواش في كتابه يدخل في تفاصيل الأجواء العشائرية لدى العلويين، ويعتمد على خبرته كعلوي وعلى وثائق فرنسية كثيرة.

[378]- وهو محامي مسيحي، خريج معهد الحقوق في دمشق عام 1930.

[379]- اليونس، ص 85.

بضعة أيام في الطليعي، وقابلهم آل الحامد باختطاف أحد الناخبين الثانويين أيضاً، وأخيراً نجح محمد أمين رسلان"[380].

3- بدا التنافس العشائري في قضاء صافيتا على أشده في انتخابات 1947، مما أدى إلى تشكل ثلاث قوائم، هي:

أ- منير العباس يرأس مع أخيه شوكت عشيرة الخياطين في ريف صافيتا، وعائلة العباس عائلة إقطاعية معروفة. علي رسلان، الذي اختاره منير العباس حليفاً له عن عشيرة الرسالنة، وهذا مما أدى إلى نقمة ابن أخيه محمد أمين رسلان، وسعيه إلى تشكيل قائمة معارضة مع عبد اللطيف اليونس (من الحدادين). شفيق البيطار مسيحي له شعبية في بلدة صافيتا، وكان بيته ملتقى الفئات المثقفة الواعية، وهو ذو يسر، ويمكن أن يسهم في تمويل المعركة الانتخابية، على حد تعبير عبد اللطيف اليونس.

ب- عزيز الهواش رَأسَ عشيرة المتاورة المنتشرة في شمال القضاء، ومعه هاشم الحامد أحد الرؤساء التاريخيين لعشيرة الحدادين، ونقولا جبرائيل بشور مسيحي من العائلة صاحبة الأملاك الواسعة في ريف صافيتا.

ج- عبد اللطيف اليونس ابن أحد مشايخ الحدادين، والشخصية الوطنية المثقفة الدبلوماسية، وسنتكلم عنه بعد قليل. محيي الدين المرهج من عشيرة الرسالنة، وهو حائز على دكتوراه في الحقوق من جامعة السوربون في باريس، لكن عمه الشيخ جابر المرهج كان من أقوى ركائز آل العباس في الدريكيش. تامر إسبر بشور، مسيحي من العائلة الإقطاعية المثقفة في صافيتا، وهو زوج شقيقة شفيق البيطار المرشح في قائمة مضادة.

يُقَدِّم لنا عبد الطيف اليونس صوراً عن معركة تشكيل القوائم، متجنباً الحديث عن دور الولاءات العشائرية في تشكيل القوائم، رغم دعوته العامة إلى محاربة العشائرية. ومنه سننقل بتصرف، من خلال معرفتنا بالوضع العشائري والطائفي في صافيتا، كما في غيرها، خفايا الصراعات بين الزعامات العشائرية، بهدف فضحها والخلاص منها لصالح الانتماء إلى الوطن وترسيخ دعائم المجتمع المدني. فكثير من الناس يسيرون سراً على طريق العصبية العشائرية، ويدَّعون العكس في

[380]- المصدر نفسه، ص 222.

العلن.
في انتخابات 1947، سعى عبد اللطيف اليونس (حدادين) للاتفاق مع عزيز الهواش (متاورة)، رغم أن تفكيرهما، كما كتب اليونس، وأسلوب تعاملهما مختلفان، لكن الهواش وجد من مصلحته الانتخابية أن يتفق مع آل الحامد رأس عشيرة الحدادين. ونتيجة لموقف الهواش هذا، سار اليونس في طريق التحالف مع الشيخ كامل صالح ديب من المليلاتية (وهم مشايخ المتاورة دينياً)، المنتشرين في ناحية دريكيش. لكن ضغوط محافظ اللاذقية عادل العظمة دفعت الشيخ كامل الصالح للانسحاب[381]، ولهذا دعا اليونس لاجتماع انتخابي في صافيتا متطلعاً إلى عرض قوته الانتخابية، وقام أصدقاء اليونس بالاتصال بقرى التركمان لكسبها إلى جانبه. مع احتدام وطيس المعركة، انسحب عزيز الهواش ونقولا جبرائيل بشور من الترشيح، وبقي هاشم الحامد، لهذا توزعت أصوات الحدادين بين الحامد واليونس، فخسرا معاً.
حليف اليونس الدكتور محيي الدين مرهج تعرضت سيارته لهجوم من أنصار علي رسلان في قرية حاموش رسلان، فحطموها، والسيارة كانت مرسلة من اليونس لمرهج لتسهيل تحركه بين أنصاره في منطقة نفوذ علي رسلان. ردود فعل اليونس كانت سريعة، إذ استقل اليونس مع أربعين شخصاً من أنصاره سيارة باص باتجاه حاموش رسلان للثأر من الاعتداء على سيارة اليونس. وفي الدريكيش، أقنع العقلاء اليونس بعدم متابعة سيره، تفادياً للمجزرة.
في مركز الاقتراع في المشتى، حدثت مشادة كلامية بين منير العباس واليونس. وعندما وصل الخبر إلى قريتـَيْ بسدقين والبارقية، وهما من عشيرة الحدادين، زحف أهل القريتين، ومعهم عدد من النساء، باتجاه المشتى لمناصرة يونس (الحدادي)، وهم يحملون العصي وبنادق الصيد والفؤوس ومناجل الحطب، فأسرع اليونس لملاقاتهم وإرجاعهم إلى قريتيهما.
انسحب حليف اليونس محيي الدين مرهج في آخر اليوم الأول من الانتخابات، التي استمرت يومين، تحت ضغط عشيرته لصالح نجاح

[381]- حسب رواية اليونس، كان العظمة الراغب في وصول أخيه عادل إلى رئاسة الجمهورية، يقاوم اليونس المعروف بولائه لشكري القوتلي الطامح في إعادة انتخابه للرئاسة، اليونس، ص 150.

علي رسلان. وهكذا، بقي اليونس وحليفه المسيحي يصارعان قائمة العباس القوية المتماسكة، التي ربحت في اليوم الثاني المعركة.

رغم فشل اليونس في انتخابات 1947، فإنه مهّد الطريق لفوزه في الانتخابات المقبلة عام 1949. ولا بد هنا من الإشارة أن اليونس حقق نجاحاً بحصوله على 4427 صوتاً نتيجة عدة عوامل:

- الأول العصبية العشائرية المؤيدة له، لأنه من عائلة مشايخ مرموقين.

- الثاني الخدمات التي كان يقدمها للأنصار. ولنقرأ ما كتبه اليونس في هذا المجال:

"... وكان البيت يزدحم بالناس باستمرار، والمراجعون والزائرون أكثرهم ذوو مصالح ومطالب، ومشاكل لا بد من حلها، وكان من عادة سكان الريف أن يراجعوا مرجعهم بكل صغيرة وكبيرة... وحينما أغيب كان أخي محمود مكاني. وعندما تشغله وظيفته، يحل محله بعض الأنسباء والوجهاء، الذين كان يغص بهم البيت يومياً".

- الأمر الثالث في سر نجاح اليونس أنه دخل معترك العمل السياسي من بابه الوطني المناهض للطائفية والعشائرية، وساعياً في الوقت نفسه لنقدهما بقدر ما تسمح الظروف، والظروف حسب دراستنا تعني هنا الاعتماد على العصبية العشائرية، دون الغوص في مفاعيلها العميقة من جهة، والحرص على الظهور بمظهر الحيادي المتجاوز للعشائرية. والمعروف من جهة ثالثة أن عبد اللطيف اليونس كان من الساعين لدفع الطائفة العلوية باتجاه الوطنية السورية والعربية، وبالتالي دمج الطائفة في بوتقة الوطنية السورية ذات الأرضية العربية، وكان في عمله هذا من رجالات النهضة في "الجبل العلوي". وقد أذاع برنامجه الانتخابي لصيانة الاستقلال والنظام الجمهوري، ومحاربة الإقطاعية والرجعية، وتحرير العامل والفلاح، ومنع الفوارق الاجتماعية، ومنع الأتاوات والجعالات والرشا، والوقوف ضد ضريبة الفريقة السنوية وغير السنوية، التي يجبيها الزعماء من أتباعهم... صيانة المصنوعات الوطنية، وتعميم المدارس، وتعبيد الطرق، ومساعدة الفقير أياً كان. وكان هذا البرنامج الانتخابي دليلاً على أن عوامل جديدة بدأت تدخل الأرياف السورية، خاصة المتقدمة منها، مثل منطقة صافيتا[382].

---

[382]- اليونس، ص 247-261.

4- في انتخابات 1949 للمجلس التأسيسي، الذي وضع دستوراً جديداً للبلاد، خُصِصَ لصافيتا مقعدان، واحد للمسلمين (العلويين)، وآخر للمسيحيين، بدلاً من ثلاثة مقاعد (اثنان للمسلمين، وواحد للمسيحيين)، كما في الدورات الانتخابية السابقة. (وفي هذه الانتخابات، أعطيت المرأة حق التصويت كالرجل تماماً، وحُذِفَ الشرط الذي كان يفرض أن تحمل الشهادة الابتدائية على الأقل). وقد أحدث هذا الإجراء بتخصيص مقعد واحد للمسلمين "إحراجاً لفئات وتجمعات محلية عدة"، كما ذكر اليونس. وكان الإحراج لمناوئي اليونس، فهو كما ذكر، لم يكن مقيداً بأي التزام عشائري، بعكس الآخرين الذين كانوا ملتزمين باتفاقيات والتزامات عشائرية، يرونها واجباً وملزماً. ويؤكد اليونس أنه لم يكن متأثراً بالعشائرية طوال حياته (ص 311)، لكنه في مذكراته لا يُسَمِّي الزعامات العشائرية، التي تنافست على المقاعد النيابية، وترك القارئ والباحث يعيش في العموميات، وربما كان لليونس عذره، فلعلَّ قوة العصبية العشائرية منعته من البوح بزعمائها، رغم مرور زمن على الأحداث التي رواها في مذكراته.

تحالف اليونس مع المغترب في إفريقيا خليل أنيس بشور، ثمّ قام بزيارة صديقه قحطان الهواش وجيه عشيرة المتاورة، الذي كان عنده طموح لترشيح نفسه، فأقنعه اليونس بأن حظه في النجاح معدوم، لأن عدد المتاورة في قضاء صافيتا يحتل المرتبة الثالثة بعد الحدادين، ومنهم اليونس، والخياطين، ومنهم المرشح المنافس شوكت العباس. وبقيت أمام اليونس عقبة كأداء، وهي هاشم الحامد، الذي احتلت عائلته الزعامة التقليدية للحدادين في منطقة صافيتا، والذي بقي مصرّاً على ترشيح نفسه، مما يؤدي إلى تبعثر أصوات الحدادين بين اليونس والحامد.

القائمة الثانية المنافسة تألفت من شوكت العباس ونوفل إلياس، وهو من خارج المنطقة، لكنَّ له رصيداً انتخابياً فيها، وهو يملك ثروة طائلة تمكنه من الإنفاق لشراء الأصوات والصرف على الحملة الانتخابية.

لم تشهد محافظة اللاذقية معركة انتخابية ضارية، حسب وصف اليونس، كالتي شهدتها صافيتا عام 1949: مناورات، تضحيات، تحدٍّ، وحماسة بين أنصار الفريقين. ومع ذلك، لم تحدث حوادث تعكر الأمن. وفازت قائمة اليونس، وحصلت على 2270 صوتاً زيادة على القائمة المناوئة. وقد أحدث انتصار اليونس على شوكت العباس دوياً كبيراً في

محافظة اللاذقية وسائر أنحاء البلاد، فآل العباس هم إحدى العائلات الإقطاعية الراسخة الأقدام في محافظة اللاذقية، وتسنموا مراكز حكومية، ونجحوا في عدة انتخابات. وليس أدل على ذلك من البرقية الشعرية المعبّرة، التي أرسلها الشاعر الكبير نديم محمد لليونس، وهي[383]:

تهنئتي لا بالـتي أخـْذُها   وتَرْكُها سيَّانِ عِنْدَ الرجالِ
لـكنْ لدرسٍ بالغٍ وَحْدَهُ   لقَّنتَهُ وَحْدَكَ أَهْلَ الضَلالِ

حقاً لقد كانت هزيمةُ عائلة العباس الإقطاعية مؤشّراً على بداية ضعف الهيمنة الإقطاعية، وإلى حدّ ما العشائرية، وخطوة على طريق صعود "الطبقة الوسطى" واحتلالها بعد عقد من الزمن سدة الحكم، هذا مع الأخذ بالحسبان دور العصبيات في نجاح هنا وفشل هناك.

5- بعد مرور أقل من عامين على انتخابات 1949، قام العقيد أديب الشيشكلي بحل برلمان (1949-1951) في انقلاب عسكري، وأقام حكماً عسكرياً بواجهة مدنية، تمثلت بتأسيس حزب التحرير، وانتخابات رئاسية على شكل استفتاء شعبي، أصبح الشيشكلي بموجبه رئيساً للجمهورية. وأجرى انتخابات نيابية في تموز 1953، وقد قاطعت الأحزاب الانتخابات، ما عدا الحزب الشيوعي والحزب السوري القومي الاجتماعي. هذه الانتخابات خاضها دانيال نعمة مرشحاً عن منطقة صافيتا، دون أن يحالفه النجاح. وكان واضحاً أن قائمة "حركة التحرير العربي"، الحزب الذي أسسه الشيشكلي، هي التي ستفوز في أكثر المقاعد النيابية. ومع ذلك، قرر الحزب الشيوعي خوض المعركة كوسيلة للاتصال بالجماهير ونشر سياسة الحزب[384].

كان مرشحا حركة التحرير الفائزان هما أحمد عباس وإبراهيم الخوري، وبالمقابل ترشح الدكتور صلاح أحمد، وهو دكتور خريج فرنسا في علم الرياضيات، ويحمل أفكاراً قريبة من الماركسية[385]، لكنه تجنب الاتفاق مع دانيال نعمة، كي لا يُتهَمَ بالشيوعية وما تجلبه من

---

[383]- اليونس، ص 315.

[384]- راجع في فصل سابق ما ذكره دانيال عن إطلاق الشيشكلي سراح المعتقلين الشيوعيين في سجن تدمر ولقائه معهم، ومنهم دانيال.

[385]- راجع في فصل لاحق ما باح به الطالب الجامعي صلاح أحمد لصديقه الطالب الشيوعي في الجامعة السورية حول "حزب الإصلاح الريفي" والميول الفكرية السياسية اليسارية لصلاح أحمد.

تبعات و"وجع رأس". كما ترشح الدكتور صادق الطيّار من مدينة صافيتا ووجوهها عن الحزب السوري القومي الاجتماعي.

6- وبعد إزاحة أديب الشيشكلي وعودة دستور 1949، جرت انتخابات نيابية في خريف 1954، شاركت فيها جميع الأحزاب، وكانت أنزه انتخابات نيابية عرفتها سورية، وأعاد دانيال نعمة الكرة، ورشّح نفسه باسم الحزب الشيوعي عن منطقة صافيتا، دون أن يحالفه النجاح أيضاً، لأسباب سيوجزها دانيال فيما بعد.

في انتخابات 27 أيلول 1954، حُدِدَ مقعدان للمسلمين (العلويين) وواحد للمسيحيين في صافيتا، وشُكِلَت لائحتان انتخابيتان:

منير العباس وقحطان الهواش وخليل أنيس بشور، مقابل عبد اللطيف اليونس ومحمد أمين رسلان ورفيق جبرائيل بشور، كما رشّح الحزب السوري القومي أحد وجوهه، وكان دانيال نعمة كما أسلفنا مرشح الشيوعيين، تحت لافتة مرشح الاتحاد الوطني.

أشار دانيال نعمة في مذكراته، التي سننشرها بعد قليل، أن المال والعشائرية كان لهما الدور الرئيس في الانتخابات، فخليل بشور ثري وسخي، وقيل - كما ذكر اليونس- إنه أنفق أكثر من نصف مليون ليرة سورية، كانت لها قيمة شرائية كبيرة في ذلك الحين. وحسب رواية اليونس، لم تنفق جبهته أكثر من 24 ألف ليرة سورية لعشرات السيارات، التي كانت تجوب المنطقة. أما دانيال نعمة، فكان المال المتوفر لديه لا يتجاوز مئات الليرات، ويذكر دانيال أنه قابل قائمقام صافيتا للاحتجاج على بعض المضايقات، فسأله القائمقام فجأة: "أستاذ نعمة، من أين ستغطي نفقات معركتك الانتخابية؟" ويجيب دانيال فوراً: "إنها لن تكلفني أكثر من نصف نعل"[386].

7- في انتخابات 1961/12/01[387]، تفاهم اليونس مع منير العباس عن طريق رياض عبد الرزاق والعقيد حسن الخيّر، واجتمع اليونس مع منير العباس وأخيه شوكت في بيت رياض بدمشق، وكان لهذا الاتفاق، كما ذكر اليونس، أثره في مجرى الانتخابات في الساحل. تألفت اللوائح على الشكل التالي:

---

[386]- إشارة واضحة إلى تنقله وأنصاره سيراً على الأقدام لزيارة القرى والدعاية الانتخابية.

[387]- تجاوزنا انتخابات الاتحاد القومي في عهد الجمهورية العربية المتحدة، بسبب هيمنة المباحث على الانتخابات واختيار المرشحين.

- منير العباس، عبد اللطيف اليونس، محمد أمين رسلان، رفيق بشور.
- محمد كامل الصالح (وهو شاعر ومحام وضابط سابق)، مدحت ياسين (وهو ابن عم عبد اللطيف اليونس، ووالده يونس المحمد كان وجيه الأسرة)، الشيخ عبد اللطيف رمضان، خليل بشور.
- رشح نفسه منفرداً المحامي نجم الدين الصالح، وسيصبح عضواً في الاتحاد القومي أيام الجمهورية العربية المتحدة، وعضواً في مجلس الشعب فيما بعد.

كان أنصار محمد أمين رسلان (وهم من عشيرة الرسالنة) ملتزمين بتحالفات زعيمهم في انتخابات 1954، أكثر من التزامهم في انتخابات 1961، إذ إن قسماً من الرسالنة انحاز إلى القائمة المنافسة للقائمة، التي منها محمد أمين رسلان. هل يعني ذلك بداية تفكك العصبية العشائرية؟ وهذا ما نستبعده، أم أن هناك أسباباً أخرى؟ وعبد اللطيف اليونس كان مقتراً في المعلومات كعادته فيما يتعلق بالعصبيات الطائفية والعشائرية، رغم دعوته لمحاربتها[388].

كان التفاهم بين اليونس (وهو من عائلة مشايخ، ومن عشيرة الحدادين) ومنير العباس زعيم عشيرة الخياطين (وعائلته من أكبر العائلات الإقطاعية في الساحل) وسيلة لإيجاد تفاهم بين ذوي النفوذ والوجاهة في الجبل (العلوي)، وقد عقد خصوم الأمس اجتماعاً في منزل الضابط محمد عزيز الهواش بدمشق، حضره عدد من الشخصيات المرموقة في محافظة اللاذقية، وقرروا القيام بنهضة إصلاحية شاملة، تهدف أول ما تهدف إليه القضاء على العشائرية والتعصب المقيت، وقرر المجتمعون عقد اجتماعات سنوية. وكان نائب مصياف محمد جنيد (زعيم عشيرة الرشاونة) من المتحمسين، وأبدى استعداده للتبرع بمبلغ كبير من المال لتغطية نفقات الاجتماعات[389]، وهذه التحالفات الجديدة لزعماء محافظة اللاذقية بحاجة إلى دراسة معمقة وتحليل يستند إلى معطيات كثيرة لسنا قادرين على القيام بها. والغريب في الأمر، كيف يقضي وجوه العشائر على العشائرية، كما كتب اليونس في مذكراته، وهم المستفيدون بالدرجة الأولى من بقاء

---

[388]- انظر اليونس، ص 557.

[389]- المصدر نفسه، ص 577.

العشائرية؟ أم أن عوامل أخرى دفعتهم لاتخاذ هذا الموقف؟ وما دور الإصلاح الزراعي، وما حمله من تهديد للملكية العقارية الإقطاعية، في تغيير المواقف وجمع شمل زعماء العشائر للدفاع عن الملكيات العقارية الإقطاعية والدفاع عن قدسية تلك الملكية المهددة بالزوال؟

الفصل الثالث
من سجن تدمر إلى انتخابات 1953
دانيال نعمة يتقدم ببيان انتخابي لم تعهده منطقة صافيتا

من ذكريات دانيال نعمة عن انتخابات 1953

في 2000/11/20، نشر دانيال نعمة في جريدة "نضال الشعب" بعضاً من ذكرياته عن الانتخابات التي خاضها في تموز 1953، بعد إطلاق سراحه مع عدد من الشيوعيين المعتقلين في سجن تدمر. كتب دانيال:

"معروف أن العقيد أديب الشيشكلي كان قد بيَّض السجون في تموز من عام 1953، وكان قد التقانا نحن سجناء تدمر الشيوعيين (إبراهيم بكري، بدر مرجان، عبد الكريم طيارة، إسماعيل طرودي، دانيال نعمة) في مقر قيادته في الأركان (بوابة الصالحية)، مؤكداً لنا أنه ليس عميلاً للولايات المتحدة الأمريكية، وأنه لو كان لسورية حدود مع الاتحاد السوفييتي، لكانت سياسته مختلفة جذرياً، وكان ذلك رسالة إلى قيادة الحزب الشيوعي السوري تلقفتها باهتمام، وأدركت أبعادها.

وكان مفهوماً بالنسبة إلينا في تلك الفترة أن يقرر الحزب الشيوعي خوض معركة الانتخابات، التي دعا إليها حاكم سورية العسكري، وبذل الحزب جهوداً كبيرة كي يُقنِع حزب البعث العربي الاشتراكي بالمساهمة في خوض هذه الانتخابات، لكن هذه الجهود ذهبت سدى، فقد قاطعت جميع الأحزاب، باستثناء حزب السلطة والحزب السوري القومي، وباستثناء حزبنا الشيوعي، هذه الانتخابات، وكانت مقاطعة شبه كاملة.

وقرر الحزب أن أكون مرشحه في قضاء صافيتا، لكن عمري لم يكن ليسمح لي بذلك (28 سنة فقط)، فأقمت دعوى قضائية أمام محكمة

صلح صافيتا لتكبير سنّي...". ويمضي دانيال قائلاً:

"... وخضت المعركة، يعاونني عشرات الشيوعيين الشباب في مناطق كثيرة، على أساس البرنامج الذي أقرته قيادة الحزب الشيوعي، وكان في مقدمة مطالبه العامة الدفاع عن الاستقلال الوطني، ومكافحة المشاريع الاستعمارية، والمطالبة بإطلاق الحريات الديمقراطية، وتصفية بقايا العلاقات الإقطاعية. أما مطالبه الخاصة، وأعني المحلية، فقد تركزت على ضرورة شق الطرق، ومنع السخرة، وفتح المدارس والمستوصفات... إلخ".

وكانت يومذاك، دعوة التصدي للعائلية والعشائرية بين أبرز الشعارات التي رفعها ونادى بها الشباب المثقف من أمثال: حبيب حسن[390] ونجم الدين الصالح[391] في ريف صافيتا. وحاولت منظمة الحزب جاهدة إقامة تحالف انتخابي في تلك المعركة مع المرشح المستقل، الدكتور صلاح الأحمد[392]، لكن جميع المحاولات باءت بالفشل.

ويتحدث دانيال نعمة في مذكراته عن تلك المعركة الانتخابية[393] ودروسها، وعن نشاط الشيوعيين وأصدقائهم في السهل والجرد، وفي عشرات القرى والمراكز، وبين جماهير الفلاحين من كل المذاهب والأديان والعشائر، وسنقتطف منها ما له علاقة بموضوعنا، واضعين كلام دانيال ضمن قوسين، معلقين على الأحداث شارحين لها في الفقرات التالية:

أولاً- دور المال في المعركة الانتخابية

"لقد خضنا" - والكلام لدانيال- "هذه الحملة الانتخابية، ونحن نكاد نكون مفلسين، فلا مال لدينا سوى ما يتبرع به الأصدقاء والرفاق،

---

[390]- حبيب حسن انضم إلى الحزب الشيوعي فيما بعد، وكان عضواً في حركة الإصلاح الريفي، التي يسميها دانيال (حركة الشباب المثقف) اعتماداً على الذاكرة.

[391]- نجم الدين الصالح شاعر تقدم لانتخابات الاتحاد القومي أيام الوحدة، كما دخل الانتخابات منفرداً عام 1961، وبعد 1970 أصبح عضواً في مجلس الشعب.

[392]- صلاح أحمد كان يحضّر للدكتوراه في باريس عندما انضم إلى الفرقة الشيوعية السورية هناك، لكنه بقي حذراً في أمر انضمامه إلى الحزب الشيوعي بعد عودته إلى الوطن.

[393]- مفكرة نعمة لعام 1953 لا تتضمن أية إشارة إلى انتخابات تموز 1953 ومشاركته فيها، لكنه في ذكرياته المتأخرة أشار إلى هذه الانتخابات بالتفصيل.

وجلُّهم فقراء، ولا وسائط نقل لدينا سوى أقدامنا، تُحفزها على السير إرادات لا تقهر، وكي أكون أكثر دقة ووفاء أقول: لقد كان هنالك صاحب سيارة تعمل بين صافيتا والمشتى، وكان شيوعياً شهماً وكريماً، وقد ساعد الحزب في هذه المرحلة، كما في كل مراحل النضال وإلى آخر أيامه، فقد كان ينقل مناضلينا ومناشيرنا باستمرار ودون مقابل على خط سيره المعهود، ولم يكن ليأبه بكل محاولات الاستفزاز من جانب الشرطة والدرك وغيرهم. هذا الشخص، هذا الإنسان العظيم هو إلياس الحكيم، أبو حكمت...".

لم تكن موافقة حكم الشيشكلي على السماح للحزب الشيوعي بالمشاركة في الانتخابات تعني الحرية المطلقة للحزب الشيوعي بالنشاط الانتخابي، بل جرت تضييقات وممارسات قمعية من الأجهزة لبست لبوس القانون. مثال على ذلك، دعوى الحق العام على دانيال نعمة بعد الانتخابات في محكمة بداية طرطوس بتاريخ 1953/10/25. الجرم المتهم به مرشح صافيتا دانيال بعد الانتخابات هو التالي:

1- إقدامه على نشر بيانه الانتخابي قبل عرضه على السلطة الإدارية.

2- إقدامه على الدعاية لحزب غير مرخص، ولا مصرّح عنه تحت ستار الدعاية الانتخابية.

3- أقوال في البيان الانتخابي للمذكور (دانيال نعمة) إلى رئيس الدولة والهيئة الحاكمة تنال من الشرف والكرامة.

4- وصدر قرار الحكم 171 تاريخ 1953/12/17[394].

ثانياً- الولاءات الطائفية والعشائرية والطبقية في انتخابات 1953

حول هذا الموضوع كتب دانيال: "وكان هناك قرية اسمها البارقية، وهي واحدة من عشرات القرى التي يتعاطف فقراؤها مع حزبنا الشيوعي، وكان لنا فيها منظمة جيدة بنيناها بالنضال ضد مالكها من آل كوزاك، وقد أعطتنا هذه القرية أكثر من خمسين صوتاً، وكان ذلك بمعايير تلك الأيام، وفي ظل إرهاب الديكتاتورية، شيئاً مميزاً. ونلنا مثل

[394]- هذه المعلومات أخذناها من مفكرة دانيال لعام 1953، التي جاء فيها أيضاً: أن رقم ادعاء النيابة هو 319 ، ورقم دوائر التحقيق 1953/10/11، ورقم بداية طرطوس 1953/10/25، وكان على المحكمة تطبيق أحكام المادتين 2 و3 من المرسوم 188، والمفكرة في حوزة زوجته نديمة يسوف.

هذه الأصوات في قرية "بعيت"، وكانت أصواتنا معقولة بل جيدة في قرى عين الجرن، وعين دابش، وبدادا، وفي الكفارين، وفي كرتو، وفي بشرايل، وحكر كابر، والحفة، وحصلنا على أكثرية الأصوات في مشتى الحلو، وكان مفهوماً أن ينجح مرشحو حزب السلطة واللائذين بها... وحصلنا على أقل بقليل من ثمانمئة من أصوات الناخبين والناخبات".

البارقية فلاحوها علويون، ومالكها مسيحي من آل كوزاك، ولهذا كان من السهل على المرشح المسيحي المنادي بتحرر الفلاحين من النير الإقطاعي أن يخترق الجدار الإقطاعي المسيحي الهش المستثمر لفلاحين علويين، وأن ينال 50 صوتاً من هذه القرية الصغيرة. هنا لعب العامل الطبقي دوره في انحياز الفلاحين العلويين إلى المرشح الشيوعي، والمسيحي بالولادة. ومن هنا نفهم انضمام هؤلاء الفلاحين إلى صفوف الحزب الشيوعي في مرحلة مبكرة، ومشاركة عدد من شبابها في مظاهرة نظمها أنصار السلام بدمشق بتاريخ 1951/08/10، وكان دانيال على رأس تلك المظاهرة، واعتقل بسببها[395]. وسنرى أن العامل العشائري والطائفي سيتغلب بعد سنة على العامل الطبقي في انتخابات 1954، ففلاحو البارقية العلويون، وهم من عشيرة الحدادين، سيحجبون أصواتهم مرغمين بقوة الوجاهة العشائرية الحدادية عن المرشح الشيوعي المسيحي، الذي لا تدعمه الزعامة العشائرية، ولم ينل دانيال في انتخابات 1954 سوى خمسة أصوات من البارقية، هي أصوات الشيوعيين الأشداء.

ثالثاً- أصداء الانتخابات في جريدة "الأرض للفلاح" السرية

نظم أنصار دانيال نعمة مهرجاناً انتخابياً في بلدته المشتى حضرته جموع غفيرة، ضمت العديد من فلاحي القرى المجاورة، وقد هتف المجتمعون - كما جاء في جريدة "الأرض للفلاح"- كثيراً للفلاحين المناضلين ضد السخرة، وضد الطرد من الأرض، وفي سبيل المياه والأرض لجميع الفلاحين. ومعروف أن المشتى بلد حرفي تجاري، وتسوده الملكيات الصغيرة، فالهتافات التي تعالت ضد الإقطاعية كانت موجهة لزعماء الإقطاعية في المناطق المجاورة، وكانت تعبيراً عن التضامن بين الفلاحين، ودعوة إلى تنظيم صفوفهم في الخط الذي

[395]- لقاء مع عبد الله إبراهيم في 2005/01/07 في بيته في كفرون حيدر، ومحدثنا عبد الله شارك في المظاهرة المنوه عنها.

سارت عليه نشرة "الأرض للفلاح"، والتي كان لدانيال نعمة يدٌ في إصدارها. وقد ساء المعادين للحزب الشيوعي أن يكون هناك إجماع ضد الإقطاعية والمستعمرين وضد الاستبداد الحكومي، فنظموا ضبطاً بحق قادة المهرجان، وأحالوه إلى المحكمة. وبعد جلسة تحقيق للكثيرين من الشباب والشابات ولعدد من الفلاحين، انتهت المحاكمة لعدم وجود الأدلة، ولأن حكم الشيشكلي كان يسير نحو الانهيار، ولم يكن من صالحه استعداء قوة الحزب الشيوعي بعد المهادنة معه في صيف 1953، كما ورد قبل قليل. وقد شحذت هذه النتيجة همم أنصار المرشح دانيال نعمة، ودفعتهم إلى العمل "في سبيل الخلاص من الأوضاع الفاسدة"، حسب تعبير جريدة "الأرض للفلاح".

على أثر المعركة الانتخابية، وتحت عنوان: "مهزلة الانتخابات في الجبل العلوي" نشرت جريدة "الأرض للفلاح" بياناً لاتحاد الفلاحين حول الانتخابات ونتائجها، نقتطف منه الآتي[396]:

"... كان الفلاحون عرضة لأبشع أنواع الضغط... وما من قرية إلا ونُظمت فيها ضبوط الأحراج وغيرها، مما يجيد ابتكارها زبانية الحكام الطغاة. إن جميع الفلاحين أدركوا منذ بداية المعركة أن هذه الانتخابات إنما هي ستار، أراد به أعداء الشعب أن يستروا وجههم الحقير، وجه العبودية أمام المستعمرين. الحكام يشدون أزر الإقطاعيين نهابي خيرات الجبل وألد أعدائه وأطوع خدم للاستعمار في كل العهود، ولذا فإن اتحاد الفلاحين يهيب بجميع فلاحي الجبل على اختلاف العقائد والميول إلى تشديد النضال لمنع هذا المجلس من أن يكون الأداة الطيعة بيد الإقطاعيين وعملائهم... وهو (أي الاتحاد) يهيب بكم (بالفلاحين) إلى الاتحاد والاعتماد على قواكم وقوى حلفائكم العمال في المدن...".

كما ألقت جريدة "الأرض للفلاح" الأضواء على الأجواء الانتخابية السائدة في ريف صافيتا في تموز 1953 تحت عنوان: "متفرقات انتخابية"، نقرأ منها:

- "في كرتو[397] صوّت أكثر من تسعين فلاحة وفلاحاً ضد آل العباس والحكومة، وذلك بواسطة تذاكر هويات أخرجوها لهم"، أي أن آل العباس بما لهم من نفوذ في دوائر الحكومة في صافيتا أصدروا التذاكر للفلاحين كي ينتخبوهم، ولكن الفلاحين لم يحفظوا "العهد"، وانتخبوا وفق مصلحتهم الفلاحية".

*- "في بشرايل، رفض أحد الناخبين، وهو فلاح **مسلم علوي** متقدم في السن أن*

---

[396]- أصل البيان مكتوب بخط اليد، قبل طبعه، وهو موجود بين أوراق دانيال. انظر الفصل المتعلق بجريدة الأرض للفلاح.

[397]- تنتمي كرتو عشائرياً إلى الخياطين، وآل العباس رؤساء العشيرة.

يقترع لغير مرشح العمال والفلاحين، وذلك لأن بقية المرشحين، وإن كانوا من دينه، لا يمثلون سوى الإقطاعية ناهبة خيرات الفلاحين". والمقصود بمرشح العمال والفلاحين دانيال نعمة المسيحي، أي أن فلاح بشرايل سار على هدى ضميره الطبقي، ولم يسر مع انتمائه الطائفي[398].

- "زعمت الدكتاتورية أن أحمد العباس نال 9950 صوتاً، أما الحقيقة فهي أنه لم ينل سوى نصف هذا العدد، وقد تمنَّع أكثر من 1500 فلاح من الاقتراع له".

- "حاول فريق من آل بشور أن يتدخلوا بحكم العادة في قرى عين الجرن وعين دابش، فأفهمهم الفلاحون أن عهد الإقطاعية بدأ بالزوال"[399].

- "آل العباس طردوا من عشيرتهم الخياطين كلاً من: محمود بركات من الدريكيش، محيي الدين صالح من بجنة، علي أسعد من بويضة الحمام، لأنهم وقفوا في الانتخابات إلى جانب مرشح الفلاحين دانيال نعمة".

رابعاً- محاضر الاجتماعات الحزبية الشيوعية الموجودة بين أوراق دانيال نعمة تناولت بالدراسة والعِبَر انتخابات 1953، نقتطف منها ما يلي:

وصفت التقارير الحزبية انتخابات 1953 على النحو التالي: "صوّت الأموات... وصوتت الهوية الواحدة أكثر من مرة... صوتت دفاتر العائلة بدون حضور أصحابها... كان الإقطاعيون ووكلاؤهم يدخلون إلى الغرف الانتخابية بدون وكالات... كانت الأوراق الموجودة في الصناديق أكثر من عدد المقترعين، هذا في طرطوس. وفي اللاذقية، كان جماعة هارون يحملون المسدسات، ويهددون الناس... وكان جماعة أبي هاني يحملون مسدساتهم في الطرقات... وفي منطقة المرشد حُوصِر الناخبون، ومُنِعوا من مغادرة بيوتهم..."[400].

تقرير في 1953/09/25 يتبين منه أن معظم نساء الجبل ورجاله لا يملكون هويّات... تشكيل لجان انتخابية وجمع التبرعات... وواضح من التقرير شدة المنافسة مع القوميين السوريين.

تقريرٌ ثانٍ بتاريخ 1953/09/28 يبيّن حضور اثنين من طرابلس للعمل مع المنظمة الشيوعية في الانتخابات، ويرجو كاتبو التقرير الحزبي من الرفيق الموجهة الرسالة إليه حضور جلسة محاكمة

---

[398]- ذكرنا في فصل سابق مواقف فلاحي بشرايل ووقوفهم في وجه بيت العباس وانتساب بعضهم إلى الحزب الشيوعي.

[399]- سكان عين دابش وعين الجرن مسيحيون مفروض أن يسيروا وراء زعامتهم المسيحية في صافيتا.

[400]- هذا التقرير بتاريخ 1953/09/11.

الفلاحين.

تقرير آخر عن انتخابات 1953 موقَّع باسم عادل الساحلي بتاريخ 1953/10/13، جاء فيه:

"تهرَّب البعض (من الشيوعيين) من العمل خوفاً من بطش الدرك، عدم الخبرة، صعوبة المواصلات، لجان زارت القرى. كان الدعاة الانتخابيون لدانيال نعمة يرددون أثناء تجوالهم في القرى: انتخبوا مرشح الفلاحين والعمال، وانتخبوا معه المرشح العلوي الذي تختارونه، مع شرح العداء الطبقي بين الإقطاعيين والفلاحين، وفضح مرشحي الحكومة مسببي الأوضاع الفاسدة المؤتمرة بأوامر الاستعمار... كان رفاقنا يكتفون بالاجتماع ببعض الأشخاص في ساحة القرية... لم يزوروا البيوت... في تل الترمس عملتُ[401] اجتماعاً لرفاقنا هناك، وأبلغتهم خطتنا، واجتمعت ببعض الأشخاص في ساحة القرية، وهذا التحضير لم يكن كافياً بالنسبة لقرية كهذه، إذ كان يجب أن تعطينا تل الترمس أصواتا بنسبة كرتو. لم ينتبهوا[402] إلى الغرفة السرية، بدليل أن بعض رفاقنا الطيبين وقعوا تحت ضغط أهلهم، وانتخبوا العباس وشريكه، دون أن يكتبوا بأيديهم، مع أن أكثرهم متعلمون... إبلاغ الوكلاء أن الهدف ليس جمع الأصوات، بل كسر جو الإرهاب، وفضح التزوير ومنعه وتقوية معنويات الشعب وإبراز وجه حزبنا... كيف ولماذا لم نأخذ أصواتاً أكثر مما أخذنا؟... وجود جو إرهاب مارسه شوكت العباس، وخجل وضغط من الآباء على أبنائهم... مقاطعة جماعة اليونس والكامل... (وهما من زعماء عشيرتي الحدادين والمتاورة)، عدم وجود هويّات للنساء، ونقص قوي في هويات الرجال. خداع البسطاء وقسم من المتعلمين، وشراء أكثر وجهاء القرى المؤثرين في الناخبين...".

أوضح أحد التقارير أن المعركة الانتخابية لعام 1953 أدت إلى النتائج التالية:

"أ- وصول شعاراتنا إلى جماهير جديدة كثيرة.

ب- اتصلنا بمناطق عديدة، وظهر عطف الشعب على الحزب وشعاراته، خصوصاً بعد المعركة الانتخابية.

ج- كسر جو الخوف نتيجة للإرهاب الدكتاتوري".

كما عالج التقرير أخطاء المعركة الانتخابية:

"أولاً- كان عملنا سطحياً، ولم نتمكن من الكشف عن العناصر الطيبة من أبناء شعبنا.

ثانياً- لم نشغّل جميع القوى التي كان بإمكانها أن تشتغل.

ثالثاً- أظهرنا جهلاً في كثير من النواحي التي تتعلق بكسب الأصوات، ويمكن تلافي هذه الأخطاء الآن بإعادة الزيارات للقرى التي صوتت لنا، والتي لم تصوّت، والتفتيش عن العناصر التي برزت في المعركة، وتقوية النضال الاقتصادي،

---

[401]- التاء تعود على مُعد التقرير عادل السلطي، وهو اسم حركي.

[402]- واو الجماعة تعود إلى أنصار المرشح دانيال.

وتشكيل لجان تابعة لمؤتمر الفلاحين وللطلاب والنساء" [403].

خامساً– البيان الانتخابي لدانيال نعمة تموز 1953[404]

"أيها الإخوان والأخوات!

إن الأوضاع السياسية والاقتصادية السيئة التي تتخبط فيها بلادنا، والمفروضة علينا، تقضي بأن يعطي شعبنا السوري رأيه الحاسم في هذه الأوضاع، وفي المصير الذي يريده.

فالمستعمرون الأمريكيون والإنكليز والفرنسيون يقومون بمختلف المحاولات لإعادة الاحتلال العسكري إلى ديارنا عن طريق مشاريعهم الحربية العدوانية، وفي مقدمتها مشروع الدفاع المشترك، والاتفاقات الثنائية مع أمريكا. كما أن حرمان شعبنا من حرياته الأساسية، ومنعه من إعلان تضامنه مع الشعوب العربية الشقيقة المناضلة من أجل التحرر الوطني ومن أجل جلاء المستعمرين عن ديارها، يساعد هؤلاء المستعمرين على تنفيذ مآربهم الإجرامية الحربية.

إن حالة بلادنا تسوء بسبب سيطرة المستعمرين عليها اقتصادياً وسياسياً، وبسبب فقدان الحريات الديمقراطية للشعب، وبسبب أنظمة الحكم المطبقة التي تقوي السلطة الفردية، وتمنع مراقبة الشعب عن طريق البرلمان على السلطة التنفيذية.

والطبقة العاملة ترزح تحت كابوس التسريح والبطالة ونقص الأجور وفقدان الضمان في حال المرض والعجز والشيخوخة، وأكثريتها الساحقة محرومة من حقوقها في مختلف التعويضات، والإجازات، ومبدأ الثمان ساعات.

والإقطاعيون يطردون الفلاحين من القرى بالجملة، ويرهقونهم بالفوائد، وبإنقاص حصصهم. والصناعة الوطنية في كساد بسبب المزاحمة الأجنبية، والشعب السوري يشكو من طرد الطلاب من المدارس لأسباب عديدة، كعمر الطلبة، ونسبة علاماتهم، وانتقالهم من المدارس الخاصة للمدارس الرسمية، كما يتألم شعبنا من نقص المداواة ورداءة الطرق، ومن الغلاء والاحتكارات، ومن نظام الضرائب غير

---

[403]- هذا التقرير خال من تاريخ كتابته، وهو مكتوب بعد انتخابات تموز 1953 بفترة وجيزة.

[404]- يتضمن هذا البيان الخط السياسي والفكري للحزب الشيوعي السوري، إضافةً إلى الشعارات المطلبية لمنطقة صافيتا، ولن نقوم بتقويم البيان، تاركين لباحثي المستقبل، وفي مقدمتهم من سيؤرخون للحزب الشيوعي، هذا الأمر.

العادل.

إن أعداء شعبنا يسعون لزيادة هذه الأحوال سوءاً، فخطر الدفاع المشترك يشتد على البلاد العربية وجاراتها، والمستعمرون يفرضون عليها الديكتاتوريات بقصد قتل مقاومة الشعوب ونضالها الوطني. ففي المغرب العربي، يقتل الفرنسيون الوطنيين، ويساعدهم ويدعمهم في ذلك المستعمرون الأمريكيون. وفي ليبيا، يفرض البريطانيون معاهدة ذل وعبودية على الشعب الليبي العربي. وفي مصر، يُخمِدون النضال الوطني بالإرهاب والسجون. وفي العراق، يذبحون المناضلين في السجون. وفي فلسطين، يعاني العرب الأمرين من المعتدين الصهيونيين. وفي إيران، يسفكون دماء الشعب لسرقة بتروله. ويستهدف المستعمرون أيضاً من وراء ذلك دفع البلاد العربية والبلاد الأخرى في طريق حرب عالمية، يقصدون منها زيادة نهبهم للشعوب، وسرقة ثرواتها، وتوطيد استعمارهم وتوسيعه، وزج الشعوب في حرب ضد الاتحاد السوفييتي نصيرها في نضالها من أجل السلم والتحرر الوطني.

غير أن العرب في جميع ديارهم يحبطون بمقاومتهم وتضحيتهم وتضامنهم هذه المؤامرات، ويشددون من نضالهم في سبيل استقلالهم بالتعاون مع جميع شعوب العالم، التي تسجل انتصارات مستمرة ضد المستعمرين، وتزيد من حدة تناقضاتهم ومناحراتهم على اقتسام الغنائم.

ويقوى نضال جميع شعوب العالم في سبيل السلام، ويقف في طليعته الاتحاد السوفييتي والصين وبلاد الديمقراطية الشعبية، مما يوجه ضربات أخرى للمستعمرين، الذين أُجبِروا على وقف الحرب الكورية، وسيُحمَلون على إحلال المفاوضات محل الحروب لوقف التوتر الدولي.

ويخوض شعبنا معركته البطولية في سبيل رد الأخطار الاستعمارية الاحتلالية، ومن أجل الاستقلال والحريات ونظام جمهوري ديمقراطي دستوري نيابي صحيح، ومن أجل حياة أحسن للعمال والفلاحين والجماهير الشعبية.

فمن أجل تقوية وتوسيع نضال الشعب في سبيل مطالبه هذه، ومن أجل تقوية وحدته وجبهته الوطنية، التي هي اليوم أقوى من كل وقت مضى، ومن أجل بيان الأخطار المحدقة بوطننا، ورفع صوت الشعب المكبوت عالياً في المجلس النيابي، أخوض المعركة الانتخابية غير

معترف بكل ما يناقض إرادة الشعب والأساليب الديمقراطية في الحكم، ومعارضاً للوضع الحاضر، معتمداً على ثقة أبناء بلدي وسعيهم في سبيل تحقيق أهداف الشعب الآتية:

1) العمل في سبيل الاستقلال والسلام العالمي، ومقاومة مشاريع الحرب والاستعمار كالدفاع المشترك والاتفاقات الثنائية، والعمل للتضامن العملي الذي لا حد له مع الشعوب العربية المناضلة في سبيل حريتها واستقلالها.

2) الدعوة لانتخاب جمعية تأسيسية تضع دستوراً ديمقراطياً نيابياً للبلاد، يضمن دون قيد جميع الحريات، ويحوي الضمانات العملية لحرية الكلام والضمير والجمعيات والأحزاب والخطابة والنشر والصحافة والاجتماع لجميع السوريين، واحترام حرمة المساكن بتحريم مداهمتها، وحرمة الأشخاص بمنع الاعتقال الكيفي والتعذيب.

3) تأميم الشركات الأجنبية وجعلها ملكاً للشعب، وإزالة سيطرة المستعمرين الاقتصادية، وتحرير الصناعة من المزاحمة الأجنبية، وتقوية المبادلات التجارية مع الاتحاد السوفييتي والصين وبلاد الديمقراطية الشعبية من أجل تطوير الصناعة السورية، وتأسيس بنك إصدار وطني، ووقف القطيعة مع لبنان.

4) وقف تسريح العمال، وتشغيل العاطلين منهم، ورفع أجورهم لدرجة الكفاية، وتطبيق تعويضات التسريح والإنذار والإصابات والإجازات والتعويض العائلي، والضمان الاجتماعي، والثمان ساعات، وتسهيل تنفيذها ومراقبتها، ووقف تدخل الحكومة بانتخابات النقابات وبنشاطها.

5) توزيع أراضي الإقطاعيين وأملاك الدولة على الفلاحين الفقراء، وتخفيف الحصة التي يأخذها بقية الملاكين من الفلاحين، وإلغاء ما يستوفونه منهم من فوائد وأجور آلات، وباسم ضريبة العشر الملغاة، وحماية العمال الزراعيين بقانون عادل أسوةً بعمال الصناعة، وتوسيع مشاريع الري.

6) زيادة ميزانية التعليم، وإعادة الطلاب المطرودين لسبب العمر والعلامات وغيرها، وفتح مدارس كافية على نفقة الحكومة في المدن والقرى، وتأمين كتب ودور حضانة مجانية، وتأمين عمل للمتخرجين، وجعل البرامج تغذي الروح الوطنية والمسؤولية لدى الطلبة.

7) تأمين التطبيب المجاني الكافي لجميع المرضى، وتأسيس مستوصفات ثابتة ومتنقلة في المناطق القروية، وتأمين مياه شرب نظيفة، وإصلاح طرق القرى.

8) مكافحة الغلاء والاحتكار، وإلغاء الضرائب المباشرة عن أصحاب الموارد الصغيرة، مع مراعاة وضعهم العائلي، وإلغاء الضرائب غير المباشرة عن المواد الضرورية لحياة الشعب، وتخفيف نفقات المعاملات، وجعل جهاز الحكم واسطة لمساعدة الناس وتسهيل مصالحهم، ولنشر الطمأنينة بينهم.

9) الاعتناء بصحة المرأة وطفلها، وخصوصاً أثناء الولادة وبعدها، مجاناً. ومساواة العاملات بالأجور مع العمال في الأعمال المتساوية، وتشجيع تعليم النساء.

10) العمل لإعادة اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم، ولإعادة أموالهم وأملاكهم إليهم.

هذه هي الأهداف التي كنت، وسأبقى أعمل لها، والتي من أجلها سُجِنَ وعُذِبَ واستُشْهِدَ ألوف من أبناء وطني، أكرر وضعها ميثاقاً في عنقي والسلام".

الفصل الرابع
دانيال نعمة مرشح الاتحاد الوطني
المفتقر إلى المال والعصبية الطائفية والعشائرية
يخوض منفرداً انتخابات 1954

أولاً- من ذكريات نعمة عن الانتخابات

"... ولم يطل العهد بعد تلك الانتخابات (انتخابات 1953) حتى سقط نظام حكم الشيشكلي، وكان ذلك نتيجة لنضال بطولي خاضه الشعب السوري بجماهيره الواسعة، وتحالف فيه الشيوعيون والبعثيون والاشتراكيون العرب، وكل قوى الحرية والتقدم والسلام[405]. وهكذا قامت في سورية في ربيع عام 1954 حكومة مدنية، أشرفت، بدعم نزيه من الضباط الوطنيين في الجيش السوري، على إجراء

[405]- إضافة إلى مواقف قوى يمينية غير راضية عن الشيشكلي، ومعها من يتعاونون مع الاستعمار البريطاني ومن معه من حكام العراق آنذاك.

انتخابات جديدة في أيلول من العام ذاته، وفي جو من الحرية والديمقراطية".

"وخاض الحزب الشيوعي السوري هذه المعركة على أعلى المستويات تحت لافتة "الاتحاد الوطني"، وكان له مرشحوه في جميع المحافظات والعديد من الأقضية، فقد رشح الحزب في دمشق الرفيق خالد بكداش الأمين العام للحزب، ومعه الرفيقان نصوح الغفري وجورج عويشق. وفي حمص، رشح الرفاق موريس صليبي ونوري حجو الرفاعي ، ورشح في إدلب الكاتب والأديب مواهب الكيالي. وكان للحزب مرشحوه في الجزيرة (الرفيق إبراهيم بكري)، وفي حلب وحماة وطرطوس واللاذقية وبانياس... إلخ"[406].

ويمضي دانيال مستعرضاً ذكرياته في كانون الأول من عام 2000 عن انتخابات 1954، ننقل منها ما يلي:

"...وفي صافيتا، قرر الحزب أن يكون دانيال نعمة مرشحه للمرة الثانية. وخاض الانتخابات في هذا القضاء، في إطار قائمتين أساسيتين: الزعماء التقليديين من عشائر الخياطين (منير العباس)، والحدادين (عبد اللطيف اليونس)، والرسالنة، والمتاورة، ومن وجوه العائلات المسيحية المعروفة (آل بشور). وخاضها أيضاً الحزب السوري القومي بمرشح له من صافيتا".

"وكان مجال نضالنا في هذه المرة أوسع وأرحب، وكانت قدرتنا على التحرك أسرع، فقد تمكنا في فترة احتدام النشاط، من استئجار سيارة واحدة (يُسمح لنا بها)، في مقابل قوافل السيارات لدى الآخرين. وإذا كنّا قد تحررنا في هذه المرة من ظل الإرهاب الديكتاتوري وخشونة سياطه، إلا أننا جابهنا أساليب لا تقل ضراوة، بل ربما فاقتها، فقد أحكَمَت علينا أطواقها العشائرية، والعائلية، وسطوة المال، وأساليب خداع البسطاء من الناس والمؤمنين، ولم يفتَّ ذلك كله في عضدنا، وتابعنا، وتابع عشرات من رفاقنا نضالهم، فوزعوا في المدن والبلدات والقرى ألوف النسخ من برنامج الحزب الانتخابي، وساهموا في نشر أفكاره في السهل والجرد، وفي أوساط جماهير الفلاحين والمثقفين من كل الطوائف والعشائر، وكان من أغرب ما واجهنا في هذه الانتخابات جملة من القضايا والغرائب، سننقل بعضها لاحقاً"[407].

ثانياً- البيان الانتخابي لمرشح الاتحاد الوطني في صافيتا دانيال نعمة، أيلول 1954.

"أيها الناخبون والناخبات في منطقة صافيتا!

أتقدم إليكم ببرنامجي، الذي أخوض معركة الانتخابات على أساسه، وهو في الواقع البرنامج الذي وقفت كل قواي وحياتي على النضال في سبيل تحقيقه.

وسأكون في البرلمان أميناً له أمانة تامة، كما كنت دائماً في جميع ميادين

406- كان المحامي أحمد محفِّل أبرز مرشحي الاتحاد الوطني في حلب، وكان مرشح طرطوس عبد الكريم طيارة، الذي أشرنا في فصل سابق إلى نضاله.

407- راجع مقاله المنشور في العدد 598 من "نضال الشعب" بتاريخ 11 كانون الأول 2000.

النضال الشعبي. وعلى هذا الأساس، أطلب ثقتكم في الانتخابات، وهذا برنامجي:

1) توطيد الانتصار الوطني الذي تحقق بجلاء الجيوش الأجنبية عن سورية، واستكمال أسباب الاستقلال الوطني، ورفض الارتباط بأي معاهدة أو حلف استعماري حربي كحلف تركيا- باكستان و"المساعدة" العسكرية الأمريكية والمشاريع "الاتحادية" المزيفة وسائر المشاريع الاستعمارية الأمريكية والإنكليزية.

2) توطيد أسس النظام الجمهوري الديمقراطي البرلماني في سورية، وإطلاق الحريات الديمقراطية: حرية الصحافة والرأي والكلام والاجتماع، وحرية تأليف الجمعيات والأحزاب السياسية، والحريات النقابية، واحترام العقائد الدينية، وتمكين جميع فئات الشعب من ممارسة هذه الحريات، وإلغاء جميع القوانين الرجعية التي تقيدها أو تحد منها، وتحريم الاعتقال الكيفي والتعذيب الجسدي.

3) توثيق عرى التضامن مع الشعوب العربية الشقيقة في النضال العام المشترك ضد الاستعمار ومعاهداته وبرامجه العسكرية الحربية، وفي سبيل الجلاء والاستقلال والسلم.

4) السعي لحل قضية فلسطين، بمعزل عن تدخل المستعمرين الأمريكيين والإنكليز، على أساس أن حل هذه القضية مرتبط ارتباطاً تاماً بالقضاء على سيطرة الاستعمار في الشرق العربي، وعلى حكم عملائه، وعلى الصهيونية الرجعية صنيعة الاستعمار الأمريكي.

5) انتهاج سياسة خارجية وطنية سلمية صريحة في الميدان الدولي، قوامها التضامن مع جميع الشعوب المناضلة في سبيل تحررها الوطني، والمساهمة في العمل لتحقيق الانفراج الدولي وتوطيد السلام العالمي وتحريم الأسلحة الذرية والهيدروجينية.

6) في سبيل تعزيز مكانة سورية الدولية وصيانتها من أخطار الحروب، وبغية تطوير اقتصادنا الوطني، العمل على توطيد أواصر الصداقة وتوثيق العلاقات الاقتصادية والثقافية مع الاتحاد السوفييتي، بلد السلم والاشتراكية، وصديق العرب، ومع الصين الشعبية وسائر بلدان معسكر الديمقراطية.

7) في سبيل تحقيق الاستقرار الذي تنشده سورية، وتلبية مطالب الشعب العاجلة الملحة، إقامة حكومة وطنية ديمقراطية تقاوم كل تدخل استعماري في شؤون بلادنا، وترفض كل مشروع استعماري حربي، وتطلق الحريات الديمقراطية، وتعمل على رفع مستوى الشعب المعاشي والثقافي.

8) في سبيل رفع مستوى القرية السورية، وإنقاذ جماهير الفلاحين من البؤس والتأخر، القيام بإصلاح زراعي يحرر الريف السوري من الإقطاعية، ويؤمن الأرض والمياه لكل فلاح في سورية.

9) إلى حين تحقيق الإصلاح الزراعي الشامل المنشود، المباشرة فوراً باتخاذ تدابير للتخفيف عن عبء الأوضاع القاسية التي تعانيها جماهير الفلاحين الفقراء، وذلك بتحسين شروط المحاصصة، وإلغاء الأتاوات الإقطاعية الظالمة، ومنع طرد الفلاحين من الأرض، وتحسين شروط العمل للعمال الزراعيين برفع أجورهم،

ومنحهم الحقوق الممنوحة لعمال الصناعة في قانون العمل.

10) تحسين حالة الفلاحين الصغار والمتوسطين بتخفيف الضرائب عنهم، وتأمين البذار لهم بأسعار رخيصة، ومد جماهير الفلاحين بقروض طويلة الأجل بدون فائدة أو بفائدة ضئيلة، وتقديم المساعدات الفنية المجانية لهم، وتوسيع مشاريع الري، وشق الطرقات لجميع القرى، وتأمين وصول مياه الشرب والكهرباء إليها، وتأمين الطبابة والتداوي والمستشفيات لجميع سكان الريف السوري.

11) تحسين أوضاع الطبقة العاملة بزيادة الأجور وتطبيق ثماني ساعات عمل في اليوم، وتأمين تعويضات التسريح والإجازات السنوية والمرضية، وتحقيق ضمان اجتماعي تموله الحكومة والشركات الأجنبية وكبار أرباب العمل، لتأمين الصناعيين والعمال الزراعيين والمستخدمين في حالات العجز والمرض والشيخوخة وطوارئ العمل والبطالة، مع ضمان صحي شامل يؤمن التطبيب والدواء والمستشفى لجميع هذه الفئات.

12) تأمين الحقوق والحريات النقابية للعمال، وفي رأسها حرية تأليف النقابات بدون قيد أو شرط، وحرية ممارسة نشاطها وعقد اجتماعاتها وإجراء انتخاباتها دون أي تدخل من السلطات، واحترام حق الإضراب والتظاهر، وحماية المناضلين النقابيين من التسريح الانتقامي وأي تدبير ثأري.

13) تحرير مرافقنا الاقتصادية الوطنية من ربقة الرأسمال الاستعماري، وذلك بتأميم الشركات الاستثمارية الأجنبية، ومنع تغلغل رساميل استعمارية جديدة في اقتصادنا الوطني، وإنشاء بنك مركزي، وإصدار عملة وطنية لتحرير النقد السوري من التبعية الأجنبية.

14) انتهاج سياسة اقتصادية وطنية قوامها العمل على ازدهار الصناعة الوطنية والإنتاج الزراعي، وذلك بمنع طغيان بضائع الدول الاستعمارية على أسواقنا، وتوفير المواد الأولية والتجهيزات الآلية والفنية اللازمة للصناعة الوطنية، ورفع القدرة الشرائية عند جماهير الشعب، وتأمين الأسواق للإنتاج الوطني الفائض عن حاجات الاستهلاك الداخلي، بتنشيط العلاقات والمبادلات التجارية والاقتصادية القائمة على التكافؤ والمنفعة المتبادلة مع جميع البلدان، بصرف النظر عن أنظمتها الداخلية السياسية والاجتماعية.

15) إلغاء القطيعة بين سورية ولبنان، وإقامة العلاقات الاقتصادية بين البلدين الشقيقين على أساس وحدة اقتصادية قوامها حماية الإنتاج الوطني الصناعي والزراعي في البلدين، وتنظيم الاستيراد والتصدير وفقاً لمصلحة اقتصادهما الوطني ومصلحة الجماهير الشعبية الواسعة.

16) تخفيف الضرائب عن جميع الفئات الشعبية، وإعفاء العمال وصغار المنتجين من ضريبة الدخل، واتخاذ الوسائل لتحسين حالة الحرفيين وصغار التجار وصغار المنتجين، وحمايتهم من أخطار الإفلاس والخراب.

17) العناية بالجيش السوري، وتعزيز الروح الوطنية في صفوفه ضد الاستعمار وأحلافه ومؤامراته على سورية، مع العمل لتحسين حالة الجنود

والضباط المادية، وإعادة الحصانة إليهم.

18) تعميم التعليم الابتدائي المجاني الإلزامي، وتوسيع شبكة التعليم الثانوي، وإزالة العقبات المصطنعة المقامة في طريقه، وتأمين ديمقراطية التعليم الجامعي والثانوي، والعناية بحالة الطلاب الاقتصادية، وتأمين مساعدة المعوزين منهم على إكمال تحصيلهم.

19) حماية الإنتاج الفكري، وضمان حريته، والعمل على إحياء التراث الفكري العربي، وتوسيع التبادل الثقافي، وتشجيع النشر الأدبي والعلمي والفني، والعناية برجال الفكر مادياً ومعنوياً، وتأمين الإمكانات اللازمة لتطورهم، ومكافحة "ثقافة" التفسخ والانحلال الاستعمارية، ومنع الأفلام والمجلات الخلاعية.

20) منح المرأة السورية حقوقها السياسية كاملةً، وتأمين ممارستها لهذه الحقوق، والعمل على رفع مستواها الثقافي والمادي، وتأمين أجرة متساوية للعمل المتساوي، وحماية الأم والطفل بإيجاد الوسائل اللازمة لذلك، من مستشفيات ودور توليد ورياض أطفال وطبابة مجانية.

21) العناية بالشباب صحياً وثقافياً، وتشجيع الحركة الرياضية، وتخصيص مساعدات مالية وافية في سبيل نشر الروح الرياضية في الشباب، والعمل للإكثار من الأندية الرياضية والثقافية، وإنشاء معاهد مسائية مجانية لمكافحة الأمية بين الشباب في القرى والمدن، وإيجاد مكتبات وطنية عامة في المدن وفي المراكز الريفية.

22) العناية بموظفي الدولة، ولاسيما الصغار منهم، بما في ذلك المعلمون والأساتذة، وتحسين أحوالهم اقتصادياً ومعنوياً، وخلق الإمكانات أمامهم لرفع مستواهم المسلكي والفكري وإعادة الحصانة إليهم.

23) توجيه الجهود الكبرى للعناية بحياة جماهير الشعب في المدن والقرى، فيما يتصل بتأمين المساكن الصالحة بأجور رخيصة، وتخفيض أسعار مواد الغذاء والكساء الرئيسية، وتحسين الشروط العمرانية والصحية، كتأمين الكهرباء والمياه النظيفة للشرب بكميات كافية وأسعار رخيصة، وتعبيد الطرقات، وتوفير كل ما يؤمن حداً أدنى من الشروط اللازمة لحياة إنسانية معقولة.

مطالب المنطقة

1) العمل لبناء مستشفى حكومي في بلدة صافيتا مركز القضاء، ولفتح المستوصفات وتجهيزها في مراكز النواحي (الدريكيش والصفصافة والمشتى و"كفرون سعادة").

2) العمل لتسهيل العلم على أبناء صافيتا، وجعل المتوسطة الرسمية ثانوية.

3) الاهتمام بمراكز الاصطياف في القضاء، ومن أجل ذلك العمل لتعبيد طريق صافيتا - الدريكيش، وطريق صافيتا-المشتى، وكذلك العمل لإصلاح وتعبيد طرقات سهل صافيتا.

4) العمل لتحسين أحوال مزارعي الدخان، والحد من نهب الريجي المنصب عليهم، وذلك في النضال لرفع الأسعار ولاشتراك الفلاحين بالتخمين، وبإعطاء

الرخص لمن يريد.

5) العمل لمساعدة وتشجيع منتجي الفواكه في قضاء صافيتا، وتدبير أسواق لتصريف منتجاتهم بأسعار مناسبة".

ثالثاً- حملة الدعم الانتخابي المعنوي لخالد بكداش من شيوعيي صافيتا وأنصارهم

لم تقتصر الحملة الانتخابية لدانيال نعمة في منطقة صافيتا على الدعاية لانتخاب نعمة، بل تعدتها إلى مناشدة ناخبي دمشق بانتخاب خالد بكداش، وهذه الظاهرة كانت عامة في جميع المناطق، التي خاض الشيوعيون الانتخابات فيها. والتأكيد على الأمين العام للحزب الشيوعي رمى إلى المحافظة على تركيز القيادة في يد خالد بكداش، ومنع الانقسام في الحزب الشيوعي من جهة، وخلق ضجة حول بكداش لإيصاله إلى المجلس النيابي، ونقدم نموذجاً على ذلك من العريضة المرفوعة أواخر تموز 1954 من صافيتا، وفيما يلي نصها[408]:

"إلى إخواننا العمال والفلاحين وجميع الوطنيين في مدينة دمشق العربية المناضلة الباسلة!

نحن مندوبي المناطق الريفية، قضاء صافيتا، المجتمعين في بلدة صافيتا، والممثلين لرغبات الألوف من أبناء قضائنا الفلاحين والطلاب والمثقفين والحرفيين وصغار التجار وجميع الوطنيين، نعلن أننا بعد دراستنا الوضع الانتخابي على النطاق السوري ونطاق دائرتنا الانتخابية وصلنا إلى النتائج التالية:

إن المستعمرين، وبصورة خاصة الأمريكيون، يتدخلون في شؤوننا الانتخابية طامعين بإخراج مجلس مطواع، قادر (حسب زعمهم) على تحقيق مطامع هؤلاء المستعمرين الرامية إلى احتلال بلادنا وجعلها إحدى مستعمراتهم الحربية. إن خير طريق للقضاء على هذه الأخطار، ولإفساح المجال أمام شعبنا، كي يتمكن من استكمال أسباب سيادته الوطنية ورفع مستوى الحياة في وطننا، ومن تعزيز التضامن العربي، والحفاظ على السلم في العالم، هو النزول إلى المعركة الانتخابية بقصد تحويلها إلى معركة وطنية مجيدة، تُساهم في توطيد الجبهة الوطنية، وتخيّب آمال المستعمرين وأهدافهم وأعوانهم، وتحقق الخير لوطننا ولأوطان العرب وجميع الإنسانية، وترفع مرشحي الاتحاد الوطني من أي حزب كانوا، ومن أي جهة كانوا.

إننا واثقون من أن دمشق ستكون دائماً، كما كانت باستمرار، أمنع حصن لسورية والعرب، وأمضى سلاح في المعارك الشعبية والوطنية على أساس الجبهة الوطنية ضد جميع المستعمرين وعملائهم وخدمهم الخونة المارقين".

رابعاً- أصداء النشاط الانتخابي لدانيال نعمة في جريدة "الصرخة"

---

[408]- نشرت جريدة "الطليعة" الأسبوعية نص العريضة في عددها ذي الرقم 30 بتاريخ 2 آب 1954، وأوردها الفيصل في ذكرياته، ص 209-210.

تتراوح بين الواقع الطائفي والعشائري[409]، الذي حاول مراسل الجريدة القفز فوقه، والطموح الرومانطيكي لثوريين حالمين بوطن يسير على إيقاع النهوض والتقدم[410]

خاض دانيال نعمة الوجه الشيوعي البارز في محافظة اللاذقية معركة انتخابات المجلس النيابي في صيف 1954 مرشحاً عن قضاء صافيتا، في أجواء نهوض شعبي ووطني عارم عمّ معظم المناطق السورية بعد رحيل حكم الدكتاتوريات العسكرية، وفي ظلّ مناخ ديمقراطي وحكومة حيادية تركت الحرية للمواطنين، وكانت انتخابات خريف 1954 من أكثر الانتخابات النيابية حرية، التي لم تشهد لها البلاد مثيلاً. وفي ظلّ تلك الأجواء نشط نعمة ورفاقه، وهذا ما عكسته جريدة "الصرخة" اللبنانية الشيوعية، التي كانت تغطي نشاطات الحزب الشيوعي العلنية، وتوزع باليد على نطاق واسع في كثير من المناطق السورية، التي يوجد فيها الحزب الشيوعي، ولم يكن للحزب الشيوعي آنذاك جريدة علنية مرخص بها، أما جريدة "النور" فقد صدرت بعد هذه الانتخابات، وكانت من نتائجها.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن مراسل "الصرخة" في صافيتا كان متفائلاً بما سيحققه دانيال نعمة من نجاح في نيل الأصوات والوصول

---

[409]- "الصرخة" جريدة لبنانية، كان يحررها الحزب الشيوعي في سورية ولبنان، وقسم كبير من أخبارها كان مخصصاً لما يجري في سورية، وما يبعثه مراسلو "الصرخة" في المدن ومراكز المناطق، وكانت "الصرخة" توزّع سراً وباليد في سائر المناطق، التي ينشط فيها الحزب الشيوعي، وعندما صدرت جريدة "النور" في دمشق، توقف توزيع "الصرخة"، وقد لعبت "الصرخة" دوراً هاماً في توجيه الشيوعيين في النصف الأول من خمسينيات القرن العشرين.

[410]- كان الاعتقاد السائد في منتصف خمسينيات القرن العشرين أن حركة التحرر العربية سائرة قدماً نحو تحقيق أهدافها، وأن عجلة التاريخ تسير بِخُطا متسارعة نحو الأعلى. ويروى أن المعلم الشيوعي عبد الكريم أبا زيد من درعا كان يردد على مسامع صديقه رجا المحاميد: أن عجلة التاريخ لا تسير إلى الوراء. ودارت الأيام دورتها... وجاءت المباحث السراجية أيام الجمهورية العربية المتحدة، وألغت مؤسسات المجتمع المدني، ووجهت سهامها إلى الحزب الشيوعي، وأودعت المئات من أعضائه وأصدقائه بالسجون، وكان "نصيب" عبد الكريم أبا زيد ورجا المحاميد سجن المزة. وذات يوم من أيام السجن، نظر رجا إلى عبد الكريم ناقداً ومعاتباً: "كنت تقول أن عجلة التاريخ لا تسير إلى الوراء، فما رأيك اليوم، ونحن نقبع في سجن المزة دون محاكمة أو سبب قانوني؟"، فأجابه عبد الكريم، وهو صاحب القلم الهزلي والناقد المعروف: "إن عجلة التاريخ في هذه الأيام لا تسير فقط إلى الوراء، بل تكرّ مسرعة في رجوعها إلى الوراء...".

إلى الندوة النيابية، فهل كان هذا التفاؤل بالنجاح ثمرة خيال وطني ثوري خصب اعتمل في صدر مراسل "الصرخة"، أم أن الواقع كان كما عكسه مراسل "الصرخة" في رسائله؟ أ لم يكن مراسل "الصرخة" في صافيتا أو اللاذقية على دراية بواقع العصبيات الطائفية والعشائرية، ظاناً أن "العصبية الطبقية" ستتغلب على واقع المجتمع المتخلف بتحالفات عشائره وحساسيات طوائفه وهيمنة قوى الإقطاع ومنعكسات مجتمع ما قبل الرأسمالية؟ في تقديرنا أن الأمر كان يجري في إطار الدعاية الانتخابية، وشحذ همم مؤيدي مرشح الاتحاد الوطني دانيال نعمة، ودفعهم للعمل بحماسة، طارحين الخوف المتراكم من عهود الاستبداد السابق جانباً، يضاف إلى ذلك الحماسة الوطنية المتوقدة والروح الرومانسية الثورية النقية لمراسل "الصرخة"، الأستاذ فايز بشور المتفائل دائماً وفي أحلك الأوقات.

يشير دانيال في مذكراته إلى "الجهود الكبيرة التي بذلها الرفيق فايز بشور في معركتنا الانتخابية" لعام 1954، "وكان، وهو المراسل الأساسي لجريدة "الصرخة"، وكثيراً ما كان الممثل[411] الممتلئ حماسة في اللقاءات والمهرجانات" الانتخابية[412].

وننشر فيما يلي بعض ما نشرته "الصرخة"، كي يطَّلع القارئ على أجواء تلك المرحلة:

* **اللاذقية- لمراسل "الصرخة" الخاص:** بدأت طلائع المعركة الانتخابية في صافيتا بالزيارات التي يقوم بها المرشحون التقليديون من جهة، وبنشاط بارز في الأوساط الجماهيرية الشعبية من جهة أخرى. إن الوعي الوطني والشعور الديمقراطي يرتفعان باستمرار في هذه الأوساط ضد ما تحيكه الرجعية الداخلية عميلة الاستعمار من مؤامرات

---

[411]- لدانيال في حال غيابه.

[412]- وقد التقى كاتب هذه الأسطر بفايز بشور أكثر من مرة، وهو ما يزال يتمتع بصحة جيدة (حتى تأليف هذا الكتاب ربيع 2005)، فوجد فيه الوطني الصادق البعيد عن الطائفية والعائلية، والإنسان المخلص لمبادئه، والثوري الرومنسي رغم تقدم السن، والماركسي المبدئي، الذي لم تهزه الأعاصير السياسية التي اجتاحت العالم، ولا الزلازل التي ضربت الاتحاد السوفييتي ومن حوله. وفي فصل سابق، أشرنا إلى دور فايز بشور في نشر الأفكار الاشتراكية في طرطوس ومحيطها، وهو لم يسر مع أفراد عائلته الغنية والكثيرة العدد في صافيتا، وكثير منهم من كبار الملاك والمرشحين في الانتخابات. إن فايز بشور مثال لأولئك الثوريين، الذين تجاوزوا واقعهم المتخلف، وتطلعوا نحو المستقبل المشرق، الذي سيعمّ البشر جميعاً.

على الكيان الوطني.

إن جماهير الشعب، وبنوع خاص الفلاحون، سيخوضون هذه المعركة على أساس مطالب وطنية ملموسة وشعارات سياسية واضحة.

لقد بدأت جماهير شعبنا تثق بقدرتها على فرض رأيها وعلى جعل المعركة الانتخابية معركة وطنية ضد الاستعمار ومشاريعه الحربية من أجل السلم والاستقلال الوطني والديمقراطية وضد الرجعية.

ومع اقتراب موعد الانتخابات النيابية، ما يزال صدى تصريحات الأستاذ خالد بكداش حول الانتخابات حديث الشخصيات والأوساط الوطنية كافة، التي تبدي تأييدها المطلق لهذه التصريحات.

وقد صرح الشاعر الأستاذ حامد حسن أنه يؤيد الانتخابات على أساس النسبية تأييداً مطلقاً، لأنها كفيلة بتأمين تمثيل مجموعة الأمة، وبنوع خاص يرى جعل سورية دائرة انتخابية واحدة أفضل ما وصل إليه التفكير في الديمقراطية، كما أنه يؤيد سرية الاقتراع وحق الترشيح والتصويت للعسكريين. وأعلن الصيدلي المعروف الأستاذ وليم بشور تأييده المطلق لتصريحات الأستاذ خالد بكداش، وأظهر إعجابه الكبير بها.

تلقينا عريضة من قريتي بشرايل وحكر كابر موقعة من 34 شخصاً يطالبون بتأييد حرية الانتخابات ومنع الإرهاب، واعتماد طريقة التمثيل النسبي، ومنح الضباط والجنود حق الترشيح والتصويت. كما تلقينا عريضة من عيون الوادي عليها 71 توقيعاً، ومن المشتى 63 توقيعاً بالمعنى نفسه[413].

* **قال مراسلنا في اللاذقية:** الاستعمار يطلب من قوى الإقطاع والرجعية والوصولية تسوية نزاعاتها الداخلية، لكي تقف صفاً واحداً في وجه النهوض الوطني الشعبي العظيم. قضية اتحاد القوى الوطنية الديمقراطية ومسؤولية قيادة البعث العربي الاشتراكي[414].

ظُهرَ الاثنين زار مرشح الجبهة الوطنية، وبرفقته الأستاذ فايز بشور، الأستاذ عبد اللطيف اليونس في داره. وقد استغرقت هذه الزيارة ساعتين تقريباً، شرح فيها دانيال سياسته الانتخابية، مبيناً أن مصلحة سورية العليا تقتضي تقوية أواصر الجبهة الوطنية وإلحاق الهزيمة

---

[413]- "الصرخة" 1954/07/11.

[414]- هكذا ورد هذان العنوانان، وتلاهما النص في الصفحة الخامسة من "الصرخة".

بجميع مرشحي الاستعمار والرجعية السوداء عن طريق قائمة وطنية موحدة، وقد كـان جو الحديث ودياً جداً[415].

وتمضي "الصرخة" معرّفة بمرشحي الاتحاد الوطني في محافظة اللاذقية، وهم: عبد الكريم طيارة في طرطوس، خطته ستحظى بتأييد جماهير العمال والفلاحين وصغار التجار وكل المثقفين التقدميين والحرفيين وجميع أرباب الصناعة الوطنية. محمد حكيم مرشح بانياس، خاض المعركة أيام الشيشكلي. كمال نور الدين في الحفة، خاض المعركة أيام الشيشكلي. وأُشِيعَ في اللاذقية بأن الطبقة العاملة قد اختارت محمد الداش مرشحاً لها[416]. إن دخول الطبقة العاملة إلى معركة الانتخابات في مدينة اللاذقية، حيث يسود النهب الاستعماري والنهب الفظيع، سيكون حدثاً هاماً جداً، خصوصاً أن الطبقة العاملة عدا النضال النقابي، الذي تقوم به ضد المستثمرين والشركات الأجنبية، سترفع عالياً علم النضال من أجل استكمال السيادة الوطنية، وعلم النضال من أجل الحريات بالتضامن مع جميع العناصر الوطنية الطيبة[417].

* **صافيتا- لمراسلنا:** إبان الأزمة الوزارية التي أدت إلى استقالة وزارة العسلي، رفع عدد كبير من المثقفين والمثقفات في قرى المشتى والكفرون وعيون الوادي كتاباً مفتوحاً إلى كل من رئيس مجلس النواب وإلى النائب عبد اللطيف اليونس، يلحون فيه على ضرورة الاتحاد الوطني وضرورة العمل ضد مختلف مشاريع المستعمرين ومساعداتهم وأحلافهم ومن أجل الحريات الديمقراطية. وقد ردّ الأستاذ اليونس في 1954/06/30 على الكتاب المفتوح بالرسالة التالية: "... وسوف نتعاون جميعاً في سبيل هذه الحقائق التي يتوقف عليها مصير السلم ومصير الإنسانية جمعاء، وسأجتهد لنصرة هذه المبادئ ومحاربة الاستعمار". وعلّقت "الصرخة" على جواب اليونس قائلة: "المهم أن

---

[415]- انظر كيف كان ينظر عبد اللطيف اليونس إلى المعركة الانتخابية في فصل سابق.

[416]- محمد الداش خياط وناشط في الحركة النقابية في اللاذقية. وحديث "الصرخة" عن دخول الطبقة العاملة معركة الانتخابات في اللاذقية وهم من الأوهام في ظروف التوازنات الاجتماعية المستندة إلى المذهبية والطائفية والعائلية وسواها من مفرزات مجتمع ما قبل الرأسمالية، فقد كان الحزب الشيوعي في مدينة اللاذقية ضعيفاً، عدد أعضائه ضئيل، ولا يضمّ في صفوفه وجوهاً بارزة.

[417]- "الصرخة" 1954/07/18.

يجيء عمل الأستاذ يونس الانتخابي صورة صادقة لجوابه على كتاب المثقفين، فلا يترك مجالاً للرجعيين ولعملاء الاستعمار كي يتستروا وراءه للوصول إلى الندوة النيابية"[418].

*** صافيتا- لمراسلنا:** تأخذ المعركة الانتخابية في صافيتا شكل نضال حاد بين قوى الاستعمار والإقطاعية الرجعية السوداء من جهة، وبين قوى التحرر من جهة ثانية... المناضل المعروف المحامي دانيال نعمة أحد إخوان خالد بكداش الأمناء، وتلميذه في النضال لتوحيد جميع القوى الوطنية في محاربة المستعمرين ومشاريعهم والنضال من أجل سعادة الشعب وخيره وهنائه.

إن جميع الفلاحين على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم وانتماءاتهم العشائرية من خياطين وحدادين يعتبرون دانيال نعمة أحد إخوانهم، المدافع باستمرار عن مصالحهم ومطالبهم الحيوية[419].

عقد في صافيتا في 21 تموز مؤتمر للمناضلين الوطنيين الديمقراطيين في قضاء صافيتا، وقد تجاوز عدد المندوبين الخمسة والستين مندوباً يمثلون نواحي الدريكيش وحزور والصفصافة وناحية المركز والمركز، وقد ألقي في هذا المؤتمر تقريران: تقرير سياسي ألقاه باسمِ القوى الوطنية الديمقراطية المناضل فايز بشور، وتقرير تنظيمي ألقاهَ مرشح الاتحاد الوطني في صافيتا دانيال نعمة. وقد تليت في المؤتمر تحيّات من طلاب صافيتا الديمقراطيين، ورسالة نساء صافيتا المدافعات عن الأمومة والطفولة، والمثقفين الوطنيين في صافيتا، وقصيدة من الشاعر رفيق خوري من المشتى مهداة إلى فلاحي بشرايل الأشاوس، والثانية ألقاها الشاعر الشيخ محمود علي حلمي من قرية المشرفة. واتخذ المؤتمر مقررات، منها قرار بإرسال نداء إلى دمشق المجاهدة الباسلة لرفع خالد بكداش إلى الندوة النيابية[420].

*** رسالة "الجبل العلوي"[421]:** فلاحو قضاء صافيتا وتلكلخ يطالبون بانتخابات حرة فعلاً، وبإلغاء ضريبة العشر. أعمال بعض البعثيين

---

[418]- المصدر نفسه.

[419]- هذا التفاؤل، بتغلّب الشعور الطبقي الفلاحي على العصبية العشائرية، كان ضرباً من ضروب الخيال الثوري، الذي أشرنا إليه.

[420]- "الصرخة" في 1954/07/25.

[421]- هكذا ورد في جريدة "الصرخة" بتاريخ 1954/08/01.

لعرقلة الاتحاد الوطني، مثال قرية السرسكية قضاء اللاذقية، فيما يتعلق بالريجي. فلاحو عدد من قرى صافيتا: حصن سليمان، البارة، الجرجور، الحويرة، بتعلوس، بيت سلامة، الجرينات، طالبوا في عريضة إلى رئيس الجمهورية: إلغاء العشر، تخفيف ظلم الريجي المستبد، فتح المدارس، شق الطرقات، تأمين مستوصف سيّار يدور على القرى لمداواة الفلاحين الفقراء مجاناً، وضع حد لمؤامرات الإقطاعيين المجرمة، تأمين سرية التصويت، ومنع التزوير والضغط. وهيب الغانم يركز دعايته على أساس عشائري وطائفي، وليس على أساس المفاهيم الاشتراكية[422].

*** صافيتا- لمراسلنا:** عُقِدَ في أول آب مهرجان انتخابي في قرية عين دابش تأييداً لدانيال نعمة، اشتركت فيه وفود من القرى المجاورة: السيسنية، وعين الحمرا، وبدادا، وزوق التركمان، حضره أكثر من 700 شخص.

بلغنا أن خلافاً دبّ بين بعض الفلاحين من قرية الريحانية، ويظهر أن بعض الإقطاعيين يغذون النعرات الطائفية بينهم. إننا ندعو هؤلاء المواطنين الطيبين إلى نبذ الأحقاد والخلافات العشائرية والطائفية على الأخص، وليتحدوا في سبيل حقوقهم، فذلك أنفع وأجدى لهم[423].

*** صافيتا- لمراسل "الصرخة":** في الوقت الذي يواجه فيه مختلف مرشحي الإقطاعية الرجعية صعوبات شتى وعراقيل مستعصية الحل، في أثناء سعيهم لتشكيل القوائم، تنطلق القوى الوطنية الحزبية منها وغير الحزبية للعمل الجماهيري الواسع، خصوصاً في القرى، شارحة برنامج دانيال نعمة، مرشح الاتحاد الوطني، وداعية الفلاحين للسعي المتواصل في سبيل تجنيد كل القوى الوطنية الحية الشريفة ولرفع مرشح الاتحاد الوطني إلى الندوة النيابية.

وقد كانت الأيام الأخيرة حافلة بالنشاط الانتخابي، فعدا المهرجان الانتخابي الرائع، الذي أقيم في قرية رأس الخشوفة، قامت وفود

---

[422]- كلام "الصرخة" فيه قدر من التجني على وهيب الغانم، ويحوي شيئاً من الحقيقة في دخول الغانم على خط الخلاف بين الكلازرية والحيدرية في ريف اللاذقية، ولا شك أن الغانم القومي العربي سعى للاستفادة من "علويته"، لكنه كان علمانياً وقومياً لا يشق له غبار. انظر ما كتبناه عن الغانم في كتابنا "المثقفون في السياسة والمجتمع"، مصدر سابق.

[423]- "الصرخة" في 8 آب 1954.

الفلاحين في سهل صافيتا بزيارة عدد كبير من القرى، فلاقت تأييداً حاراً من جماهير الفلاحين، خصوصاً من الفلاحين الذين يطمحون إلى التحرر من عبودية الإقطاعية المجرمة، عدوة الشعب وخادمة الاستعمار.

وكذلك توجهت وفود فلاحية من قرى عين دابش وعين الجرن وعين الحمرا، ولاقت تأييداً متعاظماً وإصراراً كبيراً من الفلاحين على ضرورة إلحاق الهزيمة بمرشحي الاستعمار والإقطاعية وإيصال مرشح الجبهة الوطنية إلى الندوة النيابية.

وفي مناطق المشتى والكفرون وبشرايل ازداد عدد الوفود التي تؤم القرى، وتتصل بالعديد من الفلاحين، شارحة لهم الوضع الراهن، ومبينة ضرورة الاتحاد الوطني لإحباط مؤامرات المستعمرين ومشاريعهم وللقضاء على طغيان الإقطاعية، داعية إياهم إلى العمل من أجل إنجاح المرشحين الوطنيين الديمقراطيين، وفي طليعتهم دانيال نعمة.

وعُقِدَ يوم الأحد 25 تموز في قرية رأس الخشوفة قضاء صافيتا اجتماع انتخابي ضم أكثر من مئة شخص، يمثلون مختلف القرى المجاورة تأييداً لدانيال نعمة. وقد ألقى أحد شباب القرية المثقفين كلمة شرح فيها مظالم الإقطاعيين والمستعمرين، وكيف كانوا يضطهدون الفلاحين، ويجبرونهم على التصويت لهم، ثم قال: أما الآن فقد تغير الوضع، وأعلن أن الفلاحين سيؤيدون مرشحهم في صافيتا دانيال نعمة، الذي نذر نفسه للدفاع عن حقوق الشعب والوقوف في وجه الدكتاتورية والرجعية والاستعمار، وعانى في سبيل مبادئه الوطنية الديمقراطية ظلام السجون وسياط الشرطة العسكرية والأشغال الشاقة فوق رمال تدمر المحرقة. ثم تكلم أحد شباب صافيتا المثقفين، فتحدث عن ضرورة الاتحاد وتأييد دانيال نعمة مرشح الجبهة الوطنية. وألقى المناضل الأستاذ فائز بشور كلمة اعتذر فيها عن تغيب المرشح دانيال نعمة، وتحدث بعد ذلك عن أوضاع الوطن السوري ومؤامرات المستعمرين لجره إلى الأحلاف والمعاهدات الاستعمارية العسكرية واستثمار الشعب بجميع فئاته وتقديمهم طعاماً للمدافع، وتجنيد شبابنا لمحاربة صديقنا الوفي الاتحاد السوفييتي، ثم تحدث عن الجبهة الوطنية، التي دعا إليها المناضل الوطني والقائد الشعبي الكبير خالد بكداش وعن ضرورتها

لحماية الوطن السوري وكيانه.
وألقى بعده فلاحان، هما: محمود علي حسن، ومحمد شاهين، زجليتين حماسيتين، دَعَيا فيها إلى الاتحاد في الجبهة الوطنية، وتأييد مرشح الشعب دانيال نعمة المدافع عن مصالح الفلاحين.
وكانت الكلمات تقاطع بالهتاف والتصفيق كلما ذكرت الجبهة الوطنية، واسم خالد بكداش حامل لواء النضال في سبيلها، واسم مرشح الجبهة في صافيتا دانيال نعمة.
ولقد تجلى في هذا الاجتماع تضامن الفلاحين واتحادهم، وبرزت حماستهم لتأييد مرشح الجبهة الوطنية في صافيتا دانيال نعمة، الذي حيّوه طويلاً، وتعاهدوا على تأييده والعمل المتواصل بين جميع أبناء الشعب في سبيل إيصاله إلى الندوة النيابية، ممثلاً مخلصاً جريئاً واعياً لشعبه ومصالح وطنه.
كما قرر المجتمعون إرسال تحية على صفحات جريدة «الصرخة» إلى عمال دمشق واللاذقية المناضلين في سبيل حقوقهم، ودعوة مواطنيهم في دمشق إلى تأييد خالد بكداش وجميع مرشحي الاتحاد الوطني في سورية.
قام وفد من شباب صافيتا بزيارة قرية (بيت عمران زينة)، وتحدثوا إلى الفلاحين عن مرشح الاتحاد الوطني دانيال نعمة. وقد أبدى الفلاحون تأييدهم له، وقالوا: لقد كنا نتحدث فيما بيننا وقبل وصولكم عن ضرورة التأييد لمرشحنا، مرشح العمال والفلاحين دانيال نعمة، وأننا سنؤيده بكل قوتنا. وقد ودع الشباب إخوانهم الفلاحين، مغتبطين بما لاقوه من ترحيب ووعي ونهوض في التفكير وتضامن في سبيل مصلحة العمال والفلاحين والوطن.
وعُقِدَ يوم الاثنين 29 تموز، اجتماع في منزل دانيال نعمة، حضره مرشح صافيتا، ومرشح تلكلخ وحوالي مئة شاب من أنصارهما في المشتى والكفرون وكفرون بدره وبشرايل وعيون الوادي.
وقد جرى حديث عن الوضع السياسي، الذي تجري فيه المعركة الانتخابية، وهتف المجتمعون كثيراً لمرشح الشعب السوري خالد بكداش وللجبهة الوطنية المعادية للاستعمار والرجعية وضد المستعمرين وبحياة المُرشَحَين دانيال نعمة وحنا دياب[424].

---

[424]- "الصرخة" في 1 آب 1954.

* **صافيتا- لمراسل "الصرخة":** منذ صباح يوم الأحد 8 آب الجاري أخذت وفود الفلاحين تتقاطر من قرى قضاءَيْ صافيتا وتلكلخ إلى المشتى لحضور المهرجان الانتخابي الكبير، الذي أقيم تأييداً لمرشحَيْ الاتحاد الوطني دانيال نعمة في صافيتا وحنا دياب في تلكلخ.

وقد غصت دار دانيال نعمة في المشتى بزهاء 2500 شخص من أهالي وفلاحي قرى صافيتا التالية: بشرايل، حكر كابر، الكفارين، المهيري، الحفة، الحويزية، الجنين، بصيرة، عيون الوادي، راس الخشوفة، عين الجرن، عين دابش، بدادا، صافيتا وغيرها. وكانت هذه الوفود تصل إلى مكان الاجتماع بشكل تظاهرات تحمل لافتات كتبت عليها شعارات وطنية منها: عاشت الجبهة الوطنية ضد الاستعمار والرجعية، عاش مرشح الاتحاد الوطني في دمشق خالد بكداش، عاش مرشحا الاتحاد الوطني في صافيتا وتلكلخ دانيال نعمة وحنا دياب.

افتتح المهرجان الطالب الجامعي مخايل أسعد بكلمة رحب فيها بالحضور، ثم تكلم المحامي سميح عطية، الذي دعا إلى تقوية الاتحاد الوطني وتأييد مرشحيه، ثم ألقى قصيدة بعنوان (قتيل الظلم) وصف فيها حياة الكادح بقوله:

إنْ كانَ كوخُكَ مِنْ غذائِكَ مُقْفِراً   فنُفوسُهمْ مِنْ مِثْلِ نُبْلِكَ أقْفَرُ

ثم تكلم الشاب قيصر نقول من المشتاية عن ضرورة استعمال الناخبين لحقهم الانتخابي، ودعاهم إلى تأييد مرشحي الاتحاد الوطني دانيال نعمة وحنا دياب.

وألقى الطالب رفيق خوري[425] قصيدة قال فيها:

لـــــنْ يُقيمَ المُسْتَعْمِرونَ قلاعاً   وعلى أرضِ مَوْطِني إنسانُ

ثم تكلم الأستاذ أحمد عمران، فألقى كلمة أيّد فيها مرشحي الاتحاد الوطني، وتعهد فيها بأنه سيعمل لإنجاحهما، ثم دعا إلى اتباع سياسة وطنية استقلالية صحيحة، وختم كلمته بالقول: أيها المواطنون الشرفاء على اختلاف الاتجاهات السياسية والحزبية من أجل الوقوف بوجه الحروب، من أجل المطالبة الحقة الصحيحة في إلغاء السلاح الذري والهيدروجيني وتحويل هذا السلاح إلى أغراض سلمية تنفع الإنسان وترفع مستواه الاقتصادي، انتخبوا دانيال نعمة وحنا دياب.

---

[425]- رفيق خوري أصبح فيما بعد صحفياً معروفاً في لبنان، ورئيس تحرير جريدة "الأنوار".

ثم تكلم خالد عبد الله خالد من مصياف، فأيد برنامج مرشَحَي الاتحاد الوطني، ودعا إلى نصرتهما والعمل لإنجاحهما، ثم تكلم الأستاذ فايز بشور، فحيا أهل (المشتى وحزور)، ودعاهم إلى نصرة مرشحي الاتحاد الوطني وتأييدهما.

ثم صعد مرشح الاتحاد الوطني في تلكلخ حنا دياب إلى المنصة وسط عاصفة من التصفيق، وألقى خطاباً تحدث فيه عن ضرورة العناية بالمواطن السوري، وشرح برنامج مرشحي الاتحاد الوطني، الذي يعبر عن مطامح جميع المواطنين، الذين يطمحون إلى الاستقلال والتحرر الوطني والديمقراطية.

وألقى الشاعر الشيخ محمود علي سلمى قصيدة عن حياة الفلاح، وما يعانيه من بؤس وشقاء، وما يلاقيه من اضطهاد واستثمار من الإقطاعيين صفق لها الحضور.

ثم ألقى مرشح الاتحاد الوطني في صافيتا دانيال نعمة، وقد استقبل ظهوره على المنصة بعواصف التصفيق، خطاباً استهله بتحية، وجهها إلى الذين حضروا المهرجان، وإلى الفلاحين والعمال الذين حالت بينهم وبين حضور المهرجان ظروف حياتهم القاسية.

وبعدما استعرض الظروف التي تدور فيها الانتخابات، قال: "ومن هنا يصح أن نطلق على هذه المعركة الانتخابية الدائرة اليوم بين عملاء الاستعمار والإقطاعية الرجعية من جهة، وبين كل الوطنيين على اختلافهم من جهة أخرى، صفة المعركة في سبيل الاستقلال والتحرر وضد مشاريع الاستعمار وأحلافه، وفي سبيل مطالب الشعب الحيوية وحرياته الديمقراطية".

ثم تحدث عن المؤامرات الاستعمارية التي تتعرض لها الجمهورية السورية، وهاجم بعنف أولئك الذين تتمثل فيهم جرائم الإقطاعية الرجعية والوصولية والاحتكار، ممن عملوا تنفيذاً لإرادة المستعمرين لتأجيل موعد الانتخابات.

ثم قال: "ولكن إذا كانت الأخطار جسيمة، فنحن مدركون تماماً أن أعداء شعبنا المستعمرين لفي حالة عزلةٍ وضعفٍ بَيِّنَيْن".

ثم تحدث عن عزم الشعب السوري على تحقيق انتصارات وطنية كبرى، مبيناً أن الشيوعيين السوريين، الذين رباهم خالد بكداش على حب الوطن والإخلاص للشعب، سيكونون دائماً وأبداً في طليعة النضال

الوطني بجانب جماهير الشعب للمحافظة على ما تحقق من انتصارات وطنية، وفي سبيل الاستقلال الوطني التام الكامل وتحقيق حياة أحسن وأسعد لكل جماهير شعبنا السوري العظيم.

وتحدث عن الاتحاد الوطني، الذي يخوض معركة الانتخابات على أساس برنامجه العام، قال: "إننا سنبذل جميع جهودنا في سبيل الاتحاد الوطني، هذا الاتحاد الذي يجب أن يجمع في قوة منظمة جبارة جميع الوطنيين على اختلاف فئاتهم وأحزابهم واتجاهاتهم وآرائهم، كي تصبح هذه القوة قادرة على صيانة البلاد وحمايتها من كل خطر استعماري".

وتحدث عن برنامج مرشحي الاتحاد الوطني في صافيتا وتلكلخ، وأشار إلى تمسك هؤلاء المرشحين بقضية السلم، وبضرورة رفع شأن الوطن السوري ورد الأخطار عنه، وبضرورة تعزيز التعاون الاقتصادي والثقافي مع بلدان المعسكر الديمقراطي.

ثم تطرق إلى المآسي التي تسببها للشعب السوري بقايا الإقطاعية الرجعية، ودعا إلى تشديد النضال لتحرير الريف السوري من هذه الآفة البغيضة، ولتحقيق مطالب الفلاحين في الأرض والمياه، وتحسين أحوال الشعب.

وكانت مكبرات الصوت تنقل الخطب إلى الجماهير المحتشدة، التي كانت تستقبلها بالتصفيق الشديد وبالهتافات المتواصلة بتحية الاتحاد الوطني في سورية، وبمطالب الفلاحين، وضد مشاريع المستعمرين وأحلافهم، وغير هذا من الهتافات الوطنية[426].

* **صافيتا- لمراسل "الصرخة":** زار دانيال نعمة وعدد من الشباب قرى: أوبين، بيت طيون، الشماميس، كيمة، الشويهدات، الجديدة، سنديانة...

يقوم قائد فصيل درك صافيتا عبد اللطيف البدوي وبعض أفراد الدرك بزيارة القرى وتهديد الناخبين والتهويل عليهم، بقصد إخافتهم ومنعهم من انتخاب مرشح الاتحاد الوطني، ولكن هذه الأساليب تلاقي الفشل الذريع، وتَزايدَ تصميم الناخبين على انتخاب دانيال نعمة. ويتردد الآن هذا السؤال: هل إن هذا التدخل نتيجة تصرفات فردية، أم أنه موحى به؟ فهل لقائمقام صافيتا أن يجيب عن السؤال؟

وجه الناخبون من فلاحين وعمال وحرفيين رسالة يسألون المرشحين

---

[426]- "الصرخة" 15 آب 1954.

تحديد موقفهم من المشاريع الاستعمارية كالدفاع المشترك وحلف تركيا-الباكستان و(المساعدات) العسكرية الأمريكية، ومن الحريات العامة والمؤسسات الأجنبية (الثقافية التي تبث سموم الميوعة واللاوطنية بين النشء)، ومن قضية الفلاحين في الوطن عامة وفي المنطقة خاصة من حيث زيادة حصتهم من المحصول وإلغاء العشر وشق الطرق بين قراهم وتأمين المياه النظيفة والمدارس لقراهم المهملة، كما يسألونهم إيضاح موقفهم من الصناعات والرساميل الوطنية، وغير ذلك من المطالب العامة. وخلص الكتاب إلى القول: هذا ما نسألكم إياه قبل إجراء عملية الاقتراع بأيام، ونعدُّ عدم الإجابة نكراناً (صريحاً) لهذا النهج من جانبكم[427].

* **صافيتا- لمراسلنا:** بمناسبة عيد الأضحى المبارك وعيد السيدة يجتمع الفلاحون حول زيارة الخضر وزيارة الرفاعي وعلى جبل السيدة قرب المشتى، وقد كانت هذه التجمعات مناسبات لأحاديث الناس حول الانتخابات، وقد قام وفد من أنصار مرشحي الاتحاد الوطني بزيارة عدد من قرى السهل، فلاقى تأييداً قوياً بين جماهير الفلاحين. فقد قال فلاح من الريحانية: "حينما تتكلمون عن برنامج الجبهة الوطنية وخطة مرشحي الاتحاد الوطني، فإذا كان البعض لا يجيب، فثقوا أن قلوب الجميع معكم".

من أهم مميزات الحملة الانتخابية في صافيتا أنها ساعدت مئات الفلاحين على تبديد مخاوفهم، والتحدث دون وجل عن جرائم الإقطاعيين وعزمهم على إنزال الهزيمة بمرشحي الإقطاعيين الرجعيين، الذين لا يتوخون من المعركة الانتخابية سوى الوصول إلى مراكز تساعدهم على زيادة نهب الفلاحين والتنكيل بهم.

ففي قرية بتعلوس التابعة لإقطاعية آل بشور يملك أحد الفلاحين قطعة أرض ورثها عن أبيه، ومن مدة مرض أحد أفراد عائلته مرضاً شديداً، أجبره على رهن أرضه عند توفيق بشور لقاء مبلغ من المال قدره 300 ليرة سورية، ولم يقبض في الواقع سوى 240 ليرة في الوقت الذي وقع فيه مجبراً على سند بيع، لا رهن، بقيمة 500 ليرة. ومنذ مدة فوجئ بقرار طرده من الأرض، فاحتج، ودافع بكل جرأة عن أرضه، ولكن سُلِم إلى الدرك، الذين ضربوه وعذبوه بوحشية بحضور

---

[427]- "الصرخة" في 19 أيلول 1954.

مرشحي الإقطاعية الحاليين.

وصادف مرة أن انكسر باب غرفة ملاك من بتعلوس، فجند آل بشور محاسيبهم، وشنوا مع الدرك حملة إرهابية ضد السكان بقيادة وكيل الضابط (أبو حمدو)، وذبحوا الدواجن والدجاج، وجلدوا الفلاحين بحجة التفتيش عن مسروقات، وساقوا الشيخ محمود حسين إلى صافيتا، وأشبعوه ضرباً، وعذبوه بوحشية، وأهانوه.

وبينما كان مصطفى رشيد من قرية كفر صنيف يصطاد السمك في نهر قرب قريته، مرت به دورية من الدرك، فاقتادته إلى مخفر صافيتا، حيث ساموه العذاب والضرب الشديد والإهانات والكلام البذيء، وقد بلغنا أنه نال تقريراً طبياً، وأقام الدعوى على رئيس المخفر والدركي الذي عاونه على ضربه.

خامساً- دور العشائرية والطائفية والمال في فشل وصول المرشح الفلاحي دانيال نعمة إلى الندوة النيابية

في 25 تموز 1954، عُقِدَ في قرية رأس الخشوفة قضاء صافيتا اجتماع انتخابي، ضم أكثر من مئة شخص يمثلون مختلف القرى المجاورة تأييداً لدانيال نعمة. وقد ألقى أحد شباب القرية المثقفين كلمة شرح فيها مظالم الإقطاعيين والمستعمرين، وكيف كانوا يضطهدون الفلاحين ويجبرونهم على التصويت لهم، ثم قال: " أما الآن، فقد تغير الوضع، وأعلن أن الفلاحين سيؤيدون مرشحهم في صافيتا دانيال نعمة، الذي نذر نفسه للدفاع عن حقوق الشعب والوقوف في وجه الدكتاتورية والرجعية والاستعمار، وعانى في سبيل مبادئه الوطنية الديمقراطية ظلام السجون وسياط الشرطة العسكرية والأشغال الشاقة فوق رمال تدمر المحرقة".

كان ذلك في بداية المعركة الانتخابية، التي ظنّ أنصار التقدم والمجتمع المدني والاشتراكية أن ساعة الخلاص أخذت تقرع الأبواب، لكن قوة القلاع الإقطاعية، وخاصة الفكرية منها، كانت أقوى من أحلام التحرر والانعتاق.

ولنعد مرة أخرى إلى ما كتبه دانيال نعمة في دفتر ذاكرته حول انتخابات 1954.

فقد استعرض دانيال نعمة عام 2000 ذكرياته عن انتخابات 1954 بقوله:

"... فقد أحكمت علينا أطواقها العشائرية، والعائلية، وسطوة المال، وأساليب خداع البسطاء من الناس والمؤمنين...".

ومضى قائلاً:

"... وفي قرية "البارقية"، التي كنت قد نلت فيها زمن الديكتاتورية العسكرية أكثر من خمسين صوتاً، لم أنل هذه المرة، إلا خمسة أصوات، بدلاً من مئة كنا ننتظرها. أما كيف حدث هذا، فإليكم التفاصيل:

كنا قد أنهينا حملتنا الانتخابية بإقامة مهرجان محلي في هذه القرية الجميلة، التي ينتمي كل سكانها إلى عشيرة الحدادين[428]، وما كادت سيارتنا تصل إلى الساحة العامة في القرية، حتى التف حولها عشرات الشباب، ورفعوها ترحيباً وتأهيلاً، وعلت الزغاريد، وقوطعت كلمات المتكلمين بهتافات التأييد للحزب الشيوعي ومرشحه، ولأمينه العام خالد بكداش مرشح دمشق.

ووصلت الأخبار، فيما يبدو، سريعاً إلى الأستاذ عبد اللطيف اليونس، فأصابه قلق شديد، وكان قلقاً في محله، فأرسل شقيقه محمود، وكان مديراً لناحية المشتى، كي يتصل بالفلاحين لإقناعهم، بكل الوسائل، بضرورة تغيير موقفهم.

قال لهم: (إن الدولة لن تسمح لمرشح الحزب الشيوعي بالنجاح، ولولا ذلك لكنا أدخلناه معنا في القائمة بديلاً لرفيق بشور). وقال: (إذا سقط رفيق بشور وهو على قائمتنا، فمعنى ذلك أننا خُنّاه، وعندئذ سيستقيل عبد اللطيف من النيابة، وبهذا تخسرون الاثنين، ولن يكون لكم أي ممثل أو سند).

"والأهم من كل ما قيل هو وقوف محمود على باب مركز الاقتراع، ليسلم باليد كل فلاح قائمة عليه أن ينزلها علناً، ودون أي تعديل. ولم يتمرد غير خمسة من الرفاق الشجعان، وهكذا حصلنا على خمسة أصوات بدلاً من مئة موعودة".

"وفي قرية بعيث المسيحية بكل سكانها، كان مركز الاقتراع مزيناً من كل جوانبه بصورة مرشح الاتحاد الوطني وبالشعارات المؤيدة له، ولهذا تولّد انطباع بأن هذا المرشح سيحصل على غالبية الأصوات، إن لم يكن عليها كلها. وهنا هرع أنصار أحد المرشحين المسيحيين ليقولوا للناخبين: حرام عليكم أن تكبوا أصواتكم هكذا، فمرشحكم لن تتركه الحكومة ينجح، والأفضل لكم، أن يقبض كل واحدٍ منكم ثلاثين ليرة تشترون بها قمحاً لأولادكم. وهكذا كان، ولا أذكر إذا كنا نلنا في هذا المركز ولو صوتاً واحداً، ولكنني أذكر أننا عدنا وزرناهم، وعاتبناهم، وقلنا لهم ومع ذلك فقد أفدناكم، فلولانا لما دفعوا لكم قرشاً واحداً. أقول هذا الآن، لأؤكّد أن المال قوة لا يمكن التغلب عليها إلا بالوعي، والتمسك بالكرامة والعقيدة، وبتحرير الأكثرية من الحاجة والعوز، وهذا هو الأساس".

"وكان لنا بعد هذه الانتخابات، وما أجرينا خلالها من صلات، لقاءات مستمرة ومثمرة مع الفلاحين الفقراء والمتوسطين من كل الطوائف والمذاهب والعشائر. وكانت بيننا أحاديث ودية وصريحة، وكثيراً ما طرحنا على بعض الفلاحين

---

[428]- وهي العشيرة، التي أسلمت زعامتها للأستاذ عبد اللطيف اليونس بديلاً عن آل الحامد في رأس الخشوفة.

العلويين، من خارج صفوف الحزب طبعاً، القضية على النحو التالي: إننا نعرف أنكم تنظرون إلينا على أننا "كفار" (أي مسيحيون)، ولكن أليس رفيق بشور في قائمة اليونس، هو مثلنا من هؤلاء "الكفار"؟ ثم إذا كنا نتساوى وإياه في هذا الجانب، فكيف صح لكم أن تحجبوا أصواتكم عنا، نحن المناضلين ضد الإقطاعية، المدافعين عن حقكم بالأرض والحرية والكرامة، وأن تمنحوا هذه الأصوات لمن لا يقر لكم بمثل ما نقر؟ وكان الجواب دائماً واحداً وقاطعاً: إننا لا نصوت لهؤلاء، بل لزعيم العشيرة. وهنا، كما أعتقد، لبُّ المسألة".

"وبالمقابل كثيراً ما طرح علينا بعض هؤلاء الفلاحين السؤال التالي: هل يمكن للمرء أن يقف ضد أقربائه؟ مثلاً طرحوه علينا ذات مرة، وكنا ثلاثة، (ميشيل عيسى وحنا زريق والداعي)، في قرية عين بشريتي العلوية الخياطية، المجاورة لقرية(سبَّهْ)، والمملوكتين معاً لإقطاعيين من آل بشور في صافيتا. وتجاهلت المقصود من السؤال، وطلبت توضيحاً، فقيل: وهل يمكن أن تكون ضد أقربائك المباشرة؟ فأجبت: إنهم لا يقربونني، فأنا من المشتى، وهم من صافيتا. فقالوا: لا، لا موهيك، أ لستم مثلهم مسيحيين؟ فقلت: ومن وجهة نظر المسيحية لا يقربونني، فهم في علاقاتهم معكم يخالفون الوصايا العشر، ينهبون أتعابكم، يسَخِرونكم، يشتهون نساءكم... وأفصحت عيونهم عن إعجاب بالجواب. ولكنني ما أزال على يقين بأنهم بقوا على شكوكهم التاريخية، ولم يصدّقوا ما قلت".

ويمضي دانيال قائلاً:

"وكان يمكن أن أروي الكثير في هذا المجال، وقد أعود إلى ذلك ذات يوم. أما الآن، فأكتفي بالقول إنني ذكرت ما ذكرت لأبيّن بعضاً من الصعوبات التي واجهها نضال الشيوعيين في بعض الأوساط الفلاحية، وكي أدلل بأن الطريق نحو العلمانية معقد وطويل، وهو يحتاج إلى كثير من الصبر والثقة بالمستقبل".

ويشكر دانيال الجهود المخلصة التي بذلها الشيوعي فايز بشور في العمل المتفاني لنجاح مرشح الاتحاد الوطني، ويتساءل دانيال تساؤل العارف:

" هل صدّق بعض الفلاحين الرفيق فايز بشور في مواقفه النبيلة؟ في وقوفه مع مبادئه وليس مع عائلته الإقطاعية، أم أنهم نظروا إليه نظرة الشك؟ تماماً، كما كانت نظرة فلاحي قرية عين بشريتي إلينا وربما أكثر؟!".

حبذا لو أن دانيال نعمة العلماني، الذي أفنى حياته في الدفاع عن الفلاحين من مختلف المذاهب والطوائف والأديان، قد قدّم لنا كل ما تختزنه ذاكرته من معلومات عاشها على أرض الواقع حول تمترس العائلية والعشائرية والطائفية في عقول كثير ممن كان دانيال بمبادئه الماركسية ومشاعره الوطنية العربية يدافع عنهم، ويحلم في أيام الشباب بتحررهم من الاضطهاد والاستغلال والظلم.

أشرنا في فصل سابق إلى أن منتصف القرن العشرين تميّز باهتزاز إيديولوجيات العصبيات الطائفية والعشائرية لصالح إيديولوجيتَيْ الوحدة الوطنية والكفاح الفلاحي ضد الإقطاعية. ومع ذلك، نرى الأرياف لا تزال، رغم أمواج التحرر الوطني والطبقي، ترزح تحت وطأة الخضوع للعصبيات الطائفية والعشائرية، فكيف الحال في أواخر القرن العشرين، الذي ساده ظلام العشائرية والطائفية، وانتعش فيه، وما يزال، سوق الأساطير والخرافات المتزامنة مع الهجوم الاستعماري الأمريكي المتحالف مع العدوانية الصهيونية. وعلى العكس من هذه الأواخر، ففي منتصف ذلك القرن، وأعني القرن العشرين، بلغت أفكار النهضة العربية ذروتها وملأ الأمل قلوب الوطنيين العرب باقتراب ساعة التحرر من الاستعمار والصهيونية تحرراً نهائياً، وبدنو ساعة التحرر الاجتماعي والفكري ووصول العرب إلى المستوى الحضاري العالمي المتقدم.

هذا ما نلمسه في رسالة مراسل "الصرخة" من صافيتا حول طبيعة المعركة الانتخابية لعام 1954، وكما كان يتمناها أن تكون. كتب المراسل[429] الخبر التالي: "ما تزال الوفود تجوب القرى داعية لتأييد الاتحاد الوطني ومرشحه في صافيتا المناضل الوطني المعروف دانيال نعمة. هناك شبه إجماع على وضع دانيال نعمة في جميع القوائم، لأن جميع الفلاحين على اختلاف العشائر والمذاهب مقتنعون تمام الاقتناع أن مرشحهم الوحيد كفلاحين هو مرشح الاتحاد الوطني دانيال نعمة، ولو أن بعضهم يسعى إلى خلق البلبلة عند الناخبين وإثارة بعض التحفظات التي ترتكز إلى العنعنات الطائفية والعشائرية القديمة، التي اندثرت، وأدرك الشعب أضرارها، كما حدث في رأس الخشوفة وغيرها. نؤكد أن مرشح الاتحاد الوطني في صافيتا لن يعقد أي اتفاق غير مبدئي مع أي كان، سيَّما أن بعض المرشحين استعملوا طرق البلف مع جماعتهم...".

التفاؤل بنجاح دانيال نعمة مرشح الاتحاد الوطني، الذي نأى بأفكاره وسلوكه وبرنامجه الانتخابي عن الطائفية والعشائرية، ودخل المعركة الانتخابية بزخم المجتمع المدني والإيديولوجية الوطنية الجامعة والفكر الاشتراكي نلمسه أيضاً في رسالة أخرى من صافيتا لمراسل

---

[429]- وهو فايز بشور، في عدد "الصرخة" الصادر بتاريخ 1954/08/29.

"الصرخة"، الذي كتب: "في الوقت الذي يواجه فيه مختلف مرشحي الإقطاعية الرجعية صعوبات شتى وعراقيل مستعصية الحل، في أثناء سعيهم لتشكيل القوائم، تنطلق القوى الوطنية الحزبية منها وغير الحزبية للعمل الجماهيري الواسع، خصوصاً في القرى، شارحة برنامج دانيال نعمة مرشح الاتحاد الوطني، وداعية الفلاحين للسعي المتواصل في سبيل تجنيد كل القوى الوطنية الحيّة الشريفة ولرفع مرشح الاتحاد الوطني إلى الندوة النيابية".

ولكن بين التطلعات النهضوية والرغبة في تجاوز العصبيات الطائفية والعشائرية والتغلب على البنية الإقطاعية المتمترسة وراء الطائفية والعشائرية أمر دونه خرق القتاد، في مجتمع لا يزال يعيش علاقات ما قبل الرأسمالية، وتتحكم فيه تقاليد وأعراف بنيت لصالح الحكام ومن بيدهم المال ومفاتيح الدخول إلى عقليات الناخبين من الفلاحين وغيرهم. فمعركة التحرر الوطني والاجتماعي، التي أمل مراسل "الصرخة" في صافيتا ببلوغها بمجرد تأييد فئات من الفلاحين، ليست من السهولة بمكان، وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتحولات إيجابية في البنى الاقتصادية والاجتماعية وبتغيرات إنسانية في الأوضاع العالمية. كل ذلك عليه أن يتلازم مع نظرة تنويرية وعقلانية إلى الكون وإلى تراثنا واستلهام ما يكتنزه من دروس، ولم تكن هذه الظروف قد نضجت في خمسينيات القرن العشرين، رغم التقدم الحاصل في مختلف الميادين. ومن هنا لم يكن من السهل النجاح على مرشح الاتحاد الوطني دانيال نعمة، المفتقر إلى المال، البعيد عن العون الطائفي العلوي، والمفتقر إلى الدعم الطائفي المسيحي. فهو بسياسته وخطه الفكري بعيد عن الطائفية، وعدو لجميع تلاوينها، وليس له من عشيرة تدعمه. ولم تكن المشاعر الطبقية الفلاحية، التي سعى دانيال ورفاقه لإيقاظها ودفعها في طريق تحرير المجتمع لتصمد أمام أول هزة طائفية أو عشائرية، وكان المال كفيلاً بكم أفواه من لم يذعن لمنطق الطوائف والعشائر. وفي ظل تلك الظروف، هل كان بالإمكان أن يصل إلى الندوة النيابية مرشح الاتحاد الوطني البعيد عن دوائر الطائفية والعشائرية، والذي لم يملك الأصفر الرنان غازي العقول ومروّض الرجال؟

الباب السابع
من الجمهورية السورية إلى الجمهورية العربية المتحدة

الفصل الأول
السمات العامة لمرحلة الاستقلال والعوامل المؤثرة فيها

مع زوال الانتداب الفرنسي عام 1943 وجلاء الجيوش الأجنبية عن سورية في نيسان 1946 عاشت سورية مرحلة نوعية جديدة من تاريخها. أهم ما في هذه المرحلة قيام الدولة الحديثة المستقلة "البرجوازية - الإقطاعية"، وانتشار دعائم المجتمع المدني والسير في طريق الديمقراطية، التي بلغت أوجها في عهد المجلس النيابي (1954-1958).

دخلت الحركة الوطنية، بعد نيل الاستقلال السياسي، مرحلة جديدة في مناهضتها للإمبريالية، تميّزت بإحباط المحاولات التي استهدفت عودة الإمبريالية إلى حكم البلاد مباشرة، كما اتصفت هذه المرحلة بمقاومة الأحلاف العسكرية الاستعمارية، وبالسير نحو توطيد دعائم الاقتصاد الوطني.

وفي الوقت نفسه فقدت البرجوازية الوطنية القيادة المطلقة، بلا منازع، للحركة الوطنية، وأخذت البرجوازية الصغيرة، المدينية أولاً والريفية ثانياً، تنافسها القيادة معتمدة على جماهير العمال والفلاحين في هذا الصراع، كما تعاظم دور العمال في الحياة العامة، رغم ضعف نسبتهم العددية إلى مجموع السكان.

شوهد النضال الاجتماعي بالعين المجردة طافياً على سطح الأحداث، وقد تعمّق محتوى هذا النضال بعد إعلان قانون الإصلاح الزراعي في خريف عام 1959 وتعديلاته المتعددة فيما بعد. وعلى أثر تأميمات يوليو (تموز) عام 1961، وضرب مواقع البرجوازية الكبيرة، بلغ النضال الاجتماعي إحدى ذراه الشامخة متقدماً الصفوف أمام النضال الوطني، وهذا أعطى الحركة العمالية زخماً جديداً، عندما هبت للدفاع

عن التأميم وحقوق الطبقة العاملة إزاء الهجمات المضادة للفئات المستغلة المضروبة مصالحها. وفي هذه الفترة، كثرت التشريعات العمالية، وأخذ التنظيم النقابي يسير، مع ازدياد هيمنة الأجهزة الأمنية بعد 1959، تحت مظلة السلطات الحاكمة.

احتلت قضية الوحدة العربية مكاناً مرموقاً من اهتمام الرأي العام في سورية. وبعد أن كانت الدعوة إلى الوحدة العربية، قبل الحرب العالمية الثانية، مقتصرة على قليل من الإقطاعيين وبعض قطاعات البرجوازية والعناصر المتقدمة من الديمقراطيين الثوريين، أخذت الجماهير الشعبية تتبنى هذا الشعار، وظهرت المطامح الوحدوية الكامنة جلية واضحة لدى الطبقة العاملة في سورية، وخاصة بعد انفصال سورية عن مصر. وأضحت الوحدة العربية قضية الجماهير الشعبية بالدرجة الأولى، وظهر شعار: "يا عمال الوطن العربي اتحدوا".

مع فجر الاستقلال أخذت مواقع الدولة السورية الحديثة المستقلة تتوطد رويداً رويداً، وقد جرى ذلك على الشكل التالي:

أ- الاستمرار في بناء هيكلية الدولة وفق القواعد والأسس، التي خطط لها ووضعها "الفكر البرجوازي الفرنسي"، ويمكن القول: إن الدولة السورية الحديثة في فجر الاستقلال هي استمرار "لدولة الانتداب"، لكن بوجه وطني.

ب- هذه الاستمرارية لم تكن مطلقة، فقد جرت محاولات ناجحة لإزالة الآثار السلبية لدولة الانتداب، وذلك بإلغاء القوانين المرسّخة للسيطرة الاستعمارية واستبدال قوانين تعكس طموح الدولة المستقلة بها للسير في طريق الاستقلال وترسيخه.

ج- وضع جملة من القوانين الحديثة المستقاة من خبرة الدولة البرجوازية في الغرب، وتحديداً فرنسا، ولم يتم نقل القوانين نقلاً حرفياً، كما يظن بعضهم، بل جرت مراعاة الظروف الموضوعية المحلية وواقع المجتمع العربي الشرقي، وما يحمله على منكبيه من موروث عمره مئات السنين.

د- إصدار قانون العمل في حزيران 1946، الذي وضع في يد العمال السوريين سلاحاً قانونياً للحد من استثمار مؤسسات الرأسمال الأجنبي لهم، وحرمان هذا الرأسمال من بعض أرباحه.

عكست الانقلابات العسكرية (1949 - 1954)، التي قام بها كل من

حسني الزعيم وسامي الحناوي وأديب الشيشكلي، الصراع من أجل السلطة السياسية، بين مختلف التكتلات البرجوازية - الإقطاعية المعتمدة آنذاك على أوساط معينة من الجيش، وعلى تأييد الأوساط الاستعمارية الأمريكية أو البريطانية، التي كانت تتصارع للسيطرة على سورية.

كما لعب أيضاً اختلال التوازنات الطبقية دوراً هاماً في قيام الانقلابات العسكرية، فالبرجوازية السورية، التي وصلت إلى السلطة، كانت ضعيفة ومترددة في مواقفها إزاء الاستعمار من جهة والموقف من الملكية الكبيرة الإقطاعية من جهة أخرى. وبعض أقسام هذه البرجوازية كانت على صلات اقتصادية قوية مع الإقطاعية، ولهذا لم تكن الأقسام الرئيسية من البرجوازية ترغب في توجيه ضربة قاصمة إلى العلاقات الإقطاعية وكسب ولاء الفلاحين والقوى التقدمية الراغبة في تحرير الريف، وتحت البرجوازية الكبيرة، (والكبيرة هنا تسمية نسبية)، كانت شرائح البرجوازية الصغيرة تطمح في احتلال مواقع اقتصادية، وتحلم بالوصول إلى السلطة السياسية، أو على الأقل المشاركة في السلطة. وعموماً كان دور البرجوازية الصغيرة في صعود مستمر نحو القمة، حاملاً معه تناقضات البرجوازية الصغيرة وتذبذب مواقفها واختلاف إيديولوجياتها.

في تلك الفترة من خمسينيات القرن العشرين، كانت التجمّعات العمالية تسير في طريق تكوّن طبقة عاملة، مما أدى إلى دخول قوة اجتماعية فتية إلى مسرح الحياة السياسية، ستصبح تدريجياً قوة حليفة لفقراء الفلاحين، فالتململات الفلاحية أخذت تطفو على سطح الأحداث، والحركة المناهضة للإقطاعية كانت تكتسب سنوياً مواقع جديدة، وتؤثر في المواقف السياسية وكذلك القيادات العسكرية سلباً أو إيجاباً.

الفصل الثاني
بروز دانيال نعمة شيوعياً على المستوى الوطني

أثار انهيار حكم أديب الشيشكلي الدكتاتوري العسكري في شباط

1954 نهضـــة شـــعبية عظيمـــة[430]، عَمَّــت ســورية ضــد الاســتعمار ومشاريعه وفي سبيل الحرية والديمقراطية. نتلمس إيقاعات هذه النهضـة فـي رسـائل مراسـلي جريـدة "الصـرخة" البيروتيـة مـن مختلـف المـدن السورية في أواخر شباط وأوائل آذار من عام 1954. كان من أهم تلك الأمواج الشعبية المظاهرات التي قامت في حلب يومي 26 و27 شباط وكذلك في حمص ودمشق، التـي احتـل فيها المتظـاهرون فـي 27 شباط مبنى البرلمان، وأخرجوا نواب الشيشكلي بالقوة منه. وفي يوم 28 شباط قامت مظاهرة شعبية كبرى في السـاعة الخامسـة مساءً، بدأت من قرب سوق الزرابليـة، وضـمت جمـاهير واسعة ترفرف عليها لافتات أهمها: "الشعب السوري يطالب بنظـام جمهوري برلمـاني ديمقراطـي وحكومـة وطنية ديمقراطية، تقف في وجه مؤامرات الاستعمار، وتلغـي المراسيم الإرهابيــة، وتطلــق الحريــات الديمقراطيــة"، ويبــدو أن هــذه المظــاهرة المسائية نظمها الحزب الشيوعي، لأن "الصـرخة" ذكرت أن الهتافات تعالت بحياة الأمين العام للحزب الشيوعي السوري.

وفي اللاذقية جرت حركات شعبية في يومي 26 و27 شباط، ومن أهمهــا مظــاهرة كبــرى اشــترك فيهــا أكثــر مــن ألــف عامــل وطالــب، وخصوصــاً جمهور من عمـال المينـاء. وفـي هذه المظـاهرة، وُزِّعَ بيـان خالد بكداش حـول الأحداث، وهذا دليل علـى أن الحـزب الشـيوعي كـان وراء هذه المظـاهرة. فـي تلـك الأثنـاء كـان دانيـال نعمـة يقـود منظمـات الحـزب الشـيوعي فـي محافظــة اللاذقيــة، ومركـزه فـي المدينــة، وتـورد جريدة "الصرخة" البيروتية أنبـاء المظـاهرات المطالبـة بنظـام جمهوري برلمـاني ديمقراطـي فـي كـل مـن بانيـاس وطرطـوس والمشـتى، وتـذكر "الصرخة" أن "الشيء البارز الملحوظ في جميع المظاهرات التي جرت في معظم المدن والأرياف السورية، اشتراك النسـاء والطالبـات اشتراكاً حماسياً نشيطاً فيها، وسيرهنّ في الطليعة"[431].

---

[430]- ثمة من يقول إن حكم الرئيس أديب الشيشكلي لم يكن ديكتاتورية بالمطلق بالمقارنـة مع بعض الأنظمـة العربيـة، ولا بـد مـن الإشـارة هنـا إلـى أن "الأجهـزة الأمنيـة" أيـام الشيشـكلي (1951-1953) كانت في بداية تكونها، ولم تَنْمُ أظافرها، وتظهر أنيابها، وتكشر عنها، إلا في ستينيات القرن العشرين وما بعده.

[431]- عن "الصـرخة". ومع الأسف، سقط رقم العدد وتاريخـه بسبب هجمات الفئـران علـى أعلى الصفحة، وكان والديّ قد قاما في عـام 1960 بتخبئـة جرائد "الصـرخة" وغيرهـا فـي المتبن، ولم يقوما كغيرهما بحرقها.

في الفترة، التي كان دانيال نعمة يتولى قيادة منظمات الحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية، عقد في 3 نيسان 1954 بتوجيه خفي من الحزب الشيوعي أول مؤتمر للعمال في اللاذقية، حضره 35 مندوباً مثلوا عمال الخياطة، النجارة العربية، النجارة الفرنجية، الكندرجية، الدباغة، الدهانين، التبغ، البناء، الشركة اليوغسلافية العاملة في تشييد الميناء، الميكانيك، المطابع وغيرها من المهن.

وكانت مقررات مؤتمر العمال هي التالية: دفع التعويض عن سنة فيما إذا أتمّ العامل العمل لمدة ثلاثة أشهر لدى رب العمل، إيجاد صندوق ضمان اجتماعي يُغَذى من أرباح الشركات الأجنبية ومن الحكومة، منع التسريح التعسفي، حماية النقابيين من التسريح بسبب نشاطهم النقابي، عدم تدخل الحكومة في انتخابات النقابات، ترخيص المواد الغذائية، فتح مدارس لأولاد العمال، تشكيل محاكم مالية للفصل بدعاوى العمال بسرعة، تحديد مبدأ الثماني ساعات باليوم، وإقرار الراحة الأسبوعية والعطل السنوية المدفوعة الأجرة.

وتطالب قرارات أخرى بإقامة حكومة وطنية ديمقراطية تطلق الحريات العامة، وتعمل لتحقيق أهداف الشعب ورفض مشاريع الاستعمار الحربية[432].

وعلى أثر ارفضاض المؤتمر، صدر بيان مؤتمر العمال في اللاذقية موقع من محمد الداش[433] نائب رئيس اتحاد العمال في اللاذقية، وجاء فيه أن الشركات الأجنبية: اليوغسلافية العاملة في تشييد الميناء، الإمبريال، الأي بي سي، الأسفلت، الريجي، وسعادة تشدد الهجوم على أجور العمال وتنقصها، وتضاعف ساعات العمل لقاء أجور تكاد لا تكفي العامل ثمناً للخبز، وتطرد العمال، ولا تعترف بحقهم في الإجازات المرضية[434].

بعد انهيار حكم الشيشكلي، عاد هاشم الأتاسي، الذي كان رئيساً للجمهورية قبل انقلاب الشيشكلي، إلى منصبه، ودعا البرلمان السابق للانعقاد، وتشكلت وزارة برئاسة صبري العسلي. في تلك الظروف،

---

[432]- "الصرخة"، 11 نيسان 1954.

[433]- كان الحزب الشيوعي يعتزم ترشيح محمد الداش عن اللاذقية في انتخابات أيلول 1954 للنيابة، كما مرّ معنا.

[434]- الصرخة في 1954/04/18.

أصدر الحزب الشيوعي السوري بتاريخ 13 حزيران 1954 بياناً عن الأزمة الوزارية في سورية، ختمه بالفقرة التالية: "فإلى الاتحاد يا أبناء سورية العربية، مهما كان حزبكم واتجاهكم ومركزكم الاجتماعي، لتحطيم ضغط المستعمرين، وصيانة وطننا الغالي من أخطار مشاريعه، ولتشديد النضال في سبيل استقلالنا الوطني وحرياتنا الديمقراطية وضمان السلم لبلادنا".

وفي الوقت نفسه، وجه ثلاثة من قادة الحزب الشيوعي البارزين وهم: دانيال نعمة ومحمد ظهير عبد الصمد وأحمد محفل برقية إلى رئاسة الجمهورية نُشِرَت في الصحف السورية، ننقلها بنصها:

"فخامة رئيس الجمهورية السورية: إن الظروف الدقيقة التي تمر بها سورية واشتداد ضغط الاستعمار الأمريكي على بلادنا بقصد جرها إلى أحلافه وفرض مشاريعه ومساعداته العسكرية عليها، تُثير قلقاً مشروعاً لدى جميع المواطنين، وتُقابَل بالاستنكار الشامل وبعزيمة قوية على تحطيم هذا الضغط الاستعماري ومقاومة هذه المشاريع وإحباطها.

فباسم العمال والفلاحين الواعين وجميع الوطنيين الديمقراطيين في سورية، نطالب بتأليف حكومة وطنية ديمقراطية، تعبر عن رأي وإرادة جميع القوى الوطنية على اختلاف اتجاهاتها وهيئاتها بالوقوف في وجه هذه المشاريع الاستعمارية الأمريكية والإنكليزية، وبإطلاق الحريات الديمقراطية، وبإجراء انتخابات نيابية حرة تتمثل فيها إرادة الشعب السوري تمثيلاً صادقاً"[435].

"ويلفت النظر المظاهرة الشعبية الضخمة، التي انطلقت نحو الساعة السادسة من مساء الأربعاء الماضي من مركز المدينة قرب مقهى البرازيل، شاركت فيها فئات واسعة من أحياء دمشق من عمال وفلاحين ومثقفين ونساء مطالبين بإيجاد حلّ للأزمة الوزارية ومجابهة ضغط المستعمرين"، وإيقاعات هذه المظاهرات كانت من علائم النهوض الجماهيري العارم، الذي عمّ سورية وأسهم في انتخاب مجلس نيابي، كان زهرة المجالس النيابية في تاريخ سورية.

بعد نجاح الأمين العام للحزب الشيوعي السوري الكاسح ممثلاً عن دمشق في المجلس النيابي، وتوطد دعائم نظام برلمان (1954-1958)، ونيل الحزب الشيوعي شرعية العمل دون ترخيص رسمي، استدعت

---

[435]- نقلاً عن "الصرخة"، التي ضاع رقم عددها وتاريخه من أرشيفنا.

القيادة في صيف 1955 المحامي دانيال نعمة من اللاذقية، حيث كانت المحاماة، كما رأينا، ستاراً لتسهيل العمل الحزبي السري وقيادته في محافظة اللاذقية، للمشاركة في تحرير جريدة "النور" بدمشق، والإسهام في قيادة بعض منظمات الحزب الشيوعي في سورية لمدد محدودة من الزمن، كما يتبيّن من مذكرات دانيال أنه أخذ يحضر اجتماعات القيادة برئاسة خالد بكداش، وكلا العملين الصحفي والحزبي تمّا على نحو تراوح بين السرية والعلنية، مروراً بمرحلة نصف سرية. من هنا صعوبة المعرفة الدقيقة لنشاطات دانيال نعمة المتقد حماسة ثورية للعمل في سبيل الوطن والحزب، لكننا استطعنا معرفة نشاط نعمة في كل من حلب ودير الزور والسويداء، كما يتبين من الوقائع التالية:

في إحدى مقالاته في جريدة "النور" بتاريخ 24 تموز 2002[436]، وبمناسبة الذكرى الخمسين "لثورة 1952" في مصر، نشر دانيال مقالة عن تلك الثورة وموقف الشيوعيين منها. كتب دانيال[437]: "وعلى أثر تأميم قناة السويس في تموز 1956، اجتمعت قيادة الحزب في مكتب جريدة "النور" بدمشق، ودُعيتُ إلى ذلك الاجتماع وآخرين من العاملين في جريدة النور. يومذاك قلت وأنا في قمة الحماسة: لو ترشح في سورية اثنان لرئاسة الجمهورية: شكري القوتلي وعبد الناصر، لاختار الشعب السوري عبد الناصر".

ويمضي دانيال قائلاً: "قررت قيادة الحزب الشيوعي (السوري-اللبناني) القيام بحملة شعبية واسعة دعماً لعبد الناصر في تأميمه القناة وتصديه للتآمر الاستعماري، وكُلـِّفتُ بأن أتوجه إلى حلب لمساعدة الرفاق هناك، وهكذا كان. وقد نظم الرفاق مظاهرة ضخمة شارك فيها الألوف تأييداً لقرار التأميم ودعماً لمصر وقائدها جمال عبد الناصر".

وتشير مذكرات الشيوعي اللبناني عزيز صليبا، الذي عمل فترة من الزمن في حلب، أن دانيال نعمة أشرف على منظمة حلب لمدة قصيرة أيام العدوان الثلاثي على مصر[438].

436- جريدة "النور" الصادرة في مستهل القرن الحادي والعشرين، وكان دانيال نعمة رئيس تحريرها، هي استمرار لجريدة "النور"، التي أُغلِقَت في الأيام الأخيرة من عام 1958، مع الأخذ بالحسبان الظروف المختلفة بين المرحلتين.

437- "النور" العدد 61، في 24 تموز 2002.

438- عزيز صليبا: "العمل السري في الحزب الشيوعي اللبناني مع صفحات من تاريخه"، دار الفارابي 2002، ص...

ياسين الحافظ المنتقل من حزب البعث إلى الحزب الشيوعي، ومن ثمّ إلى العمل في إطار الماركسيين العرب يشير في مذكراته[439]، عندما كان في قيادة منظمة الحزب الشيوعي في دير الزور، أن دانيال نعمة قَدِمَ إلى دير الزور للإشراف على المنظمة ومساعدتها في العمل، وكان من الملاحظات التي وجهها دانيال، كما ذكر الحافظ، سير منظمة دير الزور في طريق العلنية في خطوات سريعة. ومعنى ذلك أن دانيال حذر قادة منظمة الدير من كشف تنظيمهم، فالعدو يتربص بالقوى الوطنية في سورية لضربها وإحكام القبضة الاستعمارية عليها، ولا نعلم المدة التي بقي فيها دانيال في الدير، ولا يتحدث دانيال في مذكراته المكتوبة على عجل عن نشاطه الحزبي، تاركاً الأمر للمستقبل لكتابة مذكراته، لكن المنية عاجلته قبل التفرغ لكتابة المذكرات.

ذكر مراد يوسف، وهو من أبناء القنيطرة، وكان يدرس في السويداء، أنه تعرف على الشيوعيين فيها، وقد كلفه أحد الشيوعيين بإيصال رسالة إلى مكتب الحزب بدمشق، وقد عرف فيما بعد أن من استلم الرسالة منه وحادثه كان دانيال نعمة، وروى مراد يوسف أن دانيال نعمة كان زار السويداء، واجتمع بالمنظمة الشيوعية فيها، وبات عند مسؤول المنظمة[440].

أنشأ دانيال عدداً من المقالات مذيلة باسمه، ونشر مجموعة مقالات وتحقيقات مغفلة من توقيعه لضرورات العمل الصحفي والحزبي وظروف تلك المرحلة.

كما ألقى عدداً من الخطب في المناسبات الوطنية والسياسية، نذكر منها الخطاب، الذي ألقاه في تشرين الأول من عام 1955 بمناسبة الانتخابات التكميلية بطرطوس لانتخاب المرشح الدكتور محيي الدين مرهج، وقد أيد الحزب الشيوعي مرهج لسد الطريق على مرشح القوميين السوريين. أهم ما جاء في خطاب نعمة:

- "أساس سياستنا ومحورها في الظروف الراهنة، الجبهة الوطنية ضد

---

[439]- أحاديث ياسين الحافظ سجلها أحد الباحثين الفرنسيين على شريط قبل وفاة ياسين بمدة وجيزة، ثمّ فُرّغ الشريط على الورق، ويملك كاتب هذه الأسطر نسخة ورقية من أحاديث وذكريات وآراء ياسين الحافظ مطبوعة على الحرير.

[440]- من حديث مسجل لمراد يوسف بتاريخ 28 آذار 2004، ومراد يوسف من الذين صمدوا بشجاعة في سجون المباحث السلطانية أيام الجمهورية العربية المتحدة، وسيصبح قائداً شيوعياً معروفاً ومتفانياً في العمل.

الاستعمار ومشاريعه وأحلافه العسكرية وفي سبيل السلم والاستقلال الوطني".

- "بالاستناد إلى ما يربينا عليه قائدنا ومربينا والأمين العام لحزبنا الرفيق خالد بكداش[441]، جعلنا كل همنا في النضال أن نفتش عن نقاط الاتفاق، لا نقاط الاختلاف، لتوحيد كل القوى الوطنية الشريفة الحية".

- "... بنى الحزب الشيوعي خطته الانتخابية في طرطوس، لا على اعتبارها معركة تدور بين عائلة وعائلة، أو بين طائفة وطائفة، أو بين عشيرة وأخرى، بل نظر إليها على اعتبارها معركة تدور بين القوى الوطنية المتمسكة بالاستقلال والسيادة، المتعلقة بالحريات الديمقراطية، الطامحة إلى حياة أكثر هناء وسعادة، وبين قوى الاستعمار الحاقدة على سورية، وتحويل شعبنا إلى قطيع من العبيد في خدمة الأمريكيين والإنكليز"[442].

- "... من أجل هذه الغاية، غاية قطع الطريق على مرشح القوميين السوريين، قرر حزبنا الشيوعي التصويت لمحيي الدين مرهج. المرشح الذي ندعوكم إلى تأييده، قد قال علناً بمحاربة الحلف التركي العراقي، وبمكافحة القوميين السوريين عملاء الاستعمار[443]، وبالدفاع عن الحريات الديمقراطية".

---

[441]- المربي والقائد و... إلخ، كانت أوصافاً يطلقها الشيوعيون على بكداش الشخصية الكاريزمية، التي غزت قلوب الشيوعيين وأنصارهم في حبهم وولائهم لبكداش، وسنرى أن دانيال نعمة قد وجّه على أعتاب المؤتمر الثالث للحزب وبعده نقداً لسلوك خالد بكداش، الذي تغيّر مع الزمن، وأخذت شعبيته بين رفاقه، وخاصة المقربين إليه، بالتلاشي. وهذا واضح في أدبيات الحزب الشيوعي، ووقوف معظم الذين تحلقوا حول بكداش ضده بعد 1969.

[442]- هنا إشارة واضحة إلى أن الحزب الشيوعي حزب علماني وطني معاد لعصبيات مجتمع ما قبل الرأسمالية بطوائفه وعشائره، وتأييد محيي الدين مرهج استند إلى: المواقف الوطنية لمرهج، وليس إلى وضعه العائلي أو الطائفي أو العشائري، والرغبة في قطع الطريق على مرشح القوميين السوريين، الذين رأى فيهم الحزب الشيوعي، آنذاك، أحد ركائز الاستعمار في البلاد.

[443]- كان العداء في ذلك الوقت مستحكماً بين الشيوعيين والقوميين السوريين، وخاصة في مناطق الساحل، وليس من هدف هذا الكتاب الغوص في مجريات ذلك الصراع وأسبابه.

الفصل الثالث
من نشاط دانيال نعمة في جريدة "النور" (1955-1956)

سنقدم ما استطعنا الوصول إليه من أمثلة عمّا خطه يراع دانيال نعمة في جريدة "النور"، في الفترة الواقعة بين وصوله إلى الجريدة في صيف 1955 ومغادرته الوطن في أواسط أيلول 1956 للدراسة في موسكو، إذ إن الحزب الشيوعي بدأ في إرسال كوادره لدراسة "الماركسية - اللينينية والاقتصاد السياسي"، ونرجّح أن قسماً كبيراً مما نشر باسم مراسل "النور" البرلماني من إنتاج دانيال نعمة وعبد الباقي الجمالي، صاحب امتياز إصدار جريدة "النور".

وفيما يلي مقالات دانيال نعمة، المنشورة في "النور"[444]، والتي استطعنا الوصول إليها:

1- العدد 66 من جريدة "النور" الصادر في 15 آذار 1956 تضمن في العمود الأول والثاني من الصفحة الثانية مقالة لدانيال نعمة أوضحت طبيعة معركة الانتخابات البلدية، وكانت تحت عنوان: **"في سبيل بلديات تخدم الشعب"**، ننقل منها المقاطع التالية:

"تبدي شتى الأوساط اهتماماً متزايداً بالانتخابات البلدية، ويعود ذلك إلى عوامل عديدة، فهذه الانتخابات هي الأولى من نوعها، في كل تاريخنا. فالمعروف أن الاستعمار الفرنسي، إبان وجوده في سورية، كان قد أقر على الورق مبدأ قيام المجالس البلدية المنتخبة انتخاباً، لكنه عاد فتراجع عن هذا المبدأ، خوفاً من أن تصبح الانتخابات البلدية معركة حقيقية، تجند الجماهير بالاستناد إلى مطالبها الحيوية المباشرة ضد طغيانه وتعسفه، ومنها أن البلديات من حيث هي مؤسسات اجتماعية، بالدرجة الأولى، يجب أن تكون أقرب إلى الشعب وأكثرها ارتباطاً به، فهي إذن أكثر هذه المؤسسات قدرة على تحريك الجماهير وتوحيدها ولفها حول مختلف المطالب الشعبية الحيوية.

---

[444]- لا بد من الإشارة عند الحديث عن النور إلى الكاتب الألمعي مواهب الكيالي صاحب "خيط من نور" في الزاوية اليمنى من الجريدة، وما يزال هذا الخيط راسخاً في أذهان قرّاء "النور" في ذلك الزمن. ومواهب الكيالي، هو شقيق الأديب حسيب كيالي، من مواليد إدلب وابن مفتيها، كان من مرشحي الاتحاد الوطني عن إدلب عام 1954، وتوفي في دار الغربة في موسكو، وقلبه يتفطر حنيناً إلى الوطن، وأوصى أن تُنْقَل رفاته إلى الوطن، ولم تُتَح الظروف لتحقيق أمنية الأديب صاحب "خيط من نور". كتب دانيال نعمة أكثر من مقالة عن مواهب، ومنه أخذنا هذه المعلومات، انظر جريدة "نضال الشعب" في 2001/02/28.

ويكفي للتدليل على ذلك، أن نعود إلى المواد الأولى والثالثة والرابعة من قانون البلديات، هذه المواد التي تحدد صفة البلدية، وتعين اختصاصاتها باتخاذ التدابير المتطلبة لتنظيم المدينة أو القرية وتجميلها، ووقاية الصحة العامة، وتأمين سلامة المواد الغذائية، وتحديد شروط التموين، وتحديد الأسعار ومراقبتها، وتشجيع الثقافة والرياضة، وإعطاء الأولية في المشاريع البلدية إلى إنشاء المجارير وإسالة المياه ووصل الكهرباء، وتعبيد الطرق الضرورية للأحياء الفقيرة الكادحة. أجل، يكفي العودة إلى مثل هذه المواد، لندرك مدى ما للبلديات من روابط متينة بمختلف فئات السكان، وبصورة خاصة بالجماهير الشعبية الكادحة.

إن مجرد نظرة إلى هذه المهمات الموضوعة أمام البلديات، وفقاً للقانون الجديد، تعطي صورة عن مدى الواجبات الملقاة على الهيئات البلدية، ومن هنا نرى أهمية انتقاء الأفراد، الذين ينبغي، كي يتمكنوا من تحقيق الأمانة، أن يكونوا شديدي الارتباط بقضايا شعبهم وشديدي الاهتمام بحاجاته ومتطلباته.

كذلك يبرز مدى هذه الواجبات لكل عين، إذا أدركنا مدى سوء الأوضاع التي تتردى فيها أكثر البلديات، ومن نافل الكلام التحدث عن مدى التأخر في بلديات القرى والقصبات الصغيرة، كذلك من نافل الكلام أن نتحدث عن مدى الإهمال لحقوق الأحياء الفقيرة في جميع مدن سورية، فحتى الآن، كانت هذه الأحياء وتلك القرى مناطق تُفْرَض عليها واجبات كثيرة، دون أن تنال في أغلب الأحيان أي حق من الحقوق، فمعظم هذه الأمكنة محرومة من حاجاتها من المياه الصحية والكهرباء، وأزقتها موحلة غير معبدة، هذا إضافة إلى نواقص كثيرة لا تعد ولا تحصى.

ومن هنا تبرز أهمية الانتخابات البلدية المقبلة، ومدى واجبات الشعب في هذه الانتخابات.

إن انتخاب هيئات بلدية شديدة الارتباط بالشعب وشديدة الاحترام لإرادة الشعب، هي مهمة كبرى من الدرجة الأولى، ذلك لأنه آن الأوان، كي تصبح البلديات مؤسسة اجتماعية منبثقة عن الشعب، خاضعة له. وبمعنى آخر، لقد آن الأوان لأن تصبح البلديات مؤسسات تابعة للشعب حقاً، لا مؤسسات تهتم، كما في السابق، يوم كانت الهيئات تعين تعييناً، بتحقيق رغبات بعض المتنفذين المتسلطين، وبتطبيق سياسة إرضاء بعض المراجع فقط، الأمر الذي يجعلها هيئات مشلولة، وبعيدة عن مطالب السكان وأحاسيسهم.

ومن الواجب أن تتخذ الوسائل التي تجعل الشعب يدرك أن في وسعه، إذا هو أحسن تنظيم قواه وتوحيدها، أن يختار أعضاء مجلس البلدية اختياراً صائباً، ويجعل البلديات مؤسسات تحترم الشعب، وتهتم بمطالبه الحيوية، وتساهم في رفع مستواه المادي والثقافي، وبالتالي تساهم في تقويته أمام كل مؤامرات أعدائه، من أي نوع كانوا.

ومن الواجب أن يدرك الشعب أيضاً أن العناصر المعادية له لن تقف مكتوفة اليدين، فهي ستبذل كل جهدها لمنع انتخاب هيئات بلدية تمثل الشعب تمثيلاً

صحيحاً، ولإقامة هيئات تابعة لها وتهتم بتحقيق منافعها الخاصة المنافية للمصالح العامة.

ومن هنا يمكن القول إن أولى واجبات الوطنيين من مختلف الاتجاهات، هي القيام بحملات توضيح جماهيرية لأهمية البلديات والانتخابات البلدية، من حيث هي معركة ستدور حتماً بين تيارين اثنين: التيار الوطني المستند إلى الشعب، والتيار الآخر المعادي كل العداء لمصالح الشعب ومطامحه وحقوقه.

إن هذه المهمة التوضيحية أضحت مهمة الساعة حالياً، وعلى أبناء الشعب، من مختلف الآراء والاتجاهات، أن يباشروا فوراً القيام بكل مهمات هذه الانتخابات.

إن جميع إمكانات النجاح متوفرة للعناصر الوطنية الطيبة، من مختلف الميول والاتجاهات، وطريق تجميع كل هذه الإمكانات واضحة كالشمس، إنها الجبهة الوطنية الواسعة. إن العمل الانتخابي على أساس تجميع كل القوى الحية المخلصة للشعب في جبهة موحدة كفيل بتقرير مصير هذه الانتخابات منذ الآن، وما من سبب هناك يحول إطلاقاً دون تحقيق مثل هذه الجبهة.

إن مباشرة القوى الوطنية الواعية في العمل لقيام مثل هذه الجبهة منذ الآن سيلاقي كل تأييد من قبل الشعب، فالشعب بأسره يطمح لإيجاد هيئات بلدية تكون حقاً وصدقاً هيئات شعبية مستعدة للعمل على تحقيق مطالبه، كما أن الشعب سيعتبر نتائج هذه الانتخابات، إلى حد كبير، تعبيراً عن رأيه في مجموع الاتجاه السياسي في البلاد.

إن العمل التوضيحي الواسع، والنضال الحازم والمرن إلى أقصى حد، في سبيل الجبهة الوطنية الواسعة، هما خير سبيل لتسجيل أكبر نجاح وطني وشعبي في معركة الانتخابات البلدية المقبلة، ولإقامة هيئات بلدية مرتبطة بقضايا الشعب والوطن أوثق ارتباط".

2- بتاريخ 17 أيار 1956 نشرت "النور" في صفحتها الثانية، وفي العمودين الأول والثاني مقالة مغفلة من التوقيع: لأن طبيعة المقالة الإخبارية الإرشادية تقتضي ذلك، لكن من الواضح أن الإرشادات من وضع دانيال تحت عنوان: **"معلومات عن الانتخابات البلدية، إلى جميع المواطنين، بادروا إلى استلام بطاقاتكم الانتخابية! البطاقة تعطى مجاناً إلى أصحابها بواسطة المخاتير"**. جاء في المقدمة:

"ذكرت النور في عدد سابق أن الانتخابات البلدية ستجري، على الأرجح، في أواخر شهر تموز (1956) المقبل، وهكذا يبدو أن الوقت أصبح قريباً جدا، ومن المعروف أن الانتخابات البلدية ستجري بموجب قانون، أهم ما فيه، أنه، إضافة إلى تبنيه جميع مبادئ قانون الانتخابات العامة، قد أقرّ مبدأ إجراء هذه الانتخابات على أساس استخدام البطاقة الانتخابية بدلاً من الهوية الشخصية، التي كانت تستخدم في الانتخابات النيابية".

"... إن استخدام البطاقة الانتخابية يجري للمرة الأولى في تاريخ سورية، وهو

إضافة إلى الغرفة السرية، سيكون له أثر كبير جداً سيظهر ابتداءً من هذه الانتخابات المقبلة، وليس من أهدافنا في هذه المقالة أن نبيّن الأهمية الكبرى لاستخدام البطاقة الانتخابية، إنما هدفنا هو إرشاد الناخبين إلى الطرق التي تساعدهم على الحصول على بطاقتهم الانتخابية...".

وبعد أن تشرح المقالة الطويلة تقنية الحصول على البطاقة الانتخابية تدعو، في الختام، المواطنين إلى الإسراع في استلام البطاقة الانتخابية، لأنه "واجب كبير"، "فكل تأخير في استلام البطاقات الانتخابية، وفي السعي للحصول عليها، سيؤدي إلى إلحاق ضرر أكيد بمصلحة الجماهير الشعبية، التي من مصلحتها في الدرجة الأولى تقوية نفسها، وحشد كل إمكاناتها لإخراج مجالس بلدية، تهتم بمصلحة الشعب بالدرجة الأولى".

3- تحت عنوان: **"مهمات البلديات وواجباتها، وأهمية اشتراك الجماهير بالانتخابات البلدية"** نشر دانيال نعمة مقالة في "النور" بتاريخ 1956/05/23[445] تابع فيه، كما ذكر: "مساعدة قرّاء "النور" وأصدقائها في نضالهم من أجل القيام بحملة واسعة لتنوير الجماهير وجذبها للاشتراك في انتخابات البلدية وفي الاستعداد لها، لأنه على مدى إقبال الشعب على الانتخابات تتوقف، إلى حدّ كبير، عند كيفية المجالس البلدية المقبلة، ومدى قدرتها على خدمة الشعب".

تناولت المقالة العناوين التالية: مهمات البلديات وواجباتها، الأَوَّلية في المشاريع للأحياء الفقيرة. الاهتمام بالبلديات واجب شعبي كبير. طابع البلديات تغير كثيراً بعد أن أصبحت المجالس البلدية تنتخب انتخاباً، لا تعيّن تعيناً. طبيعة المجالس يمكن تبديلها. كيف تعمل البلديات؟

4- بتاريخ 1956/05/07 نشرت جريدة "النور" مقالة لدانيال نعمة بعنوان: "حول قانون العشائر"، الذي أقره المجلس النيابي تحت ضغط القوى اليمينية وكتلة العشائر في المجلس، وقد عالج دانيال في الصفحة الثانية من الجريدة وفي عَمودَيْ الزاوية اليمنى، التي نشر فيها مقالاته المنشورة باسمه أو المغفلة من التوقيع، دور "العناصر الرجعية" في نشر هذا القانون، الذي كان أكثر تخلفاً من القانون الصادر أيام

---

[445]- نشير مرة أخرى أن سلسلة المقالات، التي نشرها دانيال نعمة في "النور"، كانت مغفلة من أي اسم، وقد تحققنا من أن كاتبها هو المحامي دانيال نعمة المحرر في جريدة "النور" في تلك الفترة.

الشيشكلي.

وقبل إيراد المقالة القيّمة التي نشرها دانيال في أعقاب صدور قانون العشائر لا بد من مقدمة حول الصراع بين التحضر والتخلف المرتبط بالبدو، فأول قرار خاص بالبدو صدر عام 1936 في عهد الانتداب الفرنسي، لحل الخلافات التي تتم بين البدو فقط، ثم صدرت سلسلة قوانين بهذا الشأن، كان آخرها ما صدر أيام الشيشكلي في 1953/05/21، والذي رمى إلى تحويل عدد من العشائر البدوية إلى حضرية. وفي عام 1956 قرر المجلس النيابي وضع قانون جديد ليحل محل قانون العشائر الصادر أيام الشيشكلي، وقد جرت مناقشات حامية بين قوى التقدم والتخلف في المجلس النيابي حول هدف القانون، هل يسير بالبلاد إلى الأمام، أم يعود بها إلى الوراء؟ ولأسباب تتعلق بالأجواء السائدة، والتي أشار إلى بعضها دانيال في مقالته أُقِرَّ القانون بصيغته الرجعية، وهذا ما يلمسه القارئ عندما يقرأ المقالة. والطريف في الأمر أن قانون العشائر هذا لم يوافق عليه رئيس الجمهورية شكري القوتلي، ولهذا فإن القانون صدر اعتماداً على دستور 1950 باسم رئيس مجلس النواب بتاريخ 1956/06/13[446].

وفي ما يلي ما كتبه دانيال نعمة **"حول قانون العشائر"** منشوراً في جريدة "النور":

" علقت أكثرية الصحف السورية على قانون العشائر، الذي أقره مجلس النواب بمخالفة عدد من النواب التقدميين وبغياب نواب البعث العربي الاشتراكي، وكانت الصحف الناطقة بلسان بعض قادة حزب الشعب، كـ"النذير" في حلب، و"السوري الجديد" في حمص، وكذلك "لسان الشعب" في دمشق، هي الوحيدة التي اعتبرت أن إقرار هذا القانون كان بمثابة "نصر" للديمقراطية و"إقرار" للحق، كذا... وقد أطنبت في ذلك أيما إطناب.

ولا بد من القول إن مناقشة هذا القانون، ثم إقراره بالشكل الذي تم عليه، قد أثار انتباه الرأي العام الشعبي بصورة واسعة، حتى ليمكن القول: إن جميع العيون كانت تتطلع منذ بدء المناقشة، بانتباه كلي، إلى كل ما كان يجري تحت قبة البرلمان، وهذا أمر طبيعي، فالمشكلة التي أثارها هذا القانون هي إحدى المشكلات الهامة في مجتمعنا الحاضر. إنها مشكلة الانتهاء من نظام البداوة، مشكلة نقل مئات الألوف، من أبناء وطننا من نظام البداوة إلى النظام الحضري، الذي لا يجادل إنسان في أنه أفضل بكثير، وبما لا يقاس. وهي مشكلة قديمة جاء الاستعمار الفرنسي، فاستغلها

[446]- انظر ما نشرناه حول القانون في الفصل الخامس، الصفحة 168 وما يليها من كتابنا الصادر عام 1987 عن الاتحاد العام للفلاحين، المجلد الرابع، مصدر سابق.

أبشع استغلال، وأوجد لها نظاماً خاصاً يختلف كل الاختلاف عن الأنظمة القائمة، وسعى إلى المحافظة عليها، فمتن نفوذ زعماء العشائر، وأعاق كل تدبير من شأنه نشر التعليم بين البدو، كما أنه عمد تحت ستار الحرص على عدم وقوع احتكاك بين القبائل البدوية إلى إقطاع كل عشيرة من العشائر القائمة في سورية أرضاً، لها وحدها حق الاستفادة منها، وسلح هذه القبائل "للدفاع" عن نفسها و"المحافظة" على حقوقها.

ولكن هل كانت التدابير الإدارية، مهما بلغت من الإحكام بقادرة على منع التطور؟ كلا، فمع تطور أسلوب الإنتاج الزراعي، ومع دخول الآلة، بدأ أثر الانحلال يظهر في ملامح نظام البداوة، وأخذ النظام الحضري يتسرب إلى أوساط البدو الرحل، فقد لجأ أغلب زعماء العشائر إلى وضع أيديهم على أراضي عشائرهم، الأمر الذي أكده مندوب مديرية العشائر في المجلس النيابي أثناء بحث القانون، وأخذوا يستثمرون هذه الأراضي بمختلف الطرق، وكان طبيعياً من جرَّاء ذلك، أن يباشر قسم كبير أيضاً من أفراد العشائر باللجوء إلى حياة الاستقرار، وبالعمل في الزراعة كأجراء ومحاصصين، وأقيمت بيوت كثيرة من حجر أو لبن في مناطق كثيرة من البادية، حلت محل المضارب والخيام.

وهكذا، أصبح من الممكن السير نحو تحضير العشائر والخلاص من مآسي البداوة. لقد أقر الدستور السوري عام 1949 اعتبار البداوة حالة استثنائية، وأوجب الإسراع في اتخاذ التدابير لتحضير البدو، ولكن القائمين على الحكم يومذاك لم يخطوا في هذا السبيل أية خطوة.

وأصدر الشيشكلي أثناء حكمه مرسوماً نقل فيه الكثيرين من حالة البداوة إلى الحالة الحضرية، وأخذ هؤلاء يساهمون بواجبات المواطن، كالقيام بخدمة العلم، والاشتراك في الانتخابات النيابية.

وأدت هذه الخطوات التي تمت في ميدان التحضير إلى استياء بعض الفئات القليلة ممن يستفيدون من بقاء نظام البداوة، فهبت هذه الفئات مؤخراً إلى العمل لإعادة جميع العشائر التي تحضرت إلى نظام البداوة، واستغلت من أجل ذلك العيوب الكائنة في مرسوم الشيشكلي، كما استغلت أيضاً أن هذا المرسوم كان قد أعطى الصفة الحضرية إلى بعض العشائر بشكل جائر!

وحظيت هذه الفئات "بالتأييد"، فقد تبنت كل خطواتها بعض العناصر الرجعية، وذلك لأغراض سياسية لم تعد بخافية على أحد.

وكان أحمد قنبر وسهيل الخوري من حملة لواء هذا التأييد، بل على الأصح كانا من حملة لواء هذا الاتجاه، فعملا مع غيرهما لتحقيق أهداف ثلاثة:

***أولاً-** إعادة العشائر المعتبرة متحضرة، والتي تحضرت فعلاً منذ زمن ليس بقصير، إلى نظام البداوة. وهذا واضح من المحاولات التي بذلاها لإقرار المادة الثانية من قانون العشائر.*

ومن الواضح أن النائبين أحمد قنبر وسهيل الخوري كانا يدركان أن هذا العمل مخالف للدستور، الذي يحض على الإسراع في تحضير البدو، لا على إعادة

المتحضرين منهم إلى نظام البداوة، وقد نبَّه إلى هذه المخالفة الدستورية جميع النواب التقدميين، بل إن نواب البعث العربي الاشتراكي انسحبوا من جلسات المجلس احتجاجاً على مخالفة الدستور، التي تجلت في إقرار هذه المادة الثانية.

***ثانياً-** إيجاد صعوبات كبرى بعد إعادة جميع العشائر إلى نظام البداوة في وجه نقل هذه العشائر إلى النظام الحضري، وهذا واضح من الإصرار على بقاء المادة 6 من قانون العشائر، هذه المادة التي تعطي حق طلب الانتقال إلى الحالة الحضرية للبدوي وحده، دون أن يعطى مثل هذا الحق إلى مديرية العشائر أيضاً.*

ومعلوم أن خالد بكداش كان قد نبه بوضوح إلى أن بقاء مثل هذه المادة سيكون حاجزاً في وجه نقل العشائر، التي تتحضر فعلاً، إلى النظام الحضري، ذلك لأن الكثيرين ممن يتحضرون يفضلون البقاء بدواً، فيستفيدون من نعم الحضارة هذا من ناحية، ويتخلصون من واجبات النظام الحضري من ناحية ثانية.

***ثالثاً-** منع القوانين النافذة من السريان على أفراد العشائر بحجة التقاليد الخاصة والأعراف الموروثة، لتجنيب المجرمين ودافعيهم ومحرضيهم العقوبات الزاجرة، و(لحمايتهم) من قانون خدمة العلم. وهذا واضح من موقف أحمد قنبر وسهيل الخوري من المادتين 8 و12، ومن المادة 23، التي أصبحت فيما بعد المادة 24، وهي المواد التي نجحت المعارضة في إدخال تعديلات عليها، مما جعل جميع الجرائم خاضعة للمحاكم العادية ولأحكام القانون، ومما أخضع البدو لنظام خدمة العلم.*

إن جميع أبناء الشعب السوري، وبينهم كثيرون من أفراد العشائر بالذات، مستاؤون من مواقف العناصر الرجعية، ويزيد في الاستياء أن الدوافع التي دفعت هذه العناصر إلى تلك المواقف، إنما هي دوافع بعيدة عن مصلحة البلاد وعن مصلحة أفراد العشائر، وهي تتصل كل الاتصال بالاتجاه السياسي، الذي تمثله هذه العناصر، وتلعب فيه الدور البارز، فهي في سبيل تلافي الخسائر التي تنزل بها يومياً، لم تفكر بتلافي هذه الخسائر عن طريق تحسين سياستها، بل فكرت بتلافيها عن طريق تقوية كتلة العشائر وزيادة عدد ممثليها في المجلس، وهي لم تأبه في هذا السبيل إلى أنها خالفت الدستور، الذي ينص على الإسراع في تحضير البدو لا على إعادة المتحضرين إلى البداوة، وخطت في هذا الميدان خطوة إلى وراء بالنسبة لمرسوم الشيشكلي، على الرغم من كل العلل الكائنة في هذا المرسوم.

وإذا كانت هذه العناصر الرجعية قد تمكنت من تحقيق بعض أهدافها، فهي لم تستطع تحقيق كل ما كانت تطمح إليه، فإضافة إلى الانتصار المعنوي الكبير الذي حققته المعارضة خلال المناقشات التي رافقت إقرار القانون، تمكنت هذه المعارضة من تحقيق نجاحات كبرى في ميدان تطبيق القوانين السائدة على الجرائم، التي يرتكبها البدو، وفرضت مادة خدمة العلم في صلب القانون.

إن "النذير" و"السوري الجديد" و"لسان الشعب" تتغنى بالقانون الجديد، فبأي حق تفعل ذلك؟ أَلَمْ يخبرها المشرفون عليها أن هذه التعديلات قد أدخلت عنوة ورغم مقاومة أحمد قنبر وسهيل الخوري؟ ثم ألم تسمع هذه الصحف بأن أحمد قنبر قد

اقترح تلاوة ثانية لهذه المواد بغية تجريدها من هذه التعديلات الجوهرية؟
وإذا كان لنا من كلمة أخيرة نقولها، فهي أن الاستياء من مواقف هذه الفئات الرجعية، قد عمَّ مجموع البلاد، بل الأخبار الواردة من حلب تؤكد أن هذا الاستياء قد وصل حتى إلى بعض الأوساط المقربة كثيراً من بعض القادة اليمينيين في حزب الشعب.

ومعروف طبعاً أن في هذا كل الخير وكل البركة، فبمقابل هذا الاستياء من مواقف الرجعيين تزداد ثقة الجماهير بالنواب التقدميين، الذين أثبتوا بنضالهم ضد قانون العشائر أنهم، إضافة إلى سيرهم مع التطور، قادرون على تحقيق أشياء كثيرة نافعة، وعلى رد الكثير من المساوئ وإحباط مؤامرات الرجعية".

5- في الصفحة الثانية من "النور" بتاريخ 1956/05/22، وفي الزاوية اليمنى، وعلى مساحة ثلاثة أعمدة نشر دانيال نعمة مقالة بعنوان: **"على هامش قرارات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سورية ولبنان... المهمة الكبرى: صون الاستقلال وتوطيده"**. وفي ما يلي مقاطع من تلك المقالة:

"إن مسألة صون الاستقلال الذي تتمتع به سورية، وتوطيد هذا الاستقلال، هي المسألة الرئيسية التي تشغل الحيز الأكبر من اهتمام كل مواطن شريف في سورية، بل من اهتمام كل مواطن عربي في أي قطر من أقطار العروبة كلها.
واللجنة المركزية لحزبنا الشيوعي قد أعارت، أثناء انعقاد دورتها الأخيرة، أعظم اهتمامها لهذه المسألة الكبيرة، ذلك لأن الحزب الشيوعي يدرك عظم مسؤولياته إزاء هذا الوطن، الذي يفخر كل شيوعي سوري بانتمائه إليه.
فوطننا العربي سورية، كان أول قطر عربي، تمكن من انتزاع استقلاله بعد الحرب العالمية الثانية. وإذا كان للتأييد الذي أولتنا إياه القوى الديمقراطية في الدنيا، وفي طليعتها بلد الاشتراكية، وصديق العرب الكبير، الاتحاد السوفييتي ، فضل عظيم في تحقيق هذا الاستقلال، وهو فضل لا يمكن أن ينساه عربي، فالفضل الأكبر إنما يعود إلى الدماء الزكية، التي أراقها شهداؤنا في كل بقعة من بقاع الوطن، خلال ربع قرن، الفضل الأكبر يعود إلى نضال شعبنا السوري العربي بجميع فئاته الوطنية.

إن المستعمرين الأمريكيين والإنكليز لم يكفُّوا لحظة واحدة، منذ ولادة استقلالنا حتى الآن، عن الكيد له والتآمر عليه. فكم من مرة لجؤوا إلى ممارسة الضغط المباشر علينا، بغية القضاء على استقلالنا بجرنا إلى أحلافهم الاستعبادية المجرمة كحلف بغداد؟ وكم من مرة دفعوا إسرائيل، ركيزتهم وصنيعتهم المجرمة، للاعتداء علينا، بقصد إرهابنا ودفعنا إلى الارتماء في أحضانهم الملوثة والتخلي عن استقلالنا!

وإزاء هذه الأغراض الاستعمارية الإجرامية الواضحة ينتصب أمام شعبنا بأسره، كما جاء في قرار اللجنة المركزية: "... واجب قومي كبير، يقضي على العمال والفلاحين والشباب والنساء والمثقفين وعلى جميع الوطنيين، مهما كان

حزبهم، ومهما كانت طبقتهم، بتوحيد الجهود لإحباط جميع المحاولات الرامية إلى إعادة العبودية الاستعمارية إلى وطننا"، أو بكلمة أخرى، تنتصب أمام شعبنا مهمة كبرى رئيسية، هي مهمة صون الاستقلال وتوطيده، لأن صون الاستقلال وتوطيده ليس ضرورياً فقط للمحافظة على منجزاتنا، بل لأنه هو القاعدة الأساسية لانطلاق سورية نحو آفاق واسعة من التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

واللجنة المركزية لحزبنا الشيوعي، كما هو مبيَّن في القرارات الصادرة عن دورتها الأخيرة، تعتقد اعتقاداً راسخاً، أن كل حديث عن التقدم والازدهار خارج نطاق صيانة الاستقلال وتوطيده، إنما هو هراء، أو تدجيل موحى به. وبالفعل، كيف يمكن الحديث عن أية إمكانية للإصلاح في المدن وفي الأرياف، وكيف يمكن الحديث عن أية إمكانية للسير في طريق الازدهار والرفاه، وفي طريق الرقي والتقدم، وكيف يمكن الحديث عن المساهمة في النضال من أجل حرية العرب ووحدتهم، إن لم نصن استقلالنا الوطني كما تصان حدقات العيون، وإن لم نوطد دعائم هذا الاستقلال ونثبت أركانه؟ ومما لا شك فيه أن مهمة صيانة الاستقلال وتوطيده إنما هي مهمة، عدا أن هناك إجماعاً حولها، ممكنة التحقيق تماماً، ولا تقبل أي جدل.

واللجنة المركزية لحزبنا الشيوعي، كما هو واضح في قراراتها، تعتقد اعتقاداً ثابتاً بأن لدى سورية كل الإمكانات لصون الاستقلال وتوطيده، بحيث يصبح هذا الاستقلال راسخ الأركان كجبال وطننا، وبحيث يصبح نقطة استناد كبرى لكل الحركة الوطنية العربية، التي تساهم بشرف في تصفية الاستعمار العالمي.

وبالفعل، فأي مواطن مخلص لا يرى أن مثل هذه المهمة الكبرى يمكن تحقيقها بالمزيد من التعاون مع الدول العربية، التي تسلك سياسة تحررية، وبالمزيد من التأييد للشعوب العربية ولكل الشعوب التي تناضل في سبيل استقلالها؟

وأي مواطن لا يرى أن هذه المهمة يمكن تحقيقها بشرف بالمزيد من إطلاق حريات الشعب، وبالمزيد من الاهتمام بتطوير اقتصاد سورية الوطني ورفاهية شعبها وتحسين أحواله، وبالمزيد من العمل لتوحيد الصفوف الوطنية وحشدها كلها على اختلاف نزعاتها في جبهة وطنية تسد الطريق بوجه كل مؤامرة استعمارية؟ ذلك لأن متانة قوانا الداخلية ووحدتها هي الشرط الأولي، الذي يستتبع كل شرط آخر. تلك هي الطريق، التي رسمتها لجنتنا المركزية في قراراتها.

إن قرارات اللجنة المركزية قد دلت على طريق صيانة الاستقلال وتوطيده. وطبيعي أن الشيوعيين السوريين المتحدرين من صلب الشعب، والمرتبطين به أوثق ارتباط، والمتمرسين في مدرسة حزبهم الكبير، سيقومون بكامل مسؤولياتهم في هذا الميدان باندفاع كبير وبتفانٍ ونكران ذات، ودون أن يأبهوا لأية صعوبة مهما عظمت.

إن الشيوعيين سيتخذون قرارات لجنتهم المركزية نبراساً، ينير لهم السبيل إلى العمل بنجاح من أجل حشد جميع القوى الوطنية الخيرة في جبهة وطنية شاملة، تكون الركن الركين لاستقلالنا، والقوة المحركة التي تسير بوطننا إلى أمام في

طريق الازدهار والاستقرار ونحو حياة أفضل لجماهير شعبنا".

6- بتاريخ 1955/12/01 نشر دانيال نعمة في جريدة "النور" مقالة مغفلة من التوقيع وجدنا نصها، بخط دانيال، محفوظاً في أرشيفه. المقالة بعنوان: **"جرائم الخيانة والتجسس واغتيال المالكي ثابتة على عصابة السوريين القوميين... عبثاً يجهد محامو الدفاع لتبرئة العصابة من هذه الجرائم"**، وواضح من المقالة أن دانيال نعمة كان متتبعاً لمحاكمة الحزب السوري القومي الاجتماعي بتهمة اغتيال عدنان المالكي نائب رئيس أركان الجيش السوري، المعروف بوطنيته وتأهله لاستلام منصب رفيع في المستقبل. اهتمام دانيال نعمة بمجريات محاكمة المتهمين بقتل المالكي نابعة من الأمور التالية: عمله في جريدة "النور"، إذ كان أحد المراسلين، الذين غطوا سير المحاكمات، التي استحوذت على اهتمام الرأي العام. ومهنته كمحام عضو في حزب دخل في صراع مرير مع الحزب السوري القومي، وقد بلغ هذا الصراع أشده في منطقة صافيتا نقطة انطلاق دانيال إلى عالم السياسة، فالقوميون السوريون كما كتب دانيال: "هم قتلة رئيف بركات دعمش من الكفرون يوم عيد الجلاء عام 1951، وقتلة يوسف عيسى من البريج يوم عيد الجلاء عام 1955".

وفي عدد "النور" السابق لهذه المقالة كتاب مغفل من التوقيع موجه "إلى وزير الداخلية وجميع المسؤولين في سورية، تغاضي السلطات في صافيتا عن اعتداءات السوريين القوميين المتكررة خدمة للاستعمار، وجزء من المؤامرة الأجنبية على سورية". المقالة، وهي من إعداد دانيال دون شك، تذخر بالتفاصيل الدقيقة عن حوادث استفزاز واعتداء قام بها أفراد معروفون من السوريين القوميين في المشتى، واعتدائهم على الطالب ميخائيل عيد[447] والمعلم سليمان شاليش، وهجوم أفراد من الحزب السوري القومي على دار والد دانيال حنا سليمان نعمة ورشقها بالحجارة، ثم انتقلت للهجوم على بيت إلياس الحكيم، وبعده على دار عيسى ميخائيل جرجس. ويختتم دانيال مقالته المغفلة من التوقيع بالفقرة التالية: "إننا نضع هذه القضايا أمام وزارة الداخلية وجميع المسؤولين، ليروا رأيهم في الموضوع وفق متطلبات الأمن والسلامة وقطع دابر

---

[447]- سيصبح ميخائيل عيد شاعراً وكاتباً ومترجماً وعضو المكتب التنفيذي لاتحاد الكتاب العرب حتى وفاته.

الخيانة والتجسس"[448].

7- تحت عنوان: "صوت عربي قوي في الدفاع عن سورية والعروبة" نشرت جريدة "النور" بتاريخ 29 شباط 1956، مقالة لدانيال نعمة عرضت وقوّمت خطاب خالد بكداش الأمين العام للحزب الشيوعي في سورية ولبنان، الذي حيّا فيه المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي، ومما كتبه دانيال:

"... والأهمية الكبرى في هذا الخطاب، أنه على إيجازه، أعطى المؤتمر الذي يتعدى بشموله حدود الاتحاد السوفييتي، صورة واضحة المعالم والخطوط عن النضال الوطني الذي تخوضه سورية وأقطار العروبة، وعن الأهداف الوطنية العادلة التي يرمي إليها هذا النضال، كما أعطى أيضاً صورة صارخة عن طبيعة المؤامرات، التي يحيكها المستعمرون الأمريكيون والإنكليز وصنائعهم وركائزهم في الشرق الأوسط كله.

وهكذا جاء هذا الخطاب صفعة جديدة، أضافها خالد بكداش إلى سلسلة الصفعات التي وجهها لإسرائيل، من على منبر مجلس النواب السوري، يوم أثبت بمناقشة ماركسية لينينية انتفاء مقومات الأمة بين يهود العالم، ويوم أثبت أيضاً على صفحات جريدة (في سبيل سلم دائم، في سبيل ديمقراطية شعبية)، الصادرة في بوخارست بثماني عشرة لغة، طبيعة إسرائيل من حيث هي ركيزة من ركائز الاستعمار الأمريكي وأداة تهديد بيده...

ومن أهم ما جاء في خطاب خالد بكداش، أنه بيَّن أن الشعب السوري وكل الشعوب العربية تطمح إلى تحقيق وحدة البلدان العربية على أساس الديمقراطية والتحرر التام من الاستعمار. كذلك عبَّر خالد بكداش في خطابه التاريخي عن طموح سورية العربية إلى القضاء على التأخر الاقتصادي، الذي أورثتها إياه السياسة الاستعمارية، وإلى تقوية نفسها في الميدان الصناعي والزراعي، وفي الميدان العسكري أيضاً، لأن قوة سورية هي الشرط الضروري للمحافظة على استقلالها ولتوطيده، وهكذا أفصح الخطاب في هذا الميدان، عن إرادة جميع الوطنيين السوريين الصادقين بغض النظر عن اتجاههم وعن آرائهم وفئاتهم.

ويبيِّن خالد بكداش أيضاً الدور الذي تقوم به الجبهة الوطنية في النضال ضد الاستعمار وأحلافه، وأشاد بالدور الهام الذي يلعبه التعاون بين الشيوعيين وحزب البعث العربي الاشتراكي وجميع الوطنيين والديمقراطيين في الدفاع عن استقلال

---

[448]- لا نريد هنا الدخول في تفاصيل الصراع بين الحزب الشيوعي والحزب السوري القومي الاجتماعي وموقفهما من الأحداث العالمية، فما نريد الإشارة إليه هنا هو أن الحزب السوري القومي الاجتماعي وحزب البعث والحزب الشيوعي أحزاب علمانية، ونحن هنا في هذا الكتاب ألقينا الأضواء على موقف الحزب الشيوعي من الطائفية والعشائرية والعائلية، ونترك لباحثي المستقبل تتبع مواقف البعث والسوري القومي من تلك الظواهر.

سورية وسيادتها.

وأخيراً، بيَّن خالد بكداش أن للاشتراكية في سورية وأقطار العروبة طريقها العربي الخاص، الذي ينبثق من خصائصنا.

لقد رأى الشعب السوري، بحق، في خطاب خالد بكداش صوتاً عربياً مدوياً في الدفاع عن حقوق سورية والعرب، وفي التعبير عن مطامح حركتنا الوطنية في سورية ولبنان وسائر ديار العروبة".

8- بتاريخ 1956/09/13 نشرت النور مقالة لدانيال نعمة تحت عنوان: **"إلى من تهمه «هيبة الحكم» حادث وحشي ترتكبه المحافظة الممتازة: "المحافظة تهدم بيتاً في الديوانية دون أي إنذار، ورجال الشرطة يضربون سكانه، ويوقفونهم بشكل مخالف لأي قانون".**

"صباح أمس داهمت مفرزة من الشرطة، بيت عبد القادر فتاحي في حي الديوانية شرق معهد اللاييك، وحاولت اقتحام الدار وإخراج من فيها من السكان، بغية مباشرة هدم هذه الدار، ولكن هذه المفرزة ووجهت على ما يبدو بتشبث سكان هذه الدار بالبقاء في دارهم وعدم السماح بهدمها، ويظهر أن محاولة هؤلاء البسطاء الدفاع عن المأوى الذي يؤويهم لم يرض مفرزة الشرطة، فطلبوا النجدة، وبالفعل أنجدتهم الجهات المعنية بأعداد كبيرة من رجال الشرطة، وما إن أضحت القوة «كافية» للتغلب على أصحاب الدار حتى باشرت هذه القوة هجومها على جميع الغرف دفعة واحدة، فحطمت الأبواب، وانهالت ضرباً على من في غرف الدار دون أي تمييز بين رجل وامرأة وبين شيخ وطفل... فقد ضربوا الشباب شفيق وفائق وبديع أبناء صاحب الدار ضرباً شديداً مبرحاً، كما رفسوا بالأرجل والدة الشباب زوجة عبد القادر فتاحي، التي تتجاوز الستين من عمرها، وهي الآن متورمة الوجه والصدر وطريحة الفراش، كما رفسوا زوجة شفيق وزوجة فائق، وضربوهما ضرباً موجعاً، والاثنتان حاملان، وكادوا يسحقون تحت أقدامهم طفلة شفيق، التي تبلغ من العمر حوالي 15 شهراً، ولم ينج صاحب الدار من الضرب والاعتقال إلا لأنه متغيب منذ أمد طويل. وبعد أن تغلبوا على «مقاومة» سكان الدار من نساء وأطفال، أخذوا يرمون بالأمتعة في الزقاق الجانبي، وباشروا الهدم، كما استاقوا إلى السجن شفيق وفائق وبديع.

ولم يستثن رجال الشرطة من الضرب حتى الجيران والجارات، الذين جاؤوا يطلبون إلى الشرطة إمهال جيرانهم ريثما يدبرون مكاناً يأوون إليه، أو الذين جاؤوا ليستفسروا عن الدافع إلى هدم الدار...

لقد حول رجال شرطة المحافظة ووزارة الداخلية دار عبد القادر الفتاحي، التي تتألف من أربع غرف، إلى أكوام تراب وأنقاض، أما العائلات الثلاث التي كانت تسكن هذه الدار، فقد ذهب رجالها إلى السجن، وتشردت نساؤها وأطفالها، وتبعثرت جميع أمتعتهم بين الأزقة وبين بيوت بعض الجيران.

هذا هو الحادث الذي شهده أهل حي الديوانية الفقير القائم في البساتين الكائنة وراء مدرسة اللاييك، ونحن لا ندري الحكمة من وراء هذا العمل الاستبدادي،

فالشارع، الذي يقال بأن الهدم جرى تمهيداً لفتحه، ما يزال شارعاً على المخطط، فليس من أعمال هناك، على الأقل حالياً، لشقه. كذلك يؤكد أهل الدار أنهم لم يتلقوا أي إنذار سابق... كما يؤكدون أن دارهم قد بنيت منذ عشرات السنين.

ومهما كانت المبررات التي ستطلع بها علينا محافظة مدينة دمشق، ومن فوقها وزارة الداخلية غداً، فنحن لا نستطيع إلا أن نُذَكِّر هذه «المقامات» العليا بالوعود التي قطعتها أكثر من مرة، بأنها لن تهدم بيتاً قبل أن تؤمن غيره، فهل أمّنت المحافظة أو وزارة الداخلية بيتاً لهذه العائلة الكبيرة عوضاً عن البيت الذي هدمته؟ وهل فكرت هذه «المقامات» بمصير هذه العائلة ومئات العائلات، خصوصاً وقد أصبحنا على أبواب الخريف؟

إننا نستنكر العمل الذي قامت به المحافظة أمس، ونطالب بوقف تنفيذ هدم البيوت الأخرى الكائنة في حي الديوانية، كما نطالب بالتعويض السريع على أهل الدار التي هدمت، أو بتأمين عيالها، كما نطالب بالإفراج عن الموقوفين من أهلها، وبمعاقبة الذين اعتدوا على العجائز والحبالى وعلى الأطفال".

الفصل الرابع
الجمهورية العربية المتحدة

عندما تمت الوحدة بين سورية ومصر في إطار الجمهورية العربية المتحدة كان دانيال نعمة، كما رأينا، طالباً في مدرسة الحزب العليا في موسكو. وبعد أن تلقى الحزب الشيوعي ضربات أليمة على يد القوى الأمنية المنفلتة من عقالها عام 1959، طلبت قيادة الحزب من دانيال ترك موسكو والعودة إلى بيروت، تمهيداً لدخول سورية والعمل على إعادة بناء الحزب المثخن بالجراح. وفي بيروت، عمل دانيال مع رفاقه على إعادة تجميع الشيوعيين الهاربين من جحيم الإرهاب المباحثي المخابراتي، وفي الوقت نفسه التحضير للعودة السرية إلى الوطن، كما سنرى في الباب القادم. ولهذا، نرى من الضروري دراسة سريعة لقيام الجمهورية العربية المتحدة، ومن ثمّ ظروف تفككها السريع وعودة الجمهورية العربية السورية إلى عالم الوجود مرة أخرى.

أولاً- في قيام الجمهورية العربية المتحدة وانهيارها

كانت الوحدة بين القطرين العربيين سورية ومصر الحلم الذي راود عشرات الملايين من أبناء العروبة، ولا يتسع المقام هنا لبحث الدوافع الكثيرة، التي أدت إلى قيام الجمهورية العربية المتحدة، لكن بات من

الواضح أن قيادات الأحزاب البرجوازية السورية بمختلف شرائحها وجدت في الوحدة بين سورية ومصر أحد أبواب النجاة من تعاظم المد الشعبي اليساري، الذي كان واضحاً أن الحكم الجديد في الجمهورية العربية المتحدة سيوجه له ضربة قاصمة، وظنت البرجوازية السورية أن الاتحاد مع مصر سيفتح أمامها أسواقاً واسعة لمنتجاتها وتجارتها.

ولكن فشل الأسلوب الرأسمالي التقليدي في التنمية أدى إلى تفاقم أزمة النظام، الذي أخذ يبحث عن مخرج من أجل تخطيط أكثر شمولاً وتحسين وضع الجماهير الكادحة، وهذا ما دفع النظام إلى الاستيلاء على أهم مفاتيح الحياة الاقتصادية، وتوجيه ضربة للرأسمال الكبير (نسبياً) في تموز 1961.

وقبل تأميمات يوليو(تموز)1961 الكلية أو الجزئية، كانت قيادة الجمهورية العربية المتحدة قد أصدرت في خريف 1959 قانون الإصلاح الزراعي، الذي لم يلق النجاح المطلوب في تحرير الفلاح، بسبب سيطرة الأجهزة البيروقراطية المعادية في معظمها للتقدم على تطبيق القانون، كما أن الظروف القاسية التي عاشتها القوى الوطنية التقدمية، والضغط عليها وسجن بعضها أو إبعادها عن المواقع الهامة، سهّل على البرجوازية الكبيرة الانقضاض على الإجراءات الاقتصادية، وبخاصة تأميمات تموز 1961، التي أفقدت البرجوازية جزءاً من رساميلها. وخلال فترة وجيزة أعدت البرجوازية نفسها، ونظمت انقلاب 28 أيلول1961، الذي أدى إلى انفصال سورية عن مصر وقيام الجمهورية السورية مرة أخرى. وفي ذلك الوقت، كانت القوى السياسية التقدمية تعيش في حالة من اليأس والضياع والاغتراب، وبعضها يقبع في غياهب السجون، وهذا ما يفسر نجاح البرجوازية السورية في تنظيم الانقلاب، مستغلة الاستياء العام من اليمين واليسار، لإسقاط نظام الوحدة، متعاونة مع القوى العربية المعادية لعبد الناصر ومع العسكريين المغامرين، كما كان لتفسخ الجهاز البيروقراطي والصراعات التي نشبت داخله (الخلاف مع وزير الداخلية السراج) أثر في نجاح الانقلاب.

إن المحتوى التقدمي للإجراءات الاجتماعية الاقتصادية أيام الوحدة بين سورية ومصر تدنى كثيراً، لأن الحكومة حاولت أن تفرض تلك الإجراءات على البرجوازية الكبيرة دون أن تعتمد على مساندة القوى

الوطنية التقدمية في البلاد، في وقت خُنقت فيه الحركة النقابية، وحُرمت الطبقة العاملة وغيرها من الشرائح الاجتماعية من العمل السياسي، فقانون العمل الجديد رقم 91 لعام 1959 حظّر على العمال الاشتغال بالسياسة، وأجاز لوزير الشؤون الاجتماعية والعمل في حالات معينة حل النقابة، كما ربطت المادة 174 الحركة النقابية بالسلطة، هذا الربط أصبح "عرفاً وعادة" فيما بعد، وزاد في الأمر تأزماً صدور القانون رقم 8 لعام 1960، الذي استهدف القضاء على استقلال الحركة النقابية، وجعلها إلى حد بعيد أحد استطالات السلطة، واستمر الأمر على هذا المنوال في العهود اللاحقة، مع وجود فترات زمنية قصيرة كانت الحركة النقابية فيها تحاول الاستقلال عن السلطة القائمة.

ومع إلغاء الأحزاب لنفسها (ما عدا الحزب الشيوعي، الذي رفض حل نفسه)، والذي كان بمثابة منع للأحزاب السياسية المزدهرة في خمسينيات القرن العشرين والممثلة لمختلف القوى الاجتماعية والتيارات السياسية، سُددت ضربة قاتلة إلى إحدى ركائز المجتمع المدني المزدهر في مرحلة ما بعد الاستقلال، وخصوصاً مرحلة المجلس النيابي (1954-1958).

وقام مقام هذه الأحزاب مؤسسة "الاتحاد القومي"، وهو أحد المؤسسات السياسية الرسمية، التي أسستها السلطة ورعتها، وقد تجمعت في الاتحاد القومي قوى من مختلف المشارب والألوان، استغل بعضها الشعارات الضبابية لضرب الجوهر الأصيل للوحدة، في وقت كانت القوى الحيَّة الوحدوية الأصيلة تقبع في السجون، أو مبعدة عن مفاصل الحياة العامة الأساسية.

ولا شك أن الأجهزة البيروقراطية والمباحثية في الجمهورية العربية المتحدة كانت المعول الهدام في خلق بذور الاستياء بين الناس، وفي القضاء على مؤسسات المجتمع المدني أو تحجيمها، وهي المؤسسات التي انتعشت في عهد ما بعد الاستقلال، وخاصة في مرحلة المجلس النيابي (1954-1958).

وقد سهّل ذلك إبعاد القوى الوطنية والتقدمية عن المواقع الهامة في دوائر الدولة، والضغط عليها، أو إلقاء أقسام منها في غياهب السجون، والقيام بحملات تعذيب للمساجين الصامدين، مما أدى إلى موت عدد منهم تحت التعذيب.

ثانياً- موقف الحزب الشيوعي وأمينه العام خالد بكداش من قيام الجمهورية العربية المتحدة

بتاريخ 1957/11/18 قام وفد برلماني مصري بزيارة سورية. شارك هذا الوفد في جلسة المجلس النيابي السوري. وفي نهاية الجلسة، اتخذ المجتمعون قراراً تاريخياً يتضمن دعوة الحكومتين السورية والمصرية للدخول في مباحثات لإقامة اتحاد فيدرالي بين القطرين سورية ومصر، وأيد الحزب الشيوعي قيام هذا الاتحاد.

وبعد هذا القرار ازداد في كانون الأول 1957 بشكل ملحوظ نشاط السفارة المصرية بدمشق برعاية السفير محمود رياض والملحق الصحفي عدلي حشاد، وأقامت السفارة المصرية اتصالات مباشرة مع قوى سياسية وحزبية وثقافية خارج إطار السلطة السورية، وشجعتها لإطلاق شعار الوحدة الاندماجية بين سورية ومصر، والسؤال المطروح هو: لماذا جرى استبعاد مبدأ الاتحاد الفيدرالي واستبدال مبدأ الوحدة الاندماجية به؟ والجواب عن هذا السؤال يكمن، حسب رأينا، في عدة أمـور، أهمها:

- المشاعر القومية العربية، التي بدأت تظهر أواخر الحكم العثماني، وأخذت تتفاعل في عهدَيْ الانتداب والاستقلال، وبلغت أوجها في أواخر خمسينيات القرن العشرين، فقد كان الطموح لدى الأجيال الصاعدة لتحقيق الوحدة العربية السمة البارزة في سورية آنذاك، وكان لغرس "دولة إسرائيل" على أرض فلسطين العربية دور حاسم في الدعوة إلى الوحدة العربية للخلاص من هذه البؤرة الصهيونية العدوانية.

- رغبة بعض القوى السياسية (حزب الشعب وغيره) ذات التلاوين اليمينية في الخلاص من الحكم الوطني الديمقراطي، الذي بدا واضحاً أنه يسير باتجاه تعميق هذا الخط، المدعوم من خالد العظم ممثلاً للبرجوازية السورية.

- طموح قوى يسارية (أكرم الحوراني والبعث) للخلاص من الشيوعيين، والأمل في السيطرة على سورية، ظنّاً منها أن عبد الناصر سيطلق يدها في طول البلاد وعرضها.

- تصارع الضباط الكبار وتنافسهم في السير نحو الوحدة الكاملة مع مصر لـ"إنقاذ البلاد" وكل يغنِّي على ليلاه.

وأمام هذه المواقف طرح الرئيس جمال عبد الناصر شروطه لقبول

الوحدة لا الاتحاد مع سورية، وكان من أبرز هذه الشروط: حلّ الأحزاب في سورية، إلغاء تصاريح جميع الصحف، ومنع الضباط من تعاطي العمل السياسي، ومعنى هذه الشروط تصفية النظام الوطني الديمقراطي في سورية، وإقامة نظام رئاسي شمولي بدلاً عنه، يقوم على مبدأ الحزب الواحد، وهو الاتحاد القومي القائم في مصر، وقد وافق الضباط على شروط عبد الناصر دون أدنى تحفظ، وعاد الضباط إلى دمشق ليصطحبوا أركان الحكم لتوقيع وثائق إعلان الوحدة الاندماجية بين سورية ومصر[449].

وهكذا تقرر عقد جلسة للمجلس النيابي السوري للموافقة على الوحدة في الخامس من شباط عام 1958، وكان الحزب الشيوعي من أنصار الاتحاد مع مصر، ولم يكن راضياً عن "الطبخة" التي تمت لإقامة دولة واحدة، بات واضحاً أن القائمين عليها سيقضون على معالم المجتمع المدني السائر في طريق الازدهار وترسيخ أقدامه في عهد المجلس النيابي (1954-1958). قبل عقد هذه الجلسة، اجتمعت قيادة الحزب الشيوعي السوري في 2 أو 3 شباط لمناقشة مسألة مشاركة خالد بكداش ممثل الحزب الشيوعي في المجلس أو مقاطعة الجلسة، وننقل في ما يلي ما سمعناه من المحامي الدكتور مصطفى أمين المشارك في الجلسة المذكورة. قال أمين[450]:

"اجتمعت القيادة في بيت خالد بكداش، وبحضوري، لمناقشة موضوع مشاركة خالد في جلسة المجلس النيابي. كان خالد متردداً بين الحضور أو مقاطعة الجلسة. فرج الله الحلو اقترح أن يحضر خالد الجلسة، ويلقي كلمته، التي توضّح رأي الحزب، ثمّ ينسحب من الجلسة. وبعد نقاش طويل حول المشاركة في الجلسة أو المقاطعة، أصرّ خالد على عدم حضوره الجلسة، وكان خائفاً من اعتقاله بعد إلقائه كلمته ومغادرة المجلس، وبسبب إصرار خالد على التغيّب عن الجلسة وافق الجميع على رأيه، وكُلّفْتُ بحجز أربع بطاقات لخالد وزوجته وولديه على شركة الخطوط الجوية التشيكوسلوفاكية في رحلتها من دمشق إلى براغ. واحترازاً من أي طارئ حجزتُ أربع بطاقات باسمي، كي لا

---

[449]- انظر مصطفى أمين "صفحات من تاريخ الوطن، أحداث وذكريات"، دمشق، 2006، ص 153 وما يليها.

[450]- لقاء مع مصطفى أمين في مكتبه بدمشق بتاريخ 2005/04/11.

تلفت الأنظار إلى مغادرة خالد بكداش البلاد قبل جلسة المجلس. وقبل إقلاع الطائرة بقليل، حوّلت البطاقات بأسماء خالد وأسرته، وأقلعت الطائرة بسلام، وعدت إلى مكتبي. وما كادت قدماي تطأ أرض مكتبي حتى تلقيت مخابرة هاتفية من عبد الحميد السراج رئيس المكتب الثاني، الذي سيصبح بعد قليل وزيراً للداخلية، مستفسراً عن سبب سفر خالد بكداش قبل جلسة المجلس، وكان لطيفاً في حديثه معي، وختم حديثه بالقول: (أنتم مخطئون)".

عاد خالد بكداش في أواخر صيف 1958 إلى سورية، بعد أن هدأت عاصفة غيابه عن جلسة المجلس النيابي[451]، وحصل على تطمينات من الضباط بعدم اعتقاله[452]. وفور عودته، سعى جاهداً لإفهام قادة الجمهورية العربية المتحدة والرأي العام فيها أن الحزب الشيوعي ليس عدواً للوحدة، بل سيدعمها، مشيراً إلى أن الحزب الشيوعي لا يملك حق حلّ نفسه، لأنه حزب أممي. لكن محاولات بكداش لم تلق آذاناً مصغية من قادة الجمهورية العربية المتحدة[453]، الذين رأوا في شن حملة على الحزب الشيوعي وسيلة تحقق لهم عدة أغراض منها: إرضاء أمريكا، تطمين قوى اليمين والرجعية، وإلهاء الشعب من جهة، وتخويف من تسول له نفسه الاحتجاج على أساليب المخابرات من جهة أخرى.

بعد حملة الاعتقالات الواسعة ضد الشيوعيين في ليل 31 كانون الأول 1958، وبالتالي في صباح 1959/01/01، كان بكداش حذراً لا ينام في بيته تحسباً للمباغتة والاعتقال، وسرعان ما شدّ بكداش الرحال مغادراً سورية إلى لبنان ومنه إلى موسكو. يقول أحد الكوادر السرية للحزب عزيز صليبا: "وأصبح الخطر كبيراً على الرفيق خالد. تقرر أن يسافر إلى الخارج. تولى عملية إخراج الرفيق خالد من دمشق الرفيقان

---

[451]- النائب البعثي رياض المالكي، الذي احتل في أوائل عهد الوحدة منصباً وزارياً، ذكر في كتابه "ذكريات على درب الكفاح والهزيمة" أن خالد بكداش كان النائب الوحيد المهيأ لمناقشة ميثاق الوحدة، وقد أُفهِمَ صراحة بأنه لن يُعطى الفرصة للكلام، و"كان ذلك المنع فاتحة لعهد سرى فيه تعطيل حرية الرأي والتعبير على المواطنين كافة، وحتى على الوزراء"، نقلاً عن أمين... ص 156.

[452]- "خالد بكداش يتحدث"، إعداد وحوار: عماد ندّاف، دار الطليعة، بيروت، 1993، ص 37.

[453]- انظر ما ذكره بشير العظمة في فصل سابق، وكيف أن محمود رياض مستشار عبد الناصر أرغى وأزبد لمنع أية وساطة بين عبد الناصر والشيوعيين، العظمة، ص 193.

حسن قريطم وأرتين مادويان وأنا (عزيز صليبا)، لأنني مستأجر البيت، الذي يختبئ فيه. لن أذكر كيف أخرجناه، فهذه تفاصيل لا تهم أحداً الآن، المهم نجحنا في إيصاله إلى لبنان، ومنها إلى براغ، يرافقه الرفيق حسن قريطم"[454]، ومن براغ انتقل إلى موسكو، وأقام فيها، وكان يتردد كثيراً على براغ، ويلتقي بمصطفى أمين، الذي انتقل سراً إلى لبنان، ومنها إلى براغ، وأصبح ممثلاً للحزب الشيوعي في مجلة "قضايا السلم والاشتراكية"، الصادرة في براغ باسم الأحزاب الشيوعية في العالم[455].

ثالثاً- من مذكرات شخصيات سياسية وفكرية عاشت مرحلة قيام الجمهورية العربية المتحدة وزوالها

1- مذكرات خالد العظم[456]

"... على أن المصريين رغم ادعائهم الحياد الإيجابي، ورفضهم الارتباط بأي حلف عسكري مع أمريكا أو بريطانيا، إلا أنهم أرضوا الأمريكيين بمحاربة الشيوعية وملاحقة أتباعها في مصر وسورية، تماماً كما كان يفعل نوري السعيد في العراق".

"... وفي اليوم الخامس من شباط (عام 1958) اجتمع مجلس النواب في الساعة الحادية عشر صباحاً، وبعد أن تُلِيَت رسالة رئيس الجمهورية (السورية شكري القوتلي)، رُفِعَت الجلسة إلى بعد الظهر، حين تُلِيَت المضبطة التي وقعها النواب بإعلان الوحدة، وبترشيح الرئيس عبد الناصر لرئاسة الجمهورية، وبإجراء استفتاء لانتخاب الرئيس، ومنحه صلاحية إصدار الدستور. ولم يتغيب عن الجلسة سوى النائب الشيوعي خالد بكداش...".

ويذكر العظم أن "النواب الذين كانوا يتغيبون حضروا، ومنهم رشدي الكيخيا، الذي استقال بعد أن فقد الأمل بتحقيق الاتحاد مع عراق نوري السعيد. وممن تحدث في الجلسة سهيل الخوري، الذي كان ضد التحالف مع مصر، وإذا به ينقلب مؤيداً للوحدة مع مصر...".

ويعرض العظم وجهة نظره في حماسة البعثيين للوحدة بدل الاتحاد

---

[454]- صليبا، ص 112.

[455]- قبل وضع اللمسات الأخيرة على هذا الكتاب أصدر الدكتور مصطفى أمين ذكرياته مطبوعة تحت عنوان: "صفحات من تاريخ الوطن"، دمشق، 2006، وفيه يلقي أمين من موقعه في قيادة الحزب الشيوعي الأضواء على كثير من خفايا تلك المرحلة.

[456]- مذكرات خالد العظم، المجلد الثالث، بيروت، 2003، ص 157 وما يليها.

المطروح على بساط البحث، "وقد وصل بهم الخوف إلى حدّ توهمهم أن ثمة مؤامرة حِكْتـُها، (والكلام للعظم)، مع عفيف البزري[457] وخالد بكداش[458] لقلب نظام الحكم واستلام زمامه والتحالف مع الاتحاد السوفييتي... وكذلك كثيرون خدعوا وراحوا يهتفون للوحدة ولعبد الناصر، ويحمدون الله على إنقاذهم وإنقاذ أموالهم وأملاكهم من خطر الشيوعية...".

2- من مذكرات بشير العظمة وزير الصحة في الحكومة المركزية المقيمة في القاهرة دون عمل[459]

"... بعد مرور شهرين ونصف من تشكيل الوزارة المركزية، حضر الوزراء جميعاً حفلاً في الملعب البلدي لمدينة السويس، احتفاءً بعيد جلاء قوات العدوان عن مصر بعد حرب 1956. محور خطاب الرئيس عبد الناصر هجوم مركّز على الشيوعية الدولية... واندفع الرئيس يشتم الشيوعيين أعداء الوحدة... استمعت، وشعرتُ بالإحباط من اللغة، والأسلوب في الشتيمة، والاتهام يوجهه يميناً أحياناً، وشمالاً بعد أيام".

"... كنت أجلس في طريق العودة بالقطار بعد انتهاء الحفل مع أكرم الحوراني وصلاح البيطار، (وهما بعثيان)، وأحمد عبد الكريم وأمين النفوري. عجبت جداً لحماسة الزملاء البعثيين الشديدة للخطاب والشتائم معاً، وبقيت صامتاً. سألني الحوراني: "لماذا أنت صامت لا تشارك في الحديث، ولا تعلق على الخطاب التاريخي؟ انتظر البعثيون من الوحدة أن تخلصهم من الشيوعيين منافسيهم في الشعارات والقواعد العمالية. فعند تحقق ذلك، فمن أجدر منهم بقيادة الإقليم، ثمّ الجمهورية، لإقامة الوحدة العربية الكبرى؟".

ومضى العظمة في مذكراته مستعرضاً النظام الرئاسي والزعامة التاريخية لعبد الناصر "وإبعاد الجميع عن مراكز السلطة، وفيهم حزب البعث، الذي وقف في الضفة المقابلة معادياً عبد الناصر...".

ولنقرأ ما كتبه بشير العظمة، وزير الصحة المركزي في حكومة

---

[457]- وهو قائد الجيش.

[458]- الأمين العام للحزب الشيوعي السوري.

[459]- بشير العظمة، "جيل الهزيمة بين الوحدة والانفصال"، دار الريس، 1991، ص 204-206.

الجمهورية العربية المتحدة، فيما يتعلق بخالد بكداش:
"... كان خالد بكداش العائد إلى سورية بعد أن هدأت عاصفة غيابه عن جلسة المجلس النيابي، يسعى لتلطيف الأجواء وامتصاص النقمة المثارة ضده وضد الشيوعيين بأنهم أعداء الوحدة، وأجرى من أجل ذلك اتصالات متنوعة مع شخصيات سورية. زارني خلال ذلك رفيق الدراسة خالد بكداش، وكان متوارياً عن الأنظار[460]، بعد أن غاب عن جلسة إعلان الوحدة في البرلمان السوري، وكان عضواً فيه. كلفني أن انتهز أية فرصة لأنقل رسالة لعبد الناصر بأن الشيوعيين ليسوا أعداء للوحدة، وأنهم مستعدون لدعمها، لكنه يستحيل عليهم من حيث المبدأ إعلان حلّ الحزب الشيوعي الأممي، كما فعلت الأحزاب المحلية الأخرى".
"زارني بعد عودتي من القاهرة مستشار الرئيس محمود رياض، فأبلغته رسالة بكداش، ورجوته إيصالها إلى الرئيس. غضب ساخطاً، وقال: إنهم عملاء متآمرون وخونة، وإياك أن تعيد ما سمعت لأي إنسان، واتبع ذلك بسيل من الشتائم، فامتثلت"[461].

3- عفيف البزري رئيس الأركان في الجيش عند قيام الوحدة

بتاريخ 22 تموز 1991 التقى مالك المفتي، الباحث الأردني المولد والدارس في الولايات المتحدة، عن طريق كاتب هذه الأسطر، بعفيف البزري رئيس الأركان السابق للجيش، وأحد الضباط المتحمسين للوحدة، الذين أسهموا في قيام الجمهورية العربية المتحدة. اللقاء سجله المفتي على شريط، وفرّغه فيما بعد. وأثناء زيارتي لحضور أحد المؤتمرات العلمية في الولايات المتحدة ربيع 1994، التقيت في بوسطن بالمفتي، الذي حفظ الجميل، وقدّم لي نسخة خطية مفرّغة عن الشريط، مشترطاً عدم الاستعمال دون ذكر المصدر". وبما أن الكلام المفرّغ من الشريط كان باللغة المحكية، فسأحاول تلخيص ما قاله البزري فيما يتعلق بدوافع قيام الوحدة، والجمل الموضوعة ضمن قوسين هي نقل حرفي عن البزري، الذي أصبح فيما بعد معادياً لعبد الناصر، وأنشأ

---

[460]- في الواقع كان بكداش يتحرك علناً، لكن بحذر في تلك الفترة، التي قابل فيها العظمة، ولم يكن يبيت في منزله المعروف في ركن الدين، بل كان يبيت متنقلاً في بيوت سرية، خوفاً من مداهمة السلطات له.

[461]- بشير العظمة: "جيل الهزيمة بين الوحدة والانفصال"، دار الريس، 1991، ص 193.

كتاباً بعنوان: **"الناصرية في جملة الاستعمار الحديث"**، والمتداول بين الجمهور أن البزري كان قريباً في أفكاره من الشيوعية.

يرى البزري أن الاتجاه السياسي الواحد لكل من مصر وسورية هو الذي دفع القيادات المدنية والعسكرية للتقارب. باتريك سيل في كتاباته عن التحضير للوحدة "جعل الحكاية مثل قصة عنتر". خالد العظم في كتاباته عن الوحدة "إلو مصلحة، الوحدة روّجت عليه رئاسة الجمهورية"[462]، "خالد بكداش ضد الوحدة لأنه كان سياسة الاتحاد السوفييتي ما تصير هذه الوحدة"[463]، "اتهمت أنه أنا كنت منتمي إلى الحزب الشيوعي. أنا ما كنت، ما انتميت بحياتي لأي حزب، الشيوعيون كانوا أصدقائي، وأنا إنسان تقدمي أكره الظلم، وأناضل في سبيل الحرية، حرية الإنسان وضد كل تعسف وعدوان وما يقهر الإنسان. لا أنكر أنا ضد المستعمرين أعدائي. الاستعمار القديم والاستعمار الجديد أيضاً. فهذا إذا كان شيوعية هذا بحث ثاني"، "شو اللي خلانا نختلف مع مصر بعدين؟ أنا مثلاً ليش اختلفت مع عبد الناصر؟ وليش صار الانفصال؟ لأن ما كان في synchronization ما بين الوضع السياسي في سورية والوضع السياسي في مصر. مصر كانت لا تزال في مواجهة الاستعمار القديم. بينما نحن في سورية انتهينا من الاستعمار القديم، لأننا أخرجناه وبلشنا مع الاستعمار الجديد أمريكا. فما عاد عقلنا يطبق على عقل مصر. ما فيه مطابقة. فلذلك صار اختلاف في الرأي بيننا وبين مصر". والبزري يوضح أن أمريكا تساعد عبد الناصر كي تبني النظام الجديد، وتتخلص من الإمبراطوريات القديمة. "قلت لهم إنو أفضل أن نسير على طريق الاتحاد مو طريق الوحدة، لكن طبيعة عبد الناصر لا تتحمل الشيء هذا، وكانت الوحدة". "مباحث عبد الناصر وجماعته تغلغلوا، وصار الحكم المحلي عبارة عن حكم كراكوز".

وفي إجابات البزري على المفتي يؤكد أن السياسيين لم يكونوا

---

[462]- كانت الأجواء السياسية في عام 1958 تسير في اتجاه وصول خالد العظم إلى سدة الرئاسة، ويرى العظم أن بعضهم، ومنهم رئيس الجمهورية شكري القوتلي، ساروا في طريق الوحدة مع عبد الناصر، كي يفوتوا الفرصة على العظم.

[463]- يريد البزري أن يقول إن الاتحاد السوفييتي كان ضد قيام الوحدة بين سورية ومصر، ولهذا وقف بكداش ضد الوحدة. هذا رأي البزري!

يسعون إلى الوحدة، وكذلك عبد الناصر. "الجماهير سكرت[464]، مين بسترجي يقول هديك الساعة نحن ما بدنا وحدة. الناس بتيجي بتخلع رقبته". "حزب البعث بدّه وحدة، بس بده يحكم سورية بواسطة عبد الناصر".

عندما عُيِّن البزري رئيساً للأركان عام 1957، شكّل في آب 1957 "مجلس الضباط"، الذي ذهب سراً وفجأة إلى مصر، وطلب الوحدة مع عبد الناصر استجابة لمشاعر الجماهير. ويكرر البزري أكثر من مرة أن رئيس الجمهورية شكري القوتلي، الذي ستنتهي ولايته قريباً، كان مسروراً من قيام الوحدة، لأنه عن هذا الطريق سيحرم خالد العظم منافسه السابق من الوصول إلى رئاسة الجمهورية. وذكر البزري أن خالد العظم كان يُنفّذ خط الجبهة الوطنية المناهض للتدخل الأمريكي في سورية، وكان تحالفه وثيقاً مع خالد بكداش. وعندما سأل المفتي البزري عن رأيه بعبد الناصر أجاب: "عبد الناصر مناضل قوي ضد الاستعمار القديم. أمريكا كانت تساعده، وكان لأمريكا صلات بضباط الثورة وبعبد الناصر بالذات قبل الثورة". ونفى البزري أن يكون عبد الناصر عميلاً لأمريكا، و"عبد الناصر لأسباب داخلية أيضاً يستند على قوى اجتماعية في بلده ضد الشيوعية. عنده الأزهر مثلاً، وهو بِكْرَه الشيوعيين...".

وينفي البزري وجود خلافات عميقة داخل مجلس الضباط، كما كتب محمد حسنين هيكل وباتريك سيل. "اللي عم يضغط علينا، ما زال يضغط علينا لهلأ يومياً، هو إسرائيل وأطماعها التوسعية. هذا الأساس الذي دفعنا نجيب الوحدة بأسناننا". وعندما سال المفتي البزري عن سبب تركه للجيش، أجاب: "هو أنا والله ما تركت الجيش. ترّكوني. إجو جماعة عبد الناصر لهون، يعني جماعة المباحث تبعه" وقالوا: "بدنا ننقل سوريين إلى مصر، ونجيب مصريين نحطهم هون. وطلبوا تسريح 102 ضابط فلسطيني"، كما طلبوا نقل الضباط البعثيين إلى مصر، فرفض البزري، وجرت مناقشة حادة بينه وبين المشير عبد الحكيم عامر، وقال البزري لعامر: "هذه الوحدة بهذا السلوك لن تدوم. وثاني يوم أقرأ في الصحف أنه قبلت استقالة عفيف البزري، وأنا ما استقلت، وهذا اللي صار". "عبد الناصر، مثل ما حكينا، بدّه يفرجي أمريكا أنه

464- الجماهير سكرت، أي كانت منتشية ومندفعة باتجاه الوحدة، وليس من قوة تستطيع أن تقف أمام تيارها الجارف.

هو حلاّل المشاكل".

4- مسؤولية "الأجهزة المباحثية" في انهيار الوحدة بين سورية ومصر

المثقف البارز في حزب البعث العربي الاشتراكي جلال فاروق الشريف ألقى الأضواء على دور الأجهزة المباحثية في خراب الوحدة، في النقاط التالية:

1. تسلط أجهزة الأمن على جهاز الدولة وعلى حياة المواطنين.
2. تحوّل الاتحاد القومي إلى واجهة سياسية خالية من المضمون الجماهيري الحقيقي.
3. اعتماد الحكم على الجهاز البيروقراطي في إدارة الدولة والحياة السياسية.
4. إفراغ القوات المسلحة من الضباط البعثيين وسائر القوى التقدمية، والاعتماد على الضباط الحياديين والانتهازيين والمرتزقة.

وهكذا، فإن قرارات التأميم الصادرة في 21 تموز 1961 كانت محرومة في سورية من مساندة القوى التقدمية المبعدة عن الحكم أو الملاحقة أو القابعة في غياهب السجون، وهذا ما يفسر نجاح البرجوازية السورية في إسقاط نظام الحكم متعاونة مع الرجعية العربية ومع العسكريين المغامرين[465].

5- الشيوعي جرجس عيسى من مواليد مشتى الحلو عام 1933 ألقى الأضواء في ذكرياته على الجو السائد في المشتى، بلدة دانيال نعمة، وأحد معاقل الحزب الشيوعي في خمسينيات القرن العشرين، بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة في المقاطع التالية[466]

"بعد تسريحي من الجيش[467]، عدت إلى المشتى، وبدأت العمل الحزبي مع المنظمة. كان الجو السياسي متلبداً بشكل غريب، فالوحدة مع مصر قد أُعْلِنَت، وموقف الحزب غير واضح، وأصابع الاتهام تشير إليه بأنه غير موافق على الوحدة، وجو الخوف بدأ ينتشر في صفوف

---

[465]- جلال فاروق الشريف: "موجز التاريخ النضالي لحزب البعث العربي الاشتراكي"، إصدار المعهد النقابي المركزي، 1983، ص102.

[466]- جرجس عيسى من كوادر الحزب الشيوعي الرئيسة المخلصة للشيوعية وللوحدة العربية في آنٍ واحد، والذكريات مكتوبة في عام 2000، وقد تكرّم مشكوراً ووضع مخطوطه تحتَ تصرف البحث.

[467]- التسريح جرى بسبب انتهاء مدة خدمته للعلم.

الأصدقاء والناس، وأصبح العمل صعباً، واعترى الرفاق شعور غامض، وبدا كلامنا مع الناس وكأنه ضد الوحدة، واكفهر الجو، وشعرنا بخطر الملاحقات والسجون، وبدأت المراقبة علينا من مخفر المشتى وإرسال التهديدات لنا ولأصدقائنا بأننا ضد الوحدة وسوف نعتقل قريباً. قضينا عيد الميلاد في 25 كانون الأول لعام 1959 بمزاج حزين وعكر، ونحن ننتظر الاعتقالات. وبعد يومين على العيد، ذهبنا بشكل عفوي إلى بيت الرفيق دانيال[468] لنعيّد البيت، وكنا نحو عشرة رفاق، ولم نكن في اجتماع أو غيره، إنما ذهبنا بمناسبة العيد". ويمضي جرجس عيسى واصفاً المعركة مع الدرك، الذين أحاطوا بالبيت، وحاولوا اعتقال الشباب، الذين فرّوا ملتجئين إلى الحرش القريب من القرية، وعاشوا في إحدى المغائر في شتاء قارص وجوع وشقاء مدة من الزمن، قبل أن يلتجئوا إلى لبنان"[469].

الفصل الخامس
فرج الله الحلو
الرمز الشيوعي الداعي إلى الوحدة العربية الديمقراطية
يسقط شهيداً في أقبية مباحث "ج ع م"

أولاً- حول فرج الله الحلو واستشهاده

ولد فرج الله الحلو عام 1906، في قرية حصرايل، من أعمال جبيل، لأبوين فلاحين فقيرين. ذاق مرارة وويلات الجوع أثناء "السفر برلك". وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى 1918، تعلّم في مدارس جبل لبنان. وفي أواخر عام 1930، اتفق مع فريد مسوح مدير الكلية الإنجيلية في حمص على أن ينام ويأكل في كليته، مقابل أن يكون معلماً للغة العربية في صفوفها الابتدائية، وتلميذاً يُحضّر للبكالوريا في قسمها الأول

---

[468]- لم يكن دانيال نعمة آنذاك في سورية، بل كان يدرس في المدرسة الحزبية العليا بموسكو.

[469]- انظر تفاصيل المعركة مع الدرك والاحتماء بالحرش واللجوء إلى لبنان في "النور" بتاريخ 21 حزيران 2006، صفحة الرأي. وكذلك العدد 225 بتاريخ 7 كانون الأول 2005. وكذلك "صفحة الذاكرة"، مخطوط جرجس عيسى، وهو في حوزته.

بـاللغتين العربيـة والفرنسـية، وقـد تـأثر فـرج الله الحلـو بكتابـات مجلـة "المقتطـف" المصـرية ومؤلفـات سـلامة موسـى. وفـي الكليـة الوطنيـة، تعرَّف على ناصر الدين حدة، أحد الوجوه المؤسسة للحزب الشيوعي، الذي أخذ بيده إلى طريق النضال في سبيل تحرير الكادحين والدعوة للاشتراكية. ولدى عودته إلى لبنان، اتصل بفؤاد الشمالي أمين عام الحزب الشيوعي آنذاك.

زار الاتحاد السوفييتي عام 1934، وكانت حصيلة تلك الزيارة كتاباً نُشِر في عام 1937 تحت عنوان: **"إنسانية جديدة تبني عالماً جديداً"**، ضمنه مشاهداته وانطباعاته عن بلد الاشتراكية الأول. قبل ذلك، توجه فرج الله الحلو في مطلع 1933 إلى حلب لبناء تنظيم شيوعي في عاصمة الشمال. عمل فرج الله بأناة وصبر على تأسيس حزب شيوعي في ظروف صعبة، وهكذا أسهم في خلق الظروف لتشكيل قيادة شيوعية عربية مؤلفة من: نظمي ملقي، عبد الجليل سيريس، ربيع محبّك، ورضوان رضوان، وهؤلاء ألفوا وفد منظمة حلب إلى المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي المنعقد في بيروت أواخر 1943 أوائل 1944[470]. وعندما كان كاتب هذه الأسطر يقوم بالدراسات الميدانية في حلب للكتابة عن الحركة النقابية والعمالية في سورية، التقى بعدد كبير من الحرفيين والنقابيين والعمال، الذين تعرفوا على فرج الله الحلو في حلب عام 1934، وقام بتنظيمهم في الحزب الشيوعي[471]، وإيفاد القادرين منهم إلى الدراسة الحزبية في موسكو، وتبدو خطة فرج الله واضحة في سعيه لبناء منظمة شيوعية عربية، يكون المسلمون لحمتها وسداها. يتبين ذلك واضحاً في أحاديث من التقيت بهم، وفي نوعية الرجال الذين أوفدهم فرج الله للدراسة الحزبية في موسكو، وكلهم من العرب السنة[472]، ومن هنا يبدو واضحاً أن فرج الله الحلو وضع اللبنات الأولى في بناء الحزب

---

[470]- انظر تفاصيل دراستنا في جريدة "النور" بتاريخ 21 حزيران 2006، صفحة الرأي.

[471]- انظر التفاصيل في "النور" العدد السابق، وكذلك العدد 225 تاريخ 7 كانون الأول 2005، صفحة الذاكرة.

[472]- وهم: عبد الله دلالة، أجير في ورشة لصنع الأحذية، وعمره نحو 15 عاماً، ومن ذاكرته استقينا هذه المعلومات. عبد الله فلاحة، يقرأ ويكتب، وعمره 16 سنة، وهو عامل نول يدوي في منزله. عبد الغني مصري، من صنّاع الأحذية، وتعلم القراءة والكتابة في الكُتاب. إبراهيم ميرزا، عامل طباعة، وعمره 17 سنة، ويلاحظ أن الموفدين من أحياء شعبية، وبمقدورهم بعد تأهيلهم أن يقودوا النضال من مواقع راسخة الجذور.

الشيوعي في حلب، وكان من المساهمين في بناء الحزب في سائر أنحاء سورية ولبنان.

مع النهوض الوطني الجماهيري في آذار 1936، انتقل فرج الله إلى دمشق، وأسهم في النشاط الوطني، فاعتقلته السلطات، وأبعدته إلى بيروت.

في المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي في سورية ولبنان، انتخب فرج الحلو وخالد بكداش أمينين عامين للحزب الشيوعي السوري اللبناني الموحد، واستمر فرج الله الحلو إلى جانب خالد بكداش في قيادة الحزب الشيوعي. وبعد نجاح خالد بكداش في المجلس النيابي السوري عام 1954، انتقلت القيادة من بيروت إلى دمشق، وإضافة إلى المشاركة في قيادة الحزب الشيوعي السوري اللبناني تولى فرج الله الحلو رئاسة تحرير جريدة "النور" عام 1956 خلفاً لظهير عبد الصمد، كما ذكر دانيال نعمة. وبعد قيام الجمهورية العربية المتحدة، أخذ فرج الله الحلو على عاتقه قيادة الحزب الشيوعي السوري المثخن بالجراح، بعد الحملة المخابراتية الشعواء، وزج الآلاف من الشيوعيين وأصدقائهم في السجون.

ذكر لنا الدكتور في الكيمياء مصطفى أبا زيد[473]، وهو من مواليد درعا عام 1935، أنه كان طالباً في كلية العلوم بالجامعة السورية عندما بدأت حملة الاعتقالات ضد الشيوعيين وأنصارهم في مطلع عام 1959، فتوارى عن الأنظار خشية اعتقاله. استأجر غرفة متواضعة في البساتين إلى الشرق من باب شرقي، وكانت مأوى لأقربائه وأصدقائه من الشيوعيين المختبئين، ثم استأجر غرفة بصفته طالباً جامعياً في بستان الاختيار على طريق كفرسوسة إلى الجنوب الغربي من دمشق. الغرفة التي استأجرها في قبو من بناية حديثة من ثلاثة طوابق، بعضها غير مسكون، وأخذ يتردد على مصطفى، ويبيت عنده أحياناً، أحد الكوادر السرية في الحزب الشيوعي المعروف بـ"أبو فارس".

أبو فارس هذا هو صبحي الحبل من "زكرتية" الحزب، ومن عائلة حمصية شيوعية أمينه. عندما كان فرج الله يهيئ لقيادة العمل السري بعيداً عن رفيق رضا، في وقت بدا واضحاً فيه أن المباحث تحضّر للهجوم على الحزب الشيوعي، اختار "أبو فارس" في جهازه السري

---

[473]- تاريخ اللقاء بمصطفى أبا زيد في 2005/01/20 بدمشق.

الضروري لتنقله والاتصال بمن يلزم. نقطة الضعف في هذا الاختيار أن رفيق رضا يعرف الجميع، ولديه خبرة في العمل السري، ولهذا فإن منظمة الحزب في دمشق كانت مكشوفة من عميل المباحث الجديد رفيق رضا.

زار فرج الله غرفة مصطفى أبا زيد السرية، وأعجب بها لأنها محمية من الوجهة الأمنية، وطلب فرج الله من مصطفى، وكان معروفاً عنده باسم "أبو فياض"، أن يسمح لأبي فارس بالمبيت عنده، ويتعاونا معاً. ارتكب أبو فارس خطأ فنياً في تحركه السري ولقائه مع أحد الشيوعيين من آل الحلاق، فقد كان يلتقي به عند تقاطع المجتهد، وهو قادم على دراجته من طريق كفرسوسة، وهكذا عرف هذا الشيوعي من آل الحلاق أن أبا فارس ساكن في تلك الجهات. وأثناء تبادل الأحاديث بين الاثنين على قارعة الطريق تحدث الزكرتي أبو فارس، ومن باب "العنترية"، أنه يسكن في بناية حديثة غير مسكونة بالكامل، وأنه يلتقي مع صبية تسكن في الطابق العلوي ويتبادلان القـبَل. وبعد مدة، اعتقل ابن الحلاق، وتحت التعذيب أقرّ أن أبا فارس يسكن في بناية حديثة غير مسكونة بالكامل. قدّر رفيق رضا أن أبا فارس هو صلة الوصل مع من يقود بقايا الشيوعيين غير المعتقلين، وبدأ البحث الجنوني عن هذه البناية وغرفة القبو فيها، واعتقل أبو فارس، ومعه مصطفى، بعد أن خاض في الغرفة معركة دامية بالأيدي مع المهاجمين. في أقبية المباحث صمد في البدء أبو فارس، ولم يبح ببنت شفة، ولكن شراسة التعذيب، ونفخ البطن بالهواء عن طريق الشرج، جعلت أبا فارس، وهو في شبه غيبوبة، يعترف عن المكان السري، الذي يقيم فيه فرج الله.

كان مصطفى أبا زيد معتقلاً في إحدى غرف قبو المباحث، ولم يتعرض للتعذيب، فقد قال رفيق رضا لجلادي المباحث: "هذا شيوعي صغير لا يعرف شيئاً، ولا تضيعوا الوقت معه. عليكم بانتزاع الاعتراف من أبي فارس". خالد الزقيق (أبو الحاج) أحد الشيوعيين البسطاء، والذي عمل كادراً في الحزب تحت إمرة رفيق رضا، سرعان ما انهار تحت تأثير رفيق رضا، وباح بكل ما يعرف، ولسبب ما اقترح رفيق رضا على المباحث تشغيله آذناً في قبوهم. الروح الإنسانية الطيبة الكامنة في أعماق خالد الزقيق دفعته لإخبار مصطفى بعملية التعذيب الممارسة تجاه أبي فارس، ويبدو أن الزقيق كان في سره معجباً بهذا

الصمود، وعندما اعترف أبو فارس، جاء الزقيق حزيناً، وأخبر مصطفى بما شاهد وسمع[474].

بعد اعتراف أبي فارس، تمكن قطيع المباحث من اعتقال فرج الله الحلو وتعذيبه بصورة وحشية، وهو صامد في وجه جلاديه إلى أن فارق الحياة في أواخر حزيران 1959، ومعروف ما قام به الجلادون من تذويب جثته بالأسيد حتى تضيع معالم الجريمة، وباستشهاد فرج الله الحلو سارت المخابرات في خُطا سريعة لإبادة مؤسسات المجتمع المدني في سورية، وقتل روح الكفاح والتضحية لدى الشعب!

فرج الله الحلو، الوطني العربي، والقائد الشيوعي المثالي المتواضع والمثقف، "التقي النقي الطاهر العلم"، ذهب شهيد مبادئه وأفكاره ومثله، وهو المعروف بأنه من دعاة العروبة الإنسانية والوحدة العربية الديمقراطية المناهضة للاستعمار.

لقد أسهم فرج الله الحلو في خلق تيار ثوري في المشرق العربي من خلال كتاباته الفكرية والسياسية في جريدة **"صوت الشعب"** ومجلة **"الطريق"** والجرائد والنشرات السرية للحزب الشيوعي في سورية ولبنان. وباستشهاده البطولي، قدّم للحركة الثورية العربية معيناً لا ينضب من روح الصمود، والعمل الدؤوب لبناء مجتمع عربي لا أثر فيه للاستغلال والاضطهاد والاستعباد.

رجا كاتب هذه الأسطر من يوسف خطار الحلو أن يزوده بما يعرف من معلومات تلقي الأضواء على نشاط فرج الله في حلب، فأجاب

---

[474]- روى لنا مصطفى أبا زيد قصة سجنه: بعد الإقامة لمدة قصيرة في قبو المباحث نُقِل إلى سجن المزة، حيث كان التعذيب والحرب النفسية يمارسان على المعتقلين الشيوعيين، طالبين منهم إدانة موقف الحزب الشيوعي المعادي للوحدة، حسب زعمهم. الصامدون من المساجين نقل بعضهم، وعددهم واحد وثلاثون شاباً شجاعاً، ومنهم مصطفى، في سيارات، وهم معصوبو الأعين مدة ست ساعات من دمشق إلى سجن اللاذقية في حزيران 1961. ويقول مصطفى إنهم فكوا عصابة عينيه، وهو لا يستطيع النظر، لكنه عرف بعد مدة أنه في "السيلول" (غرفة منفردة في قبو السجن لا ترى النور، ورائحة المرحاض في قلب الغرفة تزكم الأنوف). وبعد مضي بعض الوقت، قدّر مصطفى أنه في سجن اللاذقية، عندما سمع صفارات بواخر ميناء اللاذقية. هذه هي أعمال أجهزة أمن الدولة السلطانية الحداثوية، وهذا هو خطها: اعتقال دون مذكرة توقيف، تعذيب، قهر وحرمان، وسجن دون محاكمة ولا من يحزنون، مع ممارسة الضغط النفسي باسم قضية عزيزة على قلوب الجميع هي الوحدة العربية. وهؤلاء أساؤوا لتلك الوحدة، وكانوا ضمن المعاول الهادمة للجمهورية العربية المتحدة.

برسالة مفصلة ختمها بالفقرة التالية:

"إن استشهاد فرج الله على الأرض التي تلقى عليها ألف باء الشيوعية في حمص سنة 1931، يؤكد، أنه كتب تاريخه بالدم لا على رمل الطريق، بل على الحور العتيق، في بساتين حلب وغوطة دمشق وأشجار حمص".

ثانياً- من هو رفيق رضا؟ وكيف سار في طريق الخيانة؟

رفيق رضا طرابلسي المولد، دخل الحزب الشيوعي اللبناني في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين، وأُوفِدَ إلى باريس ممثلاً للحزب الشيوعي في سورية ولبنان لدى الحزب الشيوعي الفرنسي. وبعد عودته، لم تكن القيادة راضية عن تصرفاته، فجرى تجميده، لكن منظمة الحزب الشيوعي في طرابلس ضغطت على القيادة في مؤتمر الحزب في بيروت أواخر 1943 أوائل 1944 لإعادته إلى صفوف الحزب. وبعد نقاش طويل في اللجنة التنظيمية، تقرر بقاءه بعيداً عن التنظيم[475]. وبعد مرور سبع سنوات، أُعيد إلى الحزب عام 1952. وفي عام 1954، انتدبته القيادة لقيادة منظمة دمشق، وبقي مسؤولاً عن المنظمة، وعلى صلة وثيقة بالقيادة المؤلفة من الحزبين الشيوعيين السوري واللبناني إلى ما بعد قيام الوحدة وبدء اعتقال الشيوعيين في أوائل عام 1960.

خالد بكداش ألقى ضوءاً على حالة رفيق رضا والشكوك التي كانت تحوم حوله في المقطع التالي: "شك الرفاق[476] في سلوك رفيق رضا بادئ الأمر، فقلت لهم ابعثوه إلينا ونحن نكبسه! كانوا يقولون إنه مشبوه، لكن بعض الرفاق من القيادة قالوا لا يوجد دلائل. اقترحت إرساله إلى رومانيا لقضاء شهر عسل. قلت يرتاح، ونرى الغلط بعدها، إلا أن رفيق رضا رفض، مع أن كل شيوعي كان يرغب في الذهاب إلى رومانيا آنذاك. ازدادت شكوكي عندها، سواء عذروه أم لم يعذروه، وتساءلت: هل يعني أن رفضه جاء نتيجة تعليمات من زعمائه، الذين يتعامل معهم، يعني المخابرات؟ لقد خرّب رفيق رضا كثيراً، وأظن هو الذي

---

[475]- انظر "ذكريات النقابي جبران حلال". قدّم لها، وحققها عبد الله حنا، دمشق، 2005، ص190-110.

[476]- يقصد اللبنانيين.

كان وراء اعتقال فرج الله الحلو. أظن هو!"[477].

انحدار رفيق رضا المعروف بـ"رأفت" في طريق الخيانة، مستخدماً علم القومية العربية لتبرير سلوكه وانتهازيته، يعود، حسب اجتهادي، إلى العوامل التالية:

- ما يختزنه في أعماق قلبه من حقد وروح الانتقام من قيادة الحزب، التي أبعدته ذات مرة عن مسؤولياته الحزبية لتصرفاته غير المسؤولة، حسب تقدير القيادة.

- إعادته إلى العمل الحزبي وتعيينه مسؤولاً عن منظمة دمشق بين عامي 1954 و1959 تاريخ كشف وجهه الكالح، الذي ينضح بالسم لمن يتمعن في قسماته.

وهنا تتحمل القيادة مسؤولية عدم الكشف عن انحدار رفيق رضا في طريق الخيانة، بدءاً من عام 1957، فمع النهوض الوطني والجماهيري بين عامي 1954 و1958، لم يعد باستطاعة قيادة الحزب تربية الأعداد الكبيرة المنتسبة إلى الحزب في تلك الفترة، بسبب نقص الكادر المثقف والمتمرس في العمل، وزاد في الطين بلَّة أن قيادة الحزب أطلقت يد رفيق رضا في قيادة منظمة دمشق، كما يشاء ويرغب. وازدادت ثقة القيادة برفيق رضا لذكائه في كيل المديح للأمين العام للحزب الشيوعي خالد بكداش، والتفنن في إرضائه وكسب ثقته، وإضفاء صفة من "القدسية" على شخصيته، والثقة المطلقة (اللفظية طبعاً) بقيادته، "التي هي دائماً على حق"، وهذا الجو العام كان سائداً في دوائر عدة داخل صفوف الحزب الشيوعي آنذاك، ونجح رفيق رضا في ركوب الموجة، في وقت لم تكن هناك قيادة جماعية، ولا لجنة منطقية لدمشق تقود العمل وتكتشف الثغرات، فرفيق رضا هو الآمر الناهي في قيادة منظمة دمشق، مستخدماً هذه الأجواء "بشطارة"، ومستغلاً انشغال القيادة في متابعة القضايا الوطنية الكبرى. هذا الانشغال من القيادة في القضايا الوطنية الهامة، والمدائح اليومية المتكررة من رفيق رضا مع التزلف للأمين العام، والرأي السائد أن القائد الشيوعي لا يخطئ، هي التي حجبت عن الأنظار سقوط رفيق رضا في مستنقع الخيانة.

في ذلك الوقت من عام 1957، وفي فترة النهوض الوطني ودخول المواطنين بكثافة في صفوف المقاومة الشعبية للدفاع عن البلاد ضد

[477]- خالد بكداش يتحدث، ص127.

هجمات الصهيونية والاستعمار والأحلاف العسكرية، كان "للضابط الوطني" عبد الحميد السراج رئيس المكتب الثاني دور في قيادة هذه المقاومة. شارك الحزب الشيوعي بنشاط في المقاومة الشعبية، وأصبح رفيق رضا، بصفته مسؤول تنظيم دمشق للحزب الشيوعي، على صلة بعبد الحميد السراج رئيس المكتب الثاني، ممثلاً للحزب الشيوعي في التنسيق مع قيادة الجيش لتأمين السلاح والتدريب. وفي تلك الفترة، أخذ عبد الحميد السراج يتحول تدريجياً إلى طاغية. ومع الزمن، لعب السراج دوراً هاماً في تحويل الدولة الوطنية السورية الحديثة ومجتمعها السائر في طريق بناء المجتمع المدني والسير في طريق بناء الديمقراطية إلى دولة الاستبداد السلطاني، ويمكن القول أن السراج، وبالتعاون مع أجهزة الأمن المصرية، هو واضع أسس النواة الأولى للأجهزة الأمنية، التي أخذت تدريجياً تعدُّ البلاد مزرعة لها، ساعية بوحشية لكسر شوكة المواطنين وتحويلهم إلى رعايا، ومعاملتهم معاملة المواشي البشرية. ومع الزمن سيتحول القسم الأكبر من الشعب في نظر الأجهزة الأمنية إلى "طرش"، يسير به "صاحبه" كما يشاء. هذه الأجهزة المؤلفة من أجهزة عبد الحميد السراج والأجهزة المصرية أخذت تنظر مع تقدم الزمن وترسُّخ أقدام الدولة الأمنية إلى البلاد كمزرعة لها تسرح فيها، وتمرح كما تشاء[478]. ولا بد من القول إن خط السراج هذا تلقى دعماً معنوياً ومادياً وتأهيلاً مخابراتياً "أمنياً" من المباحث المصرية ذات التقاليد الراسخة القدم في تدجين الشعب، "وخصي" المعاندين منه. وفي رأينا، أن نظام الأمن المصري كان له في البدء الدور الأساسي في نجاح الأجهزة الأمنية، التي احتمت بعلم القومية العربية، في القضاء على مؤسسات المجتمع المدني في سورية وجعل الحياة الديمقراطية أثراً بعد عين.

تزوج رفيق رضا، وهو يبلغ من العمر عتياً، من فتاة دمشقية شابة. كانت هذه الفتاة عادية ومن أسرة فقيرة، لكن الكهل رفيق رضا أخذ يفكر بعد هذا الزواج في "دنياه"، وفي تأمين متطلبات الحياة لزوجة شابة. والمال هو عصب الحياة، خاصة لمن ينحدرون في طرق ضالة، إذ يصبح المال معبودهم. هل مدّ رفيق رضا يده إلى جزء من مال

---

[478]- لرياض المالكي، البعثي المتحمس للوحدة في أيامها الأولى، كتاب صدر في عهد الانفصال تحت عنوان: "أردناها وحدة، وأرادوها مزرعة".

الحزب؟ أو بالأصح هل تمكن من سرقة بعض أموال الحزب؟ أم أن الرقابة المالية كانت صارمة؟ أمور نجهلها. ما يمكن أن نقدره أن رفيق رضا نال قسطاً من المخصصات السرية الموضوعة تحت تصرف السراج رئيس المكتب الثاني، وجاءت الوحدة بين سورية ومصر، ورفض الحزب الشيوعي حلّ نفسه كبقية الأحزاب ذريعة لتوجيه ضربة له من أجهزة الدولة السلطانية الراغبة في السيطرة والطغيان. وبعد شنّ حملة الاعتقالات وإلقاء آلاف الشيوعيين في غياهب السجون، بقي رفيق رضا، وهو مسؤول منظمة دمشق، يتجول في شوارع دمشق، "وكأن شيئاً لم يكن"، وعندما شعر أن القيادة لاحظت تصرفاته المشبوهة، وطلبت منه مغادرة دمشق إلى لبنان، سلـَّم نفسه للمخابرات، التي كان يعمل معها. وبعد بقائه الصوري لمدة شهر في "السجن"، كشف عن وجهه الكالح، الذي ينضح بالسم الزعاف، وبالتعاون مع أجهزة المباحث، التي خلفت المكتب الثاني، أعلن رفيق رضا في أجهزة الإعلام الرسمية "خيانة الحزب الشيوعي للقومية العربية"، وشرع بالضغط المعنوي المترافق مع التعذيب في التأثير على المساجين الشيوعيين الصامدين في السجون لإعلان براءتهم من الحزب الشيوعي. ولا شك أن له دوراً في عملية الوصول إلى صبحي الحبل، العامل في جهاز فرج الله الحلو، والمسؤول عن تحركاته وحمايتها، ويلاحظ، لمن كان يعيش في قلب التنظيم آنذاك، أن فرج الله الحلو تولى قيادة الشيوعيين في دمشق، وشرع في تنظيمهم بعيداً عن رفيق رضا، الذي حامت الشكوك حوله.

ثالثاً- مقاطع من مقالة لدانيال نعمة تحت عنوان: "في ظروف اعتقال فرج الله والمسؤوليات"

"ربما تساءل بعضكم: ترى لماذا لم يجر التعرض حتى الآن، ولو بإيجاز لظروف استشهاد القائد الكبير فرج الله الحلو. من الذي أمر بإرساله إلى دمشق؟ لماذا عُذب حتى الموت؟ من هم المسؤولون الحقيقيون عن ارتكاب هذه الجريمة؟ ما دور غياب الديمقراطية في هذا الذي حصل؟ وهل كان من مصلحة الوحدة العربية هذا الذي حصل؟

1- عندما تهيأ الرفيقان يوسف الفيصل وحسن قريطم في أواخر أيار من عام 1959 لمغادرة موسكو باتجاه بيروت، التقى بهما الرفيق خالد بكداش، وكلفهما بأن ينقلا إلى قيادة الحزب ضرورة التوقف عن إرسال الرفيق فرج الله إلى دمشق، وقد

أبلغ الرفيقان هذا التوجه لمن يلزم، ولكن الرفيق فرج الله أصرّ على أن تكون رحلته إلى دمشق هي الأخيرة، وذلك لترتيب بعض الأمور التنظيمية التي لا يستطيع أي رفيق آخر ترتيبها.

2- أمّا المسؤولية الكبيرة والمباشرة في الجريمة المرتكبة، فيتحملها الخائن رفيق رضا، وكان هذا الخائن مسؤولاً عن منظمة دمشق، وقد حامت حوله شبهات كثيرة، وقد ألح الرفيق المرحوم موريس صليبي، يومذاك، على ضرورة إبعاد هذا المشبوه عن دمشق لحماية من تبقى من نشطاء المنظمة فيها. وفي اليوم الذي حدد لهذا الخائن كي يغادر إلى بيروت، "سلَّم" نفسه للأجهزة الأمنية، وبدأ تعاونه معها للضغط على الرفاق المعتقلين، ولاصطياد من كانوا خارج السجون، وهو الذي أوقع بالرفيق صبحي الحبل، وكان من جهاز الرفيق فرج الله، الأمر الذي أدى بالنتيجة إلى القبض على هذا القائد التاريخي، ومن ثم تصفيته جسدياً.

3- وأما التعذيب الذي مورس ضد فرج الله، فكان لتحطيم إرادته، وإجباره على التراجع والتخاذل، وبغية إنزال الضربة القاضية بالحزب، ولكن إرادة فرج الله أبت أن تلين، وفضلت الموت على حياة الذل والعار، وبهذا أنزل القائد فرج الله الحلو الهزيمة بجلاديه وبمخططاتهم، وحقق انتصاره المدوي، وسجَّل اسمه في صفحة الخلود رمزاً للصمود، والثبات على المبادئ، والتمسك بالقيم الإنسانية والمثل العليا.

وأما المسؤولون عن التعذيب والقتل فمعروفون بأسمائهم، وقد حوكموا فيما بعد، وحكم على بعضهم بالسجن لسنوات. وأما المسؤولية المعنوية فتقع على الخط السياسي الذي مورس في تلك الفترة، وكان من نتائجه تغييب الديمقراطية، وحل الأحزاب، ومطاردة الحزب الشيوعي أولاً، ثم مطاردة البعث وغيره. وما من شك في أن هذا كله أثر سلباً على الوحدة العربية، وهيأ لأعدائها الشروط اللازمة لإسقاط أول تجربة وحدوية، كان المأمول منها النهوض بالأمة العربية والسير بها على طريق النصر".

الباب الثامن
النشاط السري للحزب الشيوعي في عهد "الانفصال" ودور دانيال نعمة ورفاقه

الفصل الأول
عهد "الانفصال" (1961-1963)

درجت الأدبيات السياسية في سورية على تسمية الفترة الواقعة بين 28 أيلول 1961، التي ألغت الجمهورية العربية المتحدة وأعلنت عودة الجمهورية السورية العربية، وبين 8 آذار 1963، التي أعقبها استلام حزب البعث العربي الاشتراكي للسلطة، بأنها "فترة الانفصال"، لكن الوحدة العربية لم تتحقق بعد "عهد الانفصال"، وبقيت الجمهورية العربية السورية "انفصالية"، دون أن تتحد مع مصر أو العراق أو غيرهما لأسباب معروفة.

والواقع أن القوى العسكرية والسياسية والاجتماعية، التي حققت "الانفصال"، أو أيّدته بعد نجاحه، لم تكن بأكثريتها قوى معادية للوحدة العربية، سواء مع مصر، أم مع العراق، أم مع غيرهما، والملاحظ أن سلطات الجمهورية العربية المتحدة اعتمدت على مساندة قوى عسكرية وسياسية أبهجها ضرب الحزبين اليساريين الشيوعي والبعث أو عزلهما. وأظهرت هذه القوى، التي قامت بالانفصال، ابتهاجها بالتضييق على الحريات الديمقراطية وبروز دور أجهزة الأمن المباحثية أيام الوحدة.

تألفت القوى السياسية والاجتماعية، التي أعلنت "الانفصال"، أو أيّدته، وهي كما ذكرنا قوى ليست بأكثريتها ضد الوحدة القومية من التيارات التالية:

- تيار كبار ملاك الأرض، المشمولين بالإصلاح الزراعي الصادر أيام الوحدة، وهؤلاء سعوا أو حلموا باسترجاع الأرض المغتصبة منهم حسب رأيهم.
- تيار الرأسماليين ومن في حكمهم، الذين فاجأتهم قرارات التأميم وسريان أقاويل "القضاء على الاقتصاد السوري"، فأمسوا ضد الوحدة

مع مصر. هذا مع العلم أن البرجوازية السورية، بتاريخها المعروف منذ ثلاثينيات القرن العشرين، كانت تدعو إلى الوحدة العربية، ولها مصلحة في توسيع سوقها الاقتصادي، سواء في مصر أم العراق أم شبه الجزيرة العربية، فالبرجوازية السورية ومفكروها لم يكونوا قبل التأميم معادون للوحدة العربية، بل من أنصارها.

- التيارات الدينية المستاءة من المساس بـ"الملكية المقدسة" الإقطاعية، خاصة الرأسمالية منها، ولم يكن بعض هذه التيارات ينظر بعين الرضا إلى التوجه القومي والعلماني (نسبياً) لسياسة عبد الناصر، ولا ننسى أن الإخوان المسلمين في سورية لم يكونوا مرتاحين من سياسة عبد الناصر في التضييق على الإخوان المسلمين في مصر وسجنهم.

- التيارات اليسارية، التي أقلقها استبداد أجهزة الأمن المباحثية بحقوق المواطنين والتضييق على حرياتهم والسير قدماً في خط منع التعددية الحزبية، وكان الحزب الشيوعي على رأس تلك التيارات المنادية بالوحدة العربية الديمقراطية، وأكثرية البعث كانت بعد مدة من قيام الوحدة مستاءة من إبعاد الأعضاء النشيطين في حزب البعث عن مفاصل السلطة. وبعد إبعاد أو انسحاب الوزراء البعثيين من الحكم، أصبح واضحاً أن قسماً هاماً من البعثيين انتقل إلى جبهة المعارضة.

في أجواء الاستياء العام من الأساليب المتبعة من أجهزة سلطات الجمهورية العربية المتحدة، وما رافقها من إقصاء البعثيين عن الحكم، بدأت خيوط التقارب تتلاحم تحت رماد النقمة بين يسار البعث والحزب الشيوعي، وجرت لقاءات متعددة في دمشق، في بيت أستاذ الجامعة الماركسي نظيم الموصلي، القريب من الحزب الشيوعي، بين عبد الغني قنوت ممثلاً الاشتراكيين العرب[479]، وواصل الفيصل[480] ممثلاً للحزب الشيوعي، وقد أثمرت اللقاءات عن "مشروع ميثاق" وقّعه قنوت

---

[479]- عبد الغني قنوت من كبار الضباط البعثيين، الذين دفعوا باتجاه الوحدة، وهو ينتمي إلى جناح أكرم الحوراني، الذي أسس الحزب العربي الاشتراكي، ثم توحد مع البعث، وانفصل عنه في أواخر أيام الوحدة، وعاد إلى اسمه القديم: "العربي الاشتراكي".

[480]- شقيق يوسف الفيصل، الشخصية الثانية في الحزب الشيوعي بعد خالد بكداش، وقد عمل في ميدان حركة الطلاب والشباب الديمقراطي بعد تخرجه من الجامعة وقبل ذلك، وكان متفرغاً حزبياً دون راتب، كما ذكر لنا في اللقاء معه في حمص بتاريخ 2006/08/05. كان في أيام الوحدة وقبلها مسؤولاً عن منظمة حمص، وتنقل تنقلاً سرياً

والفيصل، وذُيِّل بملاحظة أن يبقى هذا الاتفاق سرياً، ولا يذاع إلا باتفاق الحزبين. في لقاء مع واصل الفيصل في حمص بتاريخ 2006/08/05 ذكر اجتماعه بقنوت ووضع الميثاق، وأورد ما تذكره من مطالبه. وبعد ذلك اللقاء مع واصل فيصل، فوجئت بنقل نص هذا الاتفاق في الكتاب الوثائقي **"جبهويات"**[481]، الذي أصدره أنجال دانيال نعمة. مشروع الميثاق يعلوه سطر بخط دانيال نعمة موضوع بين قوسين: (واصل+عبد الغني في بيت المرحوم نظيم الموصلي بدمشق).

طالب البند الأول من الميثاق بإقامة الوحدة بين سورية ومصر على أسس شعبية صحيحة، تأخذ بالحسبان واقع كل من الإقليمين، ودعا البند الثاني إلى "إقامة حكومتين ومجلسين نيابيين منتخبين بصورة ديمقراطية حرة ومباشرة، وتشكيل حكومة ومجلس مركزيين على أساس متساو لمعالجة القضايا المشتركة في الشؤون الخارجية والدفاع".

من هنا نرى أن تسمية "عهد الانفصال" كانت تسمية سياسية آنية، درجت على الألسن، وتناقلتها أقلام الكتاب والصحفيين، وقد كان معظم "الانفصاليين" وحدويين، لكن الظروف هي التي دفعت في اتجاه "الانفصال"، وأدت إلى اغتيال هذا الحلم الوحدوي، الذي عاجلته الأحداث، وقضت عليه، وهو ما يزال في المهد.

بعد نجاح انقلاب 28 أيلول 1961، تألفت حكومة سورية برئاسة مأمون الكزبري، ضمّت ممثلين عن كبار الصناعيين وملاك الأرض ورجال المال.

ولم يكن بإمكان حكومة الكزبري أن تعلن رأيها بصراحة في العدول عن قوانين الإصلاح الزراعي وإلغاء قرارات التأميم، فلجأت إلى المداورة والاستعانة بالكلام المنمق للخلاص من الإجراءات الاقتصادية الاجتماعية. ولهذا، جاء في بيان حكومة الكزبري المعلن في 30 أيلول 1961 أن الحكومة تسعى إلى إقامة "الاشتراكية الصحيحة"، وهي "تؤمن بأن المؤاخاة بين مصالح العمال وأرباب العمل، وإقامة العلاقات الإنسانية الخيّرة بينهم، أساس في تحقيق الاستخدام الكامل والوصول

بين سورية ولبنان في أيام الوحدة، وذكر واصل أنه التقى في أواخر أيام الوحدة بأحد قادة البعث في حمص عبد البر عيون السود، واتفق معه أن يلتقي بعبد الغني قنوت في دمشق.

[481]- دانيال نعمة: جبهويات، الحراك السياسي في سورية خلال نصف قرن (1955-2004)، ص 443-446.

إلى استقرار الإنتاج وتحسينه كماً وكيفاً، كما أن الحكومة ستعنى بتطبيق قوانين الإصلاح والعلاقات الزراعية بشكل يحقق الازدهار والرخاء للفلاح والعامل الزراعي، ويضمن انتظام العمال الزراعيين في نقابات مهنية حرة"[482].

وهكذا، نلاحظ أن الحكومة البرجوازية تجنبت في بيانها الأول الإعلان عن خطها الحقيقي في إلغاء التأميم وقانون الإصلاح الزراعي، والواقع أن الحكومة الكزبرية كان يهمها بالدرجة الأولى إلغاء قرارات التأميم، وإفساح المجال مجدداً أمام البرجوازية للسير في طريق الاستثمار الرأسمالي دون كوابح أو عراقيل، أما فيما يتعلق بالإصلاح الزراعي، فإن البرجوازية السورية لم تكن معادية معاداة مطلقة لهذا القانون، ولهذا ذكرت بأنها "ستعنى بتطبيق قوانين الإصلاح الزراعي"، لكنها لم تشر إلى أنها ستعنى بتطبيق قرارات التأميم التي تمسها مباشرة، وتحت ضغط كبار الملاك (الإقطاعيين)، قامت البرجوازية السورية بتعديل قانون الإصلاح الزراعي لصالح كبار الملاك. وبعد ترسّخ أقدام الانقلاب العسكري، وعودة الجمهورية السورية، وتشكيل حكومة الكزبري، أخذت الأوساط البرجوازية أو المؤيدة لها تُعرب عن رأيها المعادي بصراحة للتأميم، فقد وجه سماحة الدكتور أبو اليسر عابدين مفتي الجمهورية السابق، كلمة جاء فيها: "... لقد أصبحنا بحكم الله ورسوله في حلّ من بيعتنا، التي بايعنا عبد الناصر عليها... لقد تظاهر بالوطنية، فأفقر الغني، وأمات الفقير، وتكبّر، وتجبّر على الشعب وأفراد الأمة "[483].

كما أن السادة العلماء المجتمعين بدار سماحة الشيخ مكي الكتاني رئيس رابطة العلماء، أصدروا بياناً عارضوا فيه السياسة الاقتصادية الاجتماعية للجمهورية العربية المتحدة، جاء فيه[484]: "...السير في اشتراكية بعيدة عن روح الإسلام، لا تختلف، كما يصرح أصحابها والمسؤولون عنها، عن الاشتراكية الشيوعية إلا في الأسلوب، أما القيم الروحية والدينية، فلا حساب لها في الفرق بين الاشتراكيتين. وكانت نتيجة تطبيق القوانين التي سميت اشتراكية في ميادين الصناعة والتجارة

---

[482]- نقلاً عن جريدة "العلم" في 1961/10/01.

[483]- "العلم" في 1961/10/03.

[484]- "العلم" في 1961/10/05.

والاقتصاد تعطيلاً للحياة الاقتصادية، ولم تستفد منها طبقتا العمال الكادحين والفلاحين والفئات الفقيرة أية فائدة، وكانت القدوة في هذه الاشتراكية دولة تختلف في قوميتها وظروفها وفي عقيدتها المادية الملحدة الخارجة عن الأديان السماوية...".

وفي 6 تشرين الأول 1961، نشرت جريدة "العلم" مانشيتاً بعنوان: "تجار المدينة يباركون الانتفاضة، ويؤيدون الحكومة القائمة، ويطالبون بإعادة النظر في القيود المفروضة على التجارة الحرة".

في 1961/11/12، جرى انتخاب أعضاء الجمعية التأسيسية، التي كان من مهامها انتخاب رئيس الجمهورية، ووضع دستور في مدة أقصاها ستة أشهر، ثم تتحول إلى مجلس نيابي. وقد جرت الانتخابات في ظل القوانين الاستثنائية، وفي فترة كانت القوى التقدمية وأحزابها تجتاز مرحلة صعبة من عدة نواح، مما ساعد على نجاح أكثرية واضحة من قوى اليمين والرجعية، وفي مقدمتهم زعماء العشائر، ولم يحظ اليسار إلا بعدد ضئيل من المقاعد. في 1961/12/12 اجتمعت الجمعية التأسيسية، وانتخبت مأمون الكزبري رئيساً لها، وفي 1961/12/14، انتُخِب ناظم القدسي، أحد قادة حزب الشعب، رئيساً للجمهورية، الذي دعا في 1961/12/17 إلى وحدة الصف، وتكاتف جميع الطبقات والفئات، والعمل بروح الإخاء لتحقيق السعادة والرفاهية لجميع الطبقات.

عَهَدَ ناظم القدسي إلى معروف الدواليبي، وهو من قادة حزب الشعب بتأليف الوزارة. وفي 1963/01/8، أعلن الدواليبي في بيانه الوزاري أن حكومته ستحترم الملكية الخاصة والمبادرة الفردية، وتعيد النظر في قوانين التأميم، وتسهّل توظيف الرساميل العربية في الاقتصاد السوري، وتشجّع توظيف الرساميل الأجنبية[485]. أما فيما يتعلق بالإصلاح الزراعي، فقد أعلن البيان الوزاري ما يلي[486]: "تتمسك الحكومة بمبادىء قانون الإصلاح الزراعي، باعتباره عاملاً هاماً أساسياً في تحقيق العدالة الاجتماعية وزيادة الإنتاج القومي وتعلق سكان الريف بالأرض تعلقاً ثابتاً وثيقاً، وتتعهد بالمحافظة على جميع الحقوق المكتسبة للفلاحين في ظل هذا القانون، وتتبنى حقوق الملاكين المشمولين به،

---

[485]- "العلم" في 1961/12/18.

[486]- "العلم" في 1962/01/10.

وتسديد قيمة أراضيهم بشكل عادل وخلال مدة معقولة، وتقويم الاعوجاج ورفع الحيف الناجم عن سوء تطبيق هذا القانون"، "والحكومة تحرص على توزيع أراضي أملاك الدولة على الفلاحين بشكل عادل، أو استصلاح ما يمكن استصلاحه منها بأسرع ما يمكن، وتسجيلها بأسمائهم وتمليكها لهم".

وكان واضحاً أن "رفع الحيف" معناه "رفع الحيف" عن الإقطاعيين، الذين شملهم قانون الإصلاح الزراعي لعام 1958، و"تقويم الاعوجاج" يعني في قاموس البرجوازية السورية، المرعوبة من التأميمات والواقعة تحت ضغط كبار الملاك، إلغاء قانون الإصلاح الزراعي، تحت ستار تعديله، الذي تمّ في المجلس التأسيسي والنيابي في 1962/02/20، وأصدره رئيس الجمهورية تحت رقم 30. هذا القانون رفع سقف الملكية للمالك وأزواجه وأولاده على نحو جعل من قانون الإصلاح الزراعي هباءً منثوراً.

ولكن الحركة الشعبية المستاءة من قوانين "الانفصال" والمدعومة من فئات وسيطة متعددة تمكنت من إيقاف المد الرجعي في ما يتعلق بتصفية قانون الإصلاح الزراعي، وتشكلت حكومة بشير العظمة، التي شارك فيها بعض الوزراء المناهضين للإقطاع، فتمكنوا من إعادة قانون الإصلاح الزراعي لعام 1958، وهكذا نرى أن حكم "الانفصال" لم يكن موحداً في الموقف من الإصلاح الزراعي، وإلى حد ما التأميم. والملاحظ أن النزعات اليمينية للبرجوازية السورية أخذت تطفو على سطح الأحداث، مخلفة وراءها النزعات العقلانية والتنويرية، التي غرقت في خضم الصراعات المعتملة في قلب المجتمع السوري آنذاك.

ومثالنا على ذلك ما جرى في الميدان النقابي، إذ قامت السلطة البرجوازية ذات المنازع اليمينية في عهد "الانفصال" بالسعي لضرب الحركة النقابية في الصميم، عن طريق منع أي احتمال لقيام وحدة حقيقية بين المنظمات النقابية، وذلك بإصدار المرسوم التشريعي رقم 50 لعام 1962[487]، الذي جاء خطوة إلى الوراء، داعماً القوى الرجعية والمتخلفة في أوساط الشرائح الاجتماعية الوسطى، أي أن الهدف من المرسوم هو تفتيت الحركة النقابية وتجزئتها، وإضعافها وشلّ قدرتها

487- ألغى المرسوم رقم 50 النقابات العامة واللجان النقابية، كما أعطى الحق لمجلس الوزراء بحل أية نقابة.

على العمل، وقتل روحها الكفاحية الموجهة في ذلك الوقت ضد العودة عن قرارات التأميم.

وهكذا نرى أن جميع السلطات الحاكمة وقفت ضد أحد الأعمدة الرئيسية للمجتمع المدني، وهو النقابات، إذ لم تكن تلك تسند البناء السلطوي للحكام على اختلاف مشاربهم ومواقعهم السياسية والفكرية.

والملاحظ أن الطبقة العاملة، وخاصة جناحها الصناعي، هبّت للنضال الوحدوي ضد قوى اليمين، ودفاعاً عن إجراءات التأميم. وهذا سهّل، في 8 آذار 1963، الإطاحة بسلطة البرجوازية الكبيرة وبقايا الإقطاع، وأتى بممثلين لفئات اجتماعية من الطبقات الوسطى والدنيا معادية للإقطاعية والرأسمالية الكبيرة، في ذلك الحين.

الفصل الثاني
العبور السري لكوادر الحزب الشيوعي من لبنان إلى سورية (دانيال نعمة في الطليعة)

1– مذكرات جرجس العيسى تلقي الضوء على آلية العمل السري في دمشق لدانيال نعمة وواصل فيصل

تُلقي مذكرات جرجس العيسى، التي نقلنا عنها في فصل سابق، الضوء على جوانب من حياة الشيوعيين وأصدقائهم الهاربين إلى لبنان من الاعتقال والتعذيب أيام الجمهورية العربية المتحدة، ويشير صاحب المذكرات إلى كيفية "العودة إلى دمشق والعمل لإحياء التنظيم" بعد أن تلقى ضربات قاتلة نتيجة الاعتقال والتعذيب والتذويب بالأسيد لفرج الله الحلو، الذي تولى قيادة الحزب الشيوعي بدمشق في تلك الأيام العصيبة من عام 1959.

حول كيفية الانتقال من بيروت إلى دمشق كتب جرجس العيسى[488]

"بدأنا نعد العدة للدخول إلى سورية قبل أن يحدث الانفصال، وكان قسم من القيادة قد تمركز في بيروت، والقسم الآخر في الدول

---

[488]- المخطوط الأصلي في حوزة صاحبه جرجس العيسى، وقد تكرم، وقدّم لنا نسخة مصورة عن المخطوط.

الاشتراكية. لم نستطع الدخول علناً إلى سورية بعد أن حدث الانفصال، لكن ترتيباتنا السرية، التي كنا قد وضعناها قبيل الانفصال بالدخول سراً ظلت سارية المفعول. وبعد يومين من وقوع الانفصال، كنا حسب التعليمات أنا والرفيقان دانيال نعمة[489] وواصل فيصل[490] نجتاز الحدود عن طريق سرغايا إلى العاصمة دمشق، تارةً على البغال، وتارةً سيراً على الأقدام، ولم نلبث بعد عذاب ومشقات وتعرض للأخطار أن وصلنا دمشق سراً، وكانت مهمتنا هي إحياء منظمة دمشق المسحوقة والمفككة، وإعادة ترتيبها وبنائها من جديد، وكنّا أول الداخلين إلى العاصمة كنواة قيادية أولى للحزب في سورية".

"وصلنا إلى دمشق، وكنا سابقاً قد رتبنا بيتاً ريفياً يقع في أطراف دمشق بواسطة رفيق لبناني، كان قد دخل سراً أيام الوحدة، ورتب لنا البيت على شكل دكان كندرجي، والرفيق اللبناني يجيد هذه المهنة، فكانت واجهة البيت دكان اسكافي يعمل به، ويعرض البضاعة، ومن الداخل بيت واسع ومفروش ومجهّز بأدوات المطبخ وفرشات للنوم وطاولات للكتابة وكراسي. كنا ندخل إلى الدكان بحجّة شراء الأحذية، ومن الدكان نتسرب من باب سري في الدكان إلى البيت، وكان بيتاً سرياً رائعاً. رتبنا أمورنا في هذا البيت، وبدأت عملية دراسة منظمة دمشق ومناطق سورية وإعادة الصلة بها وترتيبها... وكنا على صلة بالقيادة في بيروت. وبدأنا سرّاً في توزيع الجريدة والمطبوعات والاتصال بالرفاق المقطوعين[491]، والحصول على أخبار سياسية

---

[489]- يذكر يوسف الفيصل في مذكراته: "أن دانيال نعمة أول من دخل دمشق من الشيوعيين الملتجئين إلى لبنان"، الفيصل، ص 363.

[490]- واصل فيصل من مواليد حمص 1928، انضمّ إلى الحزب الشيوعي في سن مبكرة، وبعد نيله البكالوريا عام 1946 انتسب إلى كلية الصيدلة في الجامعة السورية، وأصبح من الكوادر الأساسية اللصيقة بالقيادة، وكان يعيش بفضل ما يحصل عليه من صيدلية والده. وأثناء لقائنا به في بيته في حمص في أواخر صيف 2006، قال حرفياً، وهو صادق: "ما في حياتي أخذت راتب من الحزب". وعندما أصبح وزيراً، كان يقدم نصف راتبه للحزب. كان مسؤول منظمة حمص بين عامي 1956 و1958، ونجا واصل من الاعتقالات أيام الوحدة، وكان يعبر الحدود سراً بمفرده إلى بيروت للقاء القيادة، ثمّ يعود إلى حمص. وذكر واصل أن علاء الدين الرفاعي كان يحل محله في قيادة منظمة حمص أثناء غيابه.

[491]- الرفاق المقطوعين: هم أعضاء في الحزب، لم يجر الاتصال بهم بعد الضربات، التي تلقاها الحزب على أيدي المخابرات السراجية والمصرية، وأمسوا دون تنظيم أو اتصال حزبي.

ومتابعة سياسة حكومة الانفصال، وكنا نعيش في البيت ثلاثتنا، وقد كلفت بالعمل مراسلاً بين دمشق وبيروت، أحمل الرسائل المتضمنة لأخبار دمشق ونشاطنا إلى القيادة في بيروت، وأعود بالرسائل والمطبوعات القادمة من بيروت، وذلك بواسطة رسول كان يأتي من بيروت وعمله متمم لعملي، وكنا نلتقي في أماكن وأزمنة اتفقنا عليها. وسارت الأمور مدة من الزمن على خير ما يرام، لكن بعد فترة أخذت ألاحظ أن له حركات مشبوهة، وداخلني الشك بأنه مشبوه، ويجلب معه أناس ليراقبوني. وذات مرة، أتيت مبكراً إلى الموعد المقرر، وراقبته من بعيد، فشاهدته مضطرباً، ويتحدث مع بعض الأشخاص، فانتابني شعور بالقلق، وقلت ربما كان قد اعتقل أثناء مروره على الحدود، وتركوه حتى يكمل مهمته، ليعرفوا أين يعمل! اقتربت منه، وكلمته، ولم يكن معه شيء، واتفقنا على الموعد اللاحق، لكن شعوراً انتابني، ورجحت بأنه غير نظيف، وربما سيقوم بعملية تسليمي إلى المخابرات في المرة القادمة، فصممت على عدم المجيء مرة ثانية، وعدت إلى البيت، وأخبرت دانيال وواصل بالأمر، وأبديت لهما ملاحظاتي حوله، وأنه لا بد قد وقع واشتروه، فيجب القطع معه. ولكن دانيال وواصل بعد أن ناقشاني لم يقتنعا بوجهة نظري، وأصرا على ضرورة استمرار التعامل معه هذه المرة، ثمّ نكتب لبيروت لنأخذ رأيهم. لم أقتنع بالقرار أبداً، وأيقنت أنني ذاهب للتسليم والسجن. وخوفي من تفسير عدم ذهابي بأني خائف من الذهاب لملاقاته دفعني لأن أنفّذ القرار، رغم خطئه وعدم قناعتي به... وذهبت ومعي رسالة لأسلمها إياه، ووقفت بعيداً عن مكان اللقاء، فشاهدته مضطرباً، يتلفت ذات اليمين وذات الشمال، وما إن اقتربت منه وسلمته الرسالة وأخذت منه المطبوعات، حتى فوجئت بكمين من رجال المخابرات، كانوا جالسين على مقعد مجاور في الحديقة، التي كنا نلتقي فيها على طريق بيروت. انقضّ الرجال الأربعة الملثمون علينا، وتكفل واحد منهم برسول بيروت، وأمسك الثلاثة بي، وقادوني إلى وزارة الداخلية، ومنها إلى الأركان".

وهناك ذهب جرجس العيسى إلى المرحاض، وألقى المفتاح في بالوعة المرحاض، ولم يُبْقِ معه إلا هويته. ويفصّل جرجس عيسى في مذكراته، التي نقلناها حرفياً، كيف جرى التحقيق معه في الشرطة العسكرية، ووسائل التعذيب التي استخدمت معه لانتزاع المعلومات التي

يختزنها، وهو يكرر أنه في طريقه إلى المشتى، ولا يعرف أحداً في دمشق، مع إصراره أنه شيوعي، ويحمل بعض الجرائد التي أخذها من عابر سبيل، ورغب في أخذها إلى بلدته المشتى. وبعد ليلة في النظارة، سيق إلى سجن المزة، حيث أمضى سبعة أشهر، إلى أن أطلق سراحه. وليس أمراً غريباً على سياسة الحكام في عالمنا العربي أن يُساق إنسان إلى السجن دون محاكمة، ويخرج منه مثلما دخل، وهذا حال دنيا الدول السلطانية المستبدة في عالمنا العربي من محيطه إلى خليجه.

التقى جرجس العيسى بعد خروجه من السجن بدانيال نعمة، الذي قال له: "لقد أخطأنا بحقك، ونحن سلمناك بأيدينا إلى السجن، وكان قرارنا خاطئاً، لأننا بعد اعتقالك كتبنا إلى بيروت، وأخبرونا أن رسول بيروت فعلاً قد اعتُقل، واعترف عليك، وهو الذي سلمك إلى المخابرات، وكانت غلطتنا أننا لم نسمع منك، ولم نأخذ ملاحظاتك بالحسبان..."[492].

2- النضال السري لدانيال نعمة وزوجته نديمة يسوف في دمشق

بعد رجوع دانيال نعمة من موسكو إلى بيروت صيف 1959 وانغماسه في النشاط الحزبي السري، تعرّف على الآنسة نديمة يسوف، الهاربة من جحيم المباحث، والملتجئة إلى بيروت، وقررا الزواج.

والآنسة نديمة من بلدة ديرعطية، المعروفة بانغماس قسم كبير من أهلها في السياسة، توزعوا مناصفة بين الحزب الشيوعي وحزب البعث.

وعندما جرت الاعتقالات المباحثية في أوائل عام 1959، اعتقل من ديرعطية أكثر من أربعين شخصاً، بعضهم لم يكونوا شيوعيين، بل أعضاء في الجمعية التعاونية الزراعية[493]، وكان لعبد الوهاب الخطيب، وهو من ديرعطية، والساعد الأيمن لوزير الداخلية عبد الحميد السراج، اليد الطولى في هذا الاعتقال الجماعي، الذي رافقه إهانات يندى لها الجبين لبعض أعضاء الجمعية، وفي مقدمتهم عبد الحفيظ زرزور، وقصته معروفة في البلدة.

---

[492]- انظر التفاصيل في المخطوط الموجود في حوزة صاحبه جرجس عيسى، وهو مقيم في مشتى الحلو، وقد تفضل مشكوراً، ووضع المخطوط في خدمة البحث.

[493]- الجمعية الزراعية التعاونية في ديرعطية هي أول جمعية تعاونية زراعية في سورية، تأسست عام 1943. انظر تاريخ هذه الجمعية ونشاطها في: عبد الله حنا، "ديرعطية التاريخ والعمران، من الوقف الذري إلى المجتمع المدني أواخر القرن الثالث عشر-منتصف القرن العشرين"، إصدار المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، 2002، ص 161-195.

في 1960/04/25، تزوج دانيال نعمة في بيروت من الآنسة نديمة يسوف الهاربة، كما ذكرنا، من جحيم الهيمنة المباحثية شأن المئات من أعضاء الحزب الشيوعي ومؤيديه، وقبل أن يأخذ دانيال نعمة قراره النهائي بالزواج من اللاجئة الشيوعية إلى بيروت نديمة يسوف، استمزج رأي إحداهن من العاملات في الحقل النسائي عن رأيها بنديمة، فأجابت: "بأنها جيدة وشيوعية مخلصة وخلوقة، لكنها ليست مودرن"، فأجابها دانيال على الفور: "هذا هو المطلوب". إن دانيال نعمة القائد الشيوعي الواعي لصعوبات المرحلة وخطورة العمل السري، الذي قدّر أنه سيلازمه لفترة من الزمن وجد في هذه الفتاة "الشيوعية المخلصة الخلوقة" و"غير المودرن" ضالته ورفيقة دربه المشرّف والصعب. ولم يكن دانيال نعمة المصمم على النضال في سبيل سعادة وطنه والبشرية جمعاء بحاجة إلى امرأة مغناج، لا تتحمل شظف العيش ومخاطر الاعتقال. والمرأة المِغناج، أساساً، سوف تنهار عندما تواجه أول عقبة تعترض حياتها الزوجية، وستسعى بكل ما تملك من أسلحة لثني زوجها عن النضال. والوقائع التالية تبرهن أن دانيال نعمة العازم على دخول سورية سراً لإعادة بناء الحزب الشيوعي كان قد أحسن الاختيار، فبعد مراسم الزواج في بيروت، سكن دانيال ونديمة في بيت مؤلف من غرفتين في شارع البداري، وكان البيت مركزاً حزبياً سرياً، وبعد ثلاثة أشهر انتقلا إلى بيت أفضل، حسب تعبير نديمة، مؤلف من غرفتين وصالون، وكان هذا البيت مركزاً للقيادة السورية اللبنانية الموكل إليها أمر قيادة النشاط السوري. وتذكر نديمة أن ظهيراً عبد الصمد كان يقيم (ينام) في إحدى الغرف، ويتردد على البيت واصل فيصل ونقولا شاوي وحسن قريطم وصوايا صوايا وأرتين مادويان، وتولى أمر المراسلة ونقل الرسائل بين مراكز الحزب الأخرى (بوغوص)، وفي حال غيابه كانت نديمة تحل محله، وتقول إنها تركت في البيت لدى مغادرته إلى سورية أرشيفاً جيداً، كانت قد جمعته ونظمته، ومن التواريخ الدقيقة التي قدمتها أثناء اللقاء بها، يبدو جلياً أنها من هواة الأرشفة، وتتمتع بذاكرة وقَّادة.

عبر دانيال نعمة الحدود السورية اللبنانية سراً، كما رأينا، بتاريخ 1961/10/02، ولحقت به نديمة مع طفلهما خالد، وعمره تسعة أشهر، بتاريخ 1961/12/03 بهوية لبنانية، وحلت ضيفة، بتخطيط من أبي

خالد، لدى أسرة سليم بيطار (محاسب مجلس الوزراء)، الذي يمتُّ بصلة القربى لنديمة، والمتعاطف مع الحركة الشيوعية منذ مطلع شبابه، "والشخص" الذي رافقها في سيارة الأجرة أخذ منها الهوية اللبنانية الملصقة صورتها عليها مع اسم آخر، وعاد إلى لبنان، دون أن يعلم إلى أين توجهت. بعد أسبوعين انتقلت نديمة مع طفلها خالد إلى بيت المحامي سميح عطية، وفي تلك الأثناء عاد من بيروت سراً شقيق دانيال وساعده الأيمن يفتاح نعمة، وهو من المناضلين المخلصين الأنقياء الأشداء، الذين "يغشون الوغى، ويعفون عند المغنم"، ويلاحظ أن دانيال في ذلك العهد السري اعتمد على عدد كبير من أقربائه وأبناء منطقته من الشيوعيين المخلصين، الذين برهنوا على مقدرتهم في النضال أيام العمل السري، ويفتاح تولى أمر البحث عن بيت سري ملائم لدانيال. وبعد أن توصّل إلى البيت المطلوب، قدمت أم دانيال من المشتى إلى دمشق، ووقعت بتاريخ 1963/1/1 عقد الإيجار على أساس أنها هي المستأجرة لهذا البيت في منطقة الميسات. وتذكر نديمة أن أجرة البيت السنوية بلغت 2400 ل.س، وتكاليف فرشه البسيط لم تتجاوز 600 ل.س، وهذه النفقات دفعها الحزب، كما كان متعارفاً عليه. تألف البيت من أربع غرف في الطابق الأرضي من بناية حديثة مؤلفة من ثلاثة طوابق، وسكن مع دانيال ونديمة، كما كان الحال في بيروت، ظهير عبد الصمد، الذي لم يتزوج طوال حياته، فالبيت للسكن وعقد الاجتماعات الحزبية السرية للقيادة المؤلفة آنذاك من: دانيال نعمة وظهير عبد الصمد وإبراهيم بكري ويوسف فيصل وحسن قريطم[494]. والأخير كان ممثلاً للحزب الشيوعي اللبناني، وهو الخبير في تنظيم العمل السري بصبر وتؤدة ونجاح لكلا الحزبين الشيوعيين الموحدين السوري واللبناني[495]، وكانت نديمة عندما تغادر البيت ترتدي الحجاب الشرعي، وتلبس الجوارب السميكة، كي لا تجلب انتباه المارة. وفي هذا البيت رزق دانيال ونديمة بابنهما الثاني لؤي، ولهذا فإن عملها كان شاقاً موزعاً بين تربية الطفلين خالد ولؤي، وتحضير الطعام للرفاق القادمين

---

[494]- هذه المعلومات ذكرتها نديمة يسوف أثناء لقاء معها في دمشق بتاريخ 2005/04/20.

[495]- كما هو واضح من كتاب عزيز صليبا: "العمل السري في الحزب الشيوعي اللبناني مع صفحات من تاريخه"، إصدار دار الفارابي، بيروت، 2002. والكتاب غني بالمعلومات وتقنية العمل السري، التي كان في كثير من الأحيان حسن قريطم وراءها.

للاجتماع في ذلك البيت الواسع والصالح لعقد الاجتماعات السرية، وكان وجود نديمة في البيت يبعد الشبهة عن أحد المراكز الأساسية للحزب الشيوعي في فترة الانفصال.

أواخر 1962 أو أوائل 1963 انتقل دانيال ونديمة إلى بيت في طلعة شورى منطقة الحرش، لا يرى الشمس وغير صحي، مما سبب للطفل لؤي مرض القصبات (التهاب الرئة). وفي هذا البيت جرى اجتماع اللجنة المركزية بحضور خالد بكداش الأمين العام للحزب، الذي كان قد عبر سراً الحدود اللبنانية السورية، كما سنرى. وبات بكداش ليلته في مكان الاجتماع في هذا البيت البارد غير الصحي، فأصيب بوعكة جعلته يتذمر من هذا البيت، الذي لا تتوفر فيه وسائل الراحة، ولم ينس خلالها أن يوجه اللوم لدانيال على اختيار هذا البيت غير الملائم، والواقع أن البحث عن بيوت سرية أمينه لكوادر الحزب ونشاطاته لم يكن بالأمر السهل، وكانت نديمة تـُكلـَّف أحياناً بالبحث عن بيت ملائم، فترتدي حجابها، وتحمل طفلها، وتشرع في البحث متذرعة أن زوجها مسافر، وليس لها قريب يقوم بهذا الأمر. وذات مرة، كلـَّفها حسن قريطم بالبحث عن بيت، واضعاً الشروط المطلوبة. وبعد العناء والبحث، وجدت في حي المزرعة البيت المناسب، فأخبرت حسن قريطم عن البيت ووضعه الجيد للعمل السري، فأجابها حسن: "إن هذا البيت غير ملائم أمنياً"، وعرفت بعد مدة طويلة أنَّ حسناً أرسل أحد كوادر الحزب، واستأجر البيت، ونديمة تتحسر على ضياع هذا البيت. ولحسن قريطم باع طويل في بيروت ودمشق في تنظيم العمل السري بيقظة وأمان وتفانٍ في خدمة القضية، التي نذر نفسه لها. وجميع من التقيت بهم كانوا يكيلون المديح له ولخبرته وتفانيه وتواضعه في خدمة قضية الحزب[496].

البيت السري الثالث، الذي سكنه دانيال ونديمة أواخر عام 1963، يقع في "باش كاتب" في المهاجرين في بناية مؤلفة من ثلاثة طوابق، عاشا في الطابق الثاني منها، وكان هذا البيت أفضل من البيوت السابقة رغم صغره.

وفي هذه الأثناء تمكن الحزب من استئجار عدد من البيوت، منها بيت عربي في العمارة لا تصله مياه عين الفيجة، لكنه يحتوي على بئر

[496]- عزيز صليبا في كتابه العمل السري في الحزب الشيوعي اللبناني يتحدث بإسهاب عن النشاط السري لحسن قريطم في تأمين تحركات كوادر الحزب والحفاظ على أمنه.

ومضخة، وقد كلَّف دانيال أقاربه وأقارب زوجته باستئجار البيوت، ومنها بيت في باب شرقي زقاق جعفر، خـُصِّصَ لمبيت المراسلين السريين القادمين من بيروت إلى دمشق، وبيت آخر في المناخلية مخصص لتحرير الجريدة، ويتردد عليه دانيال وظهير عبد الصمد وإبراهيم بكري وميشيل العيسى، والأخير استأجر في حي الميدان بيتاً تحوَّل إلى مطبعة سرية، كما ملك الحزب مطبعة ثانية سرية، أشرف عليها نادر حلاق وزوجته غفران الخطيب، وهما من سلقين، ولا أحد يعرفهما في دمشق.[497]

أواخر عام 1964 سكن دانيال مع زوجته نديمة في طابق أرضي من إحدى بنايات طلعة شورى، وبقيا فيه حتى تاريخ 1965/10/30، وهو البيت السري الرابع، الذي سكنه دانيال مع أسرته، ومنه انتقلا إلى بيت علني في منطقة القشلة، الواقعة في سوق مدحت باشا. وبعد أن تنقلت أسرة دانيال في عدد من البيوت، استقر بها المقام أخيراً في بيت مسبق الصنع في مساكن برزة.

من ذكريات نديمة يسوف، زوجة دانيال، عن تلك الأيام الخوالي أن راتبيهما في بيروت كان 150 ليرة لبنانية توزع على النحو التالي: يرسل دانيال لأهله في مشتى الحلو 25 ل، وله 25 ل نفقات تنقل ومصروف شخصي، ويبقى لنديمة أي لمصروف البيت مئة ليرة. وإذا جرى اجتماع في البيت، كانت نديمة تقوم بالطبخ، وتقسم النفقات على الحضور. وإذا حلَّ ضيف لمدة يوم واحد، فمصروفه في الطعام "على حساب الكوم"، أي على حساب المجموع المقيم لأكثر من يوم.

أثناء العمل السري في دمشق (1961- 1964) كان راتب دانيال، الذي يتقاضاه من الحزب 150 ليرة، وتعويض الطفل 25 ليرة، وهذا راتب الكادر الحزبي إذا كان متزوجاً، أما الأعزب فراتبه 75 ليرة، ويتساوى الجميع في مقدار الراتب دون تمييز بين عضو قيادي أو مراسل، مع ملاحظة أن هذا الراتب لا يتضمن أجرة بيت السكن السري، الذي يُدفـَع من صندوق الحزب[498].

---

[497]- راجع تفاصيل وافية عن العمل السري لنادر حلاق وزوجته غفران الخطيب في كتابنا: "الحركة الشيوعية السورية – الصعود والهبوط"، دمشق، 2008، فصل الثوريون المجهولون.

[498]- المعلومات الواردة مأخوذة من نديمة زوجة دانيال في اللقاء المذكور في حاشية سابقة.

الفصل الثالث
دخول خالد بكداش سراً إلى سورية

بعد انفصال سورية عن مصر في 29 أيلول 1961، قامت حكومة سورية في دمشق كان في عدادها الدكتور في الحقوق عدنان القوتلي وزيراً للداخلية، وكانت آصرة صداقة مهنية تربط المحامي الشيوعي اللاجئ إلى براغ مصطفى أمين بالقوتلي، فاتصل أمين، بعد موافقة الحزب، هاتفياً من براغ لتهنئة القوتلي بالمنصب، وسرعان ما قامت المباحث بقطع الاتصال، ولم تنفع محاولات أمين المتكررة للاتصال هاتفياً بزميله وزير الداخلية، فالمخابرات هي اليد العليا في البلاد، وهي التي حجبت الاتصال بين أمين ووزير الداخلية.

ولكن الكوادر الأساسية للحزب الشيوعي الموجودة في لبنان سرعان ما بدأت تعود سراً إلى مناطقها، ولنقرأ ما كتبه يوسف الفيصل:

"غادرنا بيروت إلى دمشق، وكان الرفيقان دانيال نعمة وموفق الحفار أوائل العائدين، بينما كان الرفيق واصل يتنقل بين بيروت ودمشق، وبدأنا عملنا الحزبي بشكل سري. نتنقل ليلاً، ونستقر في البيوت نهاراً. كانت أول مهمة تقف أمامنا إعادة نشاط الحزب وترميم المنظمات وتنظيم الصلة بالرفاق، وبدأنا بتشكيل لجان قيادية حيث كان ذلك ممكناً. تشكلت لجنة منطقية بدمشق، وكُلف الرفيق يوسف نمر بقيادتها، وشكلت لجنة منطقية بحمص بقيادة الرفيق واصل فيصل وأخرى في حماة بقيادة الرفيق محمد الحبال، وعاد الرفيق عبدو بكور ليقود منظمة حلب، كما عاد الرفيق محمود عيسى لقيادة منظمة طرطوس، وعاد الرفيق طه زوزو ليقود منظمة جبلة. وعند إطلاق سراح آخر السجناء الشيوعيين، انضم عدد كبير منهم إلى اللجان المنطقية، وقاد بعضهم هذه اللجان[499].

بعد شهر ونيّف من انفصال سورية عن مصر قرر خالد بكداش العودة إلى دمشق غير آبه بتهديدات قائد الجيش عبد الكريم زهر الدين، واستقلّ في 19 تشرين الثاني 1961 الطائرة التشيكية من براغ بصحبة نقولا شاوي وحسن قريطم، وهما لبنانيان وعضوا قيادة في الحزب الموحد آنذاك السوري اللبناني، إضافة إلى كل من المحامي مصطفى أمين والمحامي الحمصي الشيوعي المعروف نوري حجو الرفاعي. وعندما هبطت الطائرة في مطار دمشق، كان حشد من الشيوعيين في المطار لاستقبال رفيقهم الأمين العام، وبالمقابل كان حشد من الشرطة

---

[499]- الفيصل، ص 364.

على أهبة الاستعداد لتنفيذ أوامر قيادات الأمن، ويذكر مصطفى أمين أن مسؤولاً أمنياً صعد الطائرة، وأبلغ خالد بكداش أوامر منعه من مغادرة الطائرة والعودة من حيث أتى. احتجّ بكداش على هذا الإجراء قائلاً: نحن مواطنون سوريون، ولا يوجد قانون يمنع المواطن من العودة إلى وطنه[500]. وبعد محاججة سُمِح لمصطفى أمين بالنزول من الطائرة للاتصال هاتفياً بوزير الداخلية عدنان القوتلي، لكن الاتصال الهاتفي لم يتحقق، وأُجبِر أمين على العودة إلى الطائرة، التي استأنفت رحلتها باتجاه بغداد، كما هو مقرر في برنامج رحلتها. في مطار بغداد صعد ضابط أمن كبير الطائرة، مرحباً بخالد بكداش ورفاقه، وقائلاً للوفد: أنتم في بلدكم، وهذه توجيهات "الزعيم الأوحد" عبد الكريم قاسم، وأنتم ضيوف الحكومة العراقية. فشكره خالد بكداش راجياً إياه أن يبلغ تحياته للزعيم، وعادت الطائرة وفق برنامجها باتجاه دمشق فبراغ [501].

بعد مدة وجيزة أعاد خالد بكداش الكرة محاولاً العودة إلى وطنه عن طريق براغ دمشق، وبصحبته الأشخاص السابقون في الرحلة الأولى، لكن سلطات ما يسمى "حكم الانفصال" منعته من مغادرة الطائرة، التي استأنفت رحلتها إلى بغداد فدمشق فبراغ.

في 1962/04/16 تشكلت وزارة الدكتور بشير العظمة وكان للوزارة مسحة تقدمية، إذ دخلها اثنان من البعث العربي الاشتراكي (جماعة أكرم الحوراني) والضابط السابق الوطني والتقدمي الميول أحمد عبد الكريم، وكانت آصرة صداقة تصل بين بكداش والعظمة، فهما زميلا دراسة، وللعظمة ميول تقدمية معروفة، ولهذا قرر خالد بكداش للمرة الثالثة إعادة المحاولة للرجوع إلى الوطن، فاستقلّ الطائرة من براغ، ومنع من مغادرتها في مطار دمشق، وكما في الرحلة السابقة أقلعت الطائرة إلى بغداد فدمشق فبراغ.

حول الأجواء السائدة في ذلك الحين بما له علاقة بموضوعنا، لنقرأ ما كتبه بشير العظمة في مذكراته:

"... وكذلك رفضت الأجهزة السماح بدخول بكداش، وأعادته من حيث أتى

---

[500]- المصدر السابق، ص 198.

[501]- لقاء مع المحامي مصطفى أمين في مكتبه بدمشق بتاريخ 2005/04/11.

رغم الإعلان عن تطبيق إجراءات ديمقراطية في السياسة والاقتصاد والإعلام"[502].

وفي مكان آخر كتب العظمة: "... إن تقرير المخابرات العامة اليومي هدف إلى تثبيط وترويض وتوجيه القيادات المدنية والعسكرية معاً لما تريده الأجهزة الملغومة. تفاهات ودسائس مفضوحة لم أوفق في تبديل شيء من ذلك، فالأمر والنهي لم يكن في يد الأجهزة المدنية، بل كان في يد الأجهزة الأمنية". وقدّم العظمة صوراً لمدى ضعف سلطات رئيس الوزراء، ذاكراً أمثلة عديدة[503].

ويحاول العميد مطيع السمان في كتابه **"وطن وعسكر"** أن ينفي التهم الموجهة من العظمة له، مدعياً عدم معرفته بهذه الأمور، وموجهاً النقد اللاذع لبشير العظمة[504]! ولنقرأ رواية العميد مطيع السمان قائد قوى الأمن الداخلي والآمر الناهي أيام الانفصال حول مجيء بكداش إلى سورية. كتب العميد في مذكراته:

"في يوم من الأيام الأولى لوزارة الدكتور بشير العظمة هتف إليَّ الرائد منيب الرفاعي رئيس دائرة السياسة في قوى الأمن الداخلي، وأخبرني بأن خالد بكداش، الزعيم الشيوعي المعروف، سيصل إلى مطار المزة بدمشق على متن الطائرة التشيكية، وأن جمهرة من محازبيه مجتمعة الآن في المطار لاستقباله، طالباً توجيهه. كان جوابي الفوري والحازم إليه بأن يطلب إلى برج مراقبة المطار الاتصال بالطيار، وإبلاغه بوجوب التوقف في آخر مدرج الهبوط انتظاراً للتعليمات. توجهت إلى مكتب وزير الداخلية، فلم أجده. دخلت مكتب رئيس الوزراء المجاور لمكتبي في سراي الحكومة، وأخبرته بالموضوع، وطلبت إليه التوجيه، فكان جوابه أنت أدرى بهذه الأمور، كأنه كان يريد الابتعاد عن هذا الموضوع

---

[502]- بشير العظمة: "جيل الهزيمة بين الوحدة والانفصال"، دار الريس، 1991، ص 234-236.

[503]- منها المثالان التاليان: "راجعني بعض الأطباء بشأن زميلة تزوجت في بيروت عضواً في الحزب الشيوعي اللبناني، وتوفي زوجها، وقد منعها مخفر الحدود من العودة إلى بلدها. أخبرت العميد مطيع السمان رئيس جهاز الأمن الداخلي والخارجي، ووعدني بإنهاء الإشكال فوراً، ولم يفعل".

"كذلك جرى مع وفد من المعلمين المسرحين أيام الوحدة، فقد اتخذنا قراراً في مجلس الوزراء بدراسة أضابيرهم، وإعادة الأبرياء الذين سرّحوا بسبب معتقداتهم السياسية، كما تحددها تقارير الدس. اتصلت برئيس الجمهورية، واتفقت معه على أن يتوجه الوفد إلى القصر الجمهوري ليستمع إليهم. بعد دقائق من مغادرتهم السراي، وعلى بعد أمتار من رئاسة مجلس الوزراء، شاهدت من نافذة غرفتي عصيّ الشرطة تلهب ظهورهم بدعوى التجمهر والتظاهر الممنوع قانونياً. اعتكفت في الدار ثلاثة أيام متمارضاً، وأخبرت الرئيس بأن يتدبر أموره، وأني مستقيل"، بسبب "تحديات العميد المعتمد مفوضاً سامياً مشرفاً وموجهاً للوزارة"، العظمة، ص 235.

[504]- راجع مذكرات مطيع السمان: "وطن وعسكر"، بيسان للنشر والتوزيع، 1995، ص 166 وما يليها.

الحساس، وما يترتب عليه، وهو من أنصار الشيوعيين ومن رفاق بكداش في الابتدائية والثانوية والتقدمية المعلنة. إن هذا الموقف فرض عليَّ ضرورة الاتصال هاتفياً من مكتبي برئيس الجمهورية الدكتور ناظم القدسي لإحاطته وتلقي أوامره، التي كانت بالحرف الواحد: "شو جابو الآن؟ تصرف كما عهدتك". إن مجيء بكداش إلى سورية في تلك الآونة له دلالة يحرص الحكم على أن لا يُدمغ بها، وأن يبتعد عنها. لذا اتخذت قراري، وأمرت رئيس الدائرة السياسية الرفاعي، الذي كان ينتظر في المطار، بإبلاغ السيد خالد بكداش، بأن مجيئه الآن إلى سورية ليس في مصلحتها ولا في مصلحته للأحوال الاستثنائية التي نعيشها، ونفضل متابعة سفره على الطائرة نفسها دون نزوله منها، فأذعن دون ممانعة أو احتجاج"[505].

عندما سألت مصطفى أمين: لماذا لم يحاول خالد بكداش النزول من الطائرة بالقوة، تاركاً قوى الأمن تعتقله أو تطلقه؟ أجاب: "كان هناك موقف بعدم الإساءة أو العداوة مع الحكم الجديد"[506].

والواقع أن الحكم الجديد فيما يسمى حكم الانفصال، كان رغم عداء بعض أطرافه للشيوعية وللتقدم الاجتماعي يتصف بنوع من الليبرالية والحرية، وبالمقارنة مع حكم المباحث السابق في عهد الجمهورية العربية المتحدة كان "جنة" الديمقراطية. وهذا الحكم، الذي منع خالد بكداش ورفيقيه المحاميان مصطفى أمين ونوري حجو الرفاعي، اللذين رافقا بكداش في سفرتي العودة الفاشلتين، وافق عن طريق السفارة السورية في براغ على منح جوازَيْ سفر للمحاميين الشيوعيين، وعادا في 1962/03/18 إلى وطنهما لممارسة عملهما في المحاماة.

بعد فشل المحاولات الثلاث، التي قام بها الأمين العام للحزب الشيوعي السوري للعودة بصورة شرعية إلى دمشق عن طريق مطار دمشق، قرر العودة سراً، خاصة بعدما أبدى رئيس الوزراء الجديد خالد العظم خشيته من عودة حليفه بكداش، كما ذكر مصطفى أمين في مذكراته، ولنقرأ بعض ما كتبه خالد العظم في مذكراته حول عودة خالد بكداش السرية إلى دمشق. قال العظم:

"... بعد استلامي الحكم، جاءني عدد كبير من أنصار خالد بكداش زعيم الشيوعيين السوريين، وطلبوا مني أن تسمح الحكومة بعودته إلى دمشق، فسردت

---

[505]- السمان، ص 165-166.

[506]- لقاء مع أمين في حاشية سابقة. تعود معرفتي بالدكتور مصطفى أمين إلى عام 1951، عندما دعاني صديقي حسن العمر لحضور اجتماع شبه سري في أحد بيوت سوق ساروجة بدمشق للاستماع إلى حديث الدكتور المحامي مصطفى أمين عن حركة أنصار السلم، وكان مكتبه مشهوراً في دمشق آنذاك.

لهم المضاعفات التي قد تخلقها عودته، ويثيرها تجدد نشاطه، سواء لدى الأوساط السياسية أم لدى الأوساط العسكرية أم الأوساط الأجنبية، لكنني وعدتهم باستطلاع الأمر، فوجدت مقاومة شديدة، وتخوفاً من أن يؤدي رجوعه إلى أن ينظر الأجانب إلينا نظرة الظن بأننا عدنا إلى فسح المجال أمام التوسع الشيوعي، فنقلت نتيجة استطلاعاتي إلى أصدقاء بكداش، وتجاه إصرارهم، اضطررت إلى التصريح بأني أخشى أن يناله أذى لا تعادله أية فائدة ترتجى من مكوثه في دمشق، وظلّ الحال على هذا المنوال، إلى أن أتاني أحدهم ذات يوم، وأخبرني بأن بكداش وصل خفية إلى سورية"[507].

العميد مطيع السمان قائد قوى الأمن الداخلي والمعارض الأشد لعودة خالد بكداش كتب في مذكراته[508]:

"في الأيام الأخيرة من عام 1962، وفي وزارة الأستاذ خالد العظم، وصلني خبر عودة خالد بكداش إلى دمشق، وبصورة غير رسمية. وبعد التأكد من صحة الخبر، أبلغت عنه وزير الداخلية ورئيس الوزراء، الذي وقع عليه الخبر برداً وسلاماً، فلم استغرب ذلك منه لمعرفتي بصداقتهما، لهذا كان جوابه بأن بكداش عاد إلى بلده، قاطعاً عليَّ كل قول. عدت إلى مكتبي، وأنا مستغرق في إيجاد حل، فكان أن استدعيت إلى مكتبي المحامي الدكتور مصطفى أمين، وهو من كبار الشيوعيين، قلت له: لقد بلغني دخول بكداش إلى سورية بصورة غير قانونية، وأنا لا أريد أن أعمل منها مشكلة، والذي أطلبه منك أن تبلغه على لساني بأن لا يظهر علناً بأي شكل من الأشكال، وأنت تعرف ما يترتب على دخول البلاد بصورة غير شرعية[509]*. أخبرت بهذا الاستدعاء وبالرسالة الشفوية إلى بكداش كلاً من وزير الداخلية ورئيس الوزراء ورئيس الجمهورية".*

وفعلاً دخل خالد بكداش سورية سراً عن طريق لبنان في إحدى الليالي الحالكة الظلمة وفق مخطط رسمه حسن قريطم أحد قادة الحزب الشيوعي اللبناني ومجموعة الشيوعيين العاملين في سورية، وعلى رأسهم دانيال نعمة وواصل فيصل. مجموعة من شباب الحزب الشيوعي في منطقة صافيتا، المختصة بنقل أعضاء الحزب ومطبوعاته بين سورية ولبنان، تولت مهمة نقل خالد بكداش من لبنان إلى سورية عبر أحد الممرات الآمنة في نهر الكبير الشمالي، وهي تخوض مياه النهر وسط الظلمة وسكون الليل. شاب ممتلئ حماسة بمستقبل سعيد للفلاحين، مفتول العضلات وذو خبرة في مجاري النهر، حمل خالد

---

[507]- مذكرات خالد العظم، المجلد الثالث، بيروت، 2003، ص 387-388.

[508]- السمان، مصدر سابق.

[509]- قال مصطفى أمين، في اللقاء المنوه عنه سابقاً، أنه أجاب السمان: بأن سورية وطنه، ولا يمكن منعه من الإقامة في وطنه.

بكداش على كتفيه، وسار به عابراً النهر بخطا واثقة، وعلى جانبي الشاب رفيقان آخران مستعدان للمساعدة في حال تعثر عبور النهر[510].
وعلى الضفة السورية من النهر كانت سيارتان يقودهما واصل فيصل وعمر السباعي لنقل بكداش إلى دمشق، وكان دانيال نعمة قوة احتياطية للتدخل عند الضرورة. وهكذا وصل بكداش بسلام إلى أحد البيوت السرية، حيث كانت القيادة الشيوعية السرية العاملة في دمشق بقيادة دانيال نعمة وظهير عبد الصمد وإبراهيم بكري وغيرهم[511] من الكوادر الشابة الجريئة المتفانية في خدمة مبادئها. وبعد وصول بكداش إلى دمشق بقليل، عَقَدَت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في مستهل عام 1963 اجتماعاً سرياً في بيت دانيال نعمة السري بدمشق في منطقة الحرش- طلعة شورى، كما ذكرنا.

وهكذا نرى أن بكداش عاد إلى دمشق أواخر عام 1962 بصورة سرية عن طريق لبنان، وبعد الثامن من آذار 1963 بقليل غادر دمشق سراً إلى لبنان، ومنها إلى موسكو. ذكر مصطفى أمين في مذكراته أن "الرفيق خالد" طلب منه في أول آذار من عام 1963 أن يتصل بخالد العظم، ويطلب موعداً منه ليلتقي به، وتمّ الاتفاق أن يلتقي بكداش والعظم يوم الجمعة في 8 آذار الساعة التاسعة صباحاً في منزل العظم في بستان القواص بالغوطة، لكن الانقلاب العسكري الناصري البعثي، كما كتب مصطفى منع اللقاء، وانتقل الرفيق خالد سراً إلى لبنان[512]، ومنه مسرعاً إلى موسكو.

بعد حركة 23 شباط 1966، واستئثار يسار البعث بالسلطة ودخول المحامي الشيوعي سميح عطية وزيراً للمواصلات في وزارة يوسف زعين، عاد خالد بكداش سراً إلى دمشق، ويذكر يوسف الفيصل أنه تولى أمر عودة خالد بكداش عن طريق لبنان. كُلّف يفتاح داود أخو دانيال نعمة وساعده الأيمن والخبير باستئجار البيوت السرية الآمنة بالذهاب إلى بيروت، واستئجار شقة ملائمة باسمه لاستقبال بكداش فيها. وهكذا وصل بكداش إلى بيروت سراً، وأقام في الشقة المستأجرة مع

[510]- في لقائنا مع واصل فيصل في بيته بحمص المذكور سابقاً، استطعنا الحصول على أسماء من شاركوا في هذه العملية، ورأينا من الأفضل عدم ذكر الأسماء.
[511]- لم يكن يوسف فيصل في القيادة آنذاك، لأنه كان يقوم بواجب خدمة العلم.
[512]- أمين، ص 204.

يفتاح ويوسف الفيصل مدة عشرة أيام، ريثما انتهى إعداد المرحلة الثانية بعبور الحدود سراً عن طريق نهر الكبير الشمالي. تمّ ذلك بتنظيم ميشيل عيسى ورفاقه ومساندة واصل فيصل. وبعد وصول خالد بكداش إلى بيته بمدة قصيرة، قام يوسف الفيصل ودانيال نعمة بزيارة رئيس الوزراء يوسف زعين، وأبلغاه بأن خالد بكداش أصبح في بيته[513].

حول اختفاء خالد بكداش وظهوره منذ إعلان الوحدة حتى ظهوره العلني بعد حركة 23 شباط اليسارية عام 1966 لا يتحدث بكداش، بالطبع، عن تفاصيل وتقنية عبور الحدود بين سورية ولبنان، ويترك تلك الأمور في طي الكتمان، ولنقرأ ما أملاه بكداش على عماد نداف عام 1992، أي عندما بلغ بكداش، وهو من مواليد 1912، من العمر عتياً. قال بكداش:

"... فعند إعلان الوحدة ذهبت سراً إلى تشيكوسلوفاكيا، ثمّ عدت بعد تطمينات من الضباط، إلا أن خطاب جمال عبد الناصر في 26 كانون الأول 1958 في بورسعيد، واتهامه الشيوعيين بأنهم عملاء، دفعني مرة ثانية للتخفي[514]. بقيت في دمشق سراً ما يقارب السنة[515]، ثمّ ذهبت إلى موسكو في زيارة سرية، وحصل ما حصل. بدأت الاعتقالات فعلاً في 31 كانون الأول 1958. إنهم يقولون إن خالد بكداش يعرف كيف ينجو من الاعتقال. كنت آخذ الاحتياطات بشكل دائم، وعندما تأتي موجة الاعتقالات كنت أشمها، فآخذ الاحتياطات: البيت السري، إلى آخره. لم أكن أنام في البيت. وفي أيام الوحدة جاؤوا إلى بيتي، وما وجدوني، كنت في بيت سري[516]. عندما وقع الانفصال كنت خارج البلاد، فطلبت من الحكم الذي قام في

513- الفيصل، ص 405.

514- هذا ما ذكره صليبا من أن بكداش أخذ يبيت في بيت استأجره صليبا في دمشق، صليبا، مصدر سابق.

515- هذا الزمن المقارب للسنة كان في معظمه قبل بدء الاعتقالات، وليس بعدها، إذ ليس من المعقول أن يبقى خالد بكداش في دمشق سنة في خضم موجات اعتقالات شملت الألوف، وليس المئات كما ذكر في حديثه. وقبل أن يعتقل فرج الله الحلو في حزيران 1959 كان خالد بكداش في موسكو، ومن هناك بعث عن طريق يوسف الفيصل، وبشهادة الأخير، برسالة يطلب فيها عدم رجوع فرج الله الحلو إلى دمشق. ومن تحليل الأحداث وحساب الزمن نرى أن بكداش غادر دمشق بعد بدء الاعتقالات بقليل، كما يبدو واضحاً في كلام صليبا، ويبدو أن ذاكرة ابن الثمانين لم تساعده على تحديد الزمن بدقة، أو أنه أراد ترك الأمر غائماً! وكان من المفروض على من تولوا أمر إعداد الكتاب، وهم وصال فرحة بكداش، وعمار بكداش، وقدري جميل أن يدققوا في التواريخ، ويتجنبوا الوقوع في أخطاء وتناقضات في رواية الأحداث، لا يستطيع ابن الثمانين، وهو يعتمد على ذاكرته، تجنبها.

516- من هذا الكلام يتبين أن بكداش كان في دمشق عند بدء الاعتقالات ليلة 31 كانون الثاني 1958، لكنه لم يكن يبيت في منزله، بل في البيت الذي استأجره الشيوعي اللبناني

سورية الموافقة على عودتي إلى البلاد، فلم يستجيبوا! رفضت السلطة عودتي، ولهذا عدت إلى البلاد سراً. لقد دخلت إلى دمشق سراً، وذلك أيام حكومة بشير العظمة[517]، وبقيت فيها من عام 1962 إلى عام 1964[518]، وطيلة هذه الفترة لم يُكْتَشَف مكاني. وفي الواقع أنني عدت إلى دمشق عندما قامت حركة 23 شباط. عدت إليها سراً، ومنها أعلنت عن عودتي[519].

تعليق لا بدّ منه: لا شك أن خالد بكداش يتمتع بمزايا القيادة، ويمتلك نواصيها: شخصية جذابة، سرعة البديهة، طلاقة اللسان، الصوت الجهوري، الخطيب المفوه، وقبل كل شيء ثقافة واسعة، وإخلاص لا حدود له لمبادئ الشيوعية التي اعتنقها، وحب للوطن والعمل على تحرره. وهذا ما مكنه من قيادة الحزب الشيوعي السوري، إذ كان يتمتع بمحبة واحترام أكثرية أعضاء الحزب، إن لم نقل كلهم. وجاء زمن كان فيه خالد بكداش نجماً ساطعاً في سماء سورية والمشرق العربي، وبلغ ذروة صعوده وتألقه عندما كان نائباً في برلمان (1954-1958)، عندما كان يشار له بالبنان كفارس من فرسان زهرة برلمانات سورية.

ولكن لا بدّ من القول إن نجاح خالد بكداش في القيادة وفي التخفي وتجنب ضربات الخصم، لم يكن ليتم لولا وجود كادر مثقف ومخلص لقضية التحرر الوطني والاجتماعي، كان يزوّد بكداش بالمعلومات والتحليل، وينفذ ما يَتخذ من قرارات. ويلاحظ أن خالد بكداش تجاهل، مع الأسف، دور العشرات من هؤلاء، ممن كانوا يحيطون به في مختلف مراحل نضاله، ويقفون إلى جانبه في الملمات مستعدين

عزيز صليبا، وكان وزير الداخلية السراج يشيع وزبانيته جواً من الطمأنينة، كي يوقع الشيوعيين في فخ الاعتقال المباغت. وحسب رواية صليبا، فإن بكداش غادر دمشق متوجهاً سراً إلى لبنان ومنه إلى براغ في الأسابيع الأولى لبدء الاعتقالات في 1958/12/31. هذا مع العلم أن قيادة الحزب الشيوعي وجهت تحذيراً لكوادرها بأخذ الحيطة والحذر، والمبيت في بيوت سرية لتحاشي الاعتقال المباغت. هذا ما ذكره واصل فيصل مسؤول منظمة حمص في لقائنا معه في منزله بحمص، والمذكور سابقاً.

[517]- لقد خانت الذاكرة بكداش، فهو لم يدخل، أي يعود، إلى دمشق في أيام حكومة العظمة، بل في عهد وزارة خالد العظم، التي أعقبت وزارة العظمة.

[518]- بقاء خالد بكداش في دمشق ما يقارب السنة بعد قيام حركة 8 آذار 1963 بحاجة إلى تدقيق، وحسب المعلومات التي حصل عليها المؤلف، نرجّح أنه غادر دمشق بعد 8 آذار بفترة وجيزة، وهذا واضح أيضاً من ذكريات مصطفى أمين، والأمر متروك للدراسة التاريخية الموثّقة، التي كان على مُعدِّي الكتاب أن يقوموا بها، فالذاكرة كثيراً ما تخون صاحبها.

[519]- "خالد بكداش يتحدث"، ص 37-40.

للتضحية بأرواحهم في سبيل الحفاظ على حياة قائدهم الشيوعي المحبوب. وفي رأينا دون هؤلاء، الذين طـُمِسَ دورهم، ما كان بمقدور خالد بكداش أن يترك بصمات واضحة المعالم في تاريخ سورية في منتصف القرن العشرين. وبحزن عميق، يستغرب كاتب هذه الأسطر إهمال خالد بكداش الحديث عن رفاقه الخلص، وعن عشرات الكوادر، التي أفنت زهرة عمرها تناضل في سبيل الوطن الحر والشعب السعيد. أليست الماركسية من القائلين إن التاريخ يصنعه المنتجون بسواعدهم وأدمغتهم؟ فمن يصنع التاريخ: الأفراد أم الجماهير؟

الفصل الرابع
وجهة نظر دانيال نعمة
في معالجة المسألة الزراعية أيام "الانفصال"

بعد أن دخل دانيال نعمة سورية سراً عن طريق لبنان بتاريخ 1961/10/02، شرع مع عدد من رفاقه العائدين مثله سراً في إعادة بناء الحزب الشيوعي السوري[520]، الذي تلقى ضربات قاتلة بين عامي 1959 و1961 على يد أجهزة المباحث، كما رأينا. وفي الوقت نفسه، وجَّه نعمة اهتمامه للمسألة الزراعية وقضية الفلاحين، اللتين أولاهما اهتماماً خاصاً أثناء دراسته الحزبية في موسكو، وبعد عودته إلى لبنان تمهيداً "للعبور" سراً إلى سورية. وكان لنعمة دور بارز وأساسي في إصدار صفحة "**شؤون الفلاحين**"، وهي "صفحة نصف شهرية تعنى بشؤون الفلاحين"، صدرت على صفحات جريدة "**الطليعة العربية**"

---

[520]- لا تزال نشاطات دانيال ورفاقه لإعادة بناء الحزب أيام الانفصال طي الكتمان، وما وصلنا منها إلا القليل. ولكن، كما سمعنا من عدد ممن عاشوا تلك المرحلة، أن دانيال نعمة ورفاقه ظهير عبد الصمد وإبراهيم بكري ويوسف الفيصل ويوسف نمر قاموا بجهود صبورة في هذا المجال، ونذكر هنا ما كتبه في آذار 1985 فكرت رجب، وهو من معتقلي المزة، في مجلة "دراسات اشتراكية" عن: "الجولان، ولمحات من تاريخ التنظيم الشيوعي فيه"، كتب رجب: "بعد شهر من إطلاق سراح الرفاق (من سجن المزة) أُعيد التنظيم من جديد بقيادة دانيال نعمة، وعادت المنظمة (في القنيطرة) لممارسة عملها السياسي..."، ص 215. كما أن فيصل طحان المسؤول الشيوعي في النبك ذكر لقاءاته بدانيال، وأكد إبراهيم قندور أنه كان يلتقي بدانيال في شوارع دمشق خلال فترة الانفصال.

التقدمية لصاحبها عدنان الملوحي[521]، وقد فتحت جريدة "الطليعة" صدرها للكتاب اليساريين ذوي الميول الماركسية، ومنهم الوجوه الشيوعية، كما خصصت إضافة إلى صفحة الفلاحين صفحة **"العمال والنقابات"** الأسبوعية، التي أشرف عليها القائد النقابي إبراهيم بكري، واستمرت "الطليعة" في الصدور ابتداءً من 2 آب 1962 إلى 7 آذار 1963، حينما أُغلِقَت كغيرها من الصحف السورية بعد 8 آذار.

وفي ما يلي **ملخص للمقالات التي نشرها دانيال نعمة في "الطليعة العربية"**[522].

1- العدد 42 من "الطليعة" الصادر في 19 أيلول 1962 حمل مع صدور صفحة الفلاحين لأول مرة مقالة افتتاحية بقلم المحامي دانيال نعمة، تصدّرها العنوانان التاليان: **"تصفية بقايا الإقطاعية ضرورة لتوطيد الاستقلال وتأمين التقدم"... "الإقطاعية مسؤولة عن تأخر البلاد وفقر الفلاحين وبؤسهم، ولا يمكن التساهل إزاء المدافعين عنها"**، وقد عكس عنوانا الافتتاحية الأجواء السائدة في ستينيات القرن العشرين. وفي خضمّ تلك المعركة الدائرة آنذاك بين أنصار الإقطاعية وخصومها، دخل نعمة في سجال مع أفكار كبار الملاك العقاريين ومطالبهم في عهد حكومة بشير العظمة، وكانت مطالب الإقطاعيين كما لخّصها نعمة هي: "عدم توزيع أية قطعة من الأرض على أي فلاح، قبل تخمين ثمنها. عدم تسجيل الأرض التي ينالها الفلاح باسمه في السجل العقاري، حرصاً على هذا السجل من أن يصيبه في المستقبل أي تغيير أو تعديل أو شطب. تأجير الأرض المستولى عليها "لأصحابها"

---

[521]- وكان الملوحي قد أصدر "الطليعة" عام 1953، واستمرت في الصدور حتى أُغلِقَت مع غيرها من الصحف السورية أيام الوحدة مع مصر. وفي كتابه "أيام دمشق" يسرد عدنان الملوحي كيفية عودة جريدته "الطليعة" للصدور، فحكومة الكزبري رفضت الترخيص "للطليعة"، كي لا يغضب السفير الأميركي. وفي عهد حكومة بشير العظمة، رفض رئيس الجمهورية ناظم القدسي التوقيع على مرسوم إعادة جريدة "الطليعة" بذريعة أن الجريدة كانت شيوعية، لكن العظمة انتظر عشرة أيام بعد امتناع القدسي على التوقيع، وكما ينص الدستور وقّع رئيس الوزراء بشير العظمة على مرسوم إعادة جريدة "الطليعة"، خلافاً لرأي رئيس الجمهورية. (انظر عدنان الملوحي، "أيام دمشق"، مذكرات، دمشق، 1994، ص 170-171).

[522]- كان دانيال نعمة غزيراً في الكتابة، وتناول مواضيع شتى، نشير هنا إلى المقالة الطويلة حول العمل بين النساء. وبموافقة القيادة المركزية نُشِرَت هذه المقالة (الرسالة) في جريدة "حياة الحزب" السرية لتحقيق خطوات جديدة في ميدان العمل بين النساء.

السابقين، وإحلال الدولة محل المستولى على أراضيهم في ديونهم، مهما كان سبب الدين. إقراض المالكين المستولى على أراضيهم مبالغ كبيرة، بغض النظر عما إذا كانوا قد وفوا أو لم يفوا ديونهم السابقة. وخلاصة أهدافهم، كما ورد في مقالة نعمة، ترمي إلى عرقلة الإصلاح الزراعي ودفاع سافر عن الإقطاعية و(الملاك المساكين)".

ويرد نعمة على حجج المدافعين عن الإقطاعية، مبيناً أنها "قامت على الاغتصاب والنهب والسلب أيام العثمانيين والفرنسيين، كما يفنّد حجج أنصار الرأسمالية الزراعية، التي دخلت ميدان الزراعة من باب التجارة، ومعظم هذه الرأسمالية الزراعية نشأ في ظرف "الاحتكار أو ظروف الحرب، أو على أساس استثمار مئات وألوف العمال"، ويرى نعمة "أن تصفية الإقطاعية تتطلب، على العكس، القضاء على أساسها الاقتصادي، عن طريق الاستيلاء على إقطاعات الإقطاعيين (مع ترك مساحات تكفي لمعيشتهم، فيما إذا عملوا فيها، كما يعمل عباد الله البسطاء)، وتوزيعها على الفلاحين الذين فتت سواعدهم الصخر، وقلبت باطن الأرض، واستنبتت خيراتها، والذين روى عرقهم الحار الشريف الأرض الموات، فحوّلها إلى زبرجد، وروّضها على الخضوع لمطالب الإنسان".

ويختم المحامي دانيال نعمة مقالته الافتتاحية في صفحة "شؤون الفلاحين" بالفقرة التالية: "إن سير البلاد نحو تصفية الإقطاعية هو قضاء لا نعرفه، ولم تمله رغبة مصلح من المصلحين، بل أملته حاجات التطور ومتطلبات التقدم، وكلما تمّت هذه التصفية بسرعة أكبر وبجذرية أعمق، كان الخير أكبر وأعم، وشمل الملايين من الفلاحين والعمال والصناعيين والوطنيين والتجار، وبكلمة أخرى جميع الطبقات والفئات المنتجة في الأمة".

2- بعد أن ردّ نعمة على حجج الإقطاعيين في أحقيتهم بالاحتفاظ بملكيتهم الإقطاعية، وداعياً بالمقابل إلى السير بالإصلاح الزراعي قدماً إلى الأمام، نشر في 1962/10/17 مقالة في صفحة شؤون الفلاحين في الطليعة أوضح فيه رأيه، وبالتالي رأي الحزب الشيوعي في عملية تطبيق الإصلاح الزراعي. فتحت عنوان: **"من عوامل النجاح في تنفيذ الإصلاح الزراعي وتأمين انتصاره: إعطاء الأرض للفلاحين بالمجان، ومدّهم بما هو ضروري لاستخدامها واستغلالها على خير وجه"**. ونقرأ

في مقدمة المقالة فقرة ذات مسحة أدبية، مضمّخة بمشاعر مناضل سلخ عمره في الدفاع عن الفلاحين. جاء في المقدمة: "إن حلماً من أكبر الأحلام، لدى كل فلاح فقير، أو محروم، أن يكون له أرض يهتم بها، ويرويها بعرقه، أو يجود عليها بكامل قوته، لتجازيه بالمقابل خيراً وفيراً، وغلالاً تؤمن له حاجاته وحاجات عياله وأطفاله، وتكفل له العيش الكريم، الذي يبتعد بهم عن كلّ مذلة يولدها الفقر".

ويرى نعمة أن تطبيق قانون الإصلاح الزراعي[523] يساعد على تحقيق هذا الحلم بالنسبة لمئات الفلاحين، ويرى نعمة أن توزيع الأرض لا يكفي، بل يجب مساعدة الفلاح في استغلالها واستثمارها، ثم يخصص نعمة حيّزاً من المقالة لمناقشة قانون الإصلاح الزراعي الصادر في ذلك الحين.

3- العدد 92 من "الطليعة" الصادر في 1962/10/16 تضمن مقالة ثالثة للمحامي دانيال نعمة حملت العناوين التالية: **"ينبغي إصدار قوانين تمنع طرد الفلاحين من الأرض وتحميهم... الأساليب التي كانت متبعة في العهد الناصري ضد جماهير الفلاحين يجب أن تموت"**... ويرى نعمة: "أن الشعب تنفس الصعداء عندما انهار حكم الطغيان صبيحة 28 أيلول عام 1961، ولكن ثقة الفلاحين وأملهم سرعان ما حلّ محلهما نوع من القلق والاضطراب، تسبب بهما تآمر الحكومة والبرلمان ذي الأكثرية الرجعية على مكاسب الجماهير، تلك المكاسب التي تمّ الظفر بها بعد نضال مرير استمر عشرات السنين".

4- المقالة الرابعة والأخيرة لدانيال نعمة صدرت في الطليعة بتاريخ 1962/12/19 تحت عنوان: **"الجزيرة بحاجة إلى إصلاح زراعي يصفي الإقطاعية وتحسين أحوال الجماهير... تحقيق الإصلاح الزراعي في الجزيرة سيكون له نتائج هامة في المنطقة، وسيزيد من موارد البلاد العامة"**. وفي هذه المقالة يعرب نعمة عن تعاطفه "مع المنجزات التي حققتها حتى اليوم وزارة الإصلاح الزراعي[524] في ميدان الاستيلاء والتوزيع... ولكن لم تمتد أيدي الإصلاح بالتساوي إلى جميع المناطق، فحلب وحماة وحمص شهدت توزيع عشرات القرى...

---

[523]- في أيام قيادة وزارة الإصلاح الزراعي من الوزيرين المناهضين للإقطاعية أمين النفوري وأحمد عبد الكريم.

[524]- في عهدي الوزيرين التقدميين أحمد عبد الكريم وأمين النفوري.

ولكن هناك مناطق في الجزيرة لا تزال تنتظر الإصلاح". ويتساءل نعمة عن أسباب عدم دخول الإصلاح الزراعي إلى الجزيرة، ويردف قائلاً: "إن جماهير الجزيرة تمقت الإقطاعية مقتاً فظيعاً، فهي تمتص دماء الفلاحين، والدليل ورود مئات البرقيات والعرائض إلى دمشق تطالب بتطبيق الإصلاح الزراعي، وأما القول بأن القانون غير صالح للجزيرة، ولا يمكن تطبيقه فيها، فهو مجرد زعم، ولا يصلح أن يكون حجّة".

5- إضافة إلى افتتاحيات المحامي دانيال نعمة تضمنت صفحة شؤون الفلاحين في جريدة "الطليعة" عدداً من المقالات ذات الصفة التحليلية أو البحثية نذكر منها: **"الجمعيات التعاونية في الإصلاح الزراعي"** دون الإشارة إلى كاتب المقالة[525]. **"حان الوقت لرفع أثمان الأراضي عن فلاحي أملاك الدولة، ثمانون عاماً من دفع الإيجار يكفي لوضع حد لإرهاق الفلاحين"**، بقلم مشهور غريبة[526]، وجاء في المقالة: "أن عدد قرى الجفتلك شرقي حمص بلغ خمسين قرية"[527]. وفي عدد لاحق من "الطليعة"[528]، كتب غريبة دراسة تحت عنوان: **"كيف نشأت أراضي أملاك الدولة في حمص". "العلاقة الجوهرية بين الإصلاح الزراعي وحركة التحرر الوطني"** بقلم مشهور غريبة، ونقرأ في هذه المقالة العنوان الفرعي التالي: **"لا بد من تطوير الزراعة بأساليب جديدة وعلاقات إنتاجية جديدة، لكي تزدهر صناعتنا الوطنية". "حان الوقت لحل مشكلة ضبوط الأحراج في الجبل العلوي إذا كان جمع الأعشاب اليابسة والأغصان المتناثرة جريمة، فمن أين يؤمن الفلاحون وقودهم؟"** بقلم أحمد فاضل[529].

---

[525]- "الطليعة" 1962/10/17.

[526]- "الطليعة" 1966/10/31، ومشهور غريبة معلم في مدارس المشرفة الابتدائية، شيوعي، اعتقل أوائل عام 1959 بسبب أفكاره الشيوعية. وبعد خروجه من السجن، درس التجربة الزراعية التعاونية في بلغاريا قبل انزياحها إلى الرأسمالية الهجينة، وله دراسات جادة ومعمّقة حول المسألة الزراعية في سورية والإصلاح الزراعي وسبل الحل.

[527]- معروف أن هذه القرى كانت من أملاك السلطان العثماني عبد الحميد، وانتقلت ملكيتها للدولة بعد إزاحة عبد الحميد عن العرش عام 1909، وأخذت الدولة تؤجرها للفلاحين.

[528]- "الطليعة" في 1962/11/16.

[529]- "الطليعة" في 1963/11/09، وأحمد فاضل أحد قادة الحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية في خمسينيات وستينيات القرن العشرين. ومقالته في الدفاع عن الفلاحين ضد الضبوط المنظمة بحقهم بسبب استخدامهم لأخشاب الأحراج والغابات للتدفئة والطبخ،

6- صفحة شؤون الفلاحين في جريدة "الطليعة"، التي أشرف عليها دانيال نعمة في ظل قيادة شيوعية تعمل بصورة سرية "أيام الانفصال" تضمنت إضافة إلى ما عرضناه أخباراً فلاحية، وشكاوى ومطالب واردة من الريف، وأخباراً مقتضبة عن تطور الزراعة والعلاقات الاجتماعية في القرية السوفييتية.

ولم يتسنّ لصفحة "شؤون الفلاحين البقاء على قيد الحياة أكثر من سبعة أشهر (2 آب 1962 - 7 آذار 1963)، إذ مُنِعَت من الصدور بعد 8 آذار 1963، شأن سائر الصحف السورية، التي عرفت في "عهد الانفصال" ازدهاراً وتنوعاً في الاتجاهات وحرية نسبية كبيرة في الكتابة والنقد.

الفصل الخامس
من مقالات ودراسات دانيال نعمة المغفلة من اسمه بسبب ظروف العمل السري أيام الانفصال

تحت عنوان: **"الجبهة الوطنية طريق القضاء على المؤامرات وتوطيد الاستقلال وتحقيق الإصلاح ونشر الديمقراطية"**، المقالة التي كتبها في نهاية عام 1961[530]، عندما كان يسهم في قيادة الحزب الشيوعي في دمشق في عهد ما يسمى بالانفصال.

تذكرنا بمطالب الحزب الشيوعي في خمسينيات القرن العشرين في الدفاع عن الفلاحين ومنع العقوبات النازلة بحقهم في استخدامهم لحطب الأحراج، لكن الحفاظ على الأحراج من الانقراض أمر إيجابي، فكيف نحل المشكلة بين وقود ضروري لحياة الناس، وطموح للحفاظ على البيئة والثروة الحراجية المهددة بالتراجع؟ فقد عاشت المنطقة ردحاً من الزمن بين فكي كماشة الحفاظ على الشجرة من جهة، والحاجة إلى الوقود من جهة أخرى، إلى أن انتشر الوقود النفطي والغازي، فحُلَت المشكلة من تلقاء نفسها.

[530]- انظر النص الحرفي للمقالة في: دانيال نعمة، "جبهويات، الحراك السياسي في سورية خلال نصف قرن 1955- 2004"، دمشق، 2006، ص 433-441. والجدير بالذكر أن أنجال نعمة الثلاثة خالد ولؤي ومعن قاموا بجمع خطب ومقالات والدهم ونشروها، ولا بد من التنويه أن معظم أبناء المسؤولين الشيوعيين لم يسيروا على هدى آبائهم، واختطوا طرقاً أخرى، ويسترعي الانتباه أن أولاد دانيال نعمة الثلاثة ما يزالون منغمسين في الخط السياسي الذي سار عليه والدهم، وورث الابن الثاني لؤي عن أبيه هواية جمع الوثائق وترتيبها، وله الفضل الأكبر في جمع جزء كبير من وثائق هذا الكتاب.

استعرض نعمة في مقالته بعضاً من تاريخ سورية المعاصر، بما يتناسب مع الظروف السائدة بعد ما قامت به المباحث السلطانية من إجرام وانفصال سورية عن مصر، وننقل هنا الفقرة الأخيرة من المقالة المنشورة في أدبيات الحزب أواخر 1961:

"إن الحزب الشيوعي يدعو الجميع عمالاً وفلاحين وطلاباً وتجاراً صغاراً وصناعيين واعين، يدعو أبناء الشعب كلهم مدنيين وعسكريين لتوحيد القوى، والنضال بحزم ضد كل مستعمر وطامع من أجل توطيد الاستقلال، ونشر الديمقراطية، وتحقيق المهمات الاجتماعية، وإقامة الاستقلال الاقتصادي، من أجل إقامة حكم وطني ديمقراطي ودولة ديمقراطية وطنية تدفع البلاد إلى أمام، وتمهد الجو للانتقال السلمي لبناء الاشتراكية".

الباب التاسع
مقتطفات من سياسة الحزب الشيوعي
في المراحل الأولى من حكم البعث

الفصل الأول
حكم البعث والعلاقة مع الحزب الشيوعي

جاء انقلاب الثامن من آذار 1963 العسكري بقواه الناصرية والبعثية ردة فعل ضد سياسة الانفصال في ميدانين:

- **الميدان القومي** الداعي إلى إنهاء الانفصال والعودة إلى الوحدة مع مصر، وهذا الأمر لم يتحقق رغم قرع طبول الوحدة صبح مساء. وبعد القضاء على التحرك الناصري في 18 تموز 1963، استأثر حزب البعث بالسلطة، وتتالت الصراعات بين كتله وأجنحته المختلفة حتى حركة تشرين 1970، عندما استقر الحكم متمركزاً في يد واحدة.

- **الميدان الاقتصادي الاجتماعي**، إذ أوقفت حركة الثامن من آذار سياسة العودة عن التأميمات، التي جرت في عهد الجمهورية العربية المتحدة، وقضت على آمال "قوى الإقطاع" في إلغاء قانون الإصلاح الزراعي وعودة الأرض إلى "ملاكها" الإقطاعيين السابقين.

ومن أجل ضرب القاعدة الاقتصادية "لقوى الانفصال"، قامت قوى الثامن من آذار بسلسلة من التأميمات، لم يكن لبعضها ضرورة اقتصادية، وإنما هدفت إلى تحجيم مواقع القوى السياسية "التقليدية". فبعد تأميم المصارف في 1963/05/02، جرت سلسلة من التأميمات سنة 1964، وقامت على أنقاض المعامل والمؤسسات المؤممة مؤسسات حكومية فيما عُرف بالقطاع العام، الذي تحول إلى قطاع دولة وبقرة حلوب للقائمين عليه.

أما في ميدان الملكية الزراعية، فلم تستطع قوى الإقطاع في عهد الانفصال إلغاء قانون الإصلاح الزراعي بسبب الضغط الشعبي، وبعد 8 آذار صدر في 1963/06/23 المرسوم رقم 88، مخفِّضاً سقف الملكية الزراعية، وموزّعاً الأرض المستولى عليها على الفلاحين.

جرى انقلاب الثامن من آذار العسكري في أعقاب الانقلاب الدامي

في العراق، الذي أطاح بالحاكم عبد الكريم قاسم، وشنّ حملة إبادة ضد الحزب الشيوعي العراقي ذي الجذور الشعبية، وهذا الأمر أرعب القيادة الشيوعية في دمشق، ودفع بزعيمها خالد بكداش إلى مغادرة البلاد على جناح السرعة عن طريق عبور الحدود سراً إلى لبنان فموسكو.

دانيال نعمة أحد القادة الشيوعيين العاملين سراً في دمشق تابع بشجاعة ونكران ذات نشاطه في قيادة الحزب[531]، بالتعاون مع ظهير عبد الصمد وإبراهيم بكري، أما يوسف الفيصل فكان في ذلك الحين يقوم بخدمة العلم. وبعد إنهاء خدمته، انضم إلى الثلاثة في قيادة الحزب الشيوعي، في وقت كان بكداش يقود الحزب عن بعد، وهو مقيم في موسكو، يعيش هاجس قيام الآخرين العاملين في قلب الأحداث باحتلال موقعه.

بعد أن وقفت قيادة الحزب الشيوعي فترة من الزمن ضد سلطات البعث، أخذت تدريجياً تقترب من الجناح اليساري في السلطة، معلنة تأييدها للإجراءات الاقتصادية الاجتماعية، التي أشرنا إليها. كما وقف الحزب الشيوعي إلى جانب السلطة عندما نظمت القوى المناهضة للتأميم بالتعاون مع القوى الدينية اليمينية إضراباً في مدينتي دمشق

---

[531]- روى مراد يوسف في حديثه المسجل بتاريخ 28 آذار2004 أنه كان يستلم مطبوعات دمشق من دانيال، وكان يأتي بالمطبوعات في سيارة يأخذ منها مراد حصة دمشق، وينقلها إما على دراجة أو على كتفه، وأحياناً كان يأتي بالمطبوعات إلى بيت مراد في المهاجرين بدمشق، وكانت والدة مراد تسأل: ألا يوجد لديكم في الحزب شبان ليحملوا المطبوعات، ولماذا تتركون رجلاً مقتدراً يحملها؟

وروى إبراهيم قندور من منظمة النبك أن المنظمة كان تصلها المطبوعات أيام الوحدة وفي أوائل الانفصال عن طريق قرية عرسال اللبنانية الواقعة على الحدود إلى الشمال الغربي من النبك، ثم جرى الاتصال مباشرة مع دمشق، وذكر قندور تقنية الاتصال على النحو التالي: وصل الخبر عن طريق عرسال بالذهاب إلى دمشق في زمن محدد ومكان عند القوس الروماني في شارع مدحت باشا، وهناك سيتصل بإبراهيم شخص يتبادل وإياه كلمتي السر، ثم ينتظر شخصاً آخر، هو الرفيق الذي سيتصل به، وفعلاً أتى الشخص الأول راكباً دراجة، وبعد تبادل كلمتي السر غادر صاحب الدراجة المكان مسرعاً، وبقي إبراهيم ينتظر، وبعد خمس دقائق أتى شخص كهل، تبادل معه أيضاً كلمتي سر، وسارا معاً في أزقة دمشق العتيقة. قدم "الرفيق الكهل" حديثاً سياسياً وهما يسيران الهوينى، ثم تطرقا إلى وضع المنظمة وأسلوب اللقاء وإيصال المطبوعات وغير ذلك، وتكررت اللقاءات بين "الرفيق الكهل" وشيوعيي النبك، الذين أطلقوا عليه اسم "الختيار"، وعرفوا فيما بعد أن الختيار هو دانيال نعمة، وثمّة أمثلة كثيرة عن نشاط دانيال نعمة في هذا الميدان أيام الانفصال والمراحل الأولى بعد استلام البعث الحكم.

وحماة رافقتهما اشتباكات مسلحة.

لقد جرى رهان من القيادة الشيوعية المقيمة في دمشق (قيادة الداخل) على الجناح اليساري في البعث. ومع صدور قرارات التأميم في عامي (1964-1965) قررت قيادة الداخل (إبراهيم بكري، يوسف الفيصل، ظهير عبد الصمد، دانيال نعمة) دعم تدابير التأميم والاتجاه للتعاون مع الجناح اليساري في حزب البعث، وكان أول لقاء بين الحزب الشيوعي ممثلاً (بإبراهيم بكري ودانيال نعمة) والبعث (اليساري) في منزل وزير الداخلية نور الدين الأتاسي[532]. بعد ذلك، جرى في أيلول تعيين كل من سميح عطية ونجاح الساعاتي أعضاء ممثلين للحزب الشيوعي في المجلس الوطني[533]، (وهو برلمان معيّن).

ومن هنا نفهم محتوى مقالات دانيال نعمة المنشورة باسم حركي أو المغفلة من التوقيع، التي بدأت بشن الهجوم على "انقلابيي 8 آذار" مع تأييد إجراءاتهم الاجتماعية، وانتهت باللقاء مع يسار البعث في إجراءاته المتوافقة مع النظرة الشيوعية في الدعوة إلى "الديمقراطية الاجتماعية"، والعمل على رفع سوية الطبقات الدنيا وتحريرها من الاستثمار، وفي الاتجاه للتعاون بوتيرة أسرع مع الاتحاد السوفييتي، وتشديد النضال ضد الإمبريالية.

الفصل الثاني
مقتطفات من بعض مقالات دانيال نعمة
في المراحل الأولى من حكم البعث (1963 – 1970)

ارتبط في أذهان الناس اسم خالد بكداش بالحزب الشيوعي خلال ثلاثة عقود في منتصف القرن العشرين، ولا شك أن القائد الشيوعي الفذ خالد بكداش لعب دوراً أساسياً في السير بالحزب الشيوعي عبر طرق متعرجة صعوداً وهبوطاً، وجاء زمن كان كل إنجاز يحققه الحزب الشيوعي يُنسب إلى خالد بكداش، لا بل إن الحزب الشيوعي أُطلِق عليه

[532]- في ذكريات يوسف الفيصل أخبار متفرقة عن تقارب الحزب الشيوعي مع يسار البعث.

[533]- المصدر نفسه، ص 389.

اسم حزب خالد بكداش.

ولكن الواقع هو أن بكداش، رغم انفراده برسم خطة الحزب سنوات عديدة، إلا أنه لم يكن وحيداً في معترك النضال، فإلى جانبه ناضل بتفانٍ ونكران ذات العشرات، بل المئات من الشيوعيين، الذين بقي القسم الأكبر منهم مجهولاً من عامة الناس، وهؤلاء من أطلقنا عليهم في كتابنا "الحركة الشيوعية" اسم "الثوريون المجهولون".

وقد كان دانيال نعمة في مطلع نضاله من أولئك الثوريين المجهولين، ثم ما لبث أن لمع نجمه، وشارك بوتيرة متسارعة في رسم سياسة الحزب، وخاصة بعد عبوره سراً الحدود من لبنان إلى سورية أوائل أيلول عام 1961، كما رأينا، وكان من الأعضاء الفاعلين في "قيادة الداخل"، المؤلفة من: إبراهيم بكري مختصاً بالشؤون النقابية، ودانيال نعمة، الذي تولى المسألة الزراعية وشؤون الفلاحين، وشارك ظهير عبد الصمد[534] في الكتابة عن القضايا الفكرية.

ومن هذا المنطلق، أولينا اهتماماً خاصاً لمقالات دانيال نعمة، ذات العلاقة ببحثنا، آملين أن تتاح الظروف لمؤرخي المستقبل لتغطية نشاطات سائر المناضلين في تلك الحقبة.

وفيما يلي موجز عن مقالات دانيال نعمة، التي أمكن الوصول إليها في الفترة التي أعقبت وصول البعث إلى الحكم في آذار 1963.

1- في آب 1963 نشر دانيال نعمة دراسة مطولة من أربع صفحات، بالخط الصغير الناعم، في نشرة **"حياة الحزب"**[535] تصدّرتها العناوين الرئيسية التالية: "واجب جميع الشيوعيين السير في طليعة النضال من أجل تطبيق قانون الإصلاح الزراعي الحالي تطبيقاً صحيحاً، مع العمل لتنوير جماهير الفلاحين وتجنيدها في سبيل إصلاح زراعي جذري يصفِّي بقايا الإقطاعية تماماً، ويؤمن الأرض بدون مقابل لجميع الفلاحين المحتاجين للأرض"[536].

---

[534]- ما تزال ذكريات ظهير عبد الصمد، التي كتبها قبل وفاته، مخطوطاً أسيراً في خزنة أحد أقربائه.

[535]- نشرة داخلية كانت تصدرها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري.

[536]- الدراسة في الأصل مغفلة من التوقيع، فالزمن هو في شهر آب 1963، والحكم يشدد النكير على من لا يسير في ركابه، واعتقال الشيوعيين وغيرهم كان من أولى أولويات القوى اليمينية المسيطرة في الحكم، ولهذا صدرت الدراسة مغفلة من اسم صاحبها، ولكننا وجدنا بين أوراق دانيال نسخة من تلك الدراسة الموزعة عام 1963 وتحت العنوان عبارة مكتوبة

ومن مدخل الدراسة يتبين ما يلي:

- تضمن عدد نضال الشعب الصادر في أواخر أيار خلاصة برنامج الحزب الشيوعي من أجل إصلاح زراعي جذري، وقد وُزّع هذا العدد بالألوف عن طريق اليد، كما جاء في نشرة لاحقة.

- في أوائل حزيران 1963 نشرت جريدة **"الأخبار"** اللبنانية[537] النص الكامل لمشروع برنامج الحزب الشيوعي السوري حول القضية الزراعية في سورية، ومشاريع الإصلاح الزراعي التي وضعت، والإصلاح الذي ينبغي تطبيقه، كما يتضمن المشروع الحلول الواجب اتباعها لتصفية بقايا الإقطاعية تصفية تامة كاملة، وتأمين الأرض لجميع الفلاحين المحرومين من الأرض والذين يملكون القليل منها.

- نُشِر مشروع البرنامج المذكور في جريدة **"نضال الشعب"** أوائل تموز 1963، كما نُشر في كراس خاص طبع بالألوف في مطابع الحزب السرية.

- وبعد نشر مشروع برنامج الحزب الشيوعي، صدر مرسوم حكومي بإدخال تعديلات جديدة على قانون الإصلاح الزراعي، الذي كان معمولاً به قبل وصول البعث إلى الحكم.

"وقد وَضَعَ هذا كله"، كما كتب دانيال نعمة، "أمام الحزب بمجموعه، وأمام جميع هيئاته القيادية ومنظماته، وأمام جميع أعضائه، خصوصاً في المناطق الريفية، مهمات ضخمة في مختلف الميادين المتعلقة بالعمل في ميدان الفلاحين".

2- تضمنت دراسة أخرى لدانيال نعمة منشورة في نشرة "حياة الحزب"، والموافق عليها من الهيئة القيادية العاملة سراً في دمشق[538] النقاط الأساسية التالية:

- تزويد الشيوعيين ببعض الأفكار الضرورية حول برنامج الحزب الشيوعي في القضية الزراعية، وهو، أي البرنامج، "مستمد من نشاط

بالحبر: "بقلم دانيال نعمة"، والمدقق بإمكانه أن يصل إلى معرفة من كتب الدراسة من خلال الأسلوب اللغوي والتعابير التي استخدمها دانيال في مقالات سابقة، إضافةً إلى أنه كان المختص بالمسألة الزراعية في القيادة السرية العاملة في دمشق آنذاك.

[537]- وهي جريدة مشتركة آنذاك للحزبين الشيوعيين السوري واللبناني.

[538]- تألفت الهيئة القيادية من: دانيال نعمة، وإبراهيم بكري، وظهير عبد الصمد، ويوسف الفيصل، ولم يكن خالد بكداش ضمن تلك الهيئة، لأنه غادر سورية سراً بعد 8 آذار 1963 بقليل.

الحزب العملي، ويستند إلى مبادئ الماركسية اللينينية".
- هذا المشروع الداعي إلى تصفية بقايا الإقطاعية سيساعد على تحسين أحوال الفلاحين، ولكن "المشروع لم يقم واضعوه بأية محاولة لخدع الفلاحين ودفعهم للاكتفاء بهذا الإصلاح"، فـ"الاشتراكية هي طريقهم نحو الحياة المزدهرة والسعادة الكاملة".
- تناول بحث دانيال الجوانب الإيجابية والجوانب السلبية في تعديلات الإصلاح الجديد الحكومي في أوائل حكم البعث.
- المهمات الفكرية أمام الشيوعيين: دراسة المشروع المقترح من الحزب الشيوعي، ومقارنته بالقوانين السائدة.
- المهمات العملية والتنظيمية، التي يتطلبها تحقيق المشروع تركزت حول دراسة طرق توزيع مشروع هذا البرنامج توزيعاً واسعاً جداً... ودراسة طرق النضال الملائمة لتحقيق هذا البرنامج.
- الصعوبات التي تعترض النضال من أجل تحقيق البرنامج الزراعي كانت: الإرهاب الفاشي، الذي يضمره الجناح العفلقي[539]، وعداءه للديمقراطية. التضليل الفكري من العناصر التي تعمد إلى نشر الإرهاب. مقاومة الإقطاعيين لشل الإصلاح الزراعي. نقص الكادرات والعناصر المجربة.
3- بين أوراق دانيال نعمة تسع صفحات بخط يده هي المادة الأولية لتقويم الإصلاح الزراعي وقوانينه منذ صدورها وإلى ما بعد 8 آذار 1963 ووصول البعث إلى الحكم. عناوين هذه المادة الأولية تلقي الضوء على موقف دانيال والقيادة المركزية العاملة في دمشق في ظروف السرية ووجود خالد بكداش في موسكو، وهي: 1. مقدمة، 2. عوامل وأسباب الإصلاح الزراعي، 3. مواقف الفئات والطبقات المختلفة من الإصلاح الزراعي، 4. في قانون الإصلاح الزراعي، 5. العلاقات الزراعية الحالية، وفي أوضاع الفلاحين، 6. في أهمية قانون العلاقات الزراعية، 7. في ضرورة الإصلاح الزراعي الجذري، 8. حلول المسألة الزراعية: حتى الإصلاح الزراعي الجذري لن يحلَّ المسألة الزراعية، فتأمين الأرض للفلاحين، وتأمين ارتفاع مستوى المعيشة يحتاج إلى الاشتراكية. ترك القوانين هكذا، ولو نفذت، تصبح

[539]- الجناح العفلقي هو جناح مؤسس البعث ميشيل عفلق، الذي أخذت تنتقده القوى اليسارية في حزب البعث، وتعده ممثلاً ليمين البعث آنذاك.

مجالاً للتطور الرأسمالي في الريف. الاشتراكية هي التي تحل الأمور. من هنا إلحاحنا على تعميق التجربة التقدمية والسير بها نحو الأكمل، من هنا الإصرار على مزارع الدولة، على التعاون الحقيقي، على محطات الآلات، على الاهتمام بتمويل الفلاحين، وعلى حسن تسويق إنتاجهم، وعلى سياسة طبقية في مصلحة فقرائهم بالدرجة الأولى.

4- في العدد 12 أوائل أيار 1965 من "حياة الحزب" أنشأ دانيال نعمة تحت اسم: **"سامي سعيد"** مقالة تحت عنوان: **"النضال في سبيل المطالب مهمة أساسية دائمة"**. والمقصود بالمطالب، كما جاء في النشرة: مطالب عامة تهم البلاد كلها، مثل: استثمار ثرواتنا النفطية بقوانا ولمصلحتنا، ومثل بناء سد الفرات، والسير قدماً في الإصلاح الزراعي، وإلغاء النفقات غير المنتجة في جهاز الدولة، ومحاربة الغلاء، وتخفيض أثمان الأدوية، وتأمين الطبابة المجانية للجماهير، وتوسيع الحريات الديمقراطية، وغير ذلك. ومطالب تهم فئة اجتماعية محددة، كمطالب العمال أو الفلاحين. ومطالب تهم مهنة معينة، أو مدينة معينة، أو منطقة من المناطق.

اعتمدت هذه المقالة في أفكارها على قرارات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصادرة في أواخر حزيران من عام 1964، وجاء في المقالة: "إن بعض الرفاق قد يتصور أن التطورات الجارية تجعل من غير الملح القيام بنضال مطلبي واسع، لأن الحكم نفسه أخذ يسير باتجاه تحقيق خطوات تقدمية، ويلبي بعض المطالب أو لغير ذلك من الأسباب". وكان أحد أهداف المقالة: ما هي الوسائل الضرورية لتربية الكادر، الذي لا يمكن أن يكون بقرار، بل بالنشاط العملي والنضال والمعارك المختلفة؟

5- بتاريخ 1964/01/26 نشرت جريدة **"الأخبار"** البيروتية الشيوعية مقالة بعنوان: **"عندما يتكلم وزير أمريكي"**، بقلم **"معلق عربي مخضرم"**. يؤكد لؤي بن دانيال نعمة أن المقالة بقلم والده، الذي كان يقود مع مجموعة من قياديي الحزب النضال السري من دمشق. ما يهمنا في هذه المقالة الأمور التالية:

- الهجوم الكاسح على الاستعمار الأمريكي، "الذي نصب من نفسه وصياً، إن لم نقل حاكماً مطلقاً، على جميع بلدان الشرق الأوسط".

- الإشادة بـ"المعونة السوفييتية الاقتصادية والتكنيكية والعسكرية

المنزّهة عن كل شرط سياسي، والمبذولة لكل بلد عربي مستقل".
- إدانة "المجازر الوحشية ضد الشعب التي قام بها الحرس القومي[540] السعدي[541] بتوجيه وإشراف دوائر المخابرات الأمريكية والإنكليزية على أرض العراق الشقيق".
- يرد تعبير "نحن الشيوعيين العرب"، وليس الشيوعيين السوريين، ولهذا الأمر دلالته عندما طالبت مجموعة (دانيال نعمة، ظهير عبد الصمد، إبراهيم بكري) بعد سنوات وجيزة بالحزب الشيوعي العربي.
- "إن النضال ضد الاستعمار لم ينته... وإذا كان للشعب، وله وحده، في كل بلد عربي، أن يقرر، وأن يفرض بنضاله نظام الحكم الذي يبغي ويريد، فإن ذلك لا يمنع أبداً أن يتم في الوقت نفسه تضامن جميع البلدان العربية لردع كل عدوان استعماري وصهيوني".
- "ولكي تلعب سورية الغالية دوراً طليعياً في ذلك كله، ولكي تشفى من الجراح التي أصابتها من تتالي الهزات والمؤامرات، التي كان للاستعمار الأمريكي منها غالباً اليد الطولى، فلا بد من تغيير هذا الحكم البعثي العاجز المهلهل المعزول عزلة كاملة عن الشعب، بحكم وطني ديمقراطي تقدمي يستند إلى جبهة وطنية شاملة، فيطلق ما في هذا البلد العربي العريق، هذا البلد الصغير الكبير، من طاقات رائعة هائلة".

6- مقالة لدانيال نُشرت في "الأخبار" البيروتية بتاريخ 12 تموز 1964 جاء فيه: إن الأوضاع المؤلمة، التي تعانيها الجماهير الشعبية في سورية، وما يصيب البلاد من خراب اقتصادي وبطالة وغلاء، وما يعانيه الشعب من كبت للحريات وانتهاك لأبسط حقوق الإنسان، وما ينجم عن ذلك من استفحال التآمر الاستعماري على سورية، وإيغال حكم البعث في سياسته اللاوطنية، التي تظهر في جلاء في سعيه لتسليم ثرواتنا البترولية للمستعمرين. إن كل ذلك خلق شعوراً عاماً لدى الجماهير الشعبية، بأن إقامة حكم وطني ديمقراطي تقدمي في البلاد

---

[540]- الحرس القومي تنظيم شبه عسكري، تأسس في كل من العراق وسورية بعد قيام الانقلابَين البعثيَين فيهما.

[541]- هو علي صالح السعدي أحد قادة الانقلاب البعثي في العراق في أوائل شباط 1963، واشتهر علي صالح السعدي بقيادته لحملة الإبادة الدموية للشيوعيين العراقيين. وعندما زار دمشق بعد سيطرة البعث على الحكم، انتقد بعثيي سورية بأنهم لم يخطوا خطوة بعث العراق في تنظيم المذابح الدامية. واللافت للاهتمام أن السعدي اختلف فيما بعد مع قيادة العراق، وله تصريح هام قال فيه عن انقلاب البعث في العراق إنه جاء إلى بغداد بقطار أمريكي.

أصبح واجباً وطنياً وشعبياً ملحاً، ثم استعرض نعمة من منظار رؤيته للأمور عام 1964 تاريخ يمين البعث المعرقل لقيام جبهة وطنية منذ أوائل خمسينيات القرن العشرين.

7- مشروع ميثاق لإقامة جبهة وطنية بين الحزب الشيوعي والاشتراكيين العرب وعدد من الشخصيات اليسارية، وذلك في عام 1965 قبل التأميمات الكبرى، ولم يكن دانيال نعمة بصفته عضواً قيادياً في الحزب الشيوعي بعيداً عن المشاركة في صياغة ونقاش مشروع ميثاق الجبهة، ولكن التأميمات، وتأييد الحزب الشيوعي لها، أوقفت الحوار، ودفعت بالحزب الشيوعي قدماً باتجاه التعاون مع حزب البعث الحاكم، وتحديداً مع الجناح اليساري فيه، الذي أخذ يتميّز عن يمين الحزب.

جاء في مقدمة الميثاق: "لمجابهة التدهور السياسي والاقتصادي الذي بلغه القطر السوري، وإنقاذاً لوحدة البلاد الوطنية وتطلّب شعبها للتقدم السياسي والتطور الاجتماعي والاقتصادي وحشد القوى ضد الاستعمار وتوسعات إسرائيل، تعمل الجبهة الوطنية المنبثقة عن جماهير الشعب في هذا الميثاق. يسترعي الانتباه البند الأول المطالب بـ"التزام الجيش مهمته الوطنية الأساسية، حارساً لأرض الوطن وأهداف الشعب على أن يحترم الدستور وسيادة القانون، فالجيش جزء من الشعب ومؤسسة من مؤسساته، وانزلاقه نحو الحكم والعمل السياسي هو تعطيل لمهماته".

طالب الميثاق بإلغاء حالة الطوارئ والأحكام العرفية، وإطلاق حرية الرأي والتعبير والنشر، وحريات الاجتماع والإضراب والتظاهر[542].

8- مع مطلع عام 1966 مرّت سورية بأزمة جديدة، وحصلت فيها تبدلات أدّت إلى إقصاء ما يسمى بـ"اليسار" وسيطرة ما عرف بـ"اليمين"، فقد صدر قرار من القيادة القومية لحزب البعث بحلّ القيادة القطرية السورية، وتشكيل قيادة حزبية مركزية تقود العمل، وتبع ذلك استقالة وزارة يوسف زعيِّن وتشكيل وزارة برئاسة صلاح البيطار. وتوضيحاً لموقف الحزب الشيوعي من التغيرات نشر دانيال نعمة في جريدة "نضال الشعب" افتتاحية بعنوان: **"حول التبدلات الأخيرة في سورية"** استعرض فيها الوضع من مختلف جوانبه. نقتبس من هذه الافتتاحية المقطع التالي: "إننا نعتبر النضال من أجل التقدم نضالاً من

542- انظر النص الكامل للميثاق في: دانيال نعمة "جبهويات..."، ص 447-458.

أجل الوحدة العربية الصحيحة، كما نعتبر أن النضال من أجل الوحدة يمكنه أن يلف الجميع، إذا كان نضالاً من أجل وحدة تقوّي تضامن العرب ونضالهم ضد الاستعمار والرجعية، ومن أجل وحدة تأخذ بعين الاعتبار دروس الماضي، وتقوم على أساس الديمقراطية والمساواة والأخوّة الصادقة"[543].

9- بمناسبة الذكرى الأربعين لتأسيس الحزب الشيوعي السوري أنشأ دانيال نعمة في جريدة "نضال الشعب" مقالة تحت عنوان: **"صفحات من البطولة والتضحية والفداء"**[544] استعرض فيه تضحيات "أولئك الرواد الأوائل، الذين شقوا أمامنا الدروب، وأولئك الذين ضحوا...".

الفصل الثالث
تحسُّن العلاقة بين البعث والشيوعي مع صعود اليسار

شهد منتصف ستينيات القرن العشرين اتجاه قوى قومية (بعثية، قومية عربية، ناصرية) نحو اليسار مع تطبيق قوانين الإصلاح الزراعي وتأميم الرأسمال "الكبير"، مما أسهم في اللقاء مجدداً بين الحزب الشيوعي وحزب البعث الحاكم، الذي أخذت أجنحته اليسارية تتطلع وئيداً إلى اللقاء بالحزب الشيوعي، وفيما يلي صورٌ من ذلك التحالف المشوب من جهة البعث بالحذر والخوف من مزاحمة الشيوعيين للبعث في كسب الجماهير، التي تصبو بأبصارها إلى الاشتراكية ذات الشعبية في ذلك الحين.

1- بعد تحسن العلاقات بين الشيوعيين وحكم البعث، أخذ أعضاء القيادة يظهرون للعلن، وانتقلوا من العهد السري إلى العهد نصف

---

[543]- العدد 59 أواسط كانون الثاني 1966. ونشير هنا أن المقالة "حول التبدلات الأخيرة في سورية" كانت مغفلة من التوقيع، لكن على النسخة الموجودة في أرشيف دانيال تعمّد أن يكتب بخطه إلى جانب العنوان اسمه بالحبر، إشارة إلى أن المقالة بقلمه، ولا يخفى أن الاختلاف في الرأي حول الموقف من الوحدة العربية بدأ يظهر إلى العلن في ذلك الحين، وتبدو مهارة دانيال نعمة في الكتابة السياسية من الأسلوب المتبع في التعبير عن سياسة الحزب بطريقة لبقة، لكنها واضحة ومفهومة.

[544]- "نضال الشعب" العدد 41، أواسط تشرين2 1964.

العلني. وفي بداية هذه المرحلة، ترأس دانيال نعمة في أوائل تموز 1966 وفداً من الحزب الشيوعي السوري، غادر دمشق من مطارها مغادرة علنية، في جولة دراسية لمدة عدة أسابيع في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، اطلع فيها على السياسة الزراعية، وزار الوفد أثناء إقامته تعاونيات إنتاجية زراعية من مختلف النماذج ومزارع دولة ومؤسسات تعليمية وكذلك المعرض الزراعي في لايبزغ، وأجرى الوفد مناقشات واستشارات مع فلاحين تعاونيين وعمال زراعيين وعلماء ومسؤولين في الحزب والدولة. وفي ختام هذه الزيارة الدراسية التقى الوفد السوري مع جيرهارد كرونبيرغ، العضو المرشح في المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الاشتراكي الألماني الموحد، والمسؤول عن قطاع الزراعة. هذه الجولة الدراسية وما جرى فيها أذاعها راديو برلين، ونشرتها جريدة "نيودويتلانش"، وأعادت نشرها "نضال الشعب"[545].

2- كان من حصاد تلك الجولة الدراسية وزيارة دانيال نعمة مع وفد من الحزب الشيوعي السوري لجمهورية ألمانيا الديمقراطية، أن دانيال نعمة كتب دراستين نُشِرتا في جريدة "نضال الشعب". الدراسة الأولى تضمنت الإصلاح الزراعي، الذي تمّ في ألمانيا الديمقراطية. والدراسة الثانية[546] توضح كيف تمّ الانتقال، بعد إنجاز الإصلاح الزراعي واجتثاث بقايا الإقطاعية والرأسمالية الكبيرة من الريف، إلى نشر التعاونيات الإنتاجية الاشتراكية في الريف الألماني. وقد اختتم نعمة هذه الدراسة بمقاطع أشار فيها إلى أن "دراسة التجربة الألمانية تساهم في التعجيل بإنجاز الإصلاح الزراعي في سورية، وتُسَهِّل عملية الانتقال إلى نشر التعاونيات الزراعية الإنتاجية في الريف السوري"، ومما طالب به دانيال نعمة: "... الاعتماد على لجان الفلاحين المنتخبة في سائر عمليات الإصلاح الزراعي، واجتثاث بقايا الإقطاعية كلياً. إقامة عدد من مزارع الدولة، التي يمكن، وينبغي أن تصبح نماذج قادرة على إظهار أفضليات النظام التعاوني وتفوقه على الاستثمار الفردي الصغير من جهة، وعلى الاستثمار الرأسمالي الكبير من جهة أخرى. اللجوء إلى إقامة محطات للآلات في المناطق الأساسية، فهي عن طريق مساعدة وخدمة الفلاحين الفقراء والمتوسطين تستطيع أن تمهد لحركة الانتقال

---

[545]- نقلاً عن "نضال الشعب"، العدد 69، أوائل آب 1966.

[546]- انظر النص الكامل للدراسة في "نضال الشعب"، العدد 75، أوائل ك1 1966.

إلى التعاون الاشتراكي في الزراعة فيما بعد. تحضير الملاكات اللازمة لإدارة التعاونيات. اتباع سياسة تعتمد على مد الفلاحين الفقراء والمتوسطين بالقروض والمساعدات وتهيئتهم لمرحلة الانتقال إلى التعاون الاشتراكي في الزراعة، وكل ذلك يحتاج إلى مناخ سياسي واجتماعي واقتصادي ملائم، وبدون ذلك يكون كل حديث عن نشر التعاون الاشتراكي في الريف نوعاً من التفكير الطوباوي، والتمنيات الحالمة الخيالية".

3- أدى غياب خالد بكداش عن القيادة الفعلية للحزب الشيوعي من ربيع 1963إلى شتاء 1966 إلى تمرس أعضاء القيادة بالعمل السياسي، وشعورهم بالمسؤولية والاستقلالية في العمل تحت اللافتة الكبرى الفضفاضة للقيادة التاريخية لخالد بكداش.

ويبدو أن خالد بكداش، وهو في موسكو، لم يكن مرتاحاً لابتعاده عن مركز القيادة في دمشق، وهو القائد الحذر واليقظ من مزاحمة الآخرين له في القيادة، و"أخذ الفار يلعب في عبه"، وضغط باتجاه العودة سراً، بعد أن رفضت السلطات البعثية عودته العلنية لأسباب كثيرة.

ذكر يوسف الفيصل في مذكراته أن يفتاح داود، شقيق دانيال، الخبير باستئجار البيوت السرية[547]، سافر إلى بيروت، واستأجر بيتاً سرياً فيها، وذهب يوسف الفيصل إلى بيروت للتأكد من سلامة البيت، الذي سيبيت فيه سراً خالد بكداش بعد عودته من موسكو في طريق العبور السري إلى دمشق[548]. وفي الوقت نفسه، كان حسن قريطم، الساعد الأيمن لبكداش في تحركاته السرية، ينظم عملية الانتقال من بيروت إلى الحدود بين سورية ولبنان عبر النهر الكبير الجنوبي.

ذكر يفتاح في حديثه المسجل[549]:

"رتبت القيادة العملية، في حين درسنا نحن الطريق. ومن الذين شاركوا في هذه العملية رفيقنا محمود اليوسف، وهو من حكر كابر

---

[547]- كان يفتاح، حسبما ذكر لنا، قد استأجر في دمشق ثلاثة عشر بيتاً سرياً استخدمها الحزب دون أن يُكشف أي منها.

[548]- الفيصل، ص 103.

[549]- نقلاً عن حديث يفتاح داود المسجل بتاريخ 28 كانون الأول 1996. قام بالتسجيل وتفريغه على الورق خالد بن دانيال نعمة، وقدّم لنا مشكوراً نسخة ورقية منه.

وميشيل عيسى وجرجس العيسى وأنا وواصل الفيصل، الذي كان قد سبقنا إلى سورية، وقاد سيارته ليلاقينا عند المعبر، وكان معنا أيضاً حسن قريطم المسؤول عن تحركنا على الأراضي اللبنانية. كنا نؤمن آنذاك أن أمامنا مهمة مقدسة علينا تنفيذها. مشينا على ضفاف النهر في الأراضي اللبنانية إلى أن وصلنا المعبر، وكان محمود اليوسف هو المسؤول عن عبور النهر، وساعده في ذلك ميشيل العيسى، وكنت أنا أحمل ترمس القهوة، لأن ريق خالد كان ينشف. وأثناء المسير وقعْتُ، لأن الطريق كان زلقاً، والعتمة سائدة، وسقطت في ديسة، وانكسر الترمس، فعنفني خالد عوضاً عن أن يسألني عمّا حلَّ بي، وإن كنت لا أزال سالماً. وعند المعبر شال رفيقنا محمود خالداً على ظهره، وسندناه من اليمين واليسار، كي لا يبتل بالماء. طبعاً لا يعرف السامع والقارئ مقدار عبادة الفرد، التي كانت سائدة آنذاك، وكذلك مقدار الحب الذي كنا نكنه لخالد. كان الحزب كله يؤله خالداً. واجتزنا النهر خائضين في مياهه، وخالد على ظهر محمود".

وقد وصلت المجموعة بسلام إلى الضفة اليمنى السورية من النهر، حيث كان بانتظارها واصل فيصل ومعه سيارة، ودانيال نعمة في سيارة ثانية. وعندما أحسّ الفلاحون بالحركة والضوضاء أثناء العبور، أتت الجمارك ظناً منها أن الأمر عملية تهريب بضائع. وحسب الخطة تقدم دانيال نعمة ومعه "بعض الرفاق" لمشاغلة القادمين وإحداث ضجة، ريثما يتمكن بكداش من الابتعاد عن المكان في سيارة واصل. وهكذا وصل بكداش إلى حمص سالماً، ومنها انتقل إلى دمشق، أما دانيال فبعد احتجازه في المخفر الحدودي، نُقِل مخفوراً إلى حمص، حيث أُطلِق سراحه.

بعد أن وصل خالد بكداش سراً إلى دمشق، قررت القيادة الإعلان عن وصوله وممارسة عمله العلني الشرعي، فذهب دانيال نعمة ويوسف الفيصل لزيارة رئيس مجلس الوزراء يوسف زعيِّن، وأبلغاه بأن بكداش أصبح في بيته في دمشق. وكتب الفيصل في ذكرياته بأن الاستغراب بدا واضحاً على وجه زعيِّن، إلا أنه رجاهم أخذ الواقع الراهن بالحسبان[550]، أي عدم إحراج الحكومة بوصول خالد بكداش إلى

---

[550]- انظر التفاصيل في: الفيصل، ص 405.

دمشق، بعد أن حدثت ضجة سابقة حول محاولة دخول بكداش البلاد عن طريق المطار أيام الانفصال.

4- بعد سير الحكم البعثي اليساري أكثر فأكثر في طريق "النهج التحرري التقدمي"، حسب تعبير المكتب السياسي للحزب الشيوعي، بعث المكتب السياسي بمذكرة مؤرخة في أواسط أيار عام 1967 إلى: "السيد رئيس وأعضاء مجلس الوزراء" موقعة من: "خالد بكداش، إبراهيم بكري، دانيال نعمة، عمر السباعي، يوسف الفيصل، ظهير عبد الصمد". أيدت المذكرة إجراءات الحكومة، وطالبت بجملة من الإصلاحات، والتخفيف من غلواء التأميم، كي لا يمس الفئات المتوسطة من التجار. ودعت المذكرة أن يقوم رئيس الدولة أو رئيس مجلس الوزراء "بدعوة ممثلين عن الرأي العام السوري، لكي تُشْرَح لهم تطورات الوضع، وأن يصدر عن هذا اللقاء نداء إلى الشعب في سورية وإلى الشعوب العربية وشعوب العالم لتأييد بلادنا ضد العدوان الإسرائيلي والتآمر الاستعماري الرجعي"، واقترحت المذكرة على سبيل المثال دعوة الشخصيات التالية: الدكتور بشير العظمة، أحمد عبد الكريم، زكي الأرسوزي، فائز إسماعيل، عفيف البزري، سليمان العيسى، شوقي بغدادي، الشيخ أحمد كفتارو، الشيخ محمد الحكيم (حلب)، الشيخ عبد الستار السيد (طرطوس)، إبراهيم الحمزاوي (نقيب أشراف دمشق)، نقيب المحامين، رئيس رابطة المهندسين، نقباء الأطباء والصيادلة والمعلمين، رؤساء اتحادات العمال والفلاحين والطلاب.."[551].

عندما قام الضابط سليم حاطوم "أحد أبطال انقلاب 8 آذار 1963" بمحاولته الانقلابية، وحَجَز قادة البعث نور الدين الأتاسي ويوسف زعيّن في السويداء، وجّه الحزب الشيوعي إلى قيادة حزب البعث باسم المكتب السياسي برقية موقعة من: خالد بكداش، إبراهيم بكري، دانيال نعمة، يوسف الفيصل، ظهير عبد الصمد، عمر السباعي. جاء فيها: "إننا ورفاقنا وإخواننا في سائر أنحاء وطننا نشجب التآمر العفلقي البيطاري[552] المجرم، ونعلن تأييدنا التام لكل خطوة حازمة تتخذونها

---

[551]- انظر النص الكامل للمذكرة في كتاب دانيال نعمة "جبهويات..."، ص 459-463.

[552]- الحكم العفلقي البيطاري المقصود به يمين حزب البعث، المتمثل بميشيل عفلق وصلاح البيطار، وهما من مؤسسي الحزب عام 1947.

لإنقاذ منجزات شعبنا التقدمية ...".

يكتب يوسف الفيصل: "إن تلك الأحداث كانت الخطوة الأولى لسيطرة العسكريين الكاملة على النظام في سورية وعلى مقدراتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهي التي فتحت الطريق للشمولية التي طبعت الوضع في سورية، ولسلطة الأجهزة الأمنية، ولتعثر الديمقراطية"[553].

ثم تطور الخلافات في أواخر عام 1968 داخل القيادة القطرية وانعقد المؤتمر القطري الرابع، الذي انتهى إلى توافق لتأليف وزارة برئاسة الدكتور نور الدين الأتاسي، ويذكر يوسف الفيصل في ذكرياته: "أنه لأول مرة جرى بحث مع قيادة الحزب الشيوعي السوري من أجل المشاركة في الحكومة، واختيار الممثل الذي يرى الحزب تقديمه"[554]، وقام دانيال نعمة ويوسف الفيصل بزيارة الدكتور نور الدين الأتاسي في القصر الجمهوري في المهاجرين، وأتى اللواء حافظ الأسد لحضور اللقاء والمناقشة، وجرى بحث مشترك انتهى باتفاق وجهات النظر، واعتبار واصل الفيصل مرشح الحزب الشيوعي للوزارة الجديدة وزيراً للمواصلات، بدلاً من المحامي سميح عطية[555].

5- عندما تلبدت غيوم الحرب في أيار 1967، وجّه المكتب السياسي للحزب الشيوعي[556] إلى كل من الدكتور نور الدين الأتاسي والرئيس جمال عبد الناصر برقية تحيي الوقفة المشتركة بين البلدين، كما وجّه الحزب الشيوعي السوري نداء إلى الشعب السوري، يدعوه للصمود أمام العدوان الصهيوني وللوقوف صفاً واحداً في وجهه[557].

أمام احتمال حدوث الضربة العدوانية، اجتمع المكتب السياسي، واتخذ قراراً بتوزيع أعضائه على المنظمات في سورية، ونقل خالد بكداش وأسرته خارج دمشق إلى حلب، حيث أقام في بيت عمر

---

[553]- الفيصل، ص 407.

[554]- المصدر نفسه، ص 433.

[555]- المصدر نفسه. بقي واصل الفيصل وزيراً للمواصلات من تشرين الأول 1968 إلى تشرين الثاني 1970.

[556]- مما يلفت النظر أن البرقية وُجِّهَت باسم المكتب السياسي مع ذكر الأسماء، وهم: خالد بكداش، يوسف الفيصل، إبراهيم بكري، عمر السباعي، ظهير عبد الصمد، دانيال نعمة. انظر "نضال الشعب"، العدد 85، أواخر أيار 1967.

[557]- الفيصل، ص 415.

السباعي، وتقرر بقاء دانيال نعمة ويوسف الفيصل في دمشق، وذهب المذكوران لزيارة رئيس مجلس الوزراء يوسف زعيِّن، وأخبراه بأنهما سيبقيان في دمشق من أجل المساهمة في أعمال المقاومة[558].

قصة العدوان الإسرائيلي واحتلال الضفة الغربية والجولان وسيناء معروفة بأسبابها ونتائجها، وما يهمنا هنا هو أن قيادة الحزب الشيوعي اتخذت قراراً بالمشاركة في النضال المسلح، الذي تقوده المنظمات الفلسطينية، وبدأ الحزب الشيوعي بإرسال المقاتلين إلى الجبهتين الشعبية والديمقراطية لتحرير فلسطين[559].

6- تحت عنوان: **"رفع القدرة الدفاعية وبناء المشاريع الصناعية وتدعيم الاقتصاد الوطني"** نشر دانيال نعمة في أواسط كانون الأول 1968 مقالة في "نضال الشعب" أشار فيها إلى ظهور تيارين: الأول يقلل من دور الاقتصاد الوطني، ويقول إن تحرير الأراضي المحتلة هو المهمة الأساسية. والتيار الثاني يشدد على أهمية التطور الاقتصادي في رفع القدرة الدفاعية للبلاد. ويتساءل نعمة: أي التيارين هو الواقعي الصحيح؟ وهل هنالك إمكانية للتوفيق بينهما؟ ويصل نعمة إلى رؤية أن "تدعيم الحياة الاقتصادية عنصر أساسي في تدمير قوة العدو"، واستعان لدعم وجهة النظر هذه إلى تاريخ بناء مصفاة البترول في حمص، التي أسهم بناؤها في رفع القوة الدفاعية وتأمين المحروقات للجيش والاقتصاد عامة، وتقدم نعمة بـ"جملة تدابير ملحة وضرورية" لتطوير الاقتصاد ورفع القدرة القتالية.

7- بمناسبة "ذكرى الجلاء" خصص دانيال نعمة افتتاحية "نضال الشعب"[560] للحديث عن هذه الذكرى وبعض المهام الملحة. أشار فيها نعمة "إلى ضيق المسؤولين بالنقد وبكل رأي لا ينسجم كلياً مع آرائهم، ومن جهة أخرى يصرّ عدد من ممثلي بعض القوى التقدمية على إغماض العين عن كل ما هو تقدمي وإيجابي في الوضع والحكم، وقد قام بعض هؤلاء، فطرحوا مؤخراً شعار قلب نظام الحكم"، مما أدى إلى قيام السلطة باعتقال بعضهم، ويعلق نعمة قائلاً: "وإذا كنا نقف بحزم

---

[558]- المصدر نفسه.

[559]- المصدر نفسه، ص 425.

[560]- انظر نص مقالة دانيال نعمة، وهي بعنوان: "ذكرى الجلاء وبعض المهام الملحة" في "نضال الشعب"، العدد 104، أواسط نيسان 1968.

ضد كل تآمر على الوضع الحاضر، ونرفضه، فإننا أيضاً ننظر بعين القلق إلى ممارسة أسلوب الاعتقال الكيفي وإحلاله محل اللجوء إلى القضاء".

8- كانت منطقة الغاب في أواسط أيلول 1969 مسرحاً لتظاهرة فلاحية، تجاوز أثرها النطاق المحلي، وأدت إلى اعتقال وملاحقة عدد من الفلاحين الشيوعيين والتقدميين الآخرين، وقد شارك فيها أيضاً فلاحون ينتمون إلى حزب البعث الحاكم.

توضيحاً لمشاكل الغاب وطرق حلها كتب دانيال نعمة مقالة في جريدة **"نضال الفلاحين"** استعرض فيه أوضاع الغاب وتعقيداته، وطالب في نهاية المقالة، ومن منطلق "المصلحة الوطنية" بجملة مطالب أهمها: إطلاق سراح الفلاحين الموقوفين، النظر بجدية وموضوعية إلى اعتراضات ألوف الفلاحين وتحقيق العادل منها، مساعدة الذين سينتفعون بالأرض مع توفير الشروط اللازمة للانتقال بهم إلى مرحلة التعاون الإنتاجي، العناية كما ينبغي بمحطة الآلات ووضعها في خدمة الفقراء والفلاحين التعاونيين، بناء مزرعة الدولة في الأراضي الجيدة".

9- لم يحتكر دانيال نعمة قضية البحث في المسألة الزراعية منفرداً، بل أشرك فيها مجموعة من الكوادر الشيوعية الشابة والقادرة على استيعاب هذه المسألة المعقدة، ومن هؤلاء بدر الطويل، وهو من مواليد جبلة، وممن صمدوا رافعي الرأس في سجون "المباحث السلطانية" في أعوام 1959-1961. نقرأ في "نضال الشعب" مقالة لبدر الطويل بعنوان: **"المؤتمر التعاوني الزراعي الأول"**[561]، استعرض فيه أعمال ذلك المؤتمر في كانون الثاني 1969 ونواقصه. وقد ذكر المحامي طه زوزو، ابن جبلة وأحد الكوادر الشيوعية، التي عملت تحت قيادة بدر الطويل في محافظة اللاذقية، لكاتب هذه الأسطر، أن بدر الطويل وجه الشيوعيين في تلك الفترة للعمل بنشاط في صفوف الفلاحين.

10- لم يقتصر اهتمام دانيال نعمة، وهو عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي، على المسألة الزراعية فحسب، بل أولى اهتمامه أيضاً إلى الأمور العربية، وهكذا نقرأ في "نضال الشعب" افتتاحية بعنوان: **"حول مؤتمر القمة والمهام الحالية الملحة"**[562]، وقد قيّم فيه

---

[561]- انظر نص المقالة في "نضال الشعب"، العدد 133، ك2 1970.

[562]- انظر النص الكامل في "نضال الشعب"، العدد 132، أوائل ك2 1970.

مؤتمر القمة العربي المنعقد في الرباط من 20 إلى 23 كانون الأول، وطالب في خاتمة المقالة بـ"العمل من أجل تنسيق حقيقي فعلي، دفاعي، سياسي واقتصادي... وحشد كل طاقة عربية لتحقيق الأهداف الحالية الكبرى للأمة العربية...".

الفصل الرابع
ما بعد 1970

جاءت أحداث خريف 1970، وما أعقبها من إزاحة الجناح اليساري في حزب البعث من السلطة في تشرين الثاني 1970، واعتلاء اللواء حافظ الأسد سدة الحكم منفرداً لتضع الحزب الشيوعي أمام وضع جديد[563]، وكان بعض مشاهدي المسرح السياسي يظنون أن الحزب الشيوعي، الذي تظاهر في شوارع دمشق احتجاجاً على حركة قوى العسكر وإزاحة القوى اليسارية في حزب البعث من الحكم، كان هؤلاء يظنون أن الحزب الشيوعي سيقف ضد، أو على الأقل لن يسير مع النظام الجديد، الذي أُطلق عليه "الحركة التصحيحية"، لكن ما جرى كان بخلاف التوقعات، وعندما قامت "الجبهة الوطنية التقدمية" كان الحزب الشيوعي في عداد أحزابها، ووقع على ميثاق الجبهة الصادر في 7 آذار 1972، وقد أعطى ميثاق الجبهة الحق لحزب البعث "لأخذ موقع القيادة في هذه الجبهة، ولأن يكون الدعامة الأساسية في بنائها"[564]. والأخطر من ذلك، كما جاء في الميثاق، أن "أطراف الجبهة من غير حزب البعث تتعهد أن تعمل على وقف نشاطاتها التنظيمية والتوجيهية في هذا القطاع، (قطاع الطلاب، المؤلف)، بادئة بإيقاف امتدادها والتنسيب لها"[565].

وعلى أثر توقيع ميثاق الجبهة، التقى كاتب هذه الأسطر بعدد من قادة الحزب الشيوعي على مستويات متعددة، محذراً من مغبّة هذا

---

[563]- ثمة أسباب أخرى داخلية وخارجية أسهمت فيما آل إليه وضع الحزب الشيوعي السوري في الربع الأخير من القرن العشرين.

[564]- نقلاً عن دانيال نعمة، "جبهويات..."، ص 468.

[565]- المصدر نفسه، ص 471.

"الاستسلام"، دون أن يلقى أذنا مصغية.
تطبيقاً لميثاق الجبهة جرى في عام 1974 نقل عدد كبير من المعلمين والمدرسين اليساريين، وكثير منهم لم يكن منظماً في الحزب الشيوعي، من مدارسهم إلى وزارات الزراعة والتموين والسياحة والإدارة المحلية لحجبهم عن التعليم والتدريس، كي يصفو الجو لـ"دعاة" الحكم على العمل الفكري بين الطلاب. والنتيجة كانت ترك الساحة خالية للتقليديين، وللعناصر التي لا لون لها ولا انتماء أو للكتل الانتهازية، التي تعرف من أين تؤكل الكتف، وهي تقرع بطبولها لاهثة وراء عطاءات "ولي النعم".
كان من ضحايا إقصاء المعلمين والمدرسين اليساريين عن التعليم كاتب هذه الأسطر، وهو باحث عربي ماركسي على صلة وثيقة بالحزب الشيوعي، وهو أيضاً ناشط فكرياً لخلق تيار نهضوي عربي يضم بين جناحيه مختلف القوى المناهضة للتخلف والركود والتحجر، القوى الطامحة إلى بناء المجتمع الاشتراكي العربي الموحد الخالي من الاستثمار والاضطهاد والقهر.
سُدت في وجه كاتب هذه الأسطر أبواب جامعة دمشق، بعد عودته من ألمانيا عام 1965، بسبب منهجه الماركسي في كتابة التاريخ، فعمل مدرساً للتاريخ في ثانويات درعا ودمشق، ثمّ استناداً إلى "ميثاق الجبهة" أُبعد عن التدريس مع من أُبعد، "منفياً" إلى مديرية زراعة دمشق بين عامي 1974 و1980، وبعد ذلك نُقِل إلى مدرسة أبي ذر الغفاري الابتدائية في القابون من ضواحي دمشق، فرفض الالتحاق بالمدرسة، والقصة طويلة ليس هنا مكان سردها.
كان كاتب هذه الأسطر يلتقي بدانيال نعمة، وكثيراً ما انتقد كاتب هذه الأسطر سياسة الحزب الشيوعي في سيرها تحت علم "الجبهة"، وتحول الحزب إلى "تابع" لا أكثر. وكان أبو خالد يستمع إلى النقد، بل الهجوم المشوب بـ"النرفزة"، ويرد بأسلوب هادئ رصين، ويحضرني هنا ما كتبه الروائي حنا مينه في رثاء دانيال نعمة "أبي خالد":
"يا أبا خالد، يا رفيق الدرب الطويل، طوبى لك نضالك، وطوبى لك دماثة خلقك، وطوبى لك في كل ما أصبت وأخطأت، فكلنا في العمل نُصيب ونخطئ، وهذا شأن العاملين والمناضلين وأنقياء القلوب".
ولا شك أن أبا خالد خلال نضاله الطويل أخطأ وأصاب: "شأن

العاملين والمناضلين وأنقياء القلوب".
وبحزن عميق، يرى كاتب هذه الأسطر أن قيادة الحزب الشيوعي، وفي مقدمتها دانيال نعمة، أخطأت في الانضمام إلى "الجبهة الوطنية التقدمية"، وإذا كان ثمة أسباب تبرر الانضمام للجبهة في سنواتها الأولى، فإن السنوات اللاحقة لم تترك مبرراً للاستمرار في تلك الجبهة، وخاصة في سنوات استفحال أمر البرجوازيتين البيروقراطية والطفيلية، اللتين أكلتا الحصة الأهم من الأخضر واليابس.
هل في تقييمنا هذا شيء من التجني على مواقف دانيال نعمة وحزبه في الانضمام إلى "الجبهة" والاستمرار فيها؟ والأمر متروك للتاريخ... وقد أحسن أنجال دانيال نعمة صنعاً عندما قاموا بنشر ما كتبه والدهم من مقالات ومذكرات مرفوعة من عضو قيادة الجبهة دانيال نعمة إلى المقامات العليا، تنتقد، أو تحتج بأساليب مرنة ودبلوماسية. وحسب علمي، لم يكن دانيال نعمة إمّعة في قيادة الجبهة، بل كان له صوت صادق وشجاع في قول الحقيقة، التي كان يُغلـّفها أحياناً بأردية تناسب ظروف ذلك الزمن، والمشكلة أن مقالات دانيال نعمة بعد 1970 تضمنت الأمرين: فهي تهادن وتلاطف، وأحياناً تكيل المديح لجوانب من السياسة المتبعة بعد 1970، ولكنها في الوقت نفسه تشن حملات تختلف شدتها بين مقالة وأخرى على الفساد، وتطالب بالوقوف في وجهه. وتأتي أجهزة الإعلام الرسمية، فتنشر من كلمات دانيال نعمة فقرات المديح، وتغفل فقرات النقد والدعوة إلى الإصلاح، ولهذا تكوّن لدى قارئ الإعلام الرسمي الانطباع بأن عضو قيادة الجبهة الوطنية التقدمية دانيال نعمة كغيره "باصم بالعشرة"، ومن يقرأ بتمعن مقالاته في الجبهويات، فسيجد وجهاً آخر مشرقاً لدانيال نعمة، وجهاً يعكس سنوات النضال الطويلة، التي خاضها قبل 1970. وأهم من هذا وذاك أن دانيال نعمة لم يَغْتَنِ، شأن غيره ممن تسنموا مناصب رفيعة، فعاش بسيطاً، وتوفي "مستوراً" بعيداً عن القصور والجاه ومباذل الحكم.
عام 1973 صدر كتابنا "**الحركة العمالية في سورية ولبنان 1900-1945**"، وقد أهدينا الكتاب "إلى الذين لم تفسد نفوسهم، ولم يتخلوا عن الطبقة المقهورة، التي انحدروا منها، أو تكلموا باسمها"، وأبو خالد هو من أولئك الذين لم تفسد نفوسهم، وبقي حتى رحيله مخلصاً للطبقات الفقيرة، التي ناضل من أجل سعادتها.

الباب العاشر
المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي السوري 1969
ودور دانيال نعمة

الفصل الأول
من المؤتمر الثالث 1969 إلى المجلس الوطني 1972

أولاً- المؤتمر الثالث

من العوامل الدافعة لعقد المؤتمر: "مطالبة عدد وفير من السجناء الشيوعيين في المزة أيام حكم الجمهورية العربية المتحدة..." بعقد المؤتمر. "التحريض الذي قام به المدرسون السوفييت في مدرسة الحزب"، "وكانوا يسألون عن مؤتمرات الحزب الشيوعي، ولا يحصلون على جواب، وكانوا يشيرون نتيجة ذلك إلى ضرورة عقد المؤتمرات". الأحداث الهامة التي جرت وكانت تجري في المنطقة، وضرورة وضع برنامج للحزب."ارتفاع مستوى وعي الرفاق، وارتفاع ثقافتهم الحزبية، وشعورهم بأن الحزب لم يعد ممكناً تسْيِيره عملياً بالأساليب السابقة"[566]. وبعد مرور ربع قرن، لم يعد ممكناً عمل الحزب دون برنامج ودون مؤتمر، في وقت تعاظم فيه دور الحزب في حياة البلاد، وكانت الأحداث تدفع في هذا الاتجاه.

في أوائل حزيران من عام 1969، انعقد في دمشق المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي السوري[567]، وقد سبق انعقاد المؤتمر أعمال تحضير واسعة سياسية وفكرية وتنظيمية، وقد أعدت اللجنة المركزية للمؤتمر ثلاث وثائق هي:

1)- النظام الداخلي للحزب.
2)- برنامج التدابير الاقتصادية.
3)- البرنامج الزراعي.

وكما جاء في النص الرسمي الصادر عن المؤتمر، جرت مناقشة

---

[566]- نقلاً عن الفيصل، ص 462.

[567]- انظر تفاصيل تحضير مكان مؤتمر سري يتسع لمئة مندوب في فيلا واسعة في حي المزة، يوسف الفيصل، "ذكريات ومواقف"، دمشق، 2006، ص 161.

هذه الوثائق في جميع منظمات الحزب مدة تتراوح بين سنة وسنة ونصف[568].

انعقد المؤتمر تحت شعار "يا عمال العالم اتحدوا"، وشعار "النضال في سبيل تصفية آثار العدوان الإسرائيلي الاستعماري، وفي سبيل توطيد النظام التقدمي في سورية العربية، ومن أجل الاشتراكية والوحدة العربية".

دلَّ وضع البرنامجَيْن: برنامج التدابير الاقتصادية والبرنامج الزراعي[569] على أن الحزب الشيوعي، رغم الاضطهاد والقمع، وملاحقة أعضائه وكوادره، تمكَّن من الوقوف على رجليه وتربية كادر وَضَع هاتين الوثيقتين الهامتين، اللتين تعالجان القضايا الاقتصادية المعقدة التي واجهتها البلاد.

عقدت اللجنة المركزية المنتخبة من المؤتمر الثالث دورة استمرت يومين، "وجددت انتخاب الرفيق خالد بكداش أميناً عاماً للحزب، ثم انتخبت مكتباً سياسياً جديداً من الرفاق : خالد بكداش، إبراهيم بكري، دانيال نعمة، رياض الترك، ظهير عبد الصمد، عمر قشاش، يوسف الفيصل، ثمّ انتخبت الرفاق: دانيال نعمة، ظهير عبد الصمد، يوسف الفيصل، أعضاء المكتب السياسي، والرفيق مراد يوسف، عضو اللجنة المركزية للحزب، أمناء للحزب"[570].

ثانياً- مشروع البرنامج يفجّر الأزمة علانية

يتبين من حديث مراد يوسف[571] أن التحضير للمؤتمر الثالث بدأ عام 1966، وحسب الوثائق، التي اطلع عليها مراد، تبين له أن مشروع البرنامج عمل فيه عدد من الرفاق، وكتبوا ما توصلوا إليه، لكن التحضير الفعلي للمؤتمر الثالث بدأ عام 1968، وكان دانيال نعمة مشرفاً على اللجنة، التي كان مراد أحد أعضائها. وعشية المؤتمر وُضِعَت ملاحظات كثيرة عليه، وبسبب الاختلاف في الآراء لم يُقر

[568]- وثائق المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي السوري، حزيران، 1969، ص 313.

[569]- جاء في "ذكريات ومواقف" ليوسف الفيصل، ص 464: أن اللجنة المكلفة بوضع البرنامج الزراعي كانت برئاسة دانيال نعمة.

[570]- وثيقة دورة اللجنة المركزية في أوائل حزيران 1969 نقلاً عن: "قضايا الخلاف في الحزب الشيوعي السوري"، إصدار دار ابن خلدون، بيروت، أيلول 1972، ص 21.

[571]- حديث مراد يوسف مسجل بتاريخ 28 آذار 2004.

مشروع البرنامج في المؤتمر، وتقرر خوفاً من الانقسام تأجيل البت في المشروع إلى ما بعد المؤتمر، وعَقد مؤتمر استثنائي لإقراره.

وهكذا تنفيذاً لقرار المؤتمر الثالث، عيّنت اللجنة المركزية لجنة لصوغ مشروع برنامج للحزب مؤلفة من: خالد بكداش، دانيال نعمة، مراد يوسف، بدر الطويل، موريس صليبي. وفي وقت (1969-1970) تميّز بنهوض ثوري ملموس، رغم استمرار بقاء آثار العدوان الإمبريالي الإسرائيلي[572]، واتصف الوضع آنذاك باتجاه قوى سياسية وفكرية نحو الماركسية من عدد من التنظيمات الفلسطينية والعربية عموماً، وكان لهذا العامل أثره في صياغة البرنامج باتجاه أكثر "قومية" وأعمق "راديكالية"، وباتجاه واضح لملاقاة التيارات القومية العربية السائرة نحو الماركسية، وسرعان ما دبّت الخلافات حول أفكار مشروع البرنامج بين تيارين:

- تيار الأمين العام خالد بكداش، ومعه من المكتب السياسي يوسف الفيصل.

- تيار ما سيُعرف فيما بعد بالثلاثي، المؤلف من أعضاء المكتب السياسي دانيال نعمة وإبراهيم بكري وظهير عبد الصمد، وهؤلاء هم الذين قادوا النضال السري للحزب في الداخل أيام ما يسمى بحكم الانفصال، وفي المرحلة الأولى من حكم البعث قبل أن تتحسن العلاقات بعد وصول اليسار البعثي إلى السلطة. "قيادة الداخل" هذه رسّخت أقدامها في صفوف الحزب الناهض بعد الضربات الأليمة، التي تلقاها على أيدي المباحث السرّاجية أيام الوحدة، وباءت بالفشل محاولات خالد بكداش دخول البلاد بصورة علنية، مما أفقده زمام المبادرة في قيادة الحزب والاضطلاع عن كثب على التطورات الجارية في سورية في أعقاب الإصلاحات الزراعية والتأميمات، وكنا رأينا في فصل سابق أن دانيال نعمة مع واصل الفيصل كانا أول العابرين من لبنان لإعادة بناء الحزب المثخن بالجراح، والملاحظ أن واصل الفيصل، المسؤول عن منظمة حمص، كان في مقدمة مؤيدي تيار "الثلاثي" في توجهاته الجديدة.

- لا بدّ من الإشارة هنا أن رياض الترك المعتقل الصامد ببطولة أيام "حكم الوحدة"، والمنتخب من المؤتمر الثالث في اللجنة المركزية، ومن

---

[572]- مقدمة المكتب السياسي لمشروع البرنامج، نقلاً عن "قضايا..."، ص 47.

ثمّ في المكتب السياسي، سار في البدء مع "الثلاثي". ومع اشتداد الأزمة داخل الحزب، تحلقت حول رياض الترك مجموعة من الكوادر الشابة الراغبة في التغيير والسير لبناء حزب جماهيري عن طريق التشديد، بوتيرة أكثر عمقاً، على "القضايا القومية" من جهة، دون إغفال الجانب الاجتماعي، ويمكن القول إن أكثرية الحزب، وتحديداً قواه الحيّة المؤثرة وذات الصلة بالمجتمع، كانت مع هذا التيار.

دار الخلاف في الرأي حول الأمور الفكرية التالية: حول تقويم المرحلة التي تمر بها البلاد عام 1970، وحول التحالفات مع القوى اليسارية الأخرى داخل حكم البعث وخارجه، وحول الموقف من حركة الوحدة العربية، التي كانت ما تزال في أوجها قبل التراجع المعروف، وحول الموقف من حركة المقاومة الفلسطينية ودورها في مقاومة العدوان الإسرائيلي.

هذا الخلاف الفكري والسياسي لم يكن وحده سبب الانقسام داخل الحزب الشيوعي، فقد كان ثمة خلاف أشد ضراوة حول الموقف من عبادة الفرد، وتقويم سياسة الحزب عبر مرحلة طويلة امتدت من عام 1944 (تاريخ عقد ما اصطلح على تسميته المؤتمر الثاني للحزب) إلى عام 1969 تاريخ عقد المؤتمر الثالث. والتيار المخالف لخالد بكداش يرى أن اشتداد الأزمة في الحزب الشيوعي ترجع إلى أمور تنظيمية وسياسية وفكرية قديمة، وبرز مشروع البرنامج وكأنه مركز الأزمة[573]. وسنرى في خاتمة هذا الفصل أن المداخلة، التي ألقاها دانيال نعمة في اجتماع اللجنة المركزية عشية انعقاد المؤتمر، تلقي أضواءً على الأزمة الكامنة تحت الرماد الدبلوماسي للبيانات الرسمية.

لم يكن الوقوف في وجه الأمين العام للحزب الشيوعي خالد بكداش بالأمر السهل، فالرجل يحمل على منكبيه تاريخاً طويلاً غنياً بالأحداث، وله بصمات واضحة في تاريخ سورية منذ بداية ثلاثينيات القرن العشرين، عندما ترجم البيان الشيوعي، وناضل بجرأة في صفوف الحزب الشيوعي، قبل ذهابه إلى موسكو للدراسة، حيث لفت هناك أنظار رجالات الكومنترن بما تحلى به من مواهب تؤهله للقيادة، وشيئاً فشيئاً كسب احترام وثقة قيادات الحزب الشيوعي السوفييتي في مراحلها المتلاحقة. وبعد عودته من موسكو أوائل عام 1937، أسهم بكداش في

---

[573]- قضايا الخلاف، ص 50.

بنـاء الحـزب الشـيوعي وفـق المعـايير السـائدة فـي أربعينيـات القـرن العشرين في عهد قيادة ستالين، وقد بـرز خالـد بكداش، وتـألق نجمـه بعد نجاحـه الكاسح فـي انتخابـات المجلس النيـابي لعـام 1954. وتحـت قبـة البرلمان، كان خالد بكداش من فرسان البرلمان المشهود لهم من الجميع: سرعة البديهة، طلاقة اللسان، الصوت الجهوري، اللغة الجزلة، الثقافة الواسعة، فن عقد التحالفات مع القوى السياسية السائرة آنذاك في خط مناهضـة الاسـتعمار والتوجـه للتحـالف مـع الاتحـاد السـوفييتي، ووضـع أسس التنمية لسورية السائرة في طريق الاستقلال الوطني. ولهذا، لم يكـن مـن السـهل قـول كلمـة "لا" لخالـد بكـداش داخـل صـفوف الحـزب الشيوعي. ومـن تجـرأ وقالهـا، كـان مصـيره الإبعـاد عـن الحـزب، وفـي الوقـت نفسـه ينبـذه رفـاق الأمـس مـن الحـزبيين المنضـوين تحـت لـواء الحـزب الشـيوعي، والمقتنعـين اقتناعـاً جازمـاً وراسـخاً بصـحة رأي الحـزب وقائـده خالـد بكـداش. ووصـل الأمـر فـي عـدد مـن المراحـل أن وُصِـفَ الحـزب الشـيوعي بأنـه "حـزب خالـد بكـداش". هـذه الشخصـية الكاريزمية بحاجة إلى دراسة منفردة، لا يتسع المجال هنا للدخول في تفاصيلها. ولـم يكـن بـالأمر السـهل وقـوف التيـار المخـالف لبكـداش فـي الـرأي والمتـذمر مـن هيمنتـه المطلقـة علـى الحـزب، تلـك الهيمنـة التـي تقبّلتهـا أكثريـة أعضـاء الحـزب ومعظـم قياداتـه عـن قناعـة وحـب لتلـك الشخصـية، التـي نُسِـجَتْ حولهـا الأسـاطير. ويلاحـظ أن مـن كـانوا علـى احتكاك مباشر معه، هم أول المحتجّين على "عبـادة الفـرد"، وعلـى كثير من تصـرفاته الشخصـية[574]. والاحتجـاج بـدأ همسـاً، ثـمّ أخـذ يتعـالى، فـي الوقت الذي كان فيه بكداش فـي موسكو، ولـم يكـن علـى اضـطلاع كـاف عما يدور في البلاد وداخل الحزب.

السياسـي المحنـك خالـد بكـداش صـاحب الخبـرة الطويلـة فـي العمـل السياسي، الذي وجد أن مقاومة مشروع برنـامج الحـزب بقوى أنصـاره، وهم الأقليـة الراكدة، غيـر ممكنـة، "شـاط" مشـروع برنـامج الحـزب إلـى خارج البلاد، إلى موسكو، إلى "قلعته"، حيث يعرف أن كسب المعركـة هنـاك سـيمكنه مـن إحـراز النصـر علـى "رفـاق الأمـس" المحتجّـين أو المستائين أو المتمردين على قيادته المهتزّة نتيجة عوامل كثيـرة. وهكذا،

[574]- سمع كاتب هذه السطر قصصاً كثيرة من عدد من المحتكين احتكاكاً مباشراً بخالد بكداش، وليس هدف هذا الكتاب الدخول في سراديب مظلمة لا جدوى منها الآن.

قررت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي أن تُطْلِع جميع الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية، وفي بلدان المعسكر الاشتراكي على مشروع البرنامج، "بقصد الاستفادة إلى أقصى حد من آرائهم وتجاربهم"[575]، وهنا لا يمكن أن نقول إن تيار "الثلاثي" الحائز على الأكثرية وقع في الفخ، فالحزب بتاريخه وسياسته كان ينظر إلى الاتحاد السوفييتي نظرة الأخ الصغير إلى الأخ الكبير ذي الكلمة المسموعة، وصاحب البأس والقوة، وصديق العرب وناصرهم في الملمات.

وجاءت في أيار 1971 "آراء وملاحظات" الرفاق السوفييت العلماء النظريين والقادة السياسيين حول مشروع برنامج الحزب الشيوعي السوري، "لتصب" في صالح تيار الأمين العام خالد بكداش، ولتحسم لصالحه انضمام قوى كثيرة إليه، كانت مترددة، أو تميل تقليدياً باتجاه السير على هدى آراء "الرفاق الكبار".

ثالثاً- المجلس الوطني

في أواخر تشرين الثاني 1971 انعقد المجلس الوطني للحزب الشيوعي لمناقشة ملاحظات "الرفاق السوفييت والبلغار على مشروع البرنامج السياسي، وعلى الوضع الناشئ في الحزب"، وكان انعقاد هذا المجلس بداية مرحلة جديدة من تطور الخلاف داخل الحزب فكرياً وسياسياً وتنظيمياً.

كلمة بكداش المطولة في المؤتمر الوطني تناولت الأمور التالية:

- "توجيه أجزل الشكر إلى رفاقنا الكبار، لأن ملاحظاتهم مناسبة لدرس عميق، ودافع للرجوع إلى مصادر الماركسية-اللينينية". في إشارة إلى أن الآخرين من المخالفين له لا ينتمون إلى الماركسية اللينينية، ولا ينهلون من معينها.

- "لا يكفي أن نعلن نحن الشيوعيين أننا أصدقاء الاتحاد السوفييتي، بل ينبغي أن تنسجم استراتيجيتنا مع الاستراتيجية العامة للحركة الثورية العالمية، التي يؤلف الاتحاد السوفييتي قوتها الرئيسية وطليعتها".

- تناول بكداش كثيراً من القضايا الواردة في الملاحظات، والتي تصب في تيار رؤاه الفكرية، منتقداً فقرات كثيرة من مشروع البرنامج، الذي كان أحد أعضاء اللجنة، التي صاغته.

[575]- قضايا الخلاف، ص 49.

يُلاحظ أن دانيال نعمة، الذي كان من الرفاق البارزين في قيادة حملة الإصلاح داخل الحزب، وشنّ في اجتماع اللجنة المركزية قبل أيام من انعقاد المؤتمر الثالث، هجوماً متعدد الجوانب على قيادة خالد بكداش[576]، لم يتقدم بمطالعة أو دراسة تلفت النظر في المجلس الوطني، تاركاً الأمر لرفاقه كي يتولوا هذه المهمة.

ظهير عبد الصمد رفيق دانيال في قيادة الحزب في العهد السري ارتجل كلمة، ننقل منها الفقرات التالية: "هذا أول اجتماع من نوعه في تاريخ حزبنا يعالج القضايا الفكرية، ويعكس مختلف وجهات النظر. أقول إن القضايا الفكرية المختلف عليها في الحزب الآن كقضية الوحدة العربية، أو قضية حزب شيوعي عربي موحد، أو قضية فلسطين، وما شابه ذلك من القضايا المختلف عليها في مشروع البرنامج، ليست هي سبب الأزمة، إن مثل هذه القضايا أو قريباً منها كانت موجودة سابقاً. كانت قبل المؤتمر الثالث للحزب وخلاله وبعده، ولم تكن سبباً لمثل هذه الأزمة، ولم تؤد إلى مثل هذه الأزمة التي نعيشها الآن. إن أزمة الحزب الراهنة لها سبب آخر، وسأتحدث عنه بعد بحث القضايا التنظيمية. أنا لست موافقاً على كل ملاحظات الرفاق السوفييت، فبعض هذه الملاحظات أنا غير موافق عليه، كذلك لست موافقاً على بعض الأقوال التي ترددت هنا في الكونفرنس كثيراً، والتي تقول بأن الرفاق السوفييت يفهمون أكثر منا قضايانا، يفهمون أكثر منا قضايا بلادنا. أقول إن الأحزاب الشيوعية تفهم أيضاً مشاكل بلادها على أساس الظروف الملموسة. إذا كان الرفاق السوفييت يفهمون أكثر منا ظروف بلادنا ومشاكلها، فما هو إذن مبرر وجود أحزابنا الشيوعية، ووجود قياداتنا. أنا ضد ظاهرة الشتم والسباب لأي فرد من أفراد القيادة أو القاعدة، ولكنني لست ضد انتقاد أخطائهم داخل الهيئات الحزبية. ينبغي عدم التشدد والانفتاح على الآراء والاستماع إليها بانتباه".

مداخلة بدر الطويل عضو لجنة الصياغة ورد فيها الفقرة الهامة التالية: "كل رفيق منا[577] سعى جهده للدفاع عن وجهات نظره وإقناع الآخرين بها. بعد الصياغة الأولى عُرِضَ المشروع على المكتب

---

[576]- سننقل في الفصل الثاني كلمة دانيال.

[577]- يقصد أعضاء لجنة صياغة مشروع البرنامج المؤلفة من خالد بكداش ودانيال نعمة ومراد يوسف وموريس صليبي وبدر الطويل.

السياسي، ثمّ عُرِضَ على اللجنة المركزية، فناقشته، وصاغته، وهو بين أيديكم. بعد المناقشة وإدخال العديد من التعديلات، وافقت اللجنة المركزية عليه بالإجماع، ما عدا التحفظ[578] الذي وضعه الرفيق خالد على شعار الحزب العربي الموحد، ومصدر تحفظ خالد كان يدور حول: هل ينبغي أن يوضع الشعار في المقدمة، أم يبقى في فصل الوحدة؟ ورفضت اللجنة المركزية تحفظ خالد، وأقرت وضعه في المقدمة وإبقاء الصيغة الواردة في فصل الوحدة. لقد قيل، وما يزال يُقال، إنه جرت تسوية، والتناقض والتكرار والمبالغات والروح الجدلية الملاحظة هنا وهناك في المشروع، والعديد من الملاحظات الصحيحة التي وضعها الرفاق السوفييت يعود السبب في هذا إلى روح التسوية، ولكن المبدئية. بدأ الهجوم على مشروع البرنامج في قواعد الحزب قبل الذهاب إلى الاتحاد السوفييتي بزمن بعيد. إن التهم الموجة إلى المشروع خطيرة: (المشروع) خروج على الماركسية – اللينينية والأممية البروليتارية. بعض الرفاق لا يريدون برنامجاً للحزب. يريدون إبقاء الحزب بدون برنامج، كما كان الحال سابقاً خلال عمر الحزب الطويل".

الفصل الثاني
من مداخلة دانيال نعمة في اجتماع اللجنة المركزية المنعقد بدمشق في 23 أيار 1969 عشية المؤتمر الثالث

كان دانيال نعمة، كمعظم الكوادر الحزبية، من المعجبين بخالد بكداش والمقتنعين قناعة مطلقة بأهلية قيادته، ووصل الأمر بأعداد كبيرة من أعضاء الحزب ومناصريه إلى وضع خالد بكداش في منزلة تصل إلى مرتبة التقديس. ويلاحظ أن هذا "التقديس"، ولا نريد أن نقول "التأليه"، لخالد بكداش كان يتضاءل بقدر ما يقترب عضو الحزب أو الكادر من خالد بكداش، ويصبح على اتصال شخصي معه، وتبدأ هذه الهالة المتوهجة بالخفوت، ومن هؤلاء دانيال نعمة.

فكثير من كتابات نعمة في خمسينيات القرن العشرين تحمل بين

[578]- لعلها المرة الأولى التي تخالف هيئة قيادية رأي الأمين العام.

طياتها هذا الحب المطلق لخالد بكداش، وسنسوق هنا ما كتبه دانيال نعمة في مفكرته في تشرين الأول 1956، عندما كان في المدرسة الحزبية في موسكو، والتقى أكثر من مرة ببكداش. وهنا يكتب دانيال معبراً عن حبه وثقته المطلقة ببكداش، مبيناً شخصيته وسلوكه، وكثيراً ما أطلق علية نعمة في مدونته لقب "المعلم"، ولنقرأ ما ورد بخط دانيال في مفكرته ابتداءً من 24 تشرين الأول 1956. كتب نعمة:

"لم أتكلم، فأمام الرفيق (يقصد بكداش، المؤلف) وعمقه وإنسانيته ترى نفسي أن خير عمل هو أن يصغي المرء، وأن يصمت. يعاملنا كأنداد، ويدفعنا إلى حب الحياة، دون التخلي عن الصلابة"[579]. *"في الثامنة والنصف من مساء أمس أخبرني أبو خلدون (يوسف الفيصل - المؤلف) أن أبا عمّار (خالد بكداش - المؤلف)، هذا القائد الحبيب قد سافر إلى الوطن في طائرة الرئيس*[580]. *فرِحْت جداً، فعلى رأس حزبنا، وفي طليعة شعبنا سيكون هناك قائد مجرّب محنكَ أممي حكيم عطوف وحازم، ليّن وصلب، نسيم وعاصف. وحزنت، لقد فارقنا. لقد أرسل لنا مثلاً: يجب أن نكون عند حسن ظنه، ومتى كنا كذلك، فقد فزنا بأغلى ثقة شعبنا العربي الأبي. تذكرت جميع أقوال المعلم ونصائحه"*[581].

هذا الموقف الحميمي الصادق من دانيال نعمة "لقائده" خالد بكداش بدأ يهتز مع الزمن، ووصل إلى الدرجة، التي سنقرؤها في مداخلة دانيال عام 1969.

ليس هدف مؤلف هذا الكتاب عن دانيال نعمة في مراحل نضاله قبل 1970 الدخول في أسباب ونتائج الانقسامات، التي تتالت داخل الحزب الشيوعي السوري بعد المؤتمر الثالث، فهذه بحاجة إلى دراسة مستقلة يملك باحثها، أو باحثوها، الوثائق الكافية الصادرة عن مختلف التيارات والوقت الكافي للدراسة. ولهذا، فإن هذا الكتاب سيتوقف عند المؤتمر الثالث، مكتفياً بنشاط دانيال نعمة حتى ذلك المؤتمر في عام 1969. ونرى أن مداخلة دانيال نعمة عشية انعقاد المؤتمر الثالث تلقي أضواء ساطعة على بعض جذور الانقسامات، التي عصفت بالحزب الشيوعي،

---

[579]- من مدونة يوم 24 تشرين الأول 1956.

[580]- الرئيس شكري القوتلي، رئيس الجمهورية السورية، الذي زار موسكو في تلك الأيام لطلب السلاح من الاتحاد السوفييتي إثر تأميم قناة السويس ومن ثمّ العدوان الثلاثي على مصر. وكان خالد بكداش في الصين لحضور مؤتمر الحزب الشيوعي الصيني، وعاد إلى موسكو في طريق عودته إلى دمشق، حيث انقطعت المواصلات الجوية بسبب العدوان على مصر، فعاد في طائرة القوتلي، التي حطّت في مطار حلب، لأن مطار دمشق كان مغلقاً.

[581]- مفكرة يوم الأحد 24 تشرين الأول 1956.

تلك الانقسامات التي نتجت عن عوامل داخلية متعددة، وعوامل خارجية كانت تلـُفُّ الحركة الشيوعية العالمية، وما أصاب بلدان ما عُرف بالمنظومة الاشتراكية.

وقد لعب دانيال نعمة دوراً أساسياً في الإعداد للمؤتمر الثالث والمشاركة الفعّالة في تحضير وثائقه، ويبدو ذلك واضحاً من مداخلته في اجتماع اللجنة المركزية المنعقد بدمشق في 23 أيار 1969[582]. يتبين بوضوح أن وجهات النظر المتباينة داخل الحزب الشيوعي طفت على السطح، وأن قيادة خالد بكداش للحزب اهتزّت، ولم يعد بإمكان أبرز قائد شيوعي في العالم العربي في منتصف القرن العشرين قيادة حزبه بالأساليب السابقة، فقد جرت عشية التحضير للمؤتمر الثالث عدة اجتماعات "عاصفة"[583] للجنة المركزية، تباينت فيها وجهات النظر بين الأمين العام وعدد من أعضاء اللجنة المركزية، ومنهم دانيال نعمة. وسنقوم بتلخيص الهام، وما يخدم البحث من المداخلة، والجمل الموضوعة بين قوسين هي نقل حرفي من نص المداخلة.

أولاً- من مقدمة دانيال 1989 لمداخلته قبل عشرين عاماً

قدَّم دانيال لهذه المداخلة، التي نشرت لأول مرة بمقدمة مؤرخة في 1989/12/26 بالأفكار التالية:

- "إن المطلوب اليوم ليس العودة إلى الماضي لنغرق في تفاصيله، بل العودة إليه من أجل الحاضر والمستقبل".

- "لقد كان إبقاء هذه المداخلة طي الأدراج خطأ، وقد جاء دليلاً على أن فقدان العلنية يترك المجال للكثير من التشويهات، ويُلحِق أضراراً أكبر مما نتصور".

- "إن نشر هذه الوثيقة لن يلحق الضرر فيما أعتقد بقضية توحيد الشيوعيين، إذا كان المقصود من التوحيد ليس الحفاظ على المراكز والمناصب والامتيازات، بل بناء الحزب المتجدد القادر على أن يلعب دوره المنوط به نظرياً وعملياً".

- "كان الحزب على عتبة منعطف جديد عشية المؤتمر الثالث، وإن نتائج هذا المؤتمر لم يُسمح لها بأن تأخذ أبعادها كاملة".

---

[582]- وقد قام دانيال بنشر هذه المداخلة في مجلة "دراسات اشتراكية"، العدد الأول، كانون الثاني 1990، تحت عنوان من تراث الحزب، ص 144-175.

[583]- والتعبير لدانيال في وصفه للاجتماعات، وما تزال محاضر تلك الاجتماعات العاصفة طي الكتمان، ولم يرشح منها، حسب علمنا، إلا مداخلة دانيال، التي نشرها بعد عشرين سنة على مرور العواصف.

- "إن نشر هذه المداخلة قد يدفع إلى التساؤل: ترى ما هي القوى التي حالت دون أن يفرض المؤتمر الثالث خطه التجديدي الإبداعي؟ وما دور أسلوب العلاقات الذي ساد في الحركة الشيوعية يومذاك؟".

هذه أعم أفكار المقدمة التي كتبها دانيال أواخر عام 1989 لمداخلته الملقاة عام 1969، والتي نشرها لأول مرة في كانون الثاني 1990.

ثانياً- نصوص من مقدمة المداخلة أمام اللجنة المركزية عشية المؤتمر الثالث

- "إنني شخصياً مع الرأي القائل بتبني كل تاريخ الحزب: انتصاراته وانكساراته، حسناته وسيئاته، أعماله الصائبة والأخطاء التي ارتكبها، كما أنني أرى أن واجبنا هو الذود عن هذا الحزب بالإكثار من الانتصارات، من الأعمال الصائبة، وبالإقلال من الأخطاء، وهذا لن يكون إلا بممارسة النقد والنقد الذاتي الماركسي اللينيني".

- "هناك محاولات، أرجو أن أعذر إذا قلت إنها إرهابية، لمنع التحدث عن الأخطاء والوصول إلى جذورها وأسبابها وعواملها الحقيقية، وذلك بالإكثار من الحديث عن الاستعمار والمخابرات والعملاء وشتى أنواع الأعداء وغير ذلك. طبعاً جميع هؤلاء الأعداء موجودون، ويعملون".

- "وبهذه المناسبة أود أن يتأكد الرفيق العزيز الأمين العام للحزب وقائده طوال هذه السنوات أنني لا أريد تحميله مسؤوليات ليست هي مسؤولياته وحده، ولا أريد أن أنسب إليه أخطاء هي أخطاء غيره. إن بعض الأخطاء التي ارتكبها كانت كبيرة، بمقدار المركز الذي شغله في تاريخ الحركة داخلياً وعربياً ودولياً، وهي بكل تأكيد أكبر من أي خطأ ارتكبه أي منا نحن تلاميذه في هذه المدرسة، التي لا أنبل ولا أشرف، مدرسة الفكر والعمل، كما قال الأديب العربي الخالد عمر فاخوري".

ثالثاً- مقتطفات من ملاحظات دانيال على تقرير المكتب السياسي، الذي وضعه خالد بكداش لإلقائه في المؤتمر الثالث

- "اعتمد التقرير الأسلوب الإنشائي الخطابي التحريضي، مع أنه كان ينبغي، برأيي، في مثل هذا الظرف اللجوء إلى الأسلوب العلمي، والتوجه إلى العقول بالدرجة الأولى".

- "أشياء كثيرة غابت، ومنها التحليل الطبقي المعمّق لما يجري في سورية من صراع ولانعكاساته الطبقية ولآثاره".

- "البعث العفلقي حزب قومي يتميز بالقومية، والبعث اليساري، وخصوصاً أجنحته المتكونة حالياً، وهي يسارية، هو أيضاً حزب قومي، فهل تكفي هذه

اللغة؟[584] وعبد الناصر هو الآخر قومي، وعبد الحكيم عامر مثله أيضاً، والاثنان استخدما العنف ضد حزبنا الشيوعي، ارتكبا الكثير في حقه، ولكن هل ما يميزهما هو القومية؟ إذن، فلماذا لا نلحق ناصراً بعامر؟[585] من الضروري التأكيد على صفة التمايز الجاري فيها[586]، وعلى اقتراب فئات أوسع فأوسع منها من أفكار الاشتراكية العلمية".

- "القسم المكرس لقضايا الأمة والقومية. أنا مع الرفيق وصفي البني في أن هذه المسائل تحتاج إلى دراسة وتعميق، وربما إلى مائدة مستديرة علمية يشترك فيها المناضلون والعلماء الشيوعيون".

- "من يبحث في البيان الذي أصدره حزبنا يوم الانفصال، وأنا الذي كتبته على النحو الذي كُتِبَ فيه مع الأسف، ومن يبحث في مشروع البرنامج السياسي للحزب والصادر بعد الانفصال، وأنا أيضاً أحد المساهمين الأساسيين في وضعه[587]، ومن يراجع أقوالنا وبرنامجنا المؤلف من النقاط الـ 18[588] يجد دون شك أن نوعاً من الإقليمية، نوعاً من الانفصال كان يؤلف طابع نشاطنا العملي اليومي، ولا ريب في أن هذا كله كانت له مبرراته العديدة وأسبابه وعوامله المفهومة، ولكن هل كان مثل هذا النشاط، وهل كان مثل هذا الموقف صحيحاً"؟

- "إن مصلحة النضال ضد الاستعمار والصهيونية، ومصلحة تقوية وتوطيد معسكر التقدم والاشتراكية في العالم تقتضي مع النضال للتقدم في بلدنا، النضال من أجل الوحدة العربية، من أجل وحدة عربية تقوم على التقدم والاشتراكية".

- "الوحدة بين مصر وسورية فشلت، وبعض هذا الفشل يعود دون شك لعدم احترام الخصائص الموضوعية لسورية، ولكن هناك عوامل أخرى غير هذا، هي التي أدت إلى فشلها: هناك التآمر الاستعماري الصهيوني عليها، هناك اعتماد أصحاب السلطة في دولة الوحدة على البرجوازية وممثلي الإقطاعية عوضاً عن الاعتماد على الطبقة العاملة وممثليها، على جماهير الكادحين وأحزابهم. إن الوحدة العربية لا بد أن تتحقق، والواقع أن وحدة عربية تقدمية، تقوم ببنائها الطبقة العاملة وجماهير الكادحين، ستساعد أكثر من أي وقت مضى على إفساح المجال أمام تطور الأقليات القومية وضمان حقوقها القومية".

- "يمكن برأيي للاستقرار والأمن أن يعودا إلى هذه المنطقة، التي تؤلف بؤرة حرب عالمية أيضاً، إذا تحولت دولة إسرائيل، المقامة على جزء من أرض فلسطين العربية، إلى دولة ديمقراطية علمانية تقطع كل علاقاتها مع الاستعمار والصهيونية،

---

[584]- يريد دانيال أن يقول إن الحديث عن القومي دون توضيح ما يجري من تمايز بين الأجنحة القومية هو أمر ناقص بحاجة إلى تحليل طبقي.

[585]- يريد دانيال هنا تبيان أن الفرق شاسع بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر رغم أنهما قوميان. وهنا، كما يُرى، دانيال يدخل في منهج التحليل الطبقي لفهم الأحداث.

[586]- أي في التيارات القومية.

[587]- هنا يقوم دانيال بنقد ذاتي لما قام به.

[588]- والهادف إلى البحث في "إعادة النظر في الوحدة من الأساس".

ويعود إليها اللاجئون العرب، ويسكنها جميع أبنائها الأصليين من عرب ويهود على السواء، دولة تقفل الأبواب أمام كل هجرة يهودية جديدة، وتسمح لكل يهودي دخل البلاد بعد عام 1948 بالعودة إلى بلاده الأصلية، أو بالبقاء حيث هو واتخاذ صفة المواطنة الكاملة.

- *"لا أتذكر أن هيئات حزبنا أصدرت أية قرارات تقرّ فيها تقسيم فلسطين، ولكنني أتذكر أنه صدرت وثائق "نشرة داخلية" من ناحية، ومقالات في "نضال الشعب" من ناحية أخرى، يُفْهَمُ منها الاعتراف بالتقسيم، تحتوي على ذلك ضمنياً، وهذه كلها لم تصدر عن هيئات الحزب المسؤولة، فهل كانت مثل هذه التصرفات خطأً أم صواباً؟! أ ليس من الأفضل لنا، لحزبنا نحن، أن نسكت عن قرار التقسيم، وأن لا نتخذ أي موقف يفهم منه تأييدنا له في هذه الوثائق البرنامجية. ومثل هذا ينسجم مع ما كان يقوله الرفيق خالد بكداش، ويكرره باستمرار استناداً إلى أقوال تولياتي، من أن هذا التطابق في جميع المواقف بين حزب ما والحزب الشيوعي السوفييتي ليس ضرورياً لتأكيد الوحدة بين هذه الأحزاب"* [589].

- ينتقد دانيال *"من ينقلون عن الاتحاد السوفييتي نقلاً ميكانيكياً دون أن يفكر بظروف بلاده. إن الصداقة مع الاتحاد السوفييتي تتطلب من الأصدقاء الصادقين أن يعطوا، لا أن يأخذوا فقط، وهذا يكون بالإقلال من الأخطاء"*.

- يبدي دانيال جملة من الملاحظات على تقرير المكتب السياسي في فقرته الخامسة، الذي وضعه بكداش، كما ذكرنا، وفيه هجوم على الاتجاهات القومية وعلى "القومية"، ويعلق دانيال قائلاً: *"برأيي أنه من الأفضل هنا التوضيح، فالمقصود فيما أعتقد هو النضال ضد الميول القومية التعصبية، ضد التعصب القومي والشوفينية، وليس المقصود أبداً النضال ضد القومية، ضد الانتماء القومي، ضد انتماء العربي لقوميته العربية، والفرنسي لقوميته الفرنسية، والروسي لقوميته الروسية... إلخ"*.

- *"ينبغي بتقديري أن ننظر إلى الجبهة الوطنية فيما مضى موضوعياً، فلا يصح البتة أن نجمل الدور الذي لعبته هذه الجبهة فيما مضى، فالتعاون الحالي المحدود، الذي يتحقق بيننا وبين البعث، هو من حيث النتائج الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ربما كان أعمق وأوسع وأكثر تأثيراً من نتائج تلك الجبهة، التي قامت فيما مضى في عهد حكم البرجوازية والإقطاعية.*

---

[589]- يقول دانيال في السياق ذاته إن الرفيق الشهيد فرج الله الحلو، وربما الرفيق رشاد عيسى قالا: إنه يمكن لموقفنا أن لا يكون متماثلاً مع موقف الاتحاد السوفييتي، وكان ذلك سبب محاكمتهما، ص 160. وفرج الله الحلو ورشاد عيسى لم يوافقا على إصدار الحزب بياناً بالموافقة على التقسيم، ويذكر مصطفى أمين أن رشاد عيسى "رفض التوقيع على بيان بتأييد موقف الاتحاد السوفييتي في الموافقة على التقسيم، وحذر من إصدار البيان، لأنه سيعزل الحزب في الوسط العربي"، انظر أمين، ص 97، وكذلك انظر ما كتبه يوسف الفيصل في ذكرياته المنشورة عام 2006.

إن دور حزبنا حالياً[590] هو بالقياس مع الماضي أكبر" [591].

- *"إننا لم نميّز بين الديمقراطية البرجوازية، بين الديمقراطية البرلمانية في البلدان المتطورة وبين الديمقراطية في البلدان المتخلفة. إننا لم نر الفرق بين سورية وفرنسا مثلاً، وكان ذلك انعكاساً لتأثير البرجوازية على الفكر الماركسي في الحزب، وقد أدى إلى أوهام يمينية كبرى لدينا. وبالمناسبة أقول: هناك دائماً ميل للتمسك بصيغة واحدة ما، فمثلاً عندما كنا نتناقش نحن والرفيق خالد بكداش عبر الرسائل الكثيرة حول بيان الحزب إلى الطبقة العاملة بعد 8 آذار[592]، كان الرفيق خالد يصرّ أن "الديمقراطية الوطنية" هي الطريق الملائم للانتقال إلى الاشتراكية، وكتبنا له إبراهيم وظهير وأنا: لماذا التقيّد بطريق واحد؟ وربما أتت الحياة بطرق أخرى، لا نراها الآن؟ وبعد أخذ ورد توصلنا إلى صيغة تقول: "الديمقراطية الوطنية طريق ملائم للانتقال إلى الاشتراكية " [593].*

- *" من الصعب تعداد جميع النواقص في عمل الحزب، ولذلك فسوف أقتصر على بعض الأمثلة: كان يجري خرق جدي للنظام الداخلي دون أي تبرير، غياب المؤتمرات، اللجنة المركزية لم توجد كهيئة مستقرة تماماً، كان أعضاؤها يعينون تعيناً، يقربون ويبعدون من منطلقات مزاجية، اللجنة المركزية كانت في أحيان كثيرة نوعاً من الهيئة الاستشارية للتأييد وتبادل الرأي وليس للقيادة الفعلية، لم يكن لكثير من أعضاء المركزية المعينين قواعد حزبية وتنظيمات تسندهم، المكتب السياسي يعمل بصورة عفوية، فلا برمجة، ولا تخطيط. إن أحد أهم العوامل التي أدت إلى ارتكاب هذه الأخطاء واستمرارها يعود إلى عبادة الفرد، إلى تقديس الفرد. يعود إلى نوع من حب هذا الفرد لذاته، وهو ما يتجلى في سلوك الرفيق خالد، أو هو نوع من ثقة هذا الفرد بذاته. يعود ذلك إلى أسباب تاريخية: سيادة الستالينية فترة طويلة في الحركة الشيوعية العالمية، وأسباب ذاتية: بعض الصفات الشخصية*

---

[590]- عام 1969.

[591]- علينا أن نفرّق بين دور الحزب الشيوعي في الجبهة الوطنية، ونفوذه الواسع في أواخر ستينيات القرن العشرين، وبين دوره الشكلي في ما يُسمَّى الجبهة الوطنية التقدمية بعد مرور عقد من الزمن، حينما أصبح دور الحزب الشيوعي دوراً ثانوياً، أثره أضعف في تطور الأحداث، مقارنة بما كان الأمر في الفترة التي تحدث فيها دانيال عام 1969.

[592]- من عام 1963 عندما وصل حزب البعث إلى السلطة.

[593]- بعد 8 آذار 1963 بمدة قصيرة، غادر خالد بكداش سورية سراً إلى موسكو تجنباً للاعتقال، وتولى زمام قيادة الحزب، كما كان الأمر قبل دخوله السرّي إلى سورية عن طريق لبنان، إبراهيم بكري ودانيال نعمة وظهير عبد الصمد، الذين كوّنوا النواة المخالفة في الرأي لخالد بكداش، ويبدو من الرسائل المتبادلة بين "الثلاثي" وبكداش أن الخلاف في وجهات النظر أدى إلى نوع من المساومة والحلول الوسط، وهذا ما جرى في المؤتمر الثالث، الذي توصل إلى حلول وسطية حفاظاً على "وحدة الحزب"، التي سرعان ما انهارت بعد سنوات قليلة. ولا بدّ من التذكير هنا أن يوسف الفيصل، الشخصية القوية في الحزب، كان في تلك الفترة يقوم بخدمة العلم في الجيش، وهو من تيار بكداش وساعده الأيمن قبل أن يفترقا.

المعروفة للرفيق خالد بكداش، كما يعودان إلى أسباب تتعلق بالكادر القيادي نفسه. ومن جهتي أعترف بصدق أنني منذ فترة أحد المسؤولين الأساسيين عن الأخطاء المرتكبة، ومسؤوليتي هذه خاصة وعامة. طبعاً من الصعب الآن أن أحدد متى بدأت أصبح مسؤولاً عن أخطاء العمل القيادي، أ منذ عام (1959-1960) حتى الآن؟ ربما، ولكن في هذه الفترة كانت هناك قيادة مشتركة سورية لبنانية، ولم أكن عضواً فيها. أم منذ عام (1963-1964)؟ وأعتقد أن هذا هو الأصح، فبعد الثامن من آذار (1963) أصبحت عضواً في المكتب السياسي للقيادة المركزية للحزب الشيوعي السوري. إنني لا أنكر البتة مسؤوليتي في الأخطاء المرتكبة، كما لا أنكر أن أسلوبي في معالجة القضايا المختلفة تميّز بالنرفزات، والشدة، والقسوة، والعنف، وربما ابتعدت في بعض الأحيان عن الموضوعية. إن العامل الذي حجب عن الرفيق خالد رؤيته لأخطائه يعود دون شك إلى نمو العنصر الذاتي لديه. إنه ينطلق في تفسير الأمور من منطلقات ذاتية، وهذه المنطلقات أضرت به وبالحزب. إن أسلوب حياة الرفيق خالد بكداش في لبنان أولاً[594]، وفي الغربة ثانياً[595]، وإن أثر النجاح في البرلمان عليه ثالثاً، كل ذلك قوّى لديه العنصر الفردي، أو منعه من رؤية الأخطاء، وتركها إذا رآها، وغير مستعد للاعتراف بها ومعالجتها، ولكن ما ساد سابقاً أو استمر سابقاً لا يمكن له، كما نعتقد جميعاً، أن يستمر حالياً أو في المستقبل. أقول بكل صراحة: الرفيق خالد يستطيع أن يلعب، إذا أراد، دوراً كبيراً في دفع الأمور إلى أمام، ولكن هذا يحتاج إلى شكل تنظيمي جديد، فبقاء الأشكال التنظيمية السابقة سيعرقل ذلك".

- التغيرات الاقتصادية الاجتماعية، التي جرت في ستينيات القرن العشرين خلقت تيارات سياسية وإيديولوجية مختلفة، وهذا ما أشار إليه البرنامج الاقتصادي المقدم إلى المؤتمر الثالث.

- الأزمة التي أخذت تستحكم بحركة التحرر الوطني العربية بعد الاحتلال الإسرائيلي لسيناء والجولان والضفة الغربية وقطاع غزة.

- بداية الانقسامات في الحركة الشيوعية العالمية.

- مشكلات الحزب الشيوعي التنظيمية والأخطاء المتراكمة خلال عقدين من الزمن.

---

[594]- بعد الهجوم على مكتب الحزب في دمشق، ومنع الحزب الشيوعي من العمل العلني، اتخذ خالد بكداش من لبنان بين عامي 1948 و1954 مركزاً لقيادة الحزب في سورية.

[595]- يقصد الحياة في أوربا الشرقية بين موسكو وبراغ، عندما اضطر بكداش لمغادرة سورية تجنباً للاعتقال، وفترة الغربة هذه امتدت بين عامي 1959 و1966، مع فترتين قصيرتين عاد فيهما إلى دمشق، وتحدثنا عنهما في فصل سابق.

الباب الحادي عشر
الفلاحون ونضال دانيال نعمة في صفوفهم
2000-1950

يمكن تقسيم نضال دانيال نعمة في سبيل تحرر الفلاحين ورفاههم إلى ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: لنشاط دانيال نعمة الفلاحي شملت مطلع خمسينيات القرن العشرين، فقد انطلق دانيال من محافظة اللاذقية في السعي لتنظيم الفلاحين وتوعيتهم وتشديد النضال ضد الإقطاعية، وتمثل نشاطه في ثلاثة أمور:

- دفع الحزب الشيوعي للاهتمام بأوضاع فلاحي القرى التي يملكها الإقطاعيون، والدفاع عن الفلاحين أمام المحاكم.
- عقد المؤتمرات الفلاحية، التي كان لدانيال ورفاقه من كوادر منظمة الحزب الشيوعي في اللاذقية الدور الأساسي والموجه لهذه المؤتمرات، كما رأينا.
- المساهمة في إصدار جريدة "الأرض للفلاح"، تلك الوثيقة الهامة في تاريخ الفلاحين ونضالهم.

وهذه الأنشطة تحدثنا عنها بالتفصيل في الأبواب السابقة، ولهذا لن نتطرق لها في هذا الباب، الذي سيقتصر على المرحلتين اللاحقتين.

المرحلة الثانية: من نشاط دانيال نعمة، وتغطي عقد ستينيات القرن العشرين، المتضمنة لما سميّ مرحلة الانفصال وما تلاها من حكم البعث في مراحله الأولى قبل 1970، ونتلمس نشاط دانيال فيما كتبه في صحف الحزب السرية ونشراته، وما دبّجت يراعه من مقالات في مجلة "الطليعة" الدمشقية، ومساهمته الفعّالة في قيادة النشاط السرّي، ومن ثمّ نصف العلني للحزب الشيوعي في تلك المرحلة من ستينيات القرن العشرين، كما كان له دور واضح في صياغة البرنامج الزراعي الذي أقره المؤتمر الثالث.

المرحلة الثالثة: من نشاط دانيال نعمة الفلاحي بعد 1970، ومعروف أننا لن نتطرق في هذا الكتاب إلى نشاط دانيال نعمة بعد 1970، ولكن التاريخ سلسلة مترابطة الحلقات، ولهذا لا بد من الإشارة

إلـى أحـد الخطـوط العامـة لنشـاط دانيـال نعمـة، وفـي مقـدمتها المسـألة الزراعية. وهكذا نجد أن دانيال نعمة يعاود عام 1971، بل يستمر، في نشاطه العملي والكتابة عن المسألة الزراعية والقضية الفلاحية، في ظروف تختلف عن المرحلتين السابقتين.

الفصل الأول
حول قانون تحديد الملكية في سورية
محاضرة لدانيال نعمة

بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة، صدر في 28 أيلول قانون الإصلاح الزراعي رقم 161 لعام 1958، الذي سدد أول ضربة للطبقة الحاكمة في سورية قبل 1958، فالأسر المشمولة بالإصلاح الزراعي اعتلت سدة السلطة في النصف الأول من القرن العشرين، وجاء هذا القانون ليحجّم دورها، مما دفع بالجماهير الشعبية في الريف للتصفيق لهذا القانون، الذي سيمنحها جزءاً من الأرض.

لقد فاجأ هذا القانون الحزب الشيوعي، وألقى الرعب في صفوف قادته، خوفاً من سحب البساط الفلاحي من تحت أقدام الحزب وانعزاله عن الريف، ولهذا حاول الحزب أن يلقي الأضواء بحذر على الجوانب السلبية في القانون. وفي هذا الإطار كُلّف دانيال نعمة بإعداد دراسة عن ذلك القانون، ونجد بين أوراق دانيال مشروع دراسة أُلقيت على كوادر الحزب الشيوعي حول قانون الإصلاح الزراعي لعام 1958، ويعترف دانيال أن الدراسة كُتبت على عجل، وهي ناقصة، وتتخللها فجوات، ولهذا فإن الأمر يحتاج إلى عقد حلقة أو حلقات دراسية.

وضع دانيال عنواناً لمحاضرته: **"حول قانون تحديد الملكية في سورية"** مشيراً إلى أن صدوره في 28 أيلول 1958 أحدث دوياً داخلياً وخارجياً، وتحدثت عنه الإذاعات العالمية، ومنها إذاعة موسكو.

وقد جاء فيها:

حول قانون تحديد الملكية في سورية وموقفنا منه

تاريخ القانون

صدر هذا القانون، كما تعرفون جميعاً، منذ أمدٍ قريب: 28 أيلول سنة 1958. وكان لصدوره يومذاك صدى داخلي وغير داخلي، فقد نشرته صحافتنا في الداخل، وعلقت عليه جريدتنا "النور" تعليقاً سيرد ملخصه في مكان آخر، كما تحدثت عنه الإذاعات العالمية ومنها إذاعة موسكو. وأخذ يتساءل عنه الكثيرون من العناصر الديمقراطية والشيوعية في البلدان الأجنبية (مثلاً الطليان يسألون عنه كثيراً)، إلى ما هنالك. وقبل صدور هذا القانون كان قد صدر قانون آخر، رغم أننا لن نتعرض له اليوم، فهو شديد الارتباط بالقانون الجديد. إنه قانون العمل الزراعي. والقانونان صدرا إن لم نقل متأخرين جداً ففي وقت أصبح من الضروري فيه، على أقل الأقل، صدورهما نظراً لمتطلبات الوضع الداخلي الموضوعي، أو بصورة أكثر واقعية نظراً لمتطلبات الحاجات الاقتصادية والتطور الاقتصادي الموضوعي. فما هي هذه المتطلبات؟

لمعرفتها ينبغي أن نعرف الجديد الذي طرأ على علاقات الإنتاج... على العلاقات الإنتاجية في المشرق العربي منذ فترة غير بعيدة جداً، مثلاً منذ ما بعد الحرب العالمية الأولى.

قبل هذه الفترة كانت العلاقات السائدة هي علاقات نصف إقطاعية، والصناعة كانت مقتصرة على الصناعة الحرفية، أي على حاجات القرون الوسطى، هذا بصورة عامة... وخلال فترة طويلة، كل فترة وجود المستعمرين في البلاد، لم يطرأ سوى تغيرات غير محسوسة نسبياً، فالصناعة تطورت ببطء وضمن إطار مصالح المستعمرين وصناعتهم بالدرجة الأولى. ولكن خلال الحرب وبعدها، تغير الوضع نسبياً، فقد تطورت صناعات معينة واتسعت. هذا في الميدان الصناعي، أما في الميدان الزراعي فقد دخل أيضاً أسلوب الاستثمار الرأسمالي، خصوصاً في مناطق معينة: حماة، الجزيرة، الفرات والحسكة، وبعض المناطق الأخرى، حيث يزرع القطن، هذه الزراعة التي أخذت تشكِّل قسماً كبيراً من دخل البلاد... كذلك دخلت الآلات الحديثة، مثل التراكتور وغيره وغيره في أعمال زراعية أخرى.

كل هذا أخذ يجعل من الرأسمالية التي نمت في قلب مجتمع نصف إقطاعي موروث من السلطة العثمانية، ومن ثم من الاستعمار الغربي. رأسمالية تحتاج إلى علاقات في الزراعة تتناسب معها، لأن الرأسمالية

في مرحلة تطورها، وفيما بعد، بحاجة مستمرة إلى سوق داخلية قوية، وإلى موارد وموارد أولية من قلب هذه السوق إذا أمكن. وقد ازدادت اليوم، برأيي، حاجة الرأسمالية إلى مثل هذه المتطلبات بعد أن بدت سواء في مصر أم في سورية، أي في قطري الجمهورية العربية المتحدة، بالتصنيع بإنشاء الصناعة التي يقوم بها لحسابهما الاتحاد السوفييتي. إن هذه الصناعة التي ستضاعف المنتوج الصناعي كثيراً بحاجة إلى مثل هذه السوق الداخلية القوية وإلى مواد أولية داخلية، كي تعمل بكامل قوتها هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية لتسديد تكاليف بناء هذه الصناعة.

قلت إن الرأسمالية التي نمت، وتنمو في بلدنا، أضحت بحاجة إلى علاقات عقارية إنتاجية في الريف تتناسب معها، تلائمها وتوافقها، ومثل هذا أمر معروف ثابت، أثبتته الماركسية، فقد قال ماركس في كتابه الرأسمال: "بأن شكل الملكية العقارية، هذا الشكل الذي يجدد أسلوب الإنتاج الرأسمالي الآخذ في التطور في التاريخ، لا يتوافق مع الرأسمالية. والرأسمالية نفسها تصنع لنفسها أشكال علاقات عقارية مناسبة لها من العلاقات القديمة: من علاقات التخلف الإقطاعي، من المشاعيات الفلاحية، من..." (عن كتاب لينين **"البرنامج الزراعي للاشتراكية الديمقراطية**، ص56").

وهكذا فإن الرأسمالية الآخذة في التطور والنمو في شرقنا العربي أخذت تغير في شكل العلاقات العقارية الموجودة في ريفنا، لتجعل منها علاقات عقارية ملائمة لها، علاقات تناسبها، تناسبها إلى حدٍ ما... وبطرق لا تهدد "أمنها" في المستقبل. والآن لنرَ كيف تفعل الرأسمالية ذلك! ولكن برأيي قبل أن نجيب عن هذا السؤال علينا أن نجيب عن سؤالين آخرين: ما هي العلاقات العقارية التي كانت سائدة؟ وهل هناك شكل واحد لتغيير هذه العلاقات، أم هناك أشكال متعددة؟

أشكال العلاقات السابقة

مما لا مجال للجدل فيه أن العلاقات التي كانت تسود الريف سواء في سورية أم في مصر أم في العراق، وبكلمة أصح في مجموع الشرق العربي، إنما هي علاقات نصف إقطاعية، وقد كان لهذه العلاقات قبل فترة السيادة المطلقة خلال مرحلة الحكم العثماني وفيما بعد. أما في الفترة الأخيرة فقد أضحى إلى جانب هذه العلاقات نصف الإقطاعية

علاقات أخرى رأسمالية، برزت في السنوات الأخيرة، خصوصاً في الأمكنة التي أخذ فيها بزراعة القطن. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية حيث بدئ باستخدام الآلات الزراعية لإنتاج الحبوب. وهكذا إلى جانب كبار الإقطاعيين نشأت فئة من كبار الملاكين، أو تحول قسم من الإقطاعيين إلى إقطاعيين أرباب عمل زراعيين. وفي نفس الوقت فقد أخذوا يدخلون الأساليب الرأسمالية في زراعتهم وفي استثمارهم لأراضيهم (هنا ما من إحصائيات، في هذا الموضوع ولا يُنتظر أن تقوم دوائر الحكومة مثلاً بمثل هذا الإحصاء).

وإلى جانب هذه الملكيات الإقطاعية الكبيرة، والتملك الكبير وُجد ويوجد في سورية فلاحون أغنياء ومتوسطون ميسورون، وكذلك فلاحون فقراء ومُعدَمون ومن لا يملكون.

لقد كان بودي أن أقدم مثلاً بياناً بالأرقام حول توزيع الملكية في سورية حتى وقت صدور قانون تحديد الملكية، لكن لا يوجد أمامي أية إحصائيات تساعد على هذا الأمر، فالإحصاء الوحيد هو إحصاء قدمه وزير الزراعة أحمد الحاج يونس بعد صدور القانون، وهو إحصاء يبين عدد المالكين الذين سيصيبهم هذا القانون. وهم 1914 مالكاً: 1% من المالكين في الأراضي البعلية، وستنتزع منهم بثَمَن، مساحة قدرها 1.123.500 هكتار، أي 27.5% من الأراضي المزروعة، و856 مالكاً في الأراضي المروية، أي 1.6% من المالكين جميعاً، وسينتزع منهم بثَمَن 254.700 هكتاراً من الأراضي المروية، أي نسبة 43.5% من الأراضي المروية حالياً في الإقليم.

وعيب هذا الإحصاء، وهذا أمر مفهوم، أنه إحصاء يريد أو يتعمد إلى حدٍ ما إخفاء العلاقات الطبقية. وبرأيي إنه من الصعب جداً على ضوء هذا البيان وحده إيجاد جدول تقريبي يحصى فيه عدد الملاكين الفقراء، وعدد المتوسطين، وعدد الكبار الأغنياء. أما الإقطاعيون فتفضحهم هنا الأرقام، ويزيد في صعوبة وضع هذا الجدول أن "المرتبة" التي يحتلها الفلاح أو الملاك تتعلق ليس فقط بمساحة أرضه، وإن كان للمساحة أحياناً دور كبير، بل بمردود هذه الأرض وما تقدمه من موارد. ففي كتاب **"حزب العمال والفلاحين"** قال الرفيق خالد في معرض الحديث عن فئات الفلاحين: *"ينتج من كلام لينين، بشكل واضح، أن مساحة الأرض ليست هي التي تقرر فيما إذا كان الفلاح*

صغيراً أو متوسطاً أو غنياً، هذا شيء يجب أن يكون واضحاً لدى جميع رفاقنا العاملين في الأرياف. فالعنصر الذي يقرر، هو ما تنتجه هذه الأرض" . وللدلالة على تعمد الإخفاء في الإحصاء المقدم أستطيع أن أضرب مثلاً، فقد جاء في الإحصائية: من يملكون من 1 – 50 هكتاراً هم في: (دمشق 2924 – حمص 13500 – السويداء 12 ألفاً – حلب 119 ألفاً).

وبكلمة، فعدد هؤلاء في سورية 225424. أما كم يملكون؟ فلم يذكر. وكم ملاكاً يملك هكتاراً أو اثنين أو ثلاثة؟ إن شيئاً من هذا لم يرد.

إن ما يمكن القول به هو أن قسماً كبيراً من أملاك البلاد العقارية إنما هو في حوزة الإقطاعيين على اختلاف درجاتهم، إن صح التعبير، وإن القسم الكبير من الفلاحين هم إما فلاحون مُعدَمون، أو فلاحون صغار جداً.

ومعروف أن مثل هذا الوضع، أن كون الأرض احتكاراً لعدد ضئيل من السكان، يستغلونها بالطرق القديمة وعلى أساس العلاقات الإقطاعية، أضحى عائقاً جدياً في وجه تطور الرأسمالية، وقد أضحى الأمر أكثر خطورة في المرحلة الأخيرة بعد أن اتسع إطار الإنتاج الرأسمالي وبعد أن بدأ خطوات جديدة كبرى، أي بعد أن بُدِئ بالتصنيع في البلاد، وتقرر أن يجري تغيير هذه العلاقات، وبُدِئ برأيي بحث الأشكال، أشكال هذا التغيير. فما هي هذه الأشكال التي يبحث أمرها؟

طرق الإصلاح الزراعي وأشكاله

إن الماركسية اللينينية تعلمنا، في أوضاع بلاد مثل بلادنا حالياً أن النضال الرئيسي في ميدان "العلاقات العقارية" إنما يتم ضد الملكيات الإقطاعية الكبيرة، حيث الملكيات التي هي أقوى نقطة استناد لبقايا الإقطاعية في بلادنا، وبالتالي للمستعمرين. كذلك تعلمنا الماركسية اللينينية أن "تطور الاقتصاد البضاعي والرأسمالية سيضع نهاية بصورة محتومة جداً لهذه البقايا" ص21. ويشير لينين، والحديث هنا عن روسيا، إلى أنه "في هذا الميدان أمام روسيا طريق واحد هو طريق التطور الرأسمالي" ص21. "ولكن أشكال هذا التطور يمكنها أن تكون اثنين، فبقايا الإقطاعية يمكنها أن تذهب بطريق إصلاح الاقتصادات الإقطاعية أو بطريق تصفية الملكية الإقطاعية، إما بطريق الإصلاح وإما بطريق الثورة" ص21، الطبعة الروسية. ثم يذكر لينين أن الشكل الأول هو الشكل

البروسي، وأن الشكل الثاني هو الشكل الأمريكي، وبرأيي أنه لا بأس الآن من ذكر بعض خصائص هذين الشكلين.

- **الشكل البروسي**: يُعَرِّف لينين هذا الشكل من الإصلاح الزراعي بأنه "فيه تتطور الاقتصادة الإقطاعية ببطء إلى اقتصادة برجوازية جونكرية، حاكمة على الفلاحين بعشرات السنين من آلام النهب والعبودية، هذا باستثناء أقلية ضئيلة من كبار الفلاحين" ص22. وفي هذا الشكل من التطور تتحول اقتصادات الإقطاعية الكبيرة تدريجياً أكثر فأكثر إلى اقتصادات برجوازية، وتغير تدريجياً العلاقات الإقطاعية بطرق الاستثمار البرجوازي.

- **الشكل الأمريكي**: أما في الشكل الأمريكي فالاقتصاد الإقطاعي تحطمه الثورة، يحطم بثورة تصادر أملاك الإقطاعيين، ويتملك الفلاح في مثل هذا الوضع، حائزاً بصورة استثنائية عميلاً للأعمال الزراعية، ومتطوراً إلى صاحب مزرعة رأسمالية. (لينين، **البرنامج الزراعي**، ص22). والتطور الرأسمالي في هذا الشكل يمكن أن يسير كذلك وفي رأسه الاقتصادات الفلاحية الصغيرة، التي تنتزع الملكيات الإقطاعية المتضخمة بالطريق الثوري من العضوية الاجتماعية، وتتطور فيما بعد بحرية ودونها في طريق الزراعة الرأسمالية.

ومعروف بصورة واضحة أن السير على هذه الشكل من التطور، تطور الرأسمالية وتطور القوى المنتجة، هو أسرع وأوسع من تطورهما في ظل الشكل الأول البروسي.

هذه هي الأشكال التي بُحثت، هذا إذا كانت الأشكال قد بُحثت من أجل القيام بالإصلاح الزراعي في مصر وفي سورية، وليس ممكناً أن تكون قد بُحثت أشكال أخرى، كأن يتساءل مثلاً أحد الإخوان: أ لم تُبحث مثلاً مسألة التأميم، من أجل إفساح مجال أوسع وأرحب لتطوير الرأسمالية؟ ومع أنني، كما قلت، أستبعد أن تكون قد بُحثت كحل من الحلول مسألة التأميم، فإنني أرى من المفيد أن نستعرض مفهوم التأميم من وجهة نظر الماركسية اللينينية.

التأميم بمفهومه الماركسي

إن لينين في مؤلفه: (**البرنامج الزراعي للاشتراكية الديمقراطية**) يعير مسألة التأميم، تأميم الأرض، اهتماماً كبيراً. وهو يبين بصورة عملية أن التأميم إنما هو في جوهر مطالب الفلاحين. هذا من ناحية،

ومن ناحية ثانية بأنه عمل يجري ضمن نطاق العلاقات الرأسمالية. ويقول لينين: *"وبالتالي فإن مفهوم تأميم الأرض منظوراً إليه على تربة الواقع الاقتصادي هو فئات مجتمعات بضاعية ورأسمالية"*. ثم يقول أيضاً: *"تأميم الأرض في ظل العلاقات الرأسمالية هو نقل الريع العقاري للدولة لا أكثر ولا أقل"*. ص76.

ثم يبين لينين أن النظرية حول التأميم مرتبطة فقط مع النظرية حول الريع، باعتبار هذا الريع دخلاً ذا مظهر خاص لطبقة خاصة (مالكي الأرض في المجتمع الرأسمالي). والتأميم، كما يبين لينين، إنما يُغيِّر فقط مالك الريع الفوقي، وينسف الريع المطلق، ص79. وهو بالنتيجة إصلاح جزئي من جهة في حدود الرأسمالية (تغيير مالك أحد أجزاء القيمة الزائدة)، وهو من جهة ثانية إلغاء الاحتكار، الذي يضايق كل تطور الرأسمالية بصورة عامة.

شروط تحقيق التأميم

ثم بعد أن يحلل لينين موضع التأميم، فيبين أنه يجري ضمن إطار العلاقات الرأسمالية، يعود فيعير اهتماماً للشروط التي بموجبها أو في ظلها يتحقق التأميم. إنه يبيِّن أن البرجوازية تنظر إلى التأميم، وإن كان هذا التأميم "فكرياً" تطوراً معرفاً للرأسمالية في الأعمال الزراعية، نظرة خوف، لأن مقاييس التقدم البرجوازية، كمقاييس برجوازية، يمكن التفكير بها عند احتدام النضال الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية.

كذلك يبين لينين *"أن البرجوازية الغنية، التي عملت قبل أن تكون البروليتاريا قد تكونت في طبقة لذاتها، هي شيء، وهي بعد تطور البروليتاريا شيء آخر"*. ثم يستشهد لينين بقول لماركس جاء فيه: *"لذلك فالبرجوازي الراديكالي يصل نظرياً إلى نفي الملكية الفردية على الأرض... ولكنه في التطبيق العملي تنقصه الشجاعة، ذلك لأن الهجوم على أشكال التملك، الشكل الخاص للتملك الفردي على شروط العمل هي خطرة جداً على الشكل الآخر"*. ص100.

كذلك يذكر لينين سببين لخوف البرجوازي من التأميم:

أولاً- بأن الشجاعة تنقص البرجوازي الراديكالي للهجوم على التملك الفردي للأرض، لأن هذا يشكل خطر الهجوم الاشتراكي على كل أنواع التملك، أي خطر الانقلاب الاشتراكي.

ثانياً- إن البرجوازي نفسه أضحى وقد تمركز على أرض، وبأنه استقر وارتبط على قطعة أرض، ويفسر لينين بأن ماركس عنى بقوله: *"إن البرجوازي قد تمركز على أرض، أي أن التملك الفردي على الأرض قد أضحى تملكاً برجوازياً أكثر مما هو تملك إقطاعي..."*.

وهكذا يبين لينين استناداً إلى ماركس وإلى التطور اللاحق، أن التأميم، وإن كان تدبيراً يجري ضمن إطار العلاقات الرأسمالية، فلن يلجأ إليه الرأسماليون، لأن الرأسماليين أو البرجوازيين يصبحون في مرحلة تطور الرأسمالية ممن تنقصهم الشجاعة.

بقي هناك سؤال بسيط: هو لماذا يخشى الاشتراكيون في بلادنا مثل هذا التدبير، إن لم يكونوا هم أنفسهم برجوازيين نفعيين؟ إن لم يكونوا هم أنفسهم لا يريدون الاشتراكية؟

برنامج الشيوعيين

ثم قد يخطر بالبال أن يُسأل: أ لم يبحث أمر البرنامج الزراعي، الذي طالما نادى به الحزب الشيوعي؟ ومثل هذا التساؤل مشروع، فالبرنامج الشيوعي المتعلق بالإصلاح الزراعي مشهور، ويدعمه ويؤيده كثيرون، وهو وارد بأشكال وصور وصيغ واضحة في العديد من وثائق الحزب: في مؤلفات أمينه العام الرفيق خالد بكداش، وفي جرائده ونشراته، وفي مختلف العهود، وهذا البرنامج ينص على ضرورة مصادرة أراضي الإقطاعيين وكبار الملاكين دون مقابل وتوزيعها على الفلاحين، مع مساعدة الدولة هؤلاء على استثمارها.

فقد جاء في كتاب الرفيق خالد "حزب العمال والفلاحين" في الصفحة 27: *"إن حزبنا هو حزب الإصلاح الزراعي لتأمين الأرض والمياه للفلاحين، لإعطاء أراضي الإقطاعيين وكبار الملاكين للفلاحين"*. وقد جاء فيه أيضاً في الصفحة 21 عند الحديث عن الإقطاعيين وكبار الملاكين: *"فأراضي هذه الطبقة هي التي نطلب إعطاءها للفلاحين"*.

وجاء أيضاً في خطاب للرفيق خالد الأمين العام للحزب ونائبه في البرلمان في أول خطبة له ألقاها في البرلمان في 3 تشرين الثاني سنة 1954 في الصفحة 17: *"أما قضية الفلاحين، وهم أكثرية الأمة، فمن الواضح أن على حلها لا يتوقف ازدهار الزراعة ورفع مستوى الفلاح فقط، بل يتوقف على حلها أيضاً ازدهار الإنتاج الصناعي نفسه. والحل*

الأمثل لهذه القضية هو تحرير الريف السوري من بقايا الإقطاعية وتأمين الأرض والمياه وأدوات الإنتاج لكل فلاح". وعقب الرفيق خالد: *"بأن هذا شيء لم نطمح طبعاً إلى قراءة نص عنه في البيان الوزاري"*. وواضح من المطالب أن الحزب الشيوعي كان يريد إصلاحاً ضمن إطار العلاقات الرأسمالية. ومع هذا فبرأيي أن النافذين لم ينظروا إلى هذا الحل، بل هم وجدوا شكلاً آخر لتبديل العلاقات، بصورة يوجِدون فيها علاقات أخرى بالطرق الأقل خطراً على مستقبل الرأسمالية، أي بالطرق التي تسد أو تمنع على الأقل فتح الطريق أمام الاشتراكية في سورية ومصر وفي الشرق العربي. فما هو الشكل الذي أوجدوه؟ إنه شكل تحديد الملكية في سورية. فلنعرف هذا الشكل ينبغي أن ننتقل إلى القانون، ولكنني قبل أن أعرض صورة عن هذا الحل أو من هذا القانون، أرى من المناسب، بل من الضروري، أن أعرض للرفاق هنا كيف استقبل الحزب صدور هذا القانون، وأية تعليقات أثيرت حوله وعنه، حتى قبل صدوره.

من حديث الرفيق خالد حول الأزمة ومسائل الشرق الأدنى

كانت مجلة **"قضايا السلم والاشتراكية"** قد نشرت مشاركة الرفيق خالد في أبحاث مسألة الأزمة في الصفحة 61، وقد جاء في هذا الحديث: *"إليكم بعض الكلمات عن الإصلاح الزراعي: يلاحظ في سورية ومصر اتجاهات لإضعاف نفوذ الملكيات العقارية الكبرى ذات الطابع الإقطاعي، وعلى العكس تنمو طبقة الكولاك، ويسند الأمريكيون هذه الاتجاهات. ولكن هذا جانب واحد فقط من المسألة، أما الجانب الثاني منها فهو أن جميع التدابير الموجهة لتحقيق الإصلاح الزراعي ظهرت غير فعالة، ومن هنا أهمية هذه المسألة، خاصةً بالنسبة لشعوب آسيا وإفريقيا..."*.

ثم يتساءل الرفيق خالد: *"هل يا ترى تملك البرجوازية الوطنية في البلدان التي تحررت منذ أمدٍ قريب إمكانية وقوى لحل المسألة الزراعية؟"* ويجيب الرفيق خالد بقوله: *"أعتقد أنها لا تملك، وهي لا تتمتع لا بالإمكانيات الاقتصادية ولا بالإمكانيات السياسية، من أجل هذا..."*.

ويطرح الرفيق خالد مسألة أخرى بقوله: *"إن المسألة المعنية تمتلك أهمية كبرى، خصوصاً عندما ننظر إليها من زاوية النظر التالية: هل*

تستطيع البرجوازية أن تنتزع من الطبقة العاملة حليفها الطبيعي، أم لا تستطيع؟" .

وإذا كنت سردت حديث الرفيق خالد بنصه الحرفي هنا فلأثير الانتباه، قبل البدء بتحليل القانون الصادر حديثاً، إلى المسائل التالية:

1)- محاولات تنمية الكولاك، التي يساندها الأمريكيون.

2)- عدم فعالية محاولات الإصلاح الزراعي، (لأن البرجوازية تخشى تطور المجتمع المقبل).

3)- عدم قدرة البرجوازية على حل المسألة.

4)- مسألة محاولات انتزاع الحليف من البروليتاريا، أي الفلاحين.

والآن على ضوء هذه الملاحظات يمكن الانتقال إلى القانون الزراعي الصادر، قانون تحديد الملكية.

يجب أن ننظر إلى القانون من وجهة نظر الماركسية – اللينينية.

- صدر كما قلت في 28 أيلول سنة 1958، أي منذ فترة قريبة.

- ينبغي دراسته على ضوء الماركسية – اللينينية، أي من وجهة نظر بروليتارية، وكل نظرة أخرى إليه ميتافيزيقية وخاطئة، وتدفع إلى مواقف خاطئة.

- الأمين العام للحزب والجريدة أعطيا الاتجاه الرئيسي في هذا الموضوع، وسنعود إلى حديث الرفيق خالد لجريدة "الأونيتا".

القانون

ننظر إليه من ناحيتين: الناحية الماركسية اللينينية، والناحية القانونية والقضائية، وهذه تابعة رئيسية لها، فقد يكون هناك أخطاء ونواقص وضعف صياغة وغير ذلك، وكل هذا لا يغير شيئاً في جوهر الموضوع.

شكلاً يتألف من 33 مادة. يؤلف شبه دستور. سيلحق به قوانين أخرى تحدد المهمات والاختصاصات والصلاحيات وغير ذلك. المواد 1 و2 و3 تحدد مساحة الأرض التي يمكن للمالك وعائلته (زوجه وأولاده) أن يتملكوها:

مع العائلة والأولاد من 300 إلى 460 هكتاراً من الأراضي البعل.

من 80 إلى 120 هكتاراً في الأراضي المروية.

ويمكن له أن يجمع أراضي مروية وبعلية، بنسب تتعادل والنسب

المحددة، فلا يستطيع أن يحتفظ إلا بـ40 هكتاراً مروياً + 150 بعلاً. وإذا كان متزوجاً وذا أولاد فبـ60 هكتاراً مروياً + 230 بعلاً.

تحديد وتضييق لا تصفية

هذه المواد هي نقطة الانطلاق والأساس، وهي تدل على المحاولات الرامية إلى التضييق على الإقطاع، وكما نرى فهنا في هذه العملية لا تجري أية محاولة لتصفية الإقطاعية، لا كما نطالب نحن، بل أيضاً وفق الأسلوب الأمريكي في الإصلاح، وهو الأسلوب الذي كنا تحدثنا عنه. هذا التضييق سيتم خلال 5 سنوات، أي بعملية بطيئة غير ثورية. خلالها يحتفظ المالك بالأرض وثمارها، وإن كان يدفع من محصولها جزءاً حددته المادة 8. بدل انتفاع مقداره 3 أرباع بدل الإيجار الذي يُحدد طبقاً للقانون.

المستثنى من المصادرة والانتزاع في المادة 7

أي الشركات المساهمة والجمعيات التعاونية التي تمتلك أكثر من الحد الأعلى من الأراضي التي تستصلحها لبيعها، وذلك وفق القوانين والأنظمة القائمة، المادة 7.

إن هذه المادة السابعة توضح الطبيعة الرأسمالية في القانون، إذ تسمح للشركات الصناعية وللجمعيات العلمية بامتلاك ما فوق الحد. وعند قراءتي لهذه المادة فكرت أكثر من مرة: أ ليس في هذا القانون محاولات لتحويل الإقطاعيين إلى رأسماليين "عنوةً" بوسائل الضغط القانوني. أي إجبارهم على أن يساهموا في تطبيق الأسلوب البروسي في الإصلاح الزراعي، كأن يشكلوا جمعيات، ويعملوا في الصناعة وغير ذلك...؟

والنتيجة الثانية برأيي للقانون هي التعجيل في التطور الرأسمالي، وفي تحويل الإقطاعيين إلى رأسماليين، في تطبيق الطريقة البروسية، مع عملية تعجيل بها نظراً لمتطلبات الوضع.

الأخذ بعد تعويض

يدل على هذا أن أخذ الفائض من الأرض سيتم لقاء تعويض، تعويض يعادل إيجار 10 سنوات، تدفع خلال 40 سنة، ويدفعها الفلاح. التعويض حدده القانون في المواد 9 و10.

دافع التعويض

ودافع هذا التعويض هو الفلاح وورثته، فخلال 40 سنة عليهم أن يعملوا لدفع ثمن الأرض، وهذه تعادل التعويض عن الأرض مع 10% إضافة لصندوق الحكومة، أي أن هذا الإصلاح، الذي ستستفيد منه البرجوازية الصاعدة باعتباره، إلى حدٍ ما، خفف من حدود الاحتكار على الأرض، سيقع عبئاً وضريبة على الفلاح، مثلاً المادة 25.

وقد اخترعت "الجمعيات التعاونية" في القرى، هذه التعاونيات التي تجري في نطاق الرأسمالية، أي التي لا يمكن أن تكون أداة لبناء الاشتراكية، من أجل سداد ثمن الأرض للإقطاعيين المراد تحويلهم عن طريق التضييق عليهم إلى رأسماليين، إلى برجوازيين...

المادة 29: تقوم الجمعية ببيع المحصولات الرئيسية لحساب أعضائها، على أن تحسم من ثمن المحصولات أقساط ثمن الأرض والسلف الزراعية والديون الأخرى.

وهذا يبين حقيقة المقصود بالدرجة الأولى بالجمعية التعاونية. وهكذا كما نرى:

أولاً- إن القانون لم يلغ العلاقات الإقطاعية، بل هو حددها، وهو يعمل للتضييق عليها.

ثانياً- إنه يعمل على فتح الطريق بصورة أوسع أمام الرأسمالية.

ثالثاً- إنه، وهذا رأيي، يعمل على دفع الإقطاعيين لأن يصبحوا رأسماليين لقاء أموال كثيرة.

رابعاً- يُحمِّل الفلاحين لفترة طويلة، عبء العمل للتعويض على إقطاعيين نهبوا البلاد، وأعاقوا تطورها خلال أجيال، وما يزالون ركيزة كبرى للاستعمار.

وهذا كله يدل على لافعالية هذا المحدود، على أن نطاقه ضيق، ولكن كيف ينبغي أن ننظر إلى هذا القانون؟

إن أبلغ نظرة إليه هي النظرة التي حددها الرفيق خالد في حديثه للجريدة الإيطالية "أونيتا"، إذ جاء فيه: *"... أشرنا ونشير إلى ضرورة العمل من أجل رفع مستوى حياة الشعب وتحقيق الإصلاح الزراعي ومطالب الشعب الأخرى، وبهذه المناسبة ينبغي الملاحظة بأن قانون تحديد الملكية الذي صدر لأمدٍ قريب في سورية هو خطوة هامة إلى*

أمام.. فإذا طبق هذا القانون بصورة صحيحة، فإن نتائجه ستخدم سريعاً إلى حدٍ ما، الوضع الاقتصادي في البلاد ولكن ما لا مجال للجدل فيه أن تطبيق هذا القانون صعب، ولكن على كل فإن التعاون بين جميع القوى الوطنية التقدمية، ويقظة جماهير الفلاحين النشيطة، يمكنها أن تكون عوامل أساسية في تطبيق الإصلاح الزراعي".

وكذلك في مقالة **(الأزمة ومسائل الشرق الأدنى - خالد بكداش)**، الصادرة في العدد الأول من **(قضايا السلم والاشتراكية)**: *"... إليكم بعض الكلمات عن الإصلاح الزراعي، يلاحظ في سورية ومصر اتجاهات لإضعاف نفوذ الملكيات العقارية الكبرى ذات الطابع الإقطاعي. وعلى العكس تنمو طبقة الكولاك، ويسند الأمريكيون هذه الاتجاهات. ولكن هذا فقط جانب واحد من القضية. والجانب الثاني منها في أن جميع التدابير الموجهة لتحقيق الإصلاح الزراعي ظهرت غير فعالة، ولهذا السبب تمتلك هذه المسألة أهمية خاصة بالنسبة لشعوب آسيا وإفريقيا. هل يا ترى تملك البرجوازية الوطنية في البلدان التي تحررت منذ أمدٍ قريب إمكانية وقوى لحل المسألة الزراعية؟ إنني أعتقد أنها لا تملك، وهي لا تتمتع بالإمكانات الاقتصادية ولا بالإمكانات السياسية من أجل هذا.*

إن المسألة المعنية تمتلك أهمية كبرى خصوصاً عندما ننظر إليها من زاوية النظر التالية: هل تستطيع البرجوازية أن تنتزع من الطبقة العاملة حليفها الطبقي أم لا تستطيع؟! إن تجربة الأحزاب الشيوعية الشقيقة تسمح بالقيام باستنتاجات نظرية محددة في هذا الميدان. ومجلتنا، كما أعتقد، عليها أن تجد وسيلة لمناقشة هذا الموضوع..."، ص61.

ولا شك أن دانيال نعمة أسهم إسهاماً جوهرياً في وضع برنامج الحزب الشيوعي في القضية الزراعية الصادر عام 1960، والذي قيّم تفصيلياً قانوني الإصلاح الزراعي والعلاقات الزراعية بعد عامين من صدورهما.

الفصل الثاني
مشروع برنامج الحزب الشيوعي السوري
من أجل إصلاح زراعي جذري

نشرت جريدة "نضال الشعب" في أواخر أيار 1963 مشروع برنامج للإصلاح الزراعي، ننشره كما ورد، علماً أن دانيال نعمة كان من أبرز محرريها والمشرفين عليها، وهو المسؤول في قيادة الحزب عن السياسة الزراعية، وكانت الجريدة تطبع وتوزع بصورة سرية في تلك المرحلة. وفي ما يلي ما جاء في الجريدة:

"الشيوعيون السوريون يؤيدون الإصلاح الزراعي الحالي (الصادر في 30 نيسان 1962)، ويطالبون بتطبيقه، وفي الوقت نفسه يناضلون في سبيل إصلاح زراعي جذري، يقضي تماماً على بقايا الإقطاعية، ويؤمن الأرض لجميع الفلاحين".

وضع الحزب الشيوعي السوري مشروع برنامجه لحل القضية الزراعية في سورية العربية، وفيه يشرح الحزب موقفه من الإصلاح الزراعي الحالي الجاري تطبيقه، كما يبين الطريق لحل القضية الزراعية حلاً كاملاً، وذلك بإجراء إصلاح زراعي جذري، وسوف ينشر الحزب النص الكامل لهذا المشروع في كراس خاص، وننشر الآن في ما يلي خلاصة لهذا المشروع مع النص الكامل للقسم الذي يعرض المطالب والتدابير، التي يعتقد الحزب أنه لا بد منها لتحقيق إصلاح زراعي جذري يتفق مع أماني جماهير الفلاحين الواسعة في بلادنا.

إن نضال الفلاحين في سورية العربية ضد الاستثمار الإقطاعي وفي سبيل الأرض هو نضال قديم، فكما أن الفلاحين قاموا بدور كبير في النضال ضد الاستعمار منذ الثورة السورية عام 1925، وقبلها وبعدها، فهم كذلك جابهوا الإقطاعية، بنضال مستمر اتخذ مختلف الصور والأشكال، وقد لقي نضال الفلاحين تأييداً واسعاً من جماهير العمال الواعين وجميع العناصر التي تريد لبلادها التقدم.

وقد ناضل الحزب الشيوعي السوري دائماً في سبيل مطالب الفلاحين، ودعم نضالهم، ونادى الحزب الشيوعي منذ البدء بضرورة القيام بإصلاح زراعي جذري وتصفية بقايا الإقطاعية في الريف تصفية تامة، وذلك بمصادرة أراضي الإقطاعيين دون مقابل، ودون أي تعويض، وتأمين الأرض ووسائل استخدامها لجميع الفلاحين المحرومين من الأرض، والفلاحين الذين يملكون القليل منها.

وعندما صدر قانون الإصلاح الزراعي الأول في أيلول عام 1958، أعلن الحزب الشيوعي السوري موقفه منه بكل صراحة، فقد أيد القانون، وقال إن هذا القانون إذا طبق في جو من الحرية والديمقراطية وبمساهمة جماهير الفلاحين، فهو، وإن كان لا يؤدي إلى حل القضية الزراعية في سورية حلاً جذرياً، سيوجه على كل

حال ضربة قوية للإقطاعية، ويكون خطوة هامة إلى أمام في طريق تطور البلاد وتقدمها، وجاءت الحوادث، فصدَّقت تماماً صحة موقف الحزب الشيوعي السوري، فإن تطبيق القانون في ظل الديكتاتورية وحكم المباحث، لم يُعطِ خلال ثلاث سنوات نتائج محسوسة ذات شأن. ورغم الإرهاب في ذلك العهد، قام الحزب الشيوعي بواجبه، وبيَّن نواقص القانون، كما فضح أساليب التحايل والبطء في تطبيقه، ودعا الجماهير إلى النضال في سبيل تنفيذ القانون تنفيذاً صحيحاً، كما دعا إلى متابعة النضال في سبيل إصلاح زراعي جذري، يصفي جميع بقايا الإقطاعية في الريف السوري.

وحينما حاولت الرجعية بعد 28 أيلول 1961، أن تقضي على الإصلاح الزراعي، هبَّ الحزب الشيوعي السوري مع جميع التقدميين، لفضح أغراض الرجعية، والدعوة إلى الاتحاد للنضال في سبيل إحباط أغراض الرجعية، والسير إلى أمام في تطبيق الإصلاح الزراعي. وبالفعل، استطاع اتحاد القوى التقدمية إجبار الرجعية على التراجع، وأُعيد قانون الإصلاح الزراعي في 30 نيسان 1962، ثم بفضل وعي الفلاحين ونضالهم وتأييد الشيوعيين وجميع التقدميين لهذا النضال أمكن السير خطوات هامة في تنفيذ الإصلاح الزراعي، ولكن حتى الآن لم ينجز تطبيقه تماماً.

وفي جميع المراحل حتى الآن، طالب الحزب الشيوعي السوري، ويطالب بتطبيق قانون الإصلاح الزراعي بحزم وسرعة، ومنع كل محاولة لخرق القانون في مصلحة الإقطاعيين، كما طالب ويطالب بإجراء تعديلات في القانون لمصلحة الفلاحين، وذلك بتخفيض الحد الأقصى للملكيات الإقطاعية، وحذف كل زيادة بحجة الزوجات والأولاد، وإعفاء الفلاحين من دفع ثمن الأرض، ومن دفع أي تعويض للإقطاعيين ومن أية نفقات أخرى لقاء قطعة الأرض التي توزع على المنتفعين، سواء كانت هذه القطعة من أراضي الاستيلاء أم من أراضي أملاك الدولة. كما أن الحزب الشيوعي طالب ويطالب بالسماح لجماهير الفلاحين عن طريق لجان ينتخبونها بأنفسهم بالإشراف على تنفيذ قانون الإصلاح الزراعي والمساهمة في تطبيقه.

وفي الوقت ذاته، دافع الحزب الشيوعي ويدافع عن سائر المطالب الأخرى التي من شأنها تحسين حالة الفلاحين، سواء كانوا من المنتفعين بقانون الإصلاح الزراعي أم لم يكونوا، وفي رأس هذه المطالب منع طرد الفلاحين من الأرض منعاً باتاً مطلقاً، وزيادة حصص الفلاحين العاملين بالمحاصصة على أراضي كبار الملاكين التي لم توزع بعد، أو لا يشملها قانون الإصلاح، وزيادة أجور العمال الزراعيين، وتحرير الجمعيات التعاونية الزراعية، التي نص عليها قانون الإصلاح الزراعي المعمول به، من تدخل أجهزة الدولة، وتأمين حرية تشكيلها على أسس ديمقراطية، وضمان حرية الفلاح في الانتساب أو عدم الانتساب إليها، وإنقاذ جماهير الفلاحين من نهب المرابين والمصارف، ومنحهم مساعدات وقروضاً بدون فائدة أو بفائدة قليلة.

هكذا كان ولا يزال موقف الشيوعيين السوريين من قانون الإصلاح الزراعي الحالي ومن مختلف مطالب الفلاحين. غير أن الحزب الشيوعي السوري له في الوقت نفسه برنامج يهدف إلى حل القضية الزراعية حلاً كاملاً في سورية العربية، وهو برنامج الإصلاح الزراعي الجذري. وفيما يلي نص مشروع هذا البرنامج، الذي يعرضه الحزب على جميع الرفاق والأصدقاء وعلى جماهير الفلاحين، وهو واثق من أنه سينال التأييد الواسع، كما أن الحزب يتلقى بسرور كل ملاحظة أو اقتراح حول هذا المشروع إلى أن تصدقه هيئات الحزب المختصة.

نص مشروع برنامج الحزب الشيوعي السوري من أجل إصلاح زراعي جذري

إن الإصلاح الزراعي، الذي يجري تنفيذه الآن (أواخر 1962 وأوائل 1963) في سورية، هو دون ريب خطوة تقدمية هامة، ومن واجب كل شيوعي وكل وطني ديمقراطي، مهما كان اتجاهه، أن يؤيد هذا الإصلاح، وأن يناضل في سبيل تطبيقه، وفي سبيل تطبيق جميع التدابير الأخرى، التي من شأنها أن تساعد الفلاحين المنتفعين منه على السير في استثمار الأرض التي نالوها، ورفع الأعباء التي ترهق كاهلهم.

ولكن من الواضح أن الإصلاح الزراعي الحالي (الصادر في 30 نيسان 1962) حتى لو جرى تطبيقه تطبيقاً تاماً، فإنه لن يؤدي إلى حل القضية الزراعية في سورية حلاً جذرياً، فهو يزعزع أسس الملكية الإقطاعية، ويوجه إليها ضربة قوية، ولكنه لا يؤدي إلى تصفية بقايا الإقطاعية تصفية كاملة.

وفي الواقع، إذا نظرنا الآن إلى القرى التي جرى فيها الإصلاح الزراعي، رأينا أن قسماً من الفلاحين نالوا أرضاً، وأصبحوا ملاكين، بينما أن قسماً آخر من الفلاحين لا يزالون محرومين من الأرض، ويعملون على الأراضي التي بقيت للإقطاعيين غالباً كمحاصصين، أو كعمال زراعيين يستثمرهم الملاك الكبير بالأسلوب الرأسمالي.

وحتى بعد تطبيق هذا الإصلاح تطبيقاً كاملاً، يبقى في سورية نحو 9 آلاف إقطاعي، يتصرفون بالنصف الأخصب والأجود من الأراضي البعلية، وبنحو ثلث الأراضي المروية. أما العائلات الفلاحية التي تكون قد نالت أرضاً بعد الانتهاء من تطبيق الإصلاح الزراعي، فعددها لا يتجاوز 50 إلى 60 ألف عائلة، أي يبقى في البلاد نحو 300 ألف عائلة فلاحية، إما محرومة غالباً من الأرض، وإما تملك قطعة أرض صغيرة لا تكفي لمعيشتها، فلا بد من إصلاح زراعي جذري يصفي بقايا الإقطاعية تصفية تامة، ويؤمن الأرض لجميع الفلاحين.

ولذلك، فإن الحزب الشيوعي السوري، منطلقاً من مصالح أوسع جماهير الفلاحين وكل الشعب، ومستجيباً لمتطلبات التطور في المجتمع العربي السوري، يتقدم بمشروع البرنامج التالي لحل القضية الزراعية حلاً جذرياً، وهو برنامج تحولات أساسية في العلاقات الزراعية من شأنها تصفية جميع بقايا الإقطاعية في

الريف، وفتح المجال لتطور القوى المنتجة ورفع مستوى معيشة جماهير الفلاحين بصورة أساسية.

برنامج الإصلاح الزراعي الجذري

المادة 1- مصادرة أراضي الإقطاعيين وكبار الملاكين دون أي تعويض، وتوزيعها مجاناً على الفلاحين الفقراء، الذين لا يملكون أرضاً، أو يملكون قطعة أرض صغيرة غير كافية للقيام بأودهم وأود عيالهم، أما الملاك الذي تخضع أراضيه للمصادرة، فتترك له قطعة أرض مع الوسائل اللازمة لزراعتها، وذلك بمقدار يكفي لمعيشته ومعيشة عائلته.

المادة 2- جميع الوسائل اللازمة للاستثمار، التي يملكها الإقطاعيون وكبار الملاكين (كالمياه والأبنية اللازمة للزراعة، والمواشي الزراعية، والتراكتورات وغيرها من الآلات) تُصادَر، وتوضَع تحت تصرف اللجان الفلاحية لاستخدامها لمصلحة الفلاحين الكادحين.

وهذا الإصلاح الزراعي لا يشمل أراضي الفلاحين الأغنياء، شريطة أن يستثمروا اقتصادياتهم استثماراً حسناً، وأن يحترموا حقوق العمال الزراعيين والفلاحين، الذين يعملون عندهم في أرضهم.

المادة 3- تأمين اشتراك جماهير الفلاحين في تحقيق الإصلاح الزراعي، وذلك بوضع جميع التدابير المؤدية إلى تنفيذ الإصلاح الزراعي، وخصوصاً مصادرة الأراضي وتوزيعها، تحت إشراف لجان فلاحية، يشكلها الفلاحون أنفسهم على أساس انتخابات ديمقراطية.

المادة 4- إطلاق الحريات الديمقراطية في الريف (حرية الكلام والنشر والصحافة والاجتماعات والمظاهرات... إلخ)، لكي تستطيع جماهير الفلاحين قول كلمتها في جميع المسائل التي تتصل بمصالحها، والدفاع عن حقوقها ضد كل استبداد أو سوء استعمال أو تشويه في تنفيذ الإصلاح الزراعي.

المادة 5- ينبغي على الدولة من أجل زيادة الإنتاج الزراعي ورفع مستوى معيشة الفلاحين، أن تؤمن للفلاحين الكادحين، الذين حصلوا على قطعة أرض نتيجة الإصلاح الزراعي، جميع الوسائل الضرورية لاستثمار أرضهم كالبذار والسماد والآلات والأدوية لإبادة الحشرات، ووسائل مكافحة أمراض النباتات وما إلى ذلك.

المادة 6- الاستفادة من الأنهار ومجاري المياه بإقامة السدود وإنشاء شبكة واسعة من أقنية الري لتوسيع رقعة الأراضي المروية ورفع الإنتاج الزراعي، وإنقاذ الفلاحين السوريين نهائياً من أخطار المحل والجفاف.

المادة 7- مساعدة الفلاحين على أن يشكلوا بحريتهم واختيارهم جمعيات تعاونية على اختلاف أنواعها ودرجاتها، وينبغي تشكيل هذه الجمعيات على أساس ديمقراطي، وتأليف لجانها الإدارية عن طريق الانتخاب، وينبغي أن يؤمن للفلاح حق الخروج من الجمعية التعاونية في أي وقتٍ شاء.

المادة 8- تحرير الفلاحين من نير المرابين والوسطاء، وتأمين شبكة واسعة من

مؤسسات التسليف، تُنشِئها الدولة لتقديم قروض بفائدة قليلة إلى الفلاحين الفقراء والمتوسطين، وكذلك عند الضرورة للفلاحين الميسورين.

المادة 9- تحرير اقتصادنا الزراعي تحريراً كاملاً نهائياً من استثمار الاحتكارات والمصارف الأجنبية.

المادة 10- اتخاذ التدابير السريعة لتحسين أوضاع الريف صحياً وثقافياً واجتماعياً بشكل جذري: بناء شبكة واسعة من الطرق، الاهتمام بعمران القرى، تأمين الطبابة المجانية، تزويد القرى بالمياه الصالحة للشرب وبالنور الكهربائي، زيادة عدد المدارس وغير ذلك.

المادة 11- تأمين تصريف الفائض من منتجات الفلاحين بأسعار عادلة، وينبغي لهذه الغاية توسيع علاقاتنا الاقتصادية والتجارية مع البلدان الصديقة، وفي طليعتها البلدان الاشتراكية، هذه العلاقات القائمة على أساس المساواة والفائدة المتبادلة.

المادة 12- اتخاذ التدابير لرفع المستوى الفني للزراعة السورية، وذلك بإدخال أحدث الأساليب الجديدة، وخصوصاً فيما يتعلق بزراعة القطن والحبوب، وتهيئة الملاكات وإعداد الخبراء والفنيين الزراعيين وحماية المواشي وزيادتها بتأمين العلف والمياه والملاجئ لقطعان المواشي، وخصوصاً للأغنام.

إن تحقيق هذا البرنامج ينقذ الفلاحين السوريين من بقايا الإقطاعية ومن جميع مخلفات الاستعمار، ويحرر القوى المنتجة، خصوصاً في الريف، من أساليب القرون الوسطى، ويفتح المجال لتطور الزراعة السورية في طريق التعاون الاشتراكي، الذي هو الطريق الوحيد القادر على حل القضية الزراعية بشكل حاسم، وعلى إنقاذ جماهير الفلاحين الكادحين من التدهور والفقر، ورفع مستواهم إلى مستوى حياة رخاء وثقافة.

ومن الواضح أن الطريق لتحقيق هذا البرنامج الزراعي، هو التحالف الوطيد بين العمال والفلاحين وسائر القوى الديمقراطية بقيادة الطبقة العاملة، وقيام جميع الوطنيين التقدميين بنضال حازم حاسم ضد الاستعمار والإقطاعية وسائر قوى الرجعية، في سبيل نظام حكم وطني ديمقراطي راسخ الأسس، في سبيل دولة الديمقراطية الوطنية.

إن النضال بنجاح في سبيل الإصلاح الزراعي الجذري، وكذلك في سبيل جميع مطالب الفلاحين المباشرة، يتطلب وضوحاً تاماً حول القوى الاجتماعية في الريف، حول مختلف الفئات التي تتألف منها جماهير الفلاحين.

إن القوة الرئيسية ضد الاستعمار والإقطاعية في الريف السوري هي العمال الزراعيون وجماهير الفلاحين الفقراء، التي تتألف من الفلاحين المعدمين المحرومين من الأرض (المحاصصين والأجراء)، ومن الفلاحين الذين يملكون قطعة أرض صغيرة، لا يكفي دخلها للقيام بأودهم وأود عيالهم. وتؤلف الجماهير الفلاحية الفقيرة الأكثرية العظمى من سكان الريف السوري، ويهمها دون أي تحفظ تحقيق إصلاح زراعي جذري حازم، ومحو بقايا الإقطاعية محواً تاماً، والسير دائماً إلى أمام في طريق التقدم الاجتماعي.

إن هذه الجماهير الفلاحية الفقيرة تؤلف الحليف الأمين، الذي لا بديل عنه لعمال المدن، في النضال ضد الاستعمار والإقطاعية، في سبيل الاستقلال الوطني وفي سبيل الديمقراطية والاشتراكية. إنها تؤلف القوة الرئيسية، التي يجب أن يستند إليها الشيوعيون في نشاطهم في الريف، فعلى مدى وعي الجماهير الفلاحية الفقيرة، وعلى مدى تنظيمها ومدى استعدادها للمساهمة في النضال جنباً إلى جنب مع عمال المدن، يتوقف مدى النجاح في اجتذاب فئات الفلاحين الأخرى، وخصوصاً الفلاحين المتوسطين، إلى النضال الوطني الديمقراطي العام.

إن الفلاحين المتوسطين، الذين يؤلفون قسماً هاماً من سكان الريف السوري، من مصلحتهم كذلك تحقيق إصلاح زراعي جذري، فاجتذابهم إلى النضال بجانب الجماهير الفلاحية الفقيرة هو من أكبر المهام التي تجابهها الحركة الديمقراطية التقدمية في سورية.

أما البرجوازية الريفية، أي فئات الفلاحين الأغنياء، فهي تتميز بالازدواج في موقفها، فهي تريد تصفية امتيازات الإقطاعيين، ولكن لكي تحل هي محلهم من حيث السيطرة في الريف، ولكي تمعن في استثمار العمال الزراعيين والفلاحين الفقراء. ورغم هذا، فمن الممكن، ومن المفيد، القيام بأعمال مشتركة مع فئات من البرجوازية الريفية في هذه المنطقة أو تلك، وكذلك على النطاق الوطني، وذلك خصوصاً حول قضية معينة ملموسة، ومن الأهمية بمكان عدم المزج، كما يحدث أحياناً، بين البرجوازية الريفية وبين الإقطاعيين.

إن الفلاحين في نضالهم من أجل الأرض ومن أجل مطالبهم المباشرة، يتمتعون بتأييد الشعب بأسره، وخصوصاً بتأييد الطبقة العاملة السورية، لأنها الطبقة الاجتماعية التي تناضل بلا هوادة ضد قوى الاستعمار والإقطاعية، ويهمها تحرير المجتمع العربي السوري من جميع أشكال الاستثمار والاضطهاد الاجتماعي والانتقال إلى طريق التطور الاشتراكي، ولهذا فالطبقة العاملة يهمها بطبيعة الحال تحرير الفلاحين تحريراً كاملاً وتأمين حياة رفاه وثقافة لهم.

إن موقف الطبقة العاملة من جماهير الفلاحين وحقوقهم ومطالبهم إنما يجد تعبيره الأوضح والأكمل في موقف الحزب الشيوعي السوري، الذي دعا دائماً إلى إجراء إصلاح زراعي جذري، وناضل دائماً في سبيل تصفية بقايا الإقطاعية في الزراعة تصفية تامة وفي سبيل جميع مطالب الفلاحين.

إن الطريق لتحقيق جميع مطالب الفلاحين الكبرى منها أو الجزئية، هو طريق التحالف الوطيد بينهم وبين الطبقة العاملة، المدعوة لأن تكون القوة المحركة الأساسية لجبهة وطنية ديمقراطية تقدمية شاملة تجمع جميع القوى الحية الشريفة في سورية العربية.

إن تجربة الحياة قد برهنت، وهي تبرهن يومياً أن نضال الفلاحين السوريين في سبيل إصلاح زراعي جذري، وكذلك نضالهم اليومي في سبيل تحقيق مطالبهم الاقتصادية المباشرة، إنما هو نضال ممتزج امتزاجاً عضوياً بالنضال العام، الذي يقوم به الشعب السوري في سبيل توطيد استقلاله الوطني، ورد مؤامرات

المستعمرين ومكائد الطامعين، وتوطيد الحرية والديمقراطية، والسير في طريق التقدم الاجتماعي، طريق الديمقراطية الوطنية والاشتراكية.

الفصل الثالث

في سبيل إصلاح زراعي جذري يصفّي بقايا الإقطاعية تماماً ويؤمن الأرض دون مقابل لجميع الفلاحين المحتاجين للأرض

في أب 1963 نشر دانيال نعمة في العدد الخامس من جريدة "حياة الحزب" السرية دراسة حملت عنوان هذا الفصل.

لم تكن الدراسة تحمل اسم كاتبها نظراً لظروف الإرهاب السائد آنذاك، الذي طال جهات كثيرة، وفي مقدمتها الشيوعيون، وقد كتب دانيال في زمن متأخر اسمه تحت هذه المقالة إشارةً إلى أنه كاتبها، وحفظ المقالة بين أوراقه، وننشر المقالة بنصها الحرفي هادفين إلى إطلاع القارئ على الجو السياسي الفكري السائد في أوساط الشيوعيين آنذاك. وفيما يلي النص الحرفي للمقالة:

"واجب جميع الشيوعيين السير في طليعة النضال، من أجل تطبيق قانون الإصلاح الزراعي الحالي تطبيقاً صحيحاً، مع العمل المستمر لتنوير جماهير الفلاحين وتجنيدها للنضال".

مدخل إلى الموضوع

في أواخر شهر أيار المنصرم (من عام 1963) صدر العدد الثالث والعشرون من "نضال الشعب"، وهو يتضمن خلاصة مشروع برنامج حزبنا الشيوعي من أجل إصلاح زراعي جذري، وقد وزع هذا العدد بالألوف في مختلف مناطق البلاد، وتناقلته أيدي عشرات الألوف من المواطنين من فلاحين وعمال ومثقفين وعناصر تقدمية.

وفي أوائل شهر حزيران الماضي (1963) نشرت جريدة "الأخبار" اللبنانية النص الكامل لمشروع برنامج الحزب الشيوعي السوري في القضية الزراعية، وهو النص الذي يتضمن دراسة هامة حول معطيات القضية الزراعية في سورية، ومشاريع الإصلاح الزراعي التي وضعت، والإصلاح الذي ينبغي تطبيقه، كما يتضمن الحلول الواجب إتباعها لتصفية بقايا الإقطاعية تصفية تامة كاملة، وتأمين الأرض لجميع الفلاحين المحرومين من الأرض، والذين يملكون القليل منها.

ثم نشر أيضاً النص الكامل لمشروع البرنامج المذكور في العدد الرابع

والعشرين من "نضال الشعب"، الصادر في أوائل تموز 1963، كما نشر كذلك في كراس خاص طبع بالألوف، كل ذلك بسبب الأهمية البالغة التي ترتديها هذه الوثيقة الكفاحية، وإيصالها إلى أوسع فئات السكان، وخصوصاً إلى الفلاحين والعمال وإلى المثقفين والعناصر التقدمية المختلفة.

وبعد نشر مشروع برنامج الحزب في القضية الزراعية، صدر مرسوم حكومي بإدخال تعديلات جديدة على قانون الإصلاح الزراعي، الذي كان معمولاً به في الجمهورية العربية السورية.

وقد وضع هذا كله أمام الحزب بمجموعه، وأمام جميع هيئاته القيادية ومنظماته، وأمام جميع أعضائه، خصوصاً في المناطق الريفية والمتصلة مباشرةً بالريف، مهمات ضخمة في مختلف الميادين المتعلقة بالعمل في ميدان الفلاحين، ولكن لا بد قبل الحديث في هذه المهمات وطرق تنفيذها، من تزويد الرفاق جميعهم، وجميع مناضلي الحزب، ببعض الأفكار الضرورية حول مشروع برنامج الحزب في القضية الزراعية، وحول التعديلات الحكومية على قانون الإصلاح الزراعي.

برنامج مستمد من نشاط الحزب العملي ويستند إلى مبادئ الماركسية اللينينية

إن مشروع البرنامج، الذي تقدم به الحزب الشيوعي إلى أبناء الشعب من أجل حل القضية الزراعية في بلادنا حلاً ديمقراطياً في مصلحة الفلاحين، هو رغم أهميته، ورغم ما بذل فيه من جهد فردي وجهد جماعي، ليس عملاً نهائياً كاملاً تاماً، فهو لا يزال بحاجة إلى تحسين وإتقان وإلى معطيات كثيرة، ليجيء معبراً بدقة عن جميع متطلبات الوضع، ولهذا السبب طبعاً، تقدم به الحزب كمشروع للبرنامج لا كبرنامج نهائي، ومن هنا تنبع ضرورة قيام كل رفيق وصديق، وكل مهتم بقضايا التطور في البلاد، بدراسة هذا المشروع دراسة انتقادية والعمل على إغنائه وتحسينه عن طريق إرسال الملاحظات عليه إلى الهيئات الحزبية المختصة، ولكن هذا لا ينفي، بل هو يؤكد المسائل التالية:

***أولاً-** إن هذا المشروع هو مشروع كفاحي، وهو دليل للعمل والنشاط، ويمكن، بل ينبغي الاستناد إليه استناداً كلياً في نشاطنا العملي في الريف وفي جميع مناطق البلاد الفلاحية، أما التحسين الذي أشرنا إلى ضرورة إدخاله عليه، فينبغي أن يتم من خلال النضال العنيد المستمر المتجه إلى تحقيقه في الحياة.*

***ثانياً-** إن هذا المشروع، وما طرحه من مهمات عملية، قد استند إلى نشاط الحزب سنوات طويلة في أوساط الفلاحين وفي مختلف المناطق، ومن يقرأ هذا المشروع يلمس بصورة واضحة أن الكثير من المطالب الواردة فيه، إنما كانت مطالب يومية، كافح مناضلو الحزب ورفاقهم وأصدقاؤهم من أجلها في مختلف الظروف. لقد كان الحزب دائماً وأبداً القوة الطليعية الأولى، التي رفعت راية الكفاح من أجل تصفية الإقطاعية تصفية تامة عن طريق مصادرة أراضيها دون مقابل، وتوزيعها مجاناً على الفلاحين، ولا بد لكل منصف أن يقر أن الحزب الشيوعي كان هو وحده الذي طالب بهذا المطلب، يوم كان مفكرو "البعث" وفلاسفته لا يهتمون بهذه المسائل "المادية"، أو يوم كان يقتصرون، في الغالب، على المطالبة بإعطاء*

الفلاحين بعض أراضي أملاك الدولة. وهكذا يمكن القول: إن هذا المشروع إنما يستند إلى ماضٍ طويل من الكفاح والتجربة والبطولة في الدفاع عن الشعب، ولكن هذا لا يمكن أن يعني بأية حال أن المشروع الحالي لا يتضمن أي جديد. كلا، فهذا المشروع جاء تعميماً للتجربة السابقة ومرشداً للعمل، كما تضمن الكثير من المطالب الملموسة، التي تتطلبها ظروف البلاد وظروف كل منطقة من مناطقها تقريباً.

ثالثاً- *إن هذا المشروع اهتدى، في كل فصل من فصوله، وفي كل مطلب من مطالبه، بالنظرية الماركسية اللينينية، فهو تطبيق لها على واقع بلادنا وعلى ظروفها، وكل من يقرأ هذا المشروع يرى فيه آثار الروح العلمية، التي تدرس الواقع، وتعين الأهداف على ضوء حاجات التطور الموضوعي، ويرى فيه روح التفاؤل والإيمان بقدرة الجماهير على التحرر، كما يرى فيه أيضاً التطلع العلمي الرصين إلى مستقبلنا الزاهي الزراعي الوضّاء، إلى الاشتراكية العلمية.*

لقد قال مشروع برنامج الحزب في القضية الزراعية على نحو لا لبس فيه ولا إبهام، إن تحقيق المهمات التي حددها سوف تؤدي، بكل تأكيد، إلى تصفية بقايا الإقطاعية، وهي ستساعد على تحسين أحوال الفلاحين، ولكن هذا المشروع ذكّر الفلاحين، في الوقت ذاته، بأن الاشتراكية هي طريقهم نحو الحياة المزدهرة والسعادة الكاملة، وهكذا فإن المشروع لم يقم، ولم يقم واضعوه، بأية محاولة لخدع الفلاحين ودفعهم للاكتفاء بهذا الإصلاح.

وإذا كان مشروع برنامج الحزب الذي تقدم به للجماهير، لم يدخل في تفصيلات الانتقال إلى الاشتراكية في الزراعة، فذلك لأن تصفية بقايا الإقطاعية، التي ينبغي الآن تركيز كل الجهود عليها، هي الطريق التي لا بد من السير فيها بجرأة وإقدام من أجل بلوغ طريق الاشتراكية. ومن الواضح أن وصول الطبقة العاملة وممثليها الحقيقيين إلى الحكم، هو الذي يؤمن الإمكانيات لإنجاز الثورة الزراعية المنصوص عليها في مشروع برنامج الحزب، بشكل يفتح الطريق رحباً لانتصار الاشتراكية.

الجوانب الإيجابية والجوانب السلبية في تعديلات الإصلاح الجديدة

ذكرنا في مستهل هذه النشرة أن الحكومة أصدرت في أواخر شهر حزيران بعض التعديلات على قانون الإصلاح الزراعي، الذي كان معمولاً به في سورية. إن بعض هذه التعديلات حسّنت القانون، وجعلته أفضل من ذي قبل، ولكن مع ذلك فقد بقي في القانون عيوب كثيرة، كما استبعد الحكام الحاليون إدخال تعديلات جوهرية عليه طالما طالبنا نحن الشيوعيين بإدخالها عليه، وقبل الحديث بإسهاب في جميع هذه المواضيع، لا بد من كلمة في الظروف التي جرى فيها إعلان التعديلات على قانون الإصلاح الزراعي.

أولاً- *إن هذه التعديلات جاءت متأخرة جداً، فمن المعروف أن البعثيين وصلوا إلى الحكم قبل عدة أشهر، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً في ميدان الإصلاح الزراعي، وكان كل ما قاله الشعب عنهم إنهم أوقفوا عمليات الإصلاح الزراعي، وقابلوا كبار زعماء العشائر، وتآخوا معهم، ومنحوهم "شهادات" بالكفاح من أجل "الحرية والاشتراكية".*

ثانياً- *إن هذه التعديلات تمت بعد أن أخذ "البعث" يعاني عزلة رهيبة بسبب السياسة الإجرامية المعادية للمصالح الوطنية، التي ينفذها حكام العراق البعثيون الفاشيون، وبسبب محاولة بعض قادة البعث نقل مثل هذه السياسة إلى سورية، الأمر الذي أثار الخواطر، وجعل أبسط الناس يحسون بخطر الفاشية وتغلغل النفوذ الاستعماري، وخطر إقامة هلال خصيب يباركه الاستعمار، وترضى عنه شركاته البترولية، ويدعم عملية إبادة العناصر الديمقراطية، بل وعمليات إبادة شعب بأكمله كالشعب الكردي الشقيق.*

ثالثاً- *إن هذه التعديلات جرت في وقت أخذ فيه البعثيون يشعرون بأن الشعب بأسره غاضب على سياستهم، التي أدت إلى تدهور الاقتصاد الصناعي والزراعي وارتفاع موجة الغلاء وتعطل مصالح الأكثرية الساحقة من الأمة.*

رابعا- *إن هذه التعديلات جاءت في وقت كان فيه البعثيون ينفذون على نحو يتسم بالغدر أعمالاً خطيرة لتطهير الجيش والأجهزة الحكومية من العناصر التي تسير في ركابهم من بعض "حلفائهم"، الذين ساهموا في رفعهم إلى الحكم.*

خامساً- *إن هذه التعديلات جاءت في أعقاب قيام حزبنا الشيوعي بحملاته ضد تجميد الحكام البعثيين لأعمال الإصلاح الزراعي، وتوزيعه برنامجه المتعلق بالإصلاح الزراعي الجذري بألوف النسخ في مختلف مناطق البلاد.*

وهكذا يتبين مما ذكرناه آنفاً، أن الحكام البعثيين يتوخون من تعديلاتهم على قانون الإصلاح الزراعي تحقيق أكثر من هدف: السعي للخروج من العزلة التي يعانونها، ومحاولة استرضاء بعض جماهير الفلاحين وبعض أوساط الجيش ودفعهم على الأقل للسكوت عما يجري، وتغطية عملياتهم الانتقامية الموجهة ضد حلفائهم، ومحاولة إبعاد جماهير الفلاحين عن التحالف مع الطبقة العاملة والسير وراء حزبها الشيوعي. ولكن بغض النظر عن هذا كله فلا شك أن بعض التعديلات، رغم أنها ليست كافية، جاءت بصورة موضوعية، تعبيراً عن إرادة جماهير الفلاحين، وأخذت ببعض ما كنا نطالب به ونناضل من أجله منذ أشهر، بل منذ سنوات، ولكن العبرة طبعاً في التطبيق.

الجوانب الإيجابية في التعديلات

إن أهم التعديلات الإيجابية التي أدخلت على قانون الإصلاح الزراعي هي التالية:

أولاً- *إنقاص الحد الأقصى للملكية الإقطاعية، وجعل حدودها القصوى بين 15 و50 هكتاراً في الأراضي المروية، وبين 80 و200 هكتار في الأراضي البعلية، (يضاف إلى هذا حصص تضاف إلى هذه الملكية، وتكرس للزوجات والأولاد)، وذلك حسب المناطق ونوع التربة وكمية الأمطار السنوية.*

ثانياً- *تخفيف الأعباء التي كان القانون قبل تعديله قد ألقاها على عاتق الفلاحين المنتفعين بالإصلاح الزراعي، فقد أعفي هؤلاء من أية تكاليف تتعلق بأعمال الإصلاح الزراعي، كما أعفوا من دفع قسم كبير من ثمن الأرض.*

إن من الواضح أن هذه التعديلات الإيجابية سيكون لها في حال تطبيق القانون

تطبيقاً صحيحاً نتائج هامة، فهي ستوجه ضربة أليمة إلى النظام الإقطاعي، كما أنها ستوفر الأرض لعشرات الألوف من الأسر الفلاحية الجديدة.

وإن من الواضح أيضاً أن هذه التعديلات قد تأثرت بأمرين لا مجال لإنكارهما، وهما نشاط الحزب الشيوعي من ناحية، وبرنامجه الذي يناضل في سبيله من الناحية الأخرى. إن كل متتبع للأمور يرى أن الحكام الحاليين قد أخذوا عن برنامج الحزب الشيوعي مبرراته لإنقاص الحد الأقصى للملكية الإقطاعية، فقالوا كما يقول برنامجنا، بأن قانون الإصلاح الزراعي (قبل التعديل) لا يزيل، حتى لو طبق تماماً، الإقطاعية، ولا يؤمن الأرض لأكثر من 50 ألف أسرة فلاحية، بينما يبقى في البلاد مئات الألوف من الأسر الفلاحية بدون أرض، وهو ما جاء حرفياً تقريباً في برنامجنا. كذلك أخذوا عن برنامجنا، إلى حدٍ ما، رأيه في مساحة الأرض التي ينبغي تركها للإقطاعي، كما أعفوا الفلاحين المنتفعين من الإصلاح من بعض الثمن. فمن المعروف مثلاً أن مشروع برنامج الحزب الشيوعي جاء فيه ما يلي: "وإجراء تعديلات على بعض مواد القانون بشكل يؤدي إلى تخفيض الحد الأقصى للملكيات الإقطاعية، على أن لا تتجاوز بأي حال المئتي هكتار في الأراضي البعلية، والخمسين هكتاراً في الأراضي المروية، دون أية زيادة للزوجات أو للأولاد، وإعفاء الفلاحين من دفع ثمن الأرض الممنوحة لهم ومن دفع أية نفقات أخرى سواء كانت قطعة الأرض الموزعة عليهم من أراضي الاستيلاء أم من أراضي أملاك الدولة".

(كراس مشروع برنامج الحزب في القضية الزراعية، الصفحة 14).

الجوانب السلبية في التعديلات وفي القانون

ولكن إذا كانت قد أجريت بعض التعديلات الإيجابية على قانون الإصلاح الزراعي، فقد أجريت تعديلات سلبية، كما بقي في القانون نواحٍ سلبية كثيرة، وهذه هي التفاصيل:

***أولاً-** من المعروف أن التعديل الجديد لم يعف الفلاح من كل ثمن الأرض، بل ألزمه بدفع بعض الثمن طوال عشرين عاماً، ولا يغير في جوهر الأمر كثيراً أن الدفع ليس لصندوق الحكومة، بل لصندوق التعاونية. إن واجب إعفاء الفلاحين من كل ثمن يعود إلى أمرين أساسيين، وكل تجاهل لهما، هو جهل بوضعية الفلاح، والأمر الأول هو أن الفلاح عندما تعطى له بعض الأرض، إنما تعاد إليه حقوقه، فهو الذي أحيا الأرض، وهو خالق إنتاجها، وجهده هو الذي ينبتها الخير، فهل يصح إذن أن تعاد أرضه إليه لقاء ثمن أو بعض الثمن؟ والأمر الثاني هو أن الفلاح، الذي يتحرر من الإقطاعي، وينال الأرض، يظل إلى أمد بحاجة إلى المساعدة ليتمكن من استثمار الأرض. فمن المعروف أن طبيعة الإقطاعية تقوم على أساس ترك الفلاح في حالة تبعية دائمة للإقطاعي، فما من فلاح يعمل عند الإقطاعيين (بصورة عامة) إلا وهو بحاجة إلى قروض منهم. لذلك، كان على من يقومون بالإصلاح الزراعي أن ينتبهوا إلى أنه لا يكفي أن نُعطي الفلاح أرضاً، بل ينبغي أن نساعده أمداً طويلاً على استثمارها، ومن أساليب مساعدته إعفاءه من كل ثمن أو ضريبة لقاء أرضه*

التي تعود إليه.

ثانياً- *من المعروف أن القانون السابق كان قد حدد مدة خمس سنوات، كفترة ضرورية من أجل تحقيق الإصلاح الزراعي، وجاءت التعديلات الجديدة، فاعتبرت هذه المدة عشر سنوات، وهكذا أطال الحاكمون الحاليون في أمد النظام الإقطاعي فترة طويلة، وواضح أن مثل هذا الأمر يلفت الانتباه، ويجعل المرء يتساءل: لمصلحة من هذا التدبير؟ وماذا يكمن وراءه؟ وأية مساومات بين بعض الحكام وبعض الإقطاعيين يمكن أن تتم بالاستناد إليه.*

ثالثاً- *لقد اتهم وزير الإصلاح الزراعي بالوكالة، وهو بعثي، الإقطاعية بأنها تقوم على السلب والنهب، ولكنه رغم ذلك كله أقر مبدأ دفع التعويضات للإقطاعيين لقاء الاستيلاء على بعض أراضيهم، وواضح أن مثل هذا الموقف يتضمن تناقضاً فظاً. إن الإقطاعية طغت وبغت، ولعبت دوراً إجرامياً في حياة البلاد، والقضاء على عواقبها يحتاج إلى جهاد طويل، فهل يصح بعد هذا كله أن تدفع البلاد للإقطاعيين أية جرايات أخرى لقاء الخلاص من لعنتها؟*

رابعاً- *استمر معدلو القانون على مواقف أسلافهم، فقد أهملوا دور الجماهير الشعبية في تحقيق الإصلاح الزراعي، وأن الفلاحين هم الذين يناضلون منذ زمن، في سبيل حصولهم على حق المساهمة في جميع أعمال الإصلاح الزراعي، وذلك لشل هجمات الإقطاعيين عليه، ولمنع التلاعب والتحايل في تطبيقه. إن واضعي التعديلات لم يأخذوا بهذا المبدأ، وتركوا الأمر لجهاز الدولة الحالي، وكل ذلك بسبب خوفهم من الجماهير وعدم إيمانهم بها وبنضالها، وخوفهم من مراقبتها التي تحول حتماً دون تحقيق الكثير من مخططاتهم القائمة على المساومة مع الإقطاعيين، أو مع بعضهم على الأقل.*

خامساً- *احتفظ واضعو التعديلات الجديدة بمبدأ إلزام الفلاحين المنتفعين بالإصلاح على الانضمام إجبارياً إلى التعاونيات الزراعية، وقد برروا ذلك بعطفهم على الاشتراكية وحدبهم عليها، ولكن فات هؤلاء الفطاحل بأن التعاون لا ينجح عن طريق الأوامر الإدارية، بل بالإقناع والتجربة، ولقد كان من الأجدر إطلاق الحرية للفلاحين والسماح لهم بالانضمام أو عدم الانضمام إلى الجمعيات التعاونية، هذا في الوقت الذي يجب أن تقوم فيه الدولة ببناء تعاونيات نموذجية، يقتنع الفلاحون من خلالها بأن التعاون هو أفضل طريق لزيادة إنتاجهم وتحسين أحوالهم، وبأن الاستثمار التعاوني الكبير هو أفضل بما لا يقاس من أي استثمار فردي صغير.*

سادساً- *إن التعديلات الجديدة لم تأخذ بالحسبان وضع بعض المناطق كالجزيرة مثلاً، فهي لم ترد رغم الوقائع أن تعترف بأن بعض أراضي الجزيرة لا يمكن استغلالها استغلالاً فردياً صغيراً، وأنها تتطلب قيام مزارع تعاونية حكومية أو فلاحية، والسؤال الآن: لماذا جرى هذا التجاهل؟ أليس لأن الحكام الحاليين لا يريدون إزعاج إقطاعيي الجزيرة وشيوخها من "فرسان" صلاح الدين "وفرسان" خالد بن الوليد؟*

سابعاً- *لقد تبين من المؤتمر الصحفي، الذي عقده وزير الإصلاح الزراعي*

بالوكالة، أن النية لدى الحكام متجهة منذ الآن لحرمان فلاحين كثيرين من "أبناء الجمهورية السورية من الأرض، وذلك لأسباب "قومية" و"عنصرية"، الأمر الذي لا يمكن إلا أن يكون له نتائج سلبية خطيرة، فلا يجوز بوجه من الوجوه حرمان فلاحين سوريين بسبب أصلهم القومي من الاستفادة من الإصلاح الزراعي، بينما هم وآباؤهم وآباء آبائهم قد ولدوا على هذه الأرض، التي عمروها بكدحهم، وقام عليها استثمار الإقطاعيين لهم خلال عشرات السنين.

هذا إذن باختصار بعض الجوانب الإيجابية وبعض الجوانب السلبية في التعديلات التي أدخلت على قانون الإصلاح الزراعي، ومن الإنصاف أن نقول إن القانون الحاضر كقانون هو، بالإجمال، أفضل من القانون القديم، ولكن هل تكفي الأقوال؟ وهل يمكن اعتبارها بديلاً للأعمال؟ أم أن الأعمال هي المحك وهي الأساس؟

إننا من جهتنا لم نكن سلبيين إزاء أي إصلاح حقيقي، بل كنا دائماً نؤيد كل تدبير يمكن أن يساعد ولو مساعدة بسيطة على تحسين أحوال العمال والفلاحين. وفي هذه المرة أيضاً لن نقف البتة موقف المراقب أو الحكم، بل سوف نتابع النضال في الاتجاه الذي تمليه علينا واجباتنا إزاء شعبنا، إزاء عماله وجماهير فلاحيه. إننا سنتابع النضال بلا هوادة، ودون أي تردد، أمام أية تضحية، من أجل الإصلاح الزراعي الجذري، الذي يصفّي الإقطاعية تصفية تامة، ويؤمن الأرض ووسائل استثمارها للفلاحين، ومن أجل تطبيق القانون بعد تعديلاته تطبيقاً صحيحاً ودون أي تلاعب أو تحايل. ومن الجلي أن مثل هذا، الموقف يتطلب تحقيق مهمات كثيرة في الميدان الفكري والتنظيمي، فما هي هذه المهمات؟

المهمات الفكرية - دراسة المشروع المقترح ومقارنته بالقوانين السائدة

إن مشروع البرنامج الزراعي للحزب الشيوعي يرتكز بالدرجة الأولى على تحقيق هدف أساسي هو تصفية بقايا العلاقات الإقطاعية في الريف، وإفساح المجال أمام علاقات جديدة أكثر تطوراً وتقدماً، ولكن شريطة أن يساعد ذلك كله على دفع الحركة نحو الاشتراكية خطوات كبيرة إلى الأمام.

وعلى الرغم من أن جماهير الفلاحين هي صاحبة المصلحة المباشرة الأساسية من تحقيق هذا البرنامج، فإن البلاد كلها لها هي أيضاً مصلحة كبرى في ذلك، فتحقيق برنامجنا الزراعي يزيل عراقيل كثيرة من وجه التطور العام، ويساعد على تطوير الصناعة والزراعة، ويساهم في إزالة التأخر الاجتماعي والسياسي الذي تعانيه البلاد.

لذلك كان من أهم الواجبات على جميع هيئات الحزب ومنظماته في المدينة والريف أن تقوم بما يلي:

أولاً- دراسة هذا المشروع دراسة معمقة، واتخاذ التدابير الضرورية لإيصال مضمونه إلى كل رفيق وصديق وإلى كل عامل وفلاح تقدمي، والاستفادة من كل ذلك في تحريك الجماهير ودفعها للمساهمة في أعمال الإصلاح.

إن دراسة هذا المشروع ستمد جميع مناضلي الحزب وأصدقائه وأنصاره بفهم

علمي واضح للعلاقات الزراعية السائدة في سورية عامةً وفي كل منطقة خاصة، ولأوضاع مختلف الفئات الاجتماعية ومواقفها ولمصالح كل فئة منها، أي هل مصلحتها هي في بقاء القديم أو في تغييره؟ وواضح أن مثل هذا الفهم لا غنى عنه، لأنه يساعدنا على التوجه توجهاً صحيحاً وعلى معرفة القوى التي ينبغي أن نجندها حولنا، والقوى التي ينبغي أن نعزلها ونوجه لها ضربة، والقوى التي ينبغي أن ندفعها على الأقل إلى اتخاذ مواقف حيادية.

***ثانياً-** دراسة قانون الإصلاح الزراعي الساري المفعول وما أدخل عليه من تعديلات، وجوانبه الإيجابية والسلبية، ومعرفة ظروف إعلانه وعوامله والأهداف التي يتوخاها منه العاملون على تطبيقه، ومعرفة ما سوف ينتج عنه موضوعياً. إن مثل هذه الدراسة ضرورية لجعل مناضلينا أقدر على الاستفادة من النواحي الإيجابية، ودفع الفلاحين للنضال في سبيلها وللسير في طليعتهم ضد كل ما هو سلبي، وضد كل ما يمكن أن يحول دون تحقيق الإصلاح الزراعي، الذي يتوق إليه الفلاحون وجماهيرهم الفقيرة البائسة.*

***ثالثاً-** دراسة تأثير أفكار الحزب ونضاله على قانون الإصلاح الزراعي والتعديلات التي أدخلت عليه، فمن المعروف أن الحزب أثر تأثيراً إيجابياً منذ أيام الوحدة المصرية – السورية، فقد كان من نتائج دراسة الحزب للقضية الزراعية وانتقاداته لما كان يجري، ونضاله في سبيل حقوق الفلاحين، أن اتخذ عبد الناصر عدة قرارات لتحسين قوانين الإصلاح، التي كانت سائدة في مصر وسورية. لقد خفض الحد الأقصى للملكية، وخفض من الأعباء المالية التي كان يضعها القانون على عاتق الفلاحين والمنتفعين بالأرض.*

***رابعاً-** دراسة الخصائص التي تتميز بها كل منطقة من مناطق البلاد الزراعية وأشكال النضال الواجبة فيها، وكذلك الأهداف التي ينبغي التركيز عليها أكثر من غيرها من أهداف البرنامج.*

المهمات العملية والتنظيمية التي يتطلبها تحقيق المشروع

إن كل مناضل، مهما كان بسيطاً، يدرك أن الكلام وحده لا يكفي، كما لا يكفي أن يكون لدينا برنامج جيد كي يتحقق، فالبرامج لا تتحقق من تلقاء ذاتها، وإنما هي بحاجة إلى قوى بشرية تعتنقها أولاً، وتناضل من أجل تحقيقها ثانياً، دون أن تهتم للصعوبات أو تعبأ بها، وواضح أن هذا يفرض علينا أموراً كثيرة، منها ما يلي:

***أولاً- دراسة طرق توزيع هذا البرنامج توزيعاً واسعاً جداً،** وإيصاله إلى أوسع الفئات، وجعله في متناول جميع العناصر التي يهمها أمر تنفيذه، وهذا يتطلب اجتماعات وبحثاً في الأشخاص وفي طرق الوصول إليهم، كما يتطلب صبراً واستمراراً وجهوداً مختلفة في الريف والمدينة.*

ففي الريف ينبغي أن تقوم منظماتنا الموجودة ورفاقنا وأصدقاؤنا ببحث طرق إيصال هذا البرنامج إلى الفلاحين الفقراء والمتوسطين وطرق إفهامهم مضمونه، وكذلك ببحث طرق إيصاله إلى الطلاب من أبناء الفلاحين وإلى معلمي المدارس وإلى جميع الفئات والعناصر، التي تبدي بهذا الشكل أو ذاك كرهها للإقطاعية

واستعدادها للمساهمة، ولو بالكلام أحياناً، في معركة تصفية الإقطاعية.

وفي المدن ينبغي أن تدرس منظمات الحزب وهيئاته وفرقه أمر إيصال هذا المشروع إلى العمال، وخصوصاً إلى أولئك العمال الذين هم من أصل فلاحي، ويرتبطون بألف رباط بالريف، وإلى الطلاب الذين هم من أصل ريفي، وكذلك إلى جميع الفئات والعناصر التقدمية، وإلى جميع الذين يهمهم أمر تصفية الإقطاعية.

إن من الواضح أن إيصال هذا البرنامج إلى جميع الفئات يتطلب حشد جميع الجهود، وبضمن ذلك أبسطها، وهو إضافة إلى ذلك ليس بالأمر السهل، فهناك التقلبات التي تمر بها البلاد، والاتجاه لدى الحكام نحو فرض نظام فاشي للحكم، لذلك كان من الواجب أن يجري التوزيع وفق دراسة مسبقة، وعلى أساس إيصال النسخ إلى المراكز الأساسية وإلى العناصر التي تفيد أكثر من غيرها، وتستفيد أكثر من غيرها من هذه النسخ.

ثانيا- دراسة طرق النضال الملائمة لتحقيق هذا البرنامج، فمما لا شك فيه أن تحقيق برنامجنا للإصلاح الزراعي بنصه وروحه يتطلب مجموعة من الشروط منها: وجود حريات ديمقراطية واسعة للشعب، ومساهمة الطليعة الثورية المتمثلة في حزبنا في أعمال الإصلاح الزراعي كضمانة لعدم التلاعب في هذه الأعمال. ولكن مهما كان الوضع، وإلى أن تتحقق تلك الشروط، يمكن رغم كل شيء، عن طريق النضال فرض أشياء كثيرة، وإجبار الحكام على تنفيذ بعض ما يقولونه ويتعهدون به، وبعض ما نريده، والمهم هو أن نقوم في الريف والمدن بأعمال كثيرة، منها ما يلي:

في الريف: بعد دراسة المشروع، وطرق توزيعه، ينبغي على منظمات الحزب ورفاقه ومناضليه أن يحددوا الأهداف والمطالب التي ينبغي أن يجندوا الجماهير للنضال من أجلها، وأن يبحثوا في أفضل الأشكال التي ينبغي أن يبحثوا اللجوء إليها واستخدامها في هذا النضال، كما ينبغي أن يحددوا أين ينبغي أن يبدؤوا، وإلى أين ينبغي أن يتجهوا، وكيف يجب أن يصرفوا جهودهم. مثلاً على كل منظمة ريفية أو رفيق أن يبحثوا الإمكانات المتوفرة، والمكان الذي يعيشون فيه، والمناطق المجاورة لهم، ومكان وجود القوى الأساسية ذات المصلحة في تحقيق هذا البرنامج، وأن يبحثوا في الأهداف الواجب النضال من أجلها والبدء بها، والطرق الواجب اتباعها للوصول إلى أعمق أعماق الجماهير ولفها حولنا.

إن الأهداف التي يمكن طرحها متنوعة، وقد تبدأ من أبسط الأهداف، وقد تتعدد. المهم في طرح الأهداف الواجب النضال من أجلها، أخذ أمرين بالحسبان، الوضع الملموس، ودرجة الاستعداد الكفاحي للجماهير التي سنناضل معها وفي رأسها. أما أشكال النضال فهي أيضاً متعددة: كتابة وعرائض ووفود وتظاهرات تتسم كلها بالموضوعية والرصانة وبالبعد عن الاستفزاز، كل ذلك لجذب جماهير أوسع إلى هذا النضال، ويفرض هذا كله البحث في أشكال للتنظيم مناسبة تبدأ من الوفد المؤقت إلى لجنة القرية إلى لجنة مجموعة قرى، وإلى لجان فلاحية لا حزبية ومؤتمرات تبحث في الأهداف المشتركة بمنطقة وبوسائل تحقيقها.

إن المهم هو دفع الفلاحين إلى التحرك، إلى العمل من أجل حقوقهم، وإلى التخلص من آثار الماضي، فمن المعروف مثلاً، أن عهود الإقطاع والتحكم الرأسمالي هي عهود ما تزال تعمل لإبعاد الفلاحين عن كل حركة، وانتظار كل شيء كما تنتظر الأمطار ومنح السماء الأخرى.

في المدن: إن منظمات المدن ورفاق المدن يستطيعون أن يلعبوا دوراً هائلاً في مسألة الإصلاح الزراعي، في ميدان الدعاية وفي ميدان العمل كذلك. ففي ميدان الدعاية على منظمات الحزب أن تقوم بأعمال واسعة لإيصال برنامج الحزب إلى جميع الأوساط والعناصر التقدمية بحيث تخلق رأياً عاماً كبيراً، أما في ميدان العمل فينبغي معرفة عناصرنا التي لها روابط بالريف للاستفادة من هذه الروابط من أجل إيصال برنامجنا إلى الفلاحين ودفعهم للسير في طريق النضال من أجل تحقيقه، ومثل هذه العناصر كثيرة، كما هو معروف، بين العمال وبين طلاب المدارس والجامعات. إن عشرات الألوف من أبناء الريف ممن دفعهم التطور الرأسمالي وظروفهم إلى المجيء إلى المدن هم من العناصر التي تكتسب وعياً، وتتفتح وتزدهر، وتصبح أقدر على الحركة والنضال، وفي هذا الوسط يمكن للنضال من أجل الإصلاح الزراعي وأفكاره، أن يجذب الألوف من عناصر الشغيلة إلى الحياة النشيطة وإلى صفوف الطليعة، الأمر الذي يغذي حركة السائرين نحو الاشتراكية بقوى هائلة لها المستقبل وعليها الاعتماد.

ويمكن للحزب أن يجند الكثيرين من غير الحزبيين للنضال معه من أجل تنفيذ برنامجه في الإصلاح الزراعي.

إن كل أعداء الإقطاعية الألداء، وكل العناصر الوطنية الشريفة الذين يهمهم تحقيق إصلاحات جذرية في وطنهم، يمكن أن يساعدوا ويتحالفوا مع العمال والفلاحين في تحقيق إصلاح زراعي جذري في البلاد.

في الصعوبات التي تعترض نضالنا من أجل البرنامج الزراعي

مما لا جدال فيه أن صدور مشروع برنامج الحزب في القضية الزراعية قد سهل مهماتنا كثيراً، فقد زودنا بزاد فكري هائل، ومدنا بالنور الذي ينير أمامنا الطريق، وأعطانا بوصلة لنعمل جميعاً مهما اختلفت أوضاعنا ومناطقنا في اتجاه واحد، ولكن الصحيح أيضاً أن نضالنا من أجل تحقيق برنامجنا الزراعي ليس بالأمر السهل، فهناك صعوبات كثيرة سوف تعترض طريقنا، وعلينا أن نعمل بصبر وأناة وبحزم وبلا هوادة من أجل تذليلها، وهذه الصعوبات:

الإرهاب الفاشي: لم يعد يخفى على أحد في أي اتجاه تسير الأمور. إن الجناح العفلقي في الحكم يضمر حقداً شديداً للديمقراطية، وهو يُكنُّ للقوى الثورية الحقيقية عداءً لا يقل عن عداء المستعمرين لها، وقد ظهر ذلك واضحاً في مواقف المجرمين من أمثال السعدي في العراق، وفي محاولات البعض تقليده في سورية، وسيكون لهذا كله آثاره، فهو سيخلق في البدء نوعاً من الصعوبة بالنسبة للمناضلين الذين يحبون الشعب ويعملون في خدمته والدفاع عن مصالحه.

التضليل الفكري: إن العناصر التي تعمد إلى نشر الإرهاب ستقوم هي ذاتها

بمحاولات تضليلية للفصل بين الجماهير وبين الحزب الشيوعي، طليعتها الثورية. كما ستعمد إلى خدع الجماهير ببعض الإصلاحات وبالوعود، وتعمل على إسكات الجماهير وهدهدة غضبها ومنعها من كل حركة أو نضال، هذا إذا تمكنت من ذلك.

مقاومة الإقطاعيين وأساليبهم: *من الواضح أن الإقطاعيين في حالة غضب، وهم لن يستسلموا، وسيعمدون إلى كل وسيلة لشل الإصلاح الزراعي وللافتراء على حزبنا والوشاية بمناضلينا، وهم بمواقفهم هذه يزيدون في الصعوبات المحتملة.*

نقص الكادرات والعناصر المجربة: *وهناك صعوبات أخرى يخلقها نقص الكادرات والعناصر ذات الخبرة، والتي تستوعب كل ضرورات العمل في الريف، ومما يزيد في هذه الصعوبة أن الحزب معرض بسبب نظام الحكم الإرهابي إلى خسارة البعض من قواه، وكذلك يحتاج إلى تدريب أعضائه الآخرين على العمل في مثل هذه الظروف.*

هذه هي بعض الصعوبات، وإذا كنا نذكرها فذلك كي تبحث كل منظمة وكل رفيق في الأشياء التي ينبغي القيام بها من أجل التغلب على الصعوبات وتحقيق أهدافنا، التي هي أبلغ تعبير عن أهداف شعبنا وعن مطامحه ومصالحه.

أيها الرفاق!

إن الأوضاع متقلبة والمفاجآت غير قليلة، ولكن مما لا شك فيه أن النصر لنا. إن كل سير التاريخ منذ مئة عام أو أكثر بقليل، هو برهان لا يدحض على أن البشرية، ونحن جزء منها، تسير في طريق الاشتراكية والشيوعية.

إن لدينا حزباً مجرباً، ولدينا نظريتنا الماركسية اللينينية، التي تثبت الأيام يوماً بعد يوم صحتها، وإن لدينا برامج واضحة تعبر عن حاجات شعبنا ومتطلبات تطوره وازدهاره، وإن لدينا تصميمنا، الذي لا يتزعزع، على الدفاع عن مصالح شعبنا والسير في طليعة نضاله بجرأة وإقدام الشيوعي، الذي لا حد لثقته بشعبه وبغده. وبكلمة أخرى، إن لدينا كل ما ينبغي من أجل تذليل جميع الصعوبات والسير قدماً إلى أمام في الطريق الصاعدة دائماً وأبداً.

لقد قام حزبنا خلال سنوات عديدة من النضال بإيجاد قواعد له ثابتة في جميع مناطق البلاد. إن جميع قرى البلاد سمعت بنضالات الحزب، وكثيرون خبروا صدق عزيمة الحزب وشدة إخلاصه للشعب خبرة ملموسة، فقد ساهموا معه، وتحت قيادته، في النضال من أجل الاستقلال والازدهار والتقدم، ومن أجل أرض الفلاح وعمل العامل، ومن أجل التطور المادي والثقافي لجميع الكادحين.

إن مهمة كبرى توضع اليوم على عاتقنا، وهي تجنيد جماهير الفلاحين وكل الشغيلة للسير بالبلاد نحو قمم جديدة: من أجل تصفية بقايا الإقطاعية إلى الأبد، من أجل شق الطريق أمام تطور البلاد الاشتراكي، ومن أجل حماية شعبنا من لعنة الفاشية الجديدة، من أجل الديمقراطية والسير في طريق الاشتراكية.

إن نضال كل رفيق وكل صديق من أجل الإصلاح الزراعي، ومن أجل كل مطلب من مطالب الفلاحين، وكذلك من أجل أهداف البلاد الأخرى، سيفضح لدى الجماهير أسباب الإرهاب الفاشي، وما يكمن وراءه من مخططات استعمارية لن

تخفيها ادعاءات البعض بالاشتراكية والحرية، كما ستفضح لديها جميع محاولات التضليل والخداع، التي تقوم بها بعض الفئات الحاكمة، وهي في الوقت نفسه، ستساعد الحزب على تلافي الكثير من الخسائر والتعويض عما يلحق به من أضرار، وعلى لف الجماهير حوله والسير في طليعتها سيراً مظفراً.

الفصل الرابع
النضال في سبيل المطالب مهمة أساسية دائمة

كان دانيال نعمة في عهد الانفصال والسنوات الأولى من حكم البعث يوقع مقالاته باسم "سامي سعيد" اتقاءً لضربات المباحث السلطوية، علماً أن دانيال وسائر أعضاء القيادة كانوا يعيشون في ظروف السرية. وقد نشر دانيال (سامي سعيد) مقالته، المنشورة بعنوان هذا الفصل، في جريدة "حياة الحزب" السرية العدد 12 أوائل أيار 1965، وننشر هذه المقالة كما وردت حرفياً:

*"في أواخر شهر حزيران، من العام الفائت (1964)، اتخذ الاجتماع الموسع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري سلسلة من القرارات التنظيمية الهامة، وقد قضى أحد هذه القرارات **"بتوسيع النضال الجماهيري لأجل المطالب"**.*

لقد استند الاجتماع في تركيزه على أهمية هذا القرار إلى جملة عوامل، منها التجربة السابقة للحزب المكدسة في ميدان النضال المطلبي، وقناعة الحزب العلمية بأهمية هذا النضال في تطوير حياة المنظمات الحزبية ورفع قدرتها الكفاحية ومساعدتها على تعبئة الجماهير الواسعة وتحريكها، ومنها النضالات المطلبية التي تمت هنا وهناك على أبواب الاجتماع الموسع، وما دلت عليه من وجود إمكانات واسعة للاتصال بالجماهير، ودفعها للعمل رغم غياب الكثير من شروط الحياة السياسية الطبيعية، أو بكلمة أخرى رغم حرمان هذه الجماهير الشعبية في تلك الفترة من حرياتها الأساسية.

ولقد كانت الأهداف الأساسية، التي توخاها الاجتماع من وراء هذا القرار المحدد الواضح، هي:

***أولاً-** العمل بصورة مدروسة مبرمجة على دفع جميع المنظمات الشيوعية، وكل الرفاق الشيوعيين وأصدقائهم، للقيام بأحد أهم الواجبات أمام جماهير العمال والفلاحين وسائر فئات الشغيلة، وأمام سائر أبناء الشعب، وذلك عن طريق النضال المتفاني لتحسين أحوالهم المادية والمعاشية، وتلبية الكثير من مطالبهم حتى في إطار النظام القائم، وقبل الوصول إلى النظام الاشتراكي.*

__ثانياً-__ جذب الجماهير الشعبية للنضال من أجل وقف التدهور في حياتها المادية وأوضاعها المعاشية، ومن أجل تحسين هذه الأوضاع وتلك الحياة.

__ثالثاً-__ دفع الجماهير تدريجياً، وعبر النضال في سبيل المطالب لتطوير كفاحها، وممارسة حقوقها المشروعة بالمساهمة في حياة البلاد وإدارة شؤونها في مختلف الميادين.

ومن الواضح أنه منذ الاجتماع الموسع للجنة المركزية للحزب حتى اليوم تمت خطوات في هذا الميدان، فقد تابعت القيادة المركزية توجيه الرسائل، التي تتضمن في الغالب توجيهات مختلفة حول ضرورة الاهتمام بالنشاط المطلبي اهتماماً أكبر من ذي قبل، والعمل بإقدام لتحقيق المطالب الجماهيرية بدءاً من أبسطها حتى أعلاها.

وقد قامت منظمات عديدة بتشديد نضالها المطلبي السابق وتطويره، ولبت منظمات أخرى، لم تكن تعير المطالب انتباهاً كافياً، توجيهات القيادة، وعملت بالاستناد إليها. ففي مدينة دمشق قام عدد من الرفيقات والصديقات بجمع تواقيع عديدة على عريضة تطالب بتخفيض أثمان الأدوية، وفي بعض أحياء حمص طالب الأهلون بتحقيق بعض الإصلاحات، وذهب مئات الفلاحين في الجزيرة يطالبون بتحقيق الإصلاح الزراعي، وفي مناطق حماة تقدَّم فلاحو الغاب بمطالب تتعلق بالأرض والمحاضر والتمويل، وطالب فلاحون كثيرون في العلويين بزيادة أسعار التبغ الذي يقدمونه لشركة الريجي، وتقدم صيادو السمك في جبلة بسلسلة من المطالب، وجرى تقديم مطالب متنوعة في مختلف المناطق، وتمت كل هذه الأعمال وغيرها بمساهمة الشيوعيين النشيطة، وبالتعاون مع قوى أخرى.

ولكن رغم ذلك كله يمكن القول إن القرار الذي اتخذ في الاجتماع الموسع للجنة المركزية حول توسيع النضال من أجل المطالب، لم يُعطَ في بعض الهيئات المسؤولة على مختلف الدرجات ولدى بعض الرفاق المسؤولين الأهمية الكافية، ولم يبذل من أجله الجهد الضروري، وقد تأكد ذلك بوضوح عند مراجعة النشاط العملي لهذه الهيئات وأولئك الرفاق، وقد تبين أن أسباب هذا النقص إنما يعود عند البعض إلى عدم تقدير هذا القرار تقديراً صائباً بسبب اعتبار النضال المطلبي، أو الاقتصادي، نضالاً ثانوياً، بالمقارنة مع النضال من أجل الأهداف السياسية الكبرى، ولعدم إدراك الطبيعة السياسية للنضال المطلبي في ظروف معينة، كما تعود عند البعض الآخر إلى عدم الثقة على نحو كافٍ بالجماهير وبقدرتها على الكفاح العنيد في سبيل مطالبها الحيوية. ومن الواضح أن هذا كله قد أثر تأثيراً سلبياً على النضال المطلبي، وعرقل استفادة الحزب من إمكانات جماهيرية واسعة.

إن القيادة المركزية، التي بحثت على ضوء مبادئ الانتقاد والانتقاد الذاتي الماركسية اللينينية مجموع الأعمال الرامية لتنفيذ مقررات الاجتماع الموسع للجنة المركزية، ترى أن التطورات الأخيرة التي تمت في البلاد لم تقلل من شأن القرار القاضي بتوسيع النضال من أجل المطالب، بل هي أعطته أهمية خاصة، وجعلت من الضروري لفت انتباه جميع المنظمات الحزبية في المدينة والريف إليه، والعمل

لتطبيقه في الحياة تطبيقاً واعياً مستمراً خلاقاً، يساهم في رفع نفوذ الحزب وزيادة تأثيره على مجرى الأحداث في البلاد، ويساعد على دفع عجلة التقدم خطوات جديدة.

إن بعض الرفاق قد يتصورون أن التطورات الجارية تجعل من غير الملح القيام بنضال مطلبي واسع، لأن الحكم نفسه أخذ يسير باتجاه تحقيق خطوات تقدمية، ويلبي بعض المطالب، أو لغير ذلك من الأسباب.

وإن بعض الرفاق قد يتصورون أن التطورات الأخيرة لم تغير شيئاً في الوضع، لذلك فهم يعتقدون أن على الشيوعيين القيام بتشديد النضال من أجل المطالب واتباع أشد الأساليب في هذا السبيل، ولو أدى ذلك إلى الاصطدام بالسلطات اصطداماً قوياً.

ومن الواضح أن كلا الفريقين مخطئ في تصوراته، فالتطورات الأخيرة لم تلغ، ولا يمكنها البتة أن تلغي مهمة النضال المطلبي (وغيرها من المهام أيضاً)، بل هي رفعتها إلى مستوى أعلى، ووسعت مداها ودائرة مفعولها، ولكنها في الوقت ذاته أوجبت على الشيوعيين أن يفتشوا عن الأساليب النضالية، التي تتناسب مع التطورات الأخيرة، وتساعد على تحقيق المطالب من جهة، وعلى جعل هذه التطورات أعمق وأثبت وأكثر شمولاً واتساعاً من جهة أخرى.

إن جميع المناضلين الثوريين يدركون أن التطورات الأخيرة، ذات الصفة التقدمية المعترف بها، قد أوجدت إمكانات واسعة نسبياً لتحسين أحوال فئات واسعة من الجماهير العاملة وتلبيةً مطالبها، ولكن هذه الفوائد المحتملة لن يصبح بالإمكان تحقيقها، بصورة كاملة أو جزئية وعلى خير وجه، إلا بشروط كثيرة، منها القيام بنضال طويل صبور وضد عناصر وعوائق مختلفة. ومن هنا بالذات كان إصرار الحزب على ضرورة الاهتمام اهتماماً مضاعفاً بالنضال المطلبي بأفضل وسائله وأساليبه.

إن القيادة المركزية للحزب ترى أن المطالب، التي ينبغي تركيز الاهتمام على النضال من أجلها، يمكن حصرها في عدد من الزمر الكبرى هي:

***أولاً-** مطالب عامة تهم البلاد كلها، مثل استثمار ثرواتنا النفطية بقوانا ولمصلحتنا، ومثل بناء سد الفرات، والسير قدماً في الإصلاح الزراعي، وإلغاء النفقات غير المنتجة في جهاز الدولة، ومحاربة الغلاء وتخفيض أثمان الأدوية وتأمين الطبابة المجانية للجماهير، وتوسيع الحريات الديمقراطية، وغير ذلك.*

***ثانياً-** مطالب تهم فئة اجتماعية محددة، كمطالب العمال ضد التسريح ومكافحة البطالة، أو مطالب الفلاحين في التسليف والقروض ومساهمتهم في أعمال توزيع الأرض وغيرها.*

***ثالثاً-** مطالب تهم مهنة معنية، أو فئة معينة على نطاق البلاد كلها، مثل تأمين العمل لعمال البناء حالياً، وتحسين أحوال المعلمين، وحماية عمال الموبيليا من خطر المزاحمة الأجنبية، وتخفيض الأقساط في المدارس الخاصة، وغير ذلك.*

***رابعاً-** مطالب تهم مدينة معينة، أو بعض أحيائها، أو بعض الفئات الكائنة فيها من عمال معمل إلى طلاب مدرسة، وغير ذلك، وغير ذلك.*

خامساً- *مطالب تهم منطقة من المناطق الريفية، أو بعض الفئات الكائنة فيها، أو بعض قراها، مثل بناء طريق عام، أو فتح مدارس ومستوصفات، أو مكافحة وباء أخذ يفتك بالحيوانات والمزروعات، أو مساعدة متضررين بحوادث الطبيعة وغير ذلك.*

ومن الواضح أن المطالب العامة وأساليب النضال من أجلها تقوم بها هيئات الحزب العليا، ومن حق كل منظمة حزبية وكل رفيق أن يساهم بإبداء الرأي وبالاقتراحات في هذا الميدان.

ومن الواضح أيضاً أن تحديد المطالب الخاصة بمدينة أو منطقة ريفية أو مهنة أو فئة معينة... إلخ، وأساليب النضال من أجلها هو من اختصاص الهيئات المسؤولة في هذه المدينة أو المنطقة أو المهنة، ويمكن للقيادات العليا أن تساهم وتبادر إلى بحث هذه المطالب، كما يمكن للرفاق والأصدقاء والهيئات الأدنى المبادرة إلى طرح مطالب مناسبة والعمل على تحقيقها.

إن من أهم الواجبات، الآن، أن تقوم جميع هيئات الحزب على نطاق البلاد وفي نطاق كل مدينة أو منطقة وعلى مختلف المستويات:

أولاً- *بتحديد المطالب الداخلة في إطار اختصاصها وصلاحياتها بصورة دقيقة واضحة، وأن ترتب هذه المطالب حسب الأهمية أو الحاجة أو إمكان التحقيق وواقعيته.*

ثانياً- *أن تحدد القوى التي لها مصلحة في تحقيق هذه المطالب، وتعين العناصر ذات النفوذ والتأثير في هذه القوى.*

ثالثاً- *أن تحدد أساليب العمل الفكرية والدعائية والتطبيقية اللازمة لتحقيق هذه المطالب، انطلاقاً من الكتابة في الصحف، إلى مقابلة المسؤولين، إلى إرسال العرائض والبرقيات، إلى جر فئات واسعة متنوعة لقول رأيها هي الأخرى والمساهمة في النضال، إلى القيام بأعمال جماهيرية مختلفة، إذا اقتضى الأمر، وكان الظرف ملائماً ومساعداً.*

رابعاً- *أن تبادر إلى تجنيد الرفاق، الذين ينبغي وجودهم في معمعان النضال من أجل هذه المطالب، وأن تكون هي دائماً وأبداً في طليعة العمل، تقوده، وتوجهه وفقاً للحاجة وعلى أساس المراقبة الانتقادية.*

إن القيادة المركزية، التي ستقوم من جهتها بمتابعة العمل من أجل الأهداف العامة والمطالب ذات الصفة العامة الشاملة، ستقوم في الوقت ذاته بمتابعة عمل كل لجنة وهيئة مسؤولة في ميدان تنفيذ القرار الصادر عن الاجتماع المركزي المتعلق بتوسيع النضال من أجل المطالب، وهي ترى أن بين أهم واجبات القيادات المنطقية في المدن والريف إخبارها باستمرار بالبرامج المطلبية التي تضعها، وبالأعمال التي تقوم بها من أجل تنفيذها.

إن الاهتمام بالقضايا المطلبية هو من أكبر المهمات الملقاة على عاتق الشيوعيين على اختلاف المستويات، وبدونه يظل نضال الشيوعيين في الميادين الأخرى نضالاً مقتصراً على فئات أقل اتساعاً، أو يظل محدود التأثير، متصفاً في الظروف العادية

بالكثير من التقلص والانعزال والبعد عن الجماهير الشعبية الواسعة الغارقة في مشاكلها وهمومها اليومية، والتي ينبغي جذبها بمختلف الوسائل والأساليب إلى النضال السياسي أيضاً والمساهمة في تقرير مصائرها ومصائر وطنها.

إن نظرة الاستصغار، التي يبديها البعض بالنسبة للنضال المطلبي، والتي تبدو إما بتجاهل هذا النضال تجاهلاً يكاد يكون تاماً، أو بالانصراف عنه إلى الثرثرة السياسية، هي نظرة خاطئة جداً، وهي تنبع في آخر كل تحليل من مشاعر برجوازية صغيرة، ولا يمكن إلا أن تلحق الضرر بمجموع نشاط الحزب في مختلف الميادين، وفي الميدان السياسي بصورة خاصة.

إن مثل هذه النظرة تتجاهل أو تجهل أن النضال في سبيل المطالب هو عنصر هام في تكوين الكادرات التي تثق بها الجماهير، وتلتف حولها، وهو أسلوب ناجح ناجع لتبديد كل محاولات الخصوم لإبعاد الجماهير الشعبية عن الحزب، وبالتالي لعزله عنها وإضعافه، وهو في الوقت ذاته شكل مجرب من أشكال النضال السياسي الهام.

إن القيادة المركزية للحزب تضع أمام جميع الهيئات القيادية على نطاق الوطن كله، وأمام جميع منظمات الحزب وفرقه، وأمام كل شيوعي، مهمة العمل لتنفيذ قرار الاجتماع الموسع المتعلق بتوسيع النضال من أجل المطالب.

إن تطبيق مثل هذا القرار على أفضل وجه وبصورة مستمرة واعية صادقة، سيساهم مساهمة كبرى في رفع دور الشيوعيين وزيادة تأثيرهم في توطيد مواقعهم وتوسيعها، كما أنه سيلعب دوراً كبيراً في تحسين أحوال الجماهير الشعبية الكادحة ودفع التطورات الأخيرة خطوات جديدة إلى أمام".

الفصل الخامس
من أوراق دانيال نعمة حول الإصلاح الزراعي

أولاً- رؤوس أقلام حول البرنامج الزراعي

عقد الحزب الشيوعي السوري مؤتمره الثالث في حزيران من عام 1969، ووافق فيه على مشروع البرنامج الزراعي، وكانت لجنة وضع البرنامج وصياغته برئاسة دانيال نعمة. ولن ننشر هنا هذا البرنامج، فهو مستمد من مشاريع البرامج السابقة ومنشور بصورة واسعة، وسنكتفي هنا بنشر رؤوس أقلام كتبها دانيال نعمة حول البرنامج وموجودة بين أوراقه، وهي:

- أول برنامج متكامل.

- سابقاً أهداف ذات صفة برنامجية.

- مطالب جذرية في الإصلاح.
- دراسات تمهيدية للقانون.
- وضع مشروع البرنامج: المشروع الأول، المشروع الثاني، المشروع الثالث.
- المؤتمر (الثالث لعام 1969) يقر المشروع مع تعديلات طفيفة.
- مغزى وأهمية البرنامج الزراعي للحزب.
- أقسام البرنامج: المقدمة، المعطيات، العلاقات الزراعية لما قبل 1958، النضال من أجل الإصلاح وموقف الطبقات من الإصلاح، نتائج الإصلاح الزراعي... إلخ.
- الضرورات الملحة لإنجاز تنفيذ القانون واتخاذ التدابير اللازمة لتحقيق إصلاح زراعي جذري.
- جوهر البرنامج الحالي: إنجاز مهام الثورة الديمقراطية، مهام من مرحلة الانتقال قبل الانتقال إلى الاشتراكية، التعاون، الوضع الحالي منذ إقرار البرنامج، أثر البرنامج في التطورات الأخيرة، المهام المطروحة حالياً، آفاق الإصلاح الزراعي حالياً.

ثانياً- أوراق تتعلق بالإصلاح الزراعي وقوانينه

بين أوراق دانيال رؤوس أقلام مكتوبة أوائل عام 1971 حول قوانين الإصلاح الزراعي وتفاعلات الحزب معها بين عامي 1958 و1970، وفي ما يلي هذه العناوين المكتوبة كمسودة بخط دانيال:

مقدمة

- الإصلاح الزراعي يجري منذ 13 سنة. بدأ رسمياً بصدور القانون المعروف في 28 أيلول سنة 1958.
- عملية الإصلاح تشهد تموجات كثيرة، جزراً ومداً.
- قبل البحث في أعمال الإصلاح، في طبيعته، في جوهره، لا بد من البحث في بعض القضايا ذات الطابع النظري المرتبطة بالإصلاح.

1- سورية ودور الجماهير الفلاحية فيها

جزء من الأمة العربية، البلدان العربية، مثلها مثل البلدان العربية الأخرى من البلدان النامية، الجماهير الفلاحية فيها هي الأساسية، قوة وطنية كبرى وقوة ثورية كبرى، الدور التاريخي للجماهير الفلاحية، نضالها قبل الاستقلال، نضالها بعد مرحلة الاستقلال في ظل الحكم البرجوازي – الإقطاعي، دورها الحالي، دور الجماهير الفلاحية من خلال التحالف مع الطبقة العاملة "داخلياً- دولياً".

2- حركة التحرر الوطني وطبيعتها الحقيقية

حركة جماهير فلاحية واسعة، هدفها الاستقلال الوطني وتوطيده، هدفها تصفية

بقايا العلاقات الإقطاعية، أثر قيادة البرجوازية الوطنية لهذه الحركة، أثر قيادة أو تأثير الطبقة العاملة فيها، الأساس الموضوعي لتحالف حركة التحرر الوطني مع الحركة العمالية العالمية ومع الاشتراكية.

3- الإصلاح الزراعي ودوره ضمن تطور حركة التحرر الوطني

هدف الحركة تحرير جماعة الفلاحين من الإقطاعية، الإصلاح حافز ومحرك للتطور، قبل تحقيقه يثير الجماهير للنضال بعد السير في تحقيقه يؤثر في مجمل التطور (سياسياً واجتماعياً واقتصادياً)، أهمية الإصلاح الزراعي والدور الذي يتحمله في حياة البلاد.

4- المواقف المختلفة للطبقات المختلفة في الإصلاح الزراعي

موقف الإقطاعية، موقف البرجوازية الوطنية منه، موقف البرجوازية الصغيرة وأحزابها وحكمها، موقف الطبقة العاملة من الإصلاح الزراعي، موقفها كحليف للجماهير الفلاحية، موقفها كقائدة للثورة الديمقراطية، موقفها كقائد للمجتمع والمناضل الأساسي الحازم الهام للنضال من أجل الاشتراكية، انعكاس موقف الطبقة العاملة في موقف الحزب الشيوعي[596].

5- الإصلاح الزراعي الحالي

قانون الإصلاح الزراعي، التعرجات في عملية الإصلاح، في مرحلة الكزبري والدواليبي[597]، في مرحلة 8 آذار: في السنوات الأولى، في ما بعد 23 شباط، في أعمال الإصلاح في العام السابق، في ظل الحكم البعثي المُزاح[598].

الفصل السادس
المرحلة الثالثة من نشاط دانيال نعمة الفلاحي بعد 1970

لم نتطرق في هذا الكتاب إلى نشاط دانيال نعمة بعد 1970، لكن

[596]- بالغت الأحزاب الشيوعية في البلدان غير المصنعة في دور الطبقة العاملة ودورها في قيادة المجتمع، ولم يكن بإمكان الطبقة العاملة الحديثة التكوين، وغير المتماسكة اجتماعياً، والقليلة العدد، والضعيفة فكرياً، قيادة المجتمع. والأحزاب الشيوعية في تلك البلدان قادتها الفئات المتنورة من "الطبقة الوسطى"، وكان دور العمال ضعيفاً، بسبب ضعفهم عددياً وفكرياً.

[597]- مأمون الكزبري ومعروف الدواليبي رئيسا وزراء، في السنة الأولى التي أعقبت الانفصال، عندما جرت محاولات للتراجع عن الإصلاح الزراعي لصالح كبار الملاك.

[598]- المقصود به حكم جماعة 23 شباط بقيادة صلاح جديد ونور الدين الأتاسي ويوسف زعيِّن، الذي أزاحه حافظ الأسد في تشرين 1970.

التاريخ سلسلة مترابطة الحلقات، ولهذا لا بد من الإشارة إلى أحد الخطوط العامة لنشاط دانيال نعمة، وفي مقدمتها المسألة الزراعية. وهكذا نجد أن دانيال نعمة يعاود، بل يستمر، في عام 1971 نشاطه العملي والكتابة عن المسألة الزراعية والقضية الفلاحية، فيما يمكن أن نطلق عليه المرحلة الثالثة من نشاط نعمة الفلاحي.

أولاً- دانيال نعمة رئيس تحرير مجلة "طريق الفلاحين"

في أواسط تموز 1971 صدر العدد الأول من مجلة متواضعة مطبوعة على الحرير تحت عنوان: **"طريق الفلاحين"**، وهي "نشرة دورية يصدرها المكتب الفلاحي التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري". افتتاحية العدد بعنوان: **"أهدافنا الكبرى ومهماتنا الملحة"**[599].

في هذه الافتتاحية يشير دانيال إلى أن "طريق الفلاحين التي نبدأ بها مرحلة جديدة على طريق نضالنا بين الجماهير الفلاحية الواسعة، هي استمرار لـ**"صوت الفلاح"**[600]، التي ظهرت في السنوات الخمسين (من القرن العشرين)، وكانت صوتاً مدوياً في مقارعة الإقطاعية وسيدها الاستعمار، هي استمرار لهذا الصوت، ولكن في ظروف جديدة أرقى وأفضل".

"وطريق الفلاحين"، كتب دانيال، "تعتمد على برنامج زراعي أقرّه المؤتمر الثالث لحزبنا الشيوعي السوري، الذي انعقد في أوائل حزيران عام 1969. وبالاستناد إلى ذلك البرنامج، فإن طريق الفلاحين مدعوة إلى تحقيق المطالب التالية:

1- تصفية بقايا العلاقات الإقطاعية كلياً.

2- السير في الطليعة مع المناضلين ضد الاستثمار الرأسمالي الكبير في الريف وللحد منه إلى أقصى مدى تسمح به الظروف.

3- العمل من أجل قطاع عام في الزراعة، يرتكز على بناء محطات

---

[599]- خلت المقالة من اسم كاتبها، لكن في إحدى نسخ هذه المجلة الموجودة في أرشيف دانيال نعمة مكتوب إلى يمين العنوان بالحبر، وبخط صاحب الأرشيف: "بقلم دانيال نعمة"، مما يؤكد أن المقالة له، وهو رئيس المكتب الفلاحي.

[600]- ونعتقد أن الذاكرة خانت دانيال، فاستبدل اسم "الأرض للفلاح"، وهي مجلة كان دانيال من محرريها الرئيسيين كما رأينا، "بصوت الفلاح"، وربما كان هناك مجلة ثانية صدرت قبل أو بعد الأرض للفلاح، ولم يصلنا أي عدد منها!، وهذا ما نستبعده.

للآلات، تساهم في نشر التعاون ومساعدة الفلاحين الفرديين فقراء ومتوسطين، ويعتمد على إقامة مزارع دولة إنتاجية ونموذجية.

4- ... نشر التعاون الزراعي على أوسع نطاق.

5- النضال العنيد من أجل استخدام منجزات العلوم والتكنيك.

6- الاستناد إلى جهود وكفاح العمال الزراعيين والفلاحين الفقراء والمتوسطين من خلال تحالف وثيق بينهم وبين جماهير العمال والمثقفين الثوريين في المدن".

وختم دانيال افتتاحية "طريق الفلاحين" بالدعوة إلى "إقامة أوسع وأوثق تعاون بين الشيوعيين والبعثيين والاشتراكيين العرب وكل التقدميين الآخرين في الريف السوري".

العدد الثاني من "صوت الفلاحين" الصادر في دمشق أواخر آب 1971 تضمن عدة مواضيع أهمها: مدخل إلى فهم طبيعة التعاون والتعاونيات، الأراضي التي هرّبها الإقطاعيون وطرق استعادتها، القطن وأهميته، حول أزمة الأعلاف في القطر العربي السوري.

العددان الثالث والرابع من طريق الفلاحين الصادران في تشرين الأول - تشرين الثاني عام 1971، احتويا مواضيع عدة أهمها: فلاحونا وثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، بناء الاشتراكية في الريف وخبرة البلدان الاشتراكية، الفلاحون والمصارف الزراعية، حزب الطليعة الاشتراكية الجزائري والإصلاح الزراعي، المطالب الشعبية الفلاحية.

العدد الخامس وأهم عناوينه: التعاون في البلدان النامية، صيانة مزارع الدولة وتوسيعها وتطويرها ضرورة اقتصادية واجتماعية وسياسية، صناعة الألبان وتأمين الغذاء الصحي لجماهير الشعب، مطالب الفلاحين في صحف المنطقيات، العناية بتحسين زراعة الشمندر السكري مطلب هام للفلاحين وللاقتصاد الوطني، أخبار فلاحية.

يتبين من استعراض هذه المواضيع أن أهداف جريدة "الأرض للفلاح" في خمسينيات القرن العشرين تختلف في كثير من النواحي عن أهداف الحركة الفلاحية في سبعينيات القرن العشرين، لكن تسديد الرمي يتمحور في الدفاع عن الفلاحين وتحسين ظروف حياتهم.

ثانياً- المكتب الفلاحي - الزراعي ومهامه بإشراف دانيال نعمة

يتبدى اهتمام دانيال نعمة بالمسألة الزراعية، التي أصبح مختصاً بها،

والمسؤول الأول عن تطوراتها، من خلال "**مشروع رسالة إلى اللجان المنطقية من المكتب الزراعي المركزي**"، كتبها نعمة في أواسط شباط 1975، ولأخذ فكرة عن واقع المسألة الزراعية وعمل الحزب الشيوعي بين الفلاحين وطموحه باتجاه انتصار التعاون والسير نحو علاقات اشتراكية حقيقية ننقل هذه الرسالة في ما يلي:

"إن مهمة هذا المكتب دراسية وتوجيهية، وهو مكلف بوضع الدراسات والأبحاث المتعلقة بحل المسألة الزراعية، وبرسم الاتجاهات الأساسية المرتبطة بنضالات الفلاحين ومشاكلهم الحياتية وتحديد مطالبهم الملموسة... إلخ.

ولا ريب في أن الهادي والموجه لعمل المكتب الفلاحي - الزراعي إنما هو تعاليم الماركسية اللينينية (نظرية الاشتراكية العلمية) وترسانة الخبرة الكبرى والتجارب الغنية التي كدستها منظومة البلدان الاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد السوفييتي، كما يستوحي المكتب في نشاطه وأعماله، ومن منطلق علمي- انتقادي، تجربة البلدان العربية في مجال الإصلاح الزراعي (تجربة مصر، الجزائر، العراق... إلخ).

وواضح أن الغرض من هذا كله هو مساعدة منظمات الحزب، وكذلك القوى الوطنية التقدمية، على معرفة الواقع الراهن كما هو في الريف السوري، واتجاهات وآفاق تطوره اللاحقة، ومساندتها في نضالها لحل المسألة الزراعية حلاً جذرياً، حلاً ديمقراطياً ثورياً يصفي كلياً وفي جميع المجالات بقايا العلاقات الإقطاعية، ويدفع التطور لا باتجاه انتصار العلاقات الرأسمالية في الريف السوري، بل باتجاه انتصار التعاون الزراعي والسير نحو علاقات اشتراكية حقيقية. وبكلمة أخرى، فإن الهدف من مجمل هذا النشاط هو المساعدة في أنْ يتحقق في الحياة البرنامج الزراعي للحزب الشيوعي السوري.

ولا بد لذلك من أن نكتب بصورة منتظمة وموسعة وعميقة حول جميع هذه القضايا والمواضيع في الجريدة المركزية للحزب (**نضال الشعب**)، كما أنه يمكن التفكير في مرحلة قادمة بالعودة إلى إصدار (**طريق الفلاحين**)، بصورة منتظمة ومحسنة محتوى وإخراجاً، كذلك لا غنى عن إعداد الدراسات والأبحاث المتعلقة بحياة الريف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وبحالته الفكرية، على أن يتم هذا كله على نحو مدروس ومبرمج بصورة علمية.

ومن الجلي أن جملة جوانب عمل المكتب الفلاحي ينبغي أن تؤدي إلى:

1- إعطاء صورة واقعية حقيقية موضوعية عن الوضع الراهن في الريف السوري من جميع الجوانب والاتجاهات، (الحياة الاقتصادية والاجتماعية، علاقات الإنتاج الحالية... إلخ).

مثلاً، لا بد من معرفة كاملة بأوضاع الأراضي الزراعية وإمكانيات توسيعها والإفادة منها، ومن معرفة كاملة بأوضاع الأراضي المروية والمشجرة وإمكانيات الاستفادة منها إلى أقصى حد وتوسيعها.

ومن معرفة بأشكال الملكيات السائدة حالياً، وبوزن كل شكل منها، وبأثره في حياة الريف خاصة، والبلاد كلها عامة، (بقايا العلاقات الإقطاعية، العلاقات الرأسمالية، الملكيات الصغيرة والمتوسطة، التعاون، القطاع العام الزراعي... إلخ)، ومن دراسة لهجرة الفلاحين إلى المدينة وعواملها وطرق الحد منها وربط الفلاحين بأرضهم وإنتاجهم الزراعي... إلخ.

2- إعطاء صورة حقيقية واقعية وموضوعية عن تطبيق الإصلاح الزراعي والنتائج الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي أدى إليها، وهذا يقتضي معرفة بعدد الملاكين والإقطاعيين الذين شملهم الإصلاح الزراعي، وبالمساحات الفعلية التي صودرت منهم وجرى توزيعها على الفلاحين، ومعرفة بعدد الفلاحين المنتفعين بالإصلاح الزراعي وبأوضاعهم السابقة والحالية، ومعرفة بالتغييرات المختلفة التي أحدثها هذا الإصلاح في حياة الريف السوري: هل اجتث هذا الإصلاح العلاقات الإقطاعية القديمة كلياً، أم أن هذه العلاقات لا تزال قائمة وفعالة؟ وهل سرَّع هذا الإصلاح، وهو بالفعل يسرِّع، تطور العلاقات الرأسمالية في الريف؟ وما هي أساليب الاستثمار الرأسمالي الحالي؟ وما هي مظاهر تطوره وآفاقه؟

ثم لا بد من معرفة حقيقية بوضع التعاون الحالي في الزراعة السورية: نشوء هذا التعاون إثر الإصلاح الزراعي في مراحل تطوره وأوضاعه وآفاقه.

كما أنه لا بد من معرفة حقيقية بدور القطاع العام (قطاع الدولة) في الحياة الزراعية في سورية، ومن معرفة بسياسة الدولة في ميدان الزراعة وآثارها على مجمل التطور في الريف.

3- إعطـاء صـورة حقيقيـة وواقعيـة وموضـوعية عـن الأوضـاع السياسية والتنظيمية في الريف، وعن التنظيمات الفلاحية ودورنا فيها وطـرق تأثيرنـا علـى أعمالهـا وآفـاق تطورهـا، وهـذا يتطلـب معرفـة بالأوضـاع السياسـية وبـدور القـوى والأحـزاب السياسـية التقدميـة وغيـر التقدمية، ومعرفة بالتنظيم التعاوني وبالجمعيات الفلاحية، والآن بـالتنظيم النقابي الفلاحي الموحد.

4- إعطـاء صورة حقيقيـة علميـة للأوضـاع القانونيـة السـائدة لأثـر التشريعات القانونية الحالية السلبي والإيجابي في تطور الأوضاع في الريـف، وللمسـائل الحقوقيـة والقانونيـة الواجـب تأكيـدها أو الواجـب تعديلها: قانون العلاقات الزراعية، القانون المدني... إلخ.

5- إعطـاء صـورة واقعيـة حقيقيـة موضـوعية عـن مصـادر تمويـل الزراعـة السـورية، ولا بـد فـي هـذا المجـال مـن دراسـة عمـل المصـرف الزراعـي وأثـره الإيجـابي والسـلبي فـي تطبيـق الإصـلاح الزراعـي، (مساعدة القوانين الرأسمالية على الانتشار والتعمق، ومساندة الاتجاه نحو التعاون الزراعي وباتجاه الاشتراكية).

6- إعطـاء صـورة حقيقيـة واقعيـة موضـوعية عـن سـبل ووسـائل تحقيق الثورة الزراعية في شتى المجالات والحقول (زراعة الحبوب، زراعـة القطـن، مجـالات البسـتنة والأشـجار المثمـرة، تربيـة الحيوانـات والمواشي، صيد الأسماك... إلخ).

إن هـذا الموضـوع آنـي، وهـو مطـروح أمـام الحكـم والشـعب وأمـام حزبنـا، ويمكـن للاختصاصـين، وخصوصـاً المهندسـين الـزراعيين، أن يلعبوا الدور الرئيسي في توضيحه وإعطاء الأجوبة الملحة عليه.

إن معرفة ذلك كله ستساعد في تقديم الدراسات والأبحاث المطلوبة، وفي توضيح البرنامج الزراعي للحزب وتجنيد أوسع جماهير الفلاحين وكادحي الريف لحل مهماته وتحقيقه في الحياة، وبالتالي في دفع الريف السـوري للمسـاهمة بقسـطه فـي سـير تقـدم الـبلاد علـى طريـق التقـدم الاجتماعي باتجاه الاشتراكية.

7- وينبغي على المكتب الفلاحي - الزراعي أن يولي اهتماماً كبيراً لجملة من الأمور المفيدة والضرورية لنضالنا نحن بالذات وهي:

أ- إعطاء صورة عما يجري في البلدان العربية في مجال الإصلاح الزراعي، وتعريـف جماهيرنـا الفلاحيـة ومنظمـات حزبنـا بمنجـزات هـذه

البلدان، وترتدي أهمية خاصة معرفة ما جرى ويجري الآن، وخصوصاً في الجزائر والعراق ومصر وغيرها.

ب- دراسة تجربة البلدان الاشتراكية، وخصوصاً تجارب الاتحاد السوفييتي وألمانيا الديمقراطية وبلغاريا وغيرها من البلدان الاشتراكية، والعمل كي تستفيد بلادنا من هذه التجارب بقدر ما تمكنها من ذلك ظروفها الحالية.

8- وينبغي على المكتب الفلاحي - الزراعي أن يساهم هو أيضاً في إعطاء صورة عن الحياة الواقعية السياسية والاجتماعية والثقافية في الريف السوري.

إن تحقيق جملة هذه الاتجاهات رهن باتخاذ التدابير التنظيمية الواجبة، سواء على نطاق المركز أو في المحافظات، وبالعمل الدؤوب وفق برامج مدروسة وعلمية يجري وضعها وتدقيقها وإغناؤها وتطورها من خلال العمل، وفي ضوء النظرة الانتقادية البناءة.

وبكلمة أخرى، لا بد بعد أن تشكل المكتب من أن يباشر عمله، ويضع نظاماً لاجتماعاته ومخططات وبرامج أولية لأعماله القادمة، ولا شك في أن هذه الرسالة إن هي إلا خطوة أولية وجادة على هذا الطريق، كما أنه لا بد من أن تقوم اللجان المنطقية بتشكيل مكاتب فلاحية تعتمد هذه الاتجاهات، وتقسم العمل بين أعضائها، وتباشر صلاتها بالمركز وبالمكتب الفلاحي وتكاتبه ويكاتبها، وبهذا يدور دولاب العمل، ويبدأ بأخذ كامل مداه وأبعاده.

إننا نفكر بعقد اجتماع أولي للمكتب الفلاحي - الزراعي في الفترة القريبة القادمة، وذلك لوضع نظام عمل المكتب وإقراره ولتحديد برنامج النشاط القادم له، لمرحلة النصف الأول من هذا العام، وربما للعام الحالي كله، وكذلك لتقسيم العمل بين الرفاق، بحيث تتحدد الواجبات والمسؤوليات. وهنا لا بد من الإشارة إلى ضرورة التخصص في قضايا التعاون والتنظيم الفلاحي، وفي قضايا الإصلاح الزراعي واستصلاح الأراضي وفي القضايا الحقوقية، وكذلك في القضايا الزراعية، ومن هنا يتبين أن الاجتماع الأول سيكون مفيداً ومثمراً بمقدار ما يكون الرفاق قد حضَّروا له على ضوء هذه الرسالة.

قضايا إضافية

لا ريب في أن المكتب الفلاحي - الزراعي عليه أن يساهم بجهد

ملحوظ في المساعدة على دراسة وتدريس أهم المؤلفات الماركسية المتوفرة لدى الحزب والمتعلقة بالقضايا الفلاحية والزراعية، وبكلمة أخرى، سيكون بين واجبات المكتب العمل على الاستفادة من كتابات لينين حول هذه القضايا، وهنا يلعب دوراً خاصاً كتاباته المجموعة في مجلد خاص بعنوان **"تحالف العمال والفلاحين"**، كما أنه سيكون مفيداً جداً الإطلاع على الوثائق البرنامجية السوفييتية المتعلقة بالقضايا الزراعية.

كذلك لا بد من دراسة مسهبة ومعمقة للبرنامج الزراعي للحزب، ولكل الوثائق البرنامجية لديه والمتعلقة بموضوعنا هذا، كذلك سيكون أمامنا أن نبحث بدقة ووضوح وبمرونة نشاط اتحاد الفلاحين وضرورة توثيق صلاتنا بالمنظمات الفلاحية وبالروابط والهيئات القيادية لهذا التنظيم، كذلك سيكون أمامنا وضع مهمات مطلبية ملموسة والبحث في أفضل الأشكال المناسبة لمتابعة النضال في سبيل تحقيقها.

ختاماً، لكم أيها الرفاق أحر تحياتنا الشيوعية، ونأمل باستلام أجوبتكم في أقرب فرصة ممكنة، وفي فترة لا تتعدى الثلث الأول من شهر آذار القادم.

ملاحظة إضافية

أ ليس من المفيد التفكير بالكتابة حول نضال حزبنا خلال المرحلة السابقة من أجل تحقيق الإصلاح الزراعي ومطالب جماهير الفلاحين؟ ثم ألن يكون هاماً الكتابة في كل محافظة حول أبرز النضالات الفلاحية التي تمت وساهمنا فيها، وحول أشكال النضال وأهدافه والمطالب التي طرحت خلالها؟

إن المكتب الفلاحي يرى مفيداً التذكير بالصفحات المجيدة لنضال حزبنا ورفاقنا، والدور الذي لعبوه، والأثر الذي تركوه في تطور الأوضاع، ثم إن مثل هذه الكتابات ستكون زاداً لمناضلي حزبنا في المرحلة الحالية والظروف الجديدة.

ثالثاً- تقرير المكتب الفلاحي بخط دانيال نعمة

لمحة تاريخية عن نشوء المكتب الفلاحي

إن فكرة تشكيل مكتب يعنى بقضايا الجماهير الفلاحية هي فكرة

قديمة، انطلاقاً من أن جماهير الفلاحين هم الحليف الأكيد للطبقة العاملة في جميع مراحل نضالهم من أجل حل مهماتهم الاجتماعية والسياسية.

في مرحلة الثورة الديمقراطية، وفي الثورة الاشتراكية

لقد كانت المحاولة التي جرت عام (1959-1960) هي النواة الجنينية لتشكيل مكتب للفلاحين، فقد كلف أحد الرفاق في القيادة المركزية بهذه المسؤولية بالتعاون مع الرفاق المسؤولين، ثم أضيف مساعد للمسؤول، وتم ذلك سنة 1964 بعد أحداث 8 آذار، وهو الرفيق معروف[601].

وفي هذا الوقت أخذت مهمة ملحة تنتصب أمام هذه النواة الجديدة، وهي مهمة تنظيم مشروع البرنامج الزراعي للحزب لتقديمه إلى المؤتمر الثالث للحزب، بهذا فقد أُلحِقَ الرفيق غسان، وفيما بعد انضم الرفيق أبو رعد إليه، وبهذا أصبح المكتب مؤلف من أربعة رفاق.

والجدير بالذكر أن المكتب الفلاحي هذا كان يلجأ دائماً في نشاطه إلى عقد اجتماعات موسعة يحضرها نشطاء المنظمات المنطقية العاملين في الريف، وكانت هذه الاجتماعات الموسعة تُعْقَد حسب الظروف.

وقد حدد المكتب الفلاحي جملة أهداف لنشاطه تتلخص في ما يلي:

- متابعة تنفيذ قانون الإصلاح الزراعي في مصر وسورية آنذاك، وقد أصدر بعض الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع ذات طابع برنامجي.
- مساعدة الرفاق في الريف في نضالهم لتحديد المطالب المتنوعة الأساسية والجزئية للجماهير الفلاحية، ولتحقيق هذه المطالب.
- العمل والمساهمة في الحركة النقابية الفلاحية.
- محاولة فهم جوهر وأشكال التعاونيات في بلادنا، مع النضال للمساهمة في إنشائها وتحسينها لصالح جماهير الفلاحين في الريف.

لقد انشغل المكتب الفلاحي في المدة الممتدة من سنة 1965 حتى انعقاد المؤتمر الثالث للحزب بالقضايا التالية:

- إعداد مشروع البرنامج الزراعي للمؤتمر الثالث للحزب، وقد أعد من أجل هذا الغرض مشروع قـُدِّم للمنطقيات لوضع الملاحظات، ثم نظم مشروع آخر بعد الاطلاع على ملاحظات المنطقيات وأخذ الملائم منها. ثم أعد المشروع الأخير، الذي قـُدِّم للمركزية، وأقرته بعد إدخال

[601]- معروف هو الاسم الحركي للرفيق مشهور غريبة.

تعديلات جزئية عليه وعرضه على المناقشة في المؤتمر.
- دراسة الموقف من قانون التنظيم الفلاحي بعد دراسته وتحديد الايجابيات والنواقص وتقديم المقترحات لتحسينه مع إقرار الاشتراك في هذا التنظيم الفلاحي الجديد، وجرت اجتماعات مع الكوادر الفلاحية لتوضيح هذه الظاهرة، والاستفادة منها لصالح النضال الطبقي في الريف ولمصلحة الفلاحين الفقراء والعمال الزراعيين.
- الدراسة المستمرة لقانون الإصلاح الزراعي وتقديم المقترحات لتطويره لصالح الفلاحين الفقراء، بعد أن حددت جوانبه الإيجابية والسلبية.

فترة ما بعد المؤتمر الثالث للحزب إلى نهاية عام 1969

بعد انعقاد المؤتمر الثالث أدخل تعديل على المكتب، وذلك بقرار من اللجنة المركزية، وفي اجتماع لها بحثت فيه قضية المكاتب في الحزب، فضمَّ الرفيقين أبا السعد وبديع[602]، وأصبح المكتب الفلاحي مشكلاً من سامي ومعروف وأبي رعد وأبي السعد وبديع.

وأخذ المكتب يعقد اجتماعات دورية أسبوعية اتخذت في البداية طابعاً نشيطاً، كانت تجري فيها نقاشات نظرية وعملية هامة حول العديد من المقترحات الإيجابية، فمن الناحية التنظيمية عُيِّن سكرتير للمكتب، واختص أحد الرفاق بالتعاونيات وآخر بالنشاط الفلاحي وتنظيمه... إلخ.

كما نوقش موضوع دراسة وتوضيح البرنامج الزراعي للحزب، وقرر القيام بزيارات للمنطقيات، وبالفعل زار المكتب حلب وإدلب والغاب والجزيرة والدير وحمص وحماة واللاذقية وطرطوس وعفرين، وعقدت فيها اجتماعات كثيرة، جرى الحديث فيها عن مهمات البرنامج الزراعي، كما نوقشت قضية الإصلاح الزراعي والتعاونيات والتنظيم الفلاحي، وأكد فيها أهمية دور الحزب في النضال لتحقيق كل ذلك.

كما اهتم المكتب الفلاحي بانتخاب الهيئات القائدة للتعاونيات الزراعية، وأوصى بضرورة النضال والنشاط، وأن تساهم المنظمات بانتخابات هذه الهيئات، كما أرسل المكتب رسالة إلى المنطقيات لتقدم بعض الملاحظات والمساعدات إلى المنطقيات، لكي تؤثر أكثر في مجرى الانتخابات وفي مقررات وتوجيهات المؤتمر التعاوني الأول،

---

[602]- بديع هو الاسم الحركي للرفيق بدر الطويل.

كما كتبت مقالة تحت عنوان **"على أبواب المؤتمر التعاوني الأول"** لم تُنشر لأسباب فنية، وكتبت مقالة أخرى في "نضال الشعب" تُقيِّم هذا المؤتمر.

كما قام المكتب الفلاحي بمتابعة قضية الغاب، وقد ساهم بمختلف السبل في معالجة هذه القضية، وذلك عن طريق الصحيفة المركزية، ونشرة (العاصي)، والصلات بالبعث وبوزير الإصلاح الزراعي.

كما قام المكتب بعقد اجتماع للكادر الفلاحي في أعقاب الاجتماع الموسع للجنة المركزية، بحث فيه قضية الانتخابات الفلاحية، ووضعت خطة للعمل تجلت في الاجتماعات وفي الرسائل التي وجهت إلى المناطق لهذا الغرض.

وفي هذه المرحلة جرى البحث وإقرار إصدار نشرة خاصة للفلاحين، وتنظيم وفود لزيارة البلدان الاشتراكية، فقد سافر وفد من معروف وبديع إلى بلغاريا من أجل حضور دورة دراسية، استمع فيها الرفاق إلى محاضرات تتحدث عن تجربة بناء التعاون في بلغاريا وأفق تطورها، كما أكد المكتب ضرورة إرسال رفاق من الريف لدراسة قضية التعاون في المعسكر الاشتراكي.

ومع نهاية عام 1969 أخذ نشاط المكتب يتعثر، فنشاطه الكتابي قد خف، وانعدمت المراقبة، وتبعثر أعضاؤه، وأخذوا مهمات أخرى، الأمر الذي أضعف الاهتمام بنشاطه، ولكن رغم ذلك كان الرفيق سامي أكثر الرفاق اهتماماً به وببعثه ودفعه للنشاط كل مرة، بل الحقيقة أنه هو وحده الذي كان يقوم بتنفيذ بعض مهامه، فبمبادرة منه دُعي إلى اجتماع أيار 1970 حضرته كوادر فلاحية من أكثر المحافظات، بحثت قضايا كثيرة تتعلق بالنضال الزراعي والفلاحي، واتخذت قرارات وتوصيات.

وبمبادرة أيضاً من الرفيق سامي[603] قام المكتب الفلاحي بعقد اجتماعات في شهر آب المنصرم في بعض المحافظات، طُرِحَت فيها القضايا التالية:

- مدى إنجاز مهام الثورة الديمقراطية في القضية الزراعية.
- البرنامج الزراعي للحزب ووسائل تدريبية وتطبيقية.
- التعاون.
- المنظمات الفلاحية.

---

[603]- أحد الأسماء السرية لدانيال نعمة.

- المطالب الفلاحية.

في الأشهر الأخيرة يمكن القول إن المكتب لم يكن موجوداً فعلاً، فصارت الاجتماعات ضمن الإشراف ومراقبة التنفيذ، وفترت همة كل الرفاق أعضاء المكتب، ومع ذلك فقد استطاع المكتب الفلاحي أن يساهم مع القيادة في توحيد رأي الحزب في النظر إلى الحركة التعاونية والحركة الفلاحية في الريف، الأمر الذي ساعد على تجنب بعض الميول اليسارية واليمينية في المنظمات، وذلك في الموقف من هاتين الظاهرتين الجديدتين (التعاون، والتنظيم الفلاحي).

في البدء كان المكتب بغالبية أعضائه يرغبون فعلاً في إنجاح عمله وتطوير نشاطه، وكثيراً ما كانت تغدق الوعود باستمرار زيارات المنطقيات، وبإصدار مجلة ودراسة وتعميم التجارب الناجحة هنا وهناك في ميدان التعاون أو في ميدان التنظيم الفلاحي.

وإننا نقول صادقين إن المكتب الفلاحي بكل أعضائه مسؤولون عن الوضع الذي ساد ويسود المكتب الفلاحي، إلا أننا لا يمكن إلا أن نضع بعض الملاحظات التي تتلخص:

- لم يستطع المكتب الفلاحي أن يحدد برنامجاً عاماً للعمل، رغم اتخاذ بعض القرارات والقيام ببعض النشاطات.

- لم يستطع المكتب الفلاحي أن يساعد بتدريس البرنامج الزراعي للحزب.

- لم يستطع المكتب أن يقيم دورات للتدريس مركزية، أو أن يساعد في تنظيم دورات تدريسية في المنطقيات.

- لم يستطع أن يخلق صلات صحيحة مع المنطقيات من أجل إقامة تعاون حسن بينهما.

- ما يزال الميدان الفلاحي لا يحظى بالاهتمام الكافي من الحزب، على الأقل من الناحية العملية.

- لم يجر تحديد واضح لصلاحيات المكتب الفلاحي.

- لقد سحب الوضع الذي ساد الحزب ذيوله على نشاط المكتب الفلاحي.

- الرفاق أعضاء المكتب الفلاحي كلهم كانوا يقومون بمهمات هامة أخرى.

رغم كل الصعوبات والنواقص الذاتية والموضوعية، التي اكتنفت

تشكيل ونشاطات المكتب الفلاحي، فهذا لا يعني أن فكرة إنشاء المكتب هي فكرة خاطئة، بل على العكس، إن النشاطات البسيطة التي قام بها المكتب تؤكد فائدة هذه الفكرة وأهميتها.

إن وجود مكتب تابع للجنة المركزية يهتم بكل قضايا الحزب المتعلقة بالريف ضروري، ولكن من أجل إنجاح مثل هذا المكتب لا بد من وضع الاقتراحات لحل المشاكل المرتبطة بالنقاط الآتية:

- عدم إيلاء المكتب كل أوقاتنا.
- مر المكتب بمرحلة لا يعرف مهماته وإمكانات عمله على نطاق البلاد.
- الوضع السياسي وتأثيره.
- ما يزال الميدان الفلاحي لا يولى الاهتمام الكافي من الناحية العملية.
- عدم تدريس برامج الحزب: الزراعي، الاقتصادي... إلخ.
- عدم فتح دورات للتدريس.
- تعاون المنطقيات ضعيف مع المكتب.
- الهرب من العمل بين الفلاحين.
- ضرورة المكتب وأهميته.
- تفريغ رفاق له.
- إعطاء صلاحيات الإشراف على تنفيذ المقررات.

الفصل السابع
مختارات من العناوين الكثيرة جداً
لأبحاث ومقالات ومحاضرات دانيال نعمة بعد 1970

1- "التعاون الزراعي في البلدان النامية"، تأليف إيفان عمروفيتش فريزوف.

استهوى عنوان هذا الكتاب وموضوعاته دانيال نعمة، فقام بترجمته من الروسية إلى العربية، وانتهى من الترجمة الأولية في الأول من أيار عام 1976، ويبدو أن ضغط العمل السياسي لم يفسح المجال أمام دانيال

لإعادة تدقيق الكتاب ونشره، وقد وجد لؤي بن دانيال، المهتم بتراث والده، المخطوط المترجم بين أوراق دانيال، الذي كان ينظم أوراقه وأعماله الفكرية، ويحفظها في مغلفات كتب عليها ما يتضمنه المغلَّف، وهكذا نقرأ على الظرف الكبير الخارجي الجملة التالية: "ترجمة أولية دون تدقيق لكتاب التعاون الزراعي في البلدان النامية". يتألف الكتاب المترجَم إلى العربية بقلم دانيال نعمة من مقدمة وثمانية فصول وخاتمة، ويقع في ثلاثمئة صفحة بخط دانيال.إنسان اليوم، الذي يعيش عصر الخصخصة ومحو المساعي التي جرت في القرن العشرين لوضع الاقتصاد على "سكة" الملكية العامة لوسائل الإنتاج، يرى أن جهوداً صُرِفت دون جدوى. ومن يدري، فقد تقوم البشرية أو جزء منها، بعد أن تتكشف المطامع الاستغلالية للرأسمالية، وتفشل في تحقيق أحلام الشعوب المتطلعة إلى الحياة السعيدة لجميع بني البشر، بالعمل لبناء أسس اقتصادية جديدة تعتمد مرة ثانية على مبدأ الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج؟ هل هذا الاحتمال شطحة من شطحات الخيال، أم إنه سنة من سنن التطور البشري؟ ومهما يكن من أمر، فإن قيام دانيال نعمة بترجمة هذا البحث عن التعاونيات الزراعية مؤشر على أخلاق الرجل وطموحه لإسعاد الأكثرية الساحقة من بني البشر، وهذه الترجمة برهان على أن الرجل يحمل الهم الوطني، ويسعى إلى تطوير بلاده. أ لم يعرف التاريخ عشرات المفكرين والمبدعين، الذين طمحوا إلى إسعاد شعبهم والبشرية، ودعوا في أعمالهم الفكرية إلى التقدم والمساواة دون أن تتحقق أمانيهم؟ وهؤلاء تُجلُّهم البشرية التقدمية، وتكتب عن أعمالهم بمداد الفخر.

2- "التثقيف السياسي الجديد بالمنظور الماركسي اللينيني: مفهومه، مغزاه، والموقف منه". *(نص المحاضرة التي ألقاها دانيال نعمة أمام الدورة التثقيفية، التي نظمها مكتب التثقيف والنشر على شرف الذكرى السبعين لثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، مجلة "دراسات اشتراكية"، 1987، العدد الثامن).*

3- مخطوط كتاب: "المؤتمر السابع الموحد والحزب". في أكثر من 120 صفحة قياس A4، أعيد النظر به في فصول ونُشِرت بعض فصول منه في أعداد دراسات إشتراكية: (129)، (131-132)، (136)، ... .

4- "تحالفات الطبقة العاملة وحزبها السياسي"، *(مقالة نُشرت في "دراسات اشتراكية"، حزيران 1985، ص 76-89).*

5- مشاريع قرارات حول التواريخ اليوبيلية لتأسيس الحزب الشيوعي السوري (الذكرى الستين، الذكرى السبعين، ...).
6- "الصين بعد ماوتسي تونغ"، *(مقالة نشرتها مجلة "**كومونيست**" الشيوعية السوفييتية، وترجمها دانيال، وأصل الترجمة المقالة موجود بين أوراقه)*. كما وترجم الكثير من المقالات والبحوث التي نُشِرَت في صحافة الحزب.
6- بحث فكري: "وحدة حزبنا الشيوعي السوري هي المطلوبة لا الانقسام"، مخطوط من 41 صفحة قياس A4، طُبِعت ووزعها الحزب قبيل عقد بكداش مؤتمره السادس منفرداً عن رفاقه عام 1985.
7- بحث فكري تنظيمي: "هل في حزبنا الشيوعي عبادة فرد؟"، مخطوط من 24 صفحة قياس A4، طُبِعت ووزعها الحزب قبيل عقد المؤتمر السادس للحزب عام 1986.
8- شارك دانيال نعمة بصفته عضو المكتب السياسي، ومسؤول المكتب الفكري التابع للجنة المركزية في لقاء براغ أواخر تشرين الثاني 1982 لمناقشة عمل مجلة **"قضايا السلم والاشتراكية"**، وقد حمل دانيال نعمة في كلمته أمام الوفود على الاستعمار الأمريكي حملة شعواء، مبيِّناً أن الهجمة الأمريكية تلقى مقاومة عربية في عدد من الأقطار، وتسترعي الانتباه كلمة نعمة في الجلسة الختامية بصفته رئيسها، فقد حيَّا الداعين إلى "رد الأخطار عن هذا الكوكب وهذه الشعوب"، والسائرين "في طريق تنقية هذه الأوضاع وجعل الحياة أكثر جمالاً وأكثر سعادة بالنسبة لجميع شعوب الأرض وكل الكادحين عليها"، وختم قائلاً: "إن الأيام التي قضيناها في عملنا النبيل المفعم بمثل السلام والخير والعدالة والروح الإنسانية، هي أيام لن تنسى".
9- مقالة "بيروت العظيمة"، التي اعتمدت افتتاحية لجريدة "نضال الشعب"، العدد 335، شباط 1984.
10- دراسة: "بعض الآراء الأولية حول الوثيقة الاقتصادية /مذكرة في المجال الاقتصادي/ المقدمة إلى رئاسة مجلس الوزراء".
11- مقالات تعالج الشؤون المحلية، منها: "ينبغي احترام عقائد الناس وكراماتهم، 1981؛ "دور الجماهير الشعبية أساسي وحاسم"، نضال الشعب، 22 حزيران 1983؛ "تأمين الخبز عنصر أساسي في الدفاع عن مصالح الجماهير وضمان الاستقرار في البلاد"، 1989؛ و"أبعد من الخيال ولكن في مجالي التزوير والاختلاس"، النور، العدد 118، 2003.

الخاتمة

نختم هذا الكتاب مع انتهاء المراحل الصاعدة لحركة النهضة العربية في الثلثين الأولين للقرن العشرين وبداية الانحسار لمسار الحركة النهضوية العربية ودخول العالم العربي مرحلة مأسوية، وقع فيها طريحاً بين سندان القوى الصهيونية والاستعمارية الأمريكية ومطرقة القوى الداخلية المتمثلة في ظاهرتين: ظاهرة ازدياد هيمنة العساكر على المجتمع وتحجيم نشاطاته الإبداعية، وظاهرة صعود التيارات الدينية المتزمتة والمتحجرة وانغماس أعداد غفيرة من الشباب في النشاطات الدينية، إضافة إلى خفوت وهج "السلفية النهضوية"[604] وانطفائها.

ولعل من المفيد المقارنة بين البنية الاجتماعية في خمسينيات القرن العشرين وبنية عدد من المجتمعات العربية، ومنها سورية، في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، كي نتلمس جوانب هامة لأسباب الانكفاء والتراجع في الحركة الثورية العربية، فالحالة السورية في خمسينيات القرن العشرين اتصفت بأربع ظواهر:

- دور ملحوظ للبورجوازية الوطنية المنتجة.
- "الغليان النهضوي" في صفوف الفئات الوسيطة، التي كانت تعج بالوطنية، وتتطلع إلى الصعود نحو الأعلى للحلول محل طبقتي الملاك والبرجوازية المسيطرتين على الدولة.
- تكوّن الطبقة العاملة، والسعي لإقامة حركة نقابية لا تخضع لنفوذ الفئات الحاكمة من برجوازية وإقطاعية.
- تحرك الفلاحين الخاضعين لنظام المحاصصة الإقطاعي[605]، ودخول أبناء الفلاحين ذوي الملكيات الصغيرة حلبة النضالين الوطني والفكري السياسي من أبوابهما العريضة.

أما الحالة السورية في الربع الأخير من القرن العشرين فتتصف بالظواهر التالية:

---

[605]- السلفية النهضوية هي تيار ديني إسلامي مستنير، ظهر في عصر النهضة في أواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين، ومن رواده جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.

[606]- أثبتنا التحركات الفلاحية هذه في كتابنا الصادر عام 2003 عن دار الطليعة في بيروت، تحت عنوان: "الفلاحون وملاك الأرض في سورية القرن العشرين - دراسة تجمع بين التاريخ المروي والتاريخ المكتوب".

- غياب البرجوازية الوطنية المنتجة.
- تراجع عملية تكون طبقة عاملة، وإفراغ النقابات من محتواها، وجعلها ذيلاً للسلطة الطبقية (الطبقة الجديدة).
- تغيّرات كثيرة ومعقدة جرت في الريف الفلاحي بحاجة إلى دراسات ميدانية من باحثين مرتبطين بالشعب وبالوطن.
- تخلخل بنى الفئات الوسطى صعوداً وهبوطاً، وتغير نظراتها السابقة إلى الحياة ومصير الكون.
- انتشار ظاهرة التهميش الاقتصادي والاجتماعي والسياسي انتشاراً لم يسبق له مثيل فيما مضى من الزمن.

إذا أضفنا إلى ذلك دور العوامل الخارجية، فيما يتعلق بتراجع تأثير النموذج الاشتراكي، ثم زوال تأثيره بعد انهيار الاتحاد السوفييتي واحتلال النظام الدولي الجديد مركز الصدارة في العالم، ومن ثمّ تفرد الولايات المتحدة الأمريكية بمصير إدارة العالم، كل ذلك خلق ظروفاً غير ملائمة لعمل ونشاط ثوريي منتصف القرن العشرين، ومن ضمنهم المعني في هذا الكتاب دانيال نعمة.

اقتصر هذا الكتاب، إذن، على نشاط دانيال نعمة ونضاله في المراحل الأولى من حياته السياسية والحزبية والممتدة بين عام 1945 تاريخ انتسابه إلى الحزب الشيوعي السوري والسنوات الأول التي أعقبت المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي السوري 1969، وتزامنت هذه المراحل من عمر دانيال نعمة السياسي مع الصعود العارم لحركة التحرر الوطني العربية واحتلال التغيرات الاقتصادية الاجتماعية حيزاً واضحاً في ذلك النهوض، وفي هذه المراحل أبدع دانيال نعمة في ميادين عدة تناولتها فصول هذا الكتاب.

في الربع الأخير من القرن العشرين تراجعت الحركة الثورية العربية، وهيمنت على الساحة العربية قوى اجتماعية وفكرية يعيش العالم العربي وطأة طغيانها. دانيال نعمة المفعم بالأمل، والذي عاش ثلاثة عقود من حياته السياسية مناضلاً ومكافحاً ومضحياً، نظر إلى الأمور نظرة بحاجة إلى دراسة هادئة متأنية غير متوفرة الآن لكاتب هذه الأحرف. ولهذا، لن ندخل في المرحلة الثانية بعد 1970 من حياة دانيال نعمة السياسية، المتصفة بضغوط جملة عوامل داخلية وخارجية كان لها تأثيرها على مجرى حياته السياسية، ونختار هنا أمرين:

أولاً- احتدام الأزمة داخل الحزب الشيوعي، وتتابع الانقسامات داخل الحزب، الذي أخلص له دانيال نعمة إخلاصاً نلمسه في نشاطه العملي وكتاباته الغزيرة.

ثانياً - اختيار دانيال نعمة مع خالد بكداش ممثلَيْن للحزب الشيوعي السوري في الجبهة الوطنية التقدمية، ومعروف أن ميثاق تلك الجبهة حرَّم على أحزابها، ما عدا البعث، العمل في صفوف الطلاب والجيش، كما أن إحدى مواد الدستور نصّت على أن حزب البعث هو قائد الدولة والمجتمع، ومعنى ذلك أن دور الحزب الشيوعي تراجع إلى الصفوف الخلفية، وأصبح تأثيره هامشياً، وهذا ما أثار حفيظة واستياء أعداد كبيرة جداً من الشيوعيين وأصدقائهم، الذين أخذوا ينتقدون سياسة الحزب "الجبهوية"، ويبتعدون عنه، قابعين في بيوتهم، أو باحثين عن منظمات أخرى تحقق طموحهم في تقدم الوطن وازدهاره.

وهنا واجه دانيال نعمة ورفاقه من الشيوعيين العاملين في ميدان هذه "الجبهة" انتقادات مختلفة الألوان والأشكال والحِدَّة، وسنقدم مثالين من النقد الودي، وهما:

أولاً- ما كتبه المحامي الدكتور مصطفى أمين الشخصية الشيوعية المرموقة والمتزنة عن دانيال نعمة[606]، إذ قال:

"... بعد أن اختير الرفيق دانيال ممثلاً للحزب الشيوعي في قيادة الجبهة الوطنية التقدمية، لم ينقطع اللقاء بيننا، وغالباً ما كان يتم في مكتبي... خلال هذه اللقاءات، وأثناء مناقشة الأوضاع الداخلية والخارجية، كنا على اتفاق بالنسبة للسياسة الخارجية، ولكننا لم نكن على اتفاق بالنسبة للسياسة الداخلية. كنت من أنصار المطالبين بانفتاح الحكم على الشعب، وإطلاق الحريات العامة لتمتين وحدة الجبهة الداخلية، وقد لاحظت أن الافتتاحيات، التي كتبها دانيال في جريدة "النور"، تتعرض لمواضيع الديمقراطية والحريات والقوانين الاستثنائية لضمان الوحدة الوطنية ومجابهة الأخطار المحدقة بالوطن...".

ثانياً - الروائي المعروف حنا مينه نشر مقالة في جريدة تشرين[607] تحت عنوان: **"يا أبا خالد... سلاماً ووداعاً"**، ختمها بالفقرة المعبرة التالية:

---

[607]- نقلاً عن جريدة "النور" بتاريخ 2004/12/21.

[608]- "تشرين" تاريخ 28 أيلول 2004.

"يا أبا خالد، يا رفيق الدرب الطويل، طوبى لك نضالك، وطوبى لك دماثة خلقك، وطوبى لك في كل ما أصبت وأخطأت، فكلنا في العمل نُصيب ونخطئ، وهذا شأن العاملين والمناضلين وأنقياء القلوب".

* * *

وفي الختام نقتطف المقاطع التالية المعبرة والصادقة من كلمة خالد بن دانيال نعمة في التأبين الأربعيني لدانيال نعمة في مكتبة الأسد بتاريخ 26 كانون الثاني 2004:

"... كان الشعب والوطن والحزب ثلاثي هواجسه، الثلاثي الذي لم يفارقه لحظة لا في مجالس الفرح ولا في مجالس الحزن.

وكانت خياراته وقناعاته واضحة وثابتة، لم تهزها المتغيرات أو تزعزعها، وقد وضحتها مساهمته في المناقشة العامة على أبواب المؤتمر السابع للحزب في مقالته المنشورة في جريدة **"النداء"** في 22 أيلول من عام 1991 تحت عنوان **"من أجل تصحيح المسار وانطلاقة جديدة"**، إذ جاء فيها:

"ومن جهتي، لو عادت الحياة مرة أُخرى، لما انتسبت إلى حزب غير الحزب الشيوعي السوري، ولكنني كنتُ سأُناضل بأساليب أُخرى، ثم لو أن ثلثي شعب سورية أصبح من الأغنياء، فسأظل منحازاً للثلث الفقير، إلى أن يصبح هو أيضاً من الأغنياء، وإلى أن يتحرر الجميع من كل أشكال العبودية".

كان رهانه الأكبر على الشعب وإبداعاته، ففي إحدى مقالته، وهي **"الجلاء العظيم شمسنا المنيرة الدافئة"**[608]، جاء ما يلي:

"واليوم، بعد أن تقدَّم بنا العمر كل هذا القدر من السنين، واليوم، بعد أن جرت مياه كثيرة في نهر الحياة المتدفق، وبعد أن شهدنا ما شهدنا من أحداث ومتغيرات، ماذا يمكن أن نقول، ونحن نستعد للقاء العيد الذهبي للجلاء؟ وهل يحق لنا ألا نستقبل هذه الذكرى الأكثر حميمية بفرح وسرور عظيمين وبغبطة عامرة؟ وبالفعل أ ليس مصدراً للسعادة أن يعيش المرء فرحة الجلاء في عيده الأول، وأن يعيش فرحة ذكراه الخمسين، وأن تكون مسيرة حياته استمراراً لنضال دؤوب في سبيل القيم، التي قادتنا إلى الجلاء، وترسخت في نفوسنا

---

[609]- المنشورة عام 1995 بمناسبة الذكرى الخمسين للجلاء.

بعده؟

صحيح أننا كأفراد قد شخنا، ولكن الجلاء بكل ما يحتوي من قيم، ويحدد من أهداف، لم يشخ، ولن يشيخ. وصحيح أن شمسنا، نحن كأفراد، قد مالت إلى الغروب، ولكن الصحيح أكثر أن شمس الشعب والأمة لا يمكن أن تغيب، ولن تمنعها الحجب، مهما ادلهمّت، من أن تظل منيرة وضاءة تشع بالدفء والخير والآمال الكبار".

وكان ما ينفك يُذكّر بأنه مَدِين للآخرين، وهذا ما نراه في الكلمة التي ألقاها بتكليف من الرفاق المُكرَّمين في الاجتماع الاحتفالي للجنة المركزية في أيلول عام 1999، وفيها نقرأ ما يلي:

"لقد قيلت فينا، اليوم، كلمات حارة وصادقة. وبقناعة راسخة نرى، رفاقي وأنا، في هذه الكلمات: تكريماً لألوف الشيوعيين والشيوعيات، ممن هم داخل الحزب وخارجه، وللكثيرين من الجنود المجهولين، ممن قدموا الكثير من التضحيات في مختلف الظروف والمراحل".

انتهى المخطوط ***أواسط آذار 2009***

الملحق

... نحن، مقتنعون بأن التعددية السياسية والحزبية هي مستقبل كل البلدان، البعض يعيشها الآن، والبعض في طريقه المتدرج إليها، والبعض سيصلها عاجلاً أم آجلاً.
وجميع هذه البلدان أتت أو سوف تأتي إلى هذه التعددية عبر تجاربها الخاصة، وبطرائقها الخاصة، وبوتائرها الخاصة، ولن تنجو منها أية أقطار وبضمن ذلك أكثرها تخلفاً، أو أكثرها أصولية أية كانت هذه الأصولية، وسواء أكانت دينية أم إيديولوجية ولا فرق.
وهكذا فإننا نعتقد أن طريق الوحدة القادرة على جمع كل القوى الحية السليمة هي طريق التنوع في الأفكار والآراء والوحدة في الأهداف الملموسة والعمل.
أما تلك الوحدات التي ظننا طويلاً إمكان تحقيقها من منطلق الإيديولوجية الواحدة، فقد بينت تجارب العقود الأخيرة في الكثير من الدول على تنوع أنظمتها، تهافتها وعدم قدرتها على الصمود أمام القوة الفاعلة لقوانين تطور المجتمع.

دير عطية 15 آب 1992

دانيال نعمة

إلى الرفيق سكرتير منظمة الحزب في الجبل العلوي[609]

تحيات شيوعية.

صباح الأربعاء 14 أيلول 1949، أفاقت قرية المشتى في منطقة صافيتا على نشرات شيوعية بعنوان (بيان من اللجنة المركزية إلى الشعب السوري الأبي)، وقد وصل القليل القليل من النشرات الكثيرة الموزعة بشكل عام واسع عن طريق بعض الموظفين وبعض أفراد عصابة القوميين إلى مديرية الناحية، التي اهتمت للأمر، وأخبرت قيادة الفصيل في صافيتا. ونحو العاشرة، بينما كان الأستاذ دانيال نعمة برفقة بعض أصدقائه يقصد مقهى القرية، طلبه مدير الناحية وبعض الدرك، فاحتج، فلم ينفع الاحتجاج، ثم ذهب برفقة السيد نديم شحود من صافيتا إلى الكركون، حيث أوقفا حتى مجيء وكيل قائد الفصيل المسمى أبا حمدو، ثم بدأ الاستجواب، أولاً عن طريق التهديد، ثم عن طريق الترغيب والخداع، ولما لم يجدِ الخداع نفعاً، بدأ يستدعي أهل الموقوفين، وقد استدعى من جملة من استدعى حنا سليمان نعمة، والد الأستاذ دانيال، وبدأ بشكل علني يستفزه، ويهدده بارتكاب جناية مع ابنه في سبيل دفعه إلى الإقرار عن مكامن المنظمة، ولما لم تُجدِ هذه الأساليب نفعاً، استدعى شخصاً اسمه بدري الحلو، كان سابقاً سكرتير الفرقة في المشتى، وطُرد لـ......، فأعطى أسماء عدد من الشيوعيين، الذين لا يزال يعرفهم، فاستُدعي هؤلاء وأهلهم، وبدأ باستجوابهم، لكنه لم ينجح في انتزاع أية معلومات، فأرسل الدرك يفتشون البيوت، ويداهمون منازل الآمنين، عله يعثر على شيء، فلم يفلح. ثم أخذ يرسل الدرك إلى البيوت، ليجمعوا بيانات الحزب الموزعة، ولكنهم عادوا خائبين.

وكان الليل قد حلَّ على القرية، فأبقى دانيال نعمة ونديم شحود موقوفَيْن، وأرسل الباقين، ثم عاد صباحاً، وبدأ حملة استجوابات جديدة، فلم يكن حظه بأحسن من السابق، ولكنه مع هذا أوقف السادة طنوس عنتر، إبراهيم ديب، عزت بديع، جرجس ديبو طنوس، دانيال نعمة،

[609]) وثيقة من أرشيف الحزب الشيوعي السوري غير منشورة سابقاً، تنشر كما كتبت، وهي تعود إلى العام 1949، وتعكس حدة الصراع بين الشيوعيين والسوريين القوميين، وقد كان بدر مرجان آنذاك سكرتير منظمة الحزب الشيوعي في الجبل العلوي.

نديم شحود، وساقهم إلى صافيتا. وفي صافيتا، اضطر إلى إطلاق سراح الجميع على أن يعودوا إليه صباحاً، ليزودهم بمعلومات ونصائح طيبة.
وصباح اليوم الثاني، استفاقت القرية على نشرات شيوعية جديدة هي **(صرخة الجماهير)**، جريدة الجبل العلوي، فجن جنون القوميين، فلول عصابة سعادة، وجنون الدرك كذلك. ودفع هذا الحقد على النشاط الشيوعي فاشي اسمه رضوان تامر، مشهور بـ....، إلى أن يشي بخمسة أشخاص، هم: وديع خوري أستاذ مدرسة رسمية، وجميل بيطار عامل، وإلياس عطا سلوم تلميذ في الـ16 من عمره، وجرجس ديب زخور وعمره 14 سنة، والبطل ميخائيل إبراهيم أبو سمرا الطالب في تجهيز حلب وعمره 16 سنة، وساقوهم دون أدلة، وبشهادة رضوان الافترائية أمام الدرك، إلى صافيتا، أي مسافة 20 كيلومتراً.
وفي صافيتا، اتخذ التحقيق شكلاً وحشياً، فقد أنزل إلى النظارة دانيال نعمة وجرجس ديبو وعزت بديع وطنوس عنتر وإبراهيم ديب، وأبقي الباقون في غرفة بالقرب من غرفة أبي حمدو، ثم بدأ يستدعي كلاً بمفرده، فابتدأ أولاً بإلياس عطا، واستخدم معه طريقة وحشية، فصفعه على وجهه حتى أسال الدم من فمه، ثم بطحه أرضاً ، واستخدم طريقة الفلق التركية، وضربه أكثر من 40 عصاً، فلم ينجح في انتزاع إقرار منه. ثم استدعى ميخائيل أبو سمرا، وصفعه صفعاً قوياً، ثم ألقاه أرضاً أكثر من أربع مرات، وفي كل مرة كان يضربه ضرباً كثيراً قوياً ومؤلماً، ويرجح أن عدد الضربات التي انهالت على رجليه يبلغ 75 ضربة، كلها شديدة، ومع هذا بقي صامداً كالصخر. وقد اجتمعت صافيتا على أصوات الصراخ، مما حدا بقائد درك الفصيل أن يحيط السرايا بالدرك لحمايتها، ولما يئس دعا وديع خوري، ثم جميل بيطار، فلم ينتزع منهما شيئاً له قيمته، ولكن المؤسف أن جميل بيطار بعد خروجه من السجن هاجم الحزب.
وفي ظهر السبت، أطلق سراح الجميع، ما عدا الأستاذ دانيال نعمة، الذي قدم إلى المحاكمة هو والسيد فايز مطانيوس حلو بتهمة التحريض على الثورة، واقتناء النشرات، وتحريض عناصر الأمة، وتأليبها بعضها ضد بعض. وظـُهْرَ الأحد نظرت المحكمة بالأمر، وحكمت بالبراءة.
أما السيد نديم شحود المظنون في الدعوى، فقد كان حتى اليوم متوارياً عن الأنظار، والمرجح أن يحكم بالبراءة نظراً لعدم ثبوت أية

تهمة ضده.

لقد كان لموقف منظمة المشتى شأناً عالياً في رفع معنويات الحزب في كل منطقة صافيتا، إذ إنها شجعت على القيام بأعمال أخرى أكثر ثورية، وأكثر عمقاً.

وسنخبركم في تقرير ثان عن وقع هذه الحادثة في مجموع المنطقة.

ودمتم.

ملاحظة:

في اليوم الأول من توقيفنا في صافيتا، وأثناء تعذيب بعض الشباب، حاولت جماعة من صافيتا أن تنقل للموقوفين فرشاً وطعاماً، فهددهم أبو حمدو بأنه سيمزق الفرشات، ويرمي بالطعام بعيداً. وهكذا، ترك الموقوفين دون فرش ودون طعام حتى ظهر اليوم الثاني من التوقيف.

إقامة الدعوى من قبل ميخائيل أبو سمرا وإلياس سلوم.

تقرير عن حزب الإصلاح الريفي[610]

نشأته

بدأ على شكل جمعية محلية في الجبل العلوي، هدفها النهوض بمستوى الفلاحين هناك وتعليمهم وتحسين أحوالهم، وإلى درجة ما مقاومة الإقطاعية المتفشية، وكان القائمون على هذه الجمعية نخبة من الطلاب والمثقفين الناقمين على تلك الأوضاع، وكان ذلك منذ سبع سنوات.

تطوره

تطورت الجمعية منذ ذلك الحين، حتى أصبحت اليوم تضم، على ما ذًكر لي، 211 شاباً معظمهم من الطلاب، وبدأت تأخذ اتجاهاً أكثر وضوحاً من ذي قبل، اتجاه تحضير الفلاحين لعمل سياسي ومقاومة الإقطاعيين ونفوذهم وإثارة الفلاحين ضدهم.

يريدون أن يصبحوا حزباً

وقد لاقت الجمعية خلال نشاطها مضايقة شديدة من الإقطاعيين أولاً، ومن رجال الدرك ثانياً، مثال ذلك: أن أحد أعضائها، واسمه حبيب حسن معروف، قد اعتقل وضرب من رجال الدرك، ثم هدد بأنه إذا دخل قرى الجبل جرى له ما لا يحبه، وهو يقيم الآن في طرطوس حسب ما قيل لي، كما أن سبعة آخرين قد أوقفوا، وقدموا إلى المحاكمة بتهمة أن لهم علاقة بالفرنسيين، وأنهم جمعية إرهابية، وقد أطلق عليهم اسم MJA أو Mouvement de la Jeunese Alawique (حركة الشبيبة العلوية)، لكن المحاكمة لم تثبت شيئاً ضدهم.

لذلك فكروا أن يطلبوا رخصة، كي يصبحوا حزباً رسمياً باسم حزب الإصلاح الريفي، على أساس أن يعم نشاطهم الريف السوري بمجموعه، وإن كانوا لا يفكرون حالياً في الخروج عن نطاق الجبل العلوي، وقد طلب الرخصة ثلاثة أشخاص: صلاح أحمد، وهو طالب في كلية العلوم، شاب طيب ذكي وصديق للحزب، وكان قد قدم طلباً في العام الماضي للانتساب إلى الحزب، لكن الحزب رفض طلبه هذا

---

[610]) وثيقة من أرشيف الحزب الشيوعي السوري تعود للعام 1951، وتنشر لأول مرة.

باعتبار أن له أخاً رئيساً في الشرطة العسكرية، وأخوه هذا شيوعي سابق اسمه محمد كامل، وكان له نشاط في حمص، وهو شاعر أيضاً، وله عدة قصائد ثورية، وقد فصل هذا حالياً من الشرطة العسكرية بسبب ميوله السابقة التي، كما يبدو، ما زال محتفظاً ببعضها.

وصلاح أحمد هو الذي حدثني عن هذه الجمعية، وطلب مني رأي الحزب، وأنه مستعد أن يفعل كل ما نشير عليه به، حتى إذا رأينا تخريب هذه الجمعية، وقد ساعدنا فيما سبق في العمل بين الطلاب الجمهوريين، ومستعد أن يسير إلى جانبنا على طول الخط.

والشخص الآخر الذي قدم طلب الرخصة هو حبيب حسن معروف، الذي طرد من الجبل، وقد اتهم بالشيوعية، كما ذكرت، وقد لا يكون هذا صحيحاً، لكن صلاح يقول عنه إنه يساري، وعنصر نشيط جداً، ومستعد دوماً لأن يعمل برأي صلاح ذاته.

أما الشخص الثالث فهو طالب في كلية الحقوق، واسمه نجم الدين أبو علي، ويبدو أنه عنصر انتهازي يؤمن بالقومية العربية، ويخالف دوماً صلاح والآخرين في آرائهم السياسية العامة، لكنه فيما يتعلق بإنهاض الفلاحين في الجبل مخلص على ما يبدو.

أما أوضاع هؤلاء الأشخاص الاجتماعية، فيبدو أنهم من الطبقة الوسطى بصورة عامة، وأستطيع أن أتحدث عن وضع صلاح بصورة عامة، فهو ابن أخت بدوي الجبل، ومن الإقطاعيين الصغار الخاسرين في الجبل، فهو يملك بعض الأرض، التي يعمل فيها فلاحون، لكنه مفلس دوماً، وأرباحه لا تكاد تقوم بمصاريف معيشته مع عائلته، وله نفوذ في الجبل باعتبار أن جده كان كبير شيوخ الجبل العلوي.

والآخران هما أقل مرتبة في السلم الاجتماعي في الجبل، ويقول إن هناك اتجاهاً لنيل الرخصة، فيما يبدو، لكنه ليس متأكداً من ذلك على الإطلاق.

نشاطه

يزداد في الصيف بصورة خاصة، إذ يقوم أولئك الشباب بزيارات إلى القرى، ويتصلون بالفلاحين، ويتحدثون معهم عن أحوالهم. وفي الصيف الماضي، قاموا بالإشراف على أربع مدارس لمكافحة الأمية بين الفلاحين، ولا ريب أن عملهم قد ابتدأ يعطي نتائج، الأمر الذي دعا الإقطاعيين والدرك إلى القيام بمكافحتهم جدياً.

القضية بالنسبة إلينا

لنلاحظ أولاً أن صلاح أحمد هو الذي جاء من تلقاء نفسه يحدثني بالقضية، باعتبار أنه سيسافر قريباً إلى الجبل بعد انتهاء الفحوص، وقد شرح لي شيئاً عن هذه الجمعية (ما ورد سابقاً)، ثم سألني رأيي، يعني رأي الحزب في الموضوع، وقال بصراحة إنه مستعد أن يفعل كل ما نشير عليه به، حتى حل هذه الجمعية وتخريبها إذا اقتضى الأمر.

وباعتبار أنه من أقدم من عمل في هذه الجمعية، وباعتبار مركزه في الجبل، ثم باعتبار أن له شخصية قد فرضت نفسها على من يعمل معه من الشباب، فهو سيكون بطبيعة الحال رئيس الحزب الجديد، فيما إذا نال رخصة رسمية، مع العلم أن هناك عدداً كبيراً من الملتفين حوله والمؤيدين له.

وهو لا يعتقد أن بين هؤلاء شيوعيين، وإن كان قسم كبير منهم من العناصر الطيبة جداً، التي يمكن الاستفادة منها والاعتماد عليها. وهناك أشخاص آخرون لهم ميول مختلفة، مثلاً: هناك قوميون عرب، وهناك من يحارب الشيوعية أيضاً، ليس في نشاطه بين الفلاحين، إذ يبدو أن هؤلاء الشباب في إخلاصهم للقضية يسيرون على عين النمط من العمل الذي اتفقوا عليه، وهو ألا يوجهوا الفلاحين سياسياً في أي اتجاه معين، بل أن يرفعوا وعيهم فحسب، ويُحَضِّرونهم سياسياً للعمل المستقبلي الذي سيختارونه بأنفسهم فيما بعد، فأولئك البعض إذن لا يعتقدون بالشيوعية، ومنهم نجم الدين أبو علي المذكور سابقاً، دون أن يؤثر ذلك حالياً، وفي الظاهر على الأقل، على مجمل نشاطهم، وعلى كل حال نفوذهم ضئيل جداً في هذه الجمعية.

وليس بينهم سوريون قوميون أبداً، بل إن اتجاههم العام يناهض ذلك الحزب الفاشي تماماً، ويلعب صلاح دوراً في ذلك لا بأس به، وقد استطاعوا في بعض القرى، على حد قولهم، وقد أخطأت فلم أسأله عن أسماء هذه القرى، أن يقضوا على نفوذ القوميين، الذين بدؤوا يتسربون إليها.

وقد جرت له حادثة مع ضابط في الشرطة العسكرية، أو في الجيش، اعتذر لي عن ذكر اسمه، كلف أن يزور القرى المحيطة بطرطوس، ليرى إذا كان من المناسب أن يفتح القوميون السوريون فيها مكاتب لحزبهم حسب طلبهم، وقد روى له الضابط مهمته هذه، فطلب

منه صلاح، ويقول إن له فضلاً سابقاً عليه، أن يكون جوابه في غير صالح القوميين، بعد أن شرح له جوهر هؤلاء الفاشست ونشاطهم وسياستهم، وقد وعده ذلك بأن يفعل ما طلب منه، ويقول إنه فعل.

وقد سألته فيما إذا لم يكن محتملاً أن ينقسم الحزب إلى اتجاهين فيما بعد، اتجاه يماشيه هو، واتجاه قومي عربي مثلاً وما شابه، فاستبعد ذلك، وقال إنهم في دستورهم، وقد طلبت منه نسخة عن هذا الدستور لم يأتني بها بعد، لم يوردوا أبداً كلمة القومية، رغم أن البعض طلبوا وضعها، بل ذكروا أنهم يفعلون لإنهاض الريف السوري خاصة والعربي عامة.

ويبدو أنه معتدٌّ جداً بنفوذه في هذه الجمعية، وهو يعتمد كثيراً على نفوذه في توجيه سياستها العامة، كما قد نطلب منه، الأمر الذي لا يشكل على أية حال ضمانة أكيدة.

وسألته لماذا لا يبقون جمعية فحسب، فقال إن كونهم حزباً سيخفف عنهم الكثير من مضايقات الدرك لهم، كما أنهم لا يكونون عرضة لمختلف الاتهامات أو لمختلف التحريات والتفتيشات.

ويبدو أنهم مؤمنون بنفوذهم، وأنهم قادرون في انتخابات مقبلة أن يوصلوا إلى المجلس اثنين أو ثلاثة منهم، ويقول صاحبنا إنه فور وصوله إلى هذا المجلس سوف يعلن عن شيوعيته.

وسألته عمَّا إذا كان مستعداً لأن يتعاون مع بعض الشيوعيين، فأبدى استعداده بشرط أن يكون نشاط الرفاق غير مضر في الحزب، يعني ألا يكون شيوعياً صرفاً، فقلت له إن الشيوعيين في هذه الجمعية سيعملون كما يعملون في كل منظمة جماهيرية علنية أخرى، وأعتقد أن بالإمكان أن يجتمع مع أحد الرفاق، إذا وجد ذلك ضرورياً.

وبصورة عامة، فإن هذا الحزب، الذي لم يولد بعد، يمكن اعتباره منظمة جماهيرية للعمل بين الفلاحين، سوف يكون على رأسها شخص يكاد أن يكون حزبياً، وأعتقد أن بالإمكان الاستفادة منها كثيراً للعمل بين الفلاحين في الجبل العلوي، هذه المنطقة الخام.

ولا يعتقد أن بين أعضاء هذه الجمعية من له اتصال بأولئك الذين شكلوا حزباً شيوعياً في الجبل العلوي، وأرادوا الاتصال بحزبنا للانضمام إليه.

فريز[611]

---

[611]- فريز هو الاسم الحركي لمحرر هذه الوثيقة كما ورد فيها، ولم نعرف اسمه الحقيقي.

برنامج دانيال داود نعمة[612]

مرشح الاتحاد الوطني في صافيتا

أيها الناخبون والناخبات في منطقة صافيتا!

أتقدم إليكم ببرنامجي الذي أخوض معركة الانتخابات على أساسه. وهو في الواقع البرنامج الذي وقفت كل قواي وحياتي على النضال في سبيل تحقيقه.

وسأكون في البرلمان أميناً له أمانة تامة، كما كنت دائماً في جميع ميادين النضال الشعبي. وعلى هذا الأساس أطلب ثقتكم في الانتخابات، وهذا برنامجي:

1)- توطيد الانتصار الوطني الذي تحقق بجلاء الجيوش الأجنبية عن سورية واستكمال أسباب الاستقلال الوطني، ورفض الارتباط بأي معاهدة أو حلف استعماري حربي كحلف تركيا – باكستان و"المساعدة" العسكرية الأمريكية والمشاريع "الاتحادية" المزيفة وسائر المشاريع الاستعمارية الأمريكية والإنكليزية.

2)- توطيد أسس النظام الجمهوري الديمقراطي البرلماني في سورية وإطلاق الحريات الديمقراطية:

"حرية الصحافة والرأي والكلام والاجتماع، وحرية تأليف الجمعيات والأحزاب السياسية، والحريات النقابية، واحترام العقائد الدينية، وتمكين جميع فئات الشعب من ممارسة هذه الحريات، وإلغاء جميع القوانين الرجعية التي تقيدها أو تحد منها، وتحريم الاعتقال الكيفي والتعذيب الجسدي".

3)- توثيق عرى التضامن مع الشعوب العربية الشقيقة في النضال العام المشترك ضد الاستعمار ومعاهداته وبرامجه العسكرية الحربية، وفي سبيل الجلاء والاستقلال والسلم.

4)- السعي لحل قضية فلسطين، بمعزل عن تدخل المستعمرين الأمريكيين والإنكليز، على أساس أن حل هذه القضية مرتبط ارتباطاً تاماً بالقضاء على سيطرة الاستعمار في الشرق العربي وعلى حكم عملائه وعلى الصهيونية الرجعية صنيعة الاستعمار الأمريكي.

[612]- في انتخابات آب – أيلول 1954 بعد انهيار حكم الرئيس أديب الشيشكلي.

5)- انتهاج سياسة خارجية وطنية سلمية صريحة في الميدان الدولي قوامها التضامن مع جميع الشعوب المناضلة في سبيل تحررها الوطني، والمساهمة في العمل لتحقيق الانفراج الدولي وتوطيد السلام العالمي وتحريم الأسلحة الذرية والهيدروجينية.

6)- في سبيل تعزيز مكانة سورية الدولية وصيانتها من أخطار الحروب، وبغية تطوير اقتصادنا الوطني، العمل على توطيد أواصر الصداقة وتوثيق العلاقات الاقتصادية والثقافية مع الاتحاد السوفييتي بلد السلم والاشتراكية وصديق العرب، ومع الصين الشعبية وسائر بلدان معسكر الديمقراطية.

7)- في سبيل تحقيق الاستقرار الذي تنشده سورية، وتلبية مطالب الشعب العاجلة الملحة، إقامة حكومة وطنية ديمقراطية تقاوم كل تدخل استعماري في شؤون بلادنا، وترفض كل مشروع استعماري حربي، وتطلق الحريات الديمقراطية، وتعمل على رفع مستوى الشعب المعاشي والثقافي.

8)- في سبيل رفع مستوى القرية السورية وإنقاذ الجماهير الفلاحين من البؤس والتأخر، القيام بإصلاح زراعي يحرر الريف السوري من الإقطاعية، ويؤمن الأرض والمياه لكل فلاح في سورية.

9)- إلى حين تحقيق الإصلاح الزراعي الشامل المنشود، المباشرة فوراً باتخاذ تدابير للتخفيف عن عبء الأوضاع القاسية التي تعانيها جماهير الفلاحين الفقراء، وذلك بتحسين شروط المحاصصة، وإلغاء الأتاوات الإقطاعية الظالمة، ومنع طرد الفلاحين من الأرض، وتحسين شروط العمل للعمال الزراعيين برفع أجورهم ومنحهم الحقوق الممنوحة لعمال الصناعة في قانون العمل.

10)- تحسين حالة الفلاحين الصغار والمتوسطين بتخفيف الضرائب عنهم، وتأمين البذار لهم بأسعار رخيصة، ومد جماهير الفلاحين بقروض طويلة الأجل بدون فائدة أو بفائدة ضئيلة، وتقديم المساعدات الفنية المجانية لهم، وتوسيع مشاريع الري، وشق الطرقات لجميع القرى، وتأمين وصول مياه الشرب والكهرباء إليها، وتأمين الطبابة والتداوي والمستشفيات لجميع سكان الريف السوري.

11)- تحسين أوضاع الطبقة العاملة بزيادة الأجور، وتطبيق ثماني ساعات عمل في اليوم، وتأمين تعويضات التسريح والإجازات

السنوية والمرضية، وتحقيق ضمان اجتماعي تموله الحكومة والشركات الأجنبية وكبار أرباب العمل لتأمين الصناعيين والعمال الزراعيين والمستخدمين في حالات العجز والمرض والشيخوخة وطوارئ العمل والبطالة، مع ضمان صحي شامل يؤمن التطبيب والدواء والمستشفى لجميع هذه الفئات.

12)- تأمين الحقوق والحريات النقابية للعمال وفي رأسها حرية تأليف النقابات بدون قيد أو شرط ،وحرية ممارسة نشاطها وعقد اجتماعاتها وإجراء انتخاباتها دون أي تدخل من السلطات، واحترام حق الإضراب والتظاهر، وحماية المناضلين النقابيين من التسريح الانتقامي وأي تدبير ثأري.

13)- تحرير مرافقنا الاقتصادية الوطنية من ربقة الرأسمال الاستعماري، وذلك بتأميم الشركات الاستثمارية الأجنبية، ومنع تغلغل رساميل استعمارية جديدة في اقتصادنا الوطني، وإنشاء مصارف وطنية لتحرير النقد السوري من التبعية الأجنبية.

14)- انتهاج سياسة اقتصادية وطنية قوامها العمل على ازدهار الصناعة الوطنية والإنتاج الزراعي، وذلك بمنع طغيان بضائع الدول الاستعمارية على أسواقنا، وتوفير المواد الأولية والتجهيزات الآلية والفنية اللازمة للصناعة الوطنية، ورفع القدرة الشرائية عند جماهير الشعب، وتأمين الأسواق للإنتاج الوطني الفائض عن حاجات الاستهلاك الداخلي بتنشيط العلاقات والمبادلات التجارية والاقتصادية القائمة على التكافؤ والمنفعة المتبادلة مع جميع البلدان، بصرف النظر عن أنظمتها الداخلية السياسية والاجتماعية.

15)- إلغاء القطيعة بين سورية ولبنان، وإقامة العلاقات الاقتصادية بين البلدين الشقيقين على أساس وحدة اقتصادية قوامها حماية الإنتاج الوطني الصناعي والزراعي في البلدين، وتنظيم الاستيراد والتصدير وفقاً لمصلحة اقتصادهما الوطني ومصلحة الجماهير الشعبية الواسعة.

16)- تخفيف الضرائب عن جميع الفئات الشعبية، وإعفاء العمال وصغار المنتجين من ضريبة الدخل، واتخاذ الوسائل لتحسين حالة الحرفيين وصغار التجار وصغار المنتجين، وحمايتهم من أخطار الإفلاس والخراب.

17)- العناية بالجيش السوري، وتعزيز الروح الوطنية في صفوفه ضد الاستعمار وأحلافه ومؤامراته على سورية، مع العمل لتحسين حالة الجنود والضباط المادية، وإعادة الحصانة إليهم.

18)- تعميم التعليم الابتدائي المجاني الإلزامي، وتوسيع شبكة التعليم الثانوي، وإزالة العقبات المصطنعة المقامة في طريقه، وتأمين ديمقراطية التعليم الجامعي والثانوي، والعناية بحالة الطلاب الاقتصادية، وتأمين مساعدة المعوزين منهم على إكمال تحصيلهم.

19)- حماية الإنتاج الفكري وضمان حريته، والعمل على إحياء التراث الفكري العربي، وتوسيع التبادل الثقافي وتشجيع النشر الأدبي والعلمي والفني، والعناية برجال الفكر مادياً ومعنوياً، وتأمين الإمكانات اللازمة لتطورهم، ومكافحة "ثقافة" التفسخ والانحلال الاستعمارية، ومنع الأفلام والمجلات الخلاعية.

20)- منح المرأة السورية حقوقها السياسية كاملةً، وتأمين ممارستها لهذه الحقوق، والعمل على رفع مستواها الثقافي والمادي، وتأمين أجرة متساوية للعمل المتساوي، وحماية الأم والطفل بإيجاد الوسائل اللازمة لذلك من مستشفيات ودور توليد ورياض أطفال وطبابة مجانية.

21)- العناية بالشباب صحياً وثقافياً، وتشجيع الحركة الرياضية، وتخصيص مساعدات مالية وافية في سبيل نشر الروح الرياضية بين الشباب، والعمل للإكثار من الأندية الرياضية والثقافية، وإنشاء معاهد مسائية مجانية لمكافحة الأمية بين الشباب في القرى والمدن، وإيجاد مكتبات وطنية عامة في المدن وفي المراكز الريفية.

22)- العناية بموظفي الدولة، ولاسيما الصغار منهم، وبضمن ذلك المعلمون والأساتذة، وتحسين أحوالهم اقتصادياً ومعنوياً، وخلق الإمكانات أمامهم لرفع مستواهم المسلكي والفكري، وإعادة الحصانة إليهم.

23)- توجيه الجهود الكبرى للعناية بحياة جماهير الشعب في المدن والقرى، فيما يتصل بتأمين المساكن الصالحة بأجور رخيصة، وتخفيض أسعار مواد الغذاء والكساء الرئيسية، وتحسين الشروط العمرانية والصحية كتأمين الكهرباء والمياه النظيفة للشرب بكميات كافية وأسعار رخيصة، وتعبيد الطرقات، وتوفير كل ما يؤمن حداً أدنى

من الشروط اللازمة لحياة إنسانية معقولة.

مطالب المنطقة

1)- العمل لبناء مستشفى حكومي في بلدة صافيتا مركز القضاء، ولفتح المستوصفات وتجهيزها في مراكز النواحي (الدريكيش والصفصافة والمشتى و"كفرون سعادة").

2)- العمل لتسهيل العلم على أبناء صافيتا، وجعل المتوسطة الرسمية ثانوية.

3)- الاهتمام بمراكز الاصطياف في القضاء، ومن أجل ذلك العمل لتعبيد طريق صافيتا – الدريكيش، وطريق صافيتا – المشتى، وكذلك العمل لإصلاح وتعبيد طرقات سهل صافيتا.

4)- العمل لتحسين أحوال مزارعي الدخان، والحد من نهب الريجي المنصب عليهم، وذلك بالنضال لرفع الأسعار، ولاشتراك الفلاحين بالتخمين، وبإعطاء الرخص لمن يريد.

5)- العمل لمساعدة وتشجيع منتجي الفواكه في قضاء صافيتا، وتدبير أسواق لتصريف منتجاتهم بأسعار مناسبة.

الفلاحون في حلبة النضال الوطني والديمقراطي[613]

يتميز الوضع العام منذ أمد بدخول الفلاحين حلبة النضال الوطني الديمقراطي ككتلة كبرى، وهذا الأمر منطقي تماماً، وقد استقبلته الأوساط التقدمية بالكثير من الارتياح والتأييد، بينما أثار في القوى الرجعية السوداء الكثير من الغيظ والحنق، والكثير من التهويل والتهديد والإرهاب.

وطبيعي أن تبدي القوى التقدمية ارتياحها العميق لهذه الظاهرة، ظاهرة دخول الفلاحين حلبة النضال الواسع. فالفلاحون الذين تعمل الرجعية الظلامية لإبقائهم قوة احتياطية لها، تستخدمها، بمختلف الأشكال للمحافظة على الأوضاع المهترئة البالية، قد أخذوا يتحولون بسرعة إلى قوى تقدمية، تناضل مع مجموع الشعب من أجل تحقيق الأهداف الوطنية الديمقراطية الموضوعة أمام البلاد في المرحلة التاريخية الحالية. وكل من يتتبع تطور النضال العام في البلاد، يرى أن الفلاحين قد أخذوا يشغلون في ميدان هذا النضال حيزاً كبيراً يتسع باستمرار.

فمنذ سقوط الديكتاتورية الأخيرة، وقبل سقوطها بزمن طويل، والفلاحون يتدافعون إلى النضال الواعي جماعاتٍ جماعات، ويأخذ نضالهم أشكالاً مختلفة، لكنه في جميع الحالات لا يخرج عن كونه نضالاً يستهدف في الأساس انتهاج سياسة وطنية ديمقراطية قوامها إطلاق الحريات الديمقراطية ورفض مشاريع المستعمرين وتحسين أحوال الشعب، وخصوصاً أحوال الفلاحين أنفسهم وأحوال إخوانهم العمال، وإجراء انتخابات نيابية حرة تنبثق منها حكومة وطنية ديمقراطية توطد النظام الجمهورية البرلماني الصحيح. وقد تجلى هذا النضال وهذه المطالب في مئات العرائض التي أرسلت إلى حكومة دمشق الحالية، وفي عشرات الاجتماعات الفلاحية الجماهيرية، وفي المظاهرات التي جرت بمناسبة عيدَيْ الجلاء والأول من أيار في مختلف أنحاء الريف السوري، ونذكر على سبيل المثال ما جرى في

---

[613]) نشرت مقالة المحامي دانيال نعمة هذه في العدد 221 من جريدة "الصرخة" الصادرة يوم الأحد بتاريخ 30 أيار 1954.

بعض قرى محافظة اللاذقية: بشرايل، وكرتو، وعين دابش، والسودة، ودويرطه، وعيون الوادي، والقرداحة، والمتن، وغيرها وغيرها.

وإنها لأعمال مجيدة هذه الأعمال الوطنية التي يقوم بها الفلاحون اليوم، وكيف أخذ الفلاحون يتحولون إلى قوة تقدمية ستلعب دوراً أساسياً في تحقيق أهداف البلاد الوطنية الديمقراطية!

ليس في هذا التحول أي مجال للدهشة، فهو من طبيعة التطور ذاتها، فالفلاحون لم يخضعوا مرة خضوعاً كلياً للقوى الرجعية السوداء، وقد شهد الريف السوري خلال فترات متقاربة أو متباعدة تمردات فلاحية فردية أو جماعية، كانت ثمرة شعور بالظلم الإقطاعي والاستبداد. ولكن هذه التمردات على اختلاف درجات قوتها كانت بدائية بسيطة، يقوم بها أفراد قلائل، أو قرى منفردة، دون أن تحظى بالمساعدة الفعلية من باقي الفلاحين ومن باقي الفئات الشعبية، ولم يكن الفلاحون يربطون أهدافهم النضالية بأهداف مجموع الشعب. لقد كان ينقصهم الوعي، وتنقصهم القوة المنظمة القائدة الطليعية. لذلك كانت تلك التمردات تنتهي إلى نتائجها المحتومة: الفشل، الذي يعقبه سحق القوى المتمردة وتسليط كابوس فظيع من الإرهاب عليها.

ولكن قبل الحرب الأخيرة وأثناءها تعرَّف الفلاحون، أو فئات منهم إلى عنصر جديد في الميدان الوطني السياسي والاجتماعي، تعرفوا إلى القوى الوطنية الديمقراطية المنظمة التي كان، وما يزال، في رأس مهماتها تجنيد كل ما هو حي وشريف في الأمة، ومن هؤلاء الفلاحين، من أجل القضاء على الاستعمار والإقطاعية وبناء وطن حر وسعيد. وما كاد الفلاحون يتعرفون إلى طريق النضال الصحيحة، التي دلتهم عليها هذه القوة الوطنية المنظمة، حتى بدأ الإرهاب الرجعي ضد الفلاحين لإبعادهم بالعنف والتخويف عن سلوك الطريق الصحيحة، وإضافة إلى ذلك، برزت حركات تدعي "الاشتراكية"، وتزعم فيما تزعمه من أضاليل أنه باستطاعة الفلاحين الحصول على الأرض حلمهم وحلم أجدادهم من قبل عن طريق المحاكم، وبواسطة القوانين السائدة، وبالاستناد إلى رضا وتأييد بعض الفئات العسكرية. ولكن تبين أن جميع محاولات الإرهاب وجميع محاولات التخدير والتغرير هذه ليست بذات نفع، وقد كانت فترات الانقلابات العسكرية المتتالية أهم مختبر عرف فيه الفلاحون حقيقة تلك المزاعم والدعايات، ورأوا بمزيد من الوضوح

ما هي الطريق الواجب سلوكها، وهكذا انطلقوا إلى النضال جنباً إلى جنب مع الطبقة العاملة ومع كل الشعب وضد الاستعمار والديكتاتورية والإقطاعية. لقد أدرك الفلاحون أن حلمهم بالأرض وبحياة أفضل وأحسن لن يتحقق إلا بالقضاء على الاستعمار وعلى جميع دعاته الداخلية، وأدركوا أن هذا الهدف لا يمكن الوصول إليه كاملاً وبصورة نهائية إلا في ظل حكم ديمقراطي شعبي، يكون أساس الانطلاق إلى الاشتراكية، وتقوده جبهة وطنية قوامها بالدرجة الأولى العمال والفلاحون. ومضى الفلاحون بجرأة وإقدام في نشاطهم، ففي ظروف ديكتاتورية الشيشكلي، عقد الفلاحون في جبل العلويين عدة مؤتمرات فلاحية، وأصدروا جريدة "الأرض للفلاح"، التي لعبت دوراً هاماً في توضيح أهداف الفلاحين وفي تنظيمهم وشحذ همتهم للنضال من أجل تحقيق هذه الأهداف.

غير أنه، إذا لم تكن هناك أعجوبة في التحول الذي نراه اليوم في أوساط الفلاحين، فإن التقدم الذي أحرزه الفلاحون، رغم كونه بداية الطريق فقط، لم يتم بدون مصاعب وتضحيات وجهود كبرى، وبدون إخفاقات وانكسارات.

ومن المفيد أن نذكر أن الفلاحين إذا كانوا يُقبِلون اليوم إلى النضال بمزيد من الحزم والأمل، فلأن القوى الوطنية الديمقراطية المنظمة قد أخذت على عاتقها مهمتين اثنتين تقوم بهما معاً وفي وقت واحد وبنجاح متزايد. أما المهمة الأولى فهي بناء منظمات وطنية ديمقراطية في القرى، تنقل الوعي الوطني والديمقراطي والوعي الاشتراكي إلى جماهير الفلاحين الفقراء والمتوسطين. وأما المهمة الثانية فهي إنشاء منظمات وحركات فلاحية جماهيرية، هدفها النضال من أجل مطالب الفلاحين المباشرة على أساس توحيد صفوفهم في النضال لتحقيق هذه المطالب. وهذه المنظمات الفلاحية تحل في خدمة الفلاحين والدفاع عن مطالبهم ومقاومة كل اعتداء يقع عليهم محل "الزعماء" الجدد، الذين يحاولون تجديد "شباب" الإقطاعية بنضال وهمي ضد هذه الإقطاعية، وبما يقدمونه من بعض "الخدمات" الفردية، التي يستغلونها في بناء "زعاماتهم الجديدة" المزيفة.

ومن المفيد أيضاً أن نذكر أن الفلاحين قد وثقوا كثيراً بالمنظمات الوطنية الديمقراطية، التي قويت دعائمها، وثبتت جذورها على أساس

نمو الوعي الوطني والديمقراطي والاشتراكي، وعلى أساس سعيها المستمر لتحقيق انتصارات أولية بسيطة، ودون زج أعضائها الجدد وأصدقائها بسرعة ومنذ دخولهم إليها أو التفافهم حولها في معارك لا ينتج عنها من الربح ما يوازي أو يفوق التضحيات والخسائر.

لقد أصبح من معروفاً تماماً أن كل فشل في الريف، وخصوصاً الفشل الذي يعقب تكوين حركات فلاحية جديدة، يؤدي إلى إدخال اليأس في أوساط الفلاحين وإلى مغادرتهم ساحة النضال إلى حين. وتدرك الرجعية هذا الأمر، ولذا نراها تشن أعنف الحملات الإرهابية على كل منظمة فلاحية جديدة، ساعية إلى خلق شعور عند الفلاحين بأن النضال لن يجلب لهم سوى "الإهانة" والمصائب.

وأمر آخر هام جداً لا بد من ذكره في معرض الحديث عن تطور النضال الفلاحي، هو التأييد الذي تلقاه حركات الفلاحين من العمال والطلاب والمثقفين التقدميين في المدن، فإن هذا التأييد المتزايد باستمرار يلعب دوراً هاماً في تجنيد الفلاحين للنضال، وهو الذي يجعلهم يشعرون أنهم لا يناضلون بمعزل عن أي سند أو حليف، كما تحاول أن تصور لهم الرجعية.

لقد دخل الفلاحون حلبة النضال الوطني والديمقراطي العام، وهم في كل يوم يحققون تقدماً ملموساً. ولكن أمام الفلاحين وأمام العمل في صفوفهم عقبات ومصاعب، من أهمها تبعثر القوى الفلاحية، مما يؤخر الاتصال بها، أو قد يشعرها بشيء من العزلة. أجل لقد دخل الفلاحون حلبة النضال، وفي هذا كل الخير لحركة النضال الوطنية الشعبية. وإذا اعتنى جميع من يهمهم مستقبل وطنهم بالعمل السياسي والاجتماعي في الريف، إذا اعتنى جميع هؤلاء ببناء منظمات وطنية ديمقراطية في أهم القرى وبإيجاد حركات فلاحية تحل محل "الزعماء" المضللين المزيفين في خدمة الفلاحين والدفاع عن مطالبهم عن طريق حشدهم للدفاع عن هذه المطالب، فسيكون من المؤكد أن حركة الفلاحين ستنطلق حتى تسد الأفق، وبالتالي سيصبح من المؤكد أن أهداف شعبنا في السلم والاستقلال والديمقراطية سيتم تحقيقها في وقت أقرب بكثير من الوقت الذي يعينه حتى المتفائلون.

اللاذقية 9 أيار سنة 1954

رسالة إلى الخارج من تميم[614] وإخوانه

إن المعركة الانتخابية في سورية كانت معركة سياسية هامة، أظهرت أشياء كثيرة في مجال السياسة، كما كانت هامة بالنسبة إلى الجبهة الوطنية، ثم بالنسبة إلى الحزب.

هذه المعركة لا يمكن فهمها فهماً صحيحاً واستخلاص النتائج منها، إذا لم تؤخذ في ظروفها الملموسة التي جرت فيها، وإذا لم ينظر إليها ككل.

1- أتت المعركة مباشرة بعد ديكتاتورية دموية وحشية سيطرت على سورية كلها مدة ثلاث سنوات ونصف، وكانت قوى الديكتاتورية موجهة ضد قوى التقدم والديمقراطية، وخاصة ضد الشيوعيين، فيما كانت الرجعية متروكة، وكان بيدها جهاز الدولة، فحافظت على جميع علاقاتها وصلاتها، ولم تتأثر اقتصادياً، لأن الانقلاب جرى سريعاً بعد التأميم، ولم تتمكن تدابير عبد الناصر الأخيرة من توجيه ضربة اقتصادية للبرجوازية السورية.

ميزان القوى ظهر على نحو غير متساوٍ، فالرجعية خرجت من الديكتاتورية سالمة معافاة، بينما خرجت قوى التقدم والديمقراطية منهكة، والمهم بالدرجة الأولى وضعها التنظيمي وعلاقاتها فيما بينها ومع الجماهير.

لقد اعترف عبد الناصر في خطاب أخير له بأنه ضرب اليسار وترك اليمين، واليسار موجود في سورية، وله قواعده وأحزابه، وليس الأمر كما هو في مصر، ولهذا فإن حزب اليسار كان أبرز وأقوى في سورية منه في مصر.

2- وصل إلى السلطة بعد الانقلاب ممثلو البرجوازية السورية الكبرى وعناصر رجعية وعميلة أيضاً، وكان اتجاه الحكم عموماً ضد قوى التقدم، واستمرت أعمال التضييق، ولم يفسح المجال لقوى التقدم والديمقراطية أن تستجمع قواها، وهذا ما يفسر إلى حد كبير عامل السرعة في إجراء الانتخابات. لقد كان عنصر الوقت عاملاً هاماً لصالح

---

[614]) وثيقة من أرشيف الحزب الشيوعي السوري تعود بتاريخها إلى كانون الأول 1961، وهي تنشر لأول مرة، وتميم هو أحد الأسماء الحركية لدانيال نعمة في مراسلاته مع باقي أعضاء القيادة الحزبية خلال فترة ما بعد الانفصال والعودة إلى سورية من لبنان.

الرجعية.

3- خرجت الرجعية بوجه منقذ للبلاد، منقذ من:

- الديكتاتورية ودوس الكرامات.

- من أعمال التأميم ونهب الأموال ومصادرتها.

وعلى هذا الأساس يمكن القول إن البرجوازية الكبرى، وخصوصاً جناحها اليميني، استطاعت أن تجر وراءها البرجوازية الصغيرة والمتوسطة، وهاتان الفئتان من فئات البرجوازية يهمها كثيراً ما تملكه، وقد حقدتا على عبد الناصر، فتدابيره تناولت ليس الفئة الكبرى من البرجوازية، وإنما شملت المتوسطين والصغار، وبعض هؤلاء، إن لم يكن تضرر مباشرة، فقد بدأ يلمس على رأسه، كما يقولون. ومن هنا، يمكن القول إنه تحت ستار المحافظة على الملكية وتأمين الأموال وتأمين ازدهار الأسواق وضمان الأرباح، أمكن للبرجوازية الكبرى جر هاتين الفئتين، وهما، كما هو معروف، تشكلان قوة عددية كبرى في مدن مثل دمشق وحلب وحمص وحماة، ولم تستطع البرجوازية جر الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين وقسم هام من المثقفين.

4- جرت المعركة الانتخابية على أساس اتجاهين سياسياً، أي الاتجاه الوطني الديمقراطي المعادي للاستعمار، الذي يريد التقدم للبلاد واحترام الحريات، والاتجاه الرجعي الذي يريد تقييد الحريات، ويزيد من سلطة البرجوازية الكبرى وبأسها، ويساعدها على استثمار الشعب واضطهاده وإلغاء التأميم ونسف منجزات العمال، ويريد نسف الإصلاح الزراعي أو تعديله لصالح الإقطاعيين ضد الفلاحين وعرقلة تطبيقه فيما بعد، لكن جرت المعركة بين اتجاهين اجتماعياً أو طبقياً، إذا صح القول.

والناحية الاجتماعية والطبقية كانت أبرز من الناحية السياسية، وهذا مكن الاستعمار من دفع عملائه، كي يظهروا مدافعين عن مصالح البرجوازية والإقطاعية، وهم عملياً مدافعون عن الإقطاعية، وأمكن بالتالي إحداث تحالف ضخم كبير، وتستتَّر العملاء المفضوحون والمحروقون وراء الشعارات الاجتماعية، كي يدخلوا المعركة، وهذا يفسر نجاح عناصر انتهت سياسياً، مثل: جلال السيد وفيضي الأتاسي.

هذا وتجب الإشارة إلى التحالف الديني الرجعي، فقد تلاقى بطريَرك الأرثوذكس مع مكي الكتاني، وشجع البطاركة والمطارنة العناصر الرجعية، حتى إنهم في حلب فرضوا مرشحين معينين، ومنعوا ترشيح

أقوياء كي لا يزاحموهم، والرجعية الإسلامية لعبت نفس الدور.

6- كل هذا في وقت كانت فيه يد الرجعية طليقة كلياً، فالرجعية الدينية التي حملت لواء الدفاع عن الملكية، كانت تستخدم المساجد، وكبار الإقطاعيين والبرجوازيين كانوا يتنقلون ويتصلون بحرية، وكان جهاز الدولة تحت تصرفهم. هذا ويضاف إلى أن كل الهجوم على التأميم وعلى مصادرة الأموال كان يرفق بالشيوعية والاشتراكية، وتوصف أفكار التأميم والمصادرة بأنها شيوعية واشتراكية.

هذه بشكل عام الظروف التي جرت فيها المعركة.

لقد جرت من الناحية الخارجية في ظروف ظهر فيها عبد الناصر مندحراً، وظهرت فيها الرجعية العربية كحسين وسعود منتصرة، وجرت في وقت كانت فيه الحركة الوطنية العربية غير صاعدة، بل منكفئة بسبب ما أحدثه عبد الناصر من تفكك فيها، وجرت في وقت كان فيه عبد الناصر منغمساً جداً في مشاكله الداخلية الحادة.

أما دولياً فقد جرت المعركة في ظروف برز فيها الاتحاد السوفييتي دولة قوية جداً، وظهرت فيها جاذبية الأفكار الاشتراكية، كما ظهرت فيها دول الحياد وعدم الانحياز وأثرها الدولي.

هذا ويجب ألا ننسى أنه لا تزال ماثلة في أذهان البرجوازية حوادث العراق.

هذه الظروف الدولية والعربية والداخلية لعبت دورها في معركة الانتخابات، وأثرت فيها بهذا الشكل أو ذاك، وكانت العوامل الداخلية أكثرها تأثيراً، ثم العربية، ثم الدولية.

هذا أولاً.

وثانياً يجب النظر إلى المعركة ككل.

إن الدعاية تحاول إظهار الانتخابات وكأنها معركة حرة نزيهة، وللحكم على حرية ونزاهة الانتخابات لا يكفي النظر إلى عملية التصويت، فعملية التصويت جزء من هذه المعركة أو آخر شيء فيها، وهي عملية حية بدأت منذ أن استلم الكزبري الحكم، وانتهت يوم 1 كانون الأول بعملية التصويت، فالانتخابات ليست حرة ولا نزيهة، وزوِّرت فيها إرادة الشعب.

إننا نضع الأمر على هذا النحو، فالانتخابات تشمل أعمال التهيئة والدعاية والتصويت، وهو آخر هذه الأشياء، وخلال أعمال التهيئة

والدعاية جرت أعمال ضغط كثيرة وتزييف لإرادة الشعب، وهنا يمكن وضع النقاط التالية:

- استخدم الكزبري مركزه الحكومي لتعيين موظفين يخدمون مصالح انتخابية معينة، وأقر سياسة تفسح مجال الحرية لعناصر، وتمنعها عن عناصر أخرى وطنية وديمقراطية.

وأمام ضغط الشعب وقلقه جرى تبدل، وجرى اجتماع السياسيين والميثاق، ورفعت أعمال الضغط عن الآخرين، وبقيت مستمرة ضد الشيوعيين وضد عناصر مستقلة وطنية وديمقراطية، وهذا كله لعب دوره في المعركة.

- تدخل الكزبري ووزير الداخلية عدنان القوتلي، كما تدخل حيدر الكزبري شخصياً، وكان وجهاً عسكرياً بارزاً له نفوذه. تدخلوا جميعاً لفرض تحالفات وفرض ترشيحات معينة وعزل عناصر معينة. فرضوا تحالفاً عشائرياً بين العلويين. فرضوا مرشحين كثيرين في الأقضية: في القامشلي والحسكة والزبداني والقنيطرة والحفة وغيرها.

- استخدموا جهاز الدولة ضد عناصر معينة، وجرت ملاحقات واعتقالات، كانت قمتها منع خالد بكداش من ترشيح نفسه، وهذا مظهر قوي يدل على موقف الحكومة من الحريات وعلى ضغطها الانتخابي. وترشيح خالد بكداش كان له أثره ليس في دمشق وحدها، وإنما على النطاق السوري كله، ومجرد مجيئه لعب دوراً كبيراً، فكيف ترشيحه؟ هذا ولوحق مرشحون نالوا وصولات نهائية في جبل الأكراد، وجرت اعتقالات عديدة في حلب وحمص ودمشق وجبل الأكراد ومنطقة صافيتا وغيرها. وعندما جرت الانتخابات، اعتقل وكلاء من بعض المراكز.

- كانت الأحكام العرفية مستمرة، وكانت الرقابة قائمة على الصحف، واستمر اعتقال سجناء المزة، بل ازداد عدد المعتقلين بعد الانتفاضة.

- قانون الدعاية الانتخابية لم يمكن المرشحين الطيبين من إبراز وجههم الصحيح، فكانت الدعاية مراقبة، وحذف كثير من القضايا تحت ستار منع المهاترات، وهذا لم يساعد على فضح مرشحين معينين، كما لم يساعد على إعطاء المعركة توجيهاً صحيحاً.

- وكان العنصر المادي هاماً في المعركة، فالبعض كان يشتري الذمم، ويتمتع بكل حرية في نثر الأموال، بينما كانت عناصر أخرى لا

تملك ما يكفي لاستئجار سيارة من أجل دعايتها الانتخابية.

هذا كله قامت به حكومة الكزبري، واستمر مفعوله بعد ذهابه أيضاً، لأنه لم يتخذ أي تدابير لتلافي ذلك.

هذه العوامل كلها وغيرها تجعل الانتخابات غير حرة، وهي أثرت على إرادة الناخبين وعلى سير العملية الانتخابية، ولا يمكن بأي شكل من الأشكال فصل النتائج عن هذه الأمور.

ما هي نتائج الانتخابات؟

تأثرت نتائج الانتخابات كثيراً بالظروف التي أحاطت بها، ثم بما قامت به حكومة الكزبري، وبرأينا أن هذه النتائج كان يمكن ألا تكون سلبية أو سيئة بهذه النسبة، وكان نجاح خالد بكداش مؤكداً، فيما لو سمح بترشيحه.

برأينا أن الأكثرية البرلمانية هي رجعية يمينية، وقسم منها يميل إلى الغرب وله ارتباطات به، لكن عدداً هاماً من ممثلي هذه الرجعية ليس له ارتباطات، وهو تحت ضغط عوامل معينة قد يقع تحت تأثير عملاء الاستعمار، ورغم كل ذلك، ورغم أعمال حكومة الكزبري، فقد أمكن للشعب أن يظهر إرادته، وأن يحمل عناصر من البرجوازية التي لا تحمل ميولاً رجعية، كما حمل أيضاً عناصر حيادية ذات ميول ديمقراطية وطنية، وللمعركة نتائج إيجابية نجملها بما يلي:

1- لقد نجح 14 بعثياً، وهؤلاء يمثلون اتجاهاً سياسياً واجتماعياً هاماً، ونجاح قائمة أكرم بكاملها في حماة له معناه السياسي الكبير، فهو لا يعني أن 7 نواب فازوا، بقدر ما يعني أن منطقة وراء اتجاه معين، وهنا يجب النظر بشكل صحيح، فالأمر ليس أفكاراً بعثية بقدر ما هو أمر الإصلاح الزراعي والنضال ضد الإقطاع ومن أجل قضايا وطنية.

ونجح أيضاً نحو 15 نائباً يؤيدون خالد العظم، وهؤلاء يمثلون اتجاهاً وطنياً ديمقراطياً بشكل عام، ولو كانوا من الناحية الاجتماعية دون البعث. كما نجحت عناصر مستقلة تحمل نفس الاتجاه، مثل: النفوري وأحمد عبد الكريم وهاني السباعي وحسين مريود وغيرهم، ونجحت عناصر ناصرية أيضاً، مثل: عبد الله جسومة وحمود الحكيم، وهؤلاء سيسيرون حتماً في اتجاه وطني معاد للاستعمار وديمقراطي أيضاً.

إذن هناك نحو 40 نائباً يمثلون معارضة قوية نشيطة فعالة، وهذه

المعارضة مع قوى الشعب ستلعب دوراً فعالاً.

2- من النتائج الهامة لمجمل التطور الذي جرى في ظل الناصرية، ثم لقرارات التأميم والإصلاح الزراعي وغيرها، أن الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين ظهروا في هذه المعركة بوجههم المتمايز الخاص، فالطبقة العاملة لم تسر وراء البرجوازية الرجعية الكبرى، وجماهير الفلاحين لم تسر وراء الإقطاعية، وظهر ذلك على نحو خاص في كل مكان وضعت فيه قضية الإصلاح الزراعي وقضية التأميم، لكن الطبقة العاملة كقوة شعبية وسياسية لم تلعب دوراً حاسماً انتخابياً، فهي قليلة عددياً، وإن محاولة عزل الحزب وتسليط الإرهاب ضده وإخفاء وجهه عن الطبقة العاملة ساعد على البلبلة الانتخابية لدى أوساط العمال، والذي لعب الدور الحاسم انتخابياً هو البرجوازية الصغيرة والمتوسطة، وهذا يفسر انتصار الحوراني في حماة، وأصواتنا في دمشق وحلب وحمص وصافيتا وغيرها.

3- إن النتائج التي حصل عليها الحزب كانت هامة كثيراً، فقد نلنا أصواتاً كما يلي:

حمص 6 آلاف، حلب أكثر من 6 آلاف، صافيتا نقدرها بألفي صوت، طرطوس 700، دمشق نحو 6 آلاف، جبل الأكراد 3600، الجزيرة 2000. ولقد حصلنا تقريباً على نحو 30 ألف صوت، وهذه نتيجة هامة، ويجب ألا ننسى أن الحصول على هذه الأصوات بعد اضطهاد الناصرية ودعايتها المعادية للشيوعية، وبعد ما قامت به حكومة الكزبري، وبسبب العوامل الحزبية الذاتية هو أمر هام، ونحن نستخلص من ذلك:

أن الحزب ما يزال يحافظ على رصيده السياسي وعلى جماهيره الأساسية العمالية والفلاحية والشعبية عامة، وأنه خسر شيئاً في أوساط البرجوازية الصغيرة نتيجة العوامل المذكورة أعلاه.

وأن ثقة الطبقة العاملة والفلاحين بالحزب قوية، فالتصويت جرى للحزب أكثر مما جرى للأشخاص، فالعناصر التي تقدمت ليست وجوهاً حزبية معروفة، وليست شخصيات جماهيرية.

ومن المهم هنا ملاحظة أنه حيث وجدت منظمة أمكن العمل، سواء كان الأمر على نطاق المدينة أم الحي أو المنطقة أو القرية أو المعمل.

4- نحن نرى أن نتائج الانتخابات العامة ستجعل إمكانية الجبهة

الوطنية أقوى مما كانت، وستشعر مختلف الفرقاء بضرورة التحالف للوقوف في وجه التيار الرجعي العميل ومن أجل النضال الوطني والتقدمي.

هذه عموماً النتائج الإيجابية التي نراها.

أما في مجال الحكم أو الوضع العام في البلاد فرأينا أن هذه النتيجة ستؤدي:

1- إلى عدم الاستقرار في البلاد، فالشعب السوري ليس هذا وجهه، وليست هذه اتجاهاته، وشعور القلق لدى الجماهير الشعبية ظهر رأساً بعد إعلان النتائج، وهو سيتسع كثيراً، والذين سيتأكدون من زوال خطر عبد الناصر ومن أنه لن يكون هناك تأميم ومصادرة أموال سيدركون الأوضاع. هذا وقد تظهر ردود فعل طائفية، فهناك نحو 14 شيخاً مسلماً في المجلس، وسيكون لذلك أثره السلبي في الأوساط المسيحية والعلوية وغيرها.

2- إن الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين ستدخل معارك شديدة من أجل مطالبها، وقد تزيد أعمال التضليل والديماغوجية، لكن الشعور الطبقي سيزداد.

3- سيتسع مجال النضال الوطني ضد الاستعمار، وستدخل فيه عناصر الطلبة والعمال وفئات أخرى من المدن، كما أن المرأة ستدخل معترك الحياة السياسية أكثر للرد على الطغيان الرجعي.

إن القيادة العسكرية تحاول الدوران حول النتائج لا مجابهتها، وهي تتحمل مسؤولية كبيرة فيها، وهناك محاولات حالياً كي يتأمن ائتلاف حتى لا تتعرض البلاد مباشرة لهزات، وقد ينجح ائتلاف مؤقت بهذا الشكل أو ذاك، لكنه لن يدوم، وإذا دام، فلن يزيد عن مدة وضع الدستور.

الجزيرة بحاجة إلى إصلاح زراعي يصفي الإقطاعية وتحسين أحوال الجماهير[615]

تحقيق الإصلاح الزراعي في الجزيرة سيكون له نتائج هامة في المنطقة وسيزيد موارد البلاد العامة

ما من أحد يستطيع إنكار المنجزات التي حققتها حتى اليوم وزارة الإصلاح الزراعي، فالأعمال التي قامت بها هذه الوزارة في ميدان الاستيلاء والتوزيع هي من الضخامة بحيث لا يتيسر لأي كان أن ينكرها، اللهم إلا إذا كان بوقاً ناصرياً لا يستحي ولا يخجل.

ولكن رغم هذا كله فما من أحد يستطيع كذلك أن ينكر بأن الإصلاح لم تمتد أياديه بعد بالتساوي إلى جميع المناطق، فإذا كانت هنالك مناطق كحلب وحمص وحماة شهدت توزيع الأراضي في عشرات القرى على الفلاحين عدة مرات خلال أشهر قليلة، فإن هنالك مناطق كالجزيرة مثلاً ما تزال تنتظر الإصلاح، لأن ما جرى فيها حتى اليوم كان قليلاً، ولم يصب الإقطاعية حيث ينبغي أن يصيبها تماماً، فما هي الأسباب؟

وهل يتصور بعض المسؤولين أن الإقطاعية في هذه المناطق ليست شراً، وأن بقاءها هو أفضل من تصفيتها وإحلال نظام أرقى محلها؟ أم هل يظنون أن سكان هذه المناطق مرتاحون لوجود الإقطاعية، متمسكون بها، كما يتمسك الولد بأهله؟

إننا من جهة يمكننا أن نؤكد أن جماهير الجزيرة تمقت الإقطاعية مقتاً فظيعاً، فالإقطاعية هنا كبيرة شرسة لا حد لأطماعها، وهي تمتص دماء الفلاحين، كما لو كانت علقاً، وتلعب دوراً بارزاً في إفقارهم وتجهيلهم ونشر الأمراض في أوساطهم، وتركتهم في وضع هو أشبه بأوضاع القرون الوسطى. وليس أدل على رغبة جماهير الجزيرة بالقضاء على الإقطاعية وتصفية جذورها من مئات البرقيات والعرائض التي يرسلها الفلاحون من هناك إلى المسؤولين، مطالبين فيها بتطبيق قانون الإصلاح الزراعي على جزيرتهم، ومعربين عن توقهم لأن يكون لهم أرض يعملون عليها، ويعيشون من خيراتها عيشاً إنسانياً كريماً.

---

[615]) مقالة للمحامي دانيال نعمة، نـُشِرت في العدد 120 من جريدة "الطليعة العربية" يوم الأربعاء في 19 كانون الأول 1962.

وإذا كان الأمر هكذا، وهو فعلاً هكذا، فما هي إذن تلك القوة أو القوى العلنية والخفية التي حالت، وما زالت تحول، دون القيام بأعمال الإصلاح الزراعي في الجزيرة؟

ماذا كانت تعمل السلطة؟

من الواضح أن القوة الأساسية التي حالت دون تطبيق الإصلاح الزراعي في الجزيرة، في عهد الحكم الناصري الأسود، كانت السلطة الحاكمة ذاتها، فهذه السلطة لم تكن جادة في مسألة الإصلاح، وكانت تبتغي من ورائه مجرد الضجة والدعاية، لذلك كانت أعمالها في هذا الميدان أيضاً هزيلة جداً، وهي لم تتعد توزيع عدة عشرات من القرى على الفلاحين في طول البلاد وعرضها.

لقد كانت هذه السلطة منهمكة في تدبير المؤامرات على الشعب العراقي الشقيق وعلى ثورته وقواه الوطنية والتقدمية، وكانت تعتقد أن الإقطاعيين في الجزيرة هم أهم حلفائها في هذا التآمر، لذلك تحالفت معهم لقاء تنازلها عن كل عمل من أعمال الإصلاح الزراعي مهما ضؤل شأنه.

قوى يمكن جمعها

أما اليوم، في عهد سورية الجديدة، فإن القوى التي تعمل على شل أعمال الإصلاح الزراعي في الجزيرة كثيرة، وهي تعمل بمئة شكل وشكل، ولا تترك وسيلة بغية تحقيق أهدافها. وهذه القوى يمكن جمعها في عدة فئات هي:

أولاً- الإقطاعيون وكبار المستثمرين، فهؤلاء مجمعون على أن تنفيذ الإصلاح الزراعي يشكل ضربة لهم، ويهدم أمجادهم، ويقضي قضاء مبرماً على المصادر التي تدر عليهم ثروات أسطورية لا يستفيد منها الوطن إلا قليلاً. وهؤلاء لا يهمهم في قليل أو كثير أن يُنفَّذ في الجزيرة إصلاح يعيدهم بشراً سوياً، مثلهم مثل بقية الناس، ويعود على الجماهير الفقيرة، وبالتالي على البلاد، بفوائد لا حصر ولا عدَّ لها.

كل تغيير ضربة لهم

ثانياً- المستعمرون وعملاؤهم، فهؤلاء يرون أن كل تغيير تقدمي يحصل في الجزيرة سيشكل ضربة كبرى لهم. والإقطاع في الجزيرة هو من أكثر الأوضاع ملاءمة لنشاطهم، وهو يساعدهم على بذر بذور

الخلاف بين أبناء المنطقة، وافتعال الحوادث وإثارة الفتن، واستخدام ذلك كله في الضغط والمساومة من أجل تنفيذ مشاريعهم ومخططاتهم.

ماذا يريد الناصريون؟

ثالثاً- الناصريون ودعاتهم وعملاؤهم، فهؤلاء يريدون بقاء السيئ على حاله واستغلاله ضد البلاد، واستخدامه لعرقلة تقدمها ومنعها من السير على طريق الاستقرار والبناء، كما يريدون بقاءه لتظل لهم حجة العمل والنشاط، ليظل بإمكانهم أن يدعوا إلى عودة الحكم المباحثي البغيض، ويخدعوا البعض.

وواضح لكل من يتتبع تطور الأوضاع أن هذه العناصر الثلاثة تتعاون، أو هي على الأقل تتلاقى في العمل من أجل منع القيام بأي إصلاح في الجزيرة، كما في كل مكان، وهي تستر أهدافها الحقيقية بأمرين أولهما أن القانون لا يصلح للتطبيق في الجزيرة.

أفكار يروجون لها

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض الأوساط التي تَمُتُّ إلى الرجعية وغيرها بألف صلة وصلة تعمل، هي الأخرى، على تبني مثل هذه الأفكار ونشرها والترويج لها، وعلى الاستناد إليها لإبقاء العلاقات الإقطاعية والاستثمارية في الجزيرة كما هي دون أي تغيير أو تبديل.

ولكن هل يظنن جميع هؤلاء أن أحداً يمكن أن يُخدع بأقوالهم وحججهم؟ وهل هم يتصورون أن عاقلاً في الدنيا يمكن أن يقتنع بأن قانون الإصلاح الزراعي هو قانون غير قابل للتطبيق في الجزيرة.

العناصر المعادية تستفيد

إن من المؤكد أن الإقطاعية لم تكن في بلادنا إلا حصناً للاستعمار والطامعين، وللذين يحلمون بالكيد لهذا الوطن. وبقاؤها في سورية عامة، وفي الجزيرة خاصة، لا تفيد منه سوى هذه العناصر المعادية المجرمة. أما القضاء عليها، وخصوصاً في الجزيرة، فستربح منه هذه الجزيرة، كما ستربح منه سورية كلها. وهو لن يعود عليها إلا بالخير، كل الخير.

وأما القول بأن القانون غير صالح للجزيرة، ولا يمكن تطبيقه فيها، فهو مجرد زعم، ولا يصلح أن يكون حجة لوقف الإصلاح ثم القضاء عليه. والذي نعلمه نحن أن نصوص القانون يمكن تطبيقها على مناطق واسعة في الجزيرة، وفي كل مكان فيها يتم استثماره بالأسلوب غير

الرأسمالي، ونعني به أسلوب المحاصصة الإقطاعية والاستثمار الفردي الصغير. أما في مناطق الجزيرة الأخرى فيمكن للحكومة أن تقوم بإصلاح يعتمد إما على إقامة مزارع حكومية تستغلها الدولة مباشرة، وإما على إقامة مزارع تعاونية للفلاحين تدعمها الدولة، خصوصاً في المرحلة الأولى لتكوينها، دعماً قوياً. ومعروف أن مثل هذا الإصلاح سيساعد على استثمار مساحات واسعة من الجزيرة لا تستثمر الآن، أو تستثمر بالأسلوب الرأسمالي، الذي يؤدي إلى حصر الثروات الهائلة بين أفراد في الجزيرة وإلى خراب الجماهير الأساسية فيها.

إن تحقيق الإصلاح الزراعي في الجزيرة، على النحو الذي ذكر أعلاه، وتنفيذه بالنسبة إلى جميع الإقطاعيين وفي مصلحة جميع المواطنين، سيكون له نتائج هامة بالنسبة إلى المنطقة من جهة، وللبلاد بأسرها من جهة أخرى. فهو سيؤدي إلى تصفية مخلفات الماضي في الجزيرة، ورفع مستوى الجماهير فيها إلى الحد الذي يليق بالإنسان، وسيزيد من تمتين روابط جميع المواطنين فيها بوطنهم، وهو سيؤدي إلى فلِّ أسلحة المستعمرين والطامعين وعملائهم وشل نشاطهم المعادي، وهو سيؤدي إلى جعل ثروات الجزيرة ثروات لجماهير البلاد بأسرها، ابتداءً من جماهير الجزيرة إلى بقية الجماهير، عوضاً عن أن تكون ثروات لأفراد يستغلونها، في الغالب، لأهداف شخصية محضة. وواضح من هذا كله أن تحقيق الإصلاح الزراعي في الجزيرة وتنفيذه، كما ينبغي، لن تكون له النتائج التي يتنبأ بها جميع الأعداء، بل نتائج أخرى إيجابية تؤدي إلى توطيد روابط الجزيرة بكل بقعة من بقاع البلاد وتحسين أحوال الجماهير فيها وفي مناطق أخرى كثيرة.

فهل يصح، بعد هذا، إلا أن نقدم على تنفيذ الإصلاح الزراعي في الجزيرة، ولو كره الإقطاعيون والمستعمرون والطامعون وجميع عملائهم؟

مشروع برنامج الحزب الشيوعي السوري
من أجل إصلاح زراعي جذري[616]

الشيوعيون السوريون يؤيدون الإصلاح الزراعي الحالي ويطالبون بتطبيقه، وفي الوقت نفسه يناضلون في سبيل إصلاح زراعي جذري يقضي تماماً على بقايا الإقطاعية ويؤمن الأرض لجميع الفلاحين.

وضع الحزب الشيوعي السوري مشروع برنامجه لحل القضية الزراعية في سورية العربية، وفيه يشرح الحزب موقفه من الإصلاح الزراعي الحالي الجاري تطبيقه، كما يبين الطريق لحل القضية الزراعية حلاً كاملاً، وذلك بإجراء إصلاح زراعي جذري. وسوف ينشر الحزب النص الكامل لهذا المشروع في كراس خاص. وننشر الآن، فيما يلي، خلاصة لهذا المشروع مع النص الكامل للقسم الذي يعرض المطالب والتدابير، التي يعتقد الحزب أنه لا بد منها لتحقيق إصلاح زراعي جذري يتفق مع أماني جماهير الفلاحين الواسعة في بلادنا.

إن نضال الفلاحين في سورية العربية ضد الاستثمار الإقطاعي وفي سبيل الأرض هو نضال قديم، فكما أن الفلاحين قاموا بدور كبير في النضال ضد الاستعمار منذ الثورة السورية عام 1925 وقبلها وبعدها، فهم كذلك جابهوا الإقطاعية بنضال مستمر اتخذ مختلف الصور والأشكال. وقد لقي نضال الفلاحين تأييداً واسعاً من جماهير العمال الواعين وجميع العناصر التي تريد لبلادها التقدم. وقد ناضل الحزب الشيوعي السوري دائماً في سبيل مطالب الفلاحين، ودعم نضالهم، ونادى الحزب الشيوعي منذ البدء بضرورة القيام بإصلاح زراعي جذري وتصفية بقايا الإقطاعية في الريف تصفية تامة، وذلك بمصادرة أراضي الإقطاعيين دون مقابل، ودون أي تعويض، وتأمين الأرض ووسائل استخدامها لجميع الفلاحين المحرومين من الأرض والفلاحين، الذين يملكون القليل منها.

---

[616]- نشر في العدد 23 من "نضال الشعب" أواخر أيار 1963.

وعندما صدر قانون الإصلاح الزراعي الأول في أيلول عام 1958 أعلن الحزب الشيوعي السوري موقفه منه بكل صراحة، فقد أيد القانون، وقال إن هذا القانون إذا طبق في جو من الحرية والديمقراطية وبمساهمة جماهير الفلاحين، فهو، وإن كان لا يؤدي إلى حل القضية الزراعية في سورية حلاً جذرياً، سيوجِّه على كل حال ضربة قوية للإقطاعية، ويكون خطوة هامة إلى أمام في طريق تطور البلاد وتقدمها، وجاءت الحوادث، فصدقت تماماً صحة موقف الحزب الشيوعي السوري، فإن تطبيق القانون في ظل الديكتاتورية وحكم المباحث، لم يعط خلال ثلاث سنوات نتائج محسوسة ذات شأن. ورغم الإرهاب في ذلك العهد، قام الحزب الشيوعي بواجبه، وبيَّن نواقص القانون، كما فضح أساليب التحايل والبطء في تطبيقه، ودعا الجماهير إلى النضال في سبيل تنفيذ القانون تنفيذاً صحيحاً، كما دعا إلى متابعة النضال في سبيل إصلاح زراعي جذري يصفّي جميع بقايا الإقطاعية في الريف السوري.

وحينما حاولت الرجعية بعد 28 أيلول 1961 أن تقضي على الإصلاح الزراعي، هبَّ الحزب الشيوعي السوري مع جميع التقدميين لفضح أغراض الرجعية، والدعوة إلى الاتحاد للنضال في سبيل إحباط أغراض الرجعية، والسير إلى أمام في تطبيق الإصلاح الزراعي. وبالفعل استطاع اتحاد القوى التقدمية إجبار الرجعية على التراجع، وأعيد قانون الإصلاح الزراعي في 30 نيسان 1962، ثم بفضل وعي الفلاحين ونضالهم وتأييد الشيوعيين وجميع التقدميين لهذا النضال أمكن السير خطوات هامة في تنفيذ الإصلاح الزراعي، ولكن حتى الآن لم ينجز تطبيقه تماماً.

وفي جميع المراحل حتى الآن، طالب الحزب الشيوعي السوري، ويطالب، بتطبيق قانون الإصلاح الزراعي بحزم وسرعة، ومنع كل محاولة لخرق القانون في مصلحة الإقطاعيين، كما طالب ويطالب بإجراء تعديلات في القانون لمصلحة الفلاحين، وذلك بتخفيض الحد الأقصى للملكيات الإقطاعية، وحذف كل زيادة بحجة الزوجات والأولاد، وإعفاء الفلاحين من دفع ثمن الأرض، ومن دفع أي تعويض للإقطاعيين ومن أية نفقات أخرى لقاء قطعة الأرض التي توزع على المنتفعين، سواء كانت هذه القطعة من أراضي الاستيلاء أم من أراضي

أملاك الدولة، كما أن الحزب الشيوعي طالب ويطالب بالسماح لجماهير الفلاحين عن طريق لجان ينتخبونها بأنفسهم بالإشراف على تنفيذ قانون الإصلاح الزراعي والمساهمة في تطبيقه.

وفي الوقت ذاته دافع الحزب الشيوعي، ويدافع، عن سائر المطالب الأخرى التي من شأنها تحسين حالة الفلاحين، سواء كانوا من المنتفعين بقانون الإصلاح الزراعي أم لم يكونوا. وفي رأس هذه المطالب منع طرد الفلاحين من الأرض منعاً باتاً مطلقاً، وزيادة حصص الفلاحين العاملين بالمحاصصة على أراضي كبار الملاكين، التي لم توزع بعد، أو لا يشملها قانون الإصلاح، وزيادة أجور العمال الزراعيين، وتحرير الجمعيات التعاونية الزراعية، التي نص عليها قانون الإصلاح الزراعي المعمول به، من تدخل أجهزة الدولة، وتأمين حرية تشكيلها على أسس ديمقراطية، وضمان حرية الفلاح في الانتساب أو عدم الانتساب إليها، وإنقاذ جماهير الفلاحين من نهب المرابين والمصارف، ومنحهم مساعدات وقروضاً بدون فائدة أو بفائدة قليلة.

هكذا كان، وما يزال، موقف الشيوعيين السوريين من قانون الإصلاح الزراعي الحالي ومن مختلف مطالب الفلاحين، غير أن الحزب الشيوعي السوري له في الوقت نفسه برنامج يهدف إلى حل القضية الزراعية حلاً كاملاً في سورية العربية، وهو برنامج الإصلاح الزراعي الجذري.

وفيما يلي نص مشروع هذا البرنامج، الذي يعرضه الحزب على جميع الرفاق والأصدقاء وعلى جماهير الفلاحين، وهو واثق من أنه سينال التأييد الواسع، كما أن الحزب يتلقى بسرور كل ملاحظة أو اقتراح حول هذا المشروع إلى أن تصدقه هيئات الحزب المختصة.

نص مشروع برنامج الحزب الشيوعي السوري
من أجل إصلاح زراعي جذري

إن الإصلاح الزراعي، الذي يجري تنفيذه الآن في سورية، هو دون ريب خطوة تقدمية هامة، ومن واجب كل شيوعي وكل وطني ديمقراطي مهما كان اتجاهه أن يؤيد هذا الإصلاح، وأن يناضل في سبيل تطبيقه، وفي سبيل تطبيق جميع التدابير الأخرى، التي من شأنها أن تساعد الفلاحين المنتفعين منه على السير في استثمار الأرض التي نالوها ورفع الأعباء التي ترهق كاهلهم.

ولكن من الواضح أن الإصلاح الزراعي الحالي، حتى لو جرى تطبيقه تطبيقاً تاماً، فإنه لن يؤدي إلى حل القضية الزراعية في سورية حلاً جذرياً، فهو يزعزع أسس الملكية الإقطاعية، ويوجه إليها ضربة قوية، ولكنه لا يؤدي إلى تصفية بقايا الإقطاعية تصفية كاملة.

وفي الواقع إذا نظرنا الآن إلى القرى، التي جرى فيها الإصلاح الزراعي، رأينا أن قسماً من الفلاحين نالوا أرضاً، وأصبحوا ملاكين، بينما أن قسماً آخر من الفلاحين لا يزالون محرومين من الأرض، ويعملون على الأراضي، التي بقيت للإقطاعيين غالباً، كمحاصصين أو كعمال زراعيين يستثمرهم الملاك الكبير بالأسلوب الرأسمالي.

وحتى بعد تطبيق هذا الإصلاح تطبيقاً كاملاً، يبقى في سورية نحو 9 آلاف إقطاعي يتصرفون بالنصف الأخصب والأجود من الأراضي البعلية، وبنحو ثلث الأراضي المروية. أما العائلات الفلاحية التي تكون قد نالت أرضاً بعد الانتهاء من تطبيق الإصلاح الزراعي، فعددها لا يتجاوز 50 إلى 60 ألف عائلة، أي يبقى في البلاد نحو 300 ألف عائلة فلاحية، إما محرومة غالباً من الأرض، وإما تملك قطعة أرض صغيرة لا تكفي لمعيشتها، لذا لا بد من إصلاح زراعي جذري يصفي بقايا الإقطاعية تصفية تامة، ويؤمن الأرض لجميع الفلاحين.

ولذلك فإن الحزب الشيوعي السوري، منطلقاً من مصالح أوسع جماهير الفلاحين وكل الشعب، ومستجيباً لمتطلبات التطور في المجتمع العربي السوري، يتقدم بمشروع البرنامج التالي لحل القضية الزراعية حلاً جذرياً، وهو برنامج تحولات أساسية في العلاقات الزراعية من شأنها تصفية جميع بقايا الإقطاعية في الريف، وفتح المجال لتطور القوى المنتجة ورفع مستوى معيشة جماهير الفلاحين بصورة أساسية.

برنامج الإصلاح الزراعي الجذري

المادة 1- مصادرة أراضي الإقطاعيين وكبار الملاكين دون أي تعويض، وتوزيعها مجاناً على الفلاحين الفقراء، الذين لا يملكون أرضاً، أو يملكون قطعة أرض صغيرة غير كافية للقيام بأودهم وأود عيالهم. أما المَلّاك الذي تخضع أراضيه للمصادرة، فتترك له قطعة أرض مع الوسائل اللازمة لزراعتها، وذلك بمقدار يكفي لمعيشته ومعيشة عائلته.

المادة 2- جميع الوسائل اللازمة للاستثمار، التي يملكها الإقطاعيون وكبار الملاكين (كالمياه والأبنية اللازمة للزراعة، والمواشي الزراعية، والتراكتورات وغيرها من الآلات) تصادر، وتوضع تحت تصرف اللجان الفلاحية لاستخدامها لمصلحة الفلاحين الكادحين.

وهذا الإصلاح الزراعي لا يشمل أراضي الفلاحين الأغنياء، شريطة أن يستثمروا اقتصادياتهم استثماراً حسناً، وأن يحترموا حقوق العمال الزراعيين والفلاحين الذين يعملون عندهم في أرضهم.

المادة 3- تأمين اشتراك جماهير الفلاحين في تحقيق الإصلاح الزراعي، وذلك بوضع جميع التدابير المؤدية إلى تنفيذ الإصلاح الزراعي، وخصوصاً مصادرة الأراضي وتوزيعها، تحت إشراف لجان فلاحية يشكلها الفلاحون أنفسهم على أساس انتخابات ديمقراطية.

المادة 4- إطلاق الحريات الديمقراطية في الريف (حرية الكلام والنشر والصحافة والاجتماعات والمظاهرات... إلخ)، لكي تستطيع جماهير الفلاحين قول كلمتها في جميع المسائل التي تتصل بمصالحها، والدفاع عن حقوقها ضد كل استبداد أو سوء استعمال أو تشويه في تنفيذ الإصلاح الزراعي.

المادة 5- ينبغي على الدولة من أجل زيادة الإنتاج الزراعي ورفع مستوى معيشة الفلاحين أن تؤمن للفلاحين الكادحين، الذين حصلوا على قطعة أرض نتيجة الإصلاح الزراعي، جميع الوسائل الضرورية لاستثمار أرضهم، كالبذار والسماد والآلات والأدوية لإبادة الحشرات ووسائل مكافحة أمراض النباتات وما إلى ذلك.

المادة 6- الاستفادة من الأنهار ومجاري المياه بإقامة السدود وإنشاء شبكة واسعة من أقنية الري، لتوسيع رقعة الأراضي المروية، ورفع الإنتاج الزراعي، وإنقاذ الفلاحين السوريين نهائياً من أخطار المحل والجفاف.

المادة 7- مساعدة الفلاحين على أن يشكلوا بحريتهم واختيارهم جمعيات تعاونية على اختلاف أنواعها ودرجاتها، وينبغي تشكيل هذه الجمعيات على أساس ديمقراطي، وتأليف لجانها الإدارية عن طريق الانتخاب، وينبغي أن يؤمن للفلاح حق الخروج من الجمعية التعاونية في أي وقتٍ شاء.

المادة 8- تحرير الفلاحين من نير المرابين والوسطاء، وتأمين شبكة

واسعة من مؤسسات التسليف تنشئها الدولة لتقديم قروض بفائدة قليلة إلى الفلاحين الفقراء والمتوسطين، وكذلك عند الضرورة للفلاحين الميسورين.

المادة 9- تحرير اقتصادنا الزراعي تحريراً كاملاً نهائياً من استثمار الاحتكارات والمصارف الأجنبية.

المادة 10- اتخاذ التدابير السريعة لتحسين أوضاع الريف صحياً وثقافياًَ واجتماعياً بشكل جذري: بناء شبكة واسعة من الطرق، الاهتمام بعمران القرى، تأمين الطبابة المجانية، تزويد القرى بالمياه الصالحة للشرب وبالنور الكهربائي، زيادة عدد المدارس وغير ذلك.

المادة 11- تأمين تصريف الفائض من منتجات الفلاحين بأسعار عادلة، وينبغي لهذه الغاية توسيع علاقاتنا الاقتصادية والتجارية مع البلدان الصديقة وفي طليعتها البلدان الاشتراكية، هذه العلاقات القائمة على أساس المساواة والفائدة المتبادلة.

المادة 12- اتخاذ التدابير لرفع المستوى الفني للزراعة السورية، وذلك بإدخال أحدث الأساليب الجديدة، وخصوصاً فيما يتعلق بزراعة القطن والحبوب، وتهيئة الملاكات، وإعداد الخبراء والفنيين الزراعيين، وحماية المواشي وزيادتها بتأمين العلف والمياه والملاجئ لقطعان المواشي، وخصوصاً للأغنام.

إن تحقيق هذا البرنامج ينقذ الفلاحين السوريين من بقايا الإقطاعية ومن جميع مخلفات الاستعمار، ويحرر القوى المنتجة، خصوصاً في الريف، من أساليب القرون الوسطى، ويفتح المجال لتطور الزراعة السورية في طريق التعاون الاشتراكي، الذي هو الطريق الوحيد القادر على حل القضية الزراعية بشكل حاسم وعلى إنقاذ جماهير الفلاحين الكادحين من التدهور والفقر ورفع مستواهم إلى مستوى حياة رخاء وثقافة.

ومن الواضح أن الطريق لتحقيق هذا البرنامج الزراعي هو التحالف الوطيد بين العمال والفلاحين وسائر القوى الديمقراطية بقيادة الطبقة العاملة، وقيام جميع الوطنيين التقدميين بنضال حازم حاسم ضد الاستعمار والإقطاعية وسائر قوى الرجعية، في سبيل نظام حكم وطني ديمقراطي راسخ الأسس، في سبيل دولة الديمقراطية الوطنية.

إن النضال بنجاح في سبيل الإصلاح الزراعي الجذري، وكذلك في

سبيل جميع مطالب الفلاحين المباشرة، يتطلب وضوحاً تاماً حول القوى الاجتماعية في الريف، حول مختلف الفئات التي تتألف منها جماهير الفلاحين.

إن القوة الرئيسية ضد الاستعمار والإقطاعية في الريف السوري هي العمال الزراعيون وجماهير الفلاحين الفقراء، التي تتألف من الفلاحين المعدمين المحرومين من الأرض (المحاصصين والأجراء)، ومن الفلاحين الذين يملكون قطعة أرض صغيرة لا يكفي دخلها للقيام بأودهم وأود عيالهم. وتؤلف الجماهير الفلاحية الفقيرة الأكثرية العظمى من سكان الريف السوري، ويهمها دون أي تحفظ تحقيق إصلاح زراعي جذري حازم، ومحو بقايا الإقطاعية محواً تاماً، والسير دائماً إلى أمام في طريق التقدم الاجتماعي.

إن هذه الجماهير الفلاحية الفقيرة تؤلف الحليف الأمين، الذي لا بديل عنه لعمال المدن، في النضال ضد الاستعمار والإقطاعية، في سبيل الاستقلال الوطني وفي سبيل الديمقراطية والاشتراكية. إنها تؤلف القوة الرئيسية، التي يجب أن يستند إليها الشيوعيون في نشاطهم في الريف. فعلى مدى وعي الجماهير الفلاحية الفقيرة، وعلى مدى تنظيمها ومدى استعدادها للمساهمة في النضال جنباً إلى جنب مع عمال المدن، يتوقف مدى النجاح في اجتذاب فئات الفلاحين الأخرى، وخصوصاً الفلاحين المتوسطين، إلى النضال الوطني الديمقراطي العام.

إن الفلاحين المتوسطين، الذين يؤلفون قسماً هاماً من سكان الريف السوري، من مصلحتهم كذلك تحقيق إصلاح زراعي جذري، فاجتذابهم إلى النضال بجانب الجماهير الفلاحية الفقيرة هو من أكبر المهام التي تجابهها الحركة الديمقراطية التقدمية في سورية.

أما البرجوازية الريفية، أي فئات الفلاحين الأغنياء، فهي تتميز بالازدواج في موقفها، فهي تريد تصفية امتيازات الإقطاعيين، ولكن كي تحل هي محلهم من حيث السيطرة في الريف، وكي تمعن في استثمار العمال الزراعيين والفلاحين الفقراء، ورغم هذا فمن الممكن، ومن المفيد، القيام بأعمال مشتركة مع فئات من البرجوازية الريفية في هذه المنطقة أو تلك، وكذلك على النطاق الوطني، وذلك خصوصاً حول قضية معينة ملموسة، ومن الأهمية بمكان عدم الزج، كما يحدث أحياناً، بين البرجوازية الريفية وبين الإقطاعيين.

إن الفلاحين في نضالهم من أجل الأرض، ومن أجل مطالبهم المباشرة، يتمتعون بتأييد الشعب بأسره، وخصوصاً بتأييد الطبقة العاملة السورية، لأنها الطبقة الاجتماعية التي تناضل بلا هوادة ضد قوى الاستعمار والإقطاعية، ويهمها تحرير المجتمع العربي السوري من جميع أشكال الاستثمار والاضطهاد الاجتماعي، والانتقال إلى طريق التطور الاشتراكي، ولهذا فالطبقة العاملة يهمها بطبيعة الحال تحرير الفلاحين تحريراً كاملاً وتأمين حياة رفاه وثقافة لهم.

إن موقف الطبقة العاملة من جماهير الفلاحين وحقوقهم ومطالبهم إنما يجد تعبيره الأوضح والأكمل في موقف الحزب الشيوعي السوري، الذي دعا دائماً إلى إجراء إصلاح زراعي جذري، وناضل دائماً في سبيل تصفية بقايا الإقطاعية في الزراعة تصفية تامة وفي سبيل جميع مطالب الفلاحين.

إن الطريق لتحقيق جميع مطالب الفلاحين، الكبرى منها أو الجزئية، هو طريق التحالف الوطيد بينهم وبين الطبقة العاملة، المدعوة لأن تكون القوة المحركة الأساسية لجبهة وطنية ديمقراطية تقدمية شاملة، تجمع جميع القوى الحية الشريفة في سورية العربية.

إن تجربة الحياة قد برهنت، وهي تبرهن، يومياً أن نضال الفلاحين السوريين في سبيل إصلاح زراعي جذري، وكذلك نضالهم اليومي في سبيل تحقيق مطالبهم الاقتصادية المباشرة، إنما هو نضال ممتزج امتزاجاً عضوياً بالنضال العام، الذي يقوم به الشعب السوري في سبيل توطيد استقلاله الوطني ورد مؤامرات المستعمرين ومكائد الطامعين، وتوطيد الحرية والديمقراطية، والسير في طريق التقدم الاجتماعي، طريق الديمقراطية الوطنية والاشتراكية.

حول مشاكل الغاب وطرق حلها[617]

في أواسط أيلول المنصرم كانت منطقة الغاب مسرحاً لتظاهرة فلاحية تجاوز أثرها النطاق المحلي، وأدت إلى اعتقال وملاحقة عدد من الفلاحين الشيوعيين والتقدميين الآخرين، وقد طرحت هذه التظاهرة كثيراً من التساؤلات:

ترى كيف أمكن وقوع مثل هذه التظاهرة الجماهيرية؟

ولماذا اشترك فيها فلاحون كثيرون، ينتمي بعضهم إلى حزب البعث الحاكم نفسه وإلى أحزاب وقوى سياسية أخرى مختلفة؟

وما هي أسبابها وعواملها؟

وما هي أهدافها الحقيقية؟

وما هي الفئات الاجتماعية والسياسية، التي تعمل لاستغلالها في أغراضها المشبوهة؟

وطبيعي أن تتباين الإجابات عن هذه التساؤلات، فالعناصر المستثمِرة والحاقدة لم تكتف بما حاكت من دسائس، بل أخذت تستغل ما جرى ضد الاتجاه الوطني جملةً وتفصيلاً، وللتشكيك بالإصلاح الزراعي، ومنع تنفيذ المرسوم رقم 66، بينما قسم من المسؤولين، خصوصاً على نطاق حماة، يصر على تجاهل وإنكار كل ما هو مشروع وواقعي في احتجاجات الفلاحين، وعلى التأكيد، هكذا، أن كل ما جرى هو مصطنع، وهو من صنع العدو الطبقي. ويؤسفنا أن بعضاً من هؤلاء، ربما لغرض الإيقاع بين تقدميين وتقدميين، يلح، خلافاً للمنطق وللحقائق، على أن ما قامت به الجماهير الفلاحية الواسعة ليس نتيجة أخطاء وقعت وأغضبت الفلاحين، بل هي فقط نتيجة تحريض الشيوعيين، وأنه لولا ذلك لما حدثت هذه الحركة الجماهيرية الفلاحية الواسعة، وواضح أن هذا كله يقتضي إلقاء الأضواء على ما حدث، والمساهمة في تأمين أفضل الظروف لإيجاد أفضل الحلول للقضايا المطروحة.

من الواضح أن استمرار الأوضاع في الإصلاح الزراعي على ما

---

[617]) نشرت مقالة دانيال نعمة هذه في العدد 129 من "نضال الشعب" أواسط ت1 عام 1969.

هي عليه الآن، لم يعد في مصلحة البلاد، فليس مفهوماً أبداً أن تستمر أساليب التأجير السنوي لأراضي الاستيلاء، واعتماد أسلوب الترخيص السنوي في منطقة الغاب، لأن ذلك يضر باقتصاد البلاد وبمصالح الفلاحين، وينشر القلق وعدم الاستقرار في أوساطهم. ومن هنا كان لا بد من تأييد كل عمل حازم يستهدف إنجاز أعمال الإصلاح استيلاءً وتوزيعاً، ومن هنا كان منطلق الحزب الشيوعي في دعمه للمرسوم رقم 66 المتعلق بالغاب وطار العلا والعشارنة.

وكانت أبرز ما في هذا المرسوم مبادئُهُ، التي استهدفت تأمين ملكية كافية لأكبر عدد من العائلات الفلاحية المستحقة في أراضي الغاب، وذلك:

أ- يجعل الحد الأدنى لمثل هذه الملكية 25 دونماً، والحد الأعلى لها 40 دونماً، تبعاً لدرجة خصوبة هذه الأرض.

ب- بتفضيل الأكثر عيالاً والأقل مالاً، وتأمين الأرض لمن ليس له موارد عيش أخرى.

ج- بتوزيع الأرض على الأقرب فالأقرب بالنسبة لمكان السكن.

كذلك نص المرسوم على أهمية إيجاد الشروط اللازمة لنشر التعاون الزراعي الإنتاجي باعتباره الطريق الأفضل لاستخدام منجزات الثورة التكنيكية في مصلحة الفلاحين، وطريق إزالة الاستيلاء الممكن حدوثه بسبب موقع الأرض أو درجة جودتها وخصوبتها، كما ألح المرسوم أيضاً على الأهمية الكبرى التي يرتديها إيجاد محطة للآلات وبناء مزرعة دولة تكون نموذجاً ومثالاً يشجعان على التعاون.

ولقي ذلك كله تأييداً واسعاً في أوساط جماهير الفلاحين، لكنه لم يحل دون تنامي بذور القلق والتخوف لديهم، فقد كان واضحاً أن صعوبات كثيرة سوف تعترض التنفيذ، وقد تجلت هذه الصعوبات بأنواع، منها:

أولاً- صعوبات موضوعية تعود إلى عدم وجود إمكانات لتأمين أرض لجميع الفلاحين المحتاجين في منطقة الغاب أو حولها، وإلى رفع الحد الأدنى لمساحة الأرض الموزعة، وخفض الحد الأعلى لها، مما يخلق أساساً واقعياً لاستياء كل من تتعرض مساحة أرضه للنقصان، أو من يتعرض للانتقال من أرض عمل فيها زمناً إلى أخرى أبعد أو أقل جودة.

ثانياً- صعوبات ذاتية تعود إلى التسرع وعدم دراسة أوضاع الغاب

بصورة علمية معمقة، مما أدى إلى أخطاء فادحة في أعمال البحث الاجتماعي وتصنيف نوعية الأرض، كما تعود إلى عدم الاهتمام كفاية بتجزئة الأعداء الطبقيين، والتدرج بأعمال التنفيذ، والعمل على كسب أوسع الجماهير، والتقليل قدر الإمكان من عدد المستائين، وإلى عدم التقيد الحازم من قبل بعض المسؤولين المحليين، إداريين وحزبيين، بالمبادئ المقررة، مما أدى إلى وقوع تصرفات تستهدف النفع والتنفيع والانتقام والتمييز بين المواطنين. مثلاً: لقد أدت مثل هذه التصرفات إلى أن تتمكن عناصر، تملك هي نفسها عشرات الدونمات، من الحصول على حصص كاملة من أراضي الغاب، كما جرى تمليك فلاحين من قرى معينة أراضٍ جيدة، كان ينبغي أن تكون على أساس مبدأ الأقرب فالأقرب، من حق فلاحي قرى أخرى، إلى آخر ما هنالك.

وكذلك وجدت صعوبات أدى إليها اعتبار بعض الأراضي السيئة صالحة جيدة، والعمل لتوزيعها على الفلاحين.

وزاد في الآثار السلبية لمختلف هذه الصعوبات عدم الاعتماد الفعلي في أعمال البحث والتصنيف والتوزيع على جماهير الفلاحين صاحبة المصلحة، والاكتفاء بآراء بعض الغرباء والموظفين المحليين وغيرهم، وواضح أن هذا يتناقض مع تجارب البلدان الصديقة المتطورة وغير المتطورة معاً.

لقد جرى إغفال ما لمساهمة الفلاحين، وما للاعتماد على جماهيرهم الواسعة، من أهمية كبرى في منع التلاعب والاحتيال، وفي إنجاز أعمال الإصلاح بصورة مبدئية وبأسرع وقت وأقل النفقات.

وكان من المفروض أن يجري التفتيش من خلال هذه الصعوبات بمجملها عن الأسباب والعوامل، التي دفعت بجماهير فلاحية واسعة، بينها عشرات البعثيين، إلى التظاهر تعبيراً عن استيائهم من بعض التصرفات، ورغبةً في إزالة الأخطاء والنواقص المرتكبة في مجال تنفيذ المرسوم رقم 66.

وواضح أن هذا لا يعني البتة المطالبة بإغماض العين عن دسائس وأعمال الأعداء والحاقدين، بل هو يعني بالضبط ضرورة النظر إليها بيقظة، والعمل بجد لإحباطها، فهؤلاء الأعداء لا يريدون تغيير الأوضاع بأفضل منها، وهم يناضلون بشراسة والتواء ضد كل إصلاح حقيقي، وأكثر ما يستفيدون منه، ويستندون إليه، هو الأخطاء المرتكبة.

كذلك يسهل على هذه الجهات المعادية تنفيذ مآربها الضارة عدم الإدراك الكافي، خصوصاً في بعض الأوساط الحزبية المحلية، لأهمية تعاونها مع القوى التقدمية الأخرى، واعتمادها على مساهمة الجماهير الفلاحية الواسعة في مثل هذه الأعمال الإصلاحية الضخمة. إن نجاح مثل هذه الأعمال يقتضي التمسك الحازم بهذين المبدأين، أما الانفراد بالأعمال واللجوء إلى التصرفات الإدارية أحياناً، والإرهابية أحياناً أخرى، فلن يساعد إلا مآرب العاملين ضد الإصلاحات ولضرب الوضع الوطني التقدمي في البلاد.

إن ما جرى في منطقة الغاب لا يصح النظر إليه من منطلقات ذاتية عاطفية، فقد أكد أنه رغم كل الجوانب التقدمية في قانون من القوانين، يمكن، فيما إذا ارتكبت جهات مسؤولة أو بعض أجهزتها، عن سوء تدبير أحياناً وعن قصد أحياناً، أخطاء فادحة، يمكن أن تتحرك جماهير مؤيدة مخلصة، وأن تقوم بأعمال ذات طابع عنيف، تستفيد منه الفئات المعادية أو المعارضة، وإننا إذ نقول هذا بكل صراحة، فلكي يعمل المسؤولون بالتعاون مع جميع التقدميين على اتخاذ التدابير اللازمة لتلافي الآثار السلبية لأحداث الغاب، ولإعادة الطمأنينة إلى جماهير فلاحية واسعة في هذه المنطقة.

إن المصلحة الوطنية، مصلحة النضال لتوطيد الوضع ومجابهة العدوان الإسرائيلي الإمبريالي، لإزالة آثار عدوانه، تقتضي:

1- إطلاق سراح الفلاحين الموقوفين، والكف عن ملاحقة الفلاحين الملاحقين، والعمل لكشف وشل الأعداء الحقيقيين.

2- النظر بكل جدية وموضوعية إلى اعتراضات ألوف الفلاحين، والعمل على تحقيق ما كان منها عادلاً ومشروعاً وممكناً، وهذا يقتضي الاعتماد على مساهمة جماهير الفلاحين في هذه الأعمال، ومعاملتهم على قدم المساواة، ودون أي تمييز أياً كان نوعه.

3- الحزم في العمل لإنجاز أعمال الإصلاح مع المرونة في سائر أعمال التطبيق.

4- مساعدة الذين سينتفعون بالأرض، مع توفير الشروط اللازمة للانتقال بهم إلى مرحلة التعاون الإنتاجي.

5- العناية كما ينبغي بمحطة الآلات، ووضعها في خدمة الفقراء والفلاحين التعاونيين.

6- بناء مزرعة الدولة في الأراضي الجيدة، كي تلعب دور النموذج والمثل.

7- استبعاد الأرض الرديئة، ريثما يجري استصلاحها وتحضيرها، من عمليات التوزيع، خصوصاً على الفلاحين الفقراء والمعيلين، والاهتمام قدر الإمكان بتأمين العمل والأرض لألوف الفلاحين في الغاب، ممن لن يحصلوا على أرض حالياً.

هذه كلمة صريحة ومخلصة نقولها بمناسبة أحداث الغاب، وكل الأمل أن تساهم في حل مشاكل هذه المنطقة، وتفيد عند العمل لإنجاز قضايا الإصلاح الزراعي استيلاءً وتوزيعاً في المناطق الأخرى من البلاد.

أهدافنا الكبرى ومهماتنا الملحة[618]

يصدر العدد الأول من "طريق الفلاحين" بعد طول ارتقاب، ويحدث ذلك في ظروف تتميز بأمور كثيرة وخطيرة، فمن جهة عدوان إسرائيلي استعماري على بلادنا وبقية البلدان العربية ينبغي إزالة آثاره، ومن جهة ثانية نظام وطني تقدمي ينبغي الدفاع عنه والسير به إلى أمام، وذلك عبر تأييد إيجابياته ونقد سلبياته من خلال النضال العنيد لتوطيد منجزاته الاقتصادية – الاجتماعية ومكتسباته السياسية، ولتطوير هذه المنجزات والمكتسبات وتعميقها والسير بها إلى نهايتها. ويقتضي هذا من "طريق الفلاحين" أن تحدد أهدافها الكبرى بدقة ووضوح، وأن تُعيِّن المهام المطروحة أمام نضالنا، وترسم طرق تحقيقها وتنفيذها، ولن يكون ذلك أمراً عسيراً، وإن كان جدياً جداً.

"فطريق الفلاحين" التي نبدأ بها مرحلة جديدة على طريق نضالنا بين الجماهير الفلاحية الواسعة، هي استمرار لـ"صوت الفلاح"، التي ظهرت في سنوات الخمسينيات، وكانت صوتاً مدوياً في مقارعة الإقطاعية وسيدها الاستعمار. هي استمرار لهذا الصوت، لكن في ظروف جديدة أرقى وأفضل.

و"طريق الفلاحين"، التي نبدأ بها فصلاً جديداً في سجل نضالنا الفلاحي، تستند إلى تقاليد مجيدة وتجارب سابقة غنية داخلية وعربية ودولية، قام بها حزبنا الشيوعي السوري والأحزاب الشيوعية الشقيقة في جميع أنحاء العالم، كما تعتمد، وهذا هو الأهم الآن، على برنامج زراعي أقره المؤتمر الثالث لحزبنا الشيوعي السوري، الذي انعقد في أوائل حزيران عام 1969.

إن "طريق الفلاحين" مدعوة بالاستناد إلى ذلك كله:

1- للمساهمة على أوسع مدى في توجيه وقيادة المعركة، التي تستمر منذ سنوات لتصفية بقايا العلاقات الإقطاعية كلياً، وفي شتى المجالات: الاقتصادية والاجتماعية والسياسية أيضاً.

2- للسير في الطليعة مع المناضلين ضد الاستثمار الرأسمالي الكبير

---

[618]) افتتاحية كتبها دانيال نعمة في أواسط تموز 1971 للعدد الأول من (طريق الفلاحين) وهي النشرة الدورية التي أصدرها في دمشق المكتب الفلاحي التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري.

في الريف السوري، وللحد منه إلى أقصى مدى تسمح به الظروف الحالية.

3- وللعمل من أجل قطاع عام في الزراعة، يرتكز على بناء محطات للآلات، تساهم في نشر التعاون ومساعدة الفلاحين الفرديين فقراء ومتوسطين، ويعتمد على إقامة مزارع دولة إنتاجية ونموذجية.

4- وللنضال الواعي المستند إلى العلم والتجربة في نشر التعاون الزراعي على أوسع نطاق ممكن، بدءاً من التعاون في مجالَيْ التمويل والتسويق إلى التعاون الإنتاجي.

5- وللنضال العنيد من أجل استخدام منجزات العلم والتكنيك بصورة واعية ومبرمجة في الإنتاج الزراعي. وبكلمة أخرى، لإحداث ثورة زراعية في البلاد تكون في مصلحة الجماهير الفلاحية الكادحة وفي مصلحة المجتمع أيضاً.

وتدرك "طريق الفلاحين" أن الوصول إلى تحقيق هذه الأهداف يقتضي الاستناد إلى جهود وكفاح العمال الزراعيين والفلاحين الفقراء والمتوسطين، وكل أولئك الذين تتحقق مصالحهم القريبة والبعيدة بتصفية علاقات الاستثمار، إقطاعية كانت أم رأسمالية كبرى، كما يقتضي أن يتم نضال هذه الجماهير الواسعة الكادحة من خلال تحالف وثيق بينهما وبين جماهير العمال والمثقفين الثوريين في المدن.

كذلك تدرك "طريق الفلاحين" أن تحقيق هذه الأهداف يقتضي في رأس ما يقتضيه إقامة أوسع وأوثق تعاون بين الشيوعيين والبعثيين والاشتراكيين العرب وكل التقدميين الآخرين في الريف السوري، وذلك من خلال النقابات الفلاحية القائمة، أو بأي شكل آخر تتطلبه الظروف والأوضاع. ومن هذه المنطلقات ستعمل "طريق الفلاحين" لتكون أداة نضال واع ووسيلة تعاون فعال، وهي بهذا كله تكون قد ساهمت بقسطها الملقى على عاتقها في معركة إزالة آثار العدوان الإسرائيلي – الاستعماري، ومساندة الشعب العربي الفلسطيني في نضاله من أجل العودة إلى وطنه وتقرير مصيره على أرضه، وفي معركة الدفاع عن النهج الوطني التقدمي وحماية المكتسبات الاقتصادية والاجتماعية وتوطيدها وتطويرها، والسير بالبلاد في طريق التطور اللارأسمالي نحو الاشتراكية والوحدة العربي

إلى المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري[619]

الرفاق الأعزاء.

تحية رفاقية حارة وصادقة.

وبعد، أكتب إليكم حول موضوع أساسي ومبدئي يتعلق بتمثيل حزبنا في القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية.

لقد آن الأوان للإقدام على خطوة كان ينبغي القيام بها على الأقل منذ الانقسام الأخير في حزبنا الشيوعي السوري، الذي أقدم عليه الرفيق خالد بكداش حين عقد مؤتمره السادس في تموز عام 1986.

أيها الرفاق.

إنني لا أجد أيَّ مبرر مبدئي وسياسي إطلاقاً، كي لا يكون الرفيق الأمين العام هو الذي يشغل هذا المركز المسؤول في أعلى هرم في السلطة، على الأقل بروتوكولياً. وقد بحثت هذا الأمر أكثر من مرة مع الرفيق يوسف الفيصل، ومنذ عدة سنوات.

والآن أرى أنه لم يعد من المحتمل بالنسبة إلى الحزب، أو بالنسبة إليَّ شخصياً، عدم القيام بمثل هذه الخطوة.

لهذا أرجو قبول استقالتي من هذا المركز، وتكليف الرفيق يوسف الفيصل بأن يشغله بحق، باعتباره الأمين العام للجنة المركزية قبل كل شيء، ولجدارته به.

وفي حال إعطاء حزبنا مركزين في القيادة المركزية، فأرجو أن يقترح المكتب السياسي على اللجنة المركزية اختيار رفيق آخر غيري.

أيها الرفاق الأعزاء.

لقد بذلت خلال فترة وجودي في الجبهة الوطنية التقدمية كل جهد ممكن، كي أكون دقيقاً في تنفيذ سياسة الحزب والدفاع عن خطه الفكري والسياسي والتنظيمي، كما بذلتُ مثل هذا الجهد كي أخرج من الجبهة الوطنية التقدمية كما دخلتها، وقد أكون أصبتُ أحياناً، وأخطأت أحياناً،

---

[619]) رسالة وجهها دانيال نعمة إلى رفاقه في قيادة الحزب الشيوعي السوري بتاريخ 1992/1/4، طالباً فيها إعفاءه من تمثيل الحزب في القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية، وهي واحدة من مجموعة رسائل قام بتوجيهها للغرض ذاته في مراحل مختلفة، بدءاً من نهاية ثمانينيات القرن العشرين، وكانت طلباته هذه تجابه بالرفض من رفاقه.

لكنني مرتاح الضمير... وهذا ما يكفيني.

أيها الرفاق الأعزاء.

إنني صادقاً ومخلصاً أشكر جميع الرفاق في المركز والمناطق على المساعدات التي قدموها لي في ميدان عملي الحزبي هذا، وفي سائر الميادين. كما أشكر خصوصاً أولئك الذين نبهوني بمواقفهم في المؤتمر السابع الموحد إلى ضرورة العودة إلى العمل الحزبي في ميادين أخرى، خارج إطار الجبهة الوطنية التقدمية.

وفي الوقت ذاته، فإنني سأبذل جهدي، طالما بقيت حياً، كي أبقى بالنسبة إلى المثل والمبادئ والقيم التي ناضلت في سبيلها طوال ستة وأربعين عاماً، كما كنتُ منذ أن انتسبت إلى الحزب في أواسط أيار عام 1945، أي يوم كنتُ في العشرين من عمري، قمة عنفواني وحماستي واستعدادي لكل تضحية.

وختاماً، لكم جميعاً عميق شكري وامتناني.

ومع أطيب التحيات.

دمشق في 1992/1/4

دانيال



صورة الرسالة التي وجهها دانيال نعمة إلى رفاقه في قيادة الحزب الشيوعي السوري لإعفائه من عضويته في القيادة المركزية للجبهة



الأخبار

جريدة اسبوعية سياسية

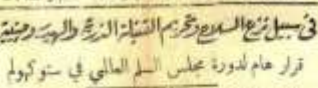
الغضبة الشعبية ضد الأوتوستراد الحربي تعم جميع الأوساط والمناطق اللبنانية

وفد سوريا الى مجلس الجامعة العربية يجب ان يعبر عن ارادة الشعب السوري في مقاومة حلف تركيا الباكستان وكل ارتباط او تحالف مع الغرب !



لبنان وسوريا وكل البلدان العربية تتلقى نبأ وفاة فيشنسكي بألم عميق





في سبيل نزع السلاح وتحريم القنابل الذرية والهيدروجينية

قرار هام لدورة مجلس السلم العالمي في ستوكهولم

طلاب لبنان يتضامنون مع نضال الشعب العربي ضد الاستعمار

مغزى موقف حكومة مصر من اجتماع اللجنة السياسية العربية

انعقد المؤتمر الوطني الاول لشباب الارياف في سوريا

تظاهرات شعبية في انحاء سوريا





معركة الحرية والاستقلال في مصر

طالع

صورة العدد 22 من جريدة (الأخبار)، الصادر في 28 ت2 1954، وفيه خبر عن انعقاد المؤتمر الوطني الأول لشباب الأرياف في سورية، والذي كان دانيال نعمة أحد المساهمين الأساسيين فيه



النور

المذكرة الاميركية لسوريا

تصريحات هامة لخالد العظم

هذه الجريدة...

الاستياء من موقف الحكومة إزاء حلف السعد مندريس يشمل جميع الاوساط الوطنية في كل لبنان

النور

شعر : شوقي بغدادي

صورة العدد الأول من جريدة (النور)، الصادر يوم الجمعة في 11 أيار من عام 1955، وقد كان دانيال نعمة عضواً أساسياً في هيئة تحريرها منذ لحظة صدورها

الفلاحون

في حلبة النضال الوطني والديموقراطي

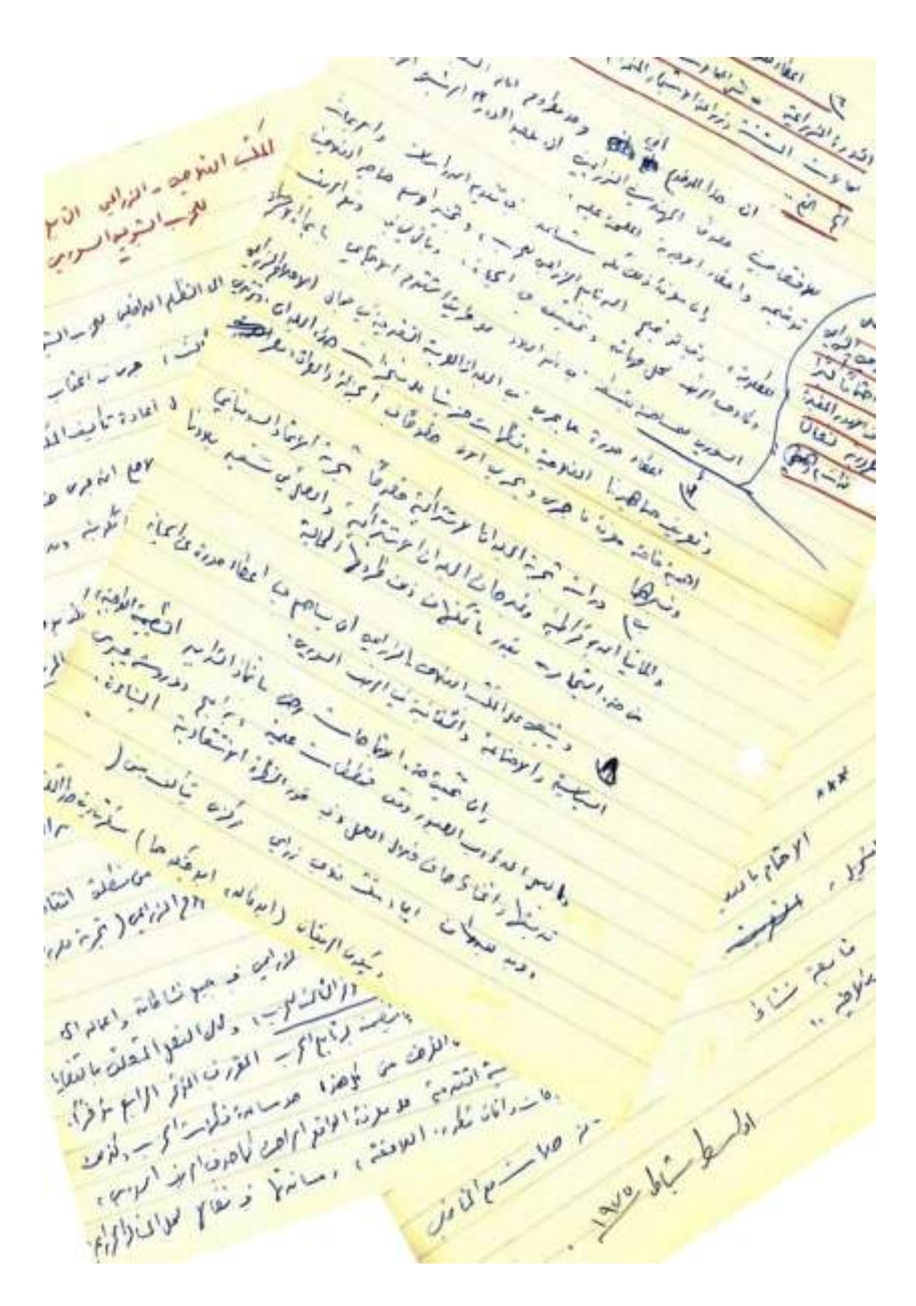
بقلم المحامي دانيال نعمه

اللاذقية ٩ أيار سنة ١٩٥٤

صورة مقالة لدانيال نعمة، عنوانها (الفلاحون في حلبة النضال الوطني والديمقراطي)، نشرتها جريدة (الصرخة) اللبنانية المقالة أرسلت من اللاذقية للنشر في 9 أيار عام 1954



بعض أخبار النضالات الفلاحية في قرى الجبل العلوي



وثيقة تعود إلى شهر شباط من عام 1975، وفيها يضع دانيال نعمة تصوراً عن مهام المكتب الفلاحي الزراعي الذي كان يشرف على عمله

المشروع الثاني المعدل

ايها الرفاق والرفيقات الاعزاء اعضاء المجلس الوطني الموقر وضيوفه المحترمون.

بعد ترقب وانتظار مشروعين، وتتويجا للكثير من الجهود المكثفة والمثمرة، ينعقد اليوم مجلسنا الوطني الذي نأمل منا أن يكون باعماله، وبنتائجه، حدثا بالغ الاهمية ليس [illegible] المحض، وانما على الصعيد الوطني.

[illegible] النظام

٢. كحدث وباستعداده له [illegible].

١. مشروع قرار اولي

نحو الذكرى السبعين.

مدخل الى الموضوع

في الرابع والعشرين من شهر تشرين الاول لهذا العام تحل الذكرى السبعون لتأسيس الحزب الشيوعي السوري: حزب العمال والفلاحين وسائر الكادحين بسواعدهم وادمغتهم، حزب الشعب والوطن.

لقد تعود الشيوعيون واصدقاؤهم على استقبال كل ذكرى سنوية لميلاد حزبهم على نحو لائق وبكثير من البهجة والفرح وكثير من الاعتزاز والثقة بالمستقبل. وفي هذا العام فهم سوف يستقبلونها ايضا بمثل هذه المشاعر هذا من جهة وبكثير من التصميم والارادة والتحدي من جهة ثانية. فهي ذكرى تأتي، فضلا عما سبق، في ظروف التغيرات الدولية المعروفة، وفي اعقاب انهيار الاتحاد السوفياتي والانظمة الاشتراكية في بلدان اوروبا الشرقية وما رافق ذلك وما تلاه وتبعه من توجهات وانتكاسات في الفكر الاشتراكي ومن هجمات على [illegible]

الفهرس

صدر للمؤلف



1- الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان (1920 – 1945)، دمشق 1973.
2- الحركة العمالية في سورية ولبنان (1900 – 1945)، دمشق 1973.
3- الحركة المناهضة للفاشستية في سورية ولبنان (1933 – 1945)، بيروت 1975.
4- القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان (1820 – 1920)، الجزء الأول، بيروت 1975.
5- القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سورية ولبنان (1920 – 1945)، الجزء الثاني، بيروت 1975.
6- حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، نموذج لحياة المدن في ظل الإقطاعية الشرقية، بيروت 1985.
7- تحت عنوان: (ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري)، إصدار الاتحاد العام للفلاحين في عام 1986، صدر للمؤلف ثلاثة مجلدات: (1943 – 1959) هي:
أ- المسألة الزراعية والحركات الفلاحية من الاحتلال العثماني حتى الاستعمار الفرنسي.
ب- المسألة الزراعية والحركات الفلاحية في مرحلة الحكم البرجوازي الإقطاعي.
ت- دراسات ميدانية عن حياة الفلاحين ونضالهم خلال النصف الأول من القرن العشرين.
8- من الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان – النصف الأول من القرن العشرين، دار الأهالي، دمشق 1987.

9- عبد الرحمن الشهبندر (1879 – 1940)، عَلَم نهضوي ورجل الوطنية والتحرر الفكري، دار الأهالي، دمشق 1989.
10- العامية والانتفاضة الفلاحية في جبل حوران (1850 – 1918)، دار الأهالي، دمشق 1990.
11- النهضة والاستبداد، دار الأهالي، دمشق 1994.
12- المثقفون في السياسة والمجتمع (الأطباء)، دمشق 1996.
13- المجتمعان الأهلي والمدني في الدولة العربية الحديثة (1850 – 2000)، دار المدى، دمشق 2001.
14- ديرعطية: التاريخ والعمران من الوقف الذري إلى المجتمع المدني (أواخر القرن الثالث عشر – منتصف القرن العشرين)، إصدار المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق 2002.
15- الفلاحون وملاك الأراضي في سورية في القرن العشرين، دار الطليعة، بيروت 2003.

-16 Agricultural problem in Syria from the early 19th century to 1945, M.E.S series No16, Institute of Developing Economies, Tokyo – Japan,1985.

-17 Ideologies in the Arab East since the end of the 19th century, V.R.F series No 158, Institute of Developing Economies, Tokyo – Japan, 1989.

18- طرائف الأمس غرائب اليوم أو صور من حياة النبك وجبل القلمون في أواسط القرن التاسع عشر، لمؤلفه يوسف خنشت، تحقيق الكتاب: عبد الله حنا، وزارة الثقافة.
19- ذكريات النقابي جبران حلال، دمشق 2005.
20- الحركة الشيوعية السورية الصعود والهبوط، 2008، دار نون-4.
21- الفلاحون يروون تاريخهم في سورية القرن العشرين، 2009، دار نون-4.
22- أعلام العقلانية والتنوير ومجابهة الاستبداد في عهد الصعود النهضوي والحنين إلى أيام عبد الحميد في عهد الهبوط، 2010، دار نون-4.
23- صفحات من تاريخ الأحزاب السياسية في سورية القرن العشرين وأجواؤها الاجتماعية، مع مختارات من يوميات السجين أحمد سويدان، مخطوط قيد الطبع.
24- الاستبداد السلطاني لعبد الحميد متستراً بعباءة الخلافة بين مؤيديه ومعارضيه، مخطوط قيد الطبع.

توضيح يصلح خاتمة

دانيال نعمة، الطالب الشيوعي الناشط في الجامعة السورية – كلية الحقوق، ردّ على سؤال جريدة (العلم) الدمشقية في 3 أب 1949 الموجه إلى الخريجين:

- لو أتيح لك أن تَحكُم العالم 48 ساعة، فماذا تفعل؟

أجاب:

- إنني أكره أن أحكم وحيداً في بيتي ووطني، فكيف لا أكره أن أحكم وحيداً في العالم، لكن لو صدق هذا الحلم، لأفهمت شعوب الشرق أنني حكمت الاستعمار بالإعدام، وشعوب العالم أنني حكمت الاستثمار بالإعدام، ولتركت مهمة التنفيذ لهذه الشعوب.

هذا الكتاب (من الجبل العلوي إلى عاصمة بني أمية... دروب الكفاح للطلائع اليسارية ودور دانيال نعمة ورفاقه 1945 -1970) يتناول الواقع الاجتماعي الاقتصادي في الجبل العلوي (فيما يعرف اليوم بالساحل السوري) في النصف الأول من القرن العشرين، وكيفية استجابة هذا الواقع للفكر النهضوي العربي، وظهور التيارات الوطنية اليسارية المتزامنة مع النهوض الوطني العام في الأصقاع السورية. وبحكم البيئة الريفية أولى الكتاب أهمية خاصة للحركة الفلاحية، التي كان للحزب الشيوعي السوري، ولدور المحامي الشيوعي دانيال نعمة فيها، القدح المُعلّى فيها، مستعرضاً وموثقاً دور الوعي الوطني في تحجيم الانتماءات الطائفية والعشائرية والسير في طريق الوحدة الوطنية السورية والعروبة الجامعة.

المؤرخ الماركسي الدكتور عبد الله حنا وضع نصب عينيه كشف العلاقة الجدلية بين ثلاثية الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية الداخلية، والتراث العربي الإسلامي، والعامل الخارجي الأوربي بجناحيه البورجوازي والاشتراكي. ونخص بالذكر هنا مؤلفه الهام الصادر عام 2008 بعنوان (الحركة الشيوعية السورية - الصعود والهبوط)، وهو على صلة وثيقة بهذا الكتاب. وقد شاء المؤلف أن يركّز الاهتمام في هذا الكتاب على مرحلة صعود الحركة الشيوعية في أحد معاقلها في (الجبل

العلوي)، الذي عاش في كنفه دانيال نعمة، حاملاً على كتفيه هموم الفلاحين، وساعياً لتحريرهم من الظلم والاستعباد.

ومما يعطي للكتاب أهمية أكاديمية هو نهل المؤلف من ثلاثة ينابيع

- النبع الأول الوثائق المكتوبة من صحف ومجلات وكتب ومذكرات... إلخ. وقد لعبت جريدة (الصرخة) الأسبوعية اللبنانية الشيوعية، التي كانت توزع في سائر أنحاء سورية، منقولة من طرابلس سراً عبر النهر الكبير الشمالي إلى عدد من قرى ريف صافيتا، وصولاً إلى كل أرجاء محافظة اللاذقية، دوراً كبيراً في شحذ الهمم وتوحيد صفوف المناضلين. ولا تخفى المساعدة اللامحدودة والمتفانية، التي قدمها الرفاق الشيوعيون اللبنانيون إلى رفاقهم السوريين.

- النبع الثاني عدد كبير من أوراق منظمة الحزب الشيوعي في الجبل العلوي ومحاضر جلسات المؤتمرات الفلاحية والطلابية، التي وضعها لؤي بن دانيال نعمة تحت تصرف المؤلف .

- النبع الثالث التاريخ الشفوي، الذي جمعه المؤلف الدكتور عبد الله حنا، أثناء جولاته الميدانية في الأرياف السورية في منتصف ثمانينيات القرن العشرين، إضافة إلى لقائه بعدد كبير من الشيوعيين الناشطين في تلك الأيام. وهذا التناغم بين التاريخ المكتوب والشفوي أثرى الكتاب، وأضفى عليه نكهة تنبض بالحياة .

قُدِّمَ مخطوط هذا الكتاب إلى وزارة الإعلام السورية صيف عام 2009 لأخذ الموافقة على الطباعة، فجاء الجواب بالرفض، وقُدِّم مرة ثانية في ربيع عام 2010، فحوَّلته وزارة الإعلام إلى القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي لأخذ رأيها، وعاد الجواب إلى الأعلام برفض الموافقة على الطباعة، ويبدو أن بعض دوافع الرفض، التي كانت تدور في مخيلة بعض المراقبين أو المتنفذين، هي كما همس أحدهم:

(المبالغة بدور الصراع الطبقي والتمايز في المجتمع السوري... وضرورة عدم الإساءة إلى عائلات كانت في فترة ما محسوبة على الإقطاع واليوم هي من أهل الحل والعقد).

وقد جَنَح أحدهم إلى القول علناً بعدم وجود مشكلة طائفية أو عشائرية في سورية، وهي المشكلة التي يتناولها المؤلف في (مخطوطه!)، نافياً عن المؤلف علمانيته!

وهكذا نُيِّمَ المخطوط في أدراج وزارة الإعلام، كما كانت تُنيّم المخطوطات، التي تلامس الواقع المضطرب، وتحاول الكشف عن النيران المشتعلة تحت الرماد .

وبفضل هدير التحركات الشعبية المندلعة في آذار 2011، وما رافقها من أحداث، فُتِح يوم 28 آب 2012 باب النشر، بعد موافقة وزارة الإعلام على طباعة المخطوط.

وبسبب الوضع المالي والظروف المعروفة، لم تُتَح آنذاك طباعة المخطوط، فانتظرنا الفرج.

واليوم ارتأينا، وفق مبدأ (إذا غاب الماء جاز التيمم)، طباعة الكتاب بنسخ محدودة، برعاية كريمة من (دار الفارابي)، ونشره بمناسبة الذكرى العاشرة لرحيل المناضل الوطني العربي السوري والقائد الشيوعي المخضرم دانيال نعمة، آملين أن تمكننا الأيام من إعادة طبعه على نطاق واسع.

الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لأحداث سورية مُغيّبة هذه الأيام في زحمة التأثيرات الخارجية والإقليمية وضجيج قرع طبول رافعي رايات المذهبية والطائفية.

ويرتدي هذا الكتاب أهمية خاصة في إلقائه الأضواء على بنية المجتمع السوري، التي أسهمت في سطوع عصر سورية الذهبي في خمسينيات القرن العشرين، فسمات البنية الاجتماعية لسورية (والجبل العلوي جزء منها) في منتصف القرن العشرين أفرزت الظواهر التالية

- حركة فلاحية مناهضة للإقطاعية.
- حركة عمالية في طور التكوّن والصعود.
- برجوازية وطنية صناعية منتجة وثيقة الصلة بالنشاط الحرفي ذي التقاليد العريقة.
- شرائح مثقفة تنهل من معين الفكر البورجوازي الثوري والفكر الاشتراكي الماركسي.

ولأسباب كثيرة، لا مجال لذكرها هنا، قادت جملة عوامل إلى ضمور الوهج الفلاحي والعمالي والبورجوازي المنتج، مما أسهم في هبوط الحركة الشيوعية، وصعود برجوازيتين هجينتين بيروقراطية وطفيلية سلكتا نهجاً مغايراً، وطبعتا، إلى حدّ بعيد، النظام بطابعهما

وأخلاقيتهما. ولا حاجة إلى القول إن لهاتين البرجوازيتين الهجينتين مسؤولية كبيرة، إضافة إلى الأجواء المعروفة، ومنها الدور السلبي للإسلام السياسي النفطي البترو دولاري والعوامل الإقليمية والدولية، في الوصول إلى المأساة التي تعيشها سورية في هذه الأيام الدامية.

دانيال نعمة الذي رافق وعاش مراحل الصعود وعاش مراحل الانكسار والهبوط لعموم الحركة الشيوعية العالمية والسورية عرف خلالها التشرد والسجون والمنافي قبل أن يصبح له عنوان ... وظلت كلماته تشي بإيمان عميق بالناس وقدرتهم على التغير دائما وهذا الإيمان والتفاؤل لم يفارقه لحظة واحدة... فقبل رحيله بأسابيع قليلة، أي يوم السبت 2003/10/11 كتب لرفيق دربه عبد الكريم أبا زيد (صاحب زاوية "دبابيس" الشهيرة في جريدة "نضال الشعب"، وثم في جريدة "النور" التي كان يرأس تحريرها دانيال ...) على مخطوط مادة معّدة للنشر في زاويته، وعنوانها "الاشتراكيون في العالم الثالث"، ما يلي: "هذه المادة الجميلة جداً والمعبرة عن الواقع في أدق تفاصيله، تحتاج إلى أن تكون أعلام الديمقراطية مرفرفة في أجواء الوطن، كي تستطيع أن تأخذ طريقها إلى النشر".

الآن، والدولة السورية الوطنية الديمقراطية البرلمانية المدنية، التي شُيّدت في منتصف القرن العشرين، تتعرض اليوم للانهيار... دولة بنتها سواعد النهضويين والوطنيين من مختلف الاتجاهات السياسية والمشارب الفكرية، وجعلت تلك السواعد من عاصمة الأمويين حصنها الحصين، تتعرض تلك الدولة اليوم لأخطار محوها من قوى متنوعة... وكلنا أمل أن تتمكن القوى الوطنية وريثة أمجاد يوسف العظمة وعبد الرحمن الشهبندر وإبراهيم هنانو وسلطان باشا الأطرش وصالح العلي من الوقوف في وجه هذه الأمواج العاتية، واستعادة الدولة الوطنية المدنية البرلمانية، التي كرّسها دستور الجمعية التأسيسية لعام 1950.

لجنة النشر

صورة الغلاف الأمامية:

دانيال نعمة مشاركا أهل قرية الدالية – اللاذقية في تشيع شهيد الحزب الشيوعي السوري الدكتور عبد الرحمن هلال ... يوم 1981/5/28.

الطبيب الشهيد عبد الرحمن هلال، ابن الـ 36 عاماً، أصيب بستة رصاصات في محاولة اغتيال في عيادته الخاصة، يوم 1981/4/15 واستشهد فيها خمس من مرضاه ..، وفارق الحياة متأثرا بجراحه يوم 1981/5/20 في بلغاريا بعد فشل كل محاولات إنقاذه.

في الصورة دانيال متحدثا إلى والد الشهيد بين أبناء القرية وفلاحيها، ويرى في يمين الصورة الرفيق جبران الجابر.

صور الغلاف الخلفية:

الصورة العلوية- جولة اطلاعية لدانيال، في مطابع جدانوف الشهيرة في موسكو في 7 نيسان 1971، ومعه عدد من العمال والنقابيين والرفاق السوفييت.

الصورة السفلية- أثناء زيارة لتعاونية إنتاجية زراعية في جمهورية ألمانيا الديمقراطية تموز 1966، ويرى إلى يسار دانيال في الصورة الرفاق داوود حيدو ومشهور غريبة وعبد العزيز معتوق.



مهزلة الانتخابات في الجبل العلوي.

هذه هي المهزلة تلك المؤامرة التي سماها الحكام انتخابات. فجميع الفلاحين لمسوا لمس اليد مدى جرائم الحكام في هذه "الانتخابات". فلقد كانوا عرضة لابشع انواع الضغط. فما من قرية من قرى الجبل الا وزارها الدرك و"المسؤولون" وارهبوا اهاليها بشتى الوان الارهاب. وما من قرية الا وتعرضت لضغوط الاعوان ومخابراتهم وبشتى انواع المخالفات الاخرى مما يجيد ابتكارها زبانية الحكام الطغاة.

إن جميع الفلاحين ادركوا منذ بداية المعركة ان هذه الانتخابات انما هي ستار اراد به اعداء الشعب ان يستروا وجوههم الحقيرة وجه العبودية امام المستعمرين ووجه العداء امام العمال والفلاحين ومجموع الجماهير الشعبية. [illegible]

لقد ارغم نضال الفلاحين الحكام على الكشف عن حقيقتهم هذه الحقيقة التي تتمثل في تأييد وشد ازر الاقطاعيين ناهبي خيرات الجبل والد اعدائه واطوع خدم للاستعمار في كل العهود. وبذلك زادوا في عزلة هؤلاء الحكام ومن هم من اقطاعيين مجرمين.

لقد اقر الحكام المجلس الحكمي كما يريدونه ويريده الاستعمار، ولكنه هذا [illegible] مجلسا [illegible]

انه مجلس الاقطاعية وخدم المستعمرين [illegible]

ولذا فان اتحاد الفلاحين يهيب بجميع فلاحي الجبل على اختلاف العقائد والميول الى تشديد النضال ضد هذا المجلس [illegible] من ان يكون الاداة الطيعة بيد [illegible]

ولذا فان اتحاد الفلاحين يهيب بجميع الفلاحين والاعتماد على قواهم وقوى جميع حلفائهم [illegible] النضال من اجل فرض حقوقهم ومن اجل بناء حياة افضل وحسن لجميع الفلاحين.

